

تاريخ الأدب العربي

في

العصر العباسي

بغير الاندلس والمغرب



بقلم

أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى

مدرس أدب بدار العلوم

الطبعة الثانية

حق الطبع للمؤلف

١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م

مطبعة العلوم شارع الخليل بجدة لاظ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العصر العباسي

١٣٢ - ٦٥٦ هـ

تصوير عام

للحال السياسية في هذا العصر الطويل

دالت الدولة الأموية، وآلت إلى العباسيين والعرب فريقان: فريق يحن إلى الدولة الدائلة، ويود أن لو عاد الزمن بهاء إلى الأعقاب، وآخر يرى أن مافعله العباسيون من استئثارهم بالخلافة على أبناء عمهم العلويين ذوي الحق الأصيل افتراء وطغيان^(١)، فكان من الطبيعي حينئذ أن يولوا وجهة الدولة الجديدة عن العرب، إلى غيرهم في تثبيت قواعدها، وتصريف شئونها، ولم يك هناك غير سوى الفرس، وإن كانوا في عقيدتهم علويين،

(١) يزعم العباسيون أنهم أحق بالخلافة من أبناء علي، لأنهم فوق ورائهم للعباس «وإرث النبي في عمومته دون أبناء علي من فاطمة ومن غير فاطمة بالأولى» قد تنازل لهم عن حقهم في الخلافة هؤلاء إلا أبناء ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب نزل مقيما بقرية الحريمة بالشرقة من الشام لدى علي بن عبد الله ابن العباس، وحين دنت وفاته عنده تنازل له عن هذا الحق الذي آل بعد علي إلى ابنه محمد فأقام الدماء وجعل عليهم النقباء ومرحهم إلى خراسان. ولكن العلويين ينكرون هذا التنازل ومن اعتمد به منهم يجعله حجة على أبناء علي من محمد بن الحنفية دون أبنائه من فاطمة البتول.

ذلك لأنهم انساقوا في تيار السلطان الجديد، ولو إلى حين، وبهذا تبدلت الدولة من عربية محضة، إلى عربية يشوبها سلطان الفرس مع سلطان الخلفاء؛ ثم كان أن أسست عاصمتها الجديدة «بغداد» في أحضان الفرس، فكان ثم زيادة في التجاور واختلاط، ولكن سلطان الفرس على ماصار له من نفوذ، لم يقو أن يتغلب في القرن الأول على سلطان الخلفاء، لقوة شخصيتهم، وفتوة دولتهم؛ والتاريخ لا يزال يحدثنا بما كان من فتك المنصور بأبي مسلم، وفتك الرشيد بالبرامكة، احتفاظا للخلافة بالنفوذ؛ ولذا عرف هذا القرن الأول، بعصر سيادة الدولة، واكتمال السلطان. غير أنه حدث في آخره حيث آلت الخلافة إلى المعتصم أخى المأمون أن عمده بحكم فتوته، وقوة بدنه، وانسياقه لاشباع هذا النهم الجسمي، بأعمال الرياضة والفروسية، إلى عدد من الأتراك الخدم، جعلهم في هذا النوع من اللهو مخالطيه ومعاونيه، وانساق في سبيل الاستكثار منهم، حتى بلغوا كما قال المؤرخون: السبعين ألفا، وصار لهم في بغداد شغب واعتداء جأر له أهلوها بالشكوى منهم والاشتمزاز. وكأنه قد وجد بغداد لما فيها من جد الأمر، ومهام الشئون ملهية له وهؤلاء، أن ينساقوا في هذه السبيل الرياضية، إلى حيث يريدون، فهجروا بهم إلى مدينة أسسها هذا الضرب من المجون، هي مدينة «سر من رأى» أو كما قد يقولون «سامراء» فابتعد بهذا أن يلي أمور الدولة عن كשב، كما ينبغي أن يكون، وبدأ نفوذ الخليفة يتراجع فيها إلى البراء، بقدر ما عظم نفوذ الفرس المرحبين بهذا الانصراف؛ ولكن الطبيعة قضت أن يستفيد أولئك الخدم الأتراك بحكم اقترابهم من الخليفة جاها ونفوذا، وما هو إلا

أن عملوا على مشاركة الفرس في النفوذ، ثم ما هو إلا أن استلبوه منهم، واستبدوا به عليهم؛ ولقد زاد من نفوذ هؤلاء، بقدر ما أضعف من نفوذ الفرس، مجيء المتوكل على الله سنيا متشددا، وإيغاله في حرب الشيعة الذين كان المأمون على مذهبهم، وجاء من بعده غير معارض لهم، المعتصم، والواثق - والفرس كما علمت متشيعون مغرقون - نحات المتوكل وان شئت فقل للخدم الأتراك الساطرة في بغداد، واعتبر هذا عصرا ثانيا هو عصر الخدم أو العصر التركي الأول، وجعل مبدؤه تولى المتوكل على الله سنة ٢٣٢ .

لم يقف هؤلاء الخدم طوال القرن الثاني من الدولة في الاستبداد بأمورها عند حد، فتناول طغيانهم أكثر مما تناول أشخاص الخلفاء، وأول ما حدث من فظائهم حدث المتوكل على الله، فانهم جردوه من كل سلطة، وكان قد فقد النصير من الفرس لاشتهاده في محاربة التشيع، وإذ حاول الإبقاء على شيء من هيبة الخلافة، فأمر وامن ابنه المنتصر على قتله وقتلوه، فكان هذا فتحا لطريق جديدة في التخلص من الخلفاء، وتوالت بعد هذا الحداث أحداث في التعذيب والتقتيل، والمعدن بون المقتلون بم عزل عن المعين والنصير^(١)، حتى فقدت بغداد مكاتمتها وانصرف الناس عنها بعد انصرافهم إليها، وحدثت الأمراء والولاة نفوسهم أن يستبدوا على الخلافة بما في أيديهم من أرضين فأخذ النفوذ يتقلص عن بغداد إلى الأقاليم حتى أقفرت من كل خير وصلاح، وزخرت بكل مافي الطوق

(١) قتلوا المعتز بجره من رجله خارج الدار وضربه الضرب المفضى إلى الموت بعد إيقافه في الشمس يضع رجلا ويرفع أخرى من شدة الحر.

من شر وفساد، وحمل خوف الخلفاء من أولياء العمود، وخوف أولياء العمود من الخلفاء، أن يستكثر كل فريق من أولئك الخدم ليكونوا عليه حراساً، وله جواسيس، وفعلوا كل حق عجت بغداد بجيوشهم، وصار من استعان بهم العوبة في أيديهم^(١)، وامتد بهم الزمن على هذا السوء قرن ضعف للدولة، وفتور أعقب قرنهما السالف، قرن الفتوة والباطان، وما زالت الحال على هذا النسق من البوار، حتى طمعت إحدى الدويلات الناشئة من هذا الضعف بالأقاليم، وهي دولة آل بويه في تخلص بغداد منهم، فخلصتها أيام المستكفي بالله، سنة ٣٣٤هـ وبدأ بذلك عصر عباسي ثالث، هو عصر الأوطان السياسية أو الدويلات.

مهد العصر العباسي الثاني وهو عصر الضعف والاستسلام لتفكك أوصال الخلافة، واستبداد ذوى النفوذ في الأقاليم، فلم يكديت نصف قرنه حتى بدت بوادر الانسلاخ عن الدولة على أيدي عدد من الأسر المختلفة الأجناس، وإن بقي معظمها لا كلها يدين بالمظهر الديني لخلفاء بني العباس. فمن الأسر الفارسية :-

السامانيون فيما وراء النهر من سنة ٢٦١ - ٣٨٩ هـ

والبويهيون بفارس والعراق من سنة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ

ومن التركية :-

(١) يؤيد ذلك ما رواه الفخرى عنهم من أنه لما تولى المعتز، أحضروا المنجمين وقالوا لهم: - انظروا كم يبقى الخليفة في الخلافة وكم بعيش؟ وكان في المجلس أحد الظرفاء. فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، قالوا فكم تقول؟ فقال: « ما أراد الأثرالك » فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.

الأخشيديون بمصر من سنة ٣٢٣ — ٣٥٧ هـ
والغزنويون بأفغانستان والهند من سنة ٣٥١ — ٥٨٢ هـ
ومن العربية :-

الحمدايون بالشام من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ
والفاطميون بمصر من سنة ٣٥٧ — ٥٦٧ هـ

وقد شاء تغلب القوى على الضعيف، أن ينمحي معظم الدويلات
ما ذكرنا وما لم نذكر، على أيدي ثلاث منها تحولت إلى دولات، هن الغزنوية،
وقد تغلبت على السامانية وغيرها في تلك الأصقاع، والفاطمية، وقد
تغلبت على الحمداية بعد أخذها مصر من الأخشيديين، ثم البويهية
وقد تغلبت على بغداد سنة ٣٣٤ فاعتبر هذا بدء العصر العباسي الثالث
كما ذكرنا (١) وفيه خضع المسلمون لنفوذ الأتراك شرقا والغرب غربا،

(١) جد البويهين الأقرب بويه أبو شجاع ويرجع نسبهم إلى ملوك
الفرس القدماء ويعرفون بالديلم لسكنائهم البلاد المعروفة بهذا الاسم من قديم
وقد أنجب بويه هذا في ثلاثة أنجاد، هم علي وحسن وأحمد، نبغوا في الفروسية
وأعمال الجيوش وتقدموا إلى الدولة باقطاعهم الأرضين أيام الراضي بالله المتوفى
سنة ٣٢٩ فكان علي في فارس وحسن بخوارزم وأحمد بشيراز ثم اتفقوا لثلاثتهم
على تخليص بغداد من أيدي الأتراك فساروا إليها ودخلوها أيام المستكفي بالله
فرحب بهم ولقب عليا عماد الدولة وحسنا ركن الدولة وأحمد معز الدولة ثم كان
أن بقي معز الدولة ببغداد بلقب أمير الأمراء واستمر هذا اللقب للقائم منهم
بعده في بغداد إلى أن جاء عضد الدولة فأخذ لقب الملك وكذلك كان من بعده
نبا إلى أن أخذها السلاجقة الأتراك .

والفرس وسطاء، وبقي ذلك قرناً وبعض القرن حيث دخل السلاجقة الأتراك بغداد سنة ٤٤٧ فبدأ العصر العباسي الأخير.

لم تكد الدولة البويهية والفاطمية والغزنوية تم القرن الأول من حكمها، حتى تمخض التاريخ عن دولة عظيمة هي الدولة السلجوقية، التي أنشأها رجلها الأول سلجوق بن بكبك بالتركستان سنة ٤٢٩، ولما شاهد ضعف آل بويه في بغداد، طمع في اكتساح الممالك الإسلامية، وتقرب إلى المسلمين قبل هذا الاكتساح، بأن أسلم هو وأسرته ورجاله ثم تقدم إلى الغرب زاحفاً حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ فكان هذا إيذان العصر العباسي الأخير، الذي مكث أكثر من قرنين، إذ بقوا بها إلى حيث أخذ التتار منهم وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٦.

ومن جسام الأحداث التاريخية في هذا العصر: اختلاط الغربيين بالمشاركة لقيام الحروب الصليبية وانتهائها بتأسيس عدة إمارات بسورية وفلسطين مكثت نحو قرن من الزمان، ثم تدفق عرب الأندلس إلى المغرب والمشرق بما تتابع وقوعه عليهم من اضطهاد وتعذيب. تلك هي الحال السياسية العامة للعصر العباسي ومنها ترى أنه أربعة عصور لا يستحق هذه النسبة منها إلا العصر الأول، عصر نفوذ الخلفاء. وهذا هو الطابع العام لكل عصر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم وما إلى الآداب والعلوم.

طابع كل عصر وأثره العام

في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم

لقد كان لتلون العصر العباسي بتملك الألوان السياسية التي حولته أربعة عصور، الأثر الظاهر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم.

« العصر الأول »

ففي العصر الأول عصر قوة الخلافة وسلطان بغداد، كان الخلفاء مصدر أدب وعلم، كما كانوا مصدر سياسة ونفوذ.

فهم أهل كفاح وجلاد في تثبيت سلطان الدولة الجديدة، تامحه في إشراع الرماح، وإشهار السيوف، وتسمعة في الخطب تقذف اللحم وتطير الشرر، وتقرؤه فيما يصدر من رسائل دامغة الحجة مفحمة البرهان، ولذا كان عصر خطابة وكتابة وكان رجاله كتابا وخطباء.

وهم أهل حذق للأدب ومعرفة بالغة بفنون يروون الشعر وينقدونه، ويستمعون للشعراء ويجزلون لهم العطاء، ويورثون بينهم نار التنافس والتسابق بما يبينون من فاضل ومفضول، ولهذا تراهم على أبوابهم الشعراء من عامة الأقطار، فكانت للشعر نهضة كثر فيها القصيد وجاد.

ثم هم أهل علم يخالطون العلماء مخالطة حوار ونقاش، عارفين لقيمتهم، حافظين لمكاناتهم، حافزين لهم، مشجعين إياهم على مد الدولة الجديدة بما تتطلبه حضارتها من علوم وفنون منذ عهد خليفتهم الثاني أبي جعفر المنصور، ذلكم العبد الخضم، الذي لم يأل جهدا في وضع الأساس لإنشأة العلوم المختلفة من شرعية ولسانية، وفلسفية وقفاء من بعده خلفاؤه الأقربون وناهيك. بالرشيد والمأمون حتى عد هذا العصر عن جدارة

واستحقاق عصر النهضة العامة في متنوع العلوم والفنون، وإنه لعجب حاجب تمكن العرب فيه أن ينقلوا إلى لغتهم جل علوم الفرس واليونان والهند بفضل ما خلفائه من تنشيط حركة الترجمة وإغداق العطايا على النقلة والمترجمين^(١).

ومما يعد مظهرا جديدا في هذا العصر، ما صار الموالي فيه من رفعة شأن، ومعرفة قدر، بحكم ما لهم من فضل تأسيس الدولة، ومعاونة خلفائها في النهوض بها، بعد الذي كانوا يلاقونه على العهد الأموي من جفوة واحتقار، بل تعذيب واضطهاد^(٢)، فصاروا ينفسون عن أنفسهم

(١) كان المنصور من أحسن رواة الحديث وكان ذا ذوق في الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق ثم كانت له دفاتر علم اشتد حرصه عليها حتى أوصى عند وفاته ابنه المهدي بها.

وكان الرشيد أكثر سادقيه رغبة في العلم كما كان حفاظا للشعر تقادا للشعراء. وكلاهما كان ذا فضل على الترجمة، الأول من حيث الابتداع والإيجاد والثاني من حيث التنشيط والتشجيع.

أما المأمون ففضله على الترجمة وإحياء العلوم قد غطى على فضل الجميع وإن كان في الناحية الأدبية أقل من أبيه

(٢) حوادث الأمويين في عدم التسوية بين الموالي والعرب بالرغم من تمتعهم بها في صدر الإسلام كثيرة: منها أنهم كانوا يمنعون زواج المسلم منهم بالعربية ويطلقونها عليه إن فعل ويجلدونه. روى الأغانى أن رجلا من الموالي خطب بنتا من أعراب سليم وتزوجها فركب محمد بشير إلى وإلى المدينة يومئذ إبراهيم بن هشام فشكا إليه فأرسل إلى المولى ففرق بينه وبين زوجته وضربه مائتي سوط وحلق لحيته وحاجبيه وفي ذلك يقول ابن بشير:

ويجهرون إزاء العرب بما آثمهم، وقابل العرب ذلك منهم بالإنكار والجحود؛ ثم طالت الملاحاة بين الفريقين حتى أعلن أمر الشعوبية، وعظم شأنها، كل ذلك والخلفاء يتواصون بالموالي ويطالبون لهم من أبنائهم وذوي قرباهم مثل ما كان يطلب الخلفاء الراشدون للأنصار، فكان من ذلك أن استفادوا وأفادوا في نهضة هذا العصر والسير به قدما إلى الأمام .

نعم إن إطلاق حرية البحث لهم في التشيع منذ عهد المأمون الذي كان شيعيا، والذي أباح لنفسه عن غير تقزز أن يكون أحمد بن أبي دواد وزيره معتزليا، ويحيى بن أكرم وزيره أيضا سنيا، جعلهم يرسلون الفكر في البحث الديني من غير عنان، حتى تعددت البدع الدينية، وانتشرت الزندقة والالحاد، وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين، فأباحوا ما لم يكن مباحا ومدحوا ما كان قبل ذميا وشاع تسرى الجوارى ثم أعقبه تسرى الغلمان، فزينوا وحجبوا كما كانت تزين وتحجب النساء، غير أن هذا الضرب من المجون والاهو، كان مغلوبا على أمره إزاء جد الدولة وعلو شأنها كما هو الشأن الآن في عواصم دول القوة والسلطان .

وفي المائتين للمولى نكال وفي سلب الحواجب والحدود ومنها خطبة المولاة إلى مولاها دون أبيها الذي لا ينكر ذلك ولا يتأذى منه . وحوادث الحجاج في إيذاء الموالي جاوزت كل حد وفاقت كل معقول فقد كان يسمهم بالوشم ويحصرهم في دوائر لا يتعدونها ويأمر ألا يؤم بالكوفة منهم أحد فلا يغير عليه الخليفة من ذلك شيئا .

العصر الثاني

وفي العصر العباسي الثاني، أخذ كل ما ذكرنا يتراجع إلى الوراء، لأن منشأ تقدمه كما رأيت، كان قوة الخلفاء، وأنهم علماء أدباء، وأن أولياء عهدهم وأعيان دولتهم، كانوا لهم في ذلك محاكين، وبهم مقتدين، أما إذ احتبس الخلفاء وأولياء العهد في القصور بعيدين عن مهام الدولة ومخالطة الشعب، وأصبح الخدم أعياننا لا عهد لهم بالعلم والآداب، وحتى عهدهم بمعرفة العربية اليسيرة جد قريب، فقد انغمس أولئك فيما تعج به القصور من أسباب اللهو ومتع الحياة، فكان لهم مع السراي المختلفة، والقيان المغنيات، مع ما يحف بهم من غلمان وخصيان، وما عدا جدهم مخالطة الخدم المذكورين، فغاب عيهم اللهو والترف، وانطلق هؤلاء المصرفون لأموال الدولة في تصريف أمورها انطلاقاً بعد بهم بعامل تكوينهم عن الناحية الأدبية العلمية، وكان في الناحية السياسية طاجراً في الأقاليم، وفاسداً في بغداد، ومن أجل ذلك وقفت الدماء التي كانت جارية متدفقة في سرايين الدولة بكل أسباب الحياة، وتبدلت من حررتها زرق سامة قاتلة أو صفرة ناعلة مضعفة، فأخذ العلم يهجر بغداد برحالة رجاله عنها بعد أن طال بهم انتظار الحيرة فيها، وأخذ الشعراء يبحثون لهم عن مرتزق غيرها، ولا يكن أنى تعود الحركة العلمية إلى دورتها، أو يجد الشعراء من يعطى— وإن طلبوا— قبل فترة من الزمن يظهر فيها الكساد والبوار وتستعد خلالها حواضر جديدة لحمل العلم الذي كان بأيدي بغداد، وإذن فليكن العصر الثاني، عصر الضعف والخلول والضعمة والانحطاط تموت فيه الخطابة، ويضعف الشعر، وتقف الحركة العلمية عن الدوران

ولا يبقى فيه من المظاهر السالفة إلا الكتابة بحكم حاجة الملك والسلطان، وقد منى فوق ذلك كله بما قيد الأفكار، واحتبس الأنفاس مما كانت قد سبغت فيه من بحث حرطايق، فقد جاء المتوكل أول ماجاء ضاغطا على الشيعة، محاربا للتفكير، بعكس ما كانت عاياه حالها منذ أيام المأمون من انطلاق بفعل النبوغ النفسى بقدر ما ضعفت آلة الكلام، ثم وقف تيار الفلسفة بقلّة النبوغ وظهر بهذا الضعف الخروج بمعانى الألفاظ مما حددت اللغة من معانٍ، وعز على رجال اللغة أن يقفوا إزاء ذلك جامدين، فأخذوا يضعون المقالات أو الكتب منتقدين ما حدث من خروج، ومحاولين إرجاعه إلى ما يريدون من اصلاح^(١)، وكذلك قام رجال الأدب إزاء الكتابة والشعر جميعا^(٢)، على أنه مما ينبغى أن يدون حسنة لهذا العصر قبل انتهاء الكلام فيه اطراد التقدم فى الخط العربى حتى استقر على القاعدة التى بين أيدينا الآن، ووضعها وضبطها ابن مقلة الخطاط الشهير المتوفى سنة ٨٣٢٨.

العصر الثالث

ظهرت النشأة الأولى للعلوم الإسلامية فى العهد الأموى بالبصرة والكوفة، ولكنها لم تكد تؤتى أكلها بالتأليف والتدوين، حتى سقطت الدولة الأموية وتأسست العباسية، متخذة بغداد عاصمتها بل عاصمة

-
- (١) من آيات ذلك فصيح ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ فقد اختار فيه الفصيح من كلام العرب ليعتصم به الناس مما ساد كلامهم من أخطاء.
- (٢) من ذلك فى الكتابة أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦.
- ومنه فى الشعر نقد الشعر لقدامى بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠.

العالم الاسلامي كله، فاتجهت نحوها الأ نظار من مختلف الأقطار، وتحول إليها كل شيء من آداب وعلوم وفنون، حتى كانت في العصر العباسي الأول، على ما قدمنا من ازدهار. ثم أصابها فتور وكساد في العصر الثاني، خضوعاً لما ذكرنا من أسباب، غير أن ذلك الفتور لم يكد يقضى على ما كان من نبوغ في العصر الأول، حتى تأسست الدويلات في العصر الثالث الذي نحن بصدد الكلام فيه الآن، وهو إن قضى فيما قضى على بغداد نفسها، فقد خاق نفوذ الدويلات عدة حواضر وصلت ما كان قد انقطع، حتى أصبحت كل منها بغداداً يؤمها الأديباء والشعراء، ويقيم فيها العلماء والمؤلفون، على أن آل بويه إذ دخلوا بغداد أطادوا لها سابق مجدها وعزها، وسالف حضارتها وسلطانها، ولكن لا على أن تكون منفردة كما كانت، بل على أنها حاضرة من حاضرات؛ نعم إن مركز الخلافة بقي لها وحدها دون الدويلات ولكن بعضها رفض هذا الخضوع كآل مروان بالأندلس منذ عهد الناصر وكالفاطميين، منذ أن كان لهم وجود، ومن دان بهذا المركز لم يعد في ذلك الناحية الدينية البحتة، أما الدنيوية فقد كان فيها تام النفوذ مطلق السلطان، ولعل هذا الانفصال بحاليه بين بغداد وحواضر الدويلات، كان عاملاً فعالاً في اشتداد التنافس بين رجالها وفي حفز الهمم إلى أن تسود كل صوابياتها فيما كان لبغداد وحدها منذ القديم، فقويت الحركة العلمية بعامل التنافس والتشجيع، وعلا نجم الأدب، وراجت سوق الفنون، كما قويت بعامل آخر هو علم ملوك الدويلات وأمرائها، ومن اختلط بهم في سياستها من ساداتها وعميونها، فهذان عاملان قويان فوق العامل الأساسي

الطبيعى عامل النشوء والارتقاء .

والى القارىء فى ذلك بضع شواهد وآيات، عن آل بويه والغزنويين والفاطميين الذين آل إليهم حكم العالم الاسلامى اذ ذاك .
كان آل بويه علماء أدباء، وكثير منهم شعراء. يحبون العلم والأدب، ويبحثون رجالها على التصنيف والتأليف، ويفتحون أبوابهم للشعراء ويغفرونهم بالعطايا والصلوات، وكانوا لذلك لا يستوزرون ولا يستكتبون، كما لا يولون ولا يستقضون، إلا خيرة العلماء ونوابغ الكتاب .
فعرز الدولة استوزر الحسن المهلبى الأديب الشاعر ، وركن الدولة استوزر ابن العميد الغنى عن التعريف ، ومؤيد الدولة ابنه استوزر الصاحب بن عباد، وكذلك استوزره نخر الدولة أخوه ؛ وكان عز الدولة بن معزها شاعرا وكذلك تاج الدولة بن عضد الدولة كأبيه، وكذا أبو العباس بن ركن الدولة^(١)، ثم كان عضد الدولة المذكور على شاعريته نابغا فى عدة فنون

(١) من شعر عز الدولة وكان أكثره فى الشرب والشراب قوله :-

اشرب على قطر السماء القاطر فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها درا نثيرا بين نظم جواهر
من كف أغيد يستبيك إذا مشى بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء ما بين العصون مصفق مثل القيات رقصن حول الزامر
ومن شعر تاج الدولة وهو آدب آل بويه وقد نكب بالحبس من جهة أخيه
أبى القوارس قوله :-

هب الدهر أرضائى وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى من الحبس والأمر
فن لى بأيام الشباب التى مضت ومن لى بما أنفقت فى الحبس من مرمى

يستحث العلماء على التأليف، ويغمرهم بالأموال، ويقصده فحول الشعراء^(١)، ولا يكاد مجلسه يخلو من مباحثات ومباضعات في العلم والأدب، كما كان شغوفاً بجيد الشعر يتعشقه ويحسن نقده، عارفاً لأساليب الكتابة، ذا افتنان في إنشائها^(٢) فهو في هذه النهضة

ومن شعر أبيه عضد الدولة قوله في خارج أرسل يطلب الأمان بعد أن ضيق عليه
أأفاق حين وطئت ضيق خناقه يبغى الأمان وكان يبغى صارما
فلأركن عزيمة عضدية تاجية تدع الأنوف رواغما
ومن شعر أبي العباس مبدما:-

أدر الكأس علينا أيها الساقى لنطرب
من شمول مثل شمس في فم الندمان تغرب
فصنحت حين تجلت قرا يلثم كوكب
ورد خدي به جنى لكن الناطور عقرب
فاذا مالدغت فالسريق درياق مجرب

(١) ألف له أبو علي الفارسي كتاب الإيضاح والتكملة في النحو، وأبو اسحق الصابي كتاب التاجي في أخبار آل بويه، ورحل إليه المتنبى رحلات ملأت فم الزمان.

(٢) من شغفه بالشعر تمنيه أن يكون المصلوب بدل ابن بقية الوزر لتقال فيه قصيدة الأنباري التي مطلعها:-

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات

ومن تفننه في الكتابة ما كتب به إلى أفتكين التركي صاحب دمشق وقد غره أخذه الشام من حكومة مصر وطلب منه المدد لمحاربتها نفسها فكتب إليه هذه الرسالة المتحدة الكلمات لولا النقط والشكل وهي « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاحش فاحش فملك فملك بهذا ».

أشهر ملوك آل بويه كما كان أشهر وزراءهم فيها الصاحب بن عباد المذكور، فقد كان عالما كاتباً شاعراً يقيم عنده العشرات من رجال العلم والأدب، ويقصده منهم ومن الشعراء المثلث، فيكرم إقامة أولئك ويحسن وفادة هؤلاء.

ولم يأل الغزنويون جهداً في نصرة العلوم والآداب - وإن كانوا أحدث فيها عهداً من آل بويه - مع إشتغالهم شرقاً بالغزو والفتوح، فتد كان مجلس سلطانهم محمود أهلاً بالشعراء والأدباء والعلماء، وهو الذي اقترح على الفردوسي إتمام الشاهنامه التي بدأ نظمها الدقيقي باقتراح نوح بن منصور الساماني، وكان لا يسمع بشهرة أحد من هؤلاء إلا عمل على استدعائه إليه، يدل على ذلك كتابه إلى أمير خوارزم مأمون بن مأمون وفيه يقول « علمت أن في مجاسك جماعة من العلماء المبرزين فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم » وقد تلاه عليهم مأمون فقبل بعض وامتنع بعض. غير أن هذه النصرة لم تك ذات بال بجانب نصرة آل بويه لما قدمنا من حداثة عهد رجالها بأدب العربية وعلومها واشتغالهم عنها بما دأبوا فيه من غزو وجهاد.

وقد نشط الفاطميون العلم وأهله، ونافست قاهرتهم بغداد منافسة خلافة وملك لا منافسة ملك فحسب، ثم كانوا جديرين أن يفوزوا بالفوق والغلب لأنهم عرب أبناء عرب وذوو الغلب على بغداد في أيامهم سلاجقة أتراك، وبدا هذا التنشيط كثير الصور قوى العناصر أيام المعز والمعز والحاكم، فقام المعز بإنشاء الأزهر المعمور وأسس العزيز

دار كتب في قصره سماها خزانة الكتب أو خزانة العزيز ، واستكثر فيها من المؤلفات ، واقتدى به في إنشاء خزائن الكتب بالقصور جماعة من أهله ، ثم جاء الحاكم فأنشأ دار الحكمة ونسحى دار العلم أيضا بجوار قصره الغربي وحمل إليها جميع أنواع الكتب وبالغ في فرشها وزخرفتها ووقف عليها أملاكا تنفق من غلتها ، وأقام مشرفين ينظمون طريق الانتفاع بها ، وأباح المناظرة بين المتردين عليها ، وسهل للنقلة منها سبيل النقل بما أعد فيها من أقلام ومحابر وأوراق . ولم يكن اشتغال الفاطميين بالعلم وتشجيعهم على إنهاضه مقصورا على علوم الدين واللسان ، فقد خدموا علوما كثيرة أخرى كالتاريخ والفلسفة والهندسة والنجامة ، وبقى زعيم الحاكم على جبل المقطم عمدة الراصدين حتى بنى الطوسي مرصده بمراغة تركستان سنة ٦٥٢ ، ثم كانت مجالس الأدب ذات ازدهار في حضرات الخلفاء ، وأمراء أسرتهم ورجالات دولتهم ، وكانت كثرتهم أدباء شعراء تبصر جيد القول وتجزل بعايه العطاء .

ولم يعدم العلم والأدب نصيرا من الدويلات الكثيرة التي قامت ردحا مع هذه الدولات الثلاث ، فاشتهر من أمراء السامانيين بذلك في بخارى كثير ، منهم منصور بن نوح ثم ابنه نوح بن منصور ، الذي كتب إلى صاحب بن عباد يستدعيه إليه سرا حتى يفوض إليه وزراته ، والذي جمع مكتبة حوت المؤلفات الكثيرة في كل فن . وآل حمدان بحلب والموصل أشهر من أن يخاض في نصرتهم للعلم والأدب وهم الأدباء الشعراء ، وإن في أخبار سيف الدولة مع الأدباء والشعراء لغنية وبلافا فقد قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه

من شيوخ الأدب ورجال الشعر، يلقون منه حواراً ويشهدون نقداً، ثم ينقلبون راجعين بشتى الجوائز وعظيم الهبات، وهناك غيره وإن لم يبلغوا شأوه من آل حمدان كثير. ولو امتد الزمن بالأخشيديين أكثر من ثلث القرن الذي كان لهم لوجدناهم كتملك الأمارات في تقريب رجال العلم ونصرة الآداب، على أن أبا المسك كفوراً الذي نشأ مع هذه الأمانة عبداً لأول أمراءها ثم ارتقى بعقله وشجاعته حتى صار من كبار قوادها، ثم ارتقى فوق ذلك حتى ولى أمارتها، ولم يمت إلا قبيل سقوطها، قد ترك لنا في سيرته إكرامه العلم والعلماء، وامتداح المتنبي شاعر العربية إذ ذاك إياه، وفي هذين إثبات لما أردناه.

بهذا التشجيع المصحوب بالتنافس الشديد للعلماء والأدباء في المشرق والمغرب الأقصى، وبمثله في كل ما ذكرناه بالاندلس من الغرب، زخرت بحار التأليف واطرد تيارها حتى نمت العلوم وتم نضجها، فتكونت المعاجم اللغوية واستتوت الفلسفة واستقرت قواعد الطبيعيات والطب وانتهى الانشاء الكلامي إلى أسلوب أصبح قاعدة، وظهرت الروايات والقصص، واتسع خيال الشعراء وعمق فكرهم وتفرع التاريخ وانبسط تقويم البلدان واتسعت أبواب النقد الأدبي، وحسب هذه السعة العلمية بياناً أن زادت فروع العلوم إذ ذلك لدى محصياها على ثلثمائة كتاب نسبتها كتب الاحصاء، وكانت من بينها علوم لم يصل إليها التمدن الحديث لا في القرن الماضي أي بعد نحو ألف سنة من تاريخ كتابة العرب فيها علوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران^(١)، فلا عجب أن

(١) فمن كتب تدبير المنزل كتب ذكرها ابن النديم لابراهيم بن المهدي

عرف هذا العصر بعصر نهضج العلوم وقد أعقب هذا النهضة وكثرة التأليف، إنشاء المكاتب العامة وانتشارها فعرف بعصر المكاتب أيضا، ولنا أن نسميه فوق ذلك عصر المذهب الشيعي لأن آل بويه شيعيون وأشد منهم تشيعا الفاطميون، أما الغزنويون فلم يكونوا فيه قد جاوزوا النظرة العامة للدين إلى نظرة تجعلهم شيعيين أو مسنيين، كما لنا أن نسميه أيضا عصر قوطن الآداب والعلوم، ومن ثم بدت فيه نسبة رجالها إلى مدنها كالبخاري والنيسابوري والرازي وهكذا بعد أن كانت النسبة قبله إلى الأصول كالحيري والمازني أو إلى الصنائع كالزجاج والنحاس .

العصر الرابع

جاء هذا العصر وقد تغير النظام السياسي في أرجاء الممالك الإسلامية فحكمها السلاجقة في الشرق بعد البويهيين والغزنويين ، والأيوبيون في مصر والشام والمغرب بعد الفاطميين، ثم انحلت دولة آل مروان بالأندلس إلى ملوك الطوائف المختلفين فكان أن حدث في كل من

ولاراهيم بن العباس الصولي ولعلي بن يحيى المنجم وغيرهم ولكنها ضاعت . وقد ألفت في السياسة على إجمالها أبو زيد البلخي ، وفي المدينة منها الفارابي ، وللطوطوشى فيها مراجع الملوك . ومن كتب الاقتصاد كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة لأبي الفضل بن علي الدمشقي وكثير غيره ضاع .

ولم يخل علم العمران من كتب ظهرت في هذا العصر ولكنها جاءت إما مجملة تناولته عن بعد أو مفصلة تقصر على بعض أبحاثه ثم كانت بعد هذا العصر مقدمة ابن خلدون أول كتاب ظهر فيه مستقلا مفصلا .

الدين واللسان أمر ذو بال نجم عنه ما وجه العصر توجيها خالف به
سابقه كثيرا أو قليلا في شتى الأمور .

فأما في الدين فبعد أن كان للمذهب الشيعي الغلبة على المذهب السني
بنفوذ البويهيين شرقا والفاطميين غربا، ذهبت ريجه بذهابهم وجاء
المذهب السني يكتسحه ويعنى عاياه بصولجان السلاجقة شرقا والأيوبيين
غربا، والسلاجقة سانيون بحكم نشأة جنسهم أول ما اختلط بالمسلمين
مضادا للشيعة محاربا لها منذ عهد المتوكل على الله، وكذا الأيوبيون منذ جاءوا
على الدولة الفاطمية خالين ولها مديلين، حتى لقد حرم صلاح الدين
تدريس المذهب الشيعي بأزهر الفاطميين، وكم وقف هذا التبدل في
التأليف الشيعي من حركات وحارب من فكر وأبطل من عادات .

وأما في اللسان فقد كان الفاطميون بمصر عربا خالصا، والبويهيون
بفارس متعربين مبرزين، فكان الأدب من كليهما مدد منشؤه حذقهم
أسلوبه وتذوقهم جماله، فانقطع هذا المدد بتركية السلاجقة، وكردية
الأيوبيين، وإن ابتعد الأولون عن محاربتهم ومخاصمة رجاله وحاول
الآخرون تلمسه وتقريب ذويه . وبذلك نال صورتى الأدب كتابته
وشعره ضعف قلل من مقدارها، وذهب بكثير من محاسنها، وكان أنكى
بالشعراء منه بالكتاب لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى إذا لم
يجد المتذوقين النصراء، في حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضري
يضطر إلى الإبقاء عليها ذووه وإن لم يفهموا ما لها من حسن وجمال .

أما الناحية العامية لحياة اللغة فقد كان هذا العصر عليها عصر
بركة ونماء، ذلك بأن العلماء استمروا فيه منطلقين بعد نضج العلوم

إلى حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة فحق أن يدعى لذلك عصر الموسوعات ^(١) ثم كان شعور العلماء فيه باشتداد ضعف ملكة اللسان و حاجة النشء في تذكئته على الملكة الصحيحة واستيعاب ما استبحر من علوم، دافعا للقوم أن يهينوا للعالم أما كن دراسة يؤمها المتعلمون ويرتب لها العلماء المدرسون، فكان من ذلك إيجاد المدارس بالمعنى الذى نعرفه الآن ووسم هذا العصر بعصر المدارس ^(٢)، كما وسم بعصر الموسوعات وهذان أثران له جايلان .

ولقد وفد على مزاج اللغة فى المغرب والمشرق أدهبا وعلمها فى هذا العصر وافدان غريبان ، أحدهما فرنجى جاءت به الحملات الصليبية بما أسست فى المشرق من إمارات ، وبما حدث بين رجالها ومنسجى المشاركة من تصاهر وزواج ، على ما هنالك من خلاف فى الأصول

(١) لعل مما حملهم عل تأليف هذه الموسوعات بعد الدافع الطبيعى لحركة التأليف ، مقاومة ماذهبت به الفتن من مؤلفات وأضاعت من جهود فكانوا يدونون الموسوعة إما جامعة لشقى العلوم مع حذف ما اعتادوا فى غيرها من أسانيد كما فعل ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ فى موسوعته المسماة «المدمش» فى القراءة والحديث واللغة والتاريخ والمواظف فى سياق المحاضرات ، ومنها نسخ بالمكتبة الملكية بمصر وإما جامعة لفروع علم واحد كما فعل ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ فى معجميه للأدباء والبلدان .

(٢) أول من قام بإنشاء المدارس فى هذا العصر نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى التركى فقد أسس المدرسة النظامية فى بغداد منسوبة إليه فكان لها شأن فى العالم الاسلامى كبير جعل غيره يقتدى به فى إنشاء مثلها حتى امتلأ العالم الاسلامى وماينة العصر بالمدارس المختلفة فى جميع الأنحاء .

واللغات والآداب والعادات، لا بد أن يؤثر تأثيره وبأخذ طريقه غالباً غير مغلوب . والثاني عربي هو نزوح الجماهير الأندلسية إلى المغرب والمشرق يحملون طابعاً لم يك للمشاركة في التفكير والتأليف وإنشاء الرسائل وقرض القريض حوكى فما حلوه من بيتات^(١) وبهذا ضعفت الفوارق بين أدب قرطبة وأدب القاهرة وبغداد وقويت المشابهات . تلك كلمات أرسلناها مجملات في ميزات العصر العباسية اللغوية بعضها عن بعض رابطتين بينهما وبين ما أنتجها من أحداث السياسة وأمور الاجتماع . وفيما يلي من دراسة موضوعات المنهج ، تفصيل لما أجملنا وإيضاح، والله ولينا وهو المستعان .

(١) من أظهر ما كانت لهذا الاختلاط في عالم الفكر اتصال الفلسفة الأندلسية بفلسفة المشرق، وفي عالم الأدب انتشار الموشحات .

ما طرأ على العرب ولغتها

من جوار امتزاج الأعجم بها

خالطت العرب بعد تمام الفتح في العهد الأموي أشتنا من الأمم مختلفين في أجناسهم ودياناتهم وفي لغاتهم واجتماعياتهم، كما يحدث التاريخ العام عن طبقات الناس حين الفتح من أرض أندلس وشمال أفريقيا ومصر والشام والعراق وفارس وماوراء فارس؛ فتأثروا بهم كما أثروا فيهم ولكن تأثرهم لم يبد واضحا جليا في ذلك العهد لقصر زمنه نسبيا ولترفع العرب فيه عن مخالطة الأعجم اقتداء بخلفائهم وذوي الأمر فيهم، فكانت الأمة العربية ملوكا وسوقة ذات عصبية لجنسها ونعرة لقوميتها^(١)، ولكن ذهب تلك العصبية وهذه النعرة بمجيء العهد العباسي كما أسلفنا جعل هذا الاختلاط يعمل عمله ويؤثر تأثيره في كثير من نواحي الحياة ذات التأثير البين في اللغة آدابها وعالمها.

ففي العهد الأموي بقي الجنس العربي متحصنا، فكان زواج العربي من غير العربية نادرا، وزواج العربية من غير العربي منكرا، فلما جاء العصر العباسي رافعا شأن الموالى أقبل الناس على زواج الأعجميات

(١) تتضح هذه النعرة في شقيها بما روي من أن عبد الملك بن مروان حين خطب إلى عقيل بن علفة بنته قال له عقيل جنبني هجاء أولادك يقصد مسلمة ابنه على ما عرف به مسلمة من واسم عقل وكامل خلق، وبما كان من أن عبد الملك حين عقد ولاية العهد لابنائه تخطى مسلمة هذا «لأن أمه غير عربية» لا بغضا له ولكن تعصبا لتلك النعرة أو خوفا من الأمة المتعصبة لها.

مسرعين ، لما هُن من فرط جمال ووافر عقل ، ولما بدا على نساكن من
نجابة وذكاء^(١) ، وتسابقوا في هذا المضمار وقدام فيه الخلفاء وأبناء
الخلفاء^(٢) وإذ وقف حد الدين للزوجات عند أربع انطلقوا في التسرى
غير المحدود حتى ضاقت القصور بالقيان والأماء^(٣) ، وما من شك في
أن هذا ينتج من التأثير الجسمي وبالتالى العقلى فى النشء الناشئ من
الأعجميات الشئ الكثير ، فأما من الناحية الجسمية فلما هو مقرر
ثابت من أن الزوج من البعيدات له با مؤد إلى فرائدة الأجسام وقوة
البنى فما بالناس بالبعيدات جنسا^(٤) ، وأما من الناحية العقلية فلأن الأمم

(١) بقى أهل المدينة زاهدين فى التسرى حتى نشأ فيهم على بن الحسين
ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله وقد فاقوهم علما وورعاً فرغبوا فيه ، وبما زاد
إقبال الناس على زواج الأماء حفة كلفته حتى قالوا فى ذلك « الأمانة تشتري بالعين
وترد بالعيب » وقالوا فى مزيته جملة « عجبت لمن عرف الأماء كيف يقدم على الحرار » .
(٢) لهذا كان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى ماعدا الأميين
ابن زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، فالهادى وأخوه هرون أمهم فارسية ، والمأمون
أمه فارسية ، والمعتصم أمة تركية ، والواثق أمه رومية ، والمتوكل أمه تركية ،
وهكذا .

(٣) بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين وعدد جوارى المتوكل أربعة آلاف
وعلى ذلك يقاس ما كان لغيرهما من الخلفاء وما كان لغير الخلفاء من الأمراء والأغنياء .
(٤) لهذا يقول الحديث « اغتربوا لا تضربوا » والضرب دقة العظم وقلة
الجسم خلقة وأنثوت المرأة ولدت الولد كذلك وله يقول الراجز .
أنذر من كان بعيدا لهم تزويج أولاد بنات العم فليس ينجو من ضوى وسقم
ولهذا وجد فى العصر العباسى من ضرب بهم المثل فى الشجاعة حتى قال
الأصمعى « ما ضرب به وس الأبطال كابن الأعجمية » .

التي غلبتها العرب على ساطعاتها كانت ذات حضارة تبدو في شتى الألوان،
وتختص كل واحدة بلون يكون فيها دون غيرها أكثر زهواً وأشد
لمعاناً، وهذه الميزات جميعاً كان المهجناء فيها ولها أقوى وأقبل من
الصرحاء بعامل الأثر المؤثر والعرق الدباس . ولقد كان من هذا
أن عجزت المرأة العربية عن مجاراة الأنجمية في الزواج فضوعف هذا
التأثير ، ثم كان أن اندس العربي بين الأعجم زارعا وصانعا بعيدا عن
مهام الدولة وتصاريه الأمور يسوده من الموالي من كان قبل مسودا ،
فذهبت من نفسه البقية الباقية للنصرة وسلم في بنائه ومن هن تحت
ولايته أن يكن لهذا الجنس الغالب زوجات فاقرشن الأعجم ونسلوا
منهن نسلا مقرفا جاء أكثر من المهجناء عدداً وأشد منهم بالعجمة
اتصالا ، على أن من بقي من العرب صريح العروبة لم يقو بديار العجمة
على صد هذا التيار الأعجمي الشديد فكان فيه من المغرقين .

وفي العهد الأموي كانت للدين الإسلامي صولاته وقوته ، دخل
فيه من دخل مؤمنا إيمانا حقا غير ملتفت إلى دينه السابق ولا طائفة إياه
بجوار الإسلام شيئا ، وبقى على دينه من بقي ذميا مستأمنا يحسد نفسه
أن أبقاه المسلمون على دينه وبعد ذلك النعمة لا تعد لها نعمة ،
فلم يتسرب إلى الدين الإسلامي من الديانات المختلفة - نصرانية ويهودية
ومجوسية ، على افتراق كل ديانة من هذه الديانات طوائف وفرقا - شيء
يزعزع من عقائد أبنائه ويفتح لهم في ميادين التشكيك مجالا ، ولكن
حين جاء العصر العباسي استبدل بصولة العرب صولة الفرس وكانوا
مجوسا قد ساد مجوسيتهم آخر سلطانهم إلحاد وإباحية وزندقة ، فتحت

في الأبحاث الدينية أبواب كانت مغاقة ، وجرت على السنة هؤلاء
المجوس ولو أنهم أسلموا أقاويل لم تكن تجري ، وتخطب الأبحاث الدينية
بالرغم من مقاومة الخلفاء للزندقة والاحاد ، السياج الذي كن مضروبا ،
وساعد على رواج هذه الأبحاث التمكين لرجال الفرس في السلطان .
وإذ ساء للمجوسية أن يصطبغ بأبحاثها كثير من أبحاث الفلاسفة
والدين فقد ساء لليهودية والنصرانية أن تجريا وراءها بغير عنان ، وأن
ينشط اليهود والنصارى في أمثال هذه البحوث متسترين وراء حاجة
الدولة إلى علماءهم وتقريب خلفائها وخاصة لها الكثير من شخصياتهم ،
فكان من وراء ذلك تأثير في الدين كبير ظهر أثره في اللغة من آداب
وعلم .

وفي العهد الأموي كان للغة العربية بحكم التوسع في الفتح وبسط
السلطان ، طغيان على لغات الأمم المفتوحة أيما طغيان ، أزال منها ما أزال
وبقي ما بقي الضعيف المقاومة مهيض الجناح ، كل هم ذويه أن يبقوا أمام
الفاحين آمنين على نفوسهم وأموالهم وما يؤثرون البقاء عليه من دين .
أما لغاتهم فلم يأخذ بيدها ماصاروا إليه من ضعف ولن تجد من رجال
الدولة الجديدة إلا الرغبة الملحة في خضوعها للعربية أتم خضوع ، ثم
كان تنزه العرب النازلين ديار العجمة عن مخالطة الأعجم ، وترفعهم أن
يلوا مثل مايلي أولئك من أعمال ، أو أن يقبلوهم معهم فيما خصوا به
أنفسهم من مناصب الملك والسلطان ، حاجزا قويا وسدا محكما دون أن
يتأثروا مرغمين بعامل المخالطة والجوار . أما إذ جاء العصر العباسي
وزالت بمجيئه قوة الفتح وسطوة الغلب ، وتم للعرب مخالطة الأعجم

ومشاركتهم في الأعمال فقد نُحِلَّ عن عنق اللغات المغاوب أهلوهاما كان مضيقا عليها من خناق ، فتنفست الصعداء وأخذت تذكر ما كان لها من كيان وما ينبغي أن يكون عليه ذووها من حفاظ ، ومن ثم وقف غزو العربية لها حيناً وانقلبت هي بعد ذلك الحين غازية كأنها تريد الانتقام، حتى عقد لها لواء النصر في التغلب كما سيأتي على السنة السوداء ، وتسربت بما كان من التوسع في وضع العلوم وحركة النقل إلى التأليف والتصنيف فوجد فيها دخيل معرب ودخيل خلو من التعريب، ثم كان أن وجدت فوق هذين سبباً لا تظهر فيه أحياناً على السنة الأدباء ناثرين وشاعرين هذا وكما كانت النزعة العربية في العهد الأموي غالبة فيما ذكرنا من نواحي الجنس والدين واللغة كانت كذلك غالبة في ناحية الاجتماع. فقد ظل أبناء العرب أيامه على بداوتهم محافظين على خشونة الجاهلية، عاملين بعاداتها محيين لأدبها، يقودهم في ذلك ويشجعهم عليه آل البيت المالك حتى الخليفة المقيم بدمشق . وما غيروا فيه من أمور الاجتماع كان نصراً للعربية وفتحاً على أبنائها إذ جعلوا الإسلام دولة عربية بعد أن كان ديناً، وأيدوا تلك الدولة العربية بنقل دواوين الحكومة إلى لغة رجالها، وسكوا النقود العربية مستعينين بها على نقود الفرس والروم وكذلك فعلوا في نقل الطراز^(١) وما عدا الناس على عهدهم طبقة العرب

(١) الطراز هو أن يرسم الملوك أو السلاطين صورهم أو علامات تختص بهم على الأثواب المعدة للباسهم أو لباس بعض الطوائف من أتباعهم، كما يرى الآن على ألبسة الجنود والشرطة مثلاً ، وأول من نقله إلى العربية عبد الملك بن مروان ولكنه استعاض عن الصور كتابة الأسماء وكلمات التفاؤل والدعاء لورود تحريم الصور في بعض الأحاديث .

السائدين عدنانيين، وقحطانيين، وطبقة الموالي السودين مسلمين وذميين، نعم خدم الدولة وتقرب إليها بعض العرب النصاري والموالي، مسلمين وغير مسلمين، ولكن عددهم جميعا كان جد قليل^(١) ثم جرت أمور لم تكن في صدر الاسلام كاتخاذ السرير والحجاب^(٢) ولكنهم لم تعد أشخاص الخلفاء ومن حاكمهم من بعض الولاة في تبسيط واضح واكتفاء بالقليل أما أحوال الاجتماع في العصر العباسي حيث نضج التمدن الاسلامي متأثرا بما خلف عليه من مدينيات، فقد جاءت مغيرة كل المغيرة لما كانت عليه في عهد الامويين.

ساق هذا التمدن الناس بعصاه إلى أن يكونوا طبقتين وتحت كل طبقات، الأولى طبقة الخاصة وهي الخليفة وأهله ورجال دولته وأرباب البيوتات، والثانية طبقة العامة وهي المزارعون أهل القرى وسكان المدن من الصناع والتجار، ثم حمل الخواص على أن يتخذوا لهم من العوام أتباعا هم الجند المحافظون والأعوان المرافقون والموالي المعتقون والخدم وهم الأرقاء والخصيان والجواري من السودان والبيضان، كما حماهم على أن يقربوا إليهم من العوام أيضا أهل الفنون

(١) من تقريب الخلافة الأموية لنصارى العرب، تعريبها الأخطل الشاعر وبخاصة في عهد عبد الملك . ومن خدم من الموالي غير المسلمين، رجال الدواوين قبل تعريبها . ومنهم مسلمين، سالم القائم على ديوان الرسائل لهشام وختنه عبد الحميد صاحب ديوان مروان .

(٢) أول من اتخذ السرير والحجاب معاوية لما رأى منهما في بلاد الروم، ولما أنبأه به صما كان لجلس الحاكم في فارس ومصر عما له بتلك البلاد

الجميلة من المصورين والمغنين ، وأهل الادب والشعر من الأدباء
والشعراء ، وذوى الخلق والنفاسة من نابغى الصنائع وكبار التجار .
فبهذه الطوائف جميعا ماعد الزراع كانت تعج المدن فى العصر العباسى
وتفيض ، هذا إلى من يخالطهم فيها من ذوى المفاصد أعوان الشرأوانجسون .
وإذ كانت هذه الجموع فى خالبيتها أحلاطا من غير العرب جنسا ، وعلى
غير ما نشأت عليه العرب استعدادا ، فأنت خير بما تنتجه فى أبناء
العربية المخالطين وفى العربية حيث لا يوجد هؤلاء الابناء من تأثير .
ولقد قضت هذه المدنية على كثير من مناقب العرب التى شبوا عليها
فى بداوتهم وهذبها الاسلام فى صدر اسلامهم ، وحاطها الأمويون بالرعاية
فى دوائهم ، كاستقلال والشجاعة والنجدة والألفة والعفة وغيرها
مما جبلوا على مدحه ، والتفانى فى نصرته ، وتجلت له فى أدبهم صور
رائعة باهرة ، فأصبحنا بعد هذه من العصر العباسى نشاهد الضعف
والخور ، والقعود والاسنسلام ، والغدر والخداع ، وذهاب الغيرة من نفوس
الرجال وضعف الثقة بهم فى قلوب النساء ، حتى غاض معين طاهر صاف
وفاض آخر كله رجس وأقدار^(١)

(١) لذلك تنوسيت المرأة العربية فى المدن فتنازلت عن عزتها فى
سبيل إرضاء زوجها وصارت تهدى إليه الجوارى وتحبب إليه الاقتراب منهم حتى
ذهبت غيرتها وضاعت كرامتها وعاد الرجل يظن بها الظنوف فأقفل عليها
الابواب والنوافذ وسد فى وجهها الطرق والمساالك ومنعها الخروج والكلام
وأصبح الطعن فى طباع المرأة شائعا على ألسنة الناس ، حتى ألقت له القصص
والروايات وأرسلت فيه الحكم ونظمت الاشعار .

. كما نقلت هذه المدينة العرب من التبسط في معاشهم مطعما وملبسا ومسكنا؛ فبعد أن أخذوا بطرف يسير من الحضارة مدة العصر الأموي في هذه الأشياء انغمسوا فيها على العهد العباسي حتى الأذقان، فابتنوا القصور المتنوعة تحف بها الحداث وتجرى من تحتها الأنهار^(١) ولبسوا الحرير ونحوه مختلف الألوان والأشكال، مفرقين بين الثياب في الحياة العامة والحياة الودعة اللاحية^(٢) ثم أكلوا كل ماله وطاب من ألوان الأطعمة، وشربوا كل ما شف وراق من أنواع المشروبات^(٣) فكان ذلك كله على ما صحبه من التغالى في اتخاذ الأثاث والرياش، واقتناء

(١) اختلفت أساليب البناء في الاسلام باختلاف البيئات فكانت في كل بلد على نمط أهله، ولكنها لم تلبث أن اتجهت كلها بذوق العرب واستخدمهم الابتكار إلى نمط خاص هو النمط العربي وإن بقي بين بعضه وبعض يسير اختلاف .

(٢) حاكت العرب الأمم المفتوحة في كثير من ملابسها وظهر التغالى في ملابس الخاصة على العهد العباسي ظهورا بينا وبخاصة في العراق إذ كان من الخلفاء منذ عهد المنصور حمل للناس على لباس خاص، له في كل طائفة طابع يميزها عن غيرها، وكان لابد من جبة سوداء تغطي حين الدخول على الخليفة جميع الثياب تعرف بالسواد وهو شعار العباسيين بعد أن كان شعار الأمويين البياض ثم كانت ثياب اللهو والدعة تميز بألوانها الزاهية وصقلها اللامع وتعرف بثياب المنادمة .

(٣) قد اتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع عليها في الاتفاق حتى صار لكل لون خدم عليهم رئيس .

ومما ساعد على انتشار المسكرات أن تناولها كان شائعا قبل الفتح في جميع البلاد وبخاصة بلاد فارس التي كان ملوكها مغرقين في اللذات والمسكرات.

الأحجار الكريمة والمجوهرات مجالا لحياة اللغة أى مجال^(١)
وتم تعدت هذه الزينات الدور الخاصة بخلفاء الدولة وعظماؤها،
فظهرت متجلية في مجالسهم التي كانت تبلغ من السعة المبلغ العظيم، فترفع
فوقها القباب وتزين جدرانها ومسقفها بصور الذهب والفضة لما في البر والبحر
وتفرش أرضها بالبساط الواحد من الديباج، وتسبل على نوافذها ستائر
الحرير المطرزة بشارات الدولة وما قد يضم إليها من مآثور الكلام.^(٢)
نم كان للخلفاء في المواكب حين الخروج للاحتفال من الافتنان في
الزينة وإظهار العظمة ما يأخذ بالألباب ويخطف الأبصار.^(٣)
وحينما أخذت العرب في تشرب مدينيات الأمم التي غلبتها على
أمرها وورثت حضارتها وسلطانها كانت هذه المدينيات في أخريات

(١) أخذ البذخ في اقتناء المجوهرات مأخذه في بغداد، وقد احتذى
هم في ذلك بقرطبة آل مروان ثم فاق الاثنين الفاطميون في القاهرة
فماضت في المدن الثلاث المجوهرات حتى كانت تزين بها الخيل وسائر الحيوان
وإن نظرة إلى ما كانت تزين به النساء عند الزفاف ولا سيما بنات الخلفاء والخاصة
من الأمراء وذوى اليسار لتدل على ما بلغ إليه الترف في تلك الأنحاء .
(٢) كانت تتعدد أماكن هذه المجالس بتعدد ما يدور فيها، فيعد بعضها التصريف
أمور الدولة وبعضها للأدب والشعر، وبعضها للمناظرات والعلم، وبعضها للغناء
والانس، وهكذا .

(٣) وكذلك كانت تختلف أشكال المواكب باختلاف الداعي إليها من أمر ديني
كأعياد، أو دينوي كزفاف أو ختان، أو نصر أو مالى ذلك مما هو مفصل في الكلام
على أ. هـ الخلفاء .

أيامها قد سارها الشر وعمها الفساد ، فكثير من أبناءها الأشرار
الفاسدون ، الذين نشروا الرذائل في مدينة الاسلام ، وكان العرب معرضين
لها بعدوى المعاشرة والاختلاط ، فلم يكادوا يخطون في مدينتهم حتى
كثرت الموبقات ، وتعددت المفاصد ، وغلبت الشهوات على الناس فصاروا
لها عبيدا ثم انطلقوا في تيارها بعد عن طوعية واختيار ، وكان أبناء
العرب وقد فقدوا شخصياتهم ، وصاروا وأبناء الأمم المذكورة سرء
ثم أقل من السواء ، أصبحوا يحاكونهم محاكاة المغلوب للغالب
فانغمسوا في شرورهم غير مباليين ، وتعودوا من عاداتهم ما كانوا عنه
مبعدين^(١)

ولقد ولد هذا الاندفاع الشديد في تيار الحضارة تنديسا للمادة
في النفوس إشباطا لنهم الجشع ، وسدا للسكال الذي صار من الضرورات ،
فأحب الناس المال حبا جما ، وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى
لا يفرق بين حل وحرام ، فتنوعت طرق السلب والابتزاز ، وانتشرت
حيل الغش والخداع ، وأصبحت الرشوة عاملا فعلا من عوامل نيل
الغرض وابتداء الثروات^(٢)

(١) لذلك كانت عادات الجاليات العربية في كل قطر ، من عادات أهله
وناهيك بما كان قد استقر من عادات الشر في الاقطار الاسلامية قبيل الفتح
أثرا محتوما لمدينتين شاختا وأكل عليهما الدهر ، هما المدينة الفارسية شرقا
والمدينة الرومانية غربا .

(٢) وشا بانتشار الرشوة الأثراء السريع للوزراء ومن في حكمهم من الولاة
والعمال وتبع ذلك إقدام ذوي الأمر على استصفاء أموال هؤلاء لاعتقادهم
أنها جمعت من حرام كلما احتاجوا إلى سد عجز مالي أو حفزهم حافز الانتقام .

على أن العرب على ما آذنتهم به تلك المدينيات في نواحي الاجتماع،
قد استفادوا من وراثتها مغنم في العلم والأدب، عادت عليهم وعلى لغتهم
بالخير والصلاح، فقد جرى أبناء أممها سلائل العرب في مضمار الأدب
فكان منهم الكتاب والشعراء ثم بذوهم في مضمار العلم فكانوا أكثر
منهم عددا وإنتاجا في التأليف والتصنيف، هذا إلى أن أدباءهم كانوا
اللقاح الأدبي الجديد، كما كان علماءهم الترجمة الماهرين فيما نقل من
علم دخیل .

ذلك مجمل ما كان للأعاجم بجنسياتهم ودياناتهم ولغاتهم
واجتماعياتهم من تأثير في العرب ظهرت نتائجه في لغتها غرضا ومقصدا،
معنى وخيالا، لفظا وأسلوبا، على ما سنبينه في هذه النواحي الثلاث
عقب الكلام على غلبة الفرس فيه .

غلبة الفرس في هذا التأثير

وإلى أى درجة كان فى اللغة مداه

لقد كان للفرس دون غيرهم من سائر الأمم نصيب الأسد فى
هذا الموضوع

ذلك أنهم شعب آرى أسس دولة عتيقة فى التاريخ القديم
ذات علوم وآداب^(١) ، وهم أهل ذكاء وتعقل ، وفيهم استعداد فطرى
يساعدهم على الأخذ بأسباب الحضارة ، ولذلك أحرزوا منذ القديم ،
قسطا وافرا من الطبيعيات والرياضيات ورثوا فيه الآشوريين
والبابليين ، واحتكوا بالهنود واليونان المتصلين بهم لغة وجنسا ،
فنقلوا إلى لغتهم ما نبغت فيه هاتان الأمتان من علوم وفنون^(٢) ، ثم كان

« ١ » كانت السيادة قديما للفرس شرقا وللروم غربا ولكن سلطان فارس كان
أقدم عهدا ، وأكثر جندا ، امتلكوا مصر على فراعتها زمنا وحاربوا اليونان
قبل المسيح ، فكانوا قبل بضعة وعشرين قرنا يجر دون جيشا قد يصعب اليوم
على أعظم الدول حمله ونقله من أواسط آسيا إلى أفريقيا وأوربة .

« ٢ » كان نقل الفرس لعلوم الهند جاريا منذ القديم يؤيد ذلك ما ذكر فى
فتح الاسكندر بلاد فارس من أنه عثر فى عاصمتهم إصطخر على خزائن كتب ،
فيها ما جمعه الفرس من علوم الهند والصين إلى تلك الأيام .

وقد نشطت حركة النقل بفارس أيام سابور بن أردشير فقد بعث إلى
بلاد اليونان من استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى الفارسية وخزنها فى
خزائنه وشجع الناس على نسخها ودرسها .

ولما كان مكان من اضطهاد جوستينيان قيصر للفلاسفة الوثنيين بعد إقصائه
هياكلهم ومدارسهم ، فروا من وجهه إلى فارس حامية الوثنية إذ ذاك ، فاستقبلهم

أبين ما فضلوا غيرهم فيه النبوغ في الأدب الآرى ، ذى المكر الغواص
والخيال المخصب البديع ؛ وما ظنك بقوم هذا شأنهم قد نزل العرب
بلادهم منذ الفتح الأول ، ثم أنشئوا أكبر دولة عرفها التاريخ في
أحضانهم وبمعوتتهم ، ولما مضى على ذهاب سلطانهم من الزمن طويل ،
إلا أن يتشربوا مدينتهم ، ويتحضرُوا بحضارتهم ، ويظهر أثر ذلك جليا
في كلامهم ، وإن تغلبوا عليهم في اللغة والدين

أما الأتراك الذين شاطروا الفرس النفوذ في العصر العباسى عهدا
بعهد . فلم يك لهم ما للفرس ولا شيء منه في هذا الميدان لما يلي من أسباب
اتصال الأتراك أول ما اتصلوا بالعباسيين خدما مجلوبين من أمة
لأعهد لها بعلم ولا سابقة عندها لحضارة ، إنما هم قوم من البدو الآميين
الذين لا يزالون يضربون في الأرض ابتغاء الرزق سابا ونهبا ، ويذرعون
أواسط آسيا شرقا وغربا ، متقاتلين فيما بينهم ، ومقاتلين من يصادفهم من
غيرهم ، عمادهم قوة أبدانهم ، وما يتخذونه سلاحا بأيديهم دون أن يقيموا
دولة أو ينشئوا حضارة ، فبقى هذا شأنهم حين صار لهم النفوذ في
العصر العباسى الثانى على الخلفاء ، غاظة في غير رفق ، وقسوة لا تعرف
الرحمة ولا التعقل اليها سبيلا ، وتنافر بين أحزابهم ، أيهم أكثر قوة
وأشد في النكاية إيغالا ، فهم صورة من صور الخسف والاستبداد
والسيخف والاستعباد ، تبقى ما بقى بطشها وسلطانها ، فاذا ما زالت بالقوة

كسرى أنو شروان ورحب بهم وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى
الفارسية حتى نقلوا منها الكثير ثم أخذوا يؤلفون في علوم الفلسفة وغيرها
حتى شاع العلم اليونانى بفارس كما شاعت قبل علوم الهند والصين .

وتعدادها النفوذ، ذهبت غير مخلفة من الآثار ، إلا اللعنة وسوء الدار .
أما حضارة تؤثر في حضارة ، وأدب يؤثر في أدب ، ولغة تتدخل في لغة ،
فلا شيء من ذلك عندهم حتى يكون ، ولا أثر له في وجودهم يبقى إذا
أفناهم الزمان .

وحين مكن لهم الدهر في عهدهم الثاني عهد السلاجقة الذي كان
أطول العصور ، كانوا من تلك الناحية كما كان أسلافهم في العهد السالف
مقفرين ، فلم نجد العربية في لغتهم ما تتأثر به من علوم وآداب لأنها لم
تلك لغة علوم وآداب ، وبقيت مصبوغة بالصبغة التي كانت لها من لغة
فارس ، بل زادت الفارسية فيها تأثيرا عما كان لها قبل أن يكون للأتراك
سلطان^(١) وبهذا خلت العربية من كل أثر للتركية إلا بعض ألفاظ
منها سرت إلى لغة التخاطب بدافع الاختلاط^(٢) .

ومما وقف في طريق أن تتأثر العربية بالتركية في هذا العهد
الأخير على فرض أن يكون لها تأثير ، أنه جاء وقد استوفت العربية

(١) كان أتراك المشرق إذا انتصروا لغير العربية جاء انتصارهم للفارسية
دون لغتهم العاجزة أن تكون لغة علم وأدب ، يؤيد هذا ما سبق عن السلطان
محمود الغزنوي من تسكينه الفردوسي إتمام نظم الشاهنامه الفارسية .

(٢) من ذلك سنجق دار الحامل الراية خلف السلطان ، ودوادار المتولى
الأحكام وتنفيذها ، ومردار لرئيس الجيش ، ونحوها من الكلمات المركبة من كلمتين
ركيتين إحداهما دار بمعنى ممسك والآخرى مأخوذة من المعنى المراد كسنجق
بمعنى الرمح وهكذا .

كل ما احتاجت اليه في ترجمة العلوم والآداب ، جله من لغة فارس ، وقليله من اليونان ، والنادر من الهنود . ولعل من يقول وكيف تذكر ما تذكر عن الهندية واليونانية ، وفيض الهنود على العرب في العلم عظيم . وفيض اليونان أعظم وأوفر ، وهذا داع إلى أن يكون تأثير العربية بلغتيهما على درجة لا تستقيم وقولك إنه نادر وقليل ، فنقول تفهما له وتبيننا ، إن التأثير من الناحية العلمية المعنوية غير التأثير من ناحية الالفاظ والاساليب ، وحقيقة كان فيض العلم اليوناني والهندي على العربية كما ذكرت ، ولكن أغلب ما نقل اليها منهما كان عن الفارسية التي نقلته قبل اليها ، فكان لها فيه الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب ، ثم الاشتراك مع هاتين اللغتين في التأثير العلمي ، إذ لا تخلو الترجمة من أن يكون المترجم في معناها نصيب .

على هذا الضعف كان شأن اللغة التركية التي شارك أهلها الفرس في النفوذ . فاستقلت الفارسية بالتأثير البين في العربية في تلك الأوجاء الشرقية المترامية الأطراف ، وبقي لها كيان شخصي أخذ يتزايد وينمو كلما تقدم بالدولة الزمان ، حتى عم آخر العهد قاصية فارس ، فكانت الفارسية فيها لغة أدب وتأليف ، ثم أخذ يزحف من الشرق إلى بغداد حتى رد أمته فارسية اللغة كما كانت أول الزمان ، أما وسط الدولة فكانت العربية وهي لغة غالبية منذ القديم غلبة على ما وجدته من لغات أصبحت في ذمة التاريخ ، وكذلك فعلت في لغات غربها ، وإن لم تكن لغة أهل قبل الفتح ، فلم يبق شيء من تلك اللغات وجود ، وإذن كان للغة الفارسية بذلك وبمن نبغ فيها من أبناء العرب ونبغ في العربية من

أبنائها، الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب في ميدان الآداب والعلوم^(١) .
إلا ما كان من مشاركة اليونانية لها في الميدان العلمي، حينما ترجمت منها
مباشرة إلى العربية بعض العلوم، وهذا ما سيظهر جليا فيما نحن مجملوه
عماجد باللغة في تلك النواحي الثلاث، بعامل هذا التأثير مع العامل الطبيعي
للنشوء والارتقاء إلى أن يفصل بعد بتفصيل الموضوعات .

أولا - ناحية الأغراض والمقاصد

قد اتسعت مقاصد اللغة وأغراضها في العصر العباسي اتساعا
كبيرا ساعد عليه امتزاج المدنية الآرية بالسامية امتزاجا تاما، وكان من
وراء ذلك أن تناول التغيير أغراضا بالايجاد، وأخرى بالسعة والازدياد،
كانت منها هذه الأغراض

١ - تدوين العلوم على اختلاف أنواعها من شرعية ولسانية
وعقلية .

(١) كان الدافع للفرس إلى تعلم لغة العرب أنهم وجدوا تعلمها وسيلة
ناجعة في الوصول إلى أعلى المناصب وآلة فعالة في جلب الغنى الواسع فحذقوها
وعملوا على نقل محاسن لغتهم إليها، وكانوا لا يحصون كثرة .

أما الدافع إلى تعلم كثير من العرب لغة الفرس فهو الاستمتاع بقراءة
آثارهم والتماس اللذة من الاطلاع على تاريخهم . ولما تغذوا بلبانها كانوا أداة
صديق في تغذية العربية بكثير من ثمارها .

ولقد جنى الأدب العربي على أيدي من حذقوا اللغتين معا ثمارا شهية
ناضجة، كعبد الله بن المقفع، والبيدع الهمداني من الأدباء، والفخر الرازي من
الفلاسفة، وموسى بن سيار من رجال الوعظ والارشاد، وغير هؤلاء كثير .

٢ - الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبخاصة الفارسية ثم اليونانية .

٣ - إشاعة المذهب الشعبي والرد عليه .

٤ - نشر الزناقة والاحاد ومقاومتها .

٥ - تعبيد طرق البحث والجدل والمناظرة والمحاضرة .

٦ - التحريض على متم الحياة وتحسين المجاعة والخلاعة وامتداح الشراب والغناء .

٧ - الوعظ والارشاد عن طريق التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة .

٨ - ضبط أمور الدولة بتنويع الكتابة في مختلف الدواوين .

٩ - وضع القصة والرواية .

١٠ - وصف جمال الطبيعة ومحاسن الحضارة، كالرياض، بما فيها من ثمار وأزهار ورياحين، والقصور وما حوت من أثاث ودياش وصور ورسوم، ومجالس المنادمة والشراب، ومسايد الوحوش والسمك والطيور، وأنواع اللعب بالكرة والصولجان، إلى غير ذلك من آيات الحضارة ومباهج الحياة .

١١ - النقد الأدبي على اختلاف مناحيه .

١٢ - تدريس العلوم المختلفة في المدارس وتربية الأحداث .

ثانياً - ناحية المعاني والأخيلة

لقد فتح التوسع في المقاصد وتعدد الأغراض أمام الناس أبواباً جديدة للمعاني والتخييلات، إذ كان تدوين العلوم وترجمتها عاملاً على

نضج العلوم وسعة الأفكار ، وكانت الملاحاة الجنسية والمذهبية باعثة على قوة المباحنة والمناظرة ، وخلق الحجج الجدلية إن أعوز البرهان ، وكذلك كان باعثا عليها ما كان بين زهاد هذه الحياة والمبتهجين لأنفسهم الاستمتاع ، إلى غير حد بما فيها من لذة ونعيم ، ثم كان وضع القصة وخلق الرواية فاتحا أمام الخيال أودية بعيدة ما بين الأطراف ، كما كانت طبيعة البلاد الخصبة ومجالي الحضارة فيها مطلقة للتصوير الحسى كل عنان ، فعاد هذا وغيره على المعانى والأخيلة بأطيب الثمرات وهذا بعض ما كان ، مشفوا لدقته دون ما ماتكنفاه بالتمثيل^(١)

١ - الاكثار من المعانى الدقيقة والجديدة ، التى تدل على حصافة عقل وغوص فكر وطول دراسة للعلوم العقلية وتفهم لمناحى الفلسفة من ذلك قول ابن المقفع فى الأدب الكبير :-

« إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك فانما هو أحد رجلين ، إن كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك ، أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك وعورة يسترها منك ، وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس . وتكافئه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى »

(١) سنقصر التمثيل هنا على النثر وندع التمثيل من الشعر مع تفصيل القول إلى حيث الكلام على ناحية المعانى والأخيلة فى الشعر وهى غنية بالأمثلة والشواهد على كل ما نذكر هنا .

٢ - إرسال الحكمة المقررة وضرب المثل الموضح ، لما رسيخ في
أذهان القوم من فلسفة معينة ، وتجارب مفهومة ساعدتهم أن يكثروا
من النوعين مجيدين

من ذلك قول ان المفع في كتاب كلية ودمنة من باب عرض الكتاب
« فالعلم لا يتم إلا بالعمل ، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ، وإنما
صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى
عالما ، ولو أن رجلا كان طالما بطريق مخوف ، ثم سلكه على علم به سعى
جاهلا ، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما
هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك في الطريق المخوف
الذي قد جهله . ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه
هو أو أعلمه به غيره ، كان كالمرضى العالم بردى الطعام والشراب وجيده
وخفيفه وثقيله ، ثم يحمله الشره على أكل رديئه ، وترك ما هو أقرب إلى
النجاة والتخلص من علة ، وأقل الناس عذرا في اجتناب محمود الأفعال
وارتكاب مذمومها ، من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على
بعض كما أنه لو أن رجلاين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل
إلى حفرة فوقعا فيها ، كانا إذا صارا في قاعها ، بمنزلة واحدة ، غير أن
البصير أقل عذرا عند الناس من الضير إذ كانت له عينان يبصر بهما ،
وذلك بما صار إليه جاهل غير عارف »

٣ - استخدام الحجج العقلية والبراهين الفلسفية التي أصبحت
أذهانهم الناضجة لا ترضى بغيرها ولا تقنع بسواها
من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف على لسان طاهر بن الحسين

إلى المأمون بقتل الأمين وهو :

« أما بعد فإن كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة ، فقد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والخدمة بمفارقتهم عصمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ، لقول الله فيما اقنص علينا من نوح وابنه » إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ولا طاعة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله ، وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده ، والحمد لله الرجوع إلى أمير المؤمنين معاوم حقه ، الكائد له فيمن ختر عهده ونقض عقده ، حتى رد به الألفة بعد فرقتها وجمع به الألفة بعد مشتاتها وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بالديار وهي رأس المخلوع وبالأخرة وهي البردة والقضيب والحمد لله الآخذ لأمر المؤمنين حقه الرجوع إليه تراث آباءه الراشدين .

٤ - الأبداع في التصوير والأغراب في الخيال . وقد كثرت موادها وتعددت ألوانها في أدب القصة من المنتور ، ومن خير ما تطالع فيه الأول أمثال كيلة ودمنة ، ومن خير ما تطالع فيه الثاني ، حكايات ألف ليلة وليلة ، وإنك لمصيب الاثنين مما فيما وضع بجانب هذه الكتب من مقامات ، وبخاصة للبديع والحري وسنختار مقامة لكل بعد : ه - الأقدام دون تهيب على المبالغة والتحويل جريا على ما كان للفرس بهذا النوع من ولوع حملهم إليه التباعد بين طبقات الناس .

من ذلك ما كتب به أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف صاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة عن نفسه إلى مؤيد الدولة شكرا على

شكر سماه تهنئة .

« وصل كتاب مولانا جرابا عما خدمت به حضرة المحروسة مهنشا ، فحسبتي وقد تأملت عنوانه ، مغلو طافي أو معنيا به غيري ، إعظاما لتلك الأيدي الغر والنعم الزهر التي أعدتها في الشرف مناسب وإلى الأيام والليالي ذرائع » إلى آخره .

٦ - وهذا كله إلى محص الأفكار وترتيب عناصرها ، حتى يأخذ بعضها بحجز بعض ويقل الشذوذ والاقتضاب .

ثالثا - ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان تأثير اللغة في هذه الناحية أظهر منه في الناحيتين السابقتين ، لأنها فضلا على تأثيرها بهما ، قد تأثرت من نواح غيرهما ، وهذي بعض مظاهر التأثير نسوقها عدا كما فعلنا في ناحية الأغراض .

١ - حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم وأخرى فنية لتعليم الصناعات روعى في كليهما مقياس المنطق والفلسفة ، لا مقياس الأدب والبلاغة ، ولم تك هناك مندوحة دون حدوثهما بعد نشاط التدوين في شتى العلوم وصنعا وترجمة وانتشار الصناعات .

٢ - نقل كلمات عربية إلى معان جديدة بطريق التجوز أو الاشتقاق أو القياس ، لمصطلحات العلوم والفنون والصناعات وما إلى ذلك من إدارات الحكومة ودواعي العرف العام .

٣ - دخول كثير من الكلمات الأعجمية في كل ما تقدم ، وبخاصة على أيدي المترجمين والمؤلفين فيما نقل من علوم ، وذلك بعد تغييرها إلى ما يجعلها متفقة مع العربية مخارج حروف وأبنية أوزان إن كانت في حاجة

إلى غير. وتسمى حينئذ بالكلمات المعربة، كما يسمى هذا التغيير بالتعريب.

٤ - الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى كل التمثيل.

٥ - التأنيق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهومة للغرض في

شدة أسر وقوة أداء

٦ - التوسع في استخدام أنواع التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز.

٧ - الاكثار من محسنات البديع لفظية ومعنوية مع الازدواج

المصحوب كثيرا بالسجع.

٨ - الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته

والاستبشاد بها.

٩ - الانحدار إلى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات

الخلاعة والمجون.

١٠ - التوسع في إدخال ألقاب التعظيم على الأسماء وبت عبارات

الماق والخنوع في ثنايا الكلام.

١١ - التغالى في كل من الاطناب والايجاز الى درجة قد نُسوِّد مع

الاول عشرات الأوراق في بعض الرسائل والعهود والمنشورات. وتصل

بالثاني في قصار الرسائل إلى حد التوقيع.

١٢ - ظهور جديد في الوزن والقافية لم يكن معروفا من قبل كما

سيأتى بيانه في الشعر^(١).

(١) من ذلك في الوزن ما يسمى الممتد وهو عكس المديد كقول القائل

قد شجاني حبيبي واعتاني اذكار ليته إذ شجاني ما شجتنى الديار

ومنه في القافية ما يسمى المسقط وهو أن يبتدىء الشاعر بأقسمة من قافية

ذاك أظهر ما كان من جديد في نواحي اللغة أدبها وعلمها ، وللفارسية تأثير فيه كبير ، من خير وشر في الأغراض وحسن وقبيح في المعاني والألفاظ ؛ ولقد كان بجانب الخير والحسن الغلبة في أوائل العصر ولكن لم يأت آخره حتى تغلب الشر والقبح باستكراه اللفظ والمعنى وضعف ملكة البيان .

وهناك ناحية للغة لم تك من حسابنا فيما أسلفنا من قول ، هي ناحية التخاطب العام الذي جنت عليه الأعجبيات أكبر جناية عرفت للعجبة على لغة الضاد حتى انتشرت العامية وكان حقا أن تنفرد في هذا العصر حيث الكلام عليها بعنوان .

واحدة يأتي بعدها بقسيم من قافية أخرى يلتزمها دون سابقتها كقول بعضهم

غزال هاج لي شجنا فبت مكابدا حزنا صميد القلب مرتها

بذكر اللهو والطرب

سبتني ظبية عطل كأن رضاها عمل ينوء بخصرها كفل

ثقل روادف الحقب

انتشار العامية

واختلافها باختلاف الاقاليم

عقدنا في كتابنا الثاني من تاريخ الأدب العربي حيث الكلام على العهد الأموي، فصلا لم نعقد مثله في عصرى الجاهلية وصدر الإسلام هو « لغة التخاطب » علمنا فيه تنزه العصرين المذكورين عن اللحن والتعريف والدخيل، وأبنا السبب في نشأة تخاطب جديد في العصر الأموي مشوب بهذه الاشياء قلنا من وصف لغته إذ ذاك :-

« فهذه اللغة الجديدة كانت خايطا من العربى المشوه بعضه باللحن والتعريف، والأعجى الذى يختلف باختلاف الأعجميات فى الامصار، من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ولكنهم لم يتناول بلحنها وتعريفها ودخيلها جميع المتكلمين، فكانت بعيدة عن ذلك كله على السنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريبا على السنة أبناء الخاصة من أمهات عربيات، أما أبناءهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقا فلم تخل لغتهم من شيء من هذا، وقد يكون مصحوبا بلكنة أعجمية أيضا، ولكن هؤلاء جميعا كانت محادثتهم عربية فى مجموعها بالنظر إلى محادثة الاماجم أهل البلاد الاصليين إلا من تعلموا العربية منهم ونبغوا فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين، ولذلك سابقوم فكانوا مثلهم فى ميادين الأدب والشعر، وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف » إلى أن قلنا :-

« غير أن شيوع اللحن فى العصر الأموي لم يززع من عقيدة

الناس في لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين ، مع اصطباغ الدولة
بالصبغة العربية المحضة ، فاستمروا يتهيبون اللحن ويذمونهم ويفنخرون
بالأعراب ويمدحونه .

نريد بهذا القول وذاك أن لغة التحدث العام كانت عربية لما
تتحول إلى عامية بعد

أما في العصر العباسي الذي نحن بصدد الكلام فيه ، فقد تحولت
إلى عامية انشرت بقوة العجمة على تتابع سنيهِ الطوال فطاردت العربية
من هذه الوجهة بكافة الأقاليم ، وبلغت شدتها في بعضها القضاء عليها
والعود بالمحادثة إلى لغات سكانه الأصليين . نعم إن تلك المطاردة
اختلفت قوة وضعف باختلاف الجهات ، ولكن التحدث لم يك بالعربية
الصحيحة في جهة ماحتى البداية فقد دخلتها العامية قبل انقضائه بزمن
طويل ، واليك في هذا كله البيان .

ورث العصر العباسي إذن عن العهد الأموي لغة التحدث عربية
صحيحة في مجموعها ، وبذل خلفاؤه الأولون على بقائها صحيحة بمحاربة
اللحن والتحريف أن يتسرب إلى ألسنة السواد وإن وقع من بعضهم ،
جهودا مشكورة حاكما فيها الولاة والامراء العرب محاكاة المخلص
المتعصب ، والموالي محاكاة المتزلف المتقرب . وبدت هذه الجهود في
شقي الأتوان دافعا عن لغة الدين والعلم والسلطان .

من ذلك أنهم بلغوا الذروة في تكريم اللغة بتكريم رجالها علماء
وأدباء ورواة وشعراء ، فكانوا يفسحون صدورهم لنقاش العلماء ،
ويوسعون مجالسهم لمناظرة الأثباء ، ويهيبون بالرواة أن يجدوا في جمع

شوارد اللغة وضبط مآثورها، ثم يقيمون المحافل لاستماع الشعراء باذلين في كل ذلك عناية تحفز الهمم ، ومالا يستهوى النفوس ومنه أنهم كانوا القدوة الحسنة في فصاحة العبارة وبلاغة المعنى، والأسوة الطيبة في العناية بتنشئة أبنائهم على مثل ما هم عليه من بيان، فلم يفت واحدا منهم أن يستحضر لتأديب بنيه ، المبرزين من شيوخ الأُدب وأكابر الرواة، كالشرقي القطامي مؤدب المهدي ، والأحمر النحوي والكسائي مؤدبي الأمين ، والزبيدي مؤدب المأمون ، والمفضل الضبي مؤدب الواثق ، ويعقوب بن السكيت مؤدب المعتز ، وثعلب والمبرد مؤدبي ابنه عبد الله بن المعتز ، إلى غير هؤلاء ممن كان الخلفاء يأملون من وراء ملازمتهم أبناءهم تثقيفا عربيا يغني عن الرسائل إلى البادية التي كان يحرص خلفاء الأمويين على تثقيف أبنائهم فيها .

ومنها قدرهم النبوغ العربي قدره بما يظهرون من تعظيم لآله تنسى معه ضعة الأصول ولا يضمن عليه من أجلها بكبار المناصب ، ونظرة إلى من قلدوا أعمال الدولة إذ ذاك ترينا كيف كان النبوغ الأدبي أمام ذوى الهمم المتحفزة خير وسيلة للتقدم ، وإلى أية غاية اتخذوه معارج عليها يظهرون^(١)

(١) من الحوادث التي تؤيد هذا وهي كثيرة ما ذكر من أن المعتصم وكان أميا ورد إليه كتاب بعض العمال فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار فاذا فيه ذكر السكلا فقال المعتصم للوزير ما السكلا؟ فلم يدر ما هو فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير عامي ثم قال: انظروا من الباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الويات

م ٤ - أدب

غير أن هذه الجهود وغيرها مما كانوا يبذلون لم تقو على صد تيار العجمة الزاحف بجيوشه من لحن وتحريف ودخيل ، والمتخذ طلائعه الغازية السنة من لا يترفع عنه من ضعفاء العرب ، ومن لا يتطلمعون إلى رقى من الأعجام ، فكان بهؤلاء وهؤلاء شديد الوطأة . قوى الزحف ، سريع الانتقال ، أنبأ عن وجوده في العصر الاول على كره الخلفاء حتى على السنتهم ، وأعلى مكانة نفسه في العصر الثاني فلم يكن من ظهوره على السنة الخاصة خجل ولا حياء .

فأما إعلانه عن وجوده في العصر الأول فقد ظهر على السنة الخلفاء وخاصتهم على تهيبهم له وتقززهم منه . ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن في مجلس به أعرابي فصر الأعرابي أذنيه ، ثم لحن ثانية فقال الأعرابي أف لهذا ، ثم لحن الثالثة فقال أشهد لقد وليت هذا الامر بقضاء وقدر . ودخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه فقال الرشيد أتلحن يا فراء فقال يا أمير المؤمنين إن طباع أهل الحضر اللحن فاذا تحفظت لم أَلحن وإذا رجعت إلى الطباع لُحنت . وكان المأمون يقول أتكلم مع الناس كلامهم على سجيتي إلا مع ابن الهيثم فاني أتُحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الأعراب . وسمع المأمون بعض ولده يلحن فقال « ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ويزين بها مشهده ويفل حجة خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته فلا يزال الدهر أسير كلمته » إلى غير ذلك مما يدل

فأدخل عليه فسأله عن الكلاء فقال يا أمير المؤمنين هو العشب طامة فان كان رطباً فهو الخلا وإذا يابس فهو الحشيش فعرف المعتصم فضله واستوزره .

على أن اللحن في العصر الأول كان من طباع أهل الحضر لضعف
ملكاتهم ، كما يدل على أنه كان شائعا على ألسنة السواد ، ولكنه يدل
بإزاء هذين أنه كان إذا وقع من الخاصة استهجن وقوبل من السامعين
بأكبار أمره والتشدد في المؤاخذه به . وقد بلغ من تأذى الرشيد باستماعه
وعنايته بأصلاحه أن حاول إصلاح غناء الملاحين بدجلة ، وكان إذا ركب
بها أعجبه غناؤهم وآلمه لحنهم فقال جلسائه : قولوا لمن معنا من الشعراء
يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقبل له ليس أحد أقدر على هذا من
أبي العتاهية . وكان في الحبس فوجه إليه يأمره بعمل الشعر دون أن يأمر
بإطلاقه : فغاضه ذلك وعمل له شعرا في الوعظ والتذكير بتقارب الأيام
لينغص به على الرشيد سروره كلما سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر
يبكى للموعظة إذا مرت بأذنه فكان كلما سمعه تأثر ولج في بكائه حتى يأمر
من معه الملاحين بالسكوت^(١)

(١) كان سبب حبس الرشيد له أنه لما تنسك ولبس الصوف أمره الرشيد
أن يقول شعرا في الغزل فامتنع فضربه وحلف ليجبسن حتى يقول الشعر فقال
أبو العتاهية « كل مملوك لي حر وامرأتى طالق إن تكلمت سنة إلا بالقرآن ، أو
بلا إله إلا الله محمد رسول الله » فخرن الرشيد مما فعله وأمر أن يجلس في دار
ويوسع عليه ولا يمنع من دخول من يريد إليه .

أما الشعر فهو كما رواه عن نفسه

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح

لدواعي الخير والشر م دنو ونزوح

هل المطلوب بذنب قوبة منه نصوح

وأما إعلائه مكانة نفسه في العصر الثاني، فكان حيث فقد الأُدب النصير من الخلفاء وأولياء العهود السابقين، وخلف من بعدهم خلف نشئوا بين الامهات والخواصن الأعجبيات لا يخالطون إذا خالطوا غيرهن، سوى الخدم الأعجم، بعيدين في كل ذلك عن الرواة والمؤدبين. ثم تولوا الخلافة على هذا الضعف الشائن المعيب ففقدت الفصحى بذلك معين التشجيع والتأييد، وتعدت العامية السنة السوداء إلى السنة الخاصة فكان بها تمحادثهم وخطابهم ما لم يحتفلوا بقول يذاع، ومن هنا بدأت العامية تعمل عملها في السنة الخواص حتى أفسدت عليهم فصاحتهم،

كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تقوح
فاذا المستور منا بين، ثوبيه نضوح
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الأر ض على قوم فتوح
سيصير المرء يوما جسدا مافيه روح
بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والسموت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنيا غبوق وصبوح
رحن في الوشى وأصبحنا من عليهن المسوح
كل نطاح من الدهر له يوما نطوح
نح على نفسك يامسكين إن كنت تنوح
لتموتن وإن عم م رت ماصم نوح

التي صارت لا تسعفهم حين التهيؤ لمقال إلا بالعربية الوسط ما لم يكونوا كتابا أو شعراء و بقيت على هذه الحال إلى نهاية العصر المذكور .

فلما جاء العصر الثالث ، جاء وقد ظهرت العامية على السنة الخواص ، وبالرغم من بلوغ الكتابة والشعر فيه الذروة كما أسلفنا ، وجدت تلك اللغة في التحادث العام بصرة كبيرة من هؤلاء ، لأن غالبيتهم في الأصل أعجم لا يزال في رءوسهم وان هزموا أمام العربية لغة كما هزموا ديننا ، أن يفسحوا الطريق أمام لغاتهم الأولى على السنة السواد كي تشقه مكتسحة العربية لتحيا بعد موت وتقوى فيما هيء لها من حياة ، فبدأت العربية تنقلص من الأطراف مخلقة مكانها للغات السكان الأصليين كالبربرية في شمال أفريقية والفارسية في خراسان .

ولقد صحت هذا التقلص ظاهرة لم يك حدوثها في الحساب ، تلك أن من عنوا بالنطق الصحيح في حديثهم العام ، أصبحوا مضغة في الأفواه يسخر منهم ويستهزأ بهم ويحلو للناس ترداد حديثهم في المجالس ترويحاً عن النفس وتفكهاً للسامعين ، ثم استمرت هذه الظاهرة تكسب أنصاراً ومؤيدين حتى كانت في العصر الرابع طلبة دعت العلماء إلى إجابتها بالتأليف والتصنيف^(١)

أقبل هذا العصر الأخير شاملة مجتمه جميع الأطراف وفاقدة حكمه ما كان لأمثالهم في سابقه من صلة بالآداب ، فقد ر على العربية

(١) كما فعل أبو الفرج النحوي المتوفى سنة ٤٩٩ حيث ألف كتاباً جمع فيه أخبار المتقهرين .

جزر منتقص بعد أن كان لها مد ذو ازدياد ، ولم تلبث أن ولت أمام
الأعجيبات الأدبار ، مسرعة إلى باديتها عسى أن تجدها مقرا هادئا كما
كانت في خوالي الأيام ، ولكنها لم تكد تنعم بهذا الهدوء طويلا حتى
غزتها العجمة في عقر دارها ، فارتدت فصيححتها صامية قبل أن يبلغ ذلك
العصر منتهاه ، وكان من أفعال العوامل في هذه الغارة التي قضت على
البقية الباقية في البادية عاملان .

أحدهما ديني هو انطلاق الآلاف من عامة الأقطار الإسلامية
كل عام إلى مكة والبيت الحرام يهرعون إليه لتأدية فريضة الحج ثم
ينقلبون إلى المدينة لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وهم على
اختلاف ألسنتهم يخالطون العرب خلال ذلك مخالطة جوار طويل
وصحبة دائبة لا تنكأ تنقضي حتى تكون بوادر أمثالها من العام القابل
على وشك الحدوث ، ولا يظن ظان القلة فيمن كانوا يختلطون بهم
من القبائل ، فإن هذا ظن كان يكون لو أن ذهاب العرب إلى الأماكن
المقدسة لم يكن إلا للحج ، أما موسم الحج هو الموسم التجاري للعرب
يقدمون إليه بماشيئهم وسلعهم مبكرين ، ثم لا ينصرفون إلا حيث
ينصرف الناس ، فإن من شأنه أن يجعل جماهيرهم تزاحم كل غريب ،
واختلاطهم يطول زمنه إلى أبعد ما يكون ، فهذا الاختلاط الذي كان
يبدأ في القافلة منذ هبوط الأعجام بلاد الأعراب ولا ينتهي إلا حيث
يسلمهم أولئك الأعراب إلى الأحصار عائدین ، استمر يحمل إلى البادية
لغات من العجمة ذات ألوان لم تزل تغزو فصيححتها في جوفها حتى
خرت أمامها صرعى مالها من مقليل ، قد أضر بكلماتها اللحن والتحريف ،

وصحبها ما صاحبها من أعجمى دخیل . ولقد كان لهذا الا ط مدد مقيم من أولئك الذين يجتمعون بين عامين في هذه البلاد ، يحجون في عام ويزورون في عام ، وآخر أكثر إقامة ممن وهبوا أنفسهم لجوار الرسول حتى يوافيهم في هذه الأماكن المقدسة أجلهم المحتوم ، فيفوزوا من الله بمغفرة ورضوان .

والآخر دنيوى هو انتشار الثورات في الجزيرة وأطرافها لبعث مركز الخلافة في العصر العباسى عنها ، إما من قبائلها على قوافل الحج فيضطر الخلفاء إلى تجهيز جيوش الأعجام لتأديبها وإعادة الأمن إلى نصابه في ربوعها ، فتجوس تلك الجيوش ديار العربية الفصحى إذ غالبية هذه القبائل كانت من قيس عيلان وسكنها هاتيك الديار على مقربة من مكة والمدينة وما إليهما من قرى الحجاز^(١) وإما من أعجام يقصدون إلى أطرافها لنشر مذهب أو التهيؤ لخروج فيؤثرون في لغتها بأقامتهم ويضاعف هذا التأثير ما قد يكون من بعث الخلفاء بالجند الأعاجم اليهم ، كما كان من الزط في بادية البصرة ، والزنج بشواطئ الفرات ، والقرامطة بسواد الكوفة والبحرين واليمامة والحجاز ، وغيرهم ممن كانوا منبع قلق واضطرابات لاتزال تدعو في إخمادها إلى جوس

(١) من تلك الثورات ما كان من بنى سليم وبنى هلال وفزارة وبنى كلاب في خلافة الواثق بالله سنة ٢٣٠ وقد وجه اليهم الواثق جيشا عظيما بقيادة بغا الكبير قضى قرابة السلتين في حربهم حتى انتصر عليهم وطاد بكثير من ذوي الشغب فيهم الى سامراء .

الأعجام مضارب الأعراب^(١). فبهذين العاملين مع عامل الاختلاط العام، ردت لغة التخاطب الصحيحة بالبادية إلى عامية قبل انتهاء القرن

(١) فأما الزط فهم قوم من الهنود سكنوا شواطئ الخليج الفارسي قديما وعاشوا على السلب والنهب طويلا، حتى إذا كانت الفتنة بين الأمين والمأمون استولوا على طريق البصرة، وأخذوا يعيشون وينهبون، وقد استمروا على ذلك طوال خلافة المأمون. ولما ولي المعتصم كان شرهم قد استفحل وزاد، فجرد إليهم جيشا هزمهم وحاد ببقاياهم وأسراهم إلى دار الخلافة سبعة وعشرين ألفا فسرحتهم الدولة إلى شمالها ومنه نفذوا إلى أوربة حيث تعيش أنسا لهم الآن ربوعها الوسطى تحت اسم «العجر والنور».

وأما الزنج فقد ظهوروا في خلافة المعتصم على الله بدعوة رجل فارسي ظهر أول مظهر يالبحرين سنة ٢٤٩ يدعو الأرقاء من العبيد إلى التحرير وقد أطاعه منهم خلق كثير خرجوا على سادتهم فتوجه بهم إلى البصرة وشواطئ الفرات فخرب الدولة وهدد بغداد وبقي كذلك مصدر شغب حتى قتلت جيوش الخلافة سنة ٢٧٠.

أما القرامطة فقد ظهوروا أول مظهروا بسواد السكوفة على يد رجل من خوزستان في آخر خلافة المعتصم على الله سنة ٢٧٩ وكانت دعواه إلى جعل الخلافة في آل البيت فكثرت أتباعه وظهر لهم نفوذ بالشام وكافة أرجاء الجزيرة العربية فأصبحوا فيها قطاع طرق ينهبون الحجاج ويعتدون على الأماكن المقدسة وساكني مدنها بالسلب والتخريب دون أن تظفر عليهم الدولة بالغلب حتى إذا مات برأ منهم القائم على دعوة آل البيت فقدوا كثيرا من الأنصار فأمكنهم الدولة هزيمتهم وقد مضى على عبثهم هذا أكثر من ثلث قرن.

الرابع الهجري فذهب آخر مدد كان لها أمام الرواة^(١)

على هذا النسق الذي ذكرنا تملكنا العامية ألسنة السواد في جميع الأقطار، فلم ينطقوا بغيرها ونالت ألسنة الخواص في تحادثهم العام فلم يحيدوا فيه عنها، ولكنها كانت مع اشتراكها بجميع الجهات في إفساد العربية الصحيحة باللحن والتحريف والدخيل، تختلف في إقليم عن إقليم باختلاف يرجع إلى أثر العجمة قوة وضعفا، وإلى نوعها لفظا وأسلوبا. فمن الأول قلة الجاليات العربية أو كثرتها وبعد الأقليم عن مواطن العرب الأولى أو قربها منها، فحيث كانت الجالية قليلة والاقليم بعيدا، يكثر الدخيل ولا يكاد اللحن والتحريف يترك من الألفاظ العربية

(١) عن أهل البادية أخذ أبو عمرو بن العلاء طامة أخباره، وعليهم عول الأصمعي في غريب اللغة، ومنهم استمد سيبويه والكسائي مراجع أحكام النحو، وما زالوا مستمد رواة الأدب وعلماء اللغة وأئمة النحويين إلى القرن الرابع حيث بدأ لسانهم يفسد، فكان هؤلاء يأخذون من بعضهم دون بعض كما كان يفعل ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢. ومنذ القرن الخامس لم يبق منهم أحد على الفصيحة إلا ما ذكره ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ عن أهل «عكاد» فقد قال في لفظ عكوتين «هو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن» ثم عاد يقول بعد أن ذكر أن من مدن أحدهما الزرائب «وجبلا عكاد فوق مدينه الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحة وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه» وأيد الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٧ في مادة عكد بقاءهم إلى أيامه على تلك اللغة، كما أيد شارحه الزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ بقاءهم كذلك حتى أيامه أيضا.

صحيحاً، ولهذا كانت العامية في الأطراف القاصية - كخـِـ اسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً وأرمينية شمالاً والنوبة جنوباً - شديدة الوطأة على اللسان العربي، لفظاً وأسلوباً، ولولا شدته بقوة الدين وأنه لسان القرآن والحديث، ما شق له في هذه القاصيات طريقاً، أما حيث تكثر العرب ويقترب الأقاليم - كما في العراق ومصر والشام - فإن الدخيل يكون حينئذ قليلاً، واللحن والتعريف لا يضحى متغلغلاً، ومن ثم بقيت العامية عربية في هذه الأقطار وارتدت في تلك إلى لغات أهلها الأصليين، على أنه إذا تعارض هذان العاملان كان لحال الجالية كثرة وقلة، الغلبة على حال الأقاليم بعداً وقرباً ولهذا كانت عامية الاندلس على بعدها، خيراً من عامية بلاد المغرب وهي أقرب منها.

ومن الثاني التفاوت في نوع الكلمات الدخيلة إذا كانت في كل إقليم من لغة سكانه الأولين. ففي اشرق كانت غالبيتها فارسية وقلتها تركيه، وفي الشام ومصر كان الدخيل من اليونانية والرومانية والقبطية، وفي شمال أفريقية كان بربرياً، أما في بلاد العرب فقد كان خليطاً من كل هذه اللغات وأكثر منها ولكنه كان قليلاً.

ومنه أيضاً التفاوت في نوع الأساليب الغازية إذ كان لكل أعجمية أسلوبها من حيث التقديم والتأخير، والنفي والاثبات، والتعريف والتذكير، وهكذا مما له أثر في تكوين الأسلوب.

وكما كانت العاميات تختلف بعضها عن بعض باختلاف الأقاليم ونازليها من العرب كما ذكرنا، كانت العامية الواحدة تختلف في الإقليم الواحد، فتراها في وقت غيرها في آخر، ولو لم تطرأ عوامل سوى

مغالبتها الفصيحة ومغالبة الفصيحة إياها إذ لا بد في تلك المغالبة ، أن تنتهى بقوة إحداها وضعف الأخرى ، وبالحري يقرب هذا الانتهاء بما قد يكون من عوامل طارئة ، كما يشاهد على كليهما في أوائل العصور وأواخرها .

وعلى الرغم مما ذكرنا للعامة من سلطان ، قدر الله عليها ألا تتعدى لغة التحدث العام إلى غيره من لغة العلم في التأليف أو لغة الأدب في الانشاء والقريض^(١) ، وقدر للفصيحة أن تبقى حاملة اللواء في هذه النواحي الثلاث على أيدي العلماء والكتاب والشعراء ، فصمدوا ثلاثتهم على نصرتها يقارعون الحوادث ويغالبون الأيام حتى كانوا النبراس الهادي فيما جد وأواخر العهد العباسي من غيم ، وأطبق بعد زواله على أيدي التتار من ظلام . أما العلماء فلما رسخ في نفوسهم من الحرص على خدمتها ، خدمة للقرآن والحديث حتى يبقيا مددا مفهوما للوعظ والتشريع ، وأما الكتاب فلما كان من حاجة الملوك إليهم في ضبط أمور الدولة بمختلف الدواوين على ما هدى إليه الملوك من إبقاء الكتابة عربية كما ورثوها ، زلنى إلى الدين وتقربا من المحكومين ، وأما الشعراء فلأن الشعر مهما أبعد رجاله وضمن عليهم بالصلوات لا بد أن يغلبهم ولو بالتنفيس عنهم فيما يشكون ومنه يألمون ، على أن حراسة الله للغة دينه وقرآنه أبت إلا أن يكون لها نصراء في أشد العصور حليكة ، وأضيق الأيام حرجا ، وهكذا يأتى سبحانه إلا أن يكون .

(١) لم يظهر بها في لغة العلم شيء هام ، ولا في لغة الأدب إلا الزجل ، والقوما ، وكان وكان ، وبعض المواليا

وبعد

فان لنثر اللغة جانبا أدبيا تراه ماثلا في الخطابة والكتابة الانشائية،
وآخر علميا يظهر في الكتابة العلمية أى تدوين العلوم والفنون .
وإننا لمتناولو الجانبين من الآن بالكلام ، بعد الذى قدمنا من مقدمات .
وبعدهما يكون الكلام على الشعر إن شاء الله .

الخطابه

أولا - نماذجها

١ - لما بويح السفاح^(١) صعد منبر الكوفة فقال :

الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه تكرامة ، وشرفه وعظمه ،
واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكفه وحصنه ، والقوام به والذابين
عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا
برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته
واشتقنا من نبعته^(٢) جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا^(٣) حريصا
علينا بالمؤمنين رءوفا رحيمًا ، ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع
 وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما
أنزل من محكم القرآن « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيرا » وقال « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى »
وقال « وأنذر عشيرتک الاقربين » وقال « ما أفاء الله على رسوله من
أهل القرى فله وللرسول ولذی القربى والیتامى » فأعلمهم جل ثناؤه
فضلنا ، وأوجب عايهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفی والغنیمة نصیبنا
تكرمة لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم
وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا^(٤) أحق بالرياسة والخلافة منا ،

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . (٢) واحدة النبع

وهو شجر السهام . (٣) يريد عزيزا عليه عنتنا أي مشقتنا .

(٤) السبئية أتباع عبد الله بن سبأ من الغلاة القائلين بأحقية العلويين

على أبناء عمهم العباسيين .

فشاهت وجوههم ، بم ولم أيها الناس ؟ وبناهدى الله الناس بعد ضلالهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلاكهم ، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ، ورفع بنا الخسيسة وأتم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاضف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم ، وإخوانا على سرر ومتقابلين في آخرتهم ، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد ﷺ ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، فحوا موارث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خصاصمها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيننا حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا لمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الإصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .

يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير^(١)

٢ - قال ذلك وكان موعوكا فاشتد به الوعاك^(٢) فجاس على المنبر

وصعد صم داود بن علي فقام على مرقاة دونه فقال :

(١) بهذا لقب بالسفاح ، والمبير المدمر . (٢) ألم الحمى .

الحمد لله شكرا شكرا الذى هلك عدونا وأصار إلينا
ميراثنا من نبينا محمد ﷺ . أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا^(١)
وانكشف غطاؤها، وأشرق أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من
مطلعها، وبزغ القمر من مبرغه، وأخذ القوس باريها وطادت السهم إلى
الترعة^(٢) ورجع الحق إلى نصابه، فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة
بكم والعطف عايكم .

أيها الناس إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا
ولاعقيانا^(٣) ولا نحفر نهرا، ولا نبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من
ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم^(٤) وبهظنا من
شئونكم^(٥) ولقد كانت أموركم ترمضنا^(٦) ونحن على فرشنا ويشتد علينا
سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم،
وصدقتكم ومغائكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ
وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله
ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ تبا تبا^(٧) لبني
حرب بن أمية وبني مروان، آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة،
والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأثام، واتهكوا
المحارم وغشوا الجرائم، وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد،
التي بها استلذوا تسربل الأثوار وتجليب الأصار، ومرحوا فى أعنة المعاصي

(١) ظلماتها جمع حنادس . (٢) جمع نازع وهم الرماة . (٣) فضة ولا ذهباً .

(٤) كرثنا نزل بنا واشتد علينا (٥) بهظنا أثقلنا (٦) تهرقنا .

(٧) ضللا وخسرانا وهلاكاً .

وركضوا في ميادين الغى ، جهلا باستدراج الله وأمننا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدا للقوم الظالمين ، وأدا لنا الله من مروان ^(١) وقد غره بالله الغرور، أرسل لعدو الله في عنائه حتى عثر في فضل خطامه فظن عدو الله أن لن تقدر عليه، فنادى حزبه وجمع مكابده ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا . أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، أنه كره أن يخاطب بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسخنفر فيه ^(٢) شدة الوعك ، فادعوا الله لا مير المؤمنين بالعافية فقد أبد لكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا الأرض بعد اصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب ^(٣) المتكهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الاختيار الذين أصابحوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى .

يأهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وعز الاسلام، ومن عليكم بأمام منحه العدالة

(١) يريد مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان . (٢) توسع وزاد .

(٣) كانت منه عند استخلافه ثمانيا وعشرين سنة .

وأعطاه حسن الايالة ^(١) نخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصرا وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ^(٢) ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ^(٣) فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

٣ - ولما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، خطب أبو

العباس السفاح بالشام فقال : -

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار » فكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل مروان يتسكعون بكم الظلم ويتهورون بكم مداحض الزلق ، يطئون بكم حُرَمَ الله وحُرَمَ رسوله ، ماذا يقول زعماءكم غدا ، يقولون « ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذابا ضعفا من النار » إذن يقول الله عز وجل « لكل ضعف ولكن لا تعلمون » ، أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة واغتفر لكم الزلة وبسط لكم الإقامة وعاد بفضله على نقصكم وبحامه على جهلكم فليفرخ روعكم ^(٤) ولتطمئن به داركم وليقطع مصارع أوائلكم « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

(١) الايالة السياسة من آل إليه أمر الناس ساسهم

(٢) لأن الخلفاء قبله كانوا في المدينة والامويين منكرون (٣) يعني السفاح

(٤) أي ليخرج قلبكم مابه من خوف كما تخرج البيضة الفرخ

٤ - وخطب عمه عيسى بن علي إذ ذاك بها فقال : —

الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من هرب، خدعت
والله الأشقر^(١) نفسه إذ ظن أن الله ممهله « ويأبى الله إلا أن يتم نوره
ولو كره الكافرون » فحتى متى وإلى متى، أما والله لقد كرهتهم العبدان
التي افترعوها^(٢) وأمسكت السماء درها والأرض ريعها، وقحل الضرع^(٣)
وجفر الفنيق^(٤)، وأسمل جلباب الدين وأبطلت الحدود وأهدرت الدماء،
وكان ربك بالمرصاد فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها^(٥) ولا يخاف
عقباها، ومليكنما الله أمركم عباد الله لينظروا كيف تعملون، فالشكر
الشكر، فانه من دواعي المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مضلات الأهواء
وبغيات الفتن فأنا نحن به وله .

٥ - ولما حج أبو مسلم الخراساني في خلافة السفاح خطب
بالمدينة فقال :

الحمد لله الذي حمد نفسه، واختار الاسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى
محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى واختاره من خلقه،
نفسه من أنفسهم وبيته من بيوتهم، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي
حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حقه قوله « إنما يريد الله ليذهب
عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ثم جعل الحق بعد محمد
صلى الله عليه وآله في أهل بيته فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول

(١) يعني مروان بن محمد وكان لونه كذلك : (٢) علوها . (٣) يبس

(٤) الفنيق الفحل الكريم يتخذ للفحلة وجفر أمسك عن الضراب

(٥) طعنهم فسوى الطعنة بما هي عليه أي سحقها

الله صلى الله عليه وآله على اللاؤاء^(١) والشدة، وأغضى من اغضى على الاستبداد والأثرة، ثم إن قوما من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان، من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، إن رتق جور فتقوه، أو فتق حق رتقوه، بين ظهراني قوم آثروا العاجل على الآجل والفاني على الباقي أهل خور وما خور^(٢)، وطنابير ومزامير^(٣)، إن ذكروا لم يذكروا أو قدموا إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات في الشبهات، والمغانم في المحارم، والنيء في الغي هكذا كان، زمانهم وبه كان يعمل سلطانهم. وزعموا أن غير آل محمد أولى بالامر منهم، فلم وبهم أيها الناس؟ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوى القرابة المرء في النسب والورثة في السلب مع ضربهم على الدين جاهلكم وإطعامهم في الجذب جائعكم، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط، وما زلت بعد نبيه تختارون تيميا مرة وعدويا مرة وأمويا مرة وأسديا مرة وسفيا نيا مرة ومر وانيا مرة^(٤) حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته^(٥) يضربكم بسيفه فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون. ألا إن

(١) الشدة فعله لى كفرح (٢) الماخور بيت البغاء (٣) جمعا مزار وطنبار أو طنبور من أدوات الطرب .

(٤) التيمى أبو بكر والعدوى عمر والأموى عثمان والأسدى عبد الله ابن الزبير والسفيا نى بنو سفيا ن والمروانى بنو مروان.

(٥) يعنى نفسه لأنه مختلف فى اسمه أهو عبد الرحمن أم ابراهيم أم عثمان، ومختلف فى نسبه أهو عربى أم فارسى أم كردى ، ومن جهل نسبه جهل بيته فهو يقصد بالبيت الاصل.

آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيل التقوى القادة الذادة السادة، بنوعهم رسول الله ﷺ ومُنزَّل جبريل، بالتنزيل، كم قصم الله بهم من جبار طاغ وفاسق باغ، مثيد الله بهم الهدى وجلّى بهم العمى، لم يسمع بمثل العباس، وكيف لا تخضع له الأمم لو اوجب حق الحرمة، أبو رسول ﷺ بعد أبيه وإحدى يديه وجلدة بين عينيّه، أمينّه يوم العقبة وناصره بمكة^(١) ورسوله إلى أهلها وحاميه يوم حنين عند مائتي الفتيّن^(٢) لا يخالف له رسماً ولا يعصى له حكماً، الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله ﷺ وآله في الأحزاب^(٣) ها، إن في هذا أيها الناس لعبرة لأولي الأبصار.

٦ - وخطب أبو جعفر المنصور^(٤) بالمدائن عند قتل أبي مسلم فقال:

أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة فانه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده وفلتات لسانه وصفحات وجهه، وأبداها الله لامامه باعزاز دينه وإعلاء حقه، إنا لن نبخسكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه عليكم لأنه من نازعنا عروة هذا القميص^(٥) أجزرنا خبي هذا الغمد^(٦)، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رطاة الحق له من إقامة الحق عليه.

(١) يعني ما كان من العباس قبل اعلان اسلامه من ارسال أخبار وأمداد

لرسول الله (٢) كان أحد من حول البغلة (٣) نيق العقاب الموضع الذي شفع

به العباس يوم فتح مكة في أهلها (٤) أخو السفاح واسمه عبد الله مثله

(٥) يكنى عن الخلافة (٦) كناية عن السيف

٧ - ولما أخذ المنصور عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب اللقب بالنفس الزكية هو وأهل بيته من المايينة إلى العراق وأقام في سجن الكوفة حتى ماتوا لامتناع عبدالله المذكور أن يسلم إليه ابنيه محمدا وإبراهيم مدعيا جملته مكانيهما وكانت البيعة أواخر العهد الأموي لمحمد هذا ، خطب في أهل خراسان فقال بعد الحمد والثناء والصلاة :
يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها علي بن أبي طالب فتلطخ بالدماء وحكم عاياه الحكمين فاقرقت عنه الأمة واختافت عليه الكامة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ففسد إليه معاوية « إني أجعلك ولي عهدي من بعدى » فخدعه فأنسلخه مما كان فيه وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطأها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والاغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة ^(١) السوداء . وأشار إلى الكوفة - فوالله ما هي بحرب فاحاربها ولا سلم ، فأسلمها ، فرق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة

(١) المدرة الطينة وأهل المدر سكان القرى وأهل الحاجر سكان المدن

أما أهل الرب فمكان قيام الشعر في البوادي

وغروه فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه . وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج^(١) وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له إننا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصاب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب . وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وتم على خروجه فقتل وصاب بالكناسة^(٢) ، ثم وثب عاينا بنو أمية فأما توار شرفنا وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا تره يطالبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فننفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشرارة^(٣) حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فأقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا ، وثبوا علنا ظالما وحسندا منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا علينا وجبننا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبين فاني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم^(٤) وقد دست لهم رجالا فقلت قم يا فلان قم يا فلان نخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى

(١) سأله ألا يخرج وفاعل ناشده يعود على محمد (٢) موضع قرب الكوفة

(٣) إقليم بين دمشق والمدينة فيه قرية الحميعة منزل أسلاف الخلفاء العباسيين

(٤) يعني بالسقم الخلاف في الرأي وبالتعرم التهيؤ للخروج .

أتوهم بالمدينة فدمسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك ، بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون أنني أتيت ذلك على غير يقين؛ ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب » .

٨ - ولما فعل المنصور فعلته تلك خرج عليه بالمدينة محمد بن عبد الله المذكور وقام على منبرها فقال بعد الحمد والثناء : —

أيها الناس إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر ما كان من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ^(١) وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والآنصار اللواتي ثم قال - اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك ، وعملوا بغير كتابك ، وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، فأحصهم عددا واقتلهم بددا ^(٢) ولا تبق على الأرض منهم أحدا ^(٣) .

٩ - ولما قتل المنصور محمدا هذا وبعث برأسه إلى أبيه عبد الله

في السجن مع الربيع حاجبه قال عبد الله

رحمك الله أبا القاسم فقد كنت من الذين يؤمنون بعهد الله ولا

(١) هذا رعم بعيد التصديق عن أبي جعفر (٢) متفرقين مبددين

(٣) انتهى خروج محمد هذا بالمدينة وخروج أخيه ابراهيم بالبصرة بأن قتل

المنصور كليهما .

ينقضون الميثاق ، والذين يصلون مأمر الله به أن يوصل ويخشون
ربهم ويخافون سوء الحساب ، ثم تمثل
فقال كان يحميه عن الذل سيفه ويكفيه سوءات الامور اجتنابها
والتفت إلى الربيع . فقال « قل لصاحبك قد مضى من يؤسنا مدة ومن
نعيمك مثلها والموعود الله تعالى » قال الربيع فما رأيت المنصور قط
أكثر انكسارا منه حين أبلغته الرسالة .

١٠ - وخطب المنصور يوم الجمعة ، فاما قال « الحمد لله أحمدوه وأستعينه
وأومن به وأتوكل عاياه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »
قام رجل فقال أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين فقطع الخطبة ثم قال :
« سمعنا سمعنا من فهم عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أكون جبارا
عنيذا ، وأن تأخذني العزة بالاثم لقد ضلكت إذن وما أنا من المهتدين ، وأنت
أيها القائل والله ما أردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال قام فقال
فعوقب فصبر ، وأهون بها ، ويلك لو هممت ^(١) فاهتبلها ^(٢) إذا غفرت
وإياكم وإياكم معشر الناس أختها فان الحكمة عاينا نزلت ومن عندنا
فصلت ، فردوا الأمر إلى أهله تورده موارد وتصدره مصادره »
فكان كأنه يقرأها من كفه ثم عاد إلى خطبته يقول وأشهد أن محمدا
عبده ورسوله أيها الناس اتقوا الله

١١ - ولما انهزم عبد الله بن علي عم المنصور بعد خروجه عليه
بالشام ^(٣) وقدم عليه وفدها للاستطاف قام الحارث بن عبد الرحمن

(١) يريد بعقابك (٢) اغتتمها (٣) كان سبب خروج عبد الله على المنصور
ما يزعمه من أن السفاح كان قال له « إن ظهرت على مروان الجعدي فأنت ولي
العهد بجعدي » وشهد له جماعة بذلك

الغفارى فقال :-

يا أمير المؤمنين إنا لسنا وقد مباهاة وإنما نحن وقد توبة وإنا ابتلينا
بفتنة استخفت كريمنا واستفزت حليمنا . ونحن بما قدمنا معترفون
ومما سلف منا معترفون ، فإن تعاقبنا فيما أجر منا وإن تعف عنا فبفضلك
علينا ، فاصفح عنا اذ ملكت ، وامنن اذ قدرت ، وأحسن اذ ظفرت ، فطالما
أحسننت إلى من أساء منا .

فقال المنصور قد فعلت ثم قال للحرسى هذا خطيبهم وأمر برد
ضياعه عليه بالخطوة .

١٢ - وكان عبدالرحمن عمرو الأوزاعى إمام أهل الشام ، يتردد
على المنصور كطلبه ليعظه فكان مما قال له ذات مرة .

يا أمير المؤمنين إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به
والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها وتقيرها ^(١) ولقد حدثني
عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع يبيت
غاشاً لرعيته إلا حرم الله عايه وأئمة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون
لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً ، وبالقسط فيما بينهم قائماً ،
لا يتخوف محسنهم منه رهقاً ولا مسيئتهم عدواً ، فقد كانت بيد رسول الله
صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فاتاه جبريل
فقال « يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً » فكيف
من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم . يا أمير المؤمنين
إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه

(١) تقيير النواة قناتها والفتيل الخيط المستقر فيها .

بمخدش خدشه أعرايا لم يتعمده وهبط جبريل فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك . واعلم أن كل مافي يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقاب قوس أحدكم ^(١) من الجنة خير له من الدنيا بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويذول نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والارض لآذاهم فكيف من يتقصصه ، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الارض لآجنه فكيف بمن يتجرعة ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ، وقد قال عمر بن الخطاب « لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة ، بعيد الغرة : لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يحنق في الحق على جرة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم . » واعلم يا أمير المؤمنين أن السلطان أربعة أمير يظلف ^(٢) نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهدين في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ^(٣) ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الاكياس ^(٤) واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك ^(٥) في تفسير قول الله عز وجل « لا يغادر ضغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »

(١) قاب القوس ما بين مقبضها وسيتها (٢) يكف (٣) أطلق لنفسه العنان

فظلم (٤) الحزمة جمع كيس (٥) عهد الله بن عباس .

أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عماته
الأيدي ، فأعيزك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله
عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره ، فقد قال « يا صفية عمة محمد ويا فاطمة
بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إني لأغني عنكما من الله شيئا » ،
وكان جدك الأكبر^(١) سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة فقال
« أي عم ، نفس تحييبها خير لك من إمارة لا تخصيها » نظراً لعمه وشفقة
عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعا ولا
عنه دفعا . ثم قال : هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها
فنفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عاياه ، فقال المنصور يلي
نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين .

١٣ - ولما تراجع المهدي^(٢) ووزرائه وأهل بيته تدير الرأي في
حرب خراسان كان مما قال المهدي فيمار آه رأيا استقر عاياه ، الخطب أيسر
مما تذهبون إليه وعلى غير ما تصفون الأمر عليه ، إنه لا بد لولي عهدي أن
يقود إلى خراسان البعوث ويتوجه نحوها بالجنود يقدم إليهم رساله
ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشيطا إليهم . حنقا عليهم ، يريد ألا يدع أحدا
من إخوان الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال إلا توطأه بحر القتل ،
وألبسه قناع القهر ، وقلده طوق الذل ، ولا أحدا من الذين عملوا في قص
جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاية الحق إلا أجرى عليهم ديم
فضله وجداول نهله ، فاذا خرج مزمعا به بجما عليه ، لم يسر إلا قليلا حتى
يأتيه أن قد عملت حيله وكدحت كتيبه ، ونفذت مكايده ، فهدأت نافرة

(١) العباس (٢) هو أبو عبد الله المهدي بن المنصور

القلوب ووقعت طائرة الأهواء، واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل
نظراً لهم وبرا بهم وتعطفوا عليهم، إلى عدو قد أخاف سبيلهم، وقطع
طريقهم، ومنع حاجتهم بيت الله الحرام، وسلب تجارهم رزق الله الحلال.
ثم كان مما قال في وصاة ولي عهده موسى الهادي حين أزمع
الشخص إلى خراسان :

أى بنى، إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصيباً^(١) ولمنى
أعطاف الرعية فاية^(٢)، فحسنتك شاملة، وإساءتك نائية. وأمرك ظاهر.
فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم
بخلافهما، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه،
وليس بكافيك من يسخط عليك إيثارك رضا من سواه - إلى أن قال
بعد أن أوصاه بالكرامة في الخاصة والعدل في العامة - ولا ينفكن في
ظل كرامتك نازلاً وبعري حبلك متعاقماً رجلاً، أحدهما كريمة من
كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل وحلم
راجح ودين صحيح، والآخر له دين غير مغموز وموضع غير مدخول
بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأنحاء العرب ووضع الكتب
طالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية
من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشير في حربك
وتدخله في أمرك، فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلى ويرعى
في خضرة جناني، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأئمة

(١) السمعت القصد والنصب بفتح فسكون ويحرك العالم المنصوب والغاية

(٢) يريد تدللهم من مشى ثانی عطفه تدللاً وكبراً

أقوا ما يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد ، وأصحاب
مناظرتك فيما تصدر ، فسر على بركة الله أصحابك الله من عونه وتوفيقه
دليلا يهدي إلى الصواب قلبك ، وهاديا ينطق بالخير لسانك .

١٤ - وأوصى الرشيد على بن المبارك الأحمر مؤدب ولده الأمين

فقال :

يأحر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه ،
وصير يدك عليه مبدسوفة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك
أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن
وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه
بمعظم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا
مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير
أن تحزنه فتميت ذهنه ، أو تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ،
وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

١٥ - ولما عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكي على الشام لهياج

العصبية بها فشخص إليها في عدة وعددهم ما دوقد أعاد الأمن والطمانينة
فيها دخل على الرشيد فقبل يديه ثم قال :

الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحم
تضرعي ، وأنسأني أجلى حتى أراني وجه سيدي ، وأكرمني بقربه وامتن
على بتقبيل يده وردني إلى خدمته ، فوالله إن كنت لا أذكر غيبتى عنه
ونخرجي ، والمقادير التي أزعمتني فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتني ، وخطابا
أحاطت بي - إلى أن قال بعد إطالة في التزلف والتقرب - إن الله

يا أمير المؤمنين لم يزل يبليك في خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك ، ويريك في رعيتك غاية أمنيته ، فيصلح لك جماعتهم ويجمع ألفتهم ويلم شعشهم ، حفظا لك فيهم ورحمة لهم ، وانما هذا للتمسك بطاعتك والاعتصام بمحبيل مرضانك ، والله المحمود على ذلك وهو مستحقه . وفارقت يا أمير المؤمنين أهل كور الشام وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون بمحبلك ، نازلون على حكمك . طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤملون فضلك آمنون بأدركك ، حالهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمده لهم سابق لعذرهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لسألتهم . وايم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم وقد أخذ الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مراقهم وأصلح دهائمهم وأولاني الجميل فيهم ورزقني الانتصار منهم ، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمنك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة وتخوفهم منك ورجائهم لك - إلى أن قال بعد عدد نعم الرشيد عليه وبيان عجزه عن إيفائه بعض الشكر في إطالة باسقة هذا العجز - وأنا أسأل الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له ، إذ كان الشكر مقصرا عن بلوغ تأدية بعضه بل دون شقص من عشر عشره ^(١) أن يتولى مكافأتك عنى بما هو أوسع له وأقدر عليه وأن يقضى عنى حقتك وجميل منتك فان ذلك بيده وهو قادر عليه .

١٦ - وخطب عبد الملك بن صالح بن على عم الرشيد بالشام وكان

واليه عليها في نفرة أرادها منهم فتناقلوا فقال .

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » أقلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » يأهل الشام إن الله وصف إخوانكم في الدين وأشباهكم في الأجسام فحذرهم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال « وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » فقاتلكم الله أنى تصرفون : جثث مائلة وقلوب طائرة تشبون الفتن وتولون الدبر إلا عن حرّم الله فانه دريئتكم ^(١) ، وحرّم رسوله فانه مغزاكم ^(٢) أما وحرمة النبوة والخلافة لتنفرن خفافا وتقالا أو لا وسعنكم إرغاما ونكالا .

١٧ - ولما غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح لسمي كان به إليه بطمعه في الخلافة ، حبسه وكان يستدعيه من الحبس أحيانا يؤنبه ويسمع منه ، فاستدعاه يوما لسمع احتجاجه فيما بلغه عنه ، فدخل فسلم فلم يرد عليه ، فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجاذب منازعا وخصما ، فقال الرشيد ولم ، قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره ، قال الرشيد وما ذاك ؟ قال لم ترد على السلام ، أنصف نصفه العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثار العدل واستعمالا للتحية ، ثم التفّت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك ،

« ١ » الدريئة هنا الحلقة يتعلم الرمي عليها وهو يرمى إلى ما فعل الحجاج

بالكعبة . « ٢ » يعنى ما فعلت جيوش يزيد بالمدينة

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد^(١)
ثم قال أما والله لسكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع، وطارضها قد
لمع^(٢)، وكأني بالوعيد قد أوردى ناراً تسطع فأقاع عن براجم بلا معاصم
ورعوس بلاغلاصم^(٣)، فهلا مهلاً في والله سهل لكم الوعر، وصفاً لكم
الكدر، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتهما فنذار لكم نذار قبل حلول
داهية خبوط باليد لبوط بالرجل - فقال عبد الملك -

اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيته التي استرعاك . ولا
تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب ، فقد نخلت لك
النصيحة ، ومحضت لك الطاعة ، وشدذت أواخي ما - كك - بأثقل من ركني
يللم^(٤) وتركت عدوك مشتغلاً ، قاله الله في ذى رحمتك أن تقطعه بعد أن
بلمته^(٥) ، بظن أفصح الكتاب لي بعضه^(٦) أو يبغى باغ ينهس اللحم
ويالغ الدم^(٧) فقد والله سهلت لك الوعر وذلت لك الأمور وجمعت على
طاعتك القلوب في الصدور ، فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق
فرجته ، كنت فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته بدياني ولساني وجدل

(١) هذا البيت متمثل به وهو من أبيات قلها عمرو بن معديكرب الزبيدي
في قيس بن مكشوح المرادي (٢) الشؤبوب دفعة المطر وهم هطل والعارض
السحاب ولمع أضواء برفه (٣) البراجم جمع برجمة وهي مفصل الأصبع والغلاصم
جمع غلصة وهي رأس الحلقة (٤) الأواخي جمع أخية وهي العروة ويعلم
جبل بالمدينة معروف (٥) قويتية بالصلة (٦) بقطعه (٧) ينهس اللحم يتناوله
بمقدم أسنانه ، ويالغ الدم يشربه بأطراف لسانه وكلاهما يتفق ورفق الواشي

لو يفوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامى وزحل^(١)
فقال له الرشيد أما والله لو لا اذ بقاء على بنى هاشم لضربت عنقك
ثم رده إلى السجن فبقى به حتى أطاقه الأمين وعقد له على الشام.
١٨ - ولما كتب الأمين إلى داود بن عيسى وإلى مكة والمدينة
يأمره بخلق المأمون والبيعة لموسى بن الأمين بعد أن أخذ كتاب الرشيد
الذين كانوا بالكعبة وكان داود أحد الشهود عليهما ، جمع داود الناس
وخطبهم مناديا بخلق الأمين ومبايعة المأمون فقال بعد الديباجة
أما بعد يا أهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والأسرة
والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم يفدو فدا لله وإلى قبلكم يأتيتم المسلمون وقد
علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع
لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم ، من العهد والميثاق ، لتنصروا المظلوم
منهما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغى ، والمغدور به على الغادر . ألا
وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغى والغدر وخالف
الشروط التي أعطاه من نفسه في بطن البيت الحرام وقد حل لنا ولكم
خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه المغدور به . ألا
وإني أشهدكم أنني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة كما خلعت
قلنسوتي هذه من رأسي - ثم خلعهما وقال - قد بايعت لعبد الله المأمون
أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة خليفتمكم - فقاموا إليه
فبايعوه للمأمون وخلصوا الأمين .

(١) يريد الفيل في قوته ، وفياله وهو سائسه في دهائه ، وزحل نزح

١٩ - ولما تولى الأمر عن الأئمة، وتسلم عنه الانصار إلى طاهر ابن الحسين خطب من بقى معه في بغداد فكان مما قال : الحمد لله الذى يرفع ويضع ، ويعطى ويمنع ، ويقبض ويبسط ، واليه المصير ، أحمدته على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشتت الرجال وذهاب الاموال ، وحلول النوائب وتوفد المصائب ^(١) احمدا يدخر لى به أجزل الجزاء ويرفدنى ^(٢) أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته ، وأن محمدا عبده الأمين ورسوله إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم أمين رب العالمين : ثم أخذ يفصل ما ألع اليه في ديباجته إلى أن قال - فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ورضى بقدره والسلام .

٢٠ - وخطب طاهر بن الحسين ببغداد يوم الجمعة بعد قتل الأئمة فقال :

الحمد لله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين . إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا ^(٣) بل اختار الله للخلافة ، إذ جعلها عماد الدين ، وقواما لعباده ، وضبط الأطراف وسد الثغور واعداد العدة وجمع النفع ، وإنفاذ الحكم ونشر العدل ، وإحياء السنة بعد إذ بال البطالات ^(٤) والتلذذ بموبق

(١) نزولها وفودا وجماعات (٢) يعطينى والرغد العطاء (٣) أى لم يكن من قوتنا ولا من خيلتنا (٤) البطالات جمع بطالة وهى التمدى فى الخسر والضياع ، واذبالها إذواؤها بكثرة الأمعان فيها .

الشهوات . والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعي غرورها ، محتلب درة نعمتها ، ألف لزهرة روضتها ، كلف برونق بهجتها . وقد رأيت من وفاء وعيد الله عز وجل لمن بغى عليه ، وما أحل به من بأسه ونقمته ، لما انكب عن عهده وارتكب معصيته وخالف أمره ، وغيره ناهية وعظته مؤدبه ، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة ^(١) واسلكوا مناحي سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قد حوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الألفة ^(٢) فأعقبهم الله خسارة الدنيا والآخرة .

٢١ — وخطب المأمون حين بلغه بخراسان قتل الأمين وأقبل

الناس للنسليم عليه بالخلافة فقال بعد الحمد والتناء والصلاه :

أيها الناس إني جعلت لله على نفسي إن استرغاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عمدا لا تحمله حدوده ونسفكه فرائضه ، ولا آخذ لاحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة تحرم على ^(٣) ولا أحكم بهواي في غضيبي ولا رضاي إلا ما كان في الله وله ، جعلت كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا . إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبة من مسأله إياي عن حقه وخلقه ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا ، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب اليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

٢٢ — ولما دخل المأمون بغداد وتلقاه وجوه أهلها قال رجل منهم :

يا أمير المؤمنين بارك الله لك في مقدمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك

(١) جمع عصام وهو رباط القرابة الذي به تحمل (٢) فرقوا مجتمعها

(٣) النحلة العطية والهبة

عن رعيتهك ، تقدمت من قبلك وأتعبت من بعدك ، وأيست أن يعاين
مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فنحن جميعا
ندعو لك ونثني عليك . خصب لنا جنابك وعذب ثوابك ، وحسنت
نظرتك وأرمت مقدرتك ، جبرت الهجير وفككت الأسير ، فانك
ياأمير المؤمنين كما قال الأول

مازلت في البذل والنوال وإطلاق لعان مجرمه غلق^(١)
حتى تمنى البراء^(١) أنهم عندك أسرى في القيد والخلق

ثانيا - حياتها

أقبل العصر العباسي والناس قريبو عهد بالبداوة ، فيهم المقدرة على
المشافة والارتجال ، وفي ألسنتهم مدكة الفصاحة والبيان ، فالبادية هي
البادية لم يصيبها ما أصابها بعد من عى واستعجام ، والامصار مليئة بجالية
العرب الذين ارتشفوا أفوابق البلاغة ولدانا ، واستدروا أخلافها يافعين
وشباناً ، وعلى رأس هؤلاء خاصة في الذروة مما ذكرنا ، من الخلفاء وذوى
القربة القريبة أعماما وأبناء أعمام ، ومن العلويين أصحاب الحق الأصيل
خارجين على أولئك العباسيين أو ناقلين ، ومن حو لهم شيعة تشد أزرهم
وتعمل على إنالهم حقهم ، ثم من الولاة والقواد عربا خلصا أو موالى
متعربين . وهؤلاء جميعا قضوا قبل إقبال العهد فترة كانت الدعوة فيها
سرية ضد الأمويين ، لم يسروا عن أنفسهم فيها بقول ، ولم ينفسوا عن
خناقهم بكلام هائمين في البوادي أو متخفين في الامصار ، فما إن حان

(١) العاني الأسير والغلق المحبوس (٢) جمع برى ككريم وكرام

حين بن مروان حتى كانوا في خطابتهم كالقدر أخذ مأوها في الغليان
فاضطرب وفار وصار حميا يصهر به مافي بطونهم والجلود .
وهذا بيان ما تناولت الخطابة في ذلك وفي غيره من أغراض بعد التمهيد له :
كان بنو العباس على جانب رفيع من قوة البيان وذراية اللسان ،
وحضور البديهة ومتانة الارتجال ، يدل ذلك على ذلك ماسلف من أبي جعفر
النصور . إذ قطع عليه خطبة الجمعة بعض الحاضرين فقد قال ما قال
كأنه يقرؤه من كفه ، ثم عاد إلى الخطبة بعد ، يصل ما كان بما يكون ،
ويدلك عليه أيضا ما تقدم عن دواد بن علي في تلك الخطبة القوية
الضافية التي كانت منه إذ قطع الوعك على أبي العباس خطبته ، وهذا
داود المذكور يقول محسا عن أنفسهم أنهم أمراء الكلام « ألا وإنا
لا ننتطق بطرا ، ولا نسكت حصرا ، بل نسكت معتبرين وننتطق
مرشدين ، ونحن بعد أمراء القول ، فينا ، وشجبت أعراقه ، وعلينا عطفت
أغصانه ولنا تهدلت ثمراته ، فنتخير منه ما احلولى وعذب ، ونطرح منه
ما املوح وخبت » ثم هم بعد كثرة كثيرة ملأت الأعمار واحتلت
المنابر والأعواد^(١) .

(١) منهم الخليفةان الأخوان أبو العباس وأبو جعفر ومن بعدهما سائر
الخلفاء إلى ما بعد العصر العباسي الأول ، ومنهم عبدالله وداود وصالح وسليمان
وعيسى من أئمة الخليفين الأولين ، ومنهم من أبناء هؤلاء الأئمة عبد الملك
واسماعيل وعبد الله أبناء صالح ، وداود بن عيسى وجعفر ومحمد ابنا سليمان ، ومن أبناء
جعفر هذا سليمان وداود وأيوب إلى غير هؤلاء ممن قل الجاحظ فيهم :
« لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلال وفي العلم بقريش والدولة

١- بهذه الكثرة في العدد وتلك القوة في العدد ، كان بنو العباس نقمة ولعنة على الدولة الدائلة لا يزالون يذكرون اجترأوا على الدين ، واحتجائها الفىء ، وعدوانها على آل الرسول ، ويذكرون كيف كان جورها يقض منهم المضاجع ويرمض العيون ، ثم يذكرون كيف كان غضبهم عليها لله حتى آتاهم من نصره ما أزال دولة الظلم وقضى على رجال الطغيان ، فأبدل الأئمة بهم دولة العدل ورجال الصلاح والاصلاح ، إلى غير ذلك من المعانى التى أكثروا فيها تعفية لآثار بنى مروان وتنبيتا لهذا الملك الجديد ، وهأت ذات راها مائلة فى كثير من خطبهم أول العهد ، وقد تقدم منها خطبة السفاح وخطبة عمه داود بالكوفة وكذا خطبته وخطبة عمه عيسى بالشام ثم خطبة أبى مسلم بالمدينة عقب حجه .

٢- وما كاد الداعى إلى استخدام الخطابة فى التعفية على الدولة الدائلة ينقضى بانقضاء عهد السفاح الذى أفنأهم قتلا وتشريدا ، ويؤثّل بعده عهد المنصور ، حتى نبت لها داع جديد هو استخدامها فى مقاومة العلويين ، فقد خرجوا على المنصور يطالبون الحق لأنفسهم لأنهم أبناء على الذى يقربهم إلى رسول الله كما يقرب العباسيين العباس ، ثم هم بعداً أبناء فاطمة البتول بنت رسول الله ، وللعامة إلى أبنائها هوى متغلغل فى السواد . وقد هال ذلك أباجعفر حتى حرمه الرقاد ففعل ما ذكرنا من القبض على عبد الله بن الحسن وآله

وبرجال الدعوة مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يحملون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك .

وإيداعهم السجن، ووجه بالجيوش إلى ولديه محمد بالمدينة وإبراهيم بالبصرة للقضاء على خروجهما بالقضاء عليهما وقد كان . وفي خلال ذلك كانت تستخدم الخطابة من العلويين تسويغاً للخروج وأداة لجمع الأنصار ، كما كانت تستخدم من المنصور تبديناً لعدم شرعية هذا الخروج وتبريرا للموقف الذي وقفه إزاءهم من قتال ؛ مطيلاً في ذلك ومكثراً من الأدلة والبراهين . على أن ذلك لم يكن لينزع محبتهم من القلوب حتى قلوب قواده وعظماء دولته كأبي مسلم الخراساني الذي قتله لميله إلى هؤلاء ثم استغل الخطابة كما تقدم بعد هذا الحدث الخطير في تفهيم الناس أنه لم يك فيه من المعتدين .

٣- هذا الوادي وذاك كانا أزر الأودية بتيار الخطابة ، فجرى فيهما عظيم اللجة قوى الاندفاع ، ثم كان كذلك في واد ثالث اطردها إليها ، هو استخدامهما في الثورات لتحسيس الجيوش والنهوض بها إلى ميادين القتال ، أولتئبيط همهاؤلقعود بها حتى عن نصرة من يكون له في نصرتها أمل ورجاء . وإليك في هذا مثلين مما كان أيام الفتنة بين الأمن والمأمون .

أتى رجل طاهر بن الحسين وهو ناهض مجيشه إلى جيش علي بن عيسى بن ماهان فقال « أيها الأمير إن جنديك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلات قلوبهم منه خوفا ورعبا . فلو أقمت بمكانك ودافعت » فلم يسمع له طاهر إلا ريثما خطب جيشه يقول « يا أولياء الله وأهل الوفاء والشكر إنكم لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل النكث والغدر ، إن هؤلاء ضيعوا ما حفظتم ، وصغروا ما عظمت ، ونكثوا الأيمان التي رعيتم ، وإنما يطلبون الباطل ، ويقاتلون على الغدر والجهل ، أصحاب سلب ونهب ، فلو قد

غضضتم الأبصار وأثبتتم الأقدام ، قد أنجز الله وعده وفتح عليكم أبواب عزه ونصره ، فجالدوا طواغيت الفتنة ويعاسيب النار عن دينكم ، ودافعوا بحقكم باطلهم ، فانما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين » ثم نهض به فدارت الدائرة على جيش ابن ماهان وقتل .
وذهب عبد الملك بن صالح إلى الشام فجمع أجنادها على نصرة الأُميين ليده عليه في إطلاقه من سجن أبيه وتوليته ، ثم سار بهم إلى الجزيرة فجمع رؤوسها ووجوهها ، ولكن ما إن تأهب بهما للمسير حتى قام رجل من أهل حمص فقال « يا أهل حمص ، الهرب أهون من العطب ، والموت أهون من الذل ، إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة ، ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى حومة الموت أنتم ، إن المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم ، النفير النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقرب الأجل » وقام آخر من كلب فقال « يامعشر كلب إنها الراية السوداء والله ما ولت ولا عدلت ولا ذل نصرها ولا ضعف وإيها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم ونخطوه قبل أن يضطرم ، شامكم شامكم داركم داركم ، الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري ، ألا واني راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معي » ثم سار هو والحمصى فساد معهما طامة أهل الشام ، وحدث أن مات عبد الملك بن صالح ، فأقفل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وكان معه جند الجزيرة إلى بغداد . وإنه لما يذكر من تلاعب الخطابة

بعقول الناس ما كان من الحسين هذا، فانه ما كاد يصل بغداد بهذا الجند المؤلب لنصرة الأئمة حتى قام فيهم مناديا بخاعه يقول « يا معشر الأئمة بناء إن خلافة الله لا تجاوز بالبطل ونعمه لا تستعصم بالتجبر والتكبر، وإز محمد يريد أن يوتغ أديانكم ^(١) وينكت بيعتكم، ويفرق جمعكم، وينقل عزكم إلى غيركم، وبالله إن طالت به مدة وراجعته من أمره قوة ليرجعن وبال ذلك عليكم وليعرفن ضرره ومكروهه في دوائكم ودعوتكم، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم، وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم، فوالله لا ينصره منكم ناصر الاخذل، ولا يمنعه مانع الا قتل، وما عند الله لأحد هواده ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه » قال ذلك فاذا السامعون يمكنون له في خلع الأئمة وحبسهم والبيعة للمأمون . وإنا لذا كرون هنا وفي هذا الموضوع عينه ما هو أغرب من ذلك في تلاعب الخطباء بالعقول ؛ فقد حدث بعد هذا الخلع والحبس أن قام أسد الحربى ^(٢) فقال « يا معشر الحرية هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نتم وطال نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسرهم فذهبوا بذكر إطلاقه وفكه » وإذا شيخ أقبل على فرس فصاح بالناس اسكتوا فسكتوا فقال « أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لا رزقكم ؟ قالوا لا ؛ قال فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا ما علمنا ، قال فهل عزل أحدا من قوادكم ؟ قالوا معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال فما بالكم خذلتوه وأعنتم عدوه على اضطهاده

(١) يفسدها (٢) نسبة الى حربية محلة ببغداد بناها حرب بن عبد الله

وأُسره، أما والله ما قتل قوم خليفته قط إلا ساط الله عليهم السيف
القاتل والحتف الجارف، انهضوا إلى خليفتهكم وادفعوا عنه وقاتلوا
من أراد خلعهم والفتك به «فنهضوا معه وقاتلوا الحسين فهزموا أصحابه
وأُسروا، ثم دخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده فى مجلس
الخلافة. ولولا أن خلع الأمين كان قد أعلن بالأمة مار وخاصة مكة كما
تقدم فى خطبة داود بن عيسى واليهما، وهجمت جيوش طاهر على بغداد
وليس لأهلها نظام، لما بعد أن يدوم انتفاهه بهذا الانتصار.

وللخطابة أغراض غير التى تقدمنا بها فى تلك النواحي الثلاث
كانت فى العصر العباسى الأول ذات شأن واعتبار.

١- منها أن يتخذها المستعطف المترضى أداة يستل بها ما يخشى من
سخائم القلوب وغضببات النفوس، فلا يكاد يمتطيها فى هذا الميدان حتى
تبلغ به الذى أراد وفوق الذى أراد طالما حدثنا التاريخ إذ ذاك أنه كان
يدخل بالمغضوب عليه على الغاضب، وقلب الثانى على الاول حميم آن، فيأخذ
فى الترضى والاستعطاف فإذا هذا الحميم بزد وسلام، وإذا هو قد انتقل
بنفسه لدى صاحبه من وهدة العقاب الى دروة المكافأة والثواب؛ وقد
سبق ما كان من أبى جعفر المنصور للحارث الغفارى إذ استعطفه بعد
خروجه عليه مع عمه عبد الله، فشفع رضاه عنه برد ضياعه غايه.
وهذه امرأة النفس الزكية قد دخل على المنصور ومعهما صبيان فتقول
«يا أمير المؤمنين أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناه أيتهم سيفك،
وأضرعهما خوفك، فناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تصبر لهما خدك،
فيأبى عنهما ردك. أولت عطفك عليهما شوابك النسب وأواصر الرحم»

فلا يمالك أن يلتفت إلى الربيع فيقول اردد عليهما ضياع أبيهما ثم يقول
كذا والله أحب أن تكون نساء بني هاشم . بل هذا جعفر الصادق
يدخل به عليه إذ مر بالمدينة من حجه وقد طلبه ليقترله فيسلم فيرد عليه
« لا سلم الله عليك يا عذر الله تعمل على الغوائل في ماسكى » فيقول
جعفر « يا أمير المؤمنين إن سليمان أعطي فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ،
وإن يوسف ظلم فغفر ، وأنت على إرث منهم وأحق من تأسى بهم »
فينكس أبو جعفر رأسه ملياً ثم رفعه قائلاً « إلى أبا عبد الله فأنت
القريب القرابة ، ذو الرحم الواشجة ، السليم الناحية ، القليل الغائلة » ثم
يصافحه بيمينه ويعانقه بشماله ويجلسه معه على فراشه منحرفاً له عن
بعضه ، ويقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ، ثم يقول يارب عجل لأبي
عبد الله كسوته وجأزته وإذنه . ومن بعد أبي جعفر طالما استعطف
الخطباء الخلفاء فنالوا بقولهم غفران عظام الذنوب ، وتخطوا ذلك إلى
الخطوة برد ما صودر من أموالهم زائداً أسنى العطايا وأجزل الصلات
كما فعل المأمون مع عمه إبراهيم ^(١) وكما فعل المعتصم مع تميم بن جميل ^(٢)
وغير هذين وهذين كثير .

(١) لما عهد المأمون من بعده إلى علي بن موسى الرضا من العلويين وسمع
العباسيون ذلك أنكروه وخلصوه وبايعوا عمه إبراهيم هذا فطلبه المأمون فهرب
وتوارى فجاء في طلبه حتى قبض عليه . ولم نذكر استعطافه لطوله .

(٢) كان تميم قد خرج على المعتصم بشاطئ الفرات وعظم أمره ، فوجه إليه
المعتصم مالك بن طوق فظفر به وحمله موثقاً إلى المعتصم . ولم نذكر استعطافه
لطوله أيضاً .

٢ - ومنها أن يتخذها المتوعد المتهدداً داة مسخط وعقاب، وسوط نقمة وعذاب، حتى لترتعد فرائص من أمامه خوفاً وفرقا، ويطير لبه مما يسمع رعباً وجزعاً، استمع إلى داود بن علي يقول وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاة أبي العباس السفاح فقال «أعدوا يا أهل الختر والتبديل. ألم يردكم الفتح المبين عن الخوض في ذم أمير المؤمنين، كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم، كيف قامت شفاهكم بالشكوى من أمير المؤمنين بعد أن حانت آجالكم فأرجأها وانبعثت دماؤكم فحقنتم، الآن يا منابت الدمن مشيتم الضراء وديبتم الخمر^(١) أما ومحمد والعباس إن عدتم لمثل ما بدأتم لأحصدنكم بظلمات السيوف ثم يغني ربنا عنكم ونستبدل غيركم» ثم لا يكونوا أمثالكم» وفي مثل هذا المعرض يقول أبو جعفر المنصور «أحرز لسان رأسه، تنبه امرؤ لحظه، نظر امرؤ في يومه لغده، فشئ القصد وقال الفصل وجانب الهجر - ثم يقول وقد أخذ بقائم سيفه - أيها الناس إن بكم داء هذا دواؤه وأنا زعيم لكم بشفائه، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به، فانما بعد الوعيد الايقاع و«إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله»

٣ - وبين حالي الترضي والتوعد كان ذو المكانة والسلطان، يستخدم الخطابة في معاتبة من ارتكب معه عسيانا فقد رعايه، وأعقب هذه القدرة بصفحة منه وغفران، لمنزلة سالفة وخدمة مرجوة، فأن لسانه حينئذ يعمد إلى منطق الشدة والتجبر، ولكن قلبه يأبى الاشوب الكلام

(١) الضراء الشجر الملتف والخمر كل ما وادى وستر وكلاهما كناية عن

التخفي في تدبير المسكايد لقوماً وجبنا .

بعامل الرحمة والحنان، فيأتي قوله لذلك بين الشدة واللين كالذي كان من الأمين للحسين بن علي بن عيسى إذ قال « يا حسين ألم أقدم أباك على الناس وأوله أعنة الخيل وأملاً يده من الأموال وأشرف أقداركم في أهل خراسان وأرفع منازلكم على غيركم من القواد، قال بلى، قال فما الذي استحققت به منك أن تخضع طاعتي وتؤلب الناس على، وتندبهم إلى قتالي، قال الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله، قال فإن أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك وولاك الطلب بشارك ومن قتل من أهل بيتك »^(١) ثم دعاه له بخلعة نخلعها عليه وحمله على مراكب وأمره بالمسير إلى حلوان ولكنه إذ خرج هرب في نفر من خدمه ومواليه فنادى الأمين في الناس - إذ لم يعد هناك موضع لعفو - فركبوا في طابه فأدركوه وقتلوه. وكذا كان من المأمون للفضل بن الربيع^(٢) إذ ظفر به فقد قال له « يا فضل أكن من حقي عليك وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثابني وتسبني وتحرض على دمي، أحب أن أفعل بك ما فعلته بي » فقال يا أمير المؤمنين إن عذري يحقدك إذا كنت واضحاً جميلاً فكيف إذا حفته العيوب وقبحته الذنوب، فلا يضيق عني من عفوك ماوسع غيري منك فأنت كما قال الشاعر فيك

صفوح عن الأجرام حتى كأنه من العفول يعرف من الناس مجرماً

(١) يعني أخذه بشار أبيه من طاهر بن الحسين فإنه قتله وبعض أهل بيته كما تقدم.

(٢) كان أول المناصرين للأمين لأنه من أبناء العرب وكانت ضلع الأمين

سهم لعربية أمه وضلع المأمون عليهم مع الفرس لفارسية أمه

وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلماتها
٤ - ثم منها أن تكون أداة الحوار بين الخصماء الألداء والمتعابين
الأصفياء أو الراغبين في التفاصح من البلغاء . فترى فيها حيث الخصام
نارا وجحما، وحيث التحاب جنة ونعما، وحيث الرغبة في التفاصح علوا
في البلاغة كبيرا . فأما حوار الخصومة فقد سمعت منه فيما سبق بين
الرشيد وعمه عبد الملك ، السؤال المفحم والرد المقنع . وأما حوار التحاب
والتواد فاليك منه ما حدث به سعيد بن مسلم بن قتيبة قال ، دعا المنصور
بالربيع فقال له ياربيع سلني ما تريد فقد سكنت حتى أنطقبت ، وخففت
حتى أنقلت ، وقللت حتى أكثرت ، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أرهب
بخلق ولا أستقصر عمره ولا أستصغر فضلك ولا أغتتم مالك ، وإن
يومي بفضلك على أحسن من أمسي ، وغدك في تأميلي أحسن من يومي ،
ولو جاز أن يشكرك مني بغير الخدمة والمناجحة لما سبقني لذلك أحد ، قال
صدقت علمي بهذا منك أحلك هذا المحل فسلني ما شئت ، قال أسألك
أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه ، قال ياربيع إن الحب ليس بمال
يوهب ولا رتبة تبذل وإنما تؤكده الأسباب . قال فاجعل لي طريقا
إليه بالفضل عليه ، قال صدقت وقد وصلتته بألف درهم ولم أصل بها
أحدا غير عمومي لتعلم ماله عندي فيكون منه ما يستدعي به محبتي ،
ثم قال وكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق
كل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه ، قال صدقت .
أما حوار التفاصح فنخذ منه ما روى من أن خالد بن صفوان دخل على

السفاح وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب^(١) فقال ما تقول في أخوالي فقال ، هم هامة الشرف وعز بنين الكرم وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم لأنهم أطولهم لما ، واكرمهم شيئا ، وأطيبهم طعاما ، وأوفاهم ذمما وأبعدهم همما ، الجرة في الحرب والرقة في الجذب والرأس في كل خطب وغيرهم بمنزلة العجب ، فقال وصفت أبا صفوان فأحسننت فزاد أخواله في الفخر حتى غضب لأسمامه فقال : انخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين وأنت من أسمامه فقال « وكيف أفاخر قوما بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد^(٢) ، دل عليهم هدهد وغرقهم جرد ومملكتهم امرأة » فأشرق وجه أبي العباس .

٥ - ولقد كانت الخطابة مر كباذلول في التعازي والتهاني ، يبلغ به المعزون أرفع مراتب الصبر ويصل به المهنئون أبهج درجات البشر ، ذكر الطبري أنه لما ماتت الباقوة بنت المهدي جرح عليها جزع عالم يسمع بمثله فجلس للناس يعزونه وأمر ألا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازي فأجمع من حضر على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شذبة^(٣) له إذ قال : « أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجرا وأعقبك صبورا ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خير لك منها ورحمته خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه مالا سبيل إلى رده » . وقد ذكرنا فيما سلف من نماذج تهنئة أحد وجوه بغداد للمأمون

(١) أم السفاح ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الممدان بن الديان الحارثي ولذا يقال له ابن الحارثية .

(٢) العرد الحمار (٣) هو ابن عم خالد بن صفوان المنقري

حين دخلها بعد قتل الأُميين . وكثيرا ما كان يجمع بين التعزية والتهنئة في الخلافة وفي غير الخلافة . فمن الاول ما ذكر في صبح الاعشى من أن أعرابية تعرضت للمنصور عقب وفاة السفاح فقالت « يا أمير المؤمنين احتسب الصبر وقدم الشكر فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين وأعظم عليك المنة في الحادثين ، سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله فسلم فيما سلبك . واشكر فيما منحك ، تجاوز الله عنك يا أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين » . ومن الثاني ما ذكر من أن عبد الملك بن صالح دخل دار الرشيد - قبل غضبه عليه - فقال له الحاجب إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له وولد له آخر فلما دخل عليه قال « سر ك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سر ك ، وجعل هذه بهذه مثوبة على الصبر ، وجزاء على الشكر » .

٦ - ولقد اتخذ ذوو الاسن الخطابة رقى سحرية يتزلفون بها إلى أولى الأمر والنهى يغزون منهم القلوب ويحتلون السويداء بما يرتلون من آيات مدح وينظمون من عقود ثناء ، قال الحسن بن سهل للمأمون يوما ، « الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك وسنى ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ووهب لك معها الحجة ، ومكنك بالسلطان وحلاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر وشفعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة وقرنها بالسيادة ، فمن فسح له في مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله من زينة المواهب ما ألبسك ، أم من ترادفت نعمة الله عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحد وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أى حاجة بقيت لرعتك لم يجدوها عندك ؟ أم أى قيم للإسلام انتهى إلى عنايتك ودرجتك ؟

تعالى الله تعالى ما أعظم ما خص القرن الذى أنت ناصره ، وسبحان
الله أى نعمة طبقت الأرض بك . إن الله تعالى خلق السماء فى فلكها
ضياء يسدئير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ، فهل
لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك ، وكذلك كل ولى من أوليائك
سعد بأفعاله فى دولتك ، وحسنت صنائعه عند رعيتك ، فانما نالها بما
أيدته من رأيك وتديرك ، وأسعدته من حسبك وتقديرك .

ولقد صار الحسن بهذا وزيرا للمأمون وتزوج المأمون من ابنته بوران .
وقيل للمهدى عن شبيب بن شيبه للإيقاع به ، إن شبيباً يستعمل
الكلام ويستعد له ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح
فأمر رسولاً فأخذ بيده حتى أصعد المنبر وقال خذ فى مدح أمير
المؤمنين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه حق الصلاة عليه ثم قال :
« أيها الناس ألا إن لأمر المؤمنين أشباهاً أربعة الأسد الخادر ، والبحر
الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبهه منه
بأسه ومضاءه ، وأما البحر الزاخر فأشبهه منه جوده وأعطاه ، وأما القمر
الباهر فأشبهه منه نوره وضياءه وأما الربيع الناضر فأشبهه منه حسنه
وبهائه ، ثم نزل وهو يقول : -

وموقف مثل حد السيف قمت به أحى الذمار وترومىنى به الحدق
فما زلقت وما ألقيت كاذبة إذا الرجال على أمثالهم زلقوا
فكان بعد هذا أعز على أمير المؤمنين قبله .

٧ - وكثيراً ما كانت إحالة الرأى فى مهام الأمور على السنة ذوى

البصائر والعقول : تلبس ادّ سلوب الخطاب فيقف كل مدل برأيه موقف الخطيب يجود لفظه كما يحصص معناه ويعمل على التأثير بالقول كما يؤثر بالفكر، وإن كان الموقف موقف مشاورة لا يعدو الرغبة في الوصول إلى أحزم الآراء . وعندك في هذا ما صدر عن المهدي وأهل بيته ورجالات دولته من تدبير الرأى في حرب خراسان وهو كثير . وقد سبق منه بعض ما كان من المهدي في إبداء رأيه ووصايته لولى عهده موسى الهادي ، واليك بعض ما كان من موسى هذا في الموضوع ، وهو وحده من لم يسبق لنا عنه دون سائر الخلفاء إلى المأمون اختياره . قال « أيها المهدي لا نسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم ، الحال من القوم ينادى بمضرة شر وخفية حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها مسترا ، واتخذوا العلل من دونها حجابا ، وجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأشور بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتتلاحق ما ذنهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأشور بهم ، والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمنة قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها » إلى أن قال « والرأى للمهدي وفقه الله ألا يقبل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش وتأخذهم السيوف ، ويستحرم بهم القتل ويحدق بهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم الذل ، فإن فعل بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدي في مثونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ونفقات عظيمة » .

٨ - ولم تقف الخطاب إبان ازدهارها في هذا العصر أن تكون ذات باع بطول وقوة تجول في نواحي الوصايا والنصائح والعظات ، وهذه كلمات ثلاث تكاد تكون متحدة المدلول ولكنها غطفنا بعضها على بعض عطف تغاير على أمل التفرقة بينها في المراد .

فأما الوصايا فأنا نقصد بها ما جاوز ناحية التزهيد وكان من كبير بشأن صغير تربطهما لحة نسب وقراءة ، وإنما أقحمنا كلمة شأن لتشمل ماوجه الخطاب فيه لغير الموصى به ولكنه من أجله يكون ، كوصية الرشيد السابقة للأحمر مؤدب ولده الأمين ، وكوصية السيدة زبيدة على بن عيسى حين الذهاب لقتال المأمون من قبل ابنها الأمين إذ تقول : « يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي ، إليه تناهت شفقتي وعاليه تكامل حذري ، فاني على عبد الله منعطفة مشفقة ، لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني ملك نafs أخاه في سلطانه وغاراه ^(١) على ما في يده ، فاعرف لعبد الله حق والده وإخوته ، ولا تجبهه بالكلام فانك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ولا ترهقه بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه في السير ولا تساور في المسير ^(٢) ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده » وطوال الوصايا في هذا العصر كثيرات كوصايا أبي جعفر المنصور لولي عهده المهدي وكوصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله إذ ولاء المأمون الرقة ومصر وما بينهما .

وأما النصائح فهي كالوصايا في مجاوزتها ناحية التزهيد ولكنها

(١) لاجه وخاصته (٢) أي لا تحتد فيه .

تُخلو من قيد الرابطة في القراية والسن ، ومثلها في هذا العهد ما حدث
من يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) ، إذ دخل يوما على أمير المؤمنين المنصور
فقال له حدثنا فقال « يا أمير المؤمنين إن ساطانكم حديث ، وإمارتكم
جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله
يا أمير المؤمنين لقد محضت لك النصيحة » . وكذلك قوله له أيضا
« يا أمير المؤمنين توسع توسعا قرشيا ، ولا تضق ضيقا حجازيا » .
« وكثيرا ما وجهت النصائح في هذا العصر توجيهها طامًا لفشو الحكمة
فيه كقول مسلم بن قتيبة « لا تطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة ،
لا تطلبها إلى الكذاب فإنه يقربها وهي بعيدة ويبعدا وهي قريبة ،
ولا تطلبها إلى الأحمق فإنه يريد أن ينفعك وهو يضرك ، ولا تطلبها
إلى رجل له عند قوم مأكلة فإنه يجعل حاجتك وقاء لحاجته » والنصائح
على العكس من الوصايا يغلب فيها الإيجاز .

أما العظات فهي خلوة من القيد السالفين ، وإنما قيدها أن ترمي
إلى الترهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة بمختلف الطرق وشتى
الأساليب ، كالذي رأيت في ما اخترنا بالتماذج من عظة الأوزاعي للمنصور
وهي من العظات الطوال ، ومن قصارها ما كان من ابن السماك^(٢) إذ دخل
على الرشيد يوما ، وبينما هو عنده إذ استسقى الرشيد ماء فأتى بقلعة فلما
أهوى بها إلى فيه ليشرّب ، قال له ابن السماك « يا أمير المؤمنين ، بقرابتك
من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت

(١) كان والي العراقين لمروان بن محمد (٢) هو محمد بن صبيح الزاهد العابد

الكوفي قدم بغداد زمن الرشيد ثم عاد إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ .

تشتريها؟ قال بنصف ملكي، قال اشرب هنالك الله، فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال بجميع ملكي، قال فما غترارك بملك قيمته بولة؟ فبكى هرون وانصرف ابن السماك.

تلك أم النواحي التي توضح ما كان للخطابة في العصر العباسي الأول من أغراض يرمى إليها الخلفاء وغير الخلفاء سوى ما كان من الخطب الدينية في الجمع والمواسم يلونها بأنفسهم فيحفلون بها ويطيّلون، وقاما تصدر منهم في هذه الناحية القصار، وهذا نموذج من قصارها يوم الجمعة عن محمد بن سليمان بن علي عامل البصرة في خلافة المنصور إذ لا يتسع المقام لطوالها قال.

الحمد لله أحمدته وأستعينه، وأستغفره وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. من يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصم بالعروة الوثقى وسعد في الآخرة والأولى، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا وخسر خسرانا مبينا. أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتتبع رضوانه ويتجنب سخطه، فإنا نحن له وبه. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله وأرضى لكم ما عند الله، فإن تقوى الله أفضل ما تحاث الناس عليه وتداعوا إليه وتواصوا به، «فاتقوا الله ما استطعتم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

هذا وإن فما قدمنا من نماذج خالصة وأخرى شبننا بها الكلام

على الأغراض ، لمرءة ترينا أن الخطابة في العصر العباسي الأول قد ارتفعت إلى درجة من البيان لا تقل إن لم تزد عما كان لها فيه عهد الأمويين ، ذلك بأن رجالها به كانوا كرجال العصر المذكور من حيث السليقة العربية في بيانهم ، وتوافر الدواعي إلى الكلام أمامهم ، ثم هم على ذلك يغلب فيهم العنصر الهاشمي ولبنى هاشم في ميادين القول سبق لا ينال . وأهم الطوابع التي تميز بها خطابة هذا العصر بعد شمول أغراضها كما ساف هو مانسوقه الآن على سبيل الاجمال .

١ — طبعها بطابع ديني لا تزال تعتر به وتستمد منه وهذا أمر ما كان لرجالها عنه فكأنك ماداموا يعتقدون أنهم جند الله المؤزرون للقضاء على دولة الظلم وإقامة معالم الدين ، ولذلك امتلأ كلامهم بجور بني أمية واجترأهم على الحرمات والتحدث عن أنفسهم حديث الحاكمين العادلين ، ومن هنا طادوا إلى التعهد للسامعين بمثل ما كان يتعهد به الخلفاء الراشدون كما رأيت في خطب السفاح والمنصور وأعمامهما وكما هو ثابت في خطب من بعدهم من الخلفاء وقد تقدمت منها واحدة للمأمون .

٢ — كثرة الاستعانة فيها بالقرآن الكريم اقتباسا واستشهادا ، ومن أقدر من بني هاشم في دينهم وعدالتهم وقوة عارضتهم وفصاحتهم أن يكونوا لآيه مستغلين في شن الغارة على بني أمية ومن كانوا لهم أنصارا ومشايخين ، وقد كانت الآيات تواترهم كما يواتي الذلول عن طواعية واختيار ، حتى تسنى لكثير منهم في بعض مواقفه أن يجعل جل خطبته من القرآن . خطب المنصور بمكة بعد بناء بغداد فقال

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ،
أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل ، والحمد لله الذي أفليج حجته وبعدها
للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضاً والنبيء إرثاً وجعلوا القرآن
عُضِينَ^(١) ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بثر معطلة
وقصر مشيد ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة^(٢) وعندوا
واعتمدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم
من أحد أو تسمع لهم ركزا » . وعلى وتيرتها كانت خطبة عبد الملك بن
صالح في أهل الشام وقد ذكرت بالنماذج .

٣- وكذلك كثرة الاستشهاد بالشعر وإن لم تفضل فيه خطابة المؤمنين ،
خطب داود بن علي فقال « أيها الناس حتام يهتف بكم صريخكم^(٣) ،
أما أن لراقدم أن يهب من نومه ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون ، أغركم الأمهال حتى حسبتموه الأهوال ، هيئات منكم وكيف بكم
والسوط كفى^(٤) والسيف مشهر :

حتى تبديد قبيلة فقيلة وبعض كل مثقف بالهام^(٥)
وتقوم ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الإيتام
وخطب صالح أخوه فقال « يا أعضاء النفاق وعبد الضلالة ، أغركم
لين أساسي وطول إيناسي حتى ظن جاهل بكم أن ذلك لفلول حدوفتور
جد وخور قناة ، كذبت الظنون إنها العترة بعضها من بعض فأما

(١) جمع عضه ، أي فرقا من سحر وكهانة وشعر (٢) العشرة الأقربين

(٣) الصريخ هنا المغيث (٤) كثير الكفاية (٥) المثقف هنا المنقهر

إذ قد استوبلتم العافية^(١) فعندى فطام وفكاك وسيف يقدا لهام وإني أقول:
أغرکم أنى بأكرم شيمة رفيق وأنى بالفواحش أخرج
ومثلى إذا لم يجز أحسن سعبه تبکم نعماء بفيها فتتطق
لعمرى لقد فاحشتنى فغلبتنى هنيئا مريئا أنت بالفحش أرفق

٤ — السهولة البادية في وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع
بقائها جزلة المألوف قوية الأداء، نتيجة للحضارة التي صقلت اللغة
كما صقلت كل شيء، فأصبحت الكلمات الغريبة فيها قليلة الوجود،
والتراكيب العسيرة بها نادرة الاستعمال، ثم خطت نحو مزاجية الجمال
وتساوى الفقرات خطوات كانت الأساس لما بنى بعد من محسنات،
وإن فيما قرأت لها الشواهد على ما ذكرنا كثيرة كخطبة شبيب في المديح،
على أنى أزيد هنا شاهدا مما كان آخر هذا العصر الأول يؤذن بما كان
مقدورا للنثر بعده من صناعات. دخل رجل على المأمون يتظلم
من عامل له فقال: «يا أمير المؤمنين، ماتوكلى فضة إلا فضما، ولا ذهبا
إلا ذهب به، ولا غلة إلا غلها»^(٢)، ولا ضيعة إلا أضاعها، ولا علقا إلا علقه،
ولا عرضا إلا عرض له، ولا ماشية إلا امتشها»^(٣)، ولا جليلا إلا أجلاه»^(٤)
ولا دقيقا إلا دقه»^(٥).

٥ — ظهورها على السنة الموالي بجانب ظهورها على السنة العرب
وذلك لما صار إليه الفرس من نباهة الشأن وتولى كثير منهم أمانة الحكم
مع إجادتهم العربية وحذقهم آدابها كما رأيت فيما اخترنا لأبي مسلم

(١) عددتموها وبيلة وخيمة (٢) حازها واحتبسها (٣) أخذ كل ماى ضرعها

(٤) فعه (٥) كسره .

وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكي والحسن بن سهل وغيرهم ممن عهد اليهم بكبار الشئون . على أنه لا يفوتنا التنبيه هنا عما ظهر في خطب هؤلاء وأمثالهم من العمل اليبادى فى الصياغة ، والخنوع المعلن فى الضراعة تأثرا منهم بما هو من طابع الفارسية وطباع أهلها ، ولذا يبدو على تراكيبهم فى بعض العبارات سقم أو استكراه لاتكاد تجد له من من مثيل فى هذا العصر على ألسنة العرب الخالصين .

كان هذا شأن الخطابة فى العصر العباسى الأول ، حتى إذا ما أقبل العصر الثانى كانت قد مائت الحاجة إلى الدعاية ضد الأمويين بما عفا من آثارهم وتثبت من أقدام العباسيين ، ومن كان فى نفسه هوى أموى توجه به إلى الأندلس حيث أسست الدولة الثانية لبني مروان ، وبذلك أقفر الوادى الأول للخطابة وذهب داعيه ، ثم أعقبه إقفار الوادى الثانى وهو مقاومة العلويين - لما قاموا به من هجرة المشرق إلى المغرب الأقصى بعد أن أخفقوا فى خروجهم على أبى جعفر وخروجهم على الرشيد وبعد أن أخفق المأمون فى عقد ولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا منهم ، ثم جاء المتوكل معلنا على شيعتهم سيف البطش والجبروت ، وكذلك كان الخدم الأتراك ، فبقوا فى المغرب الأقصى بين بني مروان فى الأندلس والأغالبة فى أفريقية (تونس) - وكلاهما يود لهم البقاء - إلى أن ضعف أمر بني العباس فزحفوا شرقا إلى أن امتلكت الدولة الفاطمية مصر والشام . وبموت هذين الداعيين أقفر الوادى الثالث ونضب للخطابة أكبر معين . أما العيون الأخرى التى كانت تمد سائر الأغراض فقد جفت بعاملين جديدين ، أحدهما تجريد الخلفاء

على أيدي الخدم الاتراك من السلاطة الدينيوية التي كانت تجعلهم مرغوبين
مرهوبين ، وإذا ماتت الرغبة إلى شخص والرغبة منه ، تقطعت بينه
وبين الناس أوامر الكلام ، وثانيهما ضعف أولئك الخدم في المقدرة على
الكلام وفي فهم ما يلقى إليهم من بيان ، ضعفا حال بينهم وبين أن يسدوا ذلك
الفراغ للخلفاء ومن كان على شاكلتهم من أعوانهم موالى الفرس المتعربين ،
وبذلك تم القضاء تقريبا على كل ما كانت تتناول الخطابة في غير الناحية
الدينية من أغراض .

أما الناحية الدينية فقد استمر أولئك الخدم يسمحون للخلفاء فيها بكل
ما يودون ، فبقوا يزاولون الخطب في الجمع والأعياد ، ويخرجون إلى هذه
المواسم كما كان أسلافهم في مواكب الأبهة والجلال^(١) فبقى للخطب
الدينية في هذا العصر على أسنتهم وألسنة محاكيهم من فصحاء الولاة
والعمال شبه ما كان لها في سابقه من شأن واعتبار ، ومما ساعد على هذا
أن ذيل العفاء لم يك قد تم سحبه على ما للعربية من مكانة في التخاطب
العام ، ولذلك يذكر المؤرخون عن الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ
قبيل انقضاء هذا العصر بسنوات أنه آخر خليفة له خطب كثيرة

(١) كانت هذه المواكب تسترعى أنظار الشعراء فيبدعون في تصويرها

ما شاء لهم البيان كما حدث من البحترى في رأيته التي يقول فيها :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تفر

فقد أجاد فيها وصف موكب المتوكل في خروجه إلى المسجد ليصلى بالناس

أحد أعياد الفطر كما أجاد وصف خطبته الواعظة في هذا العيد وستأتى في نماذج

الشعر بعد .

وأنه كان كاسلافه الاول يجالس في بيته العلماء والأدباء .
ولما أقبل العصر الثالث بسط آل بويه سلطانهم على بغداد ؛ بسطا لم يبق معه للخليفة إلا صورة الخلافة جوفاء ، فقد سلبوا خلفاءه ما كان قد بقي لهم في سابقه من نفوذ ديني فحالوا بينهم وبين الظهور في المواكب للناس حتى ما كان للخليفة في الدولة إلا مرتب يتسلمه كاتبه لنفقاته جملة معز الدولة للمستكفي بالله خمسة آلاف درهم كل يوم^(١) فقطع بذلك ، المدد الروحي الذي كان للخطابة من كلام الخلفاء . ثم أخذ ضعف اللسان العام يتناول الخاصة وأهل البادية بعد أن تناول السواد ، ففقد على المقدرة الخطابية العامة أتم قضاء ، وأصبحت الخطابة حرفة تسند في بغداد بعد الخلفاء ، وفي سائر الحواضر بعد الولاة والعمال ، إلى علماء يختارون على سبيل التعيين ويلقب كل منهم بالخطيب .

ثم جاء العصر الرابع فجرى الأمر فيه على ما كان في الثالث من بقاء الحجر على الخلفاء وتعيين الخطباء من العلماء ، ولقد اشتهر من خطباء الحواضر في العصرين رجال كانوا ذوي مقدرة على البيان وامتلاك لنواصيه ، فأغنوا في هذه الناحية غناء عظيما وصاروا مددا لمن هم دونهم ممن يلون الخطابة في غير حواضرهم وفي سائر المدن . وأمهات

(١) بدأ اضطهاد آل بويه للخلفاء منذ وجودهم ببغداد فان المستكفي الذي لقب أحمد بن بويه إذ دخلها بلقب معز الدولة ولقب أخويه كاتقدم وأمر أن تضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير ، لم يبقه معز الدولة بعد ذلك إلا أربعين يوما ثم خلعه أشنع خلعة يجعل رجلين من أتباعه يجذبانه عن سريره ويجعلان صمامته في عنقه إلى خيث اعتقل ، على زعم أنه يدس عليه ويكيد له .

القرى، حتى دونت خطب بعضهم في دواوين^(١) غير أن هؤلاء لقلتهم وللضعف الذي أخذ يحل بالعربية في العصر الأخير، لم يصدوا عن الخطابة الدينية ما اعتورها من خمول، فقد سار القائمون بها في طريق الضمحلل مسرعين، وكان أول ما بدا عليهم من ضعف، عجزهم جملة عن الارتجال، ثم عجزهم عن المشافهة بعد إعداد، فكانوا يدونون خطبهم ثم يلقونها على المنابر من أوراق، ولشد ما كان الخطب فادحاً حينها عجزوا عن تحضيرها بأنفسهم، وأخذوا يكتبون خطب غيرهم، فيلقونها غير ملائمة للبيئة ولا مطابقة لمقتضيات الأحوال، حتى كان من وراء ذلك أن هبت جماعات تضع خطبا لكل جمعة من جمع العام يملأونها بما ساد الكلام آخر العصر من أسجاع، ولا يلمون فيها من نواحي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشيء ذي بال، على نحو ما كنا نسمع من جميع خطباء المساجد بمصر منذ فترة من تاريخنا الحديث، وما نسمع الآن من مجموعهم في هذا الوقت المقيم الذي حاد فيه بعض الخطباء الحديثين عما كان عليه إجماع سابقهم حيدة نقابلها بالغبطة متمنين لها دوام التقدم وسرعة الذيوع والانتشار.

(١) من هؤلاء على حسب سني وفاتهم في العصرين أبو يحيى بن نباتة خطيب سيف الدولة بحلب المتوفى سنة ٣٧٤ وله ديوان خطب مشهور طبع ببيروت. والخطيب البغدادي الحافظ أبو بكر أحمد بن علي صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣. والخطيب التبريزي يحيى بن علي الشيباني المتوفى سنة ٥٠٢. والخطيب الرازي عمر بن الحسين والد الفخر صاحب التفسير المتوفى سنة ٥١٢. وزكي الدين الدمشقي خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من الصليبيين سنة ٥٦٤. ثم خطيب القسطنطينية إبراهيم بن منصور العراقي المتوفى سنة ٦١٣.

الكتابة

قلنا إن لنثر اللغة جانبا أدبيا هو الخطابة والكتابة الانشائية، وآخر عاميا هو لغة التدوين والتصنيف، وإنا سنسوق الكلام على هذا الترتيب وبعده يكون الكلام على الشعر، وقد فرغنا من الكلام على الخطابة، وأن أن نشرع في الكلام على الكتابة جريا على ما رسمنا من نظام، غير أننا مضطرون فيها إلى تصدير لم نضطر إلى مثله في الخطابة هو سوق كلمة عن أنواعها في هذا العصر الطويل، فقد لبست فيه أثوابا عدة ذات تغاير في الاشكال والألوان، دفع إليها نظام العصر وأتم نسجها طول مداه.

فكانت منها الكتابة الديوانية وهي التي يتولاها رجال الدواوين على النحو الفني الذي نراه من كتابة الوزارات الآن. منها ديوان الرسائل والتوقيعات، وديوان الخراج والنفقات، وديوان الضياع والاقطاعات، وديوان الجيش وديوان الشرطة وغيرها إلى ما يشمل عدد المصالح العامة في تعريف الأمور، وهي مع اشتراكها جميعا في ضم عدد من الكتبة يتولى عملا فنيا، مختلفة بعضها عن بعض في نوع الكتابة تبعالا لاختلاف المهمة الملقاة على كل ديوان، والنظام الكتابي الذي يقتضى إنجازها فيه، حتى إن نقل كاتب من أحدها إلى غيره، كثيرا ما تأباه طبيعة العمل الجديد، لأن لكل ديوان صبغة فنية وتعاليم يحذفها كتبته ولا يلم بها الكاتب الجديد إلا بعد تمرين، غير أن الكتابة فيها جميعا ماعدا ديوان الرسائل والتوقيعات لا تحتاج بعد معرفة فنيته إلى روية وإجهد، إذ

لا تعدو القيد في الدفاتر أو التحرير من غير مشقة في الانشاء فهي خلو من المسحة الأدبية للغة كما هي الآن . أما في الديوان المذكور ، فكانت ذات صبغة أدبية تتطلب من الكاتب تجويد العبارة والتحليق بالأسلوب إلى مستوى من البيان رفيع ، تتسامى إليه طوائف الكتاب .

وكان منها خارج الدواوين ما ينشئه الكتاب من رسائل على نمط ما في ديوان الرسائل وإن كانت إخوانيات ، وما يصورونه من القصص والمقامات ، ثم ما يدونه العلماء في التأليف والتصنيف ، ومع ما للغة العامية من فنية خاضعة للطابع العلمي وإن كانت مختلفة باختلاف العلوم والفنون ، جاءت بعيدة عن الصبغة الأدبية بخلاف الرسائل الإخوانية ، وكتابة القصص والمقامات فإنها ذات جانب أدبي رفيع ، جعلها نظيرة ما في ديوان الرسائل كما جاءت الكتابة العلمية نظيرة ما في غيره من سائر الدواوين ولما كان الأدب وحياته ينظران إلى الناحية الأدبية دون غيرها ، صارت الكتابة الانشائية في ديوان الرسائل والتوقيعات ، وخارجه في الرسائل الإخوانية والقصص والمقامات من أبحاثهما في الصميم ، دون كتابة الدواوين الأخرى لبعدها عنها البعد كله ، أما الكتابة العلمية فإنها يمان بها الالمام اليسير لما هو معروف من صلتها بكثير من العلوم والفنون . وعلى هذا الذي يقتضيه الأدب وحياته سيقع منا الكلام مع عدم التوسع الكثير في التدوين والتصنيف . وبعده يكون الكلام بإفاضة في الشعر إن شاء الله .

الكتابة الانشائية

أولاً - نماذجها

أ - في الرسائل والتوقيعات

١ - لما خرج محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية على المنصور كتب إليه المنصور .

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله،
أما بعد فأنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً
أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا
من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا
الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم، ولك
عهد الله وذمته وميثاقه، وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، إن تبنت من
قبل أن أقدر عليك، أن تؤمنك على نفسك وولدك وإخوانك، ومن
بايعك ومن تابعك وجميع شيعتك، وأن أعطيك ألف ألف درهم
وأزلك من البلاد حيث شئت واقضى لك ما شئت من الحاجات، وأن
أطلق من في سجن من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أتتبع
أحداً منكم بمكروه، فأنت شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من
يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام .

٢ - فكتب إليه محمد بن عبد الله . بسم الله الرحمن الرحيم من
عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد أما بعد « طسم

تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم
يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة
منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن
نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن
لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون»
وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني، وقد تعلم أن الحق
حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا، ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلنا،
وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصي والأمام، فكيف ورثتموه دوننا
ونحن أحياء؟ وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا
ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وأنا بنو أم رسول الله صلى
الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم^(١) وبنو ابنته فاطمة
في الاسلام من بينكم؛ فأنا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أمراً وأباً، لم تلدن
العجم ولم تعرق في أمهات الأولاد، وأن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار
لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أصحابه
أقدمهم إماماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبي طالب، ومن
نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى القبلة، ومن
بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الاسلام الحسن

(١) ينتهي نسبها إلى كعب بن لؤي وكانت زوجاً لعبد المطلب بن هاشم
فأولدها عبد الله أبا رسول الله وأبا طالب أبا العلويين واسمه عبد مناف
ممن الزبير وعبد الكعبة

والحسين سيدا شباب أهل الجنة^(١)، ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل جدي الحسن والحسين^(٢)، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار، فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذابا، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار، ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن آؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حدا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهدا، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان، فأما أمانك الذي عرضت علي، فأى الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم والسلام^(٣).

٣ - فكتب إليه المنصور - بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله

١ (أ) أبوه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي، وأمه فاطمة بنت الحسين ابن علي، فهو يرجع إلى رسول الله من الجهتين.

٢ (ب) يرجع علي إلى هاشم من قبل أبيه أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ومن قبل أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ويرجع الحسن إلى عبد المطلب من قبل أبيه علي بن أبي طالب ومن قبل أمه فاطمة بنت رسول الله، ويرجع محمد هذا إلى رسول الله من الجهتين كما تقدم.

(٣) هؤلاء الثلاثة آمنهم المنصور ثم غدر بهم، وابن هبيرة هذا هو يزيد ابن صمر بن هبيرة والى العراقيين مروان بن محمد

أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك؛ فاذا جل نورك بالنساء لتفضل به الجفاة والقوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء، ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الأثني فقال جل ثناؤه: «عن نبيه عليه السلام» واتبعت ملة آباء إبراهيم واسحاق ويعقوب . ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة؛ فأجابه اثنان أحدهما أبي وكفر اثنان أحدهما أبوك^(١) فأما ما ذكرت من النساء وقرابتهن، فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب، لكان خير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب؛ فإن الله لم يهد أحدا من ولدها للإسلام، ولو فعل، لكان عبد الله بن عبد المطلب أولام بكل خير في الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة غدا، ولكن الله أبي ذلك فقال «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشما ولد عليا مرتين، وأن عبد المطالب ولد الحسن مرتين، فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلد هاشم إلا مرة واحدة ولم يلد عبد المطلب إلا مرة واحدة، وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله، فإن الله عز وجل أبي ذلك فقال «ما كان محمداً أباً أحدهم رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» ولكنكم بنو ابنته وإنها

(١) المجيبان حمزة والعباس، والكافران أبو لهب وأبو طالب، والثاني أهون

لقربة قريبة. غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فكيف تورث الإمامة من قبلها؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضاها سرا ودفنها ليلا، فأبى الناس إلا تقديم الشيعين، ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بالصلاة غيره، ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان من أصحاب الشورى فكل دفعه عنها وبايع عبدالرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أبوك طلحة والزبير، وودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابيه دونه ثم بايع معاوية بعد، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودرهم وأسلم في يديه شيعة وخرج إلى المدينة، فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه. فأما قولك ان الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذابا فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأما قولك انك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، وأنتك أوسط بني هاشم نسبا وخير أما وأبا فقد رأيتك نخرت على بني هاشم طرا وقد مت نفسك على من هو خير منك أولا وآخرا وأصلا وفصلا، نخرت على إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى والد ولده. فانظر ويحك أين تكون من الله غدا، وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر، وهو خير منك، ولقد علمت ان جدك عليا حكم حكيم

وأعطاهما عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعوا على حله، ثم خرج
 عمك الحسين بن علي، علي ابن مرجانة^(١)، فكان الناس الذين معه عايناه
 حتى قتلوه ثم أنوا بكم على الأقتاب بغير أوطئة كالسبي المجلوب إلى
 الشام^(٢)، ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم
 على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بتأركم إذ لم تدركوه،
 ورفعنا أقدراكم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك
 في أدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفروناهم، وبيننا
 فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا لما ذكرنا
 من فضل علي أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا
 سالمين مسلما منهم وابتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن ماثرنا في الجاهلية
 سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم، وكانت للعباس دوزاخوته فنازعنا
 فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر عليه، وتوفي رسول الله ﷺ وليس
 من صومته أحد حيا إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب،
 وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينهاها إلا ولده، فاجتمع للعباس
 أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب
 بفضل القديم والحديث: ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات
 عمك طالب وعقيل جوعا، أو يلحسا جفان عتبة وشيبة^(٣) فأذهب

(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ومرجانة أمه (٢) الاقتاب جمع قتب

هو الرجل على قدر العنم، والأوطئة جمع وطاء وهو ما يقابل الغطاء.

(٣) يؤيد الكره قول رسول الله ﷺ يوم بدر « من لقي منكم العباس

فلا يقتله فإنه أخرج كرها » وطالب وعقيل ابنا أبي طالب أمرا يوم بدر،

عنهما العار والشنار ، ولقد جاء الاسلام والعباس بمون أبا طالب اللازمة التي أصابتهم، ثم فدى عقيلا يوم بدر^(١) فقد مناكم في الكفر وفديناكم من الأسر، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف الآباء ، وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

٤ - وكتب عبد الله بن المقفع « المتوفى سنة ١٤٣ » إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الأول « طريقة الترسيل » في التعريف بكتاب كيلة ودمنة، فكان مما كتب في أول باب عرض الكتاب:

هذا كتاب كيلة ودمنة وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا ، ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتبسون أن يعقل عنهم، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل، ويبتغون إخراج ما عندهم من العليل، حتى كان من تلك العليل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطيور فاجتمع لهم بذلك خلال ، أما هم فوجدوا متصرفا في القول وشعابا يأخذون منها ، وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا. فاختره الحكاء لحكمته، والسفهاء للهو ، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ما هو بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم، وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزا وعقدا له عقودا استغنى بها عن السكدح فيما يعمل من أمر

فكانا من الآكلين على جفان العباس وكان يطعم يوم بدر ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة كانا من المطعمين لقريش يوم بدر أيضا .

(١) كما فدى نوفل بن الحارث أيضا، أما طالب ففدى نفسه .

معيشته فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

هـ - ومما كتب في الدرة اليتيمة وهي رسالة دونها للخليفة المنصور في وجوب طاعة الناس لبني هاشم وبسميها الجاحظ الهاشمية ، قوله على ما ذكر أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ في كتابه المنثور والمنظوم^(١) .

فتفكروا فيما جمع الله لأمر المؤمنين في معدنه وفي سيرته ، وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك ، وفيما عسى لقائل أن يبتغي فيه الغمز والمقال ، فلعمرى إن للشيطان من أهواء الناس وألسنتهم في الأثر لنصيبا ، وإن له لمستراحا حين يستوفيههم أمانيته ويصدق عليهم ظنه ويوحى اليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفا وحزبه مغلوبا ، وجعله وإياهم نصيبا لجهنم من أجزائها المقسومة لأبوابها وخطبها ووقودها وحصبها ليعدل لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين في معدنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة ، وأولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وامام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليهما وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعنه الله

(١) الدرة اليتيمة مفقودة الآن ، ولم تعرف إلا بالتنبيه عنها أو النقل منها في بعض الكتب ، وأما الرسالة المطبوعة باسمها في بيروت فهي الأدب الكبير ، أخذ اسم الدرة اليتيمة خطأ ، لأن مشتملاتها لا تتفق وما تذكر تلك الكتب عن مشتملات الدرة بل تتفق مع مشتملات الأدب الكبير المنوه عنها في كثير من الكتب وهي السلطان ثم الصديق .

بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً، ثم هو باعته يوم القيامة مقاماً محموداً، شرع الله له دينه وأتم به نوره، ومحق به رءوس الضلالة وجبايرة الكفر، وخوله الشفاعة وجعله في الرفيق الأعلى ﷺ

٦ - ومما كتب في رسالة الصحابة وهي رسالة. دونها للخليفة المنصور أيضاً، لتكون دستوراً فيما يجب على كل ذي مصاحبة للسلطان في عمل نحو هذا العمل حتى يحسن القيام به، قوله من أولها :

أما بعد، أوصي الله أمير المؤمنين، وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة، فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه، المسألة والاستماع، كما كان ولاية الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء، ويستوثق لنفسه بالحجة، ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص على أمورهم كما كان أولئك يكتفون بالدعة، ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر، في الامتناع أن يجترأ عليهم أحد برأي أو خبر مع تسليط الذئاب، وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله، ومكن له في الأرض وآتاه ملكها وخزائنها، من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفيش^(١)

والتأمل والأخلاء، وأن يرضى ممن آوى منهم بالمتاع به وقضاء حاجة النفس منه، وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغارها إياه، وذلك من أبين علامات السعادة وأبجح العوامل على الخير. وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الأحاديث، وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته، أثنى على الله عز وجل بنعمته، ثم سلاهما كان فيه، وعرف أن الموت وما بعده

(١) التفيش هو ادعاء المفاخر باطلا

هو أولى فقال «توفنى مساماً وألحقنى بالصالحين». وفى الذى قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا رأى على تناوله بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره، وبالتذكير بما قد انتهى إليه، ولا يزيد صاحب رأى على أن يكون مخبراً أو مذكراً، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله. ٧، ٨ - ومما كتب فى الأدب الكبير وقد جعل بابه الأول فى السلطان والثانى فى الصديق، وهو الكتاب المطبوع باسم الدرة اليتيمة خطأ كما تقدم، قوله فى أول الباب الأول بعد الديباجة.

إن ابتليت بالامارة فتعوذ بالعلماء، واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها، فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها فى ساعات دعته وشهوته، وإنما رأى له والحق عاينه أن يأخذ لعماله من جميع شغله، فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولطوه ونسائه. فإذا تقلدت شيئاً من الأعمال، فكأن فيه أحد رجلين، إما رجلاً مغتبطاً به محافظاً عليه مخافة أن يزول عنه، وإما رجلاً كارهاً قال: كاره عامل فى سخرة إمام الملوك إن كانوا هم سلطوه، وإما لله إن كان ليس فوقه غيره. وإياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثمة من الثلم يتقحمون عليك منها، وبأيا فتتحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها، واعلم أن قابل المدح كما دح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده فإن الراد له محمود والقابل له معيب

ثم قوله فى آخر الباب الثانى يصف صاحبه له:

إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى، وكان رأس

مأعظمه عندى صغر الدنيا فى عينه . كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يشتوى مالا يحد ولا يكتر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعوه إلى مثنوة ولا يستخف له رأيا ولا بدنا ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان أكثر دهره صامتا فإذا قال بذ القائلين ، وكان يرى متضاغفا مستضعفا . فإذا جاء الجدف والليث حاديا ، وكان لا يدخل فى دعوى ولا يشترك فى مرء ولا يدلى بحجة حتى يجد قاضيا عدلا وشهودا عدولا ، وكان لا يلوم أحدا على ما قد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعا إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشهى ولا يتشكى ، ولا ينتقم من المولى ولا يغفل عن العدو ، ولا يخلص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه بحياته وقوته . فعليك بهذه الاخلاق إن أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٩ - ومما كتب فى الأدب الصغير وهو آداب منشورة فى غير موضوع قوله عن صناعة الكتابة :

ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره فتكلم به فى موضعه وعلى وجهه فلا ترين عليه فى ذلك ضئولة ، فانه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين ، ووفق للاخذ عن الحكماء ولا عليه أن يزداد ، فقد بلغ الغاية وليس بناقصه فى رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه ، فانما إحياء العقل الذى يتم به ويستحكم ، خصال سبع . الا يثار بالمحبة ، والمبالغة فى الطلب ، والتثبت فى الاختيار ،

والاعتقاد للخير، وحسن الوعي، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً .

١٠ - وكتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة .

أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لاهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزراعته من حصاده أو لعقبه من بعده ، وكتبت إليك ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة : أول ما فيهم معروف تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الأيادي قبلنا.

١١ - وكتب إلى بعض أصدقائه وقد تقارقا يخبره ويستخيره .

كان من خبري بعدك أني قدمت بلد كذا فتهياً لي بعض ماشخصت له، والحمد لله على ذلك الله عز وجل، وأنا إلى أن يأتيني خبرك محتاج، فأما جملة خبري في فراقك: فقلبي مكة كل ماسواك حرام فيها .

١٢ - وكتب إلى صديق ولدت له جارية .

بارك الله لاسمكم في الابنة المستفادة وجعلها لكم زينا وأجرى لكم بها خيراً . فلا تكرهها فانهن الأمهات والأخوات والعلمات ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم

١٣ - وكتب يعزى صديقاً عن بنت له

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك عما رزقته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليها أضعاف ما رزأك منها فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

١٤ - وكتب يعزى من ولد .

إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنتكى المرزئتين لك ، أخلف الله عليك بخبر وذخر لك جزيل الثواب .

١٥ - وكتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنيء بمولود .

أما بعد فانه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بهجا أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقتك وعرفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيرا وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سرىا أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك فاشتد سرورى بذلك وأكثر حمد الله عليه فبارك الله فيه وجعله بارا تقيا يشهد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك .

١٦ - وكتب عمرو بن مسعدة وزير المأمون عن لسانه إلى الحسن

ابن سهل يهنئه بمولود

أما بعد فان هبة الله لك هبة لأمر المؤمنين ، وزيادته إياك فى عددك زيادة له فى عدده ، لمهلك عنده ومكانك من دولته وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سرىا فبارك الله لك فيه وجعله بارا تقيا مباركا سيدا زكيا .

١٧ - وكتب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبيب

حين قويت شوكته وهزم جيوش الخلافة

أما بعد فانك يا نصر بن شبيب قد عرفت الطاعة وعزها وبرد ظلمها

وطيب مرتعها، وما في خلافتها من الندم والخسارة . وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يملئ لمن يلتبس مظاهره الجبة عليه لتقع غيره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيت إذ كارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به اليك موقع منك ، فإن الصدق صدق والباطل باطل؛ وإنما القول بمخارجه وأهله الذين يعنون به . ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك مني في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على انقاذك والانتياش لك^(١) من خطئك مني ، فبأى أول أو آخر أو سلطة أو امرأة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبیت آمننا مطمئنا أو وادعا ما كنا أو هادئا، فو عالم السر والجر، لنن لم تكن للطاعة مراجعا وبها خانعا لتستوبلن وخم العاقبة^(٢)، ثم لا بد أن بك قبل كل عمل؛ فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة في الأرض وفسادا كبيرا، أما لا طأت بمن معي من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك ومن تأشب اليك^(٣) من أداني البلدان وأقاصيها وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خراب الناس، ومن لفظه بلده ونفته وعشيرته لسوء موضعه فيهم ، وقد أعذر من أنذر والسلام .

١٨ - وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق عن لسان الخليفة إلى أحد العمال

أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لأمة ،

(١) انتياشه أنقذه (٢) لتجدن العاقبة وبيلة وخيمة (٣) التف بك

إما تقصير في عملك دماك للإخلال بالحزم والتفريط في الواجب ،
وإما مظاهره لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت
منك محلة الذكربك وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين
من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة ، والتقدم في الاعتذار والانداز ، وعلى
حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهادك في تلافى التقصير
والاضاعة والسلام .

١٩ - وكتب إلى ابراهيم بن العباس الصولى أيام مقامه بالأهواز
في تقصيره بنفسه يقول :

قلة نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة ، وإغفالك حظك حطك
عن الدرجة ، وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة ، حتى صرت
من قوة الأمل معتاضا شدة الوجمل ، ومن رجاء الغد متعوضا يأس
الأبد ، وركبت مطية المخافة بعد مجلس الامن والكرامة ، وصرت
معرضا للرحمة بعد ما اكتنفتك الغبطة ، وقد قال الشاعر :

إذا ما بدأت امرأ جاهلا ير فقصر عن حمله
ولم تره قابلا للجميل ولا عرف الفضل من أهله
فسمه الهوان فان الهوان دواء لذى الجهل من جهله
وقد فهمت كتابك وإغراقك وإطنابك ، وإضافة ما أضفت بتزويق
الكتب بالأقلام ، وفي كفاية الله غنى عنك يا ابراهيم وعرض منك وهو
حسبنا ونعم الوكيل .

٢٠ - وكتب ابراهيم بن العباس الصولى الى ذى نعمة يتوصل :
لا أزال « أبقاك الله » أسأل الكتاب اليك ، مرة أتوقف توقف

المخفف عنك من المثونة، ومرة أكتب . كتاب الراجع منك الى الثقة
والمعتمد منك على المقييل ، لا أعدمنا الله دوام عزك ولا سلب الدنيا
بمجتها بك ولا أخلانا من الصنع لك ، فانا لا نعرف الا نعمتك ولا نجد
للحياة طعما إلا في ظلك ، ولئن كانت الرغبة الى بشر من الناس خسارة
وذلا ، لقد جعل الله الرغبة اليك كرامة وعزا لأنك لا تعرف حرا
قعد به دهره إلا سبقت مسأله بالعطية ، وصنت وجهه عن
الطلب والذلة .

٢١ . وكتب أبو عثمان عمرو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ إمام الطريقة
الكتابية في العصر العباسي الثاني «طريقة الازدواج» من رسالة في مدح
التجار وذم عمل السلطان، بعد أن ذكر احتجاج حشوة الأتباع يقول :
وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان^(١) فأما عليتهم
ومصاصهم^(٢) وذوو البصائر والتمييز منهم، ومن فيقته الفطنة وأرهقه
التأديب وأرهفه طول التفكير، وجرى فيه الحياء، وأحكمته التجارب
فعرف العواقب ، وأحكم التفصيل وأنطق غوامض التحصيل ، فإنهم
يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ويحكمون لهم بسلامة الدين
وطيب الطعمة، ويعلمون أنهم أروع الناس أبدا وأهنؤهم عيشا وآمنهم
سربا، لأنهم في أفئدتهم كالملوك على أسرته، يرغب اليهم أهل الحاجات
ويتزع اليهم ملتصقوا بالبياعات^(٣)، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم، ولا يستعبدونهم
الضرع لمعاملاتهم، وليس هكذا من لا بس السلطان بنفسه وقاربه
بخدمته، فإن أولئك لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن هم لهم دخول

(١) توابع البطانة (٢) مضايع كل شيء خالصه (٣) الملع

مملوءة قد لبسها الرعب وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج فهم من هذا في تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فان هي حلت بهم وكثيرا ماتحل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الاعداء فضلا عن الأولياء ، فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الاثراء وقضاء اللذات من غير منة لأحد ولا منة يعتد بها ، وكم بين من هو من نعم المفضلين خلى وبين من قد استرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الصنيعة وطوق عنقه الامتتان واسترهن بتحمل الشكر .

٢٢ - ومن كلامه يصف الكتاب

الكتاب - نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعمدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغرب ونعم القرين والذخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء مليء علمها وظرف حشى ظرفا وإناء شحن مزاحا ، إن شئت كان أعيان من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل وإن شئت مررتك نواذره وشجيتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله وبناسك فائق وناطق آخرس : ومن لك بطبيب أعرابي ورومي هندي وفارسي يوناني ونديم مولد ونجيب ممتع ومن لك بشيء يجمع الأول والآخ والنقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والبغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده . وبعد فما رأيت بستانا يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر وناطقا ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك

بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بنا تهوى ، آمن من فى الأرض
وأكتم للسّر من صاحب السّر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة .
ولا أعلم جارا آمن، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما
أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية، ولا أقل إملالا ولا إبراما، ولا أبعد
من مرء ولا أترك لشغب، ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال
من كتاب ، ولا أعم بيانا ولا أحسن موانة، ولا أعجل مكافأة ولا شجرة
أطول عمرا ولا أطيب ثمرا، ولا أفرب مجتنى ولا أسرع إدراكا، ولا أوجد
فى كل إبان من كتاب ، ولا أعلم نتاجا فى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص
ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار
العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكيم الرفيعة والمذاهب
القديمة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاذ النازحة
والامثال السائرة والأهم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر إن
شئت كانت زيارته غبا، وورد، خمسا، وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان
منك كبعضك . والكتاب هو المجلس الذى لا يطريك والصدى الذى
لا يقلبك، والرفيق الذى لا يملك والمستمتع الذى لا يستزيدك والجار
الذى لا يستبطنك والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالمق
ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ، والكتاب هو الذى إن نظرت
فيه أطل إمتاعك وشهد طباعك وبسط لسانك وجود بيانك ونخم
ألفاظك وبحبب نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصدقة
الملوك ، يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفى السفر طاعته فى الحضر، وهو
المعلم إن افتقرت اليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة،

وإن عزات لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساطت ليلهم نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة، وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتثمين مال وربّ صنّيعه^(١) وابتداء إنعام، ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه اليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك^(٢) مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس، ومن حضور أفاضلهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الرديّة وجهالتهم المذهومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخط المني واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهيه، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنن، وجملة الكتاب وإن كثرت ورقه فليس مما يمل لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة في خطابه والعلم بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير.

٢٣ — ومن كلامه في محاسن الضحك ومنافعه وقد ساقه إليه الاستطراد في مقدمة كتابه البخلاء.

وإذا كان البكاء مادام صاحبه فيه فإنه في بلاء، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ، ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع، وشبهه بالآفة

(١) رب الصنّيعه تربيتها . (٢) المارة جماعة المارين

اللكم^(١) وبالحدث الضرع^(٢) كذلك ، فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ، ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك لما قيل لازهرة والخبرة والحلى والقصر كأنه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بمحذاء الحياة ووضع البكاء بمحذاء الموت ، وإنه لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كيرا وهو شئ فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطاق وبطليق . وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح وضحك الصالحون وفرحوا ، وإذا مدحوا قالوا هو ضحكوك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتراز ، وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم الحيا^(٣) وهو مكفر أبدا وهو كرية الوجه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازها أحد أو قصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطأ والتقصر نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشئ الذى جعل له الضحك ، صار المزح جدا والضحك وقارا .

(١) اللثيمة اللكماء (٢) المستكين (٣) كرية الوجه .

٢٤ - وكتب إلى الفتح بن خاقان في يوم عيد مهنتا:
أخرتني العلة عن الوزير «أعزه الله»، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب
عني ويعمر ما أخلته العوائق مني، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العبد
أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير. ودون الأعياد المستقبلية فيما يحب
ويحب له، ويقبل ما توسل به إلى مرضاته، ويضاعف الاحسان إليه على
الاحسان منه، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية، ولا يره في مسرة
نقصا ولا يقطع عنه مزيدا، ويجعلني من كل سوء فداءه، ويصرف عيون
الغير عنه وعن حظي منه.

٢٥ - وكتب إلى قليب المغربي معاتبا:
والله يا قليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة، وروحي بك
مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة وما ددتك حبل المصارمة، وأرجو الله
تعالى أن يدل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنف القلي راغم،
فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نذنا كر عند اللقاء.

٢٦ - وكتب مستنجزا عدة طال مطالها
أما بعد فقد رسفنا في قيود مواعيدك، وطال مقامنا في سجون
مطلك، فأطلقنا أبقاك الله من ضيقها وشديد غمها، بنعم منك مثمرة
أو لا مريحه.

٢٧ - وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٢٦٥ في الشكر:
من شكرك على درجة رفعته اليها أو ثروة أفدته إياها، فان شكرك
لك على مهجة أحييتها وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقت بين
التلف وبينه، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهي إليه، ومدى يوقف

عنده، وغاية من الشكر يسمو اليها الطرف ، خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره وأنت من وراء كل غاية ، رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبالغ جهم المجتهد .

٢٨- وكتب أبو الحسن علي بن العباس الرومي المتوفى سنة ٢٨٢ مستعظفا

ترفع عن ظلمي إن كنت بريئا، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئا،
ووالله إني لأطاب عفو ذنب لم أجنه ، وألتس إلاقلة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا وأزداد تذلا ، وأنا أعيد حالي عندك بكرمك من واش يكيدها وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظي منك بقدر ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيت أستحق منك .

٢٩ - وكتب عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ إلى عايل يرجو شفاءه :

أذن الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك
ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لنوابك
٣٠ - وله يذكر كيف يكون اكتساب الحماد واستيجاب الشرف :

لن تكسب « أعزك الله » الحماد وتستوجب الشرف إلا بالحمل على
النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال . ولو كانت المكارم
تنال بغير مثونة لا شراك فيها السفلى والأحرار ، وتساهمها الوضعاء من
ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص بها الكرماء الذين جعلهم أهلها
نخفف عليهم حملها وسوغهم فضلها ، وحظرها على السفلة لصغر أقدارهم
عنها وبعد طباعهم منها ونفورها عنهم واقشعرارها منهم .

٣١ - وكتب أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ إمام الطريقة

الكتابية في العصر العباسي الثالث «السيجم» إلى عضد الدولة في انقراض العلوم بتملك الجبهة الظالمين ونماؤها بتملك العلماء العادلين ، رسالة كان من فصولها قوله

وقد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مررها ^(١) والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها وعدم الزيادة فيها ، الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الأوباء ، وتسليط المخالفين في المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يحترم المعلوم اختراما وينتهكها انتهاكا ويجتث أصولها اجتثاثا ، وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولده نسلط ملك جاهل تطول مدته وتتسع قدرته ، فإن البلاء به لا يعد له بلاء . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفتها ، والبلوى بمن هذه صورتها ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرفها ومجتمع فرقها ، وهي نور ^(٢) نوافر بمن لاقت حتى تصير إليه . وشرذ نوازع حيث حلت حتى تقع عليه ، تتلفت إليه تلفت الواثق ، وتتشوف نحوه تشوف الصب العاشق ، وقد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع .

فان تغش قوما بعده أو تزدهم فكالوحش يدنيها من الأنس المحل ٣٢ — وكتب عن ركن الدولة إلى بلكا بن ونداد خورشيد ، عند استعصائه عليه ، رسالة قامت في رد غوايته مقام الكتاب يقول فيها على ماذكر النعالي في اليتيمه :

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك

(١) جمع مرة وهي قوة الجبل وانتقاضها فكها (٢) جمع نوار وهي البقرة الوحشية

وإعراض عنك، فانك تدلى بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرها
يوجب رطابة، ويقتضى محافظة وعناية، ثم تشفعها بحادث غلول^(١)
وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك
ويحق كل ما يرعى لك، لا جرم انى وقفت بين ميل إليك وميل عاك،
أقدم رجلا لصندمك وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسطيدا لاصطلامك
واجتياحك، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال
بعض الأمور فيك ضنا بالنعمة عندك، ومنافسة فى الصنعة لديك وتأميلا
لفيئتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك. فقد يغرب العقل ثم
يثوب، ويعزب اللب ثم يثوب ويذهب الحزم ثم يعود ويفسد العزم ثم
يصلح، ويضاع الرأى ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء
ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء وكل غمرة فالى انجلاء. وكما أتيت من
إساءتك بمالم يحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتى من إحسانك بمالاتر يقبه
أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ماركبت واخترت
ما اخترت، فلا عجب أن تتنبه انتباهة تبصر، فيها قببح ما صنعت وسوء
ما آثرت، وسأقيم على رسمى فى الابطاء والمماطة ما صالح وعلى الاستيناء^(٢)
والمضاولة ما أمكن، طمعا فى إنابتك وتحكما لحسن الظن فيك، فلمست
أعدم فيما أظاھرہ من إعدار وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك
واس تدراجا لك، فان يشأ الله يرشدك ويأخذ بك إلى حظك ويسددك،
فانه على كل شىء قدير وبالاجابة جدير

وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطا، وإذا

كنت كذلك ففقدت حاليمها وحلبت مشطريها ، فنددتك الله لما صدقت عما سألتك . كيف وجدت ما نزلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول ، في ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل وهواء ندى وماء روى ومهاد وطى وكن كنين ومكان مكين وحصن حصين ، يقياك المتألف ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحداث ، عززت به بعد الذلة وكثرت بعد القلة وارتفعت بعد الضعة وأيسرت بعد العسرة وأثريت بعد المتربة واتسعت بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات وخفقت فوقك الرايات ووطىء عقبك الرجال وتعلقت بك الآمال وصرت تكاثر ويكثر بك وتشير ويشار إليك وبذكر على المنابر اسمك وفي المحاضر ذكرك ، ففهم الآن أنت من الأمر وما العوض عما عدوت والخلف مما وصفت ، وما استغفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ونقضت منها كفك وغمست في خلافها يدك؟ وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب؟ قل نعم كذلك فهو والله أكتف ظلالك فى العاجلة وأرواحها فى الآجلة إن أقمت على المحايدة والعنود ووقفت على المشاقة والجحود . تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي إليك فسبتنكرها : والمس جسدي وانظر هل يحس ، واجسس عرقك هل ينبض ، وفتش ما انحنت عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوت سريح أو موت مريح ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله .

٣٣ - وكتب الى أبي عبد الله الطبرى فى الشوق

كتابي اليك وأنا بحال لو لم ينقصها الشوق اليك ولم يرق صفوها

النزوع نحوك ، لعدتها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظى منها فى النعم الجميلة . فقد جمعت فيها بين سلامة طامة ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بضلاح وفى سعى بنجاح . لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطعم فى ذلك وأنت جزء من نفسى وناظم لشمل أنسى وقد حرمت رؤيتك وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام . وقد قرأت كتابك جعلنى الله فداءك فامتلات سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك فى لفظك . وما أقرظهما فكل خصالات مقرظ عندى وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك فان كان كذلك وإلا فقد « غطى هواك وما ألقى على بصرى »

٣٥ — وكتب إليه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ الملقب بالصاحب لطول ماصاحبه ، جوابا عن كتابه إليه فى وصف البحر يقول .

وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه . وطاين من مراكبه ، ورأى من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها واستجابة أدواتها لها متى نادتها . وركوب الناس أشباحها والخوف برأى ومسمع والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك والأرواح بين نجاة وهلاك ، إذا فكروا فى المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حجب إليهم الغرر ، وعرفت

ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته وحصولي على مساعدته ؛ ومن رأى بحر الاستاذ كيف يزخر بالفضل وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يفите من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الاستاذ لأحواله واستعظامه لأهواله ، كما لا شيء أبلغ في مناخره وأنفس في جواهره من وصف الاستاذ له ، فاني قرأت منه الماء السلسال لا الزلال ^(١) والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفكر سعة صدره ، ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لا يفضل عن التبرض وتمد الايكثر عن الترشف ^(٢)

وكم من جبال جبت تشهد أنك الجبال وبحر شاهد أنك البحر
٣٥ - وكتب الى صديق أهدي إليه مصحفا فأجاد . نعت
القرآن والخط .

البر «أدام الله الشيخ» أنواع تطول به أبواع ، فان يكن فيهما هو
أكرم منصبا وأشرف منسبا ، فتحفة الشيخ ، إذ أهدي ما لا يشا كله
النعم ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه وكلامه وفرقانه ووحيه وتنزيله
وهداه وسبيله ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليله طبع دون
معارضته على الشفاء وختم على الخواطر والافواه فقصر عنه الثقلان
وبقى ما بقي الملوان . لائح سراجيه واضح منهاجه منير دليله عميق نأويله

(١) الزلال الصافي السهل الاساغة ، والسلسال الصافي الذي لا ينقطع فهو
يريد أنه قرأ السلسال لا الزلال وحده (٢) الوشل الماء القليل ، ولا يفضل عن
التبرض لا يزيد عن أن ينقطع بعد قليل أخذ ، والتمد الماء القليل غير المتصل ،
ولا يكثر عن الترشف لا يزيد عن أن يتناول بالافواه .

يقصم كل شيطان مريد، ويذل كل جبار عنيد، وفضائل القرآن لا تحصى
فى ألف قرآن . فأصف الخط الذى بهر الطرف وفاق الوصف ، وجمع
صحة الاقسام وزاد فى نحوه الاقلام،^(١) بل أصفه بترك الوصف، فأخباره
آثاره وعينه قراره^(٢) وحقا أقول إني لأحسب أحدا ما خلا الملوك جمع
من المصاحف ما جمعت، وابتدع فى استكتابها ما ابتدعت ، وإن هذا
المصحف لزائد على جميعها زيادة الفرعة على الغرة^(٣) ، بل زيادة الحج
على العمره

لقد أهديته علقا نفيسا وما يهدى النفيس سوى النفيس

٣١ - وكتب إبراهيم بن هلال بن هرون الصابى المتوفى سنة ٣٨٤

إلى صاحب يعتذر له عن تأخر كتبه عنه، ويثنى عليه فقال :

أنا أعتذر إلى سيدى «أطال الله بقاءه» من تأخر كتبي عن حضرته
الجليلة ، بعذر اذا تأمله حق تأمله، وعرضه على نقده وتميزه، وعرف صدق
منطقه وخلوص مصدره ، علم أننى مواصل بباطن مرادى وإن صرمت
بطاهر فعلى ، وملازم بخافى مقصدى وإن أخللت ببادى مسلكى، وهو
أننى جربت مكاتبته «أيده الله» مواظبا عليها مكبا، ومراخيا بين أوقاتها
مغبا ، لأتبع أحب الامرين اليه وأوقعهما لديه . فلما لاح لى أن الاجام
أنفق والترفيه أرفق ، ووثقت بأن رأيه على فى الحالين محروس النواحي
والجوانب محمى الشرائع والمشارب ، اقتصرت على أن أتعرف أخباره
وأسر باستقامتها وانتظامها ، وأتسم أحواله وأسكن إلى اطرادها

(١) فى غيرها (٢) أى ومعاونته قرار له بما أقول (٣) يريد زيادة الذؤابة

والتأملها وابتهج بما يصير اليه «أيده الله» من ذروة مرتبة يعتليها وغارب
مرتبة يمتطيها ، وأنا أول المتحدثين عنهما والسامعين بهما على أنه
لم يستوف بعد حظه ، ولم يستوعب قسطه فأن للديار ما عيّد فيه لا بد
أن ينتجزها بمساعيه .

٣٧ - ومن كتاب له عن عضد الدولة الى أخيه مؤيد الدولة إذ
قبض على ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد وكان أبوه صدر وزراء
أبيهما ركن الدولة يستشفع له :

وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال
والصبر على الأذل ، واجتمع له الى ذلك ، التقلب في نعمة حازها حياز
وارث لها ، لم يكدر في تأثيلها ولا مسه النصب في تثيرها ولا اهتدى
إلى طريق استيفائها ولا تحزن من طرق دواعي انتقالها ، ومن ألزم
اللوازم في حكم الرأية ، أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها
وأن نعذره عن هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها ، وأن تكون نفسه
محروسة ، والبقية من ماله بعد أخذ فضله المفسد له متروكة وأن يتحدث
الناس بأن سيدى الأمير أصاب غرض الحزم في القبض عليه ثم طبق
مفصل الكرم في التجاوز عنه .

٣٨ - وكتب رسالة عن لسان صديق له بعث بها مع رسول إلى
عظيم يخطب اليه كريمة جاء فيها :

ولو لم يكن للخاطب إلى المخطوب سبب غير ابتدائه إياه بالثقة
والتماس المشابكة ورضاه به شريكا مفوضا في الولد واللحمة والمال والنعمة ،
لكفاه وأجزاه وأغناه عن كل ماسواه ، حتى إنه لو خطب الى زاهد

لوجب عليه أن يرغب أو إلى معتاص^(١) للزمه أن ينقاد ، لأن هذا المطلب إذا صدر عن الأحرار إلى الأحرار استهجن عنه الرد والمقابلة له بضد فكيف وقد انتظمت بيننا دواعي الأجابة وارتفعت دواعي المدافعة؟ وبالله جهد المقسم، إن والدي «أيدها الله» تعالى يسوماني التأهل منذ - نين كثيرة ، فأحمل نفسي على التقاعس عما آثره مع ما افترض علي من طاعتها . اشتطاطا مني في شرائط أحببت أن تجتمع لي في الخبيثة^(٢) التي أوصلها ، وقلمما تتكامل إلا فيمن طهر الله أصله وجعل أمره وأظهر فضله . وقد دطاني بالدعاء الى ذلك كثير من الرؤساء الأ' كابر وذوى الأخطار الأفاضل ، بفارس والبصرة وبغداد ، فامتنعت من أجل شذوذ بعض شرائط عليهم . حتى إذا أوجدنيها الله في جهتك الجليلة وجمعها إلى في منازل المصونة ، بعثتني البواعث وحفزتني الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل ويتصل بنا الحبل فكتبت اليك هذه الرقعة خاطبا كريمتك فلانة ، علي أن أكون لها كالجنف الواقى لمقلته والصدر الحاوى لمهجته ، ولك كالولد المطيع لأبيه ، ولأخيها كالأخ العاصد لأخيه ، فإن رأيت ياسيدي أن تتأمل ما كتبت به من هذه الجملة ونسمع من موصليها ما تحمله عني من تفصيلها وتتوخي بأجابتي إلى ما سألت تحقيق ظني وتصديق أمني ، فعلت إن شاء الله

٣٩ - وكتب أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ بعد إبلاله^(٣) من مرض ، يعاتب صديقا لم يعده في مرضه ولم يهنئه بشفاؤه كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء وبرز

(١) حاص ممتنع (٢) الخبوءة (٣) شفاؤه

البدر من الظالماء ، وقد فارقتني المحنة وهي مفارق لا يشترق اليه وودعتني وهي مودع لا يبكي عليه ، والحمد لله تعالى على محنة بجليها ونعمة ينيها ويوليها . كنت أتوقع أمس كتاب سيدي بالتسليية واليوم بالتهنئة . فلم يكتبني في أيام البرحاء بأنها غمته ولا في أيام الرخاء بأنها سرته ، وقد اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلبي ، فقامت : أما إخلاله بالأولي فلا نه مشغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما تغافله عن الأخرى فلا نه أحب أن يوفر على مرتبة السابق إلى الابتداء ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء ، لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليه ومحفوفة من كل بيئة به ، فان كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي حق الاحسان وليكتب إلي بالاستحسان ، وإن كنت أسأت فايخبرني بعذره فانه أعرف مني بسره ولا يرض مني بأنني حاربت عنه قلبي واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبي ، وقلت يانفس اعذري أخاك وخذي منه ما أعطاك ، فمع اليوم غد والعود أحمد

٤٠ - وكتب إلى تلهيذ له قطع زيارته بعد أن أتم تخريجه :

إن كنت « أعزك الله » لا ترانا موضعاً للزيارة فنحن في موضع الاستزارة ؛ وإن كنت تعتقد أنك قد استوفيت ما كان لدينا فسقط حقنا عنك وبقى حقك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل له ولا تعيره عزله ، ولو لم تزرنا إلا لترينار جحانك كما طالمارأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلاً صائباً وفي القياس واجباً .

٤١ - وكتب بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني

المتوفى سنة ٣٩٨ إمام القصص « مع اجادة الرسائل » فى العصر الثالث إلى صديق هنأه بمرض الخوارزمى الذى عاداه بعد مناظرته إياه يقول:-
 الحر «أطال الله بقاءه» ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتى ووصف
 أحواله صفتى ، إذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة فهى
 أمانى فأن وجدت فهى عوارى ، وأن محن الزمان وان طالست فستنفد وإن
 لم تصب فكان قد ، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها فى نفسه ولا
 يعدمها فى جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت وإن لم يموت فسوف
 يموت ، وما أقبح الشجاعة بمن أمن الامانة فكيف بمن يتوقعها بعد كل
 لحظة وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الأختيار وظمان شربه
 الأحرار^(١) وهل يشمت المبرء بأنياب آكله أو يسر القاتل بسلاح قاتله
 وهذا الفاضل «شفاه الله» وان ظاهرنا بالعداوة قليلا فقد باطننا ودا جميلا ،
 والحر عند الحمية لا يصطاد ولكنه عند الكرم ينتقاد وعند الشدائد
 تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته
 والتحزن لمرضته ، وقاه الله المكروه بحوله ووقانى بسماع السوء فيه
 بلطفه ، والسلام عليك ورحمة الله .

٤٢ - وكتب إلى بعض إخوانه . وقد أخبره بموت أبيه يعزیه
 ويحذره التبذير والتقتير .

وصلت رقعتك ياسيدى والمصاب لعمر الله كبير وأنت بالجزع
 جدير ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأحبة وشد كأنه الغى وقد
 مات الميت فايحى الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم

(١) الطعم بالكسر ما يطعم ، والشرب كمذلك ما يشرب .

خيرك بالأُمس، قد كان ذلك الشيخ «رحمه الله» وكيفك تضحك ويبكي لك،
وقد مولك بما ألف في سراه ومسيره، وخلفك فقيرا إلى الله غنيا عن غيره.
وسيعجم الشيطان عودك فان استلانه رماك يقوم يقولون خير
المال ما أتلف بين الشراب والشباب وأنفق بين الحباب والأحباب^(١)
والعيش بين الإقداح والقداح^(٢)، ولولا الاستعمال لما أريد المال، فان
أطعتمهم فالיום في الشراب وغدا في الخراب، واليوم وأطربا للسكاس
وغدا واحربا من الأفلاس. يامولاي، ذلك الخارج من العود يسميه
الجاهل نقرا والعاقل فقرا وذلك المسموع في الناي هو الآن في الأذان
زمر وغدا في الأبواب سمر^(٣) والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار
في هذا العمل بضاعة. فان لم يجد الشيطان مغمزا في عودك من هذا
الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك، فتجاهد قلبك وتحاسب
بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك وتراه
في الآخرة في ميزان غيرك لا. ولكن قصدا بين الطريقتين وميلا عن
الفرقتين لا منع ولا اسراف فالبخل فقر حاضر وصير عاجل وإنما يبخل
المرء خيفة ما هو فيه فليكن لله في مالك قسط وللمروءة قسم. صل
الرحم ما استطعت، وقدر اذا قطعت، فلأن تكون في جانب التقدير
خير لك من أن تكون في جانب التبذير.

٤٣ — وكتب أبو منصور عبد الملك التتالي المتوفى سنة ٤٢٩

(١) الحباب بالفتح فقايع الخمر، والأحباب الأصحاب (٢) الإقداح جمع
قدح بالتحريك وهي الكأس، والقداح جمع قدح بكسر فسكون وهو السهم
الميسر والصيد والاول المراد (٣) المصادرة استيفاء للديون

يهنيء بقدم من سفر :

أهنيء سيدى ونفسى تطيب بما يسر الله من قدومه سالما ، وأشكر
الله على ذلك شكر ا دائما . جعل الله قدومك مقرونا بالخبرة التامة العامة ،
والكفاية الشاملة الكاملة ، غيبة المكارم مقترنه بغيبتك وأوبة النعم موصولة
بأوبتك ، فوصل الله قدومك من الكرامة بأضعاف ما قرن به سفرك
من السلامة ، وهناك بآياك وبلغك غاية محابك . مازلت بالنبأ معك
مسافرا وباتصال الذكر والفكر ملاقيا . إلى أن جمع شمل سرورى
بأوبتك وسكن فرند قلبى بعودتك .

٤٤ - وكتب أبو محمد القاسم بن على الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ
إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسى الرابع « استخدام البديع »
إلى الرئيس أبى الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد بن التلميد الكاتب
فى التعارف قبل اللقاء : -

جزى الله خيرا والجزاء بكفه بنى صاعد أهل السيادة والمجد
هم ذكرونى والمهمة بيننا كما ارفض غيث فى تهامة فى نجد
لو أخذت فى وصف شغفى بمناقب سيدنا أطال الله بقاءه ، وأدام
علاءه ، وحرس نعماءه ، وكبت حساده وأعداءه ، وما أنا بصدده من
مدح سودده ، وشرح تطوله وتودده ، لكنى بمنابة المغترين فى محاولة
عذرمل يرين . لكنى راج أن أحظى من ألعيتة الثاقبة وبصيرته الصائبة .
بما يمثل له عقيدتى ويطلعه على نخيله مودتى ، وما أملك فى مقابلة مفاخرته
التي أخلصت له إيجاب الحق وفضيلة السبق إلا الثناء الذى أتلو صحائفه
والثناء الذى أقيم فى كل وقت وظائفة والله سبحانه يحسن توفيقى لما

يشيد مباني المودة التي أعتدها أفضل مقاني العدة . ثم إنى لفرط اللهبج باستملاء فضائله النيرة، واستطلاع محاسنه المسيرة، أسائل عن خصائصه الركبان وأطرب بسماعها ولا طرب النشوان . ولما حضر الشيخ الأديب الرئيس أبو القاسم بن الموز «أدام الله تمكينه» ألفيته مواليا مغاليا وداعية إليه وداعيا فازدت كفا بما وعيته منه وشغفا بما استوضحته عنه، واستدللت على كمال سيدنا بامتداده خلاص شكر مثله وتحققت وفور أفضاله وفضله ، فافتتحت المكتبة بتأدية هذه الشهادة، واستمداد سنة المواصلة المعتادة والتكرمة التي تقتضيها بواعث السيادة ، ولرأيه في الوقوف على ما كتبه والتطاول فيه بما توجبه أريحته علوه ، إن شاء الله تعالى .

٤٥ - وكتب رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ في التهنية بالقدوم من سفر .

بلغنى إياب سيدى زانه الله بصنوف المعالى وصانه من صروف الليالى، من سفرته الميمونة التى أسفرت عن نيل المراد وتسهيل البغية إلى دار إقامته ومستقر كرامته ، لم يؤثر فيه نصب السير وعناؤه وكلال السفر ووعثاؤه ، فبلغ سرورى بذلك مبلغا يضاهى ما كنت بصده من الجزع لغيبته، فحمدت الله تعالى على ما يسر له من الرجوع إلى مغانيه والطلوع على بلدة جر فيها ذبول أمانيه ، وسألته جللت قدرته أن يجعل ما أنعم به عليه من قرب الدار ودنو المزار، موصولا بطول العمر والبقاء مقرونا بدوام العز والعلاء، إنه سميع الدعاء .

٤٦ - وكتب القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على المتوفى سنة ٥٩٦ وهو الذى أفرط فى استخدام البديع فرسم طريقة التكلف المنسوبة إليه ، عن العاصد آخر خلفاء الفاطميين إلى أحد الملوك فى شأن كتاب أنفذه إليه فلم يجب عنه .

كتابنا «أطال الله بقاء الملك» عن مودة طاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، صافية جلاب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها ومساعى مساعد لا ينقص معروفها ، ولا ينفذ مسوفها ^(١) ، وسعادة بالخلافة التى عدق إليها أمرها ^(٢) وأوضح سرها وملا سرائرها وسريرها ، وأطلع شمسها وقرها . بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تتوالى ميامنها وتتلالا محاسنها ^(٣) وتشرف درجاتها وتتضاعف سعادتها ، والكلمة قائمة على أصولها وأمر الخلق جارية على مأهولها ، ونظام الاسلام بسياستها لايهي ، ومسياقة الدوام فى سعادتها لا تنتهى ، والله الموزع شكر هذه المن ، المسئول فى الانهاض لمانهضت فيه النية وقصرت عنه المن ^(٤) . ولم نزل «أدام الله إقبال الملك المعظم» معظمين لأمره ، عارفين نبيل قدره وجليل نخره مشيدين بحميل ذكره وجزيل نصره ، معيدين لما تهادى الالسن من مستطاب نشره ، قارئين من صفحات الأيام ما أمدها به من بشره غير مستيمنين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره ، موددين مما هو يبلغه من بارع ضرائبه ^(٥) بالمقامات الشريفة من آثار سلفه ومآثرهم ، ومأثور مكارمهم ومفاخرهم ،

(١) لا ينثر مشمومها (٢) عدق جمع من باب ضرب (٣) مخفف تتلألا

(٤) المن الأولى بالكسر النعم والمن بالضم القوى (٥) مناقبه

واستناد المكرمات إلى أولهم وآخرهم ، ومشهور ذبهم عن الملة ودفاعهم
عن أهل القبلة ، وسدادهم في الأمور وسدادهم الثغور ^(١) وسيادتهم
الجمهور ، واستقلالهم بالمشقات المتقدمة ، وإتقانهم نيران الخطوب
المضطربة ، وكفهم سيول السيوف العرمة ، وموالاتهم أمور الدولة
العلوية التي اشتهر بها منهم الأكابر ، وورثها كابر عن كابر ، وحافظوا منها
على سيرة معروف لا ينسخ ، وعقد صفاء لا يفسخ . وسريرة صدق تستقر
في الضمائر وترسخ ، وتتوضح بها غرة في جباه السبق وتشدخ ^(٢) ،
وتستمدى عند إيراد هذا الذكر العطر والثناء المشتهر ، من الدعوات
الشريفة العاضدية المعصودة بالنجح ، المتوضحة عن مثل فلق الضبح ،
ما يتهلل لمساعيه باليامن المستهلة ، ولراميه بالاصابة المتصلة ، بينه وبين
هذه الدولة العالية ، والخلافة الحالية ، بكتاب منه نهجنا فيه طريقها
اللاحب ^(٣) واستدعيناه به إجابته التي تتلقى بالمراحب ، وأعلمناه أن
تمادى الأيام دون المراسلة وتطاولها ، وتنقل الأحوال والدول وتناقها ،
لا يزيد مودته إلا استحكام معاقده ، وانتظام عقائده ، ووفاء مواعده ، وصفاء
موارد ، وأنه لا تباعد بين القلوب بغرض المرمى المتباعد ، ولا تفرق
المسافات القواصي ما بين النيات القواصد ، فلما تأخرت الإجابة تقدمت
الاستجابة ، وتناجت الظنون المعتلجة ^(٤) وتراجعت الآراء المختلجة ^(٥) بأن
الرسول طاقته دون المقصد عوائق ، وتقسمته من الأحداث دون الطريق
طرائق ، فلم ترد المكاتبة إلى جنابه ، ولا أسعد السعي بطروق جنابه ، الذي تنال

(١) السداد بالفتح الاصابة وبالكسر الكفاية (٢) تنتشر سفلا (٣) الواضح

(٤) المضطربة (٥) المضطربة

السعادة ونجني به . وإلا فلو أنه أم له ، بلغ مأمله ، ولو وصله لأجاب عما أوصله ، لأن مكارم خلائقه تبعث على التبرع بالمسنون فكيف بقضاء المفروض ، وشرائف طرائقه تأبى للحقوق الواجبة أن تقف لديه وقف المطرح المرفوض ، فجددنا هذه المكاتبة مشتملة على ذلك المراد ، وفاوضناه بما يعيره الاصغاء ويجنبه الالغاء ، ويحسن له الانصات ولا يحتاج فيه إلى الوصاة ، ورسمنا أن يكتبه حتى عن لسانه ، وأن يطويه حتى عن جنانه ، وأن يتمسك بالأثر النبوي في استعانته على أمره بكتامه ، فمن حسن الحزم سوء الظن ، وهل لأرباب الأسرار فرج إلا مادامت في السجن ، وقد استلزمنا المرتين لما استعظمنا الرهن ، وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوهم ولا منه الوهن ، ونحن تحببنا بما يعلم به حسن موقع رسالة الاسترسال ، وبما يبين به عن دلالة الادلال ، وبما يرحب بمودته مجال الجمال ، والله سبحانه يؤيد الملك بنصر تستخدم له الاقدار ، وسعادة لا تتصرف في تصرفها أحكام الفلك المدار ، وإقبال يقابل آراءه وآدابه في فاتحة الورد وعاقبة الاصدار ، وعز لا يزال منه متوقلاً^(١) في درجات الاقتدار ، إن شاء الله تعالى .

٤٧ - وكتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن الأثير الموصلی

المتوفى سنة ٦٣٧ إلى عراقى حديث العهد بعداقته يستهديه رطباً فقال هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذى ترف كلمة زفيف الأوراق^(٢)

وتسجع سجع ذوات الاطواق . وتهتف وهى مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق ، وأبرح الشوق ما كان عن فراق غير بعيد ، وود

(١) صاعداً (٢) تسرع فى صوت

استجدت حلتها واللذة مقترنه بكل شيء جديد، وأرجو ألا يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباساً، وأن يعاذ من نظرة الجن والانس حتى لا يخشى جنة ولا ناساً، وقد قيل إن للموده طعاماً كما أن لها وسماً، وإن ذا اللب يصادق نفساً قبل أن يصادق جسماً. وإنى لأجد لموده سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ولا يمل استطعامها. وقد أذكرتني الآن بحلاوة الرطب الذى هو من أرضها، وغير عجيب لمناسبة الاشياء أن يذكر بعضها ببعضها، إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالاسرار، وفارق بين ما يغترس بالأرض وما يغترس بالقلب فى شرف الثمار، فلا ينظر سيدنا على فى هذا التمثيل، فلربما كان ذلك ترويضاً ينوب مناب التطفيل.

ب — فى القصص والمقامات ^(١)

سنكتفى فى هذا النوع من الانشاء بنموذج من كل عصر لا مام الكتابة فيه .

١ — قال ابن المقفع فى باب عرضه كتاب كيلة ودمنة وهو من انشائه :

ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر، ويأخذ بالحزم ويحجب للناس ما يحب لنفسه، ولا يلتبس صلاح نفسه بفساد غيره فانه من فعل ذلك، كان خليقاً أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه فانه يقال :

إنه كان رجلاً قاجراً وكان له شريك فاستأجرا حائوتاً وجعلتا متاعهما فيه، وكان أحدهما قريب المنزل من الحائوت، فأضمر فى

(١) إنمأنتقلنا إلى نماذج القصص والمقامات دون تمثيل للترقيعات، لأن إيجاز

نماذجها حسن إلينا تركها إلى حيث الكلام عليها :

نفسه أن يسرق عدلا من أعدال رفيقه، ومكر الحيلة في ذلك، وقال إن أتيت ليلا لم آمن أن أحمل عدلا من أعدالي أو وزمة من رزمي ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبي باطلا، فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذي أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله، وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فوجد رداء شريكه على بعض أعداله فقال والله هذا رداء صاحبي، ولا أحسبه إلا قد نسيه، وما الرأي أن أدعه هاهنا ولكن أجعله على رزمه فلعله يسبقني إلى الخانوت فيجده حيث يحب، ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدال رفيقه وأقفل الخانوت ومضى إلى منزله، فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ماعزم عليه، وضمن له جعلاً على حمله، فصار إلى الخانوت فالتس الأزار في الظلمة فوجده على العدل فاحتمل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلاً يتراوحيان على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً، فلما أصبح افتقده فاذا هو بعض أعداله فندم أشد الندامة، ثم انطلق نحو الخانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الخانوت ووجد العدل مفقوداً، فاعتم لذلك غماً شديداً وقال واسوأ تأه من رفيق صالح قد ائتمنى على ماله وخلفني فيه، ماذا يكون حالي عنده ولست أشك في تهمة إياي، ولكني قد وطنت نفسي على غرامته ثم أتى صاحبه فوجده صاحبه مغتماً فسأله عن حاله فقال: إني قد افتقدت الأعدال وفقدت عدلا من أعدالك ولا أعلم بسببه وإني لأشك في تهمة إياي وإني قد وطنت نفسي على غرامته. فقال له يا أخى لا تغتم فإن الحياة شر بعمله الإنسان والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خير وصاحبهما مغرور أبداً وما حد وبال البغي إلا على صاحبه، وأنا أأحد من مكر وخدع واحتمال،

فقال له صاحبه وكيف كان ذلك؟ فأخبره بخبره وقص عليه قصته. فقال له رفيقه: مامثلك إلا مثل اللص والتاجر، فقال له وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أن تاجرا كان له في منزله خايتان إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهباً، فترقبه بعض اللصوص زماناً حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل فتغفله اللص ودخل المنزل وكمن في بعض نواحيه، فلما هم بأخذ الخاوية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة وظنها التي فيها الذهب، ولم يزل في كد وتعب حتى أتى بها منزله، فلما فتحها وعلم ما فيها ندم. فقال له الخائن: ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس، وقد اعترفت بذنبي وخطئي عليك، وعزيز علي أن يكون هذا كذا، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء، فقبل الرجل معذرتة وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به. وندم هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله

٢ - وقال الجاحظ من قصة أهل البصرة عن المسجدين في كتابه البخلاء:

قال أصحابنا من المسجدين: اجتمع ناس في المسجد ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر وكانوا إذا التقوا في حلقتهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماساً للفائدة واستماتاً بذكره.

فقال شيخ منهم: ماء بئرنا كما قد علمتم ملح أجاج لا يقربه الحمار ولا تسيفه الأبل وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد وفي تكلف العذب علينا مثوثة، فكنا نمزج منه للحمار فاعتل منه وانتفض عايناً من أجله،

فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا وكنت أنا والنعجة^(١) كثيرا ماغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودنا من الملح مثل ما اعتري جوف الحمار، فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلا، ثم انفتح لي فيه باب من الاصلاح، فعمدت إلى المتوضأ فجعلت في ناحية منه حفرة وصهرجت^(٢) وماستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصوبت إليها السيل، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شيء والحمار لا تقزر له من ماء الجنابة، وليس علينا حرج في سقيه منه، وما علمنا أن كتابا حرمه ولا سنة نهت عنه، فربحنا هذه منذ أيام وأسقطنا مئونة عن النفس والمال وهذا بتوفيق الله ومنه .

فأقبل عليهم شيخ فقال: اشتكيت أياما صدرى من سعال كان أصابني، فأمرني قوم بالفانيذ السكرى^(٣)، وأشار على آخرون بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز^(٤) وأشباه ذلك؛ فاستنقلت المئونة وكرهت الكلفة، فبينما أنا أدافع الأيام إذ قال لي بعض الموفقين: عليك بماء النخالة فاحسه حارا، فحسوت فإذا هو طيب جدا وإذا هو يعصم فما جمعت ولا انتهيت الغداء في ذلك اليوم إلى الظهر ثم ما فرغت من غدائي وغسل يدي حتى قاربت العصر، فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي طويت العشاء وعرفت قصدي، فقلت للعجوز لم لا تطبخين لعيالنا في كل غداة نخالة فان ماءها جلاء للصدور، وقوتها غذاء وعصمة

(١) يعني زوجته (٢) كصرجتها طليتها بالصاروج وهو النورة وأخلطها

(٣) دحرب بانيد لضرب من الحلوى (٤) الحريرة دقيق يطبخ بلبن أو دسم

وبحلي، والشاهنج دقيق البر.

ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبييعينها بمثل الثمن الاول وتكون قد ربحتنا فضل ما بين الحالين . قالت أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق .

ثم اندفع شيخ منهم فقال . لم أرفى وضع الامور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها كعادة العنبرية : قالوا وما شأن معاذة هذه ؟ قال أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية ^(١) فرأيتها كثيبة حزينة مفكرة مطرقة فقلت لها مالك يا معاذة ؟ قالت أنا امرأة أرملة وليس لي قيم ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحى وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أما كنها وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر في جذع من جذوع السقف فيتعلق عليه الزبل والكيران وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك . وأما المصران فإنه لا توارى المندفة ^(٢) وبنات إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسيبيله أن يكسر بعد أن يعرق ^(٣) ثم يطبخ فما ارتفع من الدسم كان المصباح

(١) شاه للتضحية (٢) الزبل ككتب جمع زبل وهو القفة أو الجراب أو

الوعاء والكيران جمع كبير وهو زق ينفخ فيه الحداد (٣) المصران جمع مصير

وهو المعى والمندفة آلة تدف القطن (٤) يؤكل ما عليه من اللحم

والأدام والعصيدة ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير
الناس وقوداً قط أصفى ولا أحسن لها منه وإذا كانت كذلك فهي
أسرع في القدر لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الأهاب فالجلد نفسه
جراب وللصوف وجوه لا تدفع . وأما الفرت والبعر فخطب إذا جفف
عجيب . ثم قالت بقي الآن الانتفاع بالدم وقد علمت أن الله عز وجل
لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه وأن له مواضع يجوز فيها
ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع
به صار كية في قلبي وقذى في عيني وهما لا يزالان يعاودني « قال الشيخ »
ثم لم ألبث أن رأيتها قد تطلعت وتبسمت فقلت ينبغي أن يكون قد
انفتح لك باب الرأى في الدم قالت أجل ذكرت أن عندي قدورا
شامية جددا وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ لها ولا أزيد في قوتها من
التلطبخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن إذ وقع كل شيء موقعه ،
قال ثم لقيتها بعد ستة أشهر فقلت لها كيف كان قديد تلك الشاة ^(١)
قالت بأني أنت لم يجىء وقت القديد بعد ، لنا في الشحم والالية ^(٢) والعظم
المعرق وغير ذلك معاش ولكل شيء إبان . فقبض صاحب الحمار والماء
العذب قبضة من حصا ثم ضرب بها الأرض وقال ، لا تعلم أنك من
المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين

٣ — المقامة الأسدية للبديع .

حدثنا عيسى بن هشام قال كان يبلغني من مقامات الاسكندى
ومقالاته ما يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره

(١) لحمها المجفف (٢) ماركب العجز من شحم ولحم

ما يترج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا أسأل
الله بقاءه حتى أرزق لقاءه وأتعجب من قعودهمته بحالته مع حسن آله^(١)
وقد ضرب الدهر شثونه بأسداد دونه وهلم جرا إلى أن اتفقت لي
حاجة بحمص فشجذت إليها الحرص في صحبه أفراد كنجوم الليل
أحلاس لظهور الخيل^(٢) ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ونستأصل
شأفته ولم نزل نفرى أسنمة النجاد بتلك الجياد حتى صرن كالعصى ورجعن
كالقسي وتاح لنا واد في سفح جبل ذى آلاء وأثل^(٣) كالعداري يسرحن
الصفائر وينشرن الغدائر ومالت المهاجرة بنا إليهما ونزلنا نغور ونغور^(٤)
وربطنا الأفراس بالأمراس وملنا مع النعاس فما راعنا إلا صهيل الخيل
ونظرت إلى فرسى وقد أرهف أذنيه وطمح بعينه يجذ قوى الجبل
بمشافره ويخذ خد الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت
الأبوال وقطعت الجبال وأخذت نحو الجبال وطار كل واحد منا إلى
سلاحه فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه منتفخا في إهابه
كاشرا عن أنيابه بطرف قد ملء صلفا وأنف قد حشى أنفا وصدر
لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب وقلنا خطب ملم وحادث مهم وتبادر
إليه من سرعان الرفقة فتى
أخضر الجلد في بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب
بقلب ساقه قدر وسيف كله أثر^(٥) وملكته سورة الأسد نخاته

(١) استعداده فيما يزاول (٢) جمع حلس بالكسر وهو الملازم (٣) شجران
قالآلاء الصنفاف والآئل الطرفاء (٤) نغور بالتضعيف نهبط ونغور ننام في
النغور (٥) قدر الرجل مكانته وأثر السيف على وزنه فرنده وجوهره

أرض قدمه حتى سقط ليدته وفه وتجاوز الأُسْد مصرعه إلى من كان معه ودحا الحين أخاه بمثل مادعاه فصار إليه وعقل الرعب يديه فأخذ أرضه واقترش الليث صدره والكنى رميته بعامتى وشغلت فه حتى حقنت دمه وقام الفتى فوجاً بطنه^(١) وقد هلك الفتى من خوفه والأُسْد للوجاة في جوفه ونهضنا في أثر الخيل فتألفنا منها مائت وتتركنا منها ماأفقت وعدنا إلى الرفيق لنجهزه

فلما حثونا الترب^(٢) فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع وعمدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاد ولم نملك الذهب ولا الرجوع وخفنا القاتلين الظماً والجوع ، عن لنا فارس فصعدنا صمده وقصدنا قصده ولما بلغنا نزل عن حرسه ينقش الأرض بشفتيه وياقى التراب يديه وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى وتحرم بجنايى ونظرت فاذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل وقوام متى ترق العين فيه تسهل وطارض قد اخضر وشارب قد طر وساعد ملائى وقضيب ريان ونجار^(٣) تركى وزى ملكى ، فقلنا مالك لا أبالك فقال أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم فهمت على وجهى حيث ترانى ، وشهدت شواهد حاله على صدق مقاله ثم قال أنا اليوم عبدك ومالى مالك فقامت بشرى لك وبك أذاك سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب، وهنأتنى الجماعة وجعل ينظر فتقتلنا الحاظه وينطق فتفتننا ألفاظه ، فقال يأسادة إن فى سفح الجبل عينا وقد ركبت فلاة عوراء فخذوا من هنالك الماء فلوينا الأعنة إلى حيث أشار وبلغناه

(١) وجأ شق (٢) أهله (٣) أصل

وقد صهرت الهاجرة الأبدان وركبت الجنادب العيدان^(١) فقال ألا
تقيلون في هذا الظل الرحب على هذا الماء العذب فقلنا أنت وذاك فنزل
عن فرسه وجلى منطقته^(٢) ونحى قرطقته^(٣) فما استتر عنا إلا بغلالة
ثم على بدنه فما شككنا أنه خاصم الولدان ففارق الجنان وهرب من
رضوان ، وعمد إلى السروج فخطها وإلى الأفراس فحشها^(٤) وإلى الأمكنة
فرشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأبصار عليه ، فقلت يا فتى
ما أطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة فالويل لمن فارقت وطوبى لمن
رافقت فكيف شكر الله على النعمة بك ، فقال ماسترونه مني أكثر
أعجبكم خفتي في الخدمة وحسني في الجملة فكيف لو رأيتموني في الرفقة
أريكم من حذق طرفا لتزدادوا بي شغفا فقلنا هات فعمد إلى قوس أحدنا
فأوتره وفوق سهمها^(٥) فرماه في السماء وأتبعه بآخر فشقه في الهواء ،
وقال سأريكم نوعا آخر ثم عمد إلى كيناتي فأخذها وإلى فرسى فعلاه
وزمى أحدنا بسهم أثبتته في صدره وآخر طيره من ظهره فقلت ويحك
ما تصنع قال امسكت يالكع والله ليشدن كل منكم يد رفيقه أو لأغصنه
بريقه فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة وسروجنا محطوطة وأسلحتنا
بعيدة وهو راكب ونحن رجاله والقوس في يده يرشق بها الظهور^(٦)
ويمشق بها البطون والصدور^(٧) وحين رأينا الجد أخذنا القد^(٨) فشد
بعضنا بعضا وبقيت وحدي لأجد من يشد يدي فقال اخرج بأهابك

(١) الجنادب جمع جندب وهو نوع من الجراد يفرح للحر ولكن الرمضاء

قد تشتد عليه فيصعد منها العيدان (٢) حزامه (٣) قباهه (٤) ربطها

(٥) وضعه في الفوق ليرميه (٦) يثبتها فيها (٧) يمزقها (٨) الجلد والمير

عن ثيابك فخرجت ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر وينزع ثيابه وصار إلى وعلى خنثان جديدان فقال اخلعهما لأأم لك فقلت هذا خف لبسته رطباً فليس يمكتنى نزعته فقال على خلعته ثم دنا إلى لينزع الخف ومددت يدي إلى سكين كان معي وهو في شغله فأثبتته في بطنه وأثبتته من متنه فما زاد على فم فغره وألقمه حجرة وقت إلى أصحابي فخلت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه وصار لرمسه وصرنا إلى الطريق ووردنا حص بعد ليال خمس فلما انتهينا إلى فرصة من سوقها^(١) رأينا رجلاً قد قام على رأس ابن وبنية بجراب وعصية وهو يقول :

رحم الله من حشا في جرابي مكارمه
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمه
إنه خادم لسكم وهى لاشك خادمه

قال عيسى بن هشام فقلت إن هذا الرجل هو الاسكندري الذي سمعت به وسألت عنه فإذا هو وقد لفت اليه^(٢) وقلت احتكم حككم فقال درهم فقلت

لك درهم في مثله مادام يسعدني النفس^(٣)
فاحسب حسابك والتس كما أنيل الملتس

وقلت له، درهم في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيت إلى العشرين، ثم قلت لغلami كم معك قال عشرون رغيفاً فأمرت له بها وقلت، لا نصر مع الخذلان ولا حيلة مع الحرمان .

(١) طريق منه (٢) أمرعت (٣) أي حتى ينتهي النفس الواحد

٤ - المقامة السنجارية للحريري^(١)

حدث الحارث بن همام قال . قفلت ذات مرة من الشام أنحو مدينة السلام ، في ركب من بني نمير ورفقة أولى خير ومير ، ومعنا أبو زيد السروجي^(٢) عقلة العجلان^(٣) وسلاوة الشكلان وأهجو به الزمان والمشار اليه بالبنان في البيان ، فصادف نزولنا سنجار أن أولم بها أحد التجار فدعا إلى مأدبته الجفلى^(٤) من أهل الحضارة والفلا ، حتى سرت دعوته إلى القافلة وجمع فيها بين الفريضة والنافلة فلما أجبنا مناديه وحملنا نأديه أحضر من أطعمة اليد واليدين^(٥) ماحلا بالفم وحلى بالعين ثم قدم جاما^(٦) كأنما جمد من الهواء أو جمع من الهباء أو صيغ من نور الفضاء أو قشر من الدرة البيضاء ، وقد أودع لفائف^(٧) النعيم وضمخ بالطيب العميم وسيق اليه شرب من تسنيم^(٨) وسفر عن مرأى وميم وأرج نسيم . فلما اضطرممت بمحضرة الشهوات وقرمت^(٩) إلى مخبره اللهوات وشارف أن تشن على سر به الغارات وينادى عند نهبه بالثارات ، نشر أبو زيد كالحجنون وتباعد عنه تباعد الضب من النون^(١٠) ، فراودناه على أن يعود وألا يكون كقदार^(١١) في ثمود ، فقال والذي ينشر الاموات من الرجام لا عدت دون رفع الجمام فلم نجد بدا من تألفه وإبرار حلفه ،

(١) سنجار بلدة مشهورة بعراق المعجم (٢) سروج بلدة قرب حران

(٣) محبس المتعجل (٤) الدعوة العامة (٥) أي مما يقطع بيد ومما لا يقطع الا بيدين

(٦) ظرفا من زجاج (٧) جمع لفيفة مالف من الحلوى (٨) عين بالجنة (٩) نهمت

(١٠) النون الحوت والضب أشد الحيوان تبديا (١١) طارناقة صالح

فأشلهناه^(١) والعقول معه شائلة والدموع عليه سائلة ، فلما فاء إلى مجتمه
وخاص من مائمه سألناه لم قام ولأى معنى استرفع الجاه؟ فقال إن الزجاج
تمام وإني آليت مذ أعوام ألا يضمني ونمو ما مقام فقلنا له وما يمينك
الصرى^(٢) وأليتك الحرى؟ فقال :

إنه كان لي جار لسانه يتقرب وقلبه عقرب ، ولفظه شهد ينقع
وخبؤه سم منقع ، فلت لمجاورته إلى محاورته واغتررت بمكاشرته^(٣) في
معاشرته واستهوتني خضرة دمنته لمنادته وأغراني سمته بمناسمته^(٤) ،
فمازجته وعندي أنه جار مكسر^(٥) فبان أنه عقاب كاسرو أنسته على أنه
حب موانس فظهر أنه حباب^(٦) موالس ، ومالحته ولا أعلم أنه عند نقده
ممن يفرح بفقده ، وطاقرته ولم أدر أنه بعد فره ممن يطرب لفره ، وكانت
عندي جارية لا يوجد لها في الجمال مجارية ، إن سفرت خجل النيران
وصليت القلوب بالنيران وإن بسمت أذرت بالجمان^(٧) وبيع المرجان بالجمان ،
وإن رنت هيجب البلابل^(٨) وحققت سحر بابل وإن نطق عقلت لب
العاقل واستنزلت العصم من المعامل وإن قرأت شفت المفتود^(٩) وأحيت
الموءود وخلتها أوتيت من مزامير آل داود ، وإن غنت ظل معبد لها عبدا
وقبل سحقا لا سحق وبعدا وإن زمرت أضحي زنام^(١٠) عندها زنيما بعد
أن كان لجياها زعيما وبالاطراب زعيما ، وإن رقصت أمالت العمام عن الرؤوس
وأنستك رقص الحبيب في الكشوس وفكنت أزدري بمعها حمر النعيم وأحلى

(١) رفعناه (٢) المصر عليها بعزم (٣) بسبب تبسمه (٤) بمحادثته

(٥) ملازم لكسر البيت (٦) ثعبان (٧) اللؤلؤ (٨) الوسوس والمهموم

(٩) المصاب في فؤاده (١٠) زامر المتوكل

بتعليها جيد النعم، وأحجب مرآها عن الشمس والقمر وأذود ذكرها عن
شرائع^(١) السم، وأنا مع ذلك أليح^(٢) من أن تسرى بريها ريح
أو يكهن بها سطيح أو ينم عنها برق مايح، فاتفق لوشك الحظ المبخوس
ونكد الطالع المنحوس، أن أنطقني بوصفها حميا المدام عند الجار النمام،
ثم تاب الفهم بعد أن صرد السهم^(٣) فأحسست الخبال والوبال وضيعة
ما أودع ذلك الغربال، بيد أنى عاهدته على عكم ما لفظته وأن يحفظ السر
ولو أحفظته، فزعم أنه يخزن الأسرار كما يخزن اللثيم الدينار وأنه لا يهتك
الاستار ولو عرض لأن يلج النار، فما إن غبر على ذلك الزمان إلا يوم
أو يومان حتى بدا لا مبر تلك المدرة، وواليها ذى المقدرة أن يقصد باب
قبلة مجددا عرض خيله ومستمطرا عارض نيله، وارتاد أن تصحبه تحفة
تلائم هواه ليقدّمها بين يدي نجواه، وجعل يبذل الجعائل لرواده ويسنى
المراغب لمن يظفره بمزاده، فأسف ذلك الجار الختار إلى بذوله وعصى في
أدراع العار عذل عذوله، فأتى الوالى ناشر أذنيه وأبته ما كنت أسرته
إليه، فأراغني إلا انسياب صاغيته^(٤) إلى واثيال حفدته^(٥) على تسومنى
إيثاره بالدرة اليتيمة على أن أتحمك عليه فى القيمة، فغشيتنى من الهم
ماغشى فرعون وجنوده من اليم، ولم أزل أدافع عنها ولا يغنى الدفاع
وأستشفع إليه ولا يجدى الاستشفاع، وكلما رأى منى ازديادا لاعتياص^(٦)
وارتياد المناص تجرم وتخترم وحرق على الأرم^(٧)، ونقسي مع ذلك

(١) موارد (٢) أشفق (٣) خرج من القوس (٤) حاشيته (٥) الحفدة

هنا الخدم والأتباع (٦) الامتناع (٧) الاضرار

لا تسمح بمفارقة بدرى، ولا بأن تنزع قلبي من صدرى، حتى آل الوعيد
إيقاعا والتفريع قراطا، فقادني الاشفاق من الحين إلى أن قضته سواد
العين بصفرة العين^(١) ولم يحظ الواشى بغير الاثم والشين، فعاهدت
الله تعالى منذ ذلك العهد، ألا أحاضر نماما من بعد، والزجاج مخصوص
بهذه الطباع الذميمة، وبه يضرب المثل في النسيمة، فقد جرى عليه سيل
يميني ولذلك السبب لم تمتد اليه يميني

فلا تعذلونى بعد ما قد شرحته على أن حرمتنى اقتطاف القطائف^(٢)
فقد بان عذرى في صنيعى وإمانى سأرتق فتقى من تايدي وطارفى
على أن ما زودتكم من فكاكة ألد من الحلوى لدى كل طارف
قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره، وقبلنا عذاره، وقلنا له قدما وقذت
النسيمة^(٣) خير البشر حتى انتشر عن حمالة الخطب ما انتشر، ثم سأله
عما أحدث جاره القتات ودخله المفتات^(٤) بعد أن راش له نبيل السعاية
وجذم حبل الرماية، فقال أخذ فى الاستخذاء والاستكانة والاستشفاع إلى
بذوى المكانة، وكنت حرجت على نفسى ألا يسترجعه أنسى أو يرجع
إلى أمسى، فلم يكن له منى سوى الرد والاصرار على الصد وهو لا يكتب
من النجى^(٥) ولا يتنب^(٦) من وقاحة الوجه، بل يلط^(٧) بالوسائل ويلج
فى المسائل، فما أنقذنى من إبرامه ولا أبعد عليه نيل مرامه إلا آيات
نفت بها الصدر الموتور، والخاطر المبتور، فانها كانت مدحرة لشيطانه

(١) قضته بادلته والعين الأولى الباصرة والثانية الذهب (٢) تناول الفطائر

(٣) آلمت وأذت (٤) مخالطة الكذاب (٥) الردع والزجر (٦) لا يستعجى

(٧) يلتصق

ومسجنة له في أوطانه، وعند انتشارها بت طلاق الحبور ودعا بالويل
والشبور ويثس من نشر وصلى المقبور كما يثس الكفار من أصحاب
القبور، فناشدناه أن ينشدنا إياها وينشقناريها؛ فقال أجل خلق الانسان
من عجل ثم أنشد لا يزويه ^(١) خجل ولا يثنيه وجل

ونديم محضته صدق ودي	إذ توهمته صديقا حميا
ثم أوليته قطيعة قال	حين ألفيته صديدا حميا
خلتة قبل أن يجرب إلها	ذا ذمام فبات جلفا ذميا
وتخيرته كليا ^(٢) فأمسى	منه قلبي بما جناه كليا ^(٣)
وتظنيته معيننا رحيا	فتبيننته لعينا رجيا
وتراءيته مريدا ^(٤) فجلى	عنه سبكي له مريدا ^(٥) لثيا
وتوسمت أن يهب نسيا	فأبى أن يهب إلا سموما
بت من لسهه الذي أعجز الرا	قي سليما ^(٦) وبات مني سليما ^(٧)
وبدا نهجه غداة اقترقنا	مستقيما والجسم مني سقيما
لم يكن رائعا ^(٨) خصيبا ولكن	كان بالشر رائعا ^(٩) لي خصيما
قلت لما بلوته ليته كا	ن عديما ولم يكن لي نديما
بغض الصبح حين نم إلى قاسي	لأن الصبح يلقي نموما
ودعاني إلى هوى الليل إذ كا	ن سواد الدجى رقيبا كتوما
وكفى من يشي ولو فاه بالصد	ق أثاما فيما أتاه ولو ما ^(١٠)

(١) لا يصرفه (٢) متكلما (٣) مكلوما (٤) بضم الميم محبا (٥) بفتح

الميم متمردا (٦) ملدوفا (٧) صحيحا (٨) جميلا معجبا (٩) مخيفا

(١٠) مخفف لؤم

قال فلما سمع رب البيت قريضه وسجعه واستملح تقريظه وسبعه^(١)
 بوأه مهاد كرامته وصدره على تكرمته^(٢) ثم استحضر عشر صحاف من
 الغرب^(٣) فيها حلواء القند والضرب^(٤) وقال له لا يستوى أصحاب النار
 وأصحاب الجنة ولا يسمع أن يجعل البريء كذى الظنة ، وهذه الآنية
 تنزل منزلة الأبرار في صون الأسرار ، فلانولها إلا بعاد ولا تلحق هودا
 بعاد ، ثم أمر خادمه بنقلها إلى مثواه ليحكم فيها بما يهواه فأقبل علينا
 أبو زيد وقال اقرءوا سورة الفتح وأبشروا باندمال القرع ، فقد جبر الله
 ثلكم وسنى ألكم وجمع في ظل الخلاء شلكم وعسى أن تكرهوا
 شيئا وهو خير لكم ، ولما هم بالانصراف مال إلى استهداء الصحاف فقال
 للآدب إن من دلائل الظرف ، سماحة المهدي بالظرف : فقال كلاهما لك
 والغلام فاحذف الكلام وانفض بسلام ، فوثب في الجواب وشكر شكر
 الروض للصحاف ، ثم اقتادنا أبو زيد إلى حوائه وحكمنا في حلوائه ، وجعل
 يقلب الاواني بيده وينض عددها على عدده^(٥) ثم قال لست أدري
 أشكو ذلك النمام أم أشكر ، وأتناسى فعلته التي فعلها أم أذكر ، فانه وإن كان
 أسلف الجريمة ونعم النيمة فمن غيمه انهلست هذه الديمة وبسيفه انحازت
 لي هذه الغنيمة ، وقد خطر ببالي أن ارجع الى أشبالي وأقنع بما تنسى لي وألا
 اتعب نفسي ولا أجمالي ، وأنا أودعكم وداع محافظ وأستودعكم خير حافظ
 ثم استوى على راحلته راجعا في حافرتة^(٦) ولاويا إلى زافرتة^(٧) فغادرنا
 بعد أن وخذت عنسه وزايلنا أنسه ، كدست غاب صدره أوليل أفل بدره .

(١) مدحه وذمه (٢) وسادته (٣) الفضة (٤) السكر والشهد

(٥) يفرقها على صحبه (٦) طريقه التي جاء منها (٧) ناكها إلى عشيرته

ثانيا - حياتها ١ - الرسائل

أساليبها ومميزاتها وطبقات رجالها

١ - في العصر الاول - ما كاد العصر الاثموى يشارف منتهاه حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبيعى لا أثر للصناعة فيه الى ترسل صناعى أرسى أساسه سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأعلى بناءه عبد الحميد صاحب ديوان مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقد عرفت حيث وقع الكلام منا على الانشاء اذ ذاك أن عبد الحميد أظهر تلك الصناعة أكثر ما أظهر، في رسوم رسمها للمبادئ والخواصيم، وفي جولات بعيدة الاطراف بين طرفي القلة والاكثر، ثم تنويع الرسائل الاخوانية الى أنواع، وفي طرق أبواب لم تكن معروفة قبله للناس . غير أن صناعته هذه وقد جاءت آخر العصر لم تقض القضاء كله على الترسيل الطبيعى لدى جمهرة الناس فكان للكتابة حينئذذاك طابعان ورثهما العباسيون فيما ورثوا عن الأمويين، وإذ كان صدر العصر العباسى الاول إن هو إلا دفعة لطريقة عبد الحميد فان لنا أن نتوقع فيه تراجع الترسيل الطبيعى الى الوراء واطراد الانشاء الصناعى الى الأمام حتى يعظم هذا ويفنى ذاك وهذا ما كان ، فلم نكد نلمح الاسلوب الفطرى فى كلام الخليفتين الأولين وأضربهما كما رأيت فى الرسائل التى سبقناها بين المنصور ومحمد بن عبد الله بجوار ما كان يصدر عن جماعة الكتاب حتى توارى بعدها واحتضنه التاريخ ولذا نصدف عنه ونعتبر الكتابة منذ جاء العصر العباسى

صناعة حمل لواءها بعد عبد الحميد صديقه المخالط عبد الله بن المقفع واتباعه فيما رسم الجميع ، وحق لذلك أن نخصه بكلمة لاغنى عنها في الموضوع .
نشأ ابن المقفع بالبصرة حيث كان والده يتولى خراج فارس لخالد ابن عبد الله القسري والى العراق ، وهى حينئذ حلبة العربية ومجتمع الرواة وقرارة المربد يحفظ الاسلام والحاضرة التى يفد اليها فصحاء الأعراب ، والدولة إذ ذاك عربية محضة لا تستكتب فارسيا فى الدواوين العربية إلا إذا أجاد العربية كأهلها ، فدفع به أبوه وهو خير من يعرف ذلك إلى تعلم العربية فى هذه البيئة الغنية بها الصالحة لتنشئ الأحداث عليها ، فحذق فنونها وتخرج فى آدابها . وكان من حسن حظه وحفظ العربية معا أن كان ولاؤه وولاء أبيه فى بيت خطابة ومعدن فصاحة هو بيت الأئمة المنقرى فكان فى نشأته قرين خالد بن صفوان وابن عمه شبيب ابن شينة وناهيك بهما فصاحة منطق وذراية لسان . ولما تمت آتاه فى العربية تمامها فى الفارسية لغة آبائه وأجداده تطلع إلى التخرج فى صناعة الكتابة وكان عبد الحميد المذكور كاتب المروان بن محمد والى الجزيرة إذ ذاك ، فتقرب عبد الله اليه تقرب الصديق الملازم وأخذ يتأثر كتابته ذات الديباجة العربية والعقلية اليونانية ويحتذى فيه ذا النواحي المبتدعة والطرائق المستحدثة ، ضاماً إلى ذلك ما أفاضته عليه لغته الفارسية حتى صار كاتباً يجمع إلى بلاغة العرب حكمة اليونان وصناعة فارس فاستكتبه فى عصر بنى أمية داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أيام ولاية أبيه العراق .
ولما دالت دولتهم استكتبه فى زمن بنى العباس عيسى بن على والى كرمان وعلى يدبه أسلم وتسمى عبد الله وكان اسمه روزبة ، ومن بعد عيسى كتب

لأخيه سليمان أيام ولايته على البصرة وكان أبو جعفر المنصور لا يزال بالأخبار فاتصل به وترجم له كتاب كيلة ودمنة ونقل إلى العربية كثيرا من آداب الفرس وسياستها كما نقل إليها بعض كتب اليونان التي كان كسرى أنوشروان قد أمر بترجمتها إلى الفارسية فكانت صلة ثانية له بالعقلية اليونانية بعد تلك التي كانت له من عبد الحميد الذي عرف الكثير منها عن أستاذه سالم كاتب الخليفة هشام .

بهذا البيان المعتمد على قلب ناضج التفكير ولسان حسن التعبير زاول ابن المقفع الكتابة بأسلوب التبريل الذي كان لعبد الحميد ، وقصاراه التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة الجزلة دون نظر إلى مزاجية أو سجع إلا ما جاء عفوا غير متعمل ولا مقصود والذي يبدو لنا من إبقاء ابن المقفع على هذا الأسلوب مع أنه فارسي الجنس واللغة ، ولغة فارس ذات عنايه بزخرفة الألفاظ وحبك الأساليب ، أنه فعل ذلك صارا عن أمرين . أحدهما دينه أن البلاغة كل البلاغة في شرف المعاني وسهولة الألفاظ مع رصانة القول ورشاقة الأسلوب ولذا كان يقول « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » ويقول « إياك والتبع لو حشى الكلام طمعا في نيل البلاغة فان ذلك هو العبي الأكر » ثم يقول وقد قيل له ما البلاغة ؟ « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » يقصد أنها السهل الممتنع . وثانيهما توجيه همه في تغذية العربية بالفارسية إلى ناحية المعاني لا الألفاظ وللفرس في المعاني مجال ، فهم ذوو فلسفة أصيلة عرفت لهم كما عرفت للهنود وقد غدوها منذ القديم بالفلسفة الهندية التي ترجموها إلى لغتهم كما فعلوا في

كتاب كيلة ودمنة ؛ وقبل أن ينقرض ملكهم نقلوا كثيرا من فلسفة اليونان . ولهذا كثر فيهم الحكماء الذين ينطقون بالحكم عن علم وثقيف لآعن غريزة وفطرة كما كانت تنطق العرب ؛ ولم تكن للعرب غنية عن ترجمة كثير من هذه الحكم في هذا الطور العباسي الذي حصلوا فيه على قسط وافر من التعليم . ولعل أول من نقل هذا الحكم وتلك الفلسفة إلى العربية عن أمثال يزدجرد وقباد وبهرام وسابور وأنوشروان وأزدشير وغيرهم في السياسة والاجتماع وسائر أحوال الناس ، رجلنا الذي نتكلم عنه ، وما كان له وهو الفيلسوف أن يصدف عن هذا الجانب المعنوي إلى الجانب اللفظي بحال

هذا وكما يمثل ما نقلناه من نماذج ، أسلوب الترسل السهل الممتنع كما قلنا ، يمثل كذلك ما أشرنا إليه في ناحية المعاني أتم تمثيل ، فكل ما كتب ابن المقفع كان ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا الذي رسم ، سار من ورائه كتاب عصره كيحيى بن زياد وعمار بن حمزة والقاسم بن صبيح وغيرهم ممن أدر كوا الدولتين وكتبوا للمنصور وهم رجال الطبقة الأولى . وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبي عبيد الله معاوية بن يسار وأبي عبد الله يعقوب بن داود ويوسف بن القاسم ويحيى ابن خالد وغيرهم ممن كتبوا للمهدي والهادي والرشيد ، ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابني يحيى والفضل والحسن ابني سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وغيرهم ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون وأمثال محمد بن عبد الملك الزيات وأبراهيم بن العباس الصولي ونحوهما ممن تربوا في عصر المأمون وأدر كوا العصر الثاني فاعتبروا رجال

طبقة الاولى كما سيأتى بعد . فهذه الطبقات الثلاث حذت حذوا بن المقفع
فى الالفاظ السهلة الممتعة البعيدة عن المزاجية والسجع إلا ما جاء عفواً ،
وفى المعانى الشريفة النبيلة المشعرة بسعة العقل وقوة المنطق ؛ ولذلك
نقول إن استفادة العربية من الفارسية فى العصر العباسى الأول فى
ناحية المعانى كانت أظهر وأوضح منها فى ناحية الالفاظ ولسنا نقول ذلك
عن غير دليل نتقدم به ، فقد كتب أبو الفضل أحمد بن أبى داهر طيفور
فى كتاب بغداد يقول « حدثني أبو الحسن أحمد بن محمد المهابى قال
حدثني يحيى بن الحسن بن على بن معاذ بن مسلم قال . إني بالرقعة بين يدي
محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بسلام لى فكلمته بالفارسية
فتدخل العتابة^(١) وكان حاضرا فى كلامنا فتكلم معى بالفارسية فقلت
له أبا عمرو مالك وهذه الرطانة فقال لى قدمت بلكم هذه ثلاث قدمات
وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمرو وكانت الكتب سقطت
إلى ما هنالك مع يزدجرد فهى قائمة إلى الساعة فكتبت منها حاجتى ثم
قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ فذكرت كتابا لم أقض
حاجتى منه فرجعت إلى مرو فأقمت أشهرا . قال فقلت - أبا عمرو ولم
كتبت كتب العجم فقال لى « وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، البلاغة

« ١ » هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابة ينتهى نسبه إلى عمرو بن كلثوم
التغلبى ، وهو شاعر رقيق مطبوع وكاتب مترسل بليغ قال الجاحظ « كان العتابة
ممن اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة » وقال يحيى
البرمكى لولده وكان العتابة منقطعا اليهم « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم
ابن عمرو العتابة فضلا عن رسائله وشعره فافعلوا فلن تروا أبدا مثله » .

في اللغة لنا والمعاني لهم» قال ثم كان يذكرني ويحدثني بالفارسية كثيرا». ولهذا الذي كان من الكتاب في هذا العصر من العناية بالمعاني لبست الكتابة فيه ثوب الایجاز أكثر مما جررت ذيول الاطناب وكان الكتاب يجدون لذلك حسن وقع في نفوس الخلفاء ؛ حدث أحمد بن يوسف وزير المأمون قل دخلت على المأمون وهو يمسك كتابا بيده وقد أطال النظر فيه زمانا وأنا ملتفت اليه فقال يا أحمد أراك منكرا مني متفكرا فيما تراه فقلت نعم وقى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاده من المخاوف ؛ قال فانه لا مكروه فيه ولكني قرأت كلاما وجدته نظير ما سمعته من الرشيد يقوله في البلاغة فانه كان يقول «البلاغة التباعد عن الاطالة وانتقرب من معني البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة في هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب - ورمى به إلى وقال - هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إلى ، قال فقرأته فاذا فيه « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم واختلت لذلك أحوالهم والتأثت معه أمورهم » فلما قرأته قال إن استحسناني إياه بعثني أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته. هذا وإنك لتجد الایجاز باديا فيما تقدم لابن المقفع من إخوانيات بل فيما تقدم له من رسائل أخذت اسم الكتب وإن طالت لأن العبرة في الایجاز ليست في طول ما يكتب لنفس الطول ، وإنما هي في طول ما يكتب بالنظر إلى ما عبر عنه من معان ،

ولذلك قد يوجد الطول مع الإيجاز كما هي حال تلك الرسائل؛ وقد يوجد
الاطناب مع قلة كم الكتاب إذا كان معناه أقل من لفظه . ثم إنك لتجده
كذلك في كتاب العصر الأول طرا ، وهذان اللذان جاء ذكرهما في الكتاب
السابق كانا من أعلام المोजزين . كتب أحمد إلى إبراهيم بن المهدي وقد
استقل هدية أطفه بها « بلغني استقلالك لما ألفتك ، والذي نحن عليه
من الأتس سهل علينا قلة الحشد لك في البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم
إلى من لا يغتنم » وكتب في التهنئة بأفراق من مرض « قد أذهب الله وصب
العلة ونصبها ووفر أجرها ووثابها وجعل فيها من إرغام العدو بعقبها أضعاف
ما كان عنده من السرور بفتح أولها » . وكتب عمرو موصيا بشخص
« كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معني بمن كتب له ولن يضيع
حامله بين الثقة والعناية » وكتب إلى المأمون يستشفع في رجل بالزيادة له
في منزلته ويعترض لنفسه « أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين
لتطوأك على ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون ، فأعلمته أن
أمير المؤمنين لم يجعاني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى
طاعته والسلام » فوقع إليه المأمون « قد عرفنا تصريحك بصاحبك
وتعريضك لنفسك وأجبتناك إليهما ووقفناك عليهما » وقال الرشيد يوما
ليحيى بن خالد قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر
وقد استحيمت من مكاتبتة في هذا المعنى فاكتب أنت إليه فكتب
يحيى إلى الفضل « أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم
من يمينك إلى شمالك » فأجابه الفضل « قد سمعت ما أمر به أمير
المؤمنين في أخي وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة

طلعت عليه . ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى بن ماهان كتب الى الفضل بن سهل كاتب المأمون « أطال الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من شنؤك فداءك ، كتبت اليك ورأس على بن عيسى في حجرى وخاتمه فى يدى والحمد لله رب العالمين » .

ب - فى العصر الثانى - منذ عهد الرشيد ، قد استبحر العمران وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فنعموا بنعيم الحياة وذاقوا حلاوة الوجود وصار فى متناول الجميع التمتع بما كان للفرس من متعات ، وأصبح كل إنسان لا يرضى مما هو فيه بغير الكثير فكان من الطبيعى وقد فاضت الفارسية على العربية اذذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب ، أن يشب الكتاب الناشئون فى آخر هذا العصر نشأة طفولة ، على غير ما عليه كتابه من ترسل وإيجاز فهم لا بد مطنبون فيما يكتبون بجعل أثواب المعانى فضفاضه ذات ذيول ولن يكون هذا بغير الاكثار من المفردات والجل ، على سبيل الترادف والازدواج . وقد شاءت الاقدار أن تحبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها نشأة الكتاب فلا يكاد هذا العصر الأول ينقضى حتى يستوى فى العصر الثانى حامل لواء هذه الطريقة الجديدة أمام الكتاب ذلكم هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الذى يقتضينا مقامه كلمة عنه فى هذا المقام .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة وهى على ما علمت عنها فيما ذكرنا عن ابن المقفع ، عش الادب . فأدرك طبقة الاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وأخذ عنهم ما اخصوا به من أدب وفكاهة وغريب ، ولازم أبا اسحاق

ابراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المعروف فتخرج عليه فى علم الكلام، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فقرأ جميع ما ترجم أيام المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون فخرج بذلك كله أديبا فكها عالما فيلسوفا، وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لا يدع كتابا حتى يستوعبه قراءة وفهما، وكثيرا ما كان يكترى دكا كين الوراقين فيقيم فيها ينظر ويتثبت، وإن فيما أودعه وصف الكتاب آنفا لا نصم دليل على ما للكتب فى نفسه من منزلة وعلى تنوع ما جناه منها من فائدة، وكان محبوبا من كل من فى البصرة من الولاة والأعيان عربا وفرسا، لا يزال محبوبا بما يصنف من كتب ورسائل فى شتى العلوم والفنون ولا يزالون بحبونه بجزيل العطايا ومضى الدلائل وبعد قليل ذاع صيته ببغداد وسر من رأى، فكان ينتجع اليهما الخلفاء والوزراء والعظماء حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات فى كتابة الديوان، ولما قتل ابن الزيات طاد إلى البصرة فأقام بها كما كان طالما مصنفًا وأديبا كاتبًا إلى أن فليج وبقى بالفالج طويلا ومع هذا لم ينفطع عما نصب نفسه له وطالما حمل مفلوجا إلى بغداد يستمتع به، وفى إحدى هذه الحملات مات بها سنة خمس وخمسين ومائتين .

بهذه الكفاية الممتعة فى العلم والفلسفة والأدب والكتابة، زاول الجاحظ تدبيج الكتب والرسائل فكان أمجوبة الزمان وينبوع الافتنان، إن ذكر أدب العلماء فهو آدبهم وإن ذكر علم الأدياء فهو أعلمهم، وقد استخلص مما قرأ علوما جمة شارك بها أهل كل علم، وآدابا ممتعة ضرب فيها بكل منهم، فكان واسع الاطلاع لطيف البحث طيب الفكاهة مخترعا لدقيق المعانى صواغا لبليغ العبارات، إذا ألف ألف بين الاشتات وإذا

كتب استنزل العصم من العبارات صادرا عن نفس جامعة بين المتناقضات.
فكان راوية متكلمة وفيلسوف مسامرا وأديباً مؤرخاً وشاعراً طامئاً دارساً
أحوال الحيوان والنبات والجمادات والجمادات، وهو في
كل ذلك الكاتب المكثّر الذي لا يدرك له شأو ولا يشق له غبار حتى
لكأنه المعني بقول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لذلك عد أحد الأفاضل وإحدى حجج اللسان. قال يصف كتبه ابن العميد
« كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والادب ثانياً » وقال يصفها السعدي أيضاً
على تشيعه وعثمانية الجاحظ « وكتب الجاحظ مع انحرافه - أي عن
التشيع - تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان . لأنه نظمها
أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ .
وكان إذا تخوف ملل القارئ وسأمة السامع خرج من جد إلى هزل
ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة . وله كتب حسان منها كتاب
البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنشور والمنظوم وغرر
الاشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر
لا كتفى ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء ، وسائر كتبه في
نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى تعصب أو إلى دفع حق ، ولا يعلم ممن
سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه » .

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب في هذا
العصر العباسي الثاني ، وكما قامت ميز العصر الأول على الترسيل والإيجاز
تقوم ميزة الثاني بما من الجاحظ على الازدواج والاطناب . وإن عودة

إلى ما اخترنا له في مدح التجار و ذم عمل السلطان وفي وصف الكتاب
وفي محاسن الضحك لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف
وإتباع الشيء بمثله والقرين بقرنه في فقرات يغلب أن تكون قصيرات
حتى ليسلخ في المعنى الواحد عبارات كثيرة في ابتداع مستحدث وابتكار
ليس له فيما سبق مثيل ، وهانحن أولاء ناقلون هنا شيئاً مما قال في
الحسد مسبقاً بما قال ابن المقفع إمام العصر الأول فيه ، حتى تكون
الموازنة متحدة الموضوع .

قال ابن المقفع في الحسد من الأدب الكبير « ليكن مما تصرف
به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً ، فإن الحسد خلق لئيم
ومن لؤمه أنه يوكل بالآدنى فالآدنى من الأقارب والاكفاء الخلفاء .
فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون ، حين تكون مع من
هو خير منك وأن غمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك
في العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ،
وأفضل منك في الدين فيزداد صلاحك بصلاحه . وليكن ما تنظر فيه
من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو ،
فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك ، قبل الإعداد والفرصة فتحمله على
التسلح لك وتوقد ناره عليك » .

وقال الجاحظ مما قال في رسالة الحسد « وهب الله لك السلامة وأدام
لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك
الله تسألني عن الحسد ما هو ومن أين هو وما دلائله وأفعاله وكيف
تفرقت أموره وأحواله وبهم يعرف ظاهره ومكتومه ولم صار في العلماء

أكثر منه في الجهلاء ولمكثر في الأقرباء وقل في البعداء وكيف دب
في الصالحين أكثر منه في الفاسقين وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان؟
الحسد أبقاله الله داء ينهك الجسد ويفسد الأود علاجه
عسر وصاحبه ضجر وهو باب غامض وأمر متعذر فماظهر منه فلا يداوى
وما بطن منه فمداويه في عناء ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دب
اليكم داء الأثم قبلكم ، الحسد والبغضاء » وقال بعض الناس لجلسائه أي الناس
أقل غفله فقال بعضهم صاحب ليل إنما هم أن يصبح فقال إنه لكذا
وليس كذلك وقال بعضهم المسافر إنما هم أن يقطع سفره فقال إنه لكذا
وليس كذلك فقالوا له فأخبرنا بأقل الناس غفله فقال الحاسد ، إنما هم أن
ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها فلا يغفل أبدا . وروى عن الحسن
أنه قال « الحسد أسرع في الدين من النار في الخطاب اليابس » وما أتى
المحسود من حاسد إلا من قبل فضل الله تعالى إليه ونعمته عليه قال
الله تبارك وتعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد
آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » . والحسد
عقيد الكفر وحليف الباطل وضد الحق وحرب البيان وقد ذم الله تعالى
أهل الكتاب فقال « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من
بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق »
فمنه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل
جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح
الشر بين الخلطاء ، يكمن في الصدر كمن النار في الحجر ، ولو لم يدخل
رحمك الله على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه واستمكن الحزن في

جوفه وكثرة مضضيه ووسواس ضميره وتنغيص عمره وكدر نفسه ونكد
لذاذة عيشه الاستصغاره لنعمة الله تعالى عنده وسخطه على سيده بما
أفاده عبده وتمنيه عليه أن يرجع في هيبته إياه ولا يرزق أحدا سواه ،
لكان عند ذوى العقول مرحوما وكان عندهم في القياس مظلوما وقد
قال بعض الاعراب « مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد نفس دائم
وقلب هائم وحزن لازم » فالحاسد مخذول ومأزور والمحسود محبوب
ومنصور ، والحاسد مهموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور - إلى أن
قال في آخر الرسالة وهي اثنتا عشرة صفحة - وما أرى السلامة إلا في
قطع الحاسد ولا السرور إلا في افتقاد وجهه ولا الراحة إلا في صرم
مداراته ولا الربح إلا في ترك مصافاته . فاذا فعلت ذلك فكل هنيئا
واشرب مريئا ونم رضيا وعش في السرور مليا ، ونحن نسأل الله
الجليل أن يصفي كدر قلوبنا وبجنبنا وإياك دناءة الاخلاق ، ويرزقنا وإياك
حسن الألفة والاتفاق ، أحسن الله توفيقك والسلام .

وعلى هذا النحو من المزاجية الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالبا
لملاءمة القصر للزواج ، كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفي وطبع رخي
فيطنب ماشاء له الاطناب ، كما يتضح ذلك حتى في قصار رسائله مالم
يتعمد فيها مساواة ، كما في تهنيئته الفتح بن خاقان ومعاتبته قليبيا المغربي
أو إيجازا كما في كتابه السابق معهما يستنجز مما طلا ، فان القلة كما قلنا لا تأتي
الاطناب ، كما لا تأتي الكثرة الايجاز ، وهذه رسالة له في ثلاثة مسطور
ولكنها من الاطناب قال « أما بعد فما أقبح الأحداث من مستمنح حرمة

وطالب حاجة رددته، ومثار حجبته ، ومنبسط إليك قبضته، ومقبل عليك بعنايته لويت عنه ، فتثبت في ذلك، ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم » ولم يكن موضوع الكتاب مهما تجافى عن الادب والفن ولج في السيرة والعلم، ليقف بالجاحظ دون تلك الطريقة الفذة، أو يصرفه عن تناولها ، انظر إليه وهو يقول من تأريخه قريش « قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها وذاؤها وكيف رأيها وذاؤها، وكيف سياستها وتديرها، وكيف إيجازها وتحسيرها، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء وثباتها في اللأواء، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر وكيف جودها إذا حب المال وكيف ذكرها لأحدث غد وقلة صدورها عن جهة القصد وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه وكيف وصفها له ودعاؤها اليه، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأمر اضنها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبهه علانيتهم سرهم وقولهم فعاهم وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره وهل غفلته إلا في صدق ظنه وهل ظنه إلا كيقين غيره » وانظر اليه يرسم الخطة المثلى لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون منه إزاء المعاني والالفاظ ، لتستفيد وتعرف كيف استفاد قال « ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب ، ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ ، والخسران هاهنا في وزن الربح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الالفاظ ، حمله الحرص عليها والاستئثار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، وبضعها في غير مكانها ، ولذلك قال بعض الشعراء

لصاحبه: أنا أشعر منك فلما قال له ولم ذاك؟ قال: لاني أقول البيت وأخاد، وأنت تقول البيت وابن عمه، وإنما هي رياضة وسياحة وسماع الألفاظ ضار ونافع، فالوجه النافع أن تدور في مسامعه وتغيب في قلبه وتخيم في صدره، فإذا طال مكثها تناحكت ثم تلاقحت، وكانت نتيجةها أكرم نتيجة وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره، وبين اللفظ إذا عشت في الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن يكون اعتسافا واغتصابا فرق بين. ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهويني والوكال، وعلى السرقة والاحتتيال لم يذل طائلا وشق عليه الزرع واستولى عليه الهوان، واستهمل كسوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل ثم يريد أن يعدل تلك الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلا فقيرا وحائفا سروقا ولا يكون إلا مستكرها لألفاظه متكيفا لمعانيه، مضطرب التأليف منقطع النظام، فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعاني، استخفوا عقله وبهرجوا علمه .

وقد اقتدى بالجاحظ في هذا الأسلوب كتاب عصره الذين قلنا إنهم تربوا في عصر المأمون، نقصد بذلك أنهم جمعوا إلى الآداب العربية، الآداب الدخيلة تامة الآن والاستواء بما استبحر من آداب الفرس والهنود وبما أعيد نقله وفقهه على أصله من فلسفة اليونان، وقد ذكرنا منهم الصولي وابن الزيات، ونضم إليهم الآن الحسن وسليمان ابني وهب وسعيد بن حميد، وأحمد بن إسرائيل وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم

والوائق والمتوكل وجاوزوهم إلى المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي
والمعتبد وهم رجال الطبقة الأولى في العصر الثاني ، وقد أعقبتهم طبقة
ثانية أمثال عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبي العباس بن ثوابة ، وأبي
الحسن علي بن الفرات ، وعلي بن الجراح وغيرهم ممن كتب بعد المعتمد
للمعتز والمعتق والمقتدر . وأعقبت هذه طبقة ثالثة منها الحسين بن
عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبو الفضل جعفر بن الفرات ، وأبو علي
ابن مقله وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والراضي والمعتق
والمستكفي الذي انتهى على أيامه العصر الثاني بدخول بني بويه بغداد .
فكل هؤلاء كانوا للجاحظ في طريقته محبذين ، ولا أسلوبه مترسمين ، كما
نرى فيما اخترنا لبعضهم من إخوانيات . وكذلك كانوا في غيرها مما
يكتبون من الرسائل المطولة أو المصنفات ، فهذا حمزة الاصفهاني جامع
ديوان أبي نواس يقول في مقدمة هذا الديوان « سألتني أبقاك الله وأعلى
قدرك ، وبلغك أقصى أملاك ، وزادك من أفضل ما خولك وأحسن ما منحك
ولا أعدمك جميل ما عودك ، أن أصرف لك عنايتي إلى عمل مجموع من شعر
أبي نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره ، وقد أسعفتك أيديك الله
بطلبتك ، وأجبتك إلى ملتصاك » إلى آخر ما قال على هذا النمط الذي ابتدأه
بالدعاء كما كان يبتدئ الجاحظ ، وطاد يكرر الدعاء في ثنايا ما يقول بعد الابداء
كما كان يكرر . وهذا أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة تأثر
الجاحظ فيما خاف من مصنفات جاءت في الأسلوب والاطناب على
نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات ، وستقرأ نبذة منها بعد قليل .
وكما أوحى العصر الأول إلى كتابه أن يحمداوا ويحمد لهم الايجاز ،

فقد أوحى هذا العصر الثاني إلى رجاله أن يكرروا ويطنبوا اعتقاداً منهم أن في التكرار على أيامهم قوة بلاغ للمعنى، وشدة تأثير في النفس، ثم غلوا في هذا الاعتقاد حتى أوصوا به وحادوا عما كان شائعاً في العصور قبلهم من إيجاز، قال ابن قتيبة في أدب الكاتب « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية، كتب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تملكؤه في بيعته - أما بعد فاني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت - لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر، ويعيد ويبدى ويحذر وينذر » ونحن نقول: ولهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعاني كما كانت لدى أولئك الأسلاف بل صارت في ناحية اللفظ والمعنى سواء .

على أننا لا ننكر أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الامر لجهلهم، عن التشجيع، وانصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان، ثم نصرته الشعورية الداعية إلى احتقار الغرب وتهوين ما لهم من كفايات، قد أصاب الأدب والأدباء، فأثر ذلك في صناعة الكتابة فيه بعض التأثير وظهر الضعف في كتابات الكتاب . ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ كتاب أدب الكاتب . فاسمع إليه يقول في مقدمته : « أما بعد فاني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولا أهله كارهين . أما الناشئ منهم فراغب عن التعليم، والشاى تارك للزيادة، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين . فالعلماء

مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون، حين هوى نجم الخير وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله وصار العلم عاراً على صاحبيه، والفضل تقصا وأموال الملوك وقفا على النفوس، والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع ببيع الخلق، وآصنت المروءات فى زخارف النجد وتشبيد البنيان، ولذات النفوس فى اصطفاف المزاهر ومعاطة الندمان، ونبتت الصنائع وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر، وسقطت هم النفوس وزهد فى لسان الصدق وعقد الملكوت. فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً فى مدح قينة أو وصف كأس - إلى أن قال - فأنى رأيت كثيراً من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر، وقلوبهم من تعب التفكير حين نالوا الدرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة.

ج . فى العصر الثالث - كانت الثروة على ما علمت فى العصر الثانى ممدودة الرواق، وكانت الحضارة وارفة الظلال، وكان الأثرياء منغمسين فى المتع غارقين فى النعيم. غير أن جهل القائمين بالأمر على الدولة فيه، جعل الأدب كما تقدم تركد ربحه، وتفتقر حركته، وجعل الكتاب وهم قطب الأدب الذى عليه يدور رحاه بعيدين فى جمهورتهم أن يشركوا أولئك القائمين فى سعة النفوذ وبالتالى فى الاستمتاع بمباهج الحياة. ولكن ما كاد هذا العصر الثالث يقضى على سابقه برفع نفوذ الخدم الأتراك عن بغداد وجعله فى أيدي آل بويه الذين وإن شلوا نفوذ الخلافة كانوا من العلماء الأدباء، حتى علا نجم الأدب وارتفع شأن

الكتابة ونافست بغداد في ذلك حواضر كثيرة إن نقص عنها بعض فقد أوفى عليها آخر ، وكانت هذه المنافسة أشد ماتكون بين رجال الكتابة الحاليين إذ ذاك من الملوك محل السمع والبصر ، وكان قد مهد لذلك بالدويلات التي انسلخت عن الخلافة قبيل حلول العصر الذي تكلم فيه . فكانت منها دولة السامانيين ببخارى التي زهت بنفوذهم وصارت منتدى العلم والأدب على أيامهم ، وشارك ملوكها في سعة النفوذ وعراضة الجاه ووداعة العيش ورفاهة الحضارة ، عدد من الكتاب كانوا يلقبون بالشيوخ ، منهم أبو محمد عبد الله بن الحسين الذي لقب فوق الشيخ بلقب العميد زيادة في التعظيم أيام نوح بن نصر ، فكان بيته بيت غنى ونعمة وثروة وجاه . وقد نشأ في هذا البيت ابنه أبو الفضل محمد بن العميد نشأة محوطة بكل هذا النعيم ، فأحسن أبوه في هذه البيئة تربيته ، ورشحه لصناعاته وهياها لمنزلته ، وكان ذا ذهن صاف وطبع موات ، فعرف علوم العرب والعجم ونبغ في العربية والفارسية وتضلع في آدابهما حتى لقب بالامتياز والرئيس . ثم نبه شأنه وضافت الدولة السامانية عن قدره ، فاجتذبت به دولة آل بويه فوزر لركن الدولة سنة ٣٢٨ وامتد به العمر في هذا السلطان ثلث قرن كان فيه محط الرمال وكعبة الآمال والمدوح من الكتاب والشعراء بكل لسان ، حتى توفي سنة ٣٦٠ .

ذاك ما أردناه التنويه به عن بيت ابن العميد وشخصه ونعمة عصره . وخفض عيشه ؛ لنخرج منه إلى أن الكتابة لا بد ظافرة لهذين الأمرين بأسلوب تخطه روح العصر وتقسيم دوائمه يد ابن العميد ، فإن الزخرف تناول كل مظاهر الحياة من المسكن والملبس والمطعم

والمشرب ، وحمل ذوى الترف واليسار أن يتأنقوا في كل ذلك ما وسعهم التأنق ، فغلوا فيما حملوا عليه ، وتنافسوا فيه حتى ظهرت آثار ذلك فيما ذكرنا وفيما لم نذكر واضحة للعيان تبهر الأبصار . ومن أولى من ابن العميد ، واللغة كائن يتأثر كما تتأثر الكائنات ، وهو الناشئ بحوطه الترف ويحدوه النعيم ، أن يحكى في كتابته ما يشهد في عيشه ويعكس على أسلوبه ما يشع من ضوء نفسه ، اللهم لا غيره يصلح لأن يكون صاحب الأسلوب الجديد . فبأى شيء يأتى يحدث الزخرف ويحصل التعميق ؟ لا شك أن الخطوة الطبيعية بعد الزواج تكون السجع فانه أول ما يدل في صاحبه على ذلك ، وهو إذا جودت صياغته أكسب المعنى قوة فوق تحليته الألفاظ ، وبعد السجع يكون الإمام بأجل الحلى اللفظية من جناس ، وأجل الحلى المعنوية من طباق ، على أن تبقى الصور والظاهرة للأسجاع .

رسم ابن العميد هذا الأسلوب الجديد صادرا فيه عن فنان صناع ، قد امتلأت نفسه بشتى الصور والألوان ، وأرهف حسه حتى أصبح يشعر بما يدق عن الكهان ، فجاء ممثلا في السجع منزوما يصحبه الجناس قليلا والطباق نادرا ، مع الإمام بما كان للطريقة الجاحظية من إطالة وإكثار وترادف وإطناب ، ولكن في عدول غالبا عما كان لها من تقصير الفقرات إلى إطالتها التي أصبحت لا تتنافى والسجع كما كانت تتنافى مع الزواج ، فمت بها إلى العصر الأول ، وجمع بذلك كله بين محاسن العصور . على أن العناية بالألفاظ لم تكن لتشغل ابن العميد عن العناية بالمعاني وهو الحكيم الفيلسوف ، الجامع بين سعة المنقول وغور المعقول ،

فما كان لفارس والهند والعرب ويونان فكانت معانيه كالفاظه ذات
حظ فيما لكلامه من بهاء وكتاتها لصاحبها زين وجمال كما قيل :
تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائعات المعاني
وحسبه أن يظفر في وصف بلاغته بأبيات من المتنبي قد طلعت على
الأكوان شمسا، وسارت في الآفاق مثلا، فهو القائل فيه :
إذا سمع الناس ألفاظه خلقن له في القلوب الحسد
وهو القائل فيه :

عربي لسانه ، فلسفي رأيه ، فارسية أعياده
خاق الله أفصح الناس طرا في مكان أعرابه أكراده
بل حسبه أن يكون المقول عنه « بدئت الكتابة بعبد الحميد
وختمت بابن العميد » فإن الحسن الذي وصلتته على يده لم يزد على يد
أحد وإن ماثله من بعده، ولذا اطمأن الناس إلى طريقته حتى لكانها
كانت أمل رجال العصر يريدونه ولا يدركونه ؛ وطابع كتابه يودون
رسمه ولا يعرفونه ، فإذن عبد لهم طريقها حتى سلكوه ثم تسابقوا فيه
تسابق الجياد في الميدان ، فكانت الطبقة التي لم يعد الدهر يسمح لها
بمثال، ويكفي أن يكون فيها صاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى
سنة ٣٧٥ وأبو اسحق الصبّاني ابراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤
وأبو بكر الخوارزمي محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ وأبو الفضل بديع
الزمان أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٨ وأبو منصور الثعالبي
عبد الملك بن محمد المتوفى سنة ٤٢٩ ، وغير هؤلاء ممن عطروا الوجود
بأريج أنفاسهم، وجعلوا للكتابة مضاء السيوف بأسنة أقلامهم ، فكان

لها على أيديهم من مزايا الابتكار أو فضل الزيادة والاكتثار، ما نشير الآن إلى أهمه في ناحية الأسلوب .

١ - جعلوا الطابع الميز لها في هذا العصر السجع مع الاطناب يصعبه الجناس على قلة والطباق نادرا، على أن تكون الصورة الظاهرة للأسلوب هي السجع دون غيره، ولهذا أغرم القوم به اغراما والتزموا التزاما في تمكن وقوة، فجاء عفا صفوا كسجع الحما ثم حسن وقع وجمال انسجام وقد بلغ من التزامهم إياه أن انتقل ببعضهم من ميدان الأدب إلى ميدان التأليف كما فعل أبو نصر العتبي محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ في تاريخه المسمى اليميني نسبة إلى يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي، فقد ترجم فيه حياته وحياته أليه سبكتكين، وكان كاتبها، في أسلوب كله مسجوع بعيد عن التكلف والاستكراه وكما فعل الشعالي المذكور في يتيمة الدهر وإن لم يبلغ مداه، ثم كما جاء سجع الكتاب في هذا العصر على ما قدمنا لا تكاف فيه جاء كذلك ما قد يلهمون به مع السجع من جناس وطباق، انظر الى الخوارزمي يقول مستخدما لهما في كتاب منه إلى نائب الوزير ابن عباد هو دا « كتبت إلى الأستاذ معاتبا مره ومستعتبا كره، فواجبت للعتاب إعتابا، ولا قرأت عن الكتاب جوابا، وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني، وعن تواضع لا يضره ويرفعني »

٢ - أكثروا تضمين رسائلهم الحكم والجوامع والأمثال والأشعار والأشارات التاريخية والعلمية، والنكت الأدبية والملح الفكاهية وبخاصة إذا كان التراسل بين أخوين توثقت بينهما عرى المحبة وارتفعت رسوم

الكلفة كالذى كان من ابن العميد إلى أبي العلاء السروى فى رسالة يشكو فيها رمضان سنة شديدة الحر فأنها من أجمع الرسائل^١ لما ذكرنا تقريرا ولذا أثرنا الاستشهاد بها عليه قال .

كتابى جعلنى الله فداك، وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان، وفى جهد ونصب من شهر رمضان ، وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعيف .

حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضا أتى أصحابه وهو منضج^(١) وممتحن به واجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرياء عن التحنف ويزويه عن التنصر^(٢) ويقبض يدها عن إمساك ساق وإرسال ساق ،

ويترك الجأب فى شغل عن الحقب^(٣) ويقدم النار بين الجلد والعصب وينغادر الوحش وقد مالت هواديه^(٤) سجد الذى الأرضى كأن رءوسها علاها صداع أو فواق يصورها^(٥) وكما قال الفرزدق

ليوم أتى دون الظلام شموسه تظل المما صورا جماجمها تغلى
وكما قال مسكين الدارمى
وهاجرة ظلمت كأن ظباءها إذا ما اتقتها بالقرون سجد

(١) حرور جمع حر ، والغريض الطرىء ، والمنضج التام الطبخ (٢) يريد يصرف الحرياء عن عاداتها فى استقبال الشمس كأنها تعبدتها (٣) الجأب حمار الوحش والحقب أثنه جمع حقباء (٤) رءوسها (٥) الأرضى نبات مستعاق يتمسح فيه الوحش إذا اشتد الحر تبردا

تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها كما لاذل من وخز السنان طويد
وممنوب أيام تماكي ظل الرمح طولاوليال كاهام القطاقصرا ، ونوم كلا
ولاقله^(١) وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة وكتصفية الطائر المستحرخفة
كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجات

ومثل

نقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع العنب
وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفني فضل بركتته وياقيني الخير
في باقي أيامه وخاتمته ، وأرغب اليه في أن يقرب على القمر دوره ويقصر
سيره ، ويخفف حركته ويمجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائره
ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد على غرة شوال فهي أسر الغرر عندي
وأقرها لعيني ، ويسمعي النعرة في قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله
أخفى من السر وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بني عامر وأضنى من
قيس بن ذريح وأبلى من أسير الهجر ، ويسلط عليه الحور بعد الكور^(٢)
ويرسل على رقاقتة التي يغشى العيون ضوؤها ويحط من الأجسام نوؤها
كلها يغمرها وكسوفاً يسترها ويرينيه مقهور الظهور مغفور النور ، قد
جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما
تنقص النيران من أطراف الزند ويبعث عليه الأرضة ويهدي اليه
السوس ويغري به الدود ويبلية بالفأر ويخترمه بالجراد ويبيده بالنمل
ويجتحفه بالنذر ويجعله من نجوم الرجم ويرمي به مسترق السمع ويخلصنا
من معاودته ويريحنا من دوره ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ويفعل به

(١) أي كالذين بين هذا الحرف مكرراً في الإجابة (٢) النقصان بعد الزيادة

فعله بالكتان ويصنع به صنعه بالالوان، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق
إذا افتضح بضوئه وتهتك بطموعه « ويرحم الله عبدا قال آمينا » وأستغفر
الله جل وجهه مما قلته إن كرهه وأستعفيه من توفيقى لما يذمه وأسأله
صفحا يفيضه وعفوا يسبغه . وحالى بعد ما شكوته صالحة وعلى ما تحب
وتهوى جارية، والله الحمد تقديست أسماؤه والشكر

٣ - أغرموا بالخيال الشعرى إغراما شديدا فهموا فى أوديته
كما يهيم الشعراء واستخدموا صورهم كما يستخدمون ، حتى صار كلامهم
والشعر سواء ، لولا أنه غير موزون . ولذلك بالغوا فى الاستشهاد به
حتى كان يصل أحيانا قدر النثر كما يقول المصاحب بن عباد فى كتاب
يصف به فصلا من كتب العميد

فصل رأيت فصيحا الإشارة لطيف العبارة

إذا اختصر المعنى فشربة حاتم وإن رام إسهابا أتى الفيض بالمد
فصل قد نظرته فرأيت جسما معتدلا وفهما مشتعلا

ونفسا تفيض كفيض الغمام وظرفا يناسب صفو المدام

فصل قد عمهم بنعمه وضمهم بشيمه

وغزاهم بسوايغ من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعله

وهكذا - ثم جاوزوا هذه المبالغة فى الاستشهاد إلى ترصيع الكتاب
بالشعر كل فقرة بشطر كأول ما كان من البديع إلى الخوارزمى فى
الشوق قبيل رحلته إليه إذ يقول

أنا لقرب دار الأستاذ كما طرب النشوان مالت به الخمر

ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب
ولقد ساعد كتاب هذا العصر - على ذلك ، أن جمهرة كبيرة منهم -
وهذا ميزة له - كانوا شعراء كما كانوا كتابا وإن غلبت إحدى الموهبتين
على صاحبها^(١) ومن هذا تسنى لكثير منهم أن يضمن كتابته
أشعاره ويذيل رسائله بأبياته . كتب الصابى إلى قاضى القضاة أبى محمد
ابن معروف وكان قد زاره فى معتقله أيام عضد الدولة وواساه يقول .
لقد قوى دخول سيدنا قاضى القضاة إلى نفسى وجدداً نسى وأغرب
نحسى ووسع حبسى فدعوت الله تعالى بما قد ارتفع اليه وسمعه له ، فإن
لم أكن أهلاً لأن يستجاب منى فهو أيدى الله أهل لأن يستجاب
فيه وأقول مع ذلك .

دخلت حاكم الزمان على صنيعه لك رهن الحبس ممتحن
أخنت عليه خطوب جار جأرها حتى توفاه طول الهجم والحزن
فعاش من كلمات منك كن له كالروح جائدة منه إلى البدن
ولنصوع الجمال الذى فاض على الكتابة بما تقدم من هذه الميزات الثلاث كثر
وصفها فى العصر بمثل ما كان يوصف به الشعر قبله وفيه ، من حسن
وبهجة ورواء كما توصف سائر المحاسن فى مجالى الطبيعة ومبدعات

« ١ » من هؤلاء من ذكرنا آنفاً من الكتاب ومنهم أبو الطيب المتوفى
سنة ٣٥٤ وأبو الفتح كشاجم محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ ، والقاضى
الرجزاني على بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٦٦ والشريف الرضى أبو الحسن
محمد بن الظاهر المتوفى سنة ٤٠٦ وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩

الخطابة على السنة الشعراء وأقلام الكتاب .

قال بعض معاصري الصابي يصف رسائله نظما .

أصبحت مشتاقا حليف صباية برسائل الصابي أبي إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعة سلوة العشاق
طورا كما رق النسيم وتارة يحكى لنا الأطواق فى الأعناق
لا يبلغ البلاغ شأو مبرز كتبت بدائع على الأثـدق
وكتب ابن العميد إلى القاضى أبى محمد الحسن بن عبد الرحمن بن
خلاد الرامهرمزي يصف كتابا وصله منه بهدية « وصل كتابك الذى
وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك وضروب برك وتعهدك ، فارتحت
لكل ما أوليت وابتهمت بكل ما أهديت ، وأصنفت إحسانك فى كل
فصل إلى نظائره التى وكلت بها ذكرى ووقفت عليها شكرى ، وتأملت
النظم فماكنى العجب به وبهرنى التعجب منه ، وقد رمت أن أجري على
العادة فى تشبيهه بمستحسن من زهرجنى وحال وحلى ، وشذور الفرائد
فى محور الخرائد .

بالمدارى غدون فى الحلال البيض وقد رحن فى الخطوط السود
فلم أره لشيء عدلا ولا أَرْضى ما عدته له مثلا ، والله يزيدك من فضله
ولا يخليك من إحسانه وطوله ، ويلهمك من بر إخوانك ما تنعم به
صنيعك اليهم ، وترب معه إحسانك عليهم .

٤- أغرقوا فى عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء تهويلا
بشأنهم وأقدارهم وانما كان ذلك لأن أغلب كتاب الدول الشرقية فرس مثلها ،
والفرس أميل الناس الى الغلو فى عبارات التمجيد والتكبير جريا على

عاداتهم وإجابة لطبائعهم، فهم قد جبلوا على تملق ذوى الأمر بهذا التعظيم وبالاطناب لهم فى جمل الدطاء والتفخيم، ثم اشتهر ذلك عنهم فحاكم فيه أبناء العرب من كتاب الدول الغربية ولكن جاء فيها أقل حدة منه فى الشرقية لما ذكر من عريبتها وعربية كتابها، وهذا الصابى يقول فى فصل له من كتاب الى عضد الدولة يهنئه بغرة سنة

« أسأل الله تعالى مبهتلا لديه ماذا يدي اليه، أن يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات وبالزائدات الغامرات، ليكون كل دهر يستقبله وأمد يستأنفه موفيا على المتقدم له قابصا عن المتأخر عنه، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ومن العيش أعذبه وأرغده، عزيزا منصورا محبباموفورا، باسطا يده فلا يقبضها إلا على نواصى أعداء وحساد ساميا طرفه فلا يغمضه إلا على لذة ورقاد، مستريحة ركابه فلا يعملها إلا لاستضافة عزيز وملك فائزة قداحه فلا يجيلها إلا لحيازة مال وملك حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جامعها والسمو له همته طامحا، اه. ثم لم يبق ذلك مقصورا على ذوى السلطان والنفوذ بل تعدى إلى ما كان بين الإخوان كما قرأت سابقا فى كتاب ابن عباد الى الطبرى، وكتاب الصاحب الى ابن العميد، وكتاب الثعالبي فى التهنئة بالقدوم، وغيرها فى هذا المعنى كثير.

هـ - ولقد كان من نتيجة هذه الظاهرة أن حاد الكتاب عن التصريح بأسماء الخليفة والرؤساء وبألقابهم الى الكناية عنها تنزيها لها وتصونا عن ذكرها فصاروا يكتفون عن الخليفة بالحضرة المقدسة النبوية أو السدة النبوية أو الخدمة الشريفة أو الديوان الشريف يعنون

ديوان الانشاء ، كما يكتنون عن الوزراء بالحضرة الوزيرية وهكذا حتى صار لكل طبقة من رجال الدولة والأعيان نعوت خاصة لا يخطبون إلا بها تبعاً لاختلافهم في مقادير النفوذ ودرجات المنازل . وقد نال الكتاب من ذلك ما نال غيرهم ، فأخذوا ألقاب الشيخ والرئيس والاستاذ والصاحب . على أنهم تعدوا في هذا ، الألقاب إلى الدعاء فتوعوا في جملة مراعاة لمكانة المکتوب إليه ، كأن يقولوا للخليفة أطال الله بقاء مولانا . ولولى العهد أطال الله بقاء الامير وللوزير أطال الله بقاءك وهكذا .

٦ - اتخذوا للرسائل نمطا خاصا هو أن يبدأوها بمخاطبة المرسل اليه بلقبه أو نعته بعد الإشارة إلى كتابه إن كان ثم منه كتاب ، ويعقبوا ذلك بالدعاء الملائم له بصيغة الغائب أيضا ، ثم ينتقلوا إلى المقصود بنفس هذه الصيغة غالبا وبصيغة الخطاب في بعض الأحيان ، وهذا ظاهر فيما أسلفنا من نماذج فلا داعي هنا إلى تمثيل .

وأخيرا بهذا النمط وما تقدمه من ميزات صار الانشاء في العصر العباسي الثالث فنا قائما له شخصية وحدود واضحتان في الأسلوب وأصبحت الكتابة حرفة ذات مصطلحات كمصطلحات العلوم والفنون فلنتركه إلى العصر الأخير لنرى ماذا كانت حال الأسلوب فيه .

د - في العصر الرابع - ورث العصر العباسي الرابع أسلوب الكتابة عن سلفه قوى النسيج جميل الرواق ، قد حالفه السجع في غير تكلف ، وظهر به الجناس والطباق من غير إكثار ، فبهر القارئ بأشراق معانيه ، كما راقه بحلى ألفاظه ، وشهد للكتاب بسعة الاطلاع في فنون الأدب

وقوة العتاد في صناعة القلم . وقد دعت سنة الرقي المطردة ورغبة النفس الدائبة في الزيادة ، أن يأخذ الكتاب منذ أواخره في الاكثار من الجنس والطباق ، وأن يضموا اليهما ما وسعهما من سائر البديعيات ، وكان البديع إذذاك قد كثرت فنونه وتعددت محاسنه ، واتفق أن ولد في آخر العصر الثالث رجل قدر له أن يكون حامل لواء الكتاب في هذا العصر الذي يليه ، هو أبو محمد القاسم بن علي المعروف بالحريري .

ولد الحريري بقرية مشان القريبة من البصرة مدينة ابن المقفع والجاحظ سنة ٤٤٦ ، ولما كان قد خلق مفطورا على الأدب مهيا لما ذكرنا ، غادر قريته إلى البصرة فأقام منها في محلة بني حرام ، وتعلم بها علوم العربية حتى برع فيها وعنى عناية خاصة بمفردات اللغة وفنون البلاغة ، حتى صار في كليهما إماما ودعت شهرته الناس إلى الأخذ عنه فيهما ، واتصل بالخلفاء العباسيين والأمراء السلاجوقيين ، وما زال علما من أعلام العلم والأدب والكتابة والشعر حتى توفي بالبصرة سنة ٥١٦ . خلفا من الكتب ، درة الغواص في أوهم الخواص ، وملحة الاعراب وهي أرجوزة في النحو ، وشرح ملحة الاعراب ، ومجموعة رسائله وديوان شعره ، ثم المقامات التي شخصته شاعرا ، ونصبت في الكتابة إماما .

أبدع رحمه الله في كتاباتها الابداع كله . وتلاعب بالالفاظ تلاعب «صوالجة بالأكر» فلم يدع فنا من البديع إلا استخدمه في قدرة عليه وتمكن منه ، مكثرا الالفاظ اللغوية والحكم المختارة ، والأمثال السائرة والفكاهات المستملحة ، والاقتباس من القرآن والحديث ، والالمام بكثير من دقائق العلوم ، ومتناولات الجدل وغرائب الحيل ، إلى غير ذلك مما

جعله فذا في ابتكاره، وجعل الناس بعده عاجزين عن الجرى في مضماره لشدة ما تكلفه حتى صار له طبعاً وعلى غيره عبثاً، فأخذت ألفاظهم تكتم أنفاس المعاني حتى خفيت، واستكرهت المحسنات حتى سمجت وقبحت ثم نضب معين الأجداد من الكتّاب والفهم من القارئ بما أنانح على الأدب، وعصف بذويه من تسلط الأتراك شرقاً والأكراد غرباً على الفاطميين العرب، والبويهيين المتعربين، وظهرت آثار ذلك من تكلف واستكراه، منذ أواسط العصر ظهوراً حاداً بأسلوب الكتابة في نصفه الثاني مما كان عليه في النصف الأول، وخلع على طريقتها فيه اسم الطريقة الفاضلية نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي المتوفى سنة ٥٩٦ فقد أغرق في استخراجه البديع، وغالى في التأنق حتى تجاوز الحد، فانقلب الحسن بهذا الغلو كما يقولون إلى الضد، وقد تقدمت له رسالة فارجم إليها تجمد التكلف بادياً والمعنى خافياً. ولقد كان هذا الخفاء أبدياً في الكتب العلمية التي تكلفوا فيها البديع إذ ذاك، منه في رسائل الانشاء كما هي الحال في كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» الذي أرخ فيه عماد الدين الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ فتح صلاح الدين لبيت المقدس. فان من عباراته مالا يفهم إلا بالتأمل، ومن ألفاظه مالا غنية عن المعاجم في معرفة معناه على عكس ما ذكرنا عن كتاب اليميني أنفا.

وقد هالت هذه الغابة للالفاظ على المعاني بعض أدباء العصر إذ ذاك. فعملوا على مقاومتها وحضوا على مراعاة حرمة المعنى مع عدم الاجحاف بحق الالفاظ، وذلك بما ألفوا ورسموا كأبي الفتح ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ صاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكتّاب والشاعر»

فقد بين فيه ما يتطلبه الأدب من كليهما في المعنى واللفظ على السواء ،
وله رسالة استهداء سابقة ليس فيها ما كان لعصره من تكلف اللفاظ
وإخفاء المعاني .

هذا ولا يفوتنا وقد انتهينا من وصف الأسلوب الكتابي في كل
عصر من العصور الأربعة العباسية وصفا مميزا أن نقول إن ذلك
واقع على اعتبار مجموع كتاب كل عصر لا كل كاتب فيه . فقد يحدث في
عصر متقدم أن ينشأ كاتب سابق لزمانه يلبس أسلوبه ثوب عصر بعده
كالزهرة تتفتح مبكرة في بستان ، ولما يتفتح بعد شيء من الأزهار .
واليك في هذا رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي التي
يقول فيها مستعظفا : - الأصيل الجواد الواري الزنادي الماجد الاجداد ،
الوزير الفاضل الأثم الباذل الباب الحلال ، من المستكين المستجير
البائس الضرير ، فاني أحمد اليك الله ذا العزة القدير ولي الصغير والكبير
بالرحمة العامة والبركة التامة . أما بعد فاعلم واسلم واعلم إن كنت لا تعلم
أنه من يرحم يرحم ، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغنم ومن يصنع
المعروف لا يعدم . وقد سبق إلى تغضبك على واطراحك لي وغفلتك
عني بما لا أقوم به ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد . فلست بحى صحيح ولا
بميت مستريح . فررت بعد الله منك اليك ، وتحملت بك عليك ولذلك قلت

أسرعت بي حثا اليك خطائي^(١) فأناخت بمذهب ذي رجا

راغب راهب اليك يرجي منك عفوانه وفضل عطاء

ولعمري ما من أصرو من تا ب مقرا من ذنبه بسواء

(١) جمع خطيئة من غير اعلال مماها .

فان رأيت أراك الله ماتحب وأبقاك في خير ، ألا تزهد فيما ترى
من تضرعى وتخشى وتذلى وتضعفى . فان ذلك ليس لى بنجيزة ولا
طبيعة ولا على وجه تصنع ولا تخدع ، ولكنك تذل وتخشع وتضرع
من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن
التضرع له عز ورفعة وشرف . ومثله من يجيد فى عصر ضعف وتأخر
كصاحب المثل السائر المذكور . وقد يحدث أن يكتب كاتب فى عصر
لاحق متأثرا بأسلوب كاتب سابق نشأ يتعشقه ويحتذى رسمه ، فتجىء
كتابته على غير طريقة عصره كأنها بقلم سلفه ، عن محاكاة أو معارضة ، على أنه
فى جميع هذه الاحوال لابد أن يكون هناك خضوع من الجميع
لمؤثرات العصر العامة وظروفه الشاملة

دواعى الرسائل وأغراضها ومكانة رجالها

مامن داعية دعت إلى الخطابة فى العصر العباسى الأول إلا دعت
إلى الكتابة فيه ، وما من غرض قصد إليه الخطيب ثمت إلا قصد إلى
مثله الكاتب إذ ذاك ، ولهذا نرانا فى حل من العودة إلى تفصيل
الدواعى والأغراض هنا اتكالا على ما فصلنا هناك ، وإن هى إلا كرة
منا تذكرك فيها بما كان وتشير إلى موطن الشاهد فى النماذج ، أو نأتى
بجديد إذا دعت الحاجة إلى جديد ، ثم نخلص بعدها إلى ما انفردت به
الكتابة دون الخطابة فى ذلك العصر وفيما أعقبه من عصور

١ - فالكتابة قد استخدمت فى تثبيت قواعد الملك الجديد ضد
الطامعين فيه من العلويين والخارجين عليه من غيرهم ، وهأت ذاك قد
قرأت ما صدرنا به نماذجها من الرسائل القوية الطويلة الممتعة بين أبي

جعفر المنصور والنفس الزكية محمد بن عبد الله ، والآن فاقراً ماكان بين
أبي جعفر هذا وبين أبي مسلم الخراساني إذ بعث إليه من يحمي عليه
المغانم عقب انتصاره على عمه عبد الله بن علي ، فغضب وقال « أكون
أميناً على الدماء غير أمين على الأموال » وحدثته نفسه بالخروج وهم
أن يعود إلى خراسان فكتب إليه المنصور « إني قد وليتك مصر
والشام فهي خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت ، وأقم
بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أنيته من
قريب » - فكتب إليه أبو مسلم وقد فهم أنه يريد بقاءه قريباً منه
لقتله - كما حدث بعد - « إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدواً إذا أمكنه
الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون من
الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على
الوفاء لك بعهدك ماوفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد
حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت
إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي »
فكتب إليه المنصور - « قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة
أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة
لكثرة جرائمهم ، فإن راجتهم في انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك
بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء
هذا الأمر على ماأنت به ، وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن
موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول
بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فانه لم يجد باباً يفسد به نيتك أو كد

وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك» . فأثرفيه ذلك على ما فهم
آنفاً، وقدم عليه فلقى حتفه .

٢ - والكتابة قد استخدمت في الاستعطاف والوعيد والعتاب
المصحوب بالعفو مما يدور حول الملك ، وتعدته دون الخطابة إلى ما يدور حوله
فمن الأول في الاستعطاف : كتاب الصابي عن عضد الدولة إلى
أخيه مؤيد الدولة بشأن ذي الكفایتين علي بن محمد بن العميد ، ومنه
في الوعيد كتاب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبث وكتاب
ابن العميد عن ركن الدولة إلى ابن ونداد ، ومنه في العتاب المصحوب
بالعفو كتاب ابن الزيات عن الخليفة إلى بعض العمال .

ومن الثاني في الاستعطاف كتاب ابن الرومي السابق ، ومنه في
الوعيد كتاب ابن الزيات إلى الصولي ، ومنه في العتاب كتاب الخوارزمي
إلى صديقه الذي لم يعده في مرضه ولم يهنئه بإبلاله وكتابه إلى تلميذه
الذي لم يزره بعد أن تخرج عليه .

٣ - والكتابة قد استخدمت في الحوار بين الخصماء وفيه بين
الأحباء وفيه بين المتفاحين . فمن الأول الرسائل المذكورة بين المنصور
والنفس الزكية ، ومن الثاني كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل في
تنازله عن الخاتم لجعفر ، ورد الفضل عليه . أما الثالث فإليك منه رسالتين
مما كان بين الخوارزمي والبديع ، فإن الخوارزمي لما لم يحسن مقابلة البديع
على ما كتب له قبل لقائه في رسالة الشوق الماضية كتب إليه البديع -
الأستاذ والله يطيل بقاءه ، ويدعم تأييده ونعماءه ، أزرى بضيفه أن وجده
يضر بآباط القلة في أطهار الغربة ، فأعمل في ترتيبه أنواع المصادفة وفي

الاهتزاز له أصناف المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام عن التمام ، ومضغ الكلام وتكاف لرد السلام؛ وقد قبأت هذا الترتيب صغيرا واحتملته وزرا واحتضنته نكرا وتأبطته شرا ولم آله عذرا ، فأن المرء بالمال وثياب الجمال، وأنامع هذه الحال وفي هذه الاسمال لا أتقزز من صف النعال . ولو حاملته العقاب وناقشته الحساب وصدقته المتاع ، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح وقوما يجرون المطارف ولا يمنعون المعارف .

وفيههم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل .
على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السحابة والبذل ولو طوحت بالاستاذ أيدي الغربية إليهم لوجد منال البشر قريبا ومحط الرحل رحيبا ووجه المضيف خصيبا ، ورأيه أيده الله في أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينه ويوسع أعطاف ظنه بموقع هذا العتاب الذي معناه ود، والمر الذي يتلوه شهد ، موفق إن شاء الله تعالى .

فكتب إليه الخوارزمي -

إنك إن كلفتني مالم أطق ساءك ماسرك مني من خلق
فهمت ما تناوله سيدي من حسن خطابه، ومؤلم عتبه وعتابه، وصرفت ذلك منه إلى الضجر الذي لا يخلو منه من نياحه دهر ، ومسه من الأيام ضر ، والحمد لله الذي جعلني موضع أنسه ومظنة مشتكي ماني نفسه ، أما ما شكاه سيدي من مضايقتي إياه زعم في القيام وتكاف لرد السلام، فقد وفيتة حقه كلاما وسلاما وقياماً على قدر ما قدرت عليه ووصلت إليه ، ولم أرفع عليه غير السيد أبي القاسم، وما كنت لأرفع أحدا على من أبوه الرسول وأمه

البتول وشاهداه التوراة والانجيل، وناصره التأويل والتنزيل، والبشير به جبريل ومكائيل . وأما عدم الجمال ورثاة الحال، فما يضعان عندي قدرا ولا يضران نجرا، وإنما اللباس جلدة والزى حاية بل قشرة، وإنما يشغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل، ونحن بحمد الله نعرف الخيل طارية من جلالها، ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها لا بآلاتها وأحوالها، وأما القوم الذين صدر سيدي عنهم وانتمى إليهم، ففيهم لعمري فوق ما وصف حسن عشرة وسداد طريقة وجمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فقلت المرتاد وأحمدت المراد .

فان أك قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجد عندنا بزميم
والله يعلم نيتي للاحرار عامة ولسيدي من بينهم خاصة . فان أعانني على مرادى له ونيتي فيه بحسن العشرة، بلغت له بعض مافى النية وجاوزت مسافة القدرة، وإن تطع على طريق عزمي بالمعارضة وسوء المؤاخدة . صرفت عناني عن طريق الاختيار بيد الاضطرار

فما النفس الانطفة بقرارة اذالم تكدر كان صفوا غديرها
وعلى هذا فخبذا عتاب سيدي إذا صادف ذنبا وامر توجب عتبا . فأما أن يسلفنا العريضة ويستكثر المعتبة والموجدة، فتلك حال نصونه عنها ونصون أنفسنا عن احتمال متلها . فايرجع بنا إلى ما هو أشبه به وأجل له ولست أسومه أن يقول « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

٤ - والكتابة قد استخدمت في التعازي والتهاني وقد سافت في النماذج تهنئة ابن المقفع بمولودة وتعزيته عن بنت، ثم عن ابن، وتهنئة أحمد بن

يوسف بولود ، وتهنئة عمرو بن ميمونة عن المأمون صهره الحسن بن سهل بولود أيضاً، وتهنئة الجاحظ الفتح بن خاقان في يوم عيد، وتهنئة الشعالي بالقدوم من سفر، وكذا تهنئة رشيد الدين الطواط وغيرهما بما جاء بعدها. وباب التمزية والتهنئة من أحفل أبواب التراسل وأكثرها مقولاً لاتصاله بنعماء الأيام وبأسائها. ويتصل به ما يكتب إلى المكرويين بمرض أو غيره تصبيراً لهم وتمنياً لئواله عنهم، كما كتب ابن المعتز سابقاً. هـ - والكتابة قد استخدمت في الزلف والتقرب عن طريق المدح والثناء، كما فعل ابن العميد في كتابه إلى ركن الدولة عن نماء العلوم به، وكما كتب صاحب إلى ابن العميد وقد وصف له البحر، وكما كتب عبد الله بن طاهر من خراسان إلى المأمون يقول

«بعدت داري عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته، وإن كنت حيث تصرف لا أتقيأ إلا به. وقد اشتد شوقي إلى النظر إلى رؤيته المباركة والذين بحضور مجلسه وتلقيح عقلي بحسن رأيه، فلا شيء عندي أثر من قرب به وإن كنت في سعة من عيش وهبة الله جل ذكره لي به. فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في المصير إلى دار السلام لأحدث عمداً بالنعم على، وأتهدأ بالنعمة التي أقرها لذي، فعل - فكان جواب المأمون إليه - قربك إلى يابا العباس حبيب وأنا إليك مشتاق وإنما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة فيك، فالزم مكانك واتبع قول الشاعر

رأيت دنو الدار ليس بنافعي إذا كان ما بين القلوب بعيداً
٦ - والكتابة قد استخدمت في بيان وجه الرأي لمن طلبه مستشيراً

كما كتب ابن المعتز آنفا مجيبا من يسأل كيف يكون كسب المحامد ، وكما كتب البديع لمن تحدثه نفسه بصحبة الملوك يقول « إن الملوك إذا خدمتهم ملوك ، وان لم تخدمهم أذلوك ، وإنهم يستعظمون في الثواب رد الجواب ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب ، وإنهم ليعثرون على عثرة من خدمهم فيبنون لها منارا ، ثم يوقدون لها نارا ، ويعتقدونها نارا ، فكن من الملوك مكانك من الشمس ، إنها لتؤذيك والسماء لها مدار والأرض لك دار ، فكيف لو أسفت قليلا وتدانيت يسيرا ، وإن العاقل ليطلب منها مزيد بعد ، فيتخذ سربا لو اذا وهربا ، ويبتغي في الأرض نفقا فرارا وفرقا » . ومما يتصل بهذا ما يصدر في كتب الترفع مما لا ينبغي أن يكون إلى ما يجب أن يكون ، كما تقدم في كتاب البديع إلى من هنأه بمرض الخوارزمي ، وكما كتب محمد بن يحيى وإلى أرمينية للرشيد إلى بعض عماله وقد وشى إليه برجل ليأخذ ماله يقول « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله في أيامنا كسدة وألسنة السعاة كليلة خاسئة . فاذا قرأت كتابي هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخدم بما في ديوانك ، فانا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لأحياء الأعلام الدائرة . وجنبني وتجنب قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكننت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا
وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لأعلينا ، واعلم أنها مدة
تنتهي وأيام تنقضي ، فاما ذكر جميل ، وإما خزي طويل »

٧ - والكتابة قد استخدمت في النصائح والوصايا وفي العظات أيضا

على النهج الذي أوضحناه فيها، وإن كثر استعمالها في الأوليين وكان في الأخرى قليلا . فمنها في الوصية ما كان يكتب به الخلفاء لأولياء عهدهم، وذوو الاقدار لنابهى أبنائهم، كما كتب المنصور لولى عهده المهدي، وطاهر بن الحسين لابنه عبد الله، ثم ما كان يكتب به كل رجل لمن يهتم بأمره من ذوى قريبه، كما فعل البديع مع ابن أخته إذ كتب إليه يقول : « أنت ولدى مادمت والعلم شأنك، والمدرسة مكانك، والدفترا ليفك والمخبرة حليفك . فان قصرت ولا إخالك فغيرى خالك » . ومنها في النصيحة ما كتب البديع إلى صديقه الذى مات أبوه يحذره التبذير والتقتير وما كتب ابن المقفع في أدبه الصغير من شتيت النصيح والارشاد . أما العظة فمنها ما كان من سفیان الثورى إلى الرشيد إذ كتب يدعوه إلى زيارته ويذكر له أن العلماء زاروه حين استخلافه وهنتهوه ، وأنه فتح لهم بيوت المال وأجزل لهم الصلات . فانه حين وصل إليه الرسول بالكتاب وهو بمسجد الكوفة يعظ أصحابه، وقرأ ما فيه كتب إلى الرشيد على ظهره يقول : - بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفیان بن سعيد بن المنذر الثورى إلى العبد المغرور هرون الرشيد الذى سلب حلاوة الايمان . أما بعد فانى قد كتبت اليك أعرفك أنى قد صرمت حبلتك، وقطعت ودك وقليت موضعك ، فانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه، وأنفذته فى غير حكمه، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني، حتى كتبت لى تشهدنى على ذلك . أما إنى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدى الشهادة عليك

غدا بين يدي الله تعالى . ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليهم في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم هل رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأراذل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعييتك؟ فشد ياهرون مثرك وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل، فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيد القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللاظالمين إماما . ياهرون قعدت على السرير وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة رب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وستر ك، يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويضربون من شربها، ويزنون ويحدون الزاني، ويسرقون ويقطعون يد السارق، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها الناس؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار . كأنني بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة في سيئاتك، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة . فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم أنني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيح غاية فاتق الله ياهرون في رعييتك، واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته

وأحسن الخلافة عليهم، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل اليك وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد، فمنهم من تزود زادا نفقه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك ياهرون من خسر دنياه وآخرته فإياك إياك أن تكتب لي كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام^(١)

هذا على أنه قد بقيت من النماذج السالفة بقية تمثل أغراضا أخرى للكتابة لم تتناولها الخطب بل لم يتناول بعضها الشعر .
وهاهي ذي مصحوبة بما يتصل بها، وبما لا يتصل من سائر الأغراض التي لم يسبق لها في النماذج شيء

١ — الأخبار والاستخبار — كما كتب ابن المقفع فيما سلف وكما كتب ابراهيم بن المهدي إلى صديق له يقول « كتابي اليك كتاب مخبر وسائل ، فأما الأخبار فعن تصرف الخطوب على ما يوجب العذر عند صديق العزيز على في إبطائي بالتعاهد له ، وأما السؤال فعن إمساك هذا الأخ الودود المودود عن مثل هذا ، فان السؤال كاشف ما سلف مصلح لما استؤنف »

٢ — الاستمناج والتوصل — كما كتب ابن المقفع والصولي آنفا

(١) قيل إن هرون لما وصله هذا الكتاب جعل يقرؤه ودموعه تتحدر فقال له بعض الحاضرين: قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين سفيان ، فلو أثقلته بالحديد، وضيق عليه السجن فقال لهم « اتركونا يا عبيد الدنيا فالمغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه، إن سفيان أمة وحده » ثم أبقى الكتاب إلى جنبه يقرؤه رحمه الله عند كل صلاة حتى توفي

ومن أجل ما وقع في هذا الباب، ما كتب العتاني إلى أحد أصدقائه وهو :
« أما بعد أطل الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة ، فانك كنت
عندنا روضة من رياض الكرم ، تتهيج النفوس بها وتستريح القلوب
إليها ، وكنا نعفيها من النجعة استتماما لزهرتها وشفقة على خضرتها
وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من منى يوسف
اشتد علينا كابها وحات قحطها ، وكذبنا غيومها وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا
صالح الإخوان فيها ، فاتتجعتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عاينك
عظيم المنة لك والثقة بك ، مع علمى بأنك موضع الرائد وأنتك تغطي
عين الحاسد ، وأنتك غاية أمل القصاد وأعذب مناهل الورد ، والله يعلم
أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل ، واعلم أن الكريم إذا استحيا من
إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ولم تظهر همته » فشاطر ،
ذلك الصديق ماله ومرافقه .

ومن أدق أنواع التوصل ما كان فى طلب المصاهرة : ولعل من
أوقع الرسائل فيه رسالة الصابى السابقة عن صديقه .

٣ - الاستنجاز - وقد تقدم للجاحظ نموذج منه ، وهو مثل
ما كتب العتاني قبله يقول « أما بعد فقد تركتني منتظرا لوعدك متنجزا
لرفدك ، وطالب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أولا مريحة ، والعذر الجميل
أحسن من المظل الطويل وقد قلت

بسطت لسانى ثم أوثقت نصفه فنضيف لسانى بامتداحك مطلق
فان أنت لم تنجز عدائى تركتني وباقي لسان الشكر بالياس موثق
وأرفق منهما ما كتب به يحيى بن أكثم الى المأمون « أنت يا أمير

المؤمنين أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز، ونقابلك بالآذار، وأنت شاهدي على وعدك، لاتأمر بشيء لم تتقدم أيامه ولم يقدر زمانه، ونحن أضعف من أن يستولي علينا صبر انتظار نعمتك، وأنت الذي لا يؤوده إحسان ولا يعجزه كرم، فعجل لنا يا أمير المؤمنين ما يزيدك كرما وتزداد به نعماء، ونلقاه بالشكر الدائم»

٤ - الاعتذار - كما كتب الصولي سابقا يعتذر من تأخر كتبه، وكما كتب البديع يقول « يعز على أيد الله الشيخ أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسول قبل وصولي، ويرد مشرع الانس به كتابي قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق حجة

وعلى أن أسعى وليد س على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره، وما بي حب للحيطان ولكن شغف بالقطان، ولا عشق للجدران ولكن شوق الى السكان

٥ - الشكر - كما كتب الحسن بن وهب سابقا، وكما كتب العتابي الى بعض الرؤساء « كتب اليك ونفسي دائمة القيام بشكرك ولساني لهج بالثناء عليك، والغالب على ضميري لأثمة نفسي واستقلال جهدي في مكافأتك، وأنت أعزك الله في عز الغني عني، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك، وليس من أخلاقك أن تولى جانب النبوة منك، من هو عان في الضراعة إليك ». ومن لطيفه وغريبه ما كتب به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى أحد الرؤساء وقد عاده « ما أعرف أحدا جزى العلة خيرا غيري، فاني جزيتها الخير وشكرت نعمتها على، إذ كانت إلى رؤيتك مؤدية، فأنا كالأعرابي الذي جزى يوم البين خيرا فقال

جزى الله يوم الدين خيرافانه أرانا على علاقته أم حارث
أرانا ريبيات الحدود ولم نكن نراهن إلا بانبعاث الحوادث

٦ - الاستهداء - كما كتب ابن الاثير الموصلي فيما سبق يستهدى
صديقه العراقي تمرا ، وكما كتب ذو الكفايتين حفيد العميد يستهدى
شرابا فقال « قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدي ومولاي رقدة
من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع
أصحابي في سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام باهداء المدام ، عدنا كبنات
نعش والسلام »

٧ - الاهداء - كما كتب عبدالله بن طاهر إلى المأمون وقد أهدى
إليه فرسا « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يالحق الأرانب في
الصعداء ، ويجاوز الظباء في الاستواء ، ويسبق في الحدود جري الماء
فهو كما قال تأبطشرا :

ويسبق وفد الريح من حيث تنتحي بمنخرق من شدة المتدارك
وكتبت جارية من جوارى المأمون له وقد أهدت إليه تفاحة ،
« إني لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك ، وتواتر ألطافهم عليك ، فكرت
في هدية تخفف ثقلها وتهون كلفتها ، ويعظم خطرها ويكمل موقعها ، فلم
أجد ما يجتمع فيه هذا النعمت ويكمل فيه هذا الوصف إلا التفاح ، فأهديت
إليك منه واحدة في العذد كنيرة في التقرب ، وأحببت يا أمير المؤمنين
أن أعرب لك عن فضلها ، وأكشف لك عن محاسنها . وأشرح لك لطيف
معانيها ، وما قالت الأطباء فيها ، وتفنن الشعراء في أوصافها ، حتى ترمقها
م - ١٤ أدب

بعين الجلالة، وتلحظها بمقلة الصيانة، ولكن أقول كما قال أبوك الرشيد
رضي الله عنه: أحسن الفأهة التفاح اجتمع فيه الصفرة الدرية، والحمرة
الخرية، والشقرة لذهبية، وبياض الفضة ولون التبر، يلذبهما من الحواس العين
بدهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها »

٨ - الشوق - كما تقدم للباحظ إلى قلب ولا بن العميد إلى الطبرى .
وكتب الغتاني « لو اعتصم شوقي إليك بمثل سلوك عني لم أبذل وجه الرغبة
إليك ولم أتجشم مرارة تماديك . ولكن استخففتنا صبا بتنا فاحتملنا
قسوتك لعظيم قدر مودتك ، وأنت أحق من اقتصص لصلمتنا من جفائه
ولشوقنا من إبطائه » . وكتب عبدالله بن العباس العلوى إلى ابراهيم بن
المهدى « ما أدري كيف أصنع ، أغيب فأشتاق ونلتقى فلا أشتاق ، ثم يجدد
لى اللقاء الذى طلبت به الشفاء نوحا من تجديد الحرقه بلوعة الفرقة »
فكتب إليه ابراهيم « أنا الذى علمتك الشوق لآنى شكوت ذلك اليك
فهيجت مثله منك » . ومما يتصل بالشوق الكتابة فى التعرف قبل اللقاء
كما كتب البديع إلى الامير أبى نصر الميكالى يقول « كتابى أطال الله
بقاء الأمير وبودى أن أكونه فاسعد دونه ، ولكن الحريص محروم ،
لو بلغ الرزق فاه لولا هرقاه . وبعد فانى فى مفاتيحه فى ثقة تعد ، ويد ترتعد ،
ولم ذاك والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره ، ومن رأى من السيف أثره
فقد رأى أكثره ، والليث وإن لم ألقه فلم أجهل خلقه . وما وراء ذلك
من تالد أصل ونسب ، وطارف فضل وأدب ، فعلوم تشهد به الدفاتر والخبر
المتواتر ، وتنطق به الأشعار كما تحلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس
إدراكا ، والاذن أكثر استمساكا »

٩ - الاستزارة - كما سبق من الخوارزمي إلى تلميذه ، وكما كتب بعضهم إلى صديق يقول « ليس من قدرى أدام الله سعادتك أن أقول لك جعلت فداك ، لاثنى أراك فوق كل قيمة نضيرة وثمن معجز ، ولا أن نفسى لا تساوى نفسك فتقبل فى فديتك ، وعلى كل حال جعلني الله فداء ساعة من أيامك . واعلم أيها السيد العلى المنزلة ، أنه لو كان لعبدك من شدة الخطب أمر يقف عند حده النعت . لاجتهدت أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قلبك ، ويحنو على الرقة والتحنى أثناء جوارحك ، ولكن ما أمسيت وأصبحت ممتحننا به فيك ، منع كل بيان ونزح عن كل لسان ، والود أيها الصديق لم يشبهه قذى ريبة ، ولم يختلط به ثاب معاب ، فلا ينبغى لمن كرمته أخلاقه أن يعاف قرابة صاحبه المدل بحسن نيته والذي أتمناه أيها المولى الحبيب محاسن أقف فيه أمامك ثم أبوح بما أضنى جسدى وفتت كبدى ، فان خف ذلك عليك ، ورأيت نشاطا من نفسك إليه ، كنت كمن فك أسيرا وأبرأ عليلا ، رسلك من الخير سبيلا ، يتوعد سلوكها على من كان قبله ويكون بعده ، ثم أضناف إلى ذلك منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر ، فزأيك أيها السيد المعتمد فى الاسعاف قبل أن يبدرنى الموت فيحول بيني وبين ما نزعته إليه النفس ، مواصلا برا إن شاء الله ^(١) .

(١) كان جواب هذه الرسالة الممعة فى الضراعة والتزلف رسالة مثلها فى ذلك وهى « تولى الله تعالى ما جرى به لسانك بالمزيد ، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة ولا حافر تشقيت ، وضمننا وإياك فى أوثق حبال الانس وأؤكد أسباب الآلفة . وقفت على ما خلصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك وانطوى فى ضميرك من

ومما جرت العادة بالاستزارة فيه مجالس الأئمة والمندمة، كما كتب
إسحق بن إبراهيم الموصلي لبعض الكبراء «يومنا يوم لين الحواشي وطىء
النواحي، وسماؤنا قد أقبلت ورعدت بالخير وبرقت، وأنت قطب السرور
ونظام الأمور، فلا تفردنا فنقل ولا تنفرد عنا فنذل». وكما كتب
الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبغ في يوم دجن لم
يمطر «أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر
وبعده كأنه قول كثير عزة:

وإن تهيمى بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكلرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقبل اضمحلت

وما أصبحت أمنيته إلا في لقائك، فليت حجابا هتك بيني وبينك،
ورقعت هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم تتحيفه، وبعثت في
نشاطا حركني للكتابة إليك، فرأيتك في إمطارى سرورا بسار خبرك
إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم، موقفا إن شاء الله^(١). وكتب

الشغف المقلق والهوى المضرع. ولعمري لو كشف لك عن معشار ما اشتمل
عليه مضمير صدرى، لأيقنت أن الذى عندك إذا نسبته إلى ما عندى كالملاشى
الزائل، ولكنك بفضل الانعام سبقتنا إلى كشف ما فى الضمير. وأما طاعتى
لك وزمى إليك، فطاعة العبد المقتنى الطائع لما يحكم به وعليه مولاه وهالكه،
وأنا صار إليك وقت كذا فتأهب لذلك بأجهد طافية وأتم طاقبة وأسعد نجم
جرى بألفة إن شاء الله تعالى»

(١) كانت إجابة ابن وهب له «وصل كتاب الأمير أيده الله وفى طاعم
ويدي عاملة، ولذا تأخر الجواب قليلا. وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم

الحسن بن سهل أيضا في مثل ذلك إلى صديق « نحن في مأدبة لنا تشرف على روضة تضاحك الشمس حسنا وقد بان السماء تعلها ، فهي مشرقة بمائها حالية بنوارها . فرأيك فينا لذكور سواء في استمتاع بعضنا ببعض . » فكان الجواب « هذه صفة لو كانت في أقاصى الاطراف لوجب انتجاعها وحث المطى في ابتغائها ، فكيف في موضع أنت تسكنه ، وتجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك ، وطيب شمائلك وأنا الجواب . » وقد رقت المكاتبات في هذا الباب وما تقدمه حتى أصبحت غزلا منشورا لا يفرقه عن غزل الشعر إلا القافية والوزن كما قرأت فيما مر .

١٠ - شكوى الدهر - كتب الصولي إلى بعض إخوانه « يا أخى أشكو إلى الله وإليك تحامل الأيام على ، وسوء أثر الدهر عندي ، وأنى معلق في حبائل من لا يعرف موضعى ولا يحلو عنده موقعى . أطلب منه الخلاص فيزيدنى كفا ، وأرتجى منه الحق فيزداد به صننا ، فالتواء ثواء مقيم ، والنية نية ظاعن وبزمام الرأى مرتحل . ما أذهب إلى ناحية في الحيلة إلا وجدت من دونها مانعا من العوائق ، وأحمل الذنب على الدهر فأرجع إلى الله بالشكر ، وأسأله جميل العقبي وحسن الصبر . » وكتب ابن العميد في مثل ذلك « إنما أشكو إليك جعلي الله فداك دهرا نخثونا غدورا ، وزمانا خدو طغورا ، لا يمنح ما منح إلا ريثما يتزع ،

وإساءته ، وما استوجب ذنبا يستحق به عتبا . لأنه إذا أشمس حكى حسنك وضيائك ، وإن أمطر حكى جودك وسخاءك ، وإن غام أشبه ظلك وفناءك ، وسؤالى الآن عن نعمة من نعم الله عز وجل ، على أعنى بها آثار الزمان المسمى عندي ، وأنا كما يحب الأمير ، صرف الله الحوادث عنه وعن حظي منه . »

ولا يبقى فيما يهب إلا ريثما يرتجع : يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ويحلو ماؤه
جرعاً ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة وسجية معروفة أن يشفع
ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما ييسطه وشك انقباض . وكنا نلبسه
على ما شرط وإن حاف فيه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونسلم
ونستثم بقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة ألا يجيء محذوره
مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا زاج ، وتعلل بما نختلسه
من غفلاته ونسترقه من ساطاته . وإذا حدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة
وشريعة متبعة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا وقرن بكل خلة
من المكروه خللاً .»

١١ - الموازنة والمناقضة - فأما الموازنة فهي المفاضلة بين شيئين
بذكر محاسن كل ومقابحه أو منفعه ومضاره ، وقد راجت سوقها حتى
ألفت فيها كتب في العشرين الثالث والرابع كما سيأتي في تدوين الأدب
بعد . وأما المناقضة ، فهي أن يعمد الكاتب إلى الشيء يكون ذا فضل
على غيره فيسلبه ماله من فضل ، ويثبت لهذا المفضول ما يجعله فاضلاً ، كما
فعل سهل بن هرون في تفضيل الزجاج على الذهب من رسالة يقول فيها .
« الزجاج مجلو نوري والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن
منه في كل معدن ، ولا يفقد معه وجه النديم ولا يشغل اليد ولا يرتفع في
السوم . واسم الذهب يتطير منه : ومن لؤمه سرعته إلى اللثام ، وهو فاتن
فأذك لمن صانه . وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال
الاحمران ، والزجاج لا يحتمل الوضوء ولا يداخله الغمر ، ومتى غسل بالماء
وحده عاد جديداً ، وهو أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبة وصناعته أعجب »

١٢ - التفكه والتندر - كما كتب الجاحظ إلى صديق له يوصيه
 برجل لا يعرفه يقول « هذا كتابي مع من لا أعرفه وقد كلنى فيه من
 لا أوجب حرمة، فان قضيت حاجته لم أحرك، وإن رددته لم أذمك ». .
 وكما كتب أبو هرون العبدى إلى السيدة زبيدة وقد هلك لها قرد
 مستأنس « أيتها السيدة الخطيرة إن موقع الخطب بذهاب الصغير
 المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح . ومن جهل قدر التعزية عن
 التافه الخفى، عمن عن التهنئة بالجليل السننى . فلا نقضك الله الزائد فى سرورك
 ولا حرمك أجزر الذهاب من صغيرك » . وكتب البديع الى رجل ألح
 عليه فى طلب العطاء وقال له « لم لاتديم الجود بالذهب كتهديمه بالأدب » .
 « طافك الله ، مثل الانسان فى الاحسان كمثل الأشجار فى الثمار، سبيله
 إذا أتى بالحسنة أن يرفه إلى السنه ، وأنا لا أملك عضوين من جسدى
 وهما فؤادى ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالفؤود، وأما اليد فتوَلع بالجود ،
 لكن هذا الخلق النفيس ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم
 ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الذهب والأدب فلم جمعت بينهما ؟
 والأدب لا يمكن ثرده فى قصعة، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، ولى من
 الأدب نادرة . جهدت فى هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ لى من جميعية
 السماخ لو نأ فلم يفعل، وبالقصا ب أن يبتاع أدب الكاتب فلم يقبل، وأنشدت
 فى الحمام ديوان أبى تمام فلم ينفذ ، ودفعت إلى الحمام مقطعات اللحم^(١)
 فلم يأخذ ، واحتيج فى البيت إلى شىء من الزيت فأنشدت من شعر الكميت
 ألفى ومائتى يدت فلم تغن، ولو وقعت أرجوزة العجاج فى توابل السكباج^(٢)

ما عديمتها عندي ، ولـكنها ليست تقع فما أصنع . فان كنت
تـحسب اختلافك إلى إفضالا علي ، فراحتي في ألا تطرق راحتي ،
وفرجي في ألا تجي . ولعل من هذه الناحية ما يكتب به في
المواطن التي لا تحسن فيها الكتابة كما فعل ابن العميد إذ كتب إلى
شخص تزوجت أمه يقول : « الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة
وهذا لنا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من
عضل الامهات كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية عن
الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرض للجزيل من الأجر من استسلم لواقع
قضائه ، وعوض جزيل الثواب والذخر من صبر على نازل بلوائه ، وهناك
الله الذي شرح للتقوى صدرك ووسع في البلوى صبرك ، ما ألهمك من
التسليم لمشيئته والرضا بقضيته ، وما وفقك له من قضاء الواجب في
أحد أبويك وفي عظم حقه عليك . وجعل الله تعالى جده ، ما تجرعه
من أنف وكظمته من أسف ، معدودا فيما يعظم عليه أجرك ويجزل به
ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعلها . المنتظر من ارتماضك لدفنها ،
فتستوفي بها المصيبة وتستكمل عنها المثوبة ، ووصل الله سيدي من الصبر
على عروسها ، بما يستكسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من أسرة
فرشها أعواد نعشها ، وجعل تعالى جده ، ما ينعم به عليه من نعمة ، معرى
من نقمة : وما يوليه بعد قبضها من منحة مبرأ من محنة . فأحكام الله تعالى
جده ، وتقدمت أسماؤه جارية على غير مراد المخلوقين لكنه تعالى يختار لعباده
المتقين ما هو خير لهم في العاجلة ، وأبقى لهم في الآجلة ، اختار الله لك في قبضها
إليه وقدمها عليه ، ما هو أنفع لها وأولى بها وجعل القبر كفوا لها والسلام .

١٣ - الذم والتهمك - وهو باب حافل في الكتابة بكثير من أنواع
الذم حافل الشعر به - كتب أحمد بن يوسف يهجو بني سعيد بن
سلم « لولا أن الله ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن، لنزل فيكم نبي نعمة
وأنزل فيكم قرآن غدر، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوي
السفل، ومساويهم فضائح الأثم، وألسنتهم معقولة بالعي، وأيديهم مغلولة
بالبخل، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طالت حياتهم ولا تبديد مخازبهم وإن بادوا
وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة « أما بعد فاني توصلت
إليك في طلب نائلك بأسباب الامل وذرائع الحمد، فرارا من الفقر ورجاء
للغنى، فازددت بهما بعدا مما إليه تقربت وقرها مما عنه تباعدت. وقد قسمت
اللائمة بيني وبينك لأنني أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعي، وأمرت
باليأس من أهل البخل فسألتهم ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم. »
وكتب ابراهيم بن المهدي « أما بعد فانك لو عرفت فضل الحسن لتجنبيت
شين القبيح. وقد رأيتك وآثر القول عندك ما يضرك، فكنت فيما كان
منك ومنا، كما قال زهير بن أبي سلمى

وذى خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلهم به فهو قائله
عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله
وكتب بشر بن أبي كبار البلوي إلى ابراهيم بن عبد الله الحجي والى صنعاء
لهرون الرشيد حين هم بتوليته بعض النواحي فمنعه هشام بن يوسف
الأنباوي « أما بعد فان رأي الأمير أمتع الله به ألا يعلم هشام ما يريد
من صلاتي فعل، فانه لم يردني وآلي قط بخير، ولم يفتح لي إلا مبر باب صلة

فتكون منه خالصة لا يريد بها إلا وجه الله وحده ، ولا يرجو بها إلا ثوابه ؛ إلا عرض هشام من دونها فتعلمها وكرهها ، وأدار القياس عليها وضرب لها الأمثال ، وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمها بالله إنى لكما لمن الناصحين ، ومدحني بما لم يسمع به من أخلاقى ، وانتقصني فيما لا يطمع بغيره منى ، ليكون ما أظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة ، ثم زخرف ذلك بالموعظة ، وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودة وأغراه من ناحية الشفقة ، وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فاذا الحـاجب يزلقني ببصره ، وإذا الكاتب يسلقني بلسانه ، وإذا الخادم يعرض عني بجانبه ، وإذا الوالى ينظرني نظر المغشى عليه من الموت . فصارت وجوه النفع مردودة وأبواب الطمع مسدودة ، وأصبح الخير الذى كنت أرجوه هشيما تذروه الرياح والهـالة التى كنت أشرفت عليها صعيدا زلقا وأصبح ماؤها غورا فلن أستطيع له طالبا ، فأسأل الله الذى جعل لكل نبي عدوا من المجرمين أن يكفيى شره ويصرف عني كيده فإنه يرانى هو وقبيله من حيث لا أراهم والسلام »

١٤ - الوصف - وكما أن هذا الباب جاء فى الشعر أحفل أبوابه كذلك جاء فى الكتابة ، وقد تقدم منه ووصف ابن المقفع لكتاب كيلة ودمنة ، ووصف الجاحظ للكتب ووصفه للضحك ، ووصف الصاحب لصحف ، قرآنا وخطا . وهناك منه بعضا منوطا - كتب عبد الله بن طاهر وهو بخراسان إلى اسحق بن ابراهيم ببغداد يسأله أن يوجه اليه بأقلام : « أما بعد فأنا على طول الممارسة لهذه الصنعة التى غلبت على الاسم

ولزمت لزوم الرسم. فحلت محل الأناساب وجرت مجرى الألقاب، وجدنا
 الأقلام القصصية أسرع في الكواء وأمر في الجلود، كما أن البحرية منها
 أملس في القراطيس وألين في المعاطف، وأكل عن تمزيقها والتعاق بما
 ينبو عن شظاياها، ونحن في بلاد قليلة القصب ردىء ما يوجد بها منه،
 فأحببت أن تتقدم باختيار أقلام قصصية، وتتأق في انتقائها قبلك، وطلبها
 في منابتها من بشطوط الأنهار وأرجاء الكروم، وأن تقيم باختيارك
 منها، الشديدة المحس، الصلبة المعض، الغليظة الشحوم، المكتنزة الجوانب
 الضيقة الأجواف الرزينة الوزن، فإنها أبقى في الكتابة وأبعد من الحفاء،
 وأن تقصد بانتقائك منها الرقاق القصبان، اللطاف المنظر المقومات الأود،
 اللبس العقد، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمت وضم، الصافية القشور
 الخفية الأبر، الحسنة الاستدارة الطويلة الأنايب البعيدة ما بين الكعوب
 الكريمة الجواهر المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهتز من أعاليها لا سبتواء
 أصولها برءوسها، المستكملة يابس القائمة على سوقها. قد تشرب الماء في
 لحائها، وانتهت في النضج منتهاها، لم تعجل عن تمام مصلحتها وإبان
 ينعمها، ولم تؤخر في الأيام المخوفة طاهاتها من خصر الشتاء وعفن الندى.
 فإذا استجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعا ذراعا رقيقا تتحرز
 معه أن تتشعب رءوسها وتتشق أطرافها. ثم عبأت منها حزما فيما
 يصونها من الأوعية وعليها الخيوط الوثيقة ووجهتها مع من تحتاطه في
 حراستها وحفظها وإيصالها إذ كان مثلها يتوانى فيها لقلّة خطرها عند
 من لا يعرف فضل جوهرها. « وكتب الخوارزمي يصف رمد الأضباب:
 « صادف ورود الكتاب رمد في عيني حصرني في الظلمة، وعبسني في

الغم والنقمة ، وتركى أدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني ، كليل سلاح
البصر: قسير خطوط النظر ، قد ثكأت مصباح وجهي وعلمت بعضي
الذي هو أثر عندي من كلى ، فالأبيض عندي أسود والقريب مني مبعده ،
قد خاط الوجع أجفاني ، وقبض عن التصرف بناني ، ففراغى شغل ونهاري
ليل وطوال الحاظى قصار ، وأنا ضريرو إن عدت في البصراء ، وأمى وإن
كنت في جملة الكتاب والقراء ، قصرت العلة خطوة قلبي وبناني ، وقامت
بين يدي ولساني . - وكتب القاضى الفاضل يصف حمام الرسائل -
تحمل من البطائق أجنحة ، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة . وتحمل
من الأخبار ما تحمله الضمائر ، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر ،
تكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوطا ، وتركب الجو بحرا بصفق
فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا ، ومن بلاغات البطائق استفادت ماهي
مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهي إليها دائمة
الرجع ، وقد سكنت النجوم فهي أنجم وأعدت في كنفاتها فهي أسهم ،
وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرقاع فصارت أولى
أجنحة متنى وثلاث ورباع ، وقد باعد الله ما بين أسفارها وقربها ، وجعلها
طيف خيال اليقظة الذى صدق العين وما كذبها ، ترغم أنف النوى
بتقريب العمود ، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود ، وهي
أنبياء الطيور لكثرة ما تأتي به من الأنباء ، وخطباؤها لأنها تقوم على
منابر الأغصان مقام الخطباء . - وكتب الموصلى يصف روضة -
« جنة علمت أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء ، وهي
ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ،

ففيها الشمس الذي يسبق غيره بقدمه ، ويقذف أيدي الجانبين بنجومه ،
 فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ، ولو نظم في جيد الحسنة لا شتبه بقلادة
 من نضار ، وله زمن الربيع الذي هو أعدل الأزمان ، وقد شبه بسن الصبا
 في الاسنان . وفيها التفاح الذي رق جلده وعظام قدمه وتورد دمه وطابت
 أنفاسه فلا بان الوادي ولا رنده ، وإذا نظر إليه وجد منه حظ النعم
 والنظر ، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر .
 وفيها العنب الذي هو أكرم الثمار طينة ، وأكثرها ألوان زينة وأول
 غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة ، يميل
 بكف قاطفه ، ويغري بالوصف لسان واصفه . وفيها الرمان الذي هو
 طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب . ومن فضله أنه لا نوى له
 فيرمى نواه ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواء ، وفيها التين
 الذي أقسم الله به تنويرها بذكره ، واستتر آدم عاينه السلام بورقه إذ
 كشفت المعصية من ستره ، وخص بطول الأعناق فما يرى بها من ميل
 فهو نشوة من سكره ، وقد وصف بأنه راق طعام ونعم جسم ، وقيل هذا
 إنله مليء شهيدا لا إناء مليء علما . وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه
 وشكاه ويشغل بلذة منظره عن لذة أكله وهو الذي فضل ذوات الافنان
 يعرجونه ، ولا تماثل بينه وبين الحلواء « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق
 الذين من دونه » وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكما معدود
 من أوساطها لا من أطرافها ولقد دخلتها فاستهوتني حسدا ولم ألم
 صاحبها على قوله « لن تبديد هذه أبدا » . هذا وقد ضربوا بالوصف في ناحية
 المعني كما ضربوا في ناحية الحس ، كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة

القاضي يطلب إليه رجلاً يستعين به في أموره: «أما بعد فاني احتجت لبعض أسورى إلى رجل جامع لخصال الخير، ذى عفة ونزاهة طعمه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بطعون في حسبه إن أوّمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه له سن مع أدب ولسان، تقعه الرزاة ويسكنه الحلم، قد فر عن ذكاء وفطنة، وعرض على قارحة من البكال، تكفيه اللحظة وترشده السكينة. وقد أبصر خدمة الملوك وأحكمتها، وقام في أمورهم فحمد فيها، له أناة الوزراء وصولة الأمراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لاثمة وأمارات العلم له شاهدة، مضطلع بما استنمض مستقل بما حمل، وقد آثرتك بطلبه وحبوتك بارتياحه، ثقة بفضل اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك»^(١)

١٥ - البيعة بالخلافة: ولاية العهد، والعهود، والمنشورات وكل ذلك كان يكتب بالاسهاب والأطناب. فالبيعة كان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة وما يجب للأمة على الخليفة وكانت تملأ بالآيمان المخرجة على الوفاء لما فيها والاخلاص في الطاعة لصاحبها. وكذلك كانت الصفة في ولاية العهد. وكلتاها كانت تتلى على الناس ويشهد عليها أولو الحل والعقد،

(١) كان جواب ابن سماعه أن كتب إليه «إني عازم أن أرغب إلى الله

عز وجل حولا كاملا في ارتياد مثل هذه الصفة، وأفرق الرسل والثقات في الآفاق لالتماسه، وأرجو أن يمن الله بالإجابة فافوز لديك بقضاء حاجتك والسلام»

ثم تسجل في الديوان لتكون حجة على الخارجين والمدعين. ولقد غالوا في التشديد فيهما لما بدا على الناس من النكث والغدر فضمنوها أيمان الطلاق حتى من الزوجات المستقبلة وإعتاق الرقيق كذلك ، وعلقوها على الكعبة تحت نظر سدناتها مبالغة في الحرمة والاشهار، ومع هذا كله كان يوجد الحنث بها في كثير من الأحيان

والعهود كانت تختلف باختلاف عمل المعهود إليه. ففي العهد بالامارة كانت تفصل الصفات اللازمة للولاية من حزم وعدل ونزاهة واستمسك بالدين ورعاية للصالح العام ، وتذكر البلاد التي تتناولها الولاية ثم يختم بتوثيق العهود على المولى " أن يخلص فيما ولى وأن يكون عند ظن الخليفة به . وفي العهد بامارة الجيش كانت تعد الصفات الملائمة من شجاعة وحسن كيد وقوة وصرامة ، وتبين ضرورة القوة للمحافظة على الدولة وحماية الثغور ، كما تبين ضرورة المحافظة على الجند مما تسوء عاقبته في أجسامهم وعقائدهم ، ثم يختم بالتوكيد كذلك . وفي العهد بالقضاء كانت توضح الصفات الواجبة في القاضي من علم وأمانة وتقوى ونزاهة ، وتبين الأمور التي يجب أن يعنى بها من توزيع الموارد وحفظ أموال اليتامى وحسن القيام على الأوقاف والحبوس ، كما تطلب إليه الدقة في اختيار كتبه وشهوده ، وفي مناقشة الشهود لاستخلاص الحقيقة ، وفي تجنب الهوى الحائف أو المحابي ، وينتهي بمثل ما انتهى به العهدان السابقان من توكيد . وهكذا كان التنويع في العهود الأخرى من دينوية كالعهد بالخراج والشرطة والأمان ، أو دينية كالعهد بامانة الصلاة وتحصيل الزكاة والقيام على الحاج ، وغير ذلك مما كان في سائر العهود .

أما المنشورات فكانت الوسيلة لإعلان الخطير من الأمور الدينية والسياسية وخاصة أيام الفتن ، بقراءتها على العامة في الولايات ليقفوا على رأى الخلافة فيسيروا كما تريد ، وكانت الوسيلة كذلك في إعلان الابتهاج بما يسر من فتح وانتصار ، وتهوين ما يسوء من هزيمة وانكسار.

وأمثلة هذه الأنواع الأربعة مستفيضة في كتب التاريخ لاتصالها بسياسة الدولة ، وفي كتب الأدب لرسوخها في بلاغة الاطناب ، وليس يتسع المقام للآتيان بنماذج منها لاسهابها فليرجع إليها فيما ذكرنا .

١٦ - وأخيرا استخدمت الكتابة في إنشاء الرسائل المطولة لغير الإخوانيات ، كالسياسة والاخلاق والعلم والاجتماع ، وما إلى ذلك مما لم يكن للناس عهد بالكتابة فيه ، ومما يشبهه في زماننا الحاضر ، ما نقرؤه لولاة الأمور وكبار الكتاب في خطيرات المسائل بالصحف والمجلات . وليس من شك وقد نشأ ذلك أول ما نشأ في العصر العباسي على يد ابن المقفع وبأنشائه ، أنه قد سرى إليه مما قرأ في لغة فارس منه ، فعمكس صورته على لغة العرب في كثير مما أنشأ ، وقد سبق التعريف في منشأته بالدرة اليتيمة ورسالة الصحابة وهما في السياسة ، وبالأدب الصغير وهو في الأخلاق ، وبالأدب الكبير وهو فيهما معا ، واختيرت نماذج منها جميعا . ثم جاء بعده الجاحظ فأكثر من هذه الرسائل فيما سمينا وفيما لم نسّم من موضوعات ، وقد طبعت له مجموعة تشمل إحدى عشرة رسالة ، أولاها منفصلة الرقم في الحاسد والمحسود وسبق اختيار شيء منها ، والعشر الباقيات متصلات الأرقام وهي على الترتيب ، في مناقب الترك وجامعة

جند الخلافة، وفي نحر السودان على البيضان، وفي التريبع والتدوير، وفي تفضيل النطق على الصمت، وفي مدح التجار وذم عمل السلطان، وفي العشق والنساء، وفي الوكلاء، وفي استنجاز الوعد، وفي بيان مذاهب الشيعة، ثم في طبقات المغنين. ومن الرسائل المطولة الممتعة لغير هذين الامامين الراسمين، الرسالة العذراء لابراهيم بن المدير في صناعة الكتابة، ورسالة سهل بن هرون في مدح البخل، ورسالة الصابون في الصيد، ورسالة البصاحب في الطب، وغيرها مما تفتقت عنه أذهان هؤلاء وأمثالهم من الكتاب العلماء، فكان إيدانا بأقبال القوم على التأليف والتصنيف إذ كان النواة له، وقد أخذ بعض الرسائل اسم الكتاب كالأدين الكبير والصغير لابن المقفع مثلاً، وليس المقام وقد ضاق بنماذج البيعات وأخواتها، بالمتسع لهذه الرسائل التي تفضلها سعة وطولا. وكثير منها مطبوع وحده أو مع أشباهه، وسائرهما معلوم المواطن في الكتب فليزجع إليها حيث هي.

وبعد

فقد بقيت للوفاء بحق العنوان المعقود آنفاً، كلمة في مكانة الكتابنا ومنزلة رجالها نجملها هنا قبل الانتقال الى سائر الأقسام فنقول : أدركت الدولة الأموية - وقد عظمت - نفع الكتابة والحاجة إلى الكتاب، فأنشأت منذ عهد عبد الملك ديوان الأثشاء، وأخذ شأن هذا الديوان يعظم حتى كان القائم عليه يد الخليفة، كما كان من سالم على أيام هشام. ثم ازداد عظمة وسعة على يد عبد الحميد أيام مروان بن محمد، فكان الكتاب من الخلفاء كما يقول عبد الحميد هذا من وصيته لهم (بكم تنتظم للخلافة

محاسنها وثبتت أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق ساطعهم ، وتعمر
بلدانهم ، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم . فوقعكم من الملوك
موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم
التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون . « غير أن تلك الدولة قد
دالت ولم يتجاوز صاحب الانشاء لقب الكاتب إلى غيره . فلما جاءت
الدولة العباسية واستقامت الأمور لآل العباس السفاح لقب كاتبه
أبا مسلمة الخلال حفص بن سليمان مولى أخواله بنى الخارث بن كعب ،
بلقب الوزارة ، فكان أول وزير في الاسلام ، وثبت بذلك هذا اللقب
لـكل من ولي أمر الكتابة بعده من الكتاب ، فعظم شأنهم ، وامتد
نفوذهم ، وبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ في يحيى بن خالد وزير الرشيد ، لأنه
صاحب اليد عليه في بقاء العهد له ، ولأنه كان خاصته وملازمه قبل
خلافته ، ولأنه كان بمنزلة والده إذا ارتضع لبن وزوجه على ابنه الفضل ،
ولهذا قلده الوزارة تقليد تفويض ، ثم كان كذلك وأكثر منه مع ابنه جعفر .
فأصبح ديوان الانشاء بهذه السنة التي استمرت مرعية يتولاها وزير بنفسه
أو بكتاب يندبه هو ليصرفه بأمره . ومن هنا وصل الكتاب إلى أرفع
ال منازل بعد الخلافة ، وألقيت اليهم الأمانة في سياسة الدولة ، وأحس
الخلفاء بشدة الحاجة اليهم ، فاعتصموا بهم في النوازل وتركوا يتصرفون
عنهم في الوعد والوعيد والنقض والابرام ، ونظر الناس إلى هذه المكانة
نظرة التقديس والاحلال ، فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول :
ولي فقر تضجى الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينتنى وأجعلها سوط الحرون فيعنى

إذا حاولت اطفأ فناء مروق وإن حاولت عنفا فنار تألق
وصار الكتاب يسمعون من الناس من ينشد :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا مالا ينال بحمد المشرفيات
ونشأ من ذلك ما نشأ من مزاحمة القلم السيف في تصريف الشئون
وحسم الامور ، فوجدت المفاخرات التي شبت بينهما نظما ونثرا .
قال علي بن العباس النوبختي مفضلا القلم :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأئمم
فالموت والموت لا شيء يغالبه مازال يتبع ما يجرى به القلم
بذا قضى الله للأقلام مذبريت ان السيوف لها منذ أرهفت خدم
وقال أبو تمام مفضلا السيف :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
وفاخر صاحب سيف صاحب قلم فقال صاحب القلم : أنا قتل بلا غرر
وأنت تقتل على خطر ، فقال صاحب السيف : القلم خادم السيف إن تم
مراده والا فالى السيف معاده .

لهذا غنى الخلفاء وذوو الأئمر باختيار الكتاب ممن عرفوا برجاحة
العقل وغزارة الأدب حتى يكونوا أهلا لما يلقى عليهم من أعباء الملك
وسياسة الدولة غير ناظرين إلى شرف من يختارون في اختياره لا كتابة
كل التشريف إذا كان ممن أخطأه شرف الأصول ؛ وفي الكتابة تسويد
له إذا لم يكن من المسودين . هذا ابن الزيات سمى به الكتابة إلى منازل

الأشراف وقد كان كأبيه تاجر زيت . وكان بذلك جد فخور . قال له العلاء بن أيوب يوما وهو يناظره « ليس هذا كيل الزيت ولا عد الجوز » فقال له « أبا التجارة تعيرني وقد كنت تاجرا ومتأخرا فقد منى الله بالادب ، وأصارني بعد التجارة إلى الوزارة ، ليس المعيب من كان خسيسا فارتفع ، وإنما هو من كان شريفا فأتضع » . وهو لاء آل سهل كانوا ضبنا وتجارا فيهم صانع الخمر وبائعها فارتقت بهم الكتابة إلى الوزارة ، وصاهر المأمون الحسن منهم في ابنته بوران . ولما كتب إلى المأمون بعد زفافها إليه يقول « قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده في قبول أمته شيئا لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة الممن منه أدام الله عزه في إخراج توقيعه بتزيين حالي في العامة والخاصة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله » خرج توقيع المأمون « الحسن بن سهل زمام على ما جمع أمور الخاصة وكنف أسباب العامة ، وأحاط بالنفقات ونفذ بالولايات ، وإليه الخراج والبريد واختيار القضاة ، جزاء بمعرفته بالخال التي قربته منا وإثابة لشكره إيانا على ما أولينا » . وهذا الصابي على صابئته تولى ديوان الرسائل خلفاء بني العباس وملوك بني بويه ، وحين مات رثاه الشريف الرضي ، ولما لامه بعض الناس على رثائه صابئيا كان جوابه « إنما رثيت فضله » وغيرهم كثير فأغلب الكتاب سادوا بالكتابة عن ضعة وخنول .

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر في الأدب والتفقه في كل ما يتصل به من علم ، حتى يكونوا كفاة لما يندبون له ، وحتى يقعوا من الخلفاء والملوك الموقع المرضي عنه وبخاصة إذا كان أولئك ممن يعرفون القول وينقدونه ،

ويؤثرون الفاضل ويرفعونه، كما عنوا أن يجمعوا إلى دماثة الخلق وكرم
السجايا رقة الطباع ولطف الخدمة، حتى ضربت الأمثال بجمال خلقهم
وكمال علمهم. قال بعض آل المهلب لبنيه «تزيوا بزي الكتاب فانهم جمعوا
أدب الملوك وتواضع السوق» وقال الشاعر يصف رقة الخمر بأنها من
رقة الكتاب :-

وشمول كأنما اعتصروها من معاني شمائل الكتاب
وغير هذين في الناحية الخلقية كثير. أما الناحية العلمية فجماع ما قيل
عنها فيهم قول الجاحظ « طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته
لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى الألفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ،
فمطفت على أبي عبيدة ، فرأيت أنه لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق
بالأيام ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب
ومحمد بن عبد الملك وغيرهما ».

هذا وإنه لما يرينا اتساع أفق الثقافة أمام من يهيء نفسه للكتابة
منذ أوائل العصر العباسي قصيدة أبان بن عبد الحميد اللاحق التي قدمها
إلى يحيى البرمكي ، رغبة في الاتصال بخدمته في هذه الصناعة ، وانا لخاتمون
بها هذا الموضوع لما لها من الجدوى فيه قال :

أنا من بغية الأمير وكنت من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريشة مما يكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة واتقاد أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلم بقول منور الإفصاح

وظريف الحديث في كل فن وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندي حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلي تخلو الملوك وتلهو وتناجى في المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على أنني ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الماجن الخليع الوقاح
لو رمى بي الأمير أصلحه الله رماحا ثامت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدي ذي السماح
لست بالضخم يأمرى ولا القزم م ولا بالجحدر الدحاح^(١)
لحية جمدة ووجه صبيح واتقاد كشعلة المصباح
إن دعاني الأمير حان منى شمريا كالبلبل الصداح

٢ - التوقيعات

استعملت العرب قبل الاسلام كلمة التوقيع - ما أخذت منه
وما أخذ منها - في معان كثيرة . فقالت وقع الصيقل السيف إذا أقبل
عليه بميقته أي مطرفته يجلوه ويحدده ليكون ماضيا نافذا . وقالت
وقع القتب ظهر الراحلة إذا أثر فيه تأثيرا خفيفا ، فإذا ترك ذلك التأثير
دبرة أي فرحة ، ثم برئت وبقيت بموضعها شامة بيضاء ، قالت ظهر موقع
تريد أن به بقعة صغيرة ذات لون يخالف سائر اللون ، ومن ذلك وقع
المطر الأرض إذا أصاب منها بعضا وترك بعضا يخالف بين ألوانها .

(١) الجحدر العظيم البطن ، والدحاح البطيء الخطو

وقالت وقعت الدواب ربضت، ووقعت الابل بركت، أى اطمأنت إلى الارض بعد الشبع والرى . وقالت وقع السارون إذا عرسوا أى نزلوا آخر الليل. ولعل هذا من موقعة الطائر وهى الموقع الذى يعتاد نزوله. غير أن هذا مكان وذاك زمان . وقالت وقع الراعى إذا رمى من قريب فلم يخطئ، تريد أنه أصاب من أقرب الطرق . وقالت وقع فلان ظنه على الشئ إذا قدره وأنزله موضعه . كما قالت وقع الامر إذا لزم وحق، ومنه قوله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا » . فهذه معان سبعة مما عرفت العرب للتوقيع وليس منها ما نطالقه عليه الآن من الامضاء .

ولما جاء الاسلام وأسس ملكا عظمت دولته على أيام عمر بن الخطاب، رأينا رحمه الله يستعمل التوقيع فيما يكتب به على حواشى الرقاع المرفوعة اليه لبيان وجه الفصل فيها، وهذا معنى جديد، ولكنه يمت إلى المعانى السابقة بالذات . فهو يجلو اللبس فى القصة ويمضيها، وهو وجيز اللفظ ومخالف اللون بالنسبة للفظها ولون مدادها، وهو يجعل صاحب الأمر يطمئن فى تعريف ما رفع اليه، وهو يتحرى فى إثباته آخر الوقعة وموقعا معيننا من حاشيتها، وهو يفصل فى الأمر من أقرب طرقه، وهو نتيجة تقدير وتفكير، ثم هو يحق نفاذه ويلزم .

فتوقيعات عمر رضى الله عنه هى أول توقيع فى الاسلام وهذا بعض منها . كتب اليه سعد بن أبى وقاص حمله على العراق يستأذنه فى بناء دار، فوقع فى أسفل الكتاب « ابن ما يكتك من المواجه وأذى المطر » ووقع لعمر بن العاص حمله على مصر فى كتاب « كن لرعيك كما تحب أن يكون لك أميرك » . وقد اقتدى به فى ذلك الخليفةان بعده،

وقع عثمان رحمه الله في شكاة قوم من طامله مروان بن الحكم « فان
عصوك فقل إني برىء مما تعملون » ووقع في قصة رجل شكا اليه فقرا
« قد أمرنا لك بما يقيمك وليس في مال الله فضل للسرف » . ووقع
على كرم الله وجهه في كتاب لابنه الحسن « رأى الشيخ خير من جلد
الغلام » ووقع في كتاب لسلمان الفارسي يسأله فيه كيف يحاسب الناس
يوم القيامة « يحاسبون كما برزقون »

وجاءت الدولة الأموية فزاول خلفاؤها التوقيع بأنفسهم كما كان
يفعل عمر وتابعاه وهذا بعضها . وقع معاوية لزياد وقد كتب يخبره أن
عبد الله بن العباس يطعن في خلافته « إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا في
الجاهلية في مسالاة واحد، وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » وكتب اليه
عبد الله بن طامر يعاتبه فوق « بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت
حييب في الاسلام وأنت تراه » وكتب اليه يسأله أن يقطعه مالا في
الطائف فوق « عش رجبا تر عجبا » وكتب اليه ربيعة بن عسل
اليربوعي يسأله أن يعينه باثني عشر ألف جذع في بناء داره بالبصرة
فوق « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك » . ووقع يزيد ابنه إلى
عبد الرحمن بن زياد طاماه على خراسان « القرابة واشجة والأفعال
متباينة، نخذ لرحمك من فعلك » ووقع عبد الملك للحجاج وقد كتب
يخبره بسوء طاعة أهل العراق، ويستأذنه في قتل أشرافهم « إن من
يمن السائس أن يتألف به المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون »
ووقع في ذيل كتاب من ابن الأشعث وهو ثائر عليه بهذا البيت :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا فينوي من سفاهته كسرى

ووقع الوليد ابنه للحجاج وقد كتب اليه يسأله الاقتصاد « لا تجمع المال جمع من يعيش أبدا ، ولا تفرقه تفريق من يموت غدا » ووقع لعمر بن عبد العزيز « قد رأب الله بك الداء وأوذم بك السقاء » ووقع سليمان بن عبد الملك وقد كتب اليه قتيبة بن مسلم يهدده « وإن تصبروا وتتنقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ووقع له وقد هده بالخلع :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع
وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كثير التوقيعات . كتب اليه صاحب العراق يخبره بسوء طاعة أهله فوقع « ارض لهم ما ترضى لنفسك ، وخذ بحجرائهم بعد ذلك » وكتب اليه عامل الكوفة أنه فعل فى أمر كما فعل عمر بن الخطاب فوقع له « أولئك الذين هدام الله فبهدام اقتده » وكتب اليه عامل يستأذنه فى رم مدينة فوقع له « حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » ووقع لرجل ولاء الصداقات فعدل وكان دميما « ولا أقول للذين تردى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » . ووقع يزيد ابن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل له « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . ووقع هشام أخوه لعامله بالمدينة وقد أخبره بوثوب أبناء الأنصار « احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبهم له » ووقع فى قصة متظلم « أتاك الغوث إن كنت صادقا ، وحل بك النكال إن كنت كاذبا ، فتقدم أو تأخر » ووقع فى قصة رجل شكاه إليه الحاجة وكثرة العيال ، وذكر أن له حرمة « لعيالك فى بيت مال المسلمين سهم ، ولك بحرماتك منا مثلاه » . ووقع يزيد بن الوليد لمروان ابن محمد إذ تلكا فى بيعته « إني أراك تقدم رجلا وتؤخرى أخرى ، فاذا

أناك كتابي فاعتمد على أيهما شئت . ووقع مروان هذا إلى ابن هبيرة أمير خراسان « الامر مضطرب وأنت نائم وأنا ساهر » .

ولقد كان ولاية بني أمية يحاكون خلفاءهم في التوقيع على ما يرفع إليهم من رقاع . وقع زياد بن أبيه في رقعة لمحبوس يرجو الاطلاق لتوبته « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وفي رقعة شاكي حاجة « لك في مال الله نصيب أنت آخذه » وفي رقعة متظلم « الحق يسمعك » وفي رقعة متنصح « مهلا فقد أبلغت أسماعي » وفي رقعة رجل شكى عقوق ولده « ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » . ووقع الحجاج إلى قتيبة بن مسلم وقد أخبره بعزمه على عبور نهر ومحاربة الترك « لا تخاطر بالاسلمين حتى تعرف موضع قدمك ومرمى سهامك » ووقع له أيضا « خذ عسكرك بتلاوة القرآن فانه أمان من حصونك » .

ثم جاءت الدولة العباسية فتولى خلفاؤها وولاتهم أول ما جاءت ، التوقيعات مثل ما كان يلي خلفاء بني أمية وولاتهم . وقع أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه الناس « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، ولجماعة من الأنبار ذكروا أن منازلهم أخذت في بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها « هذا بناء أسس على غير تقوى » وأمر بدفع قيمتها ، ولجماعة من البطانة شكوا احتباس أرزاقهم « من صبر في الشدة شورك في النعمة » ووقع المنصور في رقعة قوم تظلموا من طامهم « لا ينال عهدي الظالمين » ولأهل الكوفة وقد شكوا عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم » ولعامل شكاه رجل « إن آثرت العدل صحبتك السلامة ، وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة ، فأنصف هذا المتظلم من الظلامة » ولعامله بمصر

وقد ذكر له نقصان النيل « طهر عسكريك من الفساد يعطك النيل
القياد » ولعامله على حصص وقد أخطأ كاتبه في كتاب « استبدل بكاتبك
والا استبدل بك » ولعمه عبد الله بن علي « لا تجعل للأيام في وفيك
نصيبا من حوادثها » ولرجل شكاة عيلة (سل الله من رزقه) ولرجل شكاة
دينا « إن كان دينك في مرضاة الله قضاءه » ولآخر قطعت عنه أرزاقه
« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له
من بعده وهو العزيز الحكيم » . ولعامل أرمينية وقد أخبره أن الجند
شغبوا عليه ونهبوا بيت المال « اعتزل عملنا مذمو ما مدحورا فلو عدلت
لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » . ووقع المهدي لعامل أرمينية وقد شكاة
إليه سوء طاعة أهلها أيضا « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
الجاهلين » ولعامل خراسان وقد أخبره بغلاء الأسعار (خذهم بالعدل
في المكيال والميزان) وفي قصة رجل حبس في دم « ولكم في القصاص
حياة يا أولى الألباب » وفي قصة آخر من بطائنه يطلب صلة أبطأت
« ليت إسرأنا إليك يقوم بابطائنا عنك » ولشاعر أسرف في مديحه
« أسرفت في مديحك فقصرنا في حبائك » . ووقع وزيره أبو عبيد الله
لرجل كتب إليه يتعجل استمناحه ويقول - والنفس - ولعه بحب العاجل -
« لكن العقل الذي جعله الله للشهوة زماما وللهوى رباطا ، موكل
بحب الآجل ، مستصغر لكل كثير زائل » . ولآخر مبطل « الحق
يعقب صلحا وظفرا ، والباطل يورث كذبا وندما » .

ولما آلت الخلافة إلى الرشيد وكان ليحيى بن خالد البرمكي عليه
في ذلك الفضل وله حق الأبوّة من قبل ، عنده اليه بما كان لا يتركه الخلفاء

لغير أنفسهم فشاركه في التوقيعات وبذلك تحول التوقيع إلى منصب
 وجدت في الكتابة خطة جديدة يقول في التعريف بها ابن خلدون
 « ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان
 في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه، أحكامها
 والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فاما أن تصدر
 كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب
 القصة » وقد صدر عن الرشيد ويحيى وكان في البلاغة على أرفع ما يكون،
 توقيعات منسوبة إلى الرشيد جاوزت ما كان. وقع لعامله بخراسان
 « داو جرحك لا يتسع » وفي قصة محبوس « من لجأ إلى الله نجى » وفي
 قصة متظلم « لا يجاوز بك العدل ولا يقصر بك دون الانصاف » وفي
 قصة رجل يعرف كفايته تظلم من عامله على الاهواز « قد وليناك
 موضعه فتتكب سيرته » وفي رقعة شيخ سمي اليه بنميمة « السعاية
 قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أردت بها النصيح فخرانك فيها
 أكثر من الربح، وأنا لا أسعى في محظور ولا أسمع قولة مهتوك في مستور،
 ولولا أنك في خفارة شيبك لعاقبتك على جريرتك معاقبة تشبه أفعالك »
 ولما نقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل بن يحيى إلى جعفر
 أخيه وترك له كل شيء يتصرف فيه كما يشاء، تولى جعفر التوقيع بنفسه
 بين يدي الرشيد. فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف
 فيها على أساليب البلاغة وفنونها. حتى قيل إنها كانت تباع كل
 قصة منها بدينار كما قال ابن خلدون. وقع لعامل كثير التظلم منه « قد
 كثير شاكر وكثير شاكر وكثير، فاما عدلات واما عزلات » ولعامل مثله

ظالم « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولي أمرك »
ولعامل آخر « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » ولعامل مصر
فى رجل من بطانته يوصيه به « إنه رغب إلى شعبك فارغب فى اصطناعه »
ولقوم تظلموا « عين الخليفة تكلوكم ونظره يعمكم » وارجل اعتذر
من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت توبتك ولا تغلب سيئة حسنتين »
وفى قصة محبوبس يطلب العفو « العدل أو ثقه والتوبة تطلقه » وفى
قصة متنصح « بعض الصديق قبيح » وفى قصة مستمنح وحله مرارا
« دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » وفى كتاب رجل قرأه فاستحسن
خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منشورها وتفصل فيه شذورها » .
ومن توقيعات أخيه الفضل فى قصة متعدد « بئس الزاد إلى المعاد
التعدي على العباد » . ولكن الرشيد عاد إلى التوقيع بنفسه بعد قتله جعفرا
وحبسه أباه . وقع فى قتل جعفر « أنبتته الطاعة وحصدته المعصية »
ورفع إليه يحيى رقعة من الحبس يستعطفه فيها فوقع عليها « عظيم
ذنبك أمت خواطر العفو عنك » ولما كتب إليه وقد أحس بالموت
يقول — قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل وأنت بالأثر والله الحكيم
العدل ومستقدم فتعلم — وقع على الكتاب « الحكيم الذى رضيته فى
الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك وهو من لا يرد حكمه ولا
يصرف قضاؤه » .

وهكذا كان التوقيع على عهد المأمون ورجاله وبخاصة الفضل
والحسن ابنا سهل . فمن توقيعات المأمون لأخيه فى قصة متظلم منه
« فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وفى

قصة متظلم من عمرو بن مسعدة « يا عمرو عمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » وفي قصة متظلم من حميد الطوسي « يا أبا غانم لا تغتر بموضعك من إمامك فانك وأخس عبيده في الحق سيان » ولما كتب إليه عمه ابراهيم - إن غفرت فبفضلك وإن أخذت فبحقك - كان توقيعه « القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله » . وكتب إليه عامل الرقة يصف خروج الاعراب بسنجار وعيبتهم بها فوقع له :

أسمعت غير كهام السمع والبصر لا يقطع السيف إلا في يد الحذر
ميصبح القوم من سيفي وضاربه مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر
ومن توقيعات الفضل بن سهل لعامل متسرع « إن أسرع النار
التهابا أسرعها خمودا فتأني في أمرك » ولصاحب الشرطة « ترفق توفق »
وإلى رجل شكاه إليه الدين « الدين سوء يهيبض الأعناق وقد أمرنا
بقضائه » وفي رقعة قاتل شهد عليه العدول ولكن شفع فيه « كتاب
الله أحق أن يتبع » وفي قصة متظلم « كفى بالله للمظلوم ناصرا » وفي قصة
قاطعي طريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض
فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو
ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب
عظيم » ووقع الحسن بن سهل في قصة قوم تظلموا من واليهم « الحق
أولى بنا والعدل بغيتنا فان صح ما ادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه » ومدحه
على ابن عبيدة الريماني ووقف ببابه ينتظر عطاءه فطال وقوفه فبعث
إليه رقعة يشكو الأبطاء فوقع عليها « باب السلطان يحتاج إلى ثلاث

خلال : عقل وصبر ومال .

هذه طائفة من التوقيعات منذ أن عرفت على يد عمر بن الخطاب إلى أواخر العصر العباسي الأول تقريبا على عهد المأمون ورجاله. ومنها يرى أن التوقيع مبني على إيداع اللفظ القصير المعنى الكثير ولذلك غلب أن يكون آية قرآنية أو حديثا نبويا أو مثلا سائرا أو حكمة متوارثة، فإن تعدى هذه الأنواع فلا أقل من أن يكون جامعة كلم للموقع أو لغيره ممن سلف . كما لازم العصور التي ساد فيها الإيجاز الاطناب وآخرها العصر العباسي المذكور حيث كانت السليقة العربية متمكنة والبدائة حاضرة فيمن يتولونه وفي كثير ممن كان يكتب به اليهم . قال العلامة ابن خلدون يصف حال صاحبه « واعلم أن صاحب هذه الخطة - يعنى خطة التوقيع - لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وطارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر اليه في الترسييل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » اهـ

وقد بدأ الطول منذ عهد المأمون ووزرائه يظهر في التوقيعات وهذه ظاهرة لم تكن معروفة فيها ولسناتهم هؤلاء بالعجز أن يوجزوا، فاز، لهم في ذلك الآيات البيّنات ولكننا لانخليهم من أن روح العصر المتنقلة حينذاك من الإيجاز إلى الاطناب أخذت تؤثر فيهم من حيث لا يشعرون . رفع الواقدي رقعة إلى المأمون يشكو فيها الدين فوق

عليها (فيك خلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذى أطلق يديك
بما ملكك وأما الحياء فهو الذى حملك على ذكر بعض دينك وقد
أمرنا لك بضعف ما ذكرت فان قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك
على نفسك وإن بلغنا بغيتك فزدنى بسط يدك فان خزاة الله مفتوحة
ويده بالخير منسوطه) . وكتب اليه أحمد بن يوسف يستجدي لطلاب
الصلوات وقد كثروا على بابه فوقع على كتابه (الخير متبع وأبواب
الملوك مغان لطالبي الحاجات ومواطن لهم ولذلك قال الشاعر

يسقط الطير حيث ياتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من بيابنا منهم وبين مراتبهم ليصل إلى كل رجل
قدر استحقاقه ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير
الثواب فقد قال الشاعر :

وإنك لن ترى طردا لحر كالصاق به طوق الهوان

ولم تجلب مودة ذى وفاء بمثل البشر أو بذل اللسان)

وكتب رجل إلى أحمد بن يوسف يستتم الصنيعة عنده فوقع
على كتابه « مستتم الصنيعة ، من عدل زائغها وأقام أودها . صيانة لمعرفه
ونصرة لرأيه ، فان أول المعروف مستخف وآخره مستثقل يكاد أول
الصنيعة يكون للهوى وآخرها للرأى ولذلك قيل تميم الصنيعة أشد من
ابتدائها » . ورفع بعض الولاة إلى الفضل بن سهل رقعة طامل عنده
بسعاية فوقع عليها « نحن نرى قبول السعاية شرا منها ، لأن السعاية
دلالة والقبول إجازة وليس من دل على قبيل وأخبر به كمن قبله وأجازه
فاطرد هذا الساعي عن عملك وأقصه عن بابك فانه لو لم يكن فى سعائته

كاذبا لكان في صدقه لثما آثما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة .
ولما انقضى العصر الأول وفقدت بانقضائه القدرة على الإيجاز ؛
وتولى شئون الدولة في العصر الثاني من لا يفهمون البلاغة من الخدم
الأتراك لم يجهد الكتاب أنفسهم في التوقيعات وإن بقيت خطة
صاحبها ، فأصبحت غير كفيلة وحدها بالافادة كما كانت قبل ، وصارت بمنزلة
ما نعرفه الآن بالتأشيرات من حيث بناء الردود عليها لا إرسالها نفسها
لعدم غنائها في تمام الاستفادة منها ، نعم إن بعضها كان صالحا لذلك في نظر
واضعه وأمام من يبني الرد عليه ، ولكنه ما كان صالحا بحال عند من
يبحث به إليه لتقلص القدرة على فهم بلاغة الإيجاز إذ ذاك كما هي الحال
في الإشارة الآن .

وقد استمر التوقيع في العصر الثالث - على رقى الكتابة فيه -
فاقدا روعة البلاغة بلاغة الإيجاز ، فهيّطت منزلته وتناساه الناس إذ
لم يعودوا يرون عليه ما كانوا يرون قبل من رونق وبهاء ، وبذلك زال
ما كان له من حسن وقع في الصدور ورفعة قدر في النفوس .
على أنه قد وجد من كبار الكتاب في هذا العصر من جهد نفسه في التوقيع
فكان له منه مالا يقل عن توقيعات المتقدمين . ولعل خير هؤلاء الصاحب
ابن عباد وهذا شيء مما خلف فيه . وقع في رقعة استحسناها « أفسح
هذا أم أنتم لا تبصرون » ورفع إليه بعضهم رقعة أعار فيها على بعض مآثوره
من معان وألفاظ فوق عليها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ووقع في كتاب
لبعض مخالفه « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »
وكتب رجل يخبر أن أحد من ينطوى له على غير جميل يدخل داره

في غمار الناس ثم يتنوم لاستراق السمع فوقع إليه « دارنا هذه خان يدخلها من وفي ومن خان » ورفع إليه رجل رقعة بخطب فيها عملاً فوقع عليها « التصرف لا يلتبس بالتكفف ، من احتجنا إليه صرفناه وإلا صرفناه » ووقع إلى أنى محمد الخازن وكان قد انصرف عنه مغاضباً ثم كتب إليه يستأذن معاودا « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » . أما في العصر الرابع فقد توارت التوقعات عن الأنظار لاستيلاء العجبة واستحكامها ، ولم يظهر للقوم فيه من ناحية الإيجاز الكتابي إلا ما خرج بالإيجاز عن وضعه الاصيل إلى الرمز المشير الذي بدأ يظهر من أواخر العصر الثالث قبله . وإليك في هذا مثلين : بعث السلطان محمود الغزنوي في أواخر القرن الرابع وقد استقل بالسلطنة عن بغداد يطلب إلى الخليفة ذكر اسمه في الخطبة ونقش اسمه على النقود ، فامتنع الخليفة فبعث إليه كتاب تهديد جاء فيه « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت » فكان الجواب كتاباً ليس فيه إلا البسملة وبعدها ألف فلام فميم ثم الصلاة على النبي والحمد لله . فلما فتحه تحير هو وأهل مجلسه في فهمها حتى دخل عليه أبو بكر القمستانى من كبار العلماء فسئل فيه فقال : إنكم بعثتم تهديدون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا الكتاب وفيه « ألف ولا ميم » إشارة إلى قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » السورة فارتاع السلطان وعاد مطيعاً . وحدث في أواسط القرن الخامس أن خاف شديد الملك صاحب قلعة شيزر بالقرب من حماة تاج الملوك صاحب حلب فخرج إلى جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس وأقام عنده ، فأراد تاج الملوك أن يختل في

استقدامه ليفتك به، وأوعز إلى كاتبه أبي النصر محمد بن الحسين أن يكتب إليه في ذلك وكان له صديقاً فكتب كما أمر، ولكن حين بلغ قوله « إن شاء الله تعالى » شدد النون وفتحها، فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك استحسنه الحاضرون فقال لهم وكان فطنا « إنى أرى في الكتاب ما لا ترون » وأجابه بكتاب كان من جملة « أنا الخادم المقر بالانعام » غير أنه كسر همزة أنا وشدد نونها، فلما قرأ أبو النصر الكتاب علم أنه فهم ما أراد، إذ كان أبو النصر يقصد بما تقدم قوله تعالى، « إن السلا يأتمرون بك ليقتلوك » وكان سديد الملك يقصد « إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها » .

هذا وإنا قبل الفراغ من الكلام على التوقيعات، لا يسعنا إلا الحكم بأنها أثر من آثار العرب لا محاكاة منقولة عن الفرس كما قد يقال، لأن الإيجاز من مميزات العربية، وسائر الساميات عن الآريات، كما هو ظاهر في أمثال العرب الجاهليين وحكمهم وجوامع كلمهم، ولأن عمر حينما بدأ التوقيع لم تكن الفارسية معروفة في الجزيرة حتى يكون هناك محل للمحاكاة، إنما هي نوع من أنواع التفكير دفع إليه ملك العرب الجديد، في أسلوب من الأساليب القصيرة وسعته لغتهم ذات الإيجاز، فأخذ ينمو شيئاً فشيئاً أيام الدولة الأموية دون أن يكون للفارسية على أيامها انتشار، ثم استبحر الملك أول العهد العباسي وبقيت بلاغة الإيجاز، فكان له ما كان حتى إذا ماضت تقلص مع بقاء الفارسية صارية الجران .

٣- القصص

نشأ الانسان الأول محوطا بالوحوش التى تناصبه العداء صباح مساء، وبنوا ميس الطبيعة التى تنكى به وهو بجهل ما لها من أسرار، فكانت هذه الحرب المشبوبة عليه من الجانبين حافزة خياله أن يتصور الخوف فى كل شىء، ولعله أن يفكر بقدر استعدادة إذ ذاك فيما يدفع هذه الغوائل عنه، وقد سبغ به خياله أن يرى وراء هذه الظواهر المجهولة الأسباب قوى خفية يرهب جانبها ويخشى سطوتها، وهذاه عقله أن يتملقها ويتقرب اليها فكان من ذلك الدين الذى يتحقق بين معبود مخوف مرجو، وطابد خائف راج، ولعل مما قوى فى نفسه وجود هذا العالم غير المنظور ما كان يطرقة فى نومه من أحلام يرى فيها من ماتوا أحياء يقولون ويفعلون كما كانوا فى هذا العالم المنظور، وكان من نتائج ذلك أن حاك لنفسه أساطير خرافية تغذى نهمه فى الخوف والرجاء كانت النواة لما جد بعد من قصص وروايات . غير أن هذا التراث القديم لم يجد عوامل النمو فى كل البيئات سواء ، فحيث تكون البلاد كثيرة الجبال والكهوف والأنهار والغابات وضواى الوحوش وجوارح الطيور يعظم الخوف ويقوى التخيل والاختراع ، وحيث تكون منبسطة الأرض مسافرة السماء تقل الرهبة ويضعف الخيال ، وكلما قوى الخوف بالانسان جدى التأليه وأكثر من المعبودات، وعلى العكس إذا ضعف الخوف تبسطت عبادته وقلت آلهته . ومن ثم كانت الحالة الاولى ممثلة قديما فى مثل بلاد اليونان ، وكانت الثانية واضحة فى سكان البوادر كالعرب الجاهليين . وليس يطعن فيما نقول عن العرب الآن ما كان لديهم من تعدد الديانات

لأننا نعني بالتعدد أن يكون في معتقدات الشخص الواحد كما هي الحال في الأمة التي ذكرنا، لا أن يكون في مجموع أمة تقف كل طائفة منها عند عبادة واحدة كما كانت العرب في القديم .

ذكرنا ذلك لنخرج منه إلى أن الأمم كانت إزاء القصص مختلفة الدرجة على حسب اختلاف البيئة التي هي الأساس . وإذ كان تنازع البقاء في القديم ممثلاً أولاً بين الإنسان وغير الإنسان، وممثلاً ثانياً في الحروب التي كانت لا ينقطع لها مدد بين الجماعات، فقد وقعت الأساطير الخرافية على ذلك التنازع، وجاءت القصص القديمة في تلك الحروب يتغنى فيها المنتصر بأبطال الانتصار، ويتخيل فيها المهزم بطلا منتظراً يكون على يديه الخلاص . وأعقب ذلك وجود أناس من القصاصين يرتقون بالقصص على حساب الطبقات . فعند الخاصة يفيض القاص في نبل الأمراء ومالهم على العامة من سطوة وإفضال، ولدى العامة يسخر من الأمراء ويذكر ما يشينهم من فسائح ومخاز . ولم يكن أولئك القصاصون بالواقفين عند الحقائق التي كانت تبني القصة عليها أول وضعها، بل كانوا يعطون لأنفسهم حق الزيادة فيها والتهويل بها وإضافة حقائق أخرى إليها، وقد ساعدتهم على هذا الوضع والاختلاق في القصص الموضعية بعد الهوة بين طبقتي الأمة إلى ما يشبه الانعزال، وفي غير الموضعية انقطاع الصلات بين بعض الأمم وبعض انقطاعاً أوجده اكتفاء كل أمة ببلادها وأحكامه سوء حال المواصلات وقلة وسائل الانتقال . فكثرت بذلك القصص على أيدي هؤلاء القصاصين حتى صار لكل أمة مستعدة لها تراث منها عظيم، وبخاصة وقائع الملاحم المنشأة في الحروب، وسير

الأبطال ممزوجة بذكر الآلهة المساعدين إذ كان تمجيد الأبطال واستنجاد الآلهة أمرين جوهرين في القصص القديم^(١).

جاء الإسلام والعرب خلو من القصص للأسباب التي ذكرنا، ومع احتكاكهم بالأمم منذ الصدر الأول، واطراد هذا الاحتكاك في العهد الأموي، استمروا بسيدن عن أن يكون لهم قصص في العصرين المذكورين على النهج الذي أوضحناه لأسباب زائدة على خلو قديمهم من الأساطير أهمها عدم عنايتهم بأداب غيرهم اعتقاداً منهم أن أدبهم لا يعلوه أدب وأنهم وصلوا في الناحية الأدبية إلى القمة؛ وأن الأمم الأخرى في الخضيض. على أن امتلاء القصص القديمة لغيرهم بتعدد الآلهة قد يكون من أسباب انصرافهم عنها لمنافاتها الإسلام، وبذلك انسلخ هذان العهدان بعد العهد الجاهلي، وتدوين القصة عندهم في حكم المعدوم على ماله عند بعض الأمم من شأن عظيم.

غير أن دخول كثير من الفرس الإسلام، وجذقهم العربية والفارسية معا حبب إليهم أول العصر العباسي أن يغذوا العربية عن طريق الترجمة بما يرونه في القصة الفارسية من جمال، وكان أول عهد العرب بالقصص المترجمة كتاب كيلة ودمنة المنقول في القرن الثاني وتلته كتب كثيرة

(١) من أشهر الملاحم القديمة الألياذة والأوديسة لهوميروس شاعر الإغريق، والأنياد لفرجيل شاعر الرومان. فالإلياذة قصة حرب طروادة التي دامت عشرين سنة بينها وبين اليونان. والأوديسة قصة ضلال يوليسيس طريق البحر وهو طائد برجاله من تلك الحروب إلى بلاد اليونان، أما الأنبياد فقد نظمها فرجيل تمجيذاً لامرة أغسطس قيصر أحد أباطرة الرومان.

أشهرها كتاب ألف ليلة وليلة في القرن الثالث . ومنذ تذوقوا جمال هذا الفن نشطوا في وضع القصص بعد نشاطهم في ترجمتها فكانت لهم في كلا النوعين آثار كما سترى في هذا البيان .

١ - القصص المنقولة

عرفت أن أول كتاب عرفته العرب في القصص المنقولة في القرن الثاني كتاب كليلة ودمنة ذو الحكمة الخالدة والشهرة الذائعة^(١)، وهو كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي من البراهمة بالهندية السنسكريتية لدبشايم أحد ملوك الهند بعد عصر الاسكندر، في صورة أقاصيص على السنة الحيوان تتضمن الأدب والحكمة مما يحتاج إليه الملوك في سياساتهم، والناس في معاملاتهم، وذلك في خمسة عشر بابا هي :

(١) باب الأسد والثور، وفيه قصة المتحابين يقطع بينهما الكذب المحتمل، حتي يحملهما على العداوة والبغضاء (٢) باب الفحص عن أمر دمنة، وفيه قصة الواشي الماهر المحتمل وكيف ينتهي أمره إلى وبال (٣) باب الحمامة المطوقة، وفيه قصة إخوان الصفاء كيف يتواصلون ويستمتعون (٤) باب البوم والغربان، وفيه قصة العدو الذي لا ينبغي أن يغتر به، وإن أظهر تضرعا وملقا (٥) باب القرد والغيل^(٢)، وفيه قصة الرجل الذي يطلب الحاجة، فاذا ظفر بها أضاعها (٦) باب الناسك وابن عرس، وفيه قصة الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر

(١) أخذ الكتاب هذا الاسم من اسم أول حيوانين من بنات آوى دار الحديث بينهما في باب الأسد والثور أول أبواب الكتاب وأضخمها .

(٢) الغيل هو السلحفاة الذكر

في العواقب (٧) باب الجرذ والسنور ، وفيه قصة الرجل تكثر أعداؤه فيلتمس النجاة بموالة بعضهم وفي له (٨) باب ابن الملك والطائر فتنة^(١) وفيه قصة أهل التراث الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض (٩) باب الأسد والشغبر^(٢) الناسك، وفيه قصة الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم (١٠) باب إبلاذ وبيلاذ وإيراخت^(٣)، وفيه ذكر الأشياء التي يجب أن يجعلها الملك رأس أمره وملاكه (١١) باب اللبوة والأسوار^(٤) والشغبر، وفيه مثل الرجل يدع ضر غيره ويتعظ بما ينزل به (١٢) باب الناسك والضيف. وفيه مثل الرجل الذي يدع ما يشاكره ويطلب غيره فلا يدركه (١٣) باب السائح والصائغ، وفيه مثل الذي يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه (١٤) باب ابن الملك وأصحابه، وفيه مثل الجاهل يصيب الخير، والعاقل يقع في الضر (١٥) باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين^(٥) وهو باب من يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه .

وبعد نحو ثمانية قرون من وضعه سمع بمكاته كسرى أنو شروان فبعث برزويه رأس أطباء مملكته إلى الهند لترجمته ، فترجمه من خزانة كتبها سرا إلى الفارسية الفهلوية . وطلب إلى الملك أن تكون مكافأته أن يأمر وزيره بزرجمهر بعمل ترجمة له في باب يوضع أول الكتاب قبل باب الأسد والثور فعملها . ثم عملت مقدمة للكتاب بقلم بهنود ابن سحوان في باب ذكر فيه السبب الذي من أجله وضع بيد بالكتاب

(١) اسم بيغاء (٢) ابن آوى (٣) أسماء الوزير فملك فلكة (٤) بكسر

الهمزة وفتحها الجيد الرمي بالهم (٥) الطائر المعروف بأبي قردان .

لدبشليم، وأعقبها بباب ثان ذكر فيه بعثة برزويه إلى بلاد الهند لترجمته. وبعد نحو مائتي سنة من هذه الترجمة نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية وزاد عليه مقدمة بين فيها أغراضه في باب دطاه باب عرض الكتاب وجعله بين ما كتب بزرجمهر وما كتب بهنود، فكانت الأبواب الزائدة على الابواب الهندية أربعة، وبذلك صار الكتاب تسعة عشر بابا، ثم فقد الاصلان الهندي والفارسي ولم يبق غير الاصل العربي الذي طبع مرارا منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن، ومن هذا الاصل نقل إلى معظم اللغات الشرقية والغربية قديما وحديثا^(١) وقد شغل هذا الكتاب مكانة عظيمة في عالم القصص الحيواني، وفتح أمام الكتاب مجالا للخيالات شرقا وغربا، ولذلك غنى الناس به.

(١) ما ذكرناه عن أبواب الكتاب هو الوضع الذي تنطق به النسخة العربية المتداولة في مصر الآن. ويرى فقيد التاريخ والأدب « جورجى زيدان » في كتابه آداب اللغة العربية، أن أبواب الكتاب واحد وعشرون فقد منها اثنان في النسخ المطبوعة عن الترجمة العربية، هما باب ملك الجرذان من وضع الفرس، وباب مالك الحزين والبطّة، من وضع ابن المقفع، كما يرى أن باب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والضيف، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين، وكذا أول البابين المنسوبين إلى بهنود من وضعه كذلك مع باب عرض الكتاب، وعلى رأيه تكون الأبواب الهندية اثني عشر، والفارسية ثلاثة، والعربية ستة، ولكنه لم يذكر مستنده في هذا الخلاف مع اعترافه بفقد الاصلين الهندي والفارسي، كما لم يشر إلى أية نسخة عربية غير المطبوعة يوجد فيها هذان البابان الناقصان.

عناية كبيرة فوق ترجمته إلى أغلب اللغات . فنظمه أبان بن عبد الحميد
اللاحق ليحيى البرمكي وأولاده ، وقيل إن سهل بن نوبخت نظمهم لهم
أيضا ، ونظمه كذلك على بن داود كاتب السيدة زبيدة ، كما نظم بعضه
بشر بن المعتد ، وكل هذه ضاعت ولم يبق منها إلا أبيات منقولة من
نظم أبان ^(١) ثم نظمه أبو يعلى محمد العباسي المنوفي سنة ٥٠٩ المعروف بابن
الهبارية في كتاب سماه نتائج الفطنة في نظم كيلة ودمنة . كما نظم
القاضي الأسعد بن ممتي المصري المتوفى سنة ٦٠٦ لصالح الدين
الأيوبي ، وكلاهما موجود . وقد عورض الكتاب بكتب ألفت على منواله
نظما ونثرا . فمن المنظومة كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية المذكور وقد
رفعه إلى الأمير صدقة بن منصور بن ديس أمير الحلة ^(٢) وكتاب درر

(١) أول هذه المنظومة

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كيلة دمنه
فه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
ومنها في معنى أن الرجل الرشيد إما أن يكون مع الملوك مكرما ، أو مع
الناسك متعبدا ، كالقيل يكون وحشيا أو مركبا للموك

وقيل أيضا إنه قد ينبغي للرجل الفاضل فيما ينبغي
ألا يرى إلا مع الأملاك أو يعبد الله مع الناسك
كالقيل لا يصلح الأمر مكربا للملك أو راعيا مسيئا
(٢) هذا الكتاب أبدع فيه صاحبه اختراع الحكايات والأمثال في أسلوب

رقيق حسن الانسجام وأوله:

الحمد لله الذي حباني بالأصغرين القلب واللسان

الحكم في أمثال الهنود والعجم لعبد المؤمن بن الحسن في القرن السابع.
وثالث لجلال الدين النقاش في القرن التاسع. ومن المنتورة كتاب ثعلما وعفرة
لسهل بن هرون صاحب بيت الحكمة للمأمون^(١). وسلوان المطاع في عدوان
الأتباع لأبي عبد الله محمد القرشي المعروف بابن ظفر في القرن السادس.
وثالث لأحمد بن محمد الحنفي المعروف بابن عربشاه في القرن التاسع.
ومع وجود هذه الكتب الستة مع نظومها الستة التي قلنا بوجود بعضها
إلى الآن مطبوعا أو مخطوطا لم تقو على معارضة الكتاب، فقد صرعا جميعا
كما صرع ترجمة له ثانية من الفارسية كان قد قام بها عبد الله بن هلال
الاهوازي ليحيى بن خالد في خلافة المهدي فبادت مع ما باد .

والكتاب فوق اشتماله على القصص الجميلة المخترعة ذات الخيال
الرائع، وعلى التشبيهات المركبة والاستعارات التمثيلية التي تنسجم معها في
هذا الخيال، قد اشتمل في ثنايا ذلك على أمور عدة زادت من قيمته
ورفعت من شأنه. كاشتماله على الحكم والأمثال في السياسة والاجتماع،
وعلى التحليلات الدقيقة لظواهر النفس من إرادة وتفكير وشعور،
وعلى تصوير النظم في الحكومات المطلقة وتبيين طبائع الاستبداد،
وعلى وصف الطبائع الكثيرة لكثير من البهائم والسباع والطيور

(١) مما نقل عن هذا الكتاب قبل فقده قوله « اجعلوا أداء ما يجب عليكم
من الحقوق مقدما قبل الذي تجودون به من تفضلكم . فان تقديم النافلة مع
الابطاء في أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية، ومضر
بالتدبير ومخل بالاختيار، وليس في دفع تحمده به، عوض من فساد المروءة
ولزوم النقيصة »

والحشرات، وما يتعلق بأحوال معيشتها وحياتها، وكل ذلك في ضروب محكمة من التعبيرات الممتوية شرائط البلاغة فيما يتوخاه. ولولا أن الكتاب مشهور وما فيه من ذلك معروف لضربنا منه لكل تلك الأشياء الكثير من الأمثال. هذا وقد رأيت فيما نقلنا عن ابن المقفع في أسباب وضعه على السنة الحيوان، أنه وضع كذلك ليلائم الأحداث كما يلائم الكبار فظاهرة هو ممتع وقصص لذيذ، وباطنه محكمة مقنعة وعظة بالغة، ولذا نشط له هؤلاء كما نشط له هؤلاء وعمر هذه القرون العديدة مثلاً طاليا وأستاذاً مريباً للشرق والغرب على السواء. وكلما مرت الأيام ازداد جده وزاده الناس إقبالا ومحبة.

أما كتاب ألف ليلة وليلة الذي عرفته العرب عن القصص في القرن الثالث، فهو مجموعة قصص تقع في أربع مجلدات تبلغ صفحاتها نحو ألفي صفحة منها نحو مائة قصة اعتبرت أصولاً ثم وردت في ثناياها مئات القصص على سبيل الاستطراد، وتعزى هذه القصص على ما يزعمون في أصلها إلى قاصة تدعى شهرزاد كانت بنتاً لوزير ملك من ملوك ساسان خاتمه زوجة، فاعتاد أن يقتل كل زوجة بعد الليلة الأولى من دخوله بها، وعز هذا القتل على تلك البنت فطلبت إلى أبيها أن يزوجه منها لتحمله على ترك هذه العادة إبقاء على بنات جنسها ففعل، وفي ليلة بنائه بها بدأت له في قصة جعلت الصباح يدركها قبل تمامها، وقطعت الحديث عند نقطة يشفق السامع إلى ما بعدها. وفي الليلة الثانية استأنفت الحديث ثم قطعت كما قطعت في الليلة الأولى وهكذا حتى أتمت معه ألف ليلة رزق فيها ثلاثة أبناء منها. فاستشفعت إليه في الليلة الأولى

بعد الألف أن يقيمها من أجل أبنائها وأطلعت على ما كانت تبغى من وراء هذه القصص، فأكبر عقلمها وقبل رجاءها وأقام معها في حبور ووافق والمطلع على ما قيل عن هذا الملك بمقدمة الكتاب من أنه كان من ملوك ساسان الذين حكموا جزائر الهند والصين، يدرك حتماً أن هذه القصص كما تتناول قصصاً فارسية تتناول معها قصصاً هندية وأخرى صينية، وأنها وقد وضعت بالفارسية قبل الإسلام لا يمكن عقلاً أن يكون من قصصها الأصلية شيء وقع بعده في جهة ما. ومن ثم يحكم بداهة أن جميع القصص التي تناولت فترة من تاريخ العباسيين ببغداد، وأخرى من تاريخ الفاطميين ومن بعدهم بمصر، دخيلة على الكتاب وموضوعة بمعرفة العرب في هذه العهود. هذا وقد كان الأصل الفارسي يدعى « هزار أفسانه » ومعنى ذلك ألف خرافة، فلما ترجمه العرب في القرن الرابع دعوه ألف ليلة وليلة على ما جاء في سبب وضعه من أن الليالي كانت ألفاً وأن كل ليلة كانت عامرة بخرافة أو أكثر أو جزء من خرافة غير عربية حتماً، وأن العرب حينما زادوا على الكتاب أكثر من نصفه لم يغيروا من وضعه هذا، فأبقوا لياليه كما ذكر عنها ألفاً وجعلوا حكاياتهم المزيدة في ثنايا تلك الليالي. غير أن الفاحص عن الكتاب يجزم حتماً أنهم نقلوا بعض الخرافات من لياليها إلى ليال غيرها، فإن هناك ليالي كاملة تغمرها حكايات لا يعقل أن تكون من وضع الفرس لأنها عربية خالصة، كما لا يتفق أن تكون الليالي المحكي فيها أصلاً أقل من ألف لأن سبب وضع الكتاب ناطق بهذا العدد صريحاً. وقد استمرت هذه الزيادة وهذا التحوير في الكتاب منذ أن ترجم إلى القرن العاشر الهجري

حيث دولة المماليك بمصر، وساعد عليهما عدم حمل الكتاب اسم المترجم من الفارسية ولا أسماء من تعاقبوا عليه بعد .

فالكتاب من حيث مأخذ حكاياته وقصصه يمثل ثلاث نواح مختلفة لأحوال الناس وأمور الاجتماع .

الناحية الأولى فارسية بما فيها من دخیل هندي وصيني، وهي تصور عقليات هذه الأمم الثلاث واتساع الخيال فيها، ولذلك تكثر فيها عجائب الخلق وغرائب الحوادث كالأسماك الكبيرة الحجم المختلفة الأشكال، والأودية المملوءة بالماس، والأفاعى وطير الرخ الذي يشبع فرخه عشرات الناس، وغيرها مما يماثل طبيعة تلك العصور كما يماثل عقائد الفرس والهنود والصين .

والثانية عربية إسلامية تمثل الحياة العربية في بغداد، بعيدة عن ذلك الخيال القديم، وهي تكثر من ذكر الرشيد والبرامكة والجواري والقيان وأحوال الاجتماع إذ ذاك، ويتخلل ذلك قصص لأبطال العرب في الفضائل كالجود والحلم والوفاء، وأخرى ترمى إلى الصبر والتعقل والنظر في العواقب. وكثير من حكايات هذا القسم يطابق الواقع ويتفق وسياق التاريخ .

والثالثة مصرية، إسلامية أو إسرائيلية . فالإسلامية تمثل حياة القاهرة ويعتمد الكاتب فيها على ما تحسه نفسه من أثر الحوادث، وهي على ما فيها أحيانا من إغراب يستهوى القارىء، إليها، بعيدة عن الخيال الصرف الجسم في القصص الفارسية، وبعيدة كذلك عن نيل السعادة بالمصادفة والخط، ولذا يكثر فيها الاعتماد على النفس والاحتراف بالمهن، ثم يغلب عليها عدم الطول مع الامتلاء بأثر المزاج المصبرى من الفكاهة العذبة

والنقد المقبول . والاسرائيلية مثل الاسلامية في مصريتها لأن أغلب كاتبها ممن اعتنقوا الاسلام كما يفهم منها ، ولكنها تمتاز بالنزوع إلى تقديس سليمان وداود ومالا يخالف الاسلام من مجد اليهود وبخاصة ما كان معدن الغريب كأحوال الجن مع سليمان ، وسحر هاروت وماروت ، ونحو ذلك من الاساطير الاسرائيلية المليء بها تاريخ بني اسرائيل . ولهاقين الناحيتين في الكتاب يعتبر من وضع العرب إلى حد ما وأسلوبه في مجموعه مقبول ، غير أنه أكثر قبولاً في القسم الفارسي والعربي لأن اللغة على عهد ترجمة الأول ووضع الثاني في بغداد كان خيراً منها في مصر حيث وضع القسم الأخير ، ولذلك اعتبر كتاب أدب وان كانت النظرة الاولى إليه من ناحية القصص والاساطير ، وقد طبع مراراً ونقل من العربية إلى معظم لغات أوربة وكان له من الفضل على كتابها القصصيين ما للعلم الاستاذ على طلبته الناشئين .

هذا وقد ترجمت العرب من الكتب القصصية عن الفارسية والهندية غير كليله ودمنة وألف ليلة وليلة كثيراً ذكر أسماءها ابن النديم ولكنها ضاعت وما بقي تغير عن أصله حتى تقطعت بينهما الصلات^(١)

ب - القصص الموضوعة

كانت ترجمة ألف ليلة وليلة بعد كليله ودمنة فأتحت أبواب القصص بمعناه الحق أمام القرائح العربية ، فلم تعد ترضى بمالا يتسع فيه الخيال

(١) فما نقل عن الفارسية رستم واسفنديار ، وشهر زاد مع أبرويز ، والسكرمانج في سيرة أنو شروان ، ودارا والصنم الذهب ، وبهرام ورمي .
ومما نقل عن الهندية السندباد الكبير والصغير ، وجوداسف ، وأدب الهند .

كقصص ابن المقفع في كتابه هذا ، ولا بما يضرب إلى السيرة أكثر من القصة كقصص الجاحظ في بعض كتبه وأخصها البخلاء ، وبدأت تشارك الفرس في مثل ما وضعوا بما زادت في ذلك الكتاب ثم طفقت تنشيء على غرارها كتباً في القرنين الثالث والرابع تحدث ابن النديم عنها طويلاً فكان مما قال: «وابتداً أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء ، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسماء العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسماء والخرافات ما تحلى بنفسه ، وكان فاضلاً . فاجتمع له من ذلك أربعائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام محتوى على خمسين ورقة ، ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخى الشافعى . وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسماء والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى ابن داود كاتب زبيدة وغيرهم » اهـ وهذا الكتاب الذى تحدث عنه ابن النديم هنا قد ضاع كما ضاع معظم ما ألف فى القرنين المذكورين من القصص الخرافية والنكت المجونية مما يتحدث عنه أيضاً ^(١) على أن العرب لم يرضوا أن يكونوا فى محاكاتهم للفرس بعبيدين عن تاريخ آبائهم وأجدادهم فتلفتوا اليه يبحثون عن مواطن تصلح لأن يصاغ فيها قصص يكون منهم واليهام فاهتدوا إلى موطنين عظيمين ،

(١) مثل كتاب حوشب الأسدى وكتاب جحا ونوادر أبي ضمضم

ونوادر ابن الموصلى . وقد ضاعت ولم يبق إلا ما نقل عنها وهو قليل .

أحدها حماسى جاهلى، والثانى غرامى إسلامى، فكان لهم فى كليهما على العصر العباسى أثر جليل .

فأما عن الأول، فقد عمدوا إلى بعض أيام العرب فوسعوا أخبارها وبالغوا فيها وضموا إليها كثيرا من مناقب الجاهلية المتعلقة بها كالتأثر والعصبية والجوار والوفاء مسندين تلك الأخبار لتوثيقها إلى مشهورى الرواة كأتى عبدة والأصمعى وغيرهما، ومتناقلين ذلك فيما بينهم تناقل زيادة وتنمية، حتى انتهى إلى أن صار قصصا تلى فى المنازل والأندية للأسمر والتسليية، كما كانت الحال فى القصص القديمة لليونان. غير أن بعض هذه القصص لم يتم نضجها وقليلها جاء كاملا ناضجا .

فمن الأولى، قصة البراق المأخوذة من كتاب لعمر ابن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ سماه الجمهرة، وهو فى أخبار العرب القدماء وبعض أيامهم وأشعارهم وحروبهم، ويوجد مخطوطا بدار الكتب المصرية، وهذه القصة فى حروب وقعت بين ربيعة وغيرهم، والبراق شاعر قديم من أقرباء المهمل وكليب، ذو تاريخ فيه حماسة ونفر، وقد ساق ابن شبة قصته على أنه بطل فى خمس حروب، الأولى بين ربيعة والطائيين أخواله بسبب قتل الحارث بن عباد البكرى للفضيل بن عمران الطائى، والثانية بين ربيعة ومضر لتحامل مضر عليها، والثالثة بين ربيعة والفرس لأسرهم ليلى العفيفة، والرابعة بين ربيعة واليمن لقتل كليب أسيرا كان عنده منهم، والخامسة حرب البسوس المعروفة، وقد استغرقت وحدها أكثر من مائة صفحة .

ومن الثانية، قصة عنتر وهى أكبر القصص الممثلة للحماسة العربية

التي يخالطها الحب والغرام. بل الممثلة لأدب الجاهلية وأخلاق أهلها وعقائدهم وعاداتهم. والواضع لها هو العالم الراوية الشيخ يوسف بن اسماعيل، وكان من المتصلين لفضله بالعزير بالله الفاطمي في القرن الرابع، وحدث أن لهج الناس بريبة في قصر العزيز، فسأه ذلك وطلب إلى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بقصة طريفة تصرفهم عن ريبة القصر وكان واسع الرواية في تاريخ العرب وأيامهم عن أبي عبيدة وابن هشام والأصمعي وغيرهم. وكأنه قد راقه ما كان من قصة البراق في حروب ربيعة أهمها البسوس، فأراد أن يضع قصة لبطل يفوقه هو عنتر في حرب تفوقها لقيس هي حرب داحس والغبراء فأخذ في كتابتها، ولكي يسارع بالهاء الناس بها عن تلك الريبة أخرجهما في أجزاء بلغ عددها ٧٢ جزءاً، وتعهد أن يقطع الكلام في آخر كل جزء فيها قبل نهاية أمر يشتاق السامع إلى تمامه كما كانت تفعل شهرزاد في لياليها، فتمكن بذلك من شغل الناس بها في أسماهم على أيامه، كما اشتغلوا بها من بعده إلى عهد ليس بالبعيد. وبالنظر إلى سعة رواية هذا الرجل قدأودعها من أخبار العرب وأشعارها في النواحي التي ذكرنا ما لم يأت بمجموع في غيرها، فجاءت أحسن القصص العربية الموضوعة وأفيدها وقد طبعت مرارا وعنى الغربيون بنقلها إلى شتى لغاتهم. وهناك قصص غير هاتين^(١).

(١) من القصص الموضوعة في هذا العصر أيضا: قصة بكر وتغلب ابني وائل في أخبار كليب وجساس المنسوبة الرواية إلى محمد بن اسحاق: وقصة شيبان مع كسرى أنو شروان المندوبة إلى بشر بن مروان الاسدي عن ابن نافع التميمي، ولكنهما أقرب إلى التاريخ منهما إلى القصص على العكس من البراق وعنتر فانهما

وأما عن الثاني، فقد عمدوا إلى الهوى العذرى الذى ذاع أمره
 ببوادر الحجاز أيام الامويين. إزاء الهوى الاباحى بمدنه الثلاث - المدينة
 ومكة والطائف - على ما فصّلناه بكتابنا الثانى عن الغزل فى العهد الاموى،
 فرأوا أبطاله يعنون فى العفة وراء إمامهم جميل، كلما آمن رجال الاباحى
 وراء إمامهم عمر فى الجرى وراء النساء، وراعهم ما لا ولئك الأبطال
 من شجاعة فى مقاومة الهوى والتضحية بالنفس على مذبح الحب،
 وشاهدوا فى هذا الميدان ما لم يشاهدوا فى ميدان الحرب، فوضعوا فيه
 قصصاً تمثل طافة الحب فى أروع مظاهره. محب ملك عليه الهوى
 زمام قلبه وأخلص للعفة قبل إخلاصه ليله، وأقيمت العقبات فى طريق
 زواجه ممن يهوى، وطال عليه الزمن فى هذا الا لم ثم انتهى الامر بالتفريق
 الدائم مصحوباً بالحكم على من يهوى أن يكون لغيره. وقد وجد قصاصو
 هذا النوع تلك العناصر مجسدة بارزة فى سير جميل بن عبد الله بن معمر
 عاشق بثينة، وقيس بن ذريح عاشق لبنى، وقيس بن الملوح عاشق ليلي
 المعروف بالمجنون - والأولان مقطوع بوجودهما بغض النظر عما
 دخل سيرتهما من مغالاة. أما المجنون فالرواية فى أنه شخص حقيقى أو
 خيالى على خلاف لم يقطع التاريخ فيه بديان.. فكان أن وضعوا لكل
 منهم قصة تمثل الحب الباكى أتم تمثيل. ولم يعدم الحب اللاهى قصاصين
 يؤلفون فيه فوضعت قصة لأمامه عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة

قصصيتان والثانية أقص من الأولى وإن كانت الأولى أحق وقائع وأصح لغة
 لتقدم زمنها عن الثانية أكثر من قرن.

المذكور وتلتها مثيلات . ثم كان أن ألفت قصص في مغرمات النساء لتقابل القصص الموضوعة لمغرمي الرجال، بل ألفت قصص للغرام بين الانس والجن كان الحب فيها الرجل أو المرأة من هؤلاء تارة ومن هؤلاء أخرى^(١)

أما وقد ذكرنا مجمل ما ينبغي أن يقال عن القصة العربية في العصر العباسي منقولة وموضوعة فإن علينا أن نبين كذلك ما يراد بالقصة في هذه الأيام لنحاكم إليه ما ذكرنا فنعلم الفرق بين ما كان وما هو كائن الآن . يراد بالقصة في العصر الحاضر كل كتابة أدبية فنية تصدر عن كاتب واحد بقصد تصوير حالة معينة في التاريخ أو الأدب أو الأخلاق أو الاجتماع أو غيرها تصويراً ينزع فيه الكاتب عن شعوره الخاص وتفكيره الناشئ عن هذا الشعور والوجه الذي يتجه إليه رأيه على حسب ما شعر وفكر بحيث تتمثل شخصيته في هذا التصوير تمثلاً يفرق بينه وبين غيره ممن كتبوا فيما كتب، لأن هذه الأشياء التي ذكرنا واحدة في ذاتها، ولكن الذي يختلف إنما هو نظر الناس إليها وكيفية تصويرها، وكلما اتسعت مسافة الخلف بين النظرات تباعد البون بين التصويرات، ولبست تلك الأشياء أثواباً تبعدها عن مرآها الثابت الأصيل إلى مرأى يخلق عليها ثوب القصص أو الأساطير . وهذا ما يطلق عليه الغربيون كلمة « رومان » أي حكاية أو خرافة وما نطلق

(١) ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات من القصص الغرامية المختلفة

كأبي العتاهية وعتب ، وابن قتيبة وبانوحه ، وريحانة وقرنفل ، وغيرها مما ضاع أو تضمنه ألف ليلة وليلة .

عليه نحن كلمة « قصة » هذا على أن بعضه قد يصدره الكاتب بشكل يجعله صالحا للتمثيل على المسارح قترأه يعتمد فيه الاكثر من الأشخاص المختلفين في الأخلاق والصفات، ويجعلهم يتحدثون في حوار حديثا يظهر المستور من طبائع النفوس وخفايا الصدور، مع الاحتفاظ بشخصية البطل أن تغطي عليها تلك الشخصيات، ومع المفاجأة بالعقد التي تعرض متطلباته الحل والمهارة في إيراد الحلول. وهذا ما يسميه الغربيون باسم « درام » أى قصة تشخيصية ونسبية نحن عرفنا باسم الرواية لأننا اعتدنا أن نلاحظ فيما أخذ هذه التسمية من القصص، التشخيص^(١)

تلك شروط القصة الحديثة وأنواعها، وهى شروط لو دققنا في تطبيقها على ما ذكرنا للعرب عن القصص في العصر العباسى استعصى علينا التطبيق، لأن قصصه سيرة تاريخية لا تصوير شخصى، وأهى مكتوبة بقلم أشخاص عدة لا شخص واحد، وأهى مسفة العبارة كثيرة الأخطاء، ولكننا لو تساهلنا في التطبيق من غير تدقيق ساغ لنا أن نقول إن العرب خلفت في العصر العباسى مثالا للقصة في عموم إطلاقها وشبه مثل لها في الرواى منها. وإنما جعلنا ما خلفت في هذا شبه مثل لا مثالا للضعف البادى فيه عن نظيره الغربى، ولعل من أسباب هذا الضعف عدم استعداد العرب منذ قديمهم للشعر القصصى والتمثيلى كما يناه مفصلا في كتابنا الأول حيث الكلام على نوع الشعر الجاهلى، ثم عدم سماحهم

(١) يأخذ هذا النوع اسم « تراجيدى » إذا غلب عليه عنصر الفجعية والحزن، وبأخذ اسم « كوميدي » إذا غلب عليه عنصر الضحك والهزل.

للمرأة بالتشخيص والتمثيل مع أن وجودها مع الرجل شرط أساسي فيه. هذا وقد طالع العرب نوعا من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه إلى عرض نظرية علمية أو فكرة فلسفية فعرف لذلك بالقصص العلمي أو الفلسفي، وهو وإن ضم إلى سمو الفكرة جودة العبارة إذ كتب خاصة الناس : ليس جديرا أن يحمل اسم القصص ؛ لأن الغرض الأول للقصص مغرور بالعلم والفلسفة المقصودين فيه . ومن أمثاله في القرن الرابع كتاب « الإنسان والحيوان » لـ «خوان الصفا» أصحاب الرسائل المشهورة المنسوبة إليهم ، فأنهم وإن جعلوه مناظرات بين الحيوان والإنسان كما في كيلة ودمنة قد حشوه كثيرا من الحوار العلمي في الطبيعة ومميزات الإنسان والحيوان . ومنها في القرن السادس رسالة «حى بن يقظان» لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١ التي شرح فيها بأسلوب قصصي، إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة ، ووفق إلى نظريات علمية في تطورات هذا الإنسان ، وقد طبعت في مصر وفي غيرها مرارا وترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية. على أن من هذه القصص العلمية ما تمكن صاحبها من تغليب الصبغة القصصية فيها على الصبغة العلمية كرسالة الغفران من مخلفات القرن الخامس لأبي العلاء التي كتبها في عزلة وضمها انتقاد شعراء الجاهلية والأسلام والأدباء والرواة والنحاة فانها علمية فلسفية ، يتضمن بعضها لغة وأدبا وشعرا ونقدا ، وبعضها نواذر اجتماعية عن الزنادقة والمتنبئين وشاذى الأفكار في عصور الاسلام ؛ ولكنه ساقها في أسلوب قصصي خيالي أبعد فيه. فقد تصور رجلا صعد إلى السماء وشاهد الجنة والنار، وقابل كثيرا من

أهليهما وحاورهم وحادثهم فيما ذكرنا . وإذ كن يسأل دائما من كانت
يعتقدون أبناء جهنم وأبصرهم في الجنة عما من أجله غفر الله لهم فكانوا
يجيبونه بما لا يخرج عن النوعين الذين أوضحنا في مشتملات الرسالة
دعائها رسالة الغفران ، وهي ذات شأن هام ومقام كبير ؛ لأنها وإن
لم يقصد تمثيلها ، تمثل القصص الشخصية إلى حد ما ، فقد جاءت
فوق ما رأيت من مشتملاتها ؛ خصيبة الخيال في تصوير الجنة والنار ،
ومافيها من نعيم وعذاب ، ولاذعة السخرية في كثير من حوارها .
ومن هنا وقعت لدى الغربيين الوقع العظيم ، فما كاد الغرب يتصل بالشرق
في الحروب الصليبية حتى عرف الطليان مكانها إذ كانوا أسبق المسارعين
إلى هذه الحروب ، فذبح شاعرهم دانتى على منوالها « الرواية الإلهية »
وفيهما نفس الخيال الذي سبقه إليه المعري بثلاثة قرون ، وكذلك فعل
ملتن الأنجليزي في روايته « ضياع الفردوس » بعده بأكثر من ستة
قرون . فهي قد غدت الغرب من الناحية التمثيلية « درام » كما غدا في
القصص العربي قبلها كليله ودمنة والـ ليله وليلة في الناحية القصصية
« رومان » . ولكن حال الشرق ساءت فوقف عند هذا الحد وتقدم العرب
الذي أخذ عنه فوصل إلى ما يرى الآن من رقى باهر في فنون الأقاصيص
والروايات .

هذا وكما انحازت طائفة من القصص إلى الناحية العامية الفلسفية
التي غطت على الروح القصصية كما تقدم ، انحازت طائفة أخرى إلى ناحية
لغوية صناعية نزعته بهجة القصص منها ، تلك هي المقامات التي سنتكلم
عنها الآن .

٢ - المقامات

لقد نفخ إنشاء الدويلات في المشرق منذ أواخر العصر العباسي الثاني، وتحكم آل بويه على الخلافة في بغداد بعد هذا الانشاء، في اللغة الفارسية وآدابها، نفخة حركتها من الأجداث ووهبتها روحاً أنهضتها من الرجام. فرأينا رجال هذه الدويلات يحضون أدباء الفرس على النظم بها في مجدهم وسالف تاريخهم، كما فعل نوح بن منصور الساماني في اقتراحه على الدقيق نظم الشاهنامه، وحتى من كان يحكم هذه الأقاليم من غير الفرس، كان يجاريهم في النهوض بلغتهم تقرباً إلى شعوبه من أهلها، كما فعل السلطان محمود الغزنوي التركي في اقتراحه على الفردوسي إتمام الشاهنامه التي بدأها الدقيق ولم يتمها. وكان هذا الانتصار لأدب الفرس في وقت يزدهر فيه الأدب العربي. قد حرك أدباء العرب المشاهدين له عن كتب في أجواء فارسية، وخلق فيهم روح انتصار للعربية يقابل ذلك الانتصار الفارسي، وكان لابد لهذا الروح أن يظهر في معارضات أدبية كما ظهر الانتصار الفارسي، واتفق أن رحل إلى نواحي فارس العلامة اللغوي والراوية الأديب، والشاعر العظيم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدی في النصف الأول من القرن الثالث. وأقام هناك مع ابني ميكال^(١) وهما يومئذ على عمالة تلك البلاد^(٢) فقلداه رياسة الديوان، فابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ليعارض به أدبها في أربعين حديثاً

(١) هما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده اسماعيل، فهما لاشاه بن ميكال ولد وحفيد، ولكن شاعت لعتبتهما إليه نسبة الأبناء (٢) من قبل المقتدر الخليفة العباسي.

تحدث عنها الحصري في زهر الآداب صفحة ٢٧٨ هامش العقد الفريد
جزء أول بما يدل على ما قدمنا، قال تحت هذا العنوان جملة من كلام
أبي الفضل أحمد بن الحسين الهمداني بديع الزمان - « وهذا اسم وافق
مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غرض المكسر أنيق الجواهر يكاد
الهوة يسرقه لطفاً، والهوة يعشقه ظرفاً، ولما رأى أبا بكر محمد بن
الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من
ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره وأبداها للأبصار والبصائر
وأهداها للأفكار والغمائر في معارض عجمية وألفاظ حوشية، فجاء
أكثر ما ظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ولا ترفع له - جبهها الأسماع وتوسع
فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة،
عارضها بأربعائة مقامة في الكدية تذوب ظرفاً وتقطر حسناً، ولا مناسبة
بين المقامتين ألفاظاً ولا معني، وعطف مساجاتها ووقف مناقلتها بين
رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الاسكندري
وجعلهما يتهاديان الدرويتنافتان الهجر في معان تضحك الحزين وتحرك
الرصين، يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد
أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية، وسأذكر منها ما لا يخل طوله
بالشرط المعقود ولا ينافي حصوله الغرض المقصود». وهذا كلام نخرج
منه إلى أن ابن دريد أنشأ أحاديثه في بيئة فارسية ومعارض عجمية،
وأنه كان فيها أميل إلى اللغة والغريب بحكم لغويته التي كانت أغلب شيء
عليه، وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات^(١) ولكننا نذكر

(١) أصل المقامة في اللغة بالمقام موضع القيام كمكانة ومكان وقد استعملت

أن الذي احتذاه أولاً إنما هو أستاذ البديع أبو الحسن أحمد بن فارس
العلامة اللغوي المتوفى سنة ٣٩٠ لا البديع. فقد وضع مقامات اتبع العلماء
نسقه فيها، وكان أولهم أتباعاً تلميذه البديع المتوفى سنة ٣٩٨ في مقاماته
التي وصفها الحصري آنفاً، وكلاهما عاش في بيئة فارسية كما عاش ابن دريد.
ولعل من حظ البديع ضياع مقامات هذين الاستاذين وبقاء مقاماته ممثلة
في الثمن الباقي منها وهو خمسون مقامةً فاعتبرت لذلك أولى المقامات
بني البديع مقاماته على الكدية^(١) وجعل الحديث فيها بين

في المجلس استعمال الأضداد كما قال المسيب بن عجلان:
وكالمسك ترب مقاماتهم وتر قبورهم أطيب
وكما قال نهشل الدارمي:
إنا نظرنا في المقامة مالكا نظر المسافر أين ضوء الفرق
وانتقلت منه إلى الجماعة الجالسين كما قال لبيد العامري:
ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام
وكما قال زهير بن أبي سلمى:
وفيهم مقامات حسان وحوهم وأندية ينتابها القول والفعل
وقد سبق المجلس المقامة في هذا الاستعمال كما قال مهمل:
نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
ثم أطلق المحدثون المقامة على الحديث يقال في مجلس يستمع له، وبعدئذ قصره
على هذا الضرب المعروف من الكلام
(١) لعل سبب اختيار البديع للكدية في بناء المقامات يرجع إلى انتشارها
أيامه بأواسط آسيا في صور شتى تألفت منها الطائفة المعروفة إذ ذلك بالساسانية

شخصين خياليين هما عيسى بن هشام راوية، وأبو الفتح الاسكندري شحاذا. فكانت جعبة فصاحة وبلاغة، ولكنها وقد تركزت على الكدية وحدها، جاءت بعيدة عن الروح القصصى غير خليقة أن تسمى قصصا على الوضع الذى شرحناه، ويكفى أن تعلم أن خمس عشرة منها لم يكف فيها مع الكدية غيرها وهى الأزاوية^(١) والبلخية والسجستانية والكوفية والأذربيجانية والجرجانية والأصفهانية والبصرية والفزارية والمكوفية^(٢) والبخارية والقزوينية والسامانية والقردية والناجمية^(٣)

ولذا جاءت أقصر المقامات وأقلها روعة؛ أما الباقيات فقد تضمنت مع انتهائها بالكدية غالبا، أشياء أكسبتها جمالا وإن لم تنقلها عن الناحية اللغوية إلى القصصية، أهمها الوصف وقد وقع في عشرين مقامة انحدرت خمس منها إلى هوة الكدية أيضا بوصفها ألوان الأطعمة والأشربة وهى البغدادية والمضيرية^(٤) والمجاعية والنهيديّة^(٥) والخمرية، وتناول سائرهما وصف أشياء أخرى متباينة كالأسد والفاثك فى الأسدية والفرس فى الحمدانية^(٦) وأنواع اللصوص وطرقهم فى الرصافية والمغزل فى المغزلية وكهل رث فى الشيرازية وحمامى وحجام فى الحلوانية والرجل يكون

من أعراب وأبناء سبيل وذوى طاهات وحواة وقرادة وسحرة ومشعوذين وغيرهم ممن كانوا يتحيلون فى جلب الرزق ولكن من طريق الامتاع بقص الاخبار ورواية الاشعار والمناظرة والتهاجى والمدح ونحو ذلك مما جعل بين الأدب والكدية نمبا

- (١) الأزاوية من التمر (٢) ادعى فيها الاسكندري كف بصره (٣) تسمى فيها الاسكندري بالناجم (٤) المضيرة لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض كالخل (٥) النهيدة الزبدة (٦) أهدى فيها فرس الى عظيم من بني حمدان

خشن الجانب أو لينه في الخلفية^(١)، واللص يتخذ ثوب الناسك في
النيسابورية، والعلم في العامية وإخوان الدهر ما يفعلون وما يجب أن
يفعل بهم في الصيمرية^(٢)، والملوك في الملوكية، والدينار إلغازا في
الصفرية، والرجل يخدع مظهره ويؤذى مخبره في السارية^(٣) وهي قريبة
الشبه بالنيسابورية، والوضعاء يعلنون في التيمية^(٤) ثم المال والدعوة
إلى فتح المطالب في المطابية. ويلى الوصف في العناية المطارحات
الأدبية وقد شغلت تسع مقامات، ستا في الشعر وهي: القريضية في
التفاضل بين الشعراء، والغيلانية في غيلان بن عقبة وهو ذو الرمة،
والاسودية^(٥) في إنشاد شعر مرتجل، والابليسية في شياطين الشعراء،
والعراقية والشعرية وكلتاها في إلغاز عن أبيات من الشعر، ثم ثلاثا
في محاورات أخرى وهي الجاحظية في مدح الجاحظ وذمه، والمارستانية
في دحض مذاهب المعتزلة، والدينارية في التساب بين متشائمين.
أما الست الباقيات فقد جاءت ثلاث منها في الوعظ والايصاء وهي:
الاهوازية في الحياة والموت، والوعظية في الدنيا والآخرة، والوصية في
الاقتصاد والتجارة، وثلاث في التويه والتدجيل وهي الموصلية في
محاولة إحياء ميت ورد سيل، والحرزية في عمل حرز يضمن النجاة من
الغرق ثم الارمينية في التحيل لجلب الخبز والأدم.
وقد أبدع البديع في مقاماته مع أنه أملاها ارتجالا أو في حكم الارتجال.

(١) نسبه الى حلف بن أحمد أحد الأجواد (٢) بلد قرب دينور

(٣) بلد بطبرستان (٤) نسبه الى ابن الندي التيمي. (٥) نسبه الى الأسود

بنيسابور الابدع كله، ولهذا بعد فيها عن تكاف صناعات البديع فجاءت
 قليلة الغريب سهلة المتناول ، يتعشق أول الكلام فيها آخره ويرتبط
 بعضه ببعض ارتباطا يؤذن بصفاء قريحة وطول باع، فأنت إذ بدأت في
 قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حلت روضا ممتعا ينسبك كل
 شيء غيره وكلما سرحت نظرك في خميلة من خمائله أو زهرة من أزهاره
 تطأبتك أجمل منها حتى لا تشعر إلا وقد انتهيت إلى سباحه. وقد أجاد
 فيها الوصف والتشبيه ، والمقامات العشرون التي تناولت الوصف كما
 ذكرنا مليئة بأوصاف تنطق بالحقيقة وتمثل الصورة، وتشبيهات تستخف
 القارئ عجبا وتأخذ بابه حيرة ودهشا، فارجع إليها أو إلى المقامة الأسدية
 التي اخترناها نموذجا منها، تجد المثل العليا لما ذكرنا ، كما قد أحسن فيها
 الكناية وأحكم الالغاز، فمن كساياته قوله في شدة الروعة ، من أسد خرج
 عليه « فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه » وفي الخوف من
 فائك لقيه فجأة « فراعني منه ما يروع الوحيد من مثله وأخذني ما يأخذ
 الأعرل من شاكي السلاح » وفي بلدة نزلها ولم يقم إلا قايلا « فخللتها
 حلول النىء » وفي تمثيل فرقة من صاحب « فاصطحبنا ثلاثة أيام حتى
 جذبنى نجد والتقمه وهد » وفي مجاس صفاء ليس فيه نوم « فأخذنا
 نتحدث وماقينا الامنا . ومن أغازه وكان كثيرا الالغاز في أبيات
 الشعر قوله : « بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب » يعنى قول عمرو
 ابن كلثوم .

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدي لاعبيننا

وقوله : « بيت كاد يسقط فعاد » يعنى قول المتنبي .

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
وقوله : « بيت هو مہین بحرف ورمین بحذف » يعنى قول أبى نواس
لقد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع عقد على خالصه
إلى غير ذلك من الالغاز التى أكثر منها دون أن يحمل اللفظ مالا يحتمل
أو يكاف المعنى مالا يطيق، وليس هذا وغيره بغريب على رجل كان
له من صفاء الخاطر وجودة القريحة وسعة الرواية وكثرة الحفظ ما لم
يكن لغته من كاتب أو شاعر. قال عنه الثعالبي فى اليتيمة « إنه كان
ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط، وهى أكثر من خمسين بيتا فيعيدها
كلها دون أن يترك حرفا، وكان ينظر فى أربع الورقات والخمس نظرة
خفيفة ثم يسردها سردا، وكان يقترح عليه عمل قصيدة فى معنى بديع
أو إنشاء رسالة فى باب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة، وكان ربما بدأ
الكتاب المقترح عليه من آخره وانتهى بأوله فيخرج الكتاب جيدا
فى نوعه فريدا فى بابه ». ولهذا القول شأنه لأنه قول معاصر أدركه
لا يحدث سمع عنه .

وقد زاول إنشاء المقامات بعد البديع أبو نصر عبدالعزيز بن عمر
المشهور بابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ وأبو القاسم عبد الله
ابن محمد المشهور بابن ناقياء المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ولكن مقاماتيهما لم تشهرا،
ثم جاء بعدهما فارس ميدان المقامات والمجلى فى حليته الحريرى المتوفى
سنة ٥١٦ هـ فأنشأ مقاماته الخمسين التى جازى فيها البديع فبذه فى صناعة
الكلام وإن اعترف له بفضل السبق فى هذا الفن، وهذى كلمة فى
التعريف بها .

بنى الحريرى مقاماته على الكدية كما فعل البديع، وجعلها خمسين مقامة
لجاءت وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات سلفه المذكور . وقد جاءت
فيها خمس عشرة فى الكدية وحدها ، ثمان خالصة لها وهى الكوفية
والبرقعيدية^(١) والبغدادية والمككية والصورية والتفليسية والمروية
والسامانية، وسبع فى التحليل لها وهى الدمشقية التى ادعى فيها خفر
القافلة بدعوى لقنها فى المنام، والفارقيه^(٢) التى ادعى فيها حاجته إلى تكفين
ميت، والوبرية التى طلب فيها ناقة ادعى ضلالها ، والواسطية التى ختم
فيها أهل الخان باطعامهم حلواء مخدرة، والزبيدية التى باع فيها ولده على
أنه غلام، والعمانية التى علق فيها عزيمة الطلق على حامل لتضع، والحرامية^(٣)
التي ادعى فيها أن ابنته فى الأسر وطلب فداءها. وجاءت فيها ست للوعظ
هى الصنعمانية والساوية^(٤) والرازية والرملية الأولى والتنيسية والبصرية.
وأربع فى الوصف الخالص الصريح هى الدينارية فى الدينار والسنجارية
فى النمام، والكرجية فى الشتاء ، والبكرية فى البكر والثيب، ولا تخلو
هذه المقامات الأربع من وصف أشياء غير التى بنيت عليها كما لا تخلو
مقامة غيرها من أن يكون فيها وصف، ولو لم يكن للحريرى من أوصاف
غير افتنانه فى وصف أبى زيد بما يلائم شخصيته فى كل مقامة لكفاء
ذلك فى تقلد زعامة الوصف أمام الواصفين . وجاءت فيها عشر فى الحوار
والخاصمه هى الحلوانية فى محاسن التشبيهات، والدمياطية فى المواصلة

(١) برقعيد قسبة فى ديار بكر (٢) نسبة إلى ميفارقين مدينة بالشام

(٣) نسبة إلى بنى حرام بالبصرة وهى أولى المقامات انشاء (٤) نسبة إلى

ساوه مدينة بين الرى وهمدان

والقطيعة، والاسكندرانية في أثاث زوجته وحليها إذباعه، والرحبية^(١) في دعوى القتل على برىء والفراتية في صناعات الانشاء والحساب والشعرية في دعوى سرقة شعر والصعدية^(٢) في عقوق الابن والتبريزية في نشوز الزوجة والرملية الثانية في عصيانها والحجرية^(٣) في الحجامة. وجاءت فيها تسع في التكنية والالغاز، فمقامات التكنية أربع هي المعرية في الكناية عن الابرة والميل والنصيبيية في الكناية عن بعض ألوان الطعام وما يتعلق به والشيرازية في الكناية عن الخمر بيكر ربها والنجرانية في الكناية عن أشياء عشرة هي المروحة والخابول^(٤) والقمام والميل والدولاب والمزملة^(٥) والظفر وطاقة الكبريت وخمر العنب ومعيار الذهب. ومقامات الالغاز خمس، هي الفرضية في مسألة توريث والنحوية في مائة لغز نحوي والطيبية^(٦) في مائة لغز فقهي والمملطية^(٧) في عشرين مقايضة كلامية^(٨) والشتوية في خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية في كل بيت لغز سوى بيت المطلع وثلاثة أبيات ختمها بها معجبا بنفسه وكم فيما أتى به حقاً من عجب. على أن الأعجب منه ما جاء في المقامات الست الباقية من التلاعب بالصناعات اللفظية التي ابتكرها لآلتي آتى بها علم البديع وهي المقامة المغربية للعبارات التي تقرأ رداً وطرذاً

(١) نسبه إلى رحية مالك بن طوق (٢) نسبه إلى صعدة باليمن (٣) نسبه إلى حجر باليمامة (٤) هو حبال الصائد (٥) جرة يركب في ثقب بها قصبه للشرب منها (٦) نسبة إلى طيبة مدينة الرسول (٧) مملطية من بلاد الجزيرة (٨) المقايضة هي الأحاجي وتكون بطلب كلمة واحدة تؤدي معنى كلام كطوامير في معنى «جوع أمد يزاد» والفاشية في معنى «أهمل حلية» وهكذا.

والقمقرية للرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه. والخيفاء
للرسالة التي إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة، والرقطاء للرسالة التي أحد
حروف كلماتها معجم والآخر مهمل، والسمرقندية للخطبة العارية من
النقط، ثم الحلبية لعشر مقطعات من الأبيات، وأولها عواطل من النقط،
والثانية حوال به، والثالثة أخفاف أى كلمة مهملة وأخرى معجمة، والرابعة
متائيم أى كل كلمتين مجنستان جناسا خطيا، والخامسة مطرفات أى بطرفي
كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين، والسادسة لما أشكل من ذوات السين،
والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد، والثامنة لما يجرى عليه هذان
الحرفان، والتاسعة لعقد هاء الأفعال الناقصة، والعاشرة وهى طويلة لما ورد
من الكلمات فيه ظاء.

هذا ما نحا إليه الحريري فى مقاماته من الفن المعجز الذى غطى على
كل فن قبله وقطع الطريق على كل فن بعده. وهو مع هذا بعيد عن التكلف
المقوت، ولذلك كان منصفاً للحقيقة بل غير موفى بها حقها حين قال من وصفها
فى مقدمتها (وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية
ناضبة وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحوى على جد القول وهزله، ورقيق
اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الألب ونواذره، إلى ما وشحتها
به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية
واللطائف الأدبية، والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية، والرسائل
البتكرة والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية والاضاحيك الملهية، مما
أملت جميعه على لسان أبى زيد السروجى وأسندت روايته إلى الحارث

ان همام البصرى^(١) وما قصدت بالأحماض^(٢) فيه إلا تنشيط قارئيه
وتكثير سواد طالبيه، ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا ييتين فذين
أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية، وآخرين توأمتين ضمنتهما خواتم
المقامة الكرجية، وما عدا ذلك فخاطري أبو عذرة ومقتضب حاله
ومره^(٣) هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب
آيات وأن المتصدى بعده لانشاء مقامة ولو أوتى بلاغة قدامة لا يغترف
الا من فضالته ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته والله در القائل^(٤).

فلو قبل مبكها بكيت صباية بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكيت قبلى فهيج لى البكا بكها فقلت الفضل لله تقدم
فمقامات الحريرى بالنسبة إلى مقامات البديع. وإن كانت هذه أكثر انطبعا،
وأشد انسجاما، وأبعد عن زخرف الصنعة وغريب اللغة. أبدع فنونا
وأبرع خيالا وألطف فكاهة وأكثر أمثالا، ولذلك جذبت إليها طلاب
اللغة للاستفادة منها، وأعلام الادب للعمل فيها، فخطيت بمثل ما حظى
به شعر المتنبي وشرحها كثير. منهم الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ والمطرزى
والعكبرى والطرائفى والزبيدى والطبلى والناصرى والباجى وغيرهم،

(١) أبو زيد السروجى هو المطهر بن سلام البصرى النحوى لزم الحريرى
وتأدب عليه وتخرج به فأملى مقاماته على لسانه. أما الحارث بن همام فيعنى به
نفسه لقوله عليه الصلاة والسلام (كلكم حارث وكلكم همام). فبطلا مقاماته
ليساخيالين كبطلى البديع (٢) التلوين والتنويع (٣) بالمقامات من الشعر ما يزيد
على ما لكثير من الشعراء ولذلك عد الحريرى من الشعراء المكثرين على أن له
ديوان شعر (٤) قيل هو عدى بن الرقاع وقيل غيره

وأشهرهم الشريشي، وقد طبع شرحه أكثر من مرة بمصر وبغير مصر أما شروح غيره فبين معدوم ومخطوط ببعض مكاتب أوربة. وقد نشر أصلها العربي بالغرب في القرن التاسع عشر ثم ترجمت فيه إلى بعض لغاته وإلى بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية وغيرها. ولم يك العجب بها في القديم بأقل منه في الحديث فهذا علي بن الحسن المعروف بشميم الحلبي المتوفى بالموصل سنة ٦٠١ وكان معجبا بنفسه لا يكاد يرى لأحد من المتقدمين عليه فضلا يقول « لا أعلم أحدا من المتقدمين جاء بما يرضى إلا أن يكون المتنبي في مديحه، وابن نباتة في خطبة، والحريري في مقاماته، فمؤلا لم يقصروا » وقال له بعض إخوانه قد هجيت أن لم تصنف مقامات تدحض بها مقامات الحريري فقال « إن الرجوع إلى الحق خير من التبادي في الباطل، قد عملت مقامات مرتين فلم ترضني، فأعرضت عنها وأهملتها، وما أعلم أن الله خلقني إلا لأظهر فضل الحريري » وقال جاز الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ صاحب الكشف وهو من هو بلاغة، في الحريري ومقاماته .

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقانه
أن الحريري حرى بأن نكتب بالتبر مقاماته
معجزة تعجز كل الوري ولو سروا في ضوء مشكاته

وللزمنشري هذا مقامات خمسون أيضا، ألفها قبل مقامات الحلبي المذكور، وكذا لأبي منصور أحمد بن جميل البغدادي المتوفى سنة ٥٧٢، والأولى هي الباقية دون الثانية، وكلها في الوعظ والارشاد بأسلوب وعلى طريقة غير ماعرف فيهما للحريري والبديع، فأسلوبها ليس فيه محدث

ومحدث عنه وطريقتهما خلو كل الخلو من القصة . وقد جاء بعد هذين من تصدى لعمل المقامات في العصر العباسي، ولكن لم يشهر مع مقامات الحريري والبديع فقبر أوضاع ، كأحمد بن الأعظم الرازي المتوفى سنة ٦٣٠ .

ثم تعدى عمل المقامات رجال العصر المذكور إلى رجال العصور بعده حتى العصر الحديث، كزين الدين بن صقيل الجزري المتوفى سنة ٧٠١، وعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩، وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١، والشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩، والشيخ ناصيف اليازجي المتوفى سنة ١٢٨٧، ثم المنشئ الأديب محمد بك المويلحي في كتابه حديث عيسى بن هشام الذي حذا فيه حذو البديع، واختار له اسم راويته المذكور فأعاد إلى الأذهان ذكره ، وأشهد لقد فاقه في أن جاء حديثه هذا أدخل في باب القصة من المقامات ، لما طالجه من تصوير الحوادث وتحليل الشخصيات، فهو بطل المقامة في الحديث كما كان البديع والحريري بطلها في القديم.



تدوين العلوم والكتابة العلمية

علمت من الخلاصة التي أثبتناها عن تدوين العلوم في العصر الأموي، أن ذلك العصر انقضى ولم يدون فيه شيء من العلوم الشرعية إلا التفسير الذي نسبه مجاهد إلى ابن عباس، وحديث رسول الله الذي دونه محمد بن عمرو بن حزم، وأذاعه عمر بن عبد العزيز في الأمصار، والأول باق والثاني غير معروف، أما الفقه فلم يدون فيه شيء ومثله القراءات. كما علمت أنه لم يدون من العلوم اللسانية إلا بعض كتب في النحو ليس لها الآن وجود. وكذلك كان الشأن في العلوم الأخرى من تاريخ وكيمياء وفلك وطب، فلم يصل إلينا مما ألف فيها إلا ترجمة ماسويه لكتاب أهرون السرياني في الطب الذي أذاعه أيضا عمر بن عبد العزيز، ولذلك يحكم المؤرخون على ذلك العصر بأنه لم يكن عصر تدوين للعلوم، ويعتبرون العصر العباسي هو العصر الحق للتدوين.

ذلك بأن الحال السياسية لم تكد تستقر أول العصر العباسي بعد خلافة السفاح وقليل من خلافة أخيه المنصور، حتى أحس هذا الخليفة العظيم بشدة الحاجة إلى تدوين العلوم، فعمل علماء الدين واللغة على جمع العلوم الشرعية واللسانية، وأوعز إلى المترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا من اليونانية والفارسية ما تحتاج إليه الدولة من علوم أخرى كالطب والفلك وغيرها، وبذل في ذلك على جمود كفه المال الكثير. وتبعه في هذا أولاده وأحفاده حتى زخر تيار العلوم والفنون على أيدي طبقة واضحة انتهى مجهودها بعصر الرشيد. ثم جاء المأمون ففضل

آباءه وأجداده في تشجيع حركة التأليف والترجمة، فنشأت طبقة ثانية يصبح أن تسمى طبقة التهذيب والتفصيل، لما أتعجت به طبقة الوضع، فأتمت العصر الأول وسلخت نصف الثاني. وبعدها نشأت طبقة ثالثة تم فيها استواء الملكات، وصح لذلك تسميتها طبقة التصنيف، لأنه صار عندها صناعة أخرجت البسيط والوسيط والوجيز في شتى العلوم والفنون، وبها انتهى العصر الثاني.

ولما جاء العصر الثالث نشطت حركة التأليف بعامل المنافسة بين رجال الدويلات، واشتدت المنافسة بين القاهرة وبغداد، فنمت العلوم وتعددت فروعها حتى تجاوزت الثلاثمائة، ووجدت علوم لم تكن موجودة، ومن ثم سمي عصر نضج العلوم ثم سمي عصر المكاتب لأنها كثرت فيه، كما سمي عصر توطن العلوم لأنها صمت جميع الحواضر ولم تعد وقفا على بغداد، وفيه انتشرت المؤلفات الشيعية بمظاهرة الفاطميين غربا والفرس شرقا فسمى لذلك عصر المذهب الشيعي. ثم جاء العصر الرابع فاستمرت العلوم سائرة به في طريق النماء حتى اتسعت الأبحاث وأخرجت المؤلفات الضخمة والمصنفات الجامعة، فعرف بعصر الموسوعات. ثم انتشرت فيه حركة التعليم وأنشئت المدارس المنتظمة فعرف بعصر المدارس أيضا، غير أنه قد حدث فيه انقلاب كبير ضد المذهب الشيعي الذي كان سائدا في سلفه كما تقدم، قضى على قوته وأحل المذهب السني محله بعون السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا، بعد ذهاب آل بويه والفاطميين، ثم كانت العلوم الأدبية فيه في المرتبة الثالثة بعد العلوم الأخرى من شرعية وكونية، وقد سبق ذاك كله مفصلا في صدر الكتاب. ولا يفوتنا

أن ننبه هنا إلى أن الحركة العلمية في الممالك الشرقية ونظيرتها في الممالك الغربية كانتا في العصر الثالث سواء ، أما في العصر الرابع فكانت في الشرق خيرا منها في الغرب ، غير أنها اضمحلت في الأول قبل اضمحلالها في الثاني .

هذا والعلوم التي خلفها المسلمون في العصر العباسي من وضعهم أو ترجمتهم نوعان . إسلامية من شرعية كالتفسير والقراءات والحديث والفقه والاصول والكلام والمنطق وغيرها ، ولسانية كالنحو والصرف واللغة والبلاغة بأقسامها ، والادب ويلحق به التاريخ^(١) وغيرها . ثم كونية من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية . وإليك كلمة موجزة عما ذكر من علوم النوع الاول بقسميه ، وأخرى مجملة عن النوع الثاني بأقسامه الاربعة .

العلوم الشرعية

١ — التفسير والقراءات

كان أول تفسير وضع ، التفسير المنسوب إلى ابن عباس برواية مجاهد من التابعين الذين كانوا يتلقون ذلك عن الصحابة في العهد الاموي كجهاذ هذا وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاوس بن كيسان وعطاء بن أبي رباح وغيرهم من أصحاب ابن عباس بمكة والمدينة ، وكابرهيم النخعي والشعبي من أصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة ، وكمالك بن أنس والحسن البصري من أصحاب زيد بن أسلم بالبصرة .

(١) من مباحث الادب أيضا العروض والقافية وسيأتي القول عنهما بما فيه الغناء حيث الكلام على ألفاظ الشعر وأساليبه .

وقد أدرك بعض التابعين العصر العباسي على عهد المنصور، وقدونوا مع تابعي التابعين أمثال سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وآدم بن أبي إياس وإسحق بن راهويه ومحمد بن إسحق ومقاتل بن سليمان وغيرهم، تفسير للقرآن، كما كتب بعضهم في غريبه وبعضهم في تأويل آياته وبعضهم في مجازه، ولكن تفسيرهم جاءت حاوية لبعض التأويل الباطلة التي أخذوها من غير تحقيق عن أسلم من اليهود، كوهب بن منبه وعبد الله بن سلام وكعب الأحمار. ثم جاءت في العصر الثاني طبقة حققت ذلك كان منها المفسر العظيم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن» الذي يعد أول كتاب صحيح للتفسير المنقول، واقتدى به في ذلك جماعة، ومنهم استمد الناس. ثم جاء العصر الثالث فنشأت طبقة رغبت في تجريد الروايات من الأسانيد وإضافة كثير من مباحث العلوم المختلفة التي كانت قد نضجت إذ ذاك إلى التفسير، كالنقاش الموصلي صاحب «شفاء الصدور» وإبراهيم الثعلبي صاحب «الكشف والبيان» والحوافي المصري صاحب «البرهان». ولما جاء العصر الرابع بقيت هذه الطريقة ودحا كما في البسيط لأحمد الواحدي تلميذ الثعلبي المذكور، ثم لم تلبث الزيادات العلمية أن أخذت اتجاها يمثل روح المفسر كالبلاغة والاحتجاج للمعزلة في كشف الزمخشري، والكلام والأصول في مفاتيح العلوم للرازي، كما ظهرت التفسير بالرأى والقياس دون تقيد بآراء السلف.

أما القراءات فقد تعددت وجوهها في أوائل العصر العباسي، ولكن الناس في جمهورتهم كانوا يرجعون في قراءتهم إلى سبعة، هم أبو عمرو بن

العلاء وأبو محمد يعقوب بن إسحاق وحمزة بن حبيب وطاصم بن أبي النجود وعبد الله بن طامر وعبد الله بن كثير ونافع بن أبي نعيم . وقبيل الثلثمائة أحلوا في هذا الاقتداء على بن حمزة الكسائي محل يعقوب ، فأجهد يعقوب نفسه في الحصول على جديد في رواية القراءات فنال ونال معه يزيد بن القعقاع وخلف بن هشام ، وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة المذكورين . ثم عرفت قراءات أربع قبل انقضاء العصر منسوبة إلى قراء أربعة آخرين هم ابن محيصن المكي والأعمش الكوفي والحسن البصري ويحيى اليزيدي . وعلى هذا بقيت القراءات ^(١)

٢ - الحديث

كان أول تدوين للحديث مقام به ابن حزم بأمر عمر بن عبدالعزيز ، ولكنه ضاع كما تقدم فجاء العصر العباسي وليس هناك تدوين . ولما كان الاقتراء على رسول الله قد ازداد بعمل الزنادقة والضلال ، أمر المنصور مالك بن أنس بجمع كتابه الموطأ الذي أثبت فيه الحديث مرتباً على أبواب الفقه ، فكان أول كتاب فيهما معاً . وقد حمل تمييز الصحيح من الموضوع أئمة العصر الثاني على اقتفاء آثار الرواة بالجرح والتعديل ، فكان من ذلك وضع مصطلح الحديث على يد كثير ، أشهرهم إسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ . ثم عمدوا إلى تدوين الأحاديث الصحيحة مجردة من الموضوع وكانوا قبل ذلك يدونونها معاً اكتفاء بالتنبيه ، فوجدت كتب شتى أصبحها ، جامع الصحيح للبخاري والجامع

(١) قد فصلنا القول في القراءات حيث الكلام على جمع القرآن ورواياته

الصحيح للنيسابوري والسنن لابن ماجه القزويني والسنن كذلك لأبي داود
السجستاني، والجامع لأبي عيسى الترمذي والسنن أيضا لأبي عبد الرحمن
النسائي، وبعده هذه الكتب الستة لم تزد رواية الحديث في العصر الثالث واتجه
اهتمام أئمة إلى ترتيب شيوخه وتبيين مراتبه والتوسع في مصطلحه. ومن
كبار الحديث فيه، الحاكم النيسابوري وأبو الفتح الرازي وتلميذه أبو بكر
البيهقي وكان كل جهدهم خدمة الكتب المذكورة فلم تعرف لهم مؤلفات مستقلة
أما في العصر الرابع فقد وجد من الحديث ذوى التأليف كثير منهم يبعثون
صاحب مصابيح السنة، والجزري صاحب جامع الأصول في أحاديث
الرسول، والنهاية في غريب الحديث

٣ - الفقه وأصوله

عرفت أن أول كتاب دون في الفقه موطأ مالك بن أنس إمام
الحجازيين الذين غلب عليهم التشدد وعدم إعمال الرأي لوقوفهم عند
الرواية وكانت كثيرة عندهم، أما أهل العراق البعيدون عن الرواية فقد عملوا
بالقياس والرأي فيما لا يخالف الكتاب والسنة وراء إمامهم الأعظم
أبي حنيفة النعمان، ولكن لما انتقل الحديثون إليه بالعراق مزجوا بالرواية
الرأي وظهر ذلك جليا في صاحبيه أبي يوسف ومحمد. واتفق أن رحل
الشافعي إلى العراق فأخذ عن محمد وغيره ووضع مذهبا وسطا بين مذهب
مالك وأبي حنيفة. ثم رحل إلى مصر فرجع عن بعض ما رأى ووضع
مذهبا آخر فكان له مذهبان قديم وجديد. ثم جاء أحمد بن حنبل فأخذ
من بعض أصحاب الحديث عن الشافعي، ومن بعض أئمة القياس والرأي
عن أبي حنيفة، فكان مذهبه المعروف. وبذلك تمت في العصر العباسي

الأول المذاهب الأربعة . المالكي بالحجاز ، والحنفي بالعراق ، والشافعي بمصر ، والحنبلي في نجد والبحرين وبعض الشام . ولكل إمام من هؤلاء بقية من كتبه أهمها الموطأ لمالك ، والفقهاء الأربعة لا تى حنيفة ، والأئم للشافعي ، والمسند لابن حنبل . وفي العصر الثاني تغير كثير من الآراء في مسائل الفقه لانتشار العلوم المختلفة وبخاصة الفلسفة فتولدت مذاهب لم تكن موجودة كمذهب الطبري القريب من الشافعي ، ومذهب داود بن علي الظاهري القريب من المالكي . ولكنها تضاءلت أمام المذاهب الأربعة التي لم يستجد بجوار أصولها في العصر الثالث أيضا غير التلخيص والشرح والتعليق ، ومن خيار الفقهاء في هذا العصر أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب الحاوي الكبير في الفروع في فقه الشافعي وهو مطبوع ، وكذلك كانت الحال في العصر الرابع ، ومن فقهاء أبو حامد الغزالي وله تأليف كثيرة في الفقه منها البسيط في الفروع ، والوسيط المحيط بأقطار البسيط ، والوجيز في فقه الشافعي ، ثم الأحياء ونحو نصفه في الفقه .

أما الأصول فقد حمل على نشأته رسوخ ملكة الفقه في الأئمة رسوخا جعلهم يحصرون مسائله في أصول خمسة هي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ثم الاستحسان على خلاف يسير في الأخيرين ، ويسمون الكلام فيها أصول الفقه . وأول من ألف فيه الشافعي رحمه الله ، ومن بعده انتشر لدى الحنفية بالعراق وفي مقدمتهم أبو زيد الدبوسي . ومن اشتداد الجدل فيه بين المذهبين نشأ علم الجدل والخلاف . وقد سارت هذه العلوم الفقه في سائر العصور لأنها متفرعة عنه

٤ - الكلام والمنطق

نشأ علم الكلام في العصر العباسي على أثر تنكب بعض المتأخرين طريق السلف في التوقف عن البحث في المتشابه وما يوجب التشبيه . فانهم حين تناولوا البحث في الأمرين ضل كثير منهم في التأويل ووقع في التجسيم المنافي للتنزيه ، فهب الآخذون برأى السلف إلى مقاومتهم ولكنهم لم يقنعوا الداخلين في الاسلام ممن امتلأت دياناتهم القديمة بالشبه والاهام ، فدخل الدين كثير من العقائد الفاسدة ، واضطر العلماء المحافظون أن يخرجوا عن التوقف الى الجدل والمعارضة بكثرة القول فكان هذا مبدأ علم الكلام . وظهر الخلاف أول ما ظهر من واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة الحسن البصري واتبعه في ذلك أناس عرفوا باسم المعتزلة لهذا الاعتزال . وقد نمت هذا العلم ما كان عليه الخلفاء من اختلاف ، فبعضهم كان ينصر أهل السنة ، كالمهدي وبعضهم ينصر المعتزلة كالأمويون . ثم زاد الاعتزال نموا في العصر الثاني وفرة الفلسفة ، لما كثر من ترجمة كتبها ولم يقف تياره إلا ظهور أبي الحسن بن إسماعيل الأشعري الذي استعمل أدلة العقل مع النقل وأتم مباحث هذا العلم ، كما ألحق به مباحث الإمامة فكان له مذهب خاص اتبعه فيه جماعة عرفوا بالاشعريين . وقد أيدته في العصر الثالث أبو بكر الباقلاني فتنسخ كل مذهب إلا مذهب الشيعة الذي بقى عليه كثير من الاتباع . ثم لقي مثل هذا التأييد في العصر الرابع على يد كثير أشهرهم الرازي وحجة لله الغزالي صاحب التأليف الكثيرة الواسعة في هذا الباب ، ومنها كتاب الاحياء . وفيه كثير من مباحث الكلام .

هذا وقد حملتهم الحاجة إلى البرهنة والاحتجاج في علم الكلام، على شق الطريق إلى علم المنطق فنبغوا فيه وساعدتهم على هذا النبوغ ما نقلوه عن اليونان في جميع مباحثه من فصول، ولعله لهذا السبب استمر طوال العصور العباسية خاضعا للنظام اليونانية بل بقي عليها من بعدها إلى الآن.

العلوم اللسانية

١ — النحو والصرف

وضع أبو الاسود الدؤلي النحو بالبصرة في العصر الاموي كما عرفت في كتابنا الثاني، فاختلف إليه عدد من رجالها يتعلمونه عليه، كان منهم عنبسة الفيل وعبد الرحمن بن هرون الاعرج ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن وغيرهم ممن عرفوا بالطبقة الاولى. وعندهم أخذت طبقة ثانية منها عبد الله بن أبي اسحق، وأسماء الحضرمي وأبو الخطاب الاخفش الأكبر وأبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي وعن هذه الطبقة الثانية انتقل النحو إلى الكوفة فكون بها طبقة أولى منها أبو مسلم معاذ الهراء وابن أخيه أبو جعفر الرؤاسي، وقد تبارت في التأليف مع الطبقة البصرية الثانية ولم يك للطبقة البصرية الاولى فيه سوى أوراق، فكان لعيسى بن عمر كتابا الجامع والاكمل، وهما أول ما ألف في النحو البصري، وكان لأبي جعفر الرؤاسي كتاب الفيصل أول ما ألف في نحو الكوفيين، وقد أدركت هاتان الطبقتان العصر العباسي فتثقفت عليهما الطبقة التي وضعت أساس التأليف في النحو وسائر علوم اللغة، وكان

رأسها الخليل بن أحمد مستخرج مسائل النحو ومصحيح قياسه ومخترع العروض ومدون اللغة . وعن طبقة الخليل نشأت بالبصرة طبقة سيبويه صاحب الكتاب، وبالكوفة طبقة الكسائي ، ودب بين الطائفتين الخلاف واشتد الجدل حتى كانت تعقديدهما المناظرات . وكان منشأ الخلاف أن البصريين يقدمون السماع على القياس الذي لا يأخذون به إلا لضرورة ، وقد ساعدتهم على الاكتفاء بالسماع كثرة فصحاء العرب بالبصرة لقربها من البادية، في حين أن الكوفيين يعتمدون في أكثر مسائلهم على القياس لقلة جالية العرب بالكوفة وقربها من الأعجم . ثم نشأت بالبصرة طبقة الاخفش الأوسط^(١) شارح كتاب سيبويه ، وبالكوفة طبقة الفراء صاحب كتاب الحدود ، وعنه انتشر المذهب الكوفي ببغداد قبل أن يعرف بها المذهب البصري . وبعدها كانت في البصرة طبقة التوزي والجرمazy والجرمي والمازني والسجستاني، وفي الكوفة طبقة ابن السكيت وابن سلام ثم ختمت طبقات البصريين بطبقة المبرد وطبقات الكوفيين بطبقة ثعلب وإليهما انتهى علم هؤلاء وعلم هؤلاء . وعلى هذا انقضى العصران الاول والثاني . ولما توالى فتن الزنوج والقرامطة على المصريين جلا علماءهما إلى بغداد، ومن اختلاطهما نشأت طريقة البغداديين وهي خليط من المذهبين ولكن مع جعل مذهب البصريين الأساس . ولم يجد في العصر الثالث جديد إذ كان أكثر مادون شروحا وتعليقات على المذهبين

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه، أما الأبرار المذكور آنفا فهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد الحميد أستاذ سيبويه ، والأصغر هو أبو الحسن علي بن سليمان تلميذ المبرد .

من غير تعصب ولا خلاف ، ومن علماء النحوفيه ابن خالويه صاحب كتاب « ليس في كلام العرب » وصاحب رسالة في إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، وابن جني صاحب الخصائص في أصول النحو ، وسر الصنعة في النحو ، وشرح تصريف المازني واللمع في النحو ، والمختضب في إعراب الشواذ وعلل التثنية ، ثم ابن درستويه والسيرافي والرماني ولكل هؤلاء مؤلفات . وفي العصر الخامس^١ وضعت أهم كتب النحو والصرف التي عليها معول العلماء الآن كالكافية في النحو ، والشافية في الصرف وهما لابن الحاجب ، وتصريف العزى لعز الدين الزنجاني في الصرف ، ومفتاح العلوم للسكاكي وغيرها

٢ - متن اللغة

كان المرجع في معرفة معاني المفردات طوال العهد الأموي ، مشافهة الأعراب أو سؤال الأديباء . ولما جاء العصر العباسي فكر بعض الأئمة في تدوين رسائل صغيرة في فئات من الألفاظ كالتي تجمع أعضاء الانسان أو بعض الحيوان أو النبات أو الجماد . ثم جاء الخليل بن أحمد ففكر في اختراع طريقة جامعة سهلة تحصى بها كلمات العربية وتكتب معها معانيها ، فوضع كتابه العين الذي رتبته على حسب مخارج الحروف من الخلق إلى الشفة مبتدئا بإياه بحرف العين ، ولكن يظهر أنه لم يتمه وبقيت طريقة الرسائل جارية حتى أتمه جماعة بعد وفاته ، أشهرهم الليث بن المظفر فكان أول كتاب منظم في متن اللغة . وفي العصر الثالث ألف ابن دريد كتابه الجهرة منه ومن الرسائل المذكورة ومن كتب أخرى الأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما ، ورتبه على حروف الهجاء من الهمزة إلى

الياء، وألف أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري كتابه التهذيب على ترتيب الخليل في عشر مجلدات ، كما ألف الصحاح بن عباد المحيط في سبع مجلدات ، وأحمد بن فارس الجمل حافظا الشواهد ، والجوهري الصحاح الذي جمع فيه أربعين ألف مادة . ثم حل العصر الرابع فألف الفيروز آبادي القاموس المحيط ، والزنجشري أساس البلاغة ، وبعدهما ألف الصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ كتابيه تكملة الصحاح والعياب، ثم جمع بينهما في مجمع البحرين . على أن التأليف لم ينقطع بالانكباب على المعاجم عن أن يتناول نواحي أخرى من اللغة كالأجناس في فقه اللغة للثعالبي، وشرح غريب الحديث للجزري وغيرها .

٣ — البلاغة

تطلق البلاغة في عرف العلماء على علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع، ولكل مباحث خاصة به كما هو معروف . وقد كان الدافع إلى نشأتها الدفاع عن إعجاز القرآن الذي خاض فيه كثير من الزنادقة والفلاسفة بانكاره أو بالحيدة عن أن سببه التناهي في البلاغة . وقد تقدمت هذه العلوم مباحث منها قبل أن تكتمل كأنها إرهاب لها قبل هذا السجال، دعت اليها أسباب طارئة كتأليف أبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ كتابه « مجاز القرآن » على أثر سؤال وجه اليه في معنى قوله تعالى « طلعتها كأنه رءوس الشياطين » وإجابته السائل بأن ذلك على حد قول الشاعر: أيقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال^(١)

(١) استعمل أبو عبيدة في تلك التسمية كلمة مجاز بمعنى طريق التعبير لا

بالمعنى الذي اصطلح عليه بعد ذلك جاءت أبحاث كتابه خليطا من النحو

وكالذى كان من الجاحظ في تأليف كتابه « إعجاز القرآن » الذى بقيت
منه أبحاث كثيرة منقولة في كتاب الفصول المختارة من كتبه لعبيد الله
ابن حسان، وفي كثير من كتابه البيان والتبيين، وكالذى كان من المبرد
حين قال له الكندى الفيلسوف « أرانى أجده فى كلام العرب حشوا
إذ أجدهم يقولون عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون
إن عبد الله قائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال له أبو العباس
« بل المعانى مختلفة، فالأول إخبار عن قيام والثانى جواب عن سؤال
سائل والثالث جواب عن إنكار منكر وقد تكررت الألفاظ لتكرار
المعانى » إلى غير ذلك من متعلق البيان والمعانى. ثم جاء ابن المعتز فراه
ما كان يقع للشعراء من محسنات دون أن تعرف لها أسماء، فخصر منها
سبعة عشر نوعا سمي كلا منها وسميها في مجموعها البديع، وإن كان فيها
بعض ما هو الآن من البيان كالمستعارة والكناية. ولهذا كله يمكن أن
يقال إن البديع وضع قبل انتهاء العصر الثانى، وإنه وضعت أبحاث
كثيرة خلاله وخلال الأول للمعانى والبيان. وقبيل انتهائه عقب
تدامة بن جعفر على بديع ابن المعتز فى كتابه « نقد قدامه » الذى أتى فيه
عشرين محسنا وافق ابن المعتز فى سبعة منها، واختص بثلاثة عشر
كما اختص ابن المعتز بعشرة، فتمت المحسنات ثلاثين. وفى العصر الثالث
ألف ابن هلال العسكري كتابه الصناعات فى معظم أبحاث هذه العلوم
الثلاثة فكان أول كتاب جامع لها وإن لم يميز بعضها عن بعض. وفى الرابع

والبلاغة وإن كان للشأنية الكثرة وبخاصة البيان لأن السبب الحافز لوضع الكتاب
كان منه كما رأيت.

ألف إمام البلاغة عبدالقاهر الجرجاني كتابه « دلائل الإعجاز »، وكتاباه « أسرار البلاغة » مغابا على الأول أبحاث المعاني، وعلى الثاني أبحاث البيان، فعد هذا أول تفرقة بينهما، وكان البديع قد تميز كما مر آنفا، وبهذا تكاملت هذه العلوم وتميزت تقريبا. ثم حدث بعد عبد القاهر أن زاول البلاغة كثير من الأعجام متأثرين بالعجمة من جهة، وبالفلسفة والمنطق من أخرى. فكتبوا فيها بأساليب مثلت الناحيتين المذكورتين فكانت عثرة في طريق الفصاحة والبلاغة، ومن هؤلاء السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب مفتاح العلوم في النحو والصرف والبلاغة والعروض. وقد لخص قسم البلاغة منه الخطيب القزويني في كتابه « تلخيص المفتاح » ذى الشهرى الذائعة والشروح المتعددة، وعنده وقف نمو هذه العلوم قبل أن يتم نضجها وهى فى حاجة إلى الانضاج الذى كان منظورا لها لولا ما دها العرب والعربية من أحداث^(١)

٤ - الأدب والتاريخ

طالنا فى أول موضوع من كتابنا عن العصر الجاهلى، التعريف بالأدب وتاريخه علاجا طويلا فهم منه أن أول معنى عرفته العرب لكلمة الأدب صنع طعام يحتفل بالدعوة إليه فى مأدبة، وأنها قبيل

(١) مما ذكر عن علوم البلاغة هنا ترى أنها من صنع علماء المشاركة، أما علماء الممالك الغربية فقد كاد ينحصر عملهم فيها فى كتابى « المثل السائر » للموصلى وهو خير كتبهما وبخاصة فى البيان والمعاني و « تحرير التعبير » لعبد العظيم بن أبى الاصم المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ فقد أوصل فيه محسنات البديع إلى التبيين.

الاسلام أخذت تستخدم في التهذيب والتثقيف ، وأن الاسلام أذاع هذا المعنى ونشره لكثرة تعاليمه الداعية إلى مكارم الأخلاق ، وأن الناس توسعوا عقب ذلك فأطلقوا الأدب على كل ماله أثر في التهذيب ، وبذلك تناول مأثور اللغة من كل أثر وشعر يحض على المحامد ويكره في المذام . وعرف من يروى ذلك بالأديب ، ومن هنا جاء تعريف الأدب منذ صدر الاسلام بأنه « معرفة كلام العرب نثرًا وشعرًا وكل ماله صلة به من أيام وأنساب وأخبار وغيرها » وعلى هذا كان التأديب في عصر الراشدين ، ثم أخذ ينمو ويتسع مدة بني أمية شاملاً معه ما وضع من قواعد النحو إذ ذاك . وقد عظمت رواية الأدب بهذا المعنى لما كان من تشجيع الخلفاء عليها ، فنشأت الطبقة الأولى للرواة كما ذكرنا ذلك تفصيلاً بكتابنا الثاني . والذي نريد أن نقوله الآن ، إن ما روى في العصر الأيوبي بقي غير مقيد في كتاب حتى إذا ما جاء العباسي ودخل الاسلام كثير من الأتجاهم الذين تعلموا لغة العرب ، وجدت الحاجة إلى التوسع في قواعد النحو والتحرر من الأخطاء ، وإلى الاكثار من الرواية للشواهد والمراتة ، وقد دفع الحرص على هذين الأمرين معاً إلى تقييدهما بالتدوين ، كما حجب بعد مواطن العباسيين عن البوادي ، إلى طائفة من فصحاء الأعراب ، التردد على حواضر العراق لمداواة والمتعلمين لقاء ما كانوا ينالون من رزق ومال فكان من أشهرهم بالبصرة أبو البيداء الرياحي ، وأبو مالك بن كركرة ، وأبو الجاموس بن يزيد ، وأبو عدنان بن عبد الأعلى ، وشبيل بن عرعة الضبعي . وكان من أشهرهم بالكوفة والحيرة أبو خيرة بن زيد وأبو محم الشيباني . ثم تعدى سيلهم المصريين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضمضم الكلابياني

وأبو شبل العقيلي والفقعي الأسدي . بل تجاوزها إلى خراسان كأبي
العميثل مؤدب الطاهريين . ولكن كثير من هؤلاء كتب لم يحصل منها شيء
لضياعها ، ولكن معظم أدبهم وأدب غيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية
وإنما كان الرواة يرحلون إليهم ، قد دونه الرواة في العصر العباسي الأول فكان
مرجع الناس . وأهم هؤلاء الرواة إذ ذاك أبو عمرو بن العلاء ، وعنه أخذ
أكثر النحاة والأدباء ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقائص جرير
والفرزدق والشعر الشعراء ، والاصمعي عبد الله بن قريب صاحب
الاصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب أخرى في الإنسان وكثير من
الحيوان والنبات والجماد ، وأبو زيد الأنصاري صاحب النوادر في اللغة
وكتابي المطر والابن ، والقاسم بن سلام صاحب كتب غريب الحديث وغريب
المصنف والامثال وفضائل القرآن والمواعظ . على أن هناك طائفة من
الرواة غلبت عليهم رواية الشعر ، أشهرهم حماد جامع المعلقات ، والضبي
صاحب المفضليات ، وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ،
والشيباني جامع أشعار القبائل . وقبيل أن ينتهي العصر الأول العباسي
نشأت طبقة ثانية كانوا يجمعون بين الروايات ويفاضلون بينها ، منهم
محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء ، وأبو زيد بن أبي الخطاب
صاحب جبهة أشعار العرب ، وله في صدرها مقدمة تبلغ نحو الأربعين
صفحة ، تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاماً انتقادياً له في عالم الأدب مكان ،
ثم كانوا يحيدون في كلامهم عن الأكثر من اللغة التي بدأت تتميز عن
الأدب ، كما حاد أسلافهم أولاً عن الأكثر من النحو ، فتميز منذ أول العصر .
ولما حل العصر الثاني أخذ الأدب يستقل عن هذين

العامين إلالمما ، وبمعني بالمأثور وبالكلام عليه شرحا وتعليقا وبالأخبار التي تتعاقب برجاله ، ثم جلا الأدياء في أوله عن المصريين للأحداث النازلة بهما إلى بغداد التي استبحر فيها العمران ، وكانت الكتب المترجمة في الأدب الفارسي وغيره ، قد أنارت للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك كله وجهة الأدب وظهر هذا التغير في أمور ، منها في المأثور تجاوز الرواية إلى التدبر في المروي بما يحل معناه تحليلا ينتهي بحكمة أو عظة ، ومنها في الخبر جمع أشتهات الأخبار العربية على اختلافها مع ترتيبها أبوابا في كل باب طائفة ، ومنها غيرهما الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الافتداء بهم ، ولعل الدافع إلى هذا الميل ما ظهر في ذلك العصر من فساد الحكم وتوالي الظلم حتى على الخلفاء ، إلى غير ذلك مما اصطبغت به كتب الأدب وتوخاه في التصنيف الأدياء ، كالجامحظ إمامهم وقاتح الفتوح في التأليف ، فله كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب المحاسن والاصناد على خلاف ، وأخلاق الملوك وتنبيه الملوك ، وسحر البيان وفضائل الأتراك ، وسلوة الحريف والعرافة ، والزجر والفراسة عند الفرس ، وطبقات المغنين والتاج وغيرها ، سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة ، وكان قتيبة المقي للجاحظ في هذا الباب وصاحب هذه المؤلفات . عيون الأخبار في عشرة كتب ، والمعارف في التاريخ العام والشعر والشعراء وأدب الكاتب والامامة والسياسة والشراب والاثربة والتسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب وغيرها ، وكقدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وغيرها ، ومحمد بن أحمد الوشاء صاحب الموشى ، وهو كتاب فريد في باب فيه

غير المواعظ الكثيرة ، وصف الازياء والفاظ المكاتبات وما يكتب من
الأشعار على الثياب والأدوات ، وقد طبع باسم الظرف والظرفاء وغيره .
إلى سائر أدباء هذا العصر وهم كثير وكتبهم أكثر .

ولما جاء العصر الثالث كان أكبر ظواهر الأدب فيه .

أولاً : - انتشار الروح القصصية التي أحيها في العصر الأول
ابن المقفع ، ونماها في الثاني من اقتفوا أثره فيها كالجاحظ ، وقد قدمنا القول
على ذلك مبسوطاً في الكتابة حيث الكلام على القصص والمقامات .

ثانياً : - انتشار روح النقد وتعدد موضوعاته بعد أن فتحه في
العصر الثاني بالمعنى الذي نريد ، قدامة بكتابه المذكورين فكان في أدبائه من
انتقد الرواية والإخبار ، كآبي الفرج في كتابه الأغانى أضخم كتب
الأدب وأحفلها بمواده وأجمعها لتراجم الشعراء والمغنين . ومن انتقد
الشعراء كحسين بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ في كتابه « الموازنة
بين أبي تمام والبحتري » فإنه لم يترك لمكايهما شيئاً مما يقوله متعصب
له أو عليه ، إلا أورد في أسلوب جدى ممتع ونقاش حصيف . وكالصاحب
ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ في كتابه « مساوى المتنبي » الذى كان شديد
التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه مع عرضة عليه مشاطرته ماله ،
وكعبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ في كتابه « الوساطة بين
المتنبي وخصومه » الذى تصدى فيه لدحض ما ذكره الصاحب وغيره
من سائر الخصوم ، فانتصف المتنبي انتصافاً مؤيداً بالحجة والبرهان .
كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقاداً مبنياً على قوانين البلاغة التي وضع

بعض قوادحها في العصر الأول وتتمت في الثاني واطرد نموها في الثالث،
كأنبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ في « كتاب الصناعتين الكتابة
والشعر » فقد ملأه نقدا مؤنساً على ضوابط الفصاحة والبلاغة في
الأساليب والمعاني؛ بل كن فيهم من طبق ذلك كله على نوابغ الشعراء
وكبار الكتاب، كالنعماني المتوفى سنة ٤٢٩ في كتابه « يتيمة الدهر »
الذي سبق القول عنه، وفي كثير من كتبه المعروف منها نحو الأربعين
كلا عجاز والإيجاز، وخاص الخصاص، ونثر النظم، وحل العقد، وشمس
الادب في استعمال العرب، والكناية والتعريض، وأجناس التجنيس،
وسحر البلاغة، وغرر البلاغة، والنهاية في الكناية، ولا ننس من نقاد هذا
العصر خاتمة شعرائه وكبير فلاسفته أبا العلاء المعري الذي جاءت
« رسالة الغفران » له مبنية عليه لحمة وسدى.

ثالثاً — نضج نوع من الادب هو المحاضرة، وغايته اقتدار الأديب
على إيراد كلام غيره المناسب لما يطرأ في محضره، وعماده كثرة الحفظ
وجودة البديهة، ومن المؤلفات فيه « المحاضرات والمناظرات » للتوحيدي
المتوفى سنة ٤٠٠ و « النمل والمحاضرة » للنعماني و « الدرر والغرر »
للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦.

ولما جاء العصر الرابع طرد رقى هذه الظواهر الثلاث. فأما القصة
فقد علمت ذلك عنها، وأما النقد فكان من أصحبه وأتممه ما وقع من
عبد القاهر في كتابيه « دلائل الإعجاز وأسرار البيان » وما وقع للموصلي
في كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » فقد أجاد فيه نقد

الألفاظ والمعاني^(١)؛ أما المحاضرة فقد جاءت فيها «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» لأبي القاسم الراغب الاصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ، خزانة أدب لكل ما يقال عن الشيء وضده في خمسة وعشرين بابا - سمى كلا منها حدا - في العلوم والصناعات والاخلاق والاجتماع والصفات وغيرها من أنواع البحوث .

هذا وإنما عددنا التاريخ من الأدب، لأن كل من تعرض للعرب فيه تعرض لأدبهم . وقد عني بتدوينه منذ العصر العباسي الأول في الانساب والسير والطبقات والفتوح . فكان من مؤرخي الانساب أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي صاحب جمهرة الانساب، ومن مؤرخي السير أبو محمد عبد الملك بن هشام راوي السيرة النبوية لأبي بكر محمد ابن إسحق ، ومن مؤرخي الطبقات أي التراجم؛ أبو عبد الله محمد بن سعد صاحب طبقات الصحابة والتابعين ، ومن مؤرخي الفتوح أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي وغيرها في الفتوح .

وفي العصر الثاني توسع المؤرخون فخرجوا في الانواع المذكورة إلى أنواع كثيرة ، من تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كأبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور ، أو خاص بالناس أو البلدان كأبي الفضل أحمد بن طيفور صاحب تاريخ بغداد ويوسف بن الداية صاحب سيرة ابن طولون وابنه خماريه، أو غيرها من تاريخ العرب

(١) ثم ما وقع بالمغرب لأبي العباس الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦هـ في كتابه «العمدة» الذي جاء أجل كتاب في صناعة الشعر وتقدمه، وفي كتابه «قراضة الذهب في نقد أشعار العرب» .

المتصل بأدبهم كـ محمد بن حبيب صاحب كتاب القبائل والأيام في أكثر من أربعين جزءا . أو تاريخ الفتوح كأبي جعفر أحمد بن يحيى البلاذري - خاتمة مؤرخي الفتح - صاحب فتوح البلدان .

وفي العصر الثالث ساد التاريخ العام شيء من الرحلة لكثرة ما كان فيه من رحلات ، ومن كبار الرحالة فيه ، علي بن الحسين المعروف بالمسعودي . كما تكاثرت التواريخ الخاصة للأمم أو الأشخاص أو المدن ، فمن رجالها في تاريخ الأمم . أبو عمر محمد بن يوسف الكندي صاحب تاريخ مصر ، ومنهم في تاريخ الأشخاص ، أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي صاحب اليميني في تاريخ يمين الدولة الساطان محمود الغزنوي وأبيه ، ومنهم في تاريخ المدن أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد « غير السالف لابن طيفور » .

أما في العصر الرابع فقد تعددت الموضوعات لتعدد الخلفاء والسلطين ، وتنوعت الكتب وتبارى المؤرخون في تدوين المعاجم والمطولات . فكان منهم ، مؤرخو الدول كلوزير جمال الدين علي بن ظافر الأزدي المصري صاحب الدول المنقطعة - يعني عن العباسية - ، وأصحاب السير كتؤيد الدولة مجد الدين أبي المظفر أسامة بن مرشد المنقذي صاحب كتاب الاعتبار في سيرة حياته ووصف رحلاته ، و مترجمو الجماعات كأبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر صاحب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، وفيه أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة للصحابة ورواة الحديث ، ومؤرخو البلاد والمدن في مختلف الاقطار كابي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقي صاحب

تاريخ دمشق ، ثم المؤرخون العامون كأبي الحسن علي بن محمد المعروف
بعض الدين ابن الاثير صاحب الكامل أشهر كتب التاريخ ومن أوثقها
وأوضحها وأوسعها. وهو منذ الخليفة إلى سنة ٦٢٨ في اثني عشر جزءا

العلوم الكونية

عرفت أن العلوم الكونية أربعة أقسام ، طبيعية ورياضية وإلهية
وسياسة . فمن الطبيعية الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والفلاحة
والمواليد الثلاثة « الحيوان والنبات والجماد » ، ومن الرياضية الجبر والحساب
والهندسة والحيل « الميكانيكا » والفلك والجغرافية النظرية ، ومن الإلهية
صفات الاله والسمعيات وقوى النفس وكل ما وراء الطبيعة ، ومن
السياسية تنظيم الملك وتدبير المنزل وتدبير المال والاخلاق . وإليك كلمة
مجملة عنها مجموعة كما وعدنا ، لأنها ليست ذات صلة مباشرة بالأدب
تحتاج إلى أفرادها كما أفردنا مواد العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية قبل .
ذكرنا في صدر الكتاب حيث الكلام على غلبة الفرس فيما طرأ
على العرب ولغتها من جراء امتزاج الاعجام بها ، أن الفرس أحرزوا
منذ القديم قسما وافرا من العلوم أوجدوا بعضه ، ثم ورثوا بعضها عن
الآشوريين والبابليين ، وترجموا بعضها منذ القديم عن الهند والصين ، كما
ترجموا بعضها آخر عن اليونان على يد بعثة أرسلها ساسانور بن أزدشير إلى
بلاد اليونان ، وعلى أيدي العلماء الوثنيين الذين رحلوا من اضطهاد
جوستيان قيصر إلى بلاد الفرس أيام كسرى أنوشروان . وبذلك كان
العلم القديم كله تقريبا مستقرا في بلاد الفرس فلما اختلط العرب بهم

على العهد العباسي اختلاطا كبيرا، ورأى أبو جعفر المنصور حاجة الدولة الجديدة إلى هذه العلوم، عمل على ترجمتها كما تقدم وتبعه في ذلك خلفاؤه إلى أن جاء المأمون فوجه إلى الترجمة اهتماما ليس فوقه اهتمام، حتى أعاد ترجمة كثير من الكتب اليونانية والهندية عن لغتيها الأصليتين لأن اللغة الفارسية كما حدث قبله، وبذلك تم للعرب على عهده جل ما كان من علوم عند أمم الحضارة القديمة ولا سيما الفرس واليونان والهنود على أيدي ترجمة ماهرين.

وقد كان خلفاء الدولة يتخيرون من علوم كل أمة ما نبغت فيه، فكانوا يعتمدون في السير والحكم والتاريخ والموسيقى والآداب على الفرس، وفي الفلسفة والمنطق والهندسة والطب على اليونان، وفي الحساب والنجوم والعقاقير والأقاصيص على الهنود؛ على أنهم نقلوا علوما أخرى عن أمم غير هذه الثلاث كانت فيها ذات نبوغ، كالزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم عن الانباط والسككادان، وكالكيمياء والتشريح عن المصريين، ثم مزجوا ذلك كله ببعضه ببعض وأخرجوه في طابع عرفوا به ونسب إليهم في العصر العباسي الأول، فكانوا في ذلك مثار الدهش والاعجاب. ومما ينبغي أن ينبه إليه هنا أن اعتزازهم بأدبهم جمعهم لا يعنون بنقل آداب غيرهم من تلك الأمم إلا ما تسرب إليهم من آداب الفرس بعجل أبناء فارس أنفسهم حين شاركهم النفوذ وأرادوا إظهار ما أثر أسلافهم فيها كما ظهرت في سائر العلوم، ولو كان لأبناء الأمم الأخرى مثل ما لأبناء الفرس في هذه المشاركة لنقلوا آداب أممهم كما فعل هؤلاء.

وقد كان معظم العقلة من أهل العراق والشام وفارس والهند غير المسلمين الذين استجسروهم خلفاء وأغدقوا عليهم المال . فكان أشهر المترجمين من اليونانية . آل بختيشوع طبيب المنصور، وآل حنين ابن إسحق وابن أخته حبيش الأعسم، وآل سرجويه، وآل ثابت الحراني وأفراد غيرهم كقسطا بن لوقا ، والحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق واسطفان بن باسيل، وموسى بن خالد وأبو عثمان الدمشقي وأبو بشر بن يونس ويحيى بن عدي . وكان أشهرهم من الفارسية ابن المقفع وآل نوبخت وخاصة الفضل ، وموسى ويوسف ابنا خالد وأبو الحسن علي بن زياد التميمي، والحسن بن سهل وأحمد بن يحيى البلاذري، وإسحاق ابن يزيد، ومحمد بن الجهم، وهشام بن القاسم، وموسى بن عيسى، وعمر بن الفرخان، وجبلة بن سالم . وكان أشهرهم من الهندية منكه وابن دهن الهنديان . وكل هؤلاء نقلوا للخلفاء ومشاركيهم في النفوذ . وكان ممن نقل للعلم ولنفسه بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن وأبناؤهم من بعدهم . هذا والكتب التي نقلت تعد بالمئات ولكن الباقي منها لا يتجاوز العشرات ، وأشهره المجسطي لبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر، والسياسة في تدبير الرياسة ترجمة يوحنا الطريق، ورسائل في الطب ترجمة قسطا بن لوقا، والمدخل في الطب ورسائل أخرى فيه، والنواميس لحنين بن إسحق ، ومنطق أرسطو لابنه إسحق . وقبل أن ينتهي هذا العصر الأول اشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة فنبغ فيها من فلاسفتهم أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الملقب فيلسوف العرب ، وامتد زمنه من المأمون إلى المتوكل؛ فهو قد أدرك

العصر الثاني وله تأليف كثيرة في معظم العلوم الدخيلة ، عد منها ابن النديم في الفهرست ٢٣١ كتابا موزعة على ١٧ علما ومعدودة في كل علم ولكن الباقي منها إلى الآن لا يبلغ العشرين ، منها إلهيات أرسطو والمد والجزر واللون اللازوردى في السماء وذات الشعبتين « آلة فلكية » واختبارات الأيام ورسالة في الموسيقى ، ومقالة في تحاويل السنين . وفي العصر الثاني زاد اشتغال المسلمين بهذه العلوم . ومن نبغائهم فيها أبو نصر الفارابى الذى يلى الكندى في المكانة ، ومن كتبه الباقية ١٢ كتابا في المنطق و ٨ في السياسة والأدب و ٢٧ في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وأبحاث أرسطو وموضوعات أخرى . وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى وله كثير من المؤلفات والمخترعات . فهو لفاته تزيد عن المائتين ولكن الباقي منها بضع وعشرون أغلبها في الطب الذى يقال فيه « كان معدوما فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصا فكماله ابن سينا » ومنها كتاب الحاوى فى الامراض ومداواتها ، والطب المنصورى ألفه للأمير منصور السامانى ، والطب الملوكى ألفه لصاحب طهرستان ، والمرشد والسكافى وبرء الساعة فى الطب أيضا والجدرى والحصبة وهو أول كتاب أجاد تشخيص هذين الداءين ووصف الدواء لهما

ومن مكشوفاته الكيميائية زيت الزاج « حامض الكبريتيك » ولا تزال طريقة استحضاره له باستقطار كبريتات الحديد مستعملة إلى الآن ، والكحول وقد استخرجه باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة . وله فى الكيمياء مؤلفات .

ولما جاء العصر الثالث زاد المشتغلون بهذه العلوم من المسلمين فيه، فنبغ كثير أشهرهم أبو علي الحسين بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس المتوفى سنة ٤٢٨ هـ فقد انفرد بقوة العقل وسعة العلم وألف في كل فن حتى زادت مؤلفاته على المائة، وقد نقل الباقي منها إلى اللغات الاوربية فأثر في نهضتها الحاضرة تأثيرا يينا . منها في الطب القانون في ١٤ جزءا والشفاء في ١٨ جزءا « بعض أجزائه في علوم أخرى » وفيها في الفلسفة الاشارات والنجاة وفي الالهيات ثم النفس الالهيات وقصيدة النفس، وفي المنطق الاشارة والعروس ، غير كتب أخرى في الطبيعة والرياضة والسياسة والموسيقى وغيرها، ومن المبرزين فيه أيضا جماعة إخوان الصفا ولا تزال رسائلهم إلى اليوم مرجعا في كثير من مباحث هذه العلوم وخاصة الفلسفة . وقد تقدمت في هذا العصر الكيمياء فأُنشئت حوانيت الصيدلة وعرف كثير من المركبات كما تقدم علم النبات، فولدت أنواعه واستخرجت منه الأدوية المختلفة ، وكذا النجوم فبنيت المراصد وأبطلت صناعة التنجيم ثم الرياضيات والفنون الجميلة ثم استمر تقدم هذه العلوم سائرا إلى الامام بالمشرق في هذا العصر حتى نقل إلى الأندلس وبخاصة رسائل إخوان الصفا فاهتم الاندلسيون بها .

وفي العصر الرابع اطردهم نمو هذه العلوم كذلك بالشرق والغرب ولكن الاندلس في أواخره فاقت المشرق الذي كان له السبق في أوائله فكان معظم الفلاسفة منها، ويكفي أن تعلم منهم أبا الوليد بن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ صاحب الكتب الكثيرة التي كان فضلها على نهضة أوربة كفضل كتب ابن سينا المذكور .

وإن المقام ليضيق عن عد علماء هذه العلوم من المسلمين شرقا وغربا خلال العصرين الثالث والرابع ؛ فلذلك تفت بالعلماء المذكورين « ابن سينا وابن رشد » اللذين جاء أولهما نخر المشرق في العصر الرابع، وجاء ثانيهما نخر المغرب في الخامس :

هذا - وقد خاق تدوين العلوم بنوعيتها كتابة علمية هي لغة التأليف . كما حمل تقدمها على إحياء مجالس العلم والناظرة التي انتهت بإنشاء المدارس في العصر الأخير بالمعنى الذي نعرفه الآن ، وهذى كلمة عن كليهما تلائم المقام .

الكتابة العلمية أو لغة التأليف

جاءت كتابة التأليف مختلفة باختلاف نوع العلوم من إسلامية وكونية . فكانت في العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية في العصر الأول العباسي ، عبارة عن جمع الروايات وتصنيفها طوائف تقع كل منها تحت بحث خاص . وقليل ما كان يزيد المصنف على هذا الجمع ما يربط بعض الروايات ببعض أو يشرح الغريب . وقد كانت هذه الزيادات أظهر في اللسانية منها في الشرعية ، كما كانت ذات فصاحة وبلاغة لرسوخ المصنفين إذ ذاك إلا في الفقه والكلام ، فقد كانت فيهما أقل درجات في البيان . ولما جاء العصر الثاني نمت هذه الزيادات على ما رأيت آنفا في تاريخ العلوم واطرد نموها في الثالث لنمو العقائدية واتساع الأبحاث ، فظهرت شخصيات المؤلفين وازدادت ظهورا باغفال الأسانيد في الرواية وبخاصة في عاوم اللسان مع بقائها ذات قوة في التعبير وجمال في الأداء ، حتى إذا ما جاء العصر الرابع فسد هذا الجمال في أوله بالصناعة اللفظية التي أضرت

بالتعابير ، وفي آخره بالصناعة المنطقية التي أصابته بالتعقيد .
وكانت في العلوم الكونية المترجمة منذ العصر الاول - ماعدا الادبية
التي كانت آية في البيان - لاتعدو العبارة الأعجمية الأصلية في ثوب
ترجمتها العربية دون تصرف كبير . ولكن حينما نهضت الترجمة في آخره
على عهد المأمون بما أغدق من ذهب على المترجمين ، وجد فيهم الخذاق
الذين أعادوا ما ترجم من قبل بعبارة صحيحة ترافق صحتها الجودة في
معظم الاحيان . وعلى هذا كانت العبارة في العصر الثاني . أما في الثالث
حيث هضم المسلمون هذه العلوم وعمدوا إلى التأليف فيها بعد أن
اختمرت معانيها في نفوسهم . فقد اقتربت لغة التأليف في العلوم المترجمة ،
من لغته في العاوم الاسلامية الشرعية ، بل في بعض اللسانية لأن
التأليف حينذاك كان وضعاً لا ترجمة ، ولهذا ظهر فيه تصحيح كثير من
الاغلاط ، غير أن النهوض لم يستمر طويلاً في العصر الأخير الذي
تسرب فيه من الفساد مثل ما تسرب إلى العلوم الاسلامية ، ولكنه
كان في تعقيد المعاني شراً منه في تكلف اللفاظ .

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما استحدثه تدوين العلوم بنوعها
وخاصة الكونية في اللغة من تأثير في اللفاظ . فقد خرج كثير منها
عن معانيه الأصلية إلى معان اصطلاحية جديدة تراها منبثة في جميع
العلوم ، وهأنذا تعرف طوائف منها في العلوم الاسلامية شرعية
ولسانية ، وهالك بعضها في الكونية وخاصة الطب والفلسفة .

فمن الطبية ، الكحالة والعصيدلة ، والتشريح والجراحة والتوليد ، في
فنون الطب ، والرطوبات والامزجة والاخلاط كالخار والبارد والجاف

واليابس والسوداء والصفراء في مصطلحات هذه الفنون : والمسخن والمبرد والمرطب والمخفف والمسهل والمخدر ومائرمشتقاتها في الأدوية ، والفسخ والرض والخاع والفتق والجبر في الجراحة ، والصداع والصرع والسرطان وغيرها كثير في الامراض ، ومثلها ما جاء في وصفها كالمزمنة والحادة والغيب والربع وغيرها في أوصاف الحمى مثلاً .

ومن الملاحظة القدم والحدوث والحركة والسكون وغيرها في الكلام ، والمريد والسالك والانس والمشاهدة في التصوف . وقد نقلت ألفاظاً أعجمية كثيرة بالتعريب أو على حالها في أسماء العقاقير والامراض والأدوات والفلسفة . كلبقدونس والمصطكى من العقاقير اليونانية ، والبابونج والزرنيخ من الفارسية ، وكالقولنج والملنخوليا من الامراض اليونانية ، والرسام والمارستان من الفارسية ، وكالاصطراب والانبيق من الأدوات اليونانية ، والبركار والاسطوانة من الفارسية . وكالهيولى والطاسم في الفلسفة . إلى غير ذلك مما زخر تياره حتى ألفت فيه كتب ، كالعرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ .

وقد جاوز التأثر بالعجمة الالفاظ إلى الأساليب لتأثر المترجمين بلغاتهم الاصامية . فكثير استخدام فعل الكون ، وأدخات أل المعرفة على لا النافية ، وزيدت الألف والنون قبل ياء المتكلم ، كما زيد ضمير الغائب بين المبتدأ وخبره ، وصيغت كلمات من الاسم أو الضمير أو منهما معاً كالكمية والهوية والماهية . وكثير استعمال الجمل المعترضة والفعل المبني للجهول والألقاب وهكذا

م - ٢٠ أدب

مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

قد عرفت ما كان من عناية خلفاء المسلمين منذ الصدر الاول إلى آخر العصر الأموي بالادب والشعر، وما كان على عهدهم من علم، فيما ذكرناه وسقنا الشواهد عليه بكتابنا الثاني، كما عرفت أن دوره فيها كانت المساجد، ولتعرف الآن أنها بقيت في العصر العباسي كما كانت في سابقه ولكن ضم فيه إلى الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى والمسجد الأموي، وجامعي البصرة والكوفة والمسجد العتيق بالفسطاط وسواها، مساجد بغداد ومسجد أحمد بن طولون والازهر وجامع الحاكم وغيرها.

ولكن لما زخر الأدب وفاض العلم منذ العصر العباسي الأول وولع خلفاؤه بهما ولعاشديدا، أكثروا استقدام العلماء إلى مجالسهم وحاكمهم في ذلك الأمر والوزراء، فصارت تعقد تلك المجالس للمناظرات في العلوم اللسانية والشرعية وتفدق العطايا على المتناظرين، وكان هذا أكبر حث للأدباء والعلماء على أن يهيئوا أنفسهم لتغذية هذه المجالس طمعا في المال.

قال أسامة بن معقل « كان السفاح راغبا في الخطب والرسائل يصطنع أهلهم ويثيبهم عايتها فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عنده فنلتها، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وأيام العرب، يدني أهلها ويجيزهم عليها، فلم يبق شيء منها إلا حفظته، طلبا للقرب منه، وكان الهادي مغرما بالشعر يستخلص أهله فأنزحت بيتا نادرا ولا شعرا فاخرا ولا نسيبا سائرا إلا حفظته، ولم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها » ولو نحن نقول بلغت حياة أسامة

الرشيـد لتحدث عنه أضعاف ما تحدث عن هؤلاء .

ولما فاضت العلوم الكونية على عهد المأمون امتلأت مجالسه ومجالس غيره بالمناظرات وبخاصة الفلسفة ، ولكن لم تكن المناظرة في هذه العلوم الفلسفية على هدوء نظيرتها الأدبية ، فقد احتدم فيها النقاش واستد الخلاف كما احتدم فيما يتصل بالفلسفة من علوم الدين كالـكلام وبعض مسائل الفقه . وقد أشعل جذوة هذا الاحتدام إطلاق المأمون لحرية البحث وانغماسه في أعقد مسائله كخلق القرآن إلى الهامة ، وتشده في ذلك تشددا أوقع الناس في الفتن والحزن طوال عهده وعهد المعتصم والواثق من بعده ، ولم ينجم منها إلا المتوكل الذي قضى على ما كان يخالطها من أذى يستبيح الدماء . على أنه قد بقيت في العصر الثاني الذي بدأه المتوكل بهذا التسكين ، خلافاً كانت تتورحينا وتهداً حيننا بين الحنابلة المتشددين وأبناء المذاهب الأخرى المعتدلين ، فكانت المناظرات الدينية حية إزاء الأدبية فيه . ثم جاء العصر الثالث فخاق خلافاً صحبه من المناظرات الدينية بين الشيعة وغيرهم شيء كثير كاد يقضى على الأدبية لولا شغف رجال الدويلات بالأدب . وقد أدالت الأيام في العصر الرابع للسنة من الشيعة بما كان من قيام السلاجقة والايوبيين ، فخي للسنة فيه مثل ما كان لالشيعة في سابقه ، ولكن مع خمول المناظرات في الأدب وسائر العلوم .

وإليك مناظرتين قصيرتين من النوعين الأدبي والعلمي ، أما النوعان المذهبي والفلسفي فمناظراتهما طويـلة يمكن الرجوع في منلهما فيهما إلى ماكان من المأمون في علويته وفي قوله بخلق القرآن .

١- حضر عند الرشيد الأصمعي والكسائي فسأل الرشيد عن بيت الراعي:
قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا
فقال الكسائي كان قد أحرم بالحيج فضحك الأصمعي وتهانف ، فقال
الرشيد ما عندك؟ فقال والله ما أحرم بالحيج ولا أراد أيضا أنه دخل في
شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام. فقال الكسائي
ما هو إلا هذا وإلا فما المعنى للأحرام ، قال الأصمعي نخبرني عن قول
عدي بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يتمتع بكفن
أى إحرام لكسرى فقال الرشيد فما المعنى؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئا
محرما يوجب تحاميل دمه ، فقال الرشيد أنت يا أصمعي ما تطلق في الشعر .
٢- جاء عيسى بن عمر الثقفي مجلس أبي عمرو بن العلاء فقال
ما شيء بلغني عنك أنك تجيزه قال وما هو؟ قال بلغني أنك تجيز « ليس
الطيب إلا المسك » بالرفع فقال له أبو عمرو هيئات نمت وأدج الناس
ثم قال ليحيى بن المبارك وخلف الأحمر امضيا إلى أبي مبدية فلقنا بالرفع
فأنه يأبى وامضيا إلى المنتجع بن نبهان فلقناه بالنصب فأنه يأبى ، فمضيا إلى
أبي مبدية فقال ما خطبكما قالا جئناك لنسألك عن شيء من كلام العرب
قال هاتياه ، فقالا كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » فقال أتأمراني
بالكذب على كبر مني فأين الزعفران وأين الجاوى قال خلف « ليس الشراب
إلا العسل » قال فما تفعل سودان هجر ما لهم غير التمر؟ قال يحيى « ليس
ملك الأمر إلا طاعة الله » فقال هذا كلام لا دخل فيه ليس ملك الأمر
إلا طاعة الله والعمل بها ونصب فلقناه بالرفع فأبى . ثم جاءا إلى المنتجع

فقال له كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » ونصبافقال ليس الطيب إلا المسك ورفع، فجهدا به أن ينصب فلم ينصب فرجعا إلى أبي عمرو وعنده عيسى فأخبراهما بما سمعا، فأخرج عيسى خاتمه من يده فدفعه إلى أبي عمرو وقال بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

إنشاء المدارس - انقضى العصر الاول ثم مضى الثاني والثالث كذلك ومتلقى العلم المساجد والمجتمعات العامة في مثل المربد، ثم المجالس الخاصة في دور الخلفاء والعظماء، وفيها جميعا كانت تدور المناظرات دون أن يكون للعلماء أو الطلاب دور خاصة أو أرزاق مفروضة، إنما كانت نفقة الطلاب على أهليهم ونفقة العلماء مما يحترفونه مع العلم، أو يمنحونه من صلة نظير تأليف كتب أو استفتاء في موضوع، مع غلبة التقشف في المعيشة والزهد في الدنيا على الجميع . ولكن ذلك لم يلبث أن أحدث في الدروس اضطرابا وفي النفوس قلقا لكثرة من أصبحوا في حاجة إلى التعلم وقلة من بقوا يزاولون التعليم، فما كاد يحل العصر الرابع حتى هال هذا الامر نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي ووزير ابنه ملكشاه وكان فيه ميل إلى العلم وأرخت له الايام في وزاره نحو ثلث قرن فشرع سنة ٤٥٧ في تأسيس المدرسة النظامية نسبة إليه ببغداد فأتتها بعد سنتين وافتتحها في حفل حافل بجميع الطبقات وولى أبا إسحق الشيرازي رئاسة التدريس بها، وفرض لاساتذتها وطلابها المراتب فكانت أول مدرسة بالمعنى المعروف الآن في الاسلام^(١) ثم بنى أخرى باسمها

^(١) أنكر الحافظ الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام هذه الأولوية لنظام الملك وذكر بعض مدارس في نيسابور، منها البيهقية نسبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠، والمعينية التي أسسها فيها الأمير نصر أخو محمود الغزنوي واليه بها،

فى نيسابور وعهد بها إلى إمام الحرمين ، فكان عمله هذا سنة حسنة اتبعه فيها ذوو الامر بجميع الاقاليم ، فأنشأ السلطان نور الدين صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ مدارس فى معظم بلاد الشام ، والسلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ مثلها فى القدس والاسكندرية والقاهرة . ومما كان يحجب فى هذا الانشاء ، رغبة الخلفاء والولاة اكتساب قلوب العامة بتقريب العلماء وتعليم الفقراء ، ثم رغبة كثير من ذوى اليسار ببلاط السلاطين فى وقف أموالهم على سبيل الخير وأهمها التعليم مع الإبقاء على شيء من غلتها لأسرهم ليكسبوا بذلك الثواب على ما فعلوا من الله ، ويضمنوا لبنيتهم بقاء هذا الشيء بعيدا عما كان يحدث كثيرا من الاغتصاب ، ثم التحزب لنصرة مذهب على آخر كما فعل صلاح الدين المذكور بأنشائه حين أبطل المذهب الشيعى من الازهر ، مدرسة لكل مذهب من المذاهب الثلاثة الشافعى والمالكى والحنفى . وقد استمر عدد المدارس يتزايد كلما تعددت أسباب الانشاء حتى غصت بها المدن الكبرى قبل انتهاء القرن السادس — ذكر ابن جبير فى رحلته أنه شاهد عشرين مدرسة فى دمشق وثلاثين فى بغداد — فكانت هذه الكثرة ماطفة للأحداث الخطيرة التى نزلت بالمسلمين منذ أواخر العصر العباسى وتعدته إلى ما بعده من العصور .

على أن تاج الدين السبكى قد وفق بين الأمرين بقوله فى طبقاته « قد أدركت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب فيها — أى فى المدارس — المعاليم للطلبة ، فإنه لم يصح لى أن كان للمدارس قبله معاليم أم لا ، والظاهر أنه لا يمكن لهم — أى للطلبة — معلوم »

الشعر

أولاً - نماذج

١ - قال بشار المتوفى سنة ١٦٧ ينسب وهو من مخضرمى الدولتين^(١)

يالية نزداد نكرا من حب من أحبت بكرا
حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خرا
تدسى التقى معاده وتكون للحكام ذكرا
وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهباً وعطرا^(٢)
وكانها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا
جنينة إنسية أو بين ذاك أجل أمرا
وكفاك أنى لم أحط بشكاة من أحبت خبرا
إلا مقالة زائر نثرت لى الأحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى عثرا وتحت الموت عثرا^(٣)

(١) هو بشار بن برد الفارسي أصلاً ، العقيلي ولاء ، الضرير الشاعر المتصرف
فى فنون الشعر الذى أجمعت الرواة على تقدمه طبقات المحدثين المجيدين . وهو
من مخضرمى الدولتين ، وقد صغر نيفاً وتسعين سنة (٢) تقاء لون وطيب رائحة
(٣) لبس هذا العدد مراداً لذاته إنما يريد أن يسوى بين ألمه هواها وألمه خلوف
موتها من شكاتها .

٢ — وقال العباس بن الأحنف المتوفى سنة ١٩٢ ينسب أيضا (١)

أزين نساء العالمين أجيبني	دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابي ما أقيم حروفه	لشدة إغوالى وطول نحبي
أخط وأمحوما خططت بعبرة	تسح على القرطاس مسح غروب
أيا فوز لو أبصرتنى ماعرفتني	لطول نحولى بعدكم وشحوبني
وأنت من الدنيا نصيبي فان أمت	فليتك من حور الجنان نصيبي
ولمى لا أستهدى الرياح سلامكم	إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
وأسألها حمل السلام اليكم	فان هى يوما بلغت فأجيبني
أرى البين يشكوه المحبون كلمهم	فيارب قرب دار كل حبيب
أقول ودارى بالعراق ودارها	حجازية فى حرة ومهوب (٢)
وكل قريب الدار لا بد مرة	سيصبح يوما وهو غير قريب
سقى منزلا بين العقيق وواقم	إلى كل أطم بالحجاز ولوب (٣)
أجش مديم الرعد دان ربابه	بجود نهيمى شمال وجنوب
أزوار بيت الله مروا يثرب	لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا	على جانب للحادثات جايب
فانا تركنا بالعراق أخا هوى	تنشب رهننا فى حبال شعوب

(١) هو الفضل أبو العباس بن الأحنف الحنفي الشاعر الرقيق الحاشية

اللطيف الطباع الغزل الخاص للغزل . لجميع ديوانه فيه وكله جيد .

(٢) الحرة الأرض الصلبة السوداء الحجارة ، والسهوب جمع سهب بالضم

وهو الأرض المستوية السهلة (٣) العقيق وواقم موضعان بالمدينة ، والأطم القصر

أو الحصن أو كل بيت من حجارة ، والوب جمع لوبة كالألاب جمع لابة وهى الحرة

به سقم أعيان المداوين علمه سوى ظنهم من مخطيء وه صيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لي منها جرعة في زجاجة ألا إنهم لو تعلمون طبيبى
وسيروا فإن أدركتم بي حشاشه

لها في نواحي الصدر وجس ديب^(١)

فرشوا على وجهي أفق من بليتي يثيبكم ذو العرش خير مثيب
فإن قال أهلى ما الذى جئتم به وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئنا من ماء زمزم لشفيه من دأه بذنوب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم وبينى بيوم المنون عصب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة حايض صفيح مطبق وكثيب
فرشوا على قبرى من الماء واندبوا قتيل كعاب لا قتيل حروب

٣ - وقال أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ يصف سلاف الشهد ونحوه^(٢)

لا يصرفنك عن قصف وإصبا مجموع رأى ولا تشتيت أهواء
واشرب سلافا كعين الديك مذهبة من كف ساقية كالريم حوراء
لها ذبول من العقيان تتبعها في الشرق والغرب في نور وظلماء
ليست إلى النخل والاعناب نسبتها لكن إلى العسل الماذى^(٣) والماء
نشاج نحل خلایا غير مقفرة خصت بأطيب مصطاف ومشتاء

(١) صوت خفى لئفس يدب

(٢) هو أبو علي الحسن بن هانىء الفارسي أصلا الحكيم ولواء أدق الشعراء
حاشية، وأجودهم بديهة، وأفتحهم لأبواب الحديث من المعاني الرقيقة، وثاني
الشعراء المحدثين بعد بشار عند الجاحظ (٣) إلا بيض

ترى أزاها ير غيطان وأودية
 فطس الأنوف مقاريف مشمرة
 من مقرب عشراء ذات زمزمة
 تغدو وترجع ليلا عن مساربها
 كل بمقله يمضى حـكـومته
 حتى إذا اصطاك من بنيانها قرص
 وأن من شهدها وقت الشيار^(٢) فلم
 وصفقوها بماء النيل إذ برزت
 حتى إذا نزع الرواد رغوها
 استودعوها رواقيدا^(٤) مزفنة
 وكم أفواهاها زهر على ورق
 وعمرت حقبها في الدن لم يرها
 حتى إذا سكنت في دنها وهدت^(٦)
 جاءت كشمس ضحى في يوم أسعدها
 كأنها ولسان الماء يقرعها
 لها من المزج في كاساتها حلق
 كان مازجها بالماء طوقها
 فاشرب هديت وغن القوم مبتدئا
 وتشرب الصفو من غدروا أحساء
 خوص العيون بريئات من الداء
 وطائد متبع منها وعسراء
 إلى ملوك ذوي غز وأحياء
 في حزبه بجميل القول والراء^(١)
 أروينها عسلا من بعد اصدها
 تلبث بأن شيرت في يوم أضواء
 في قدر قس كجوف الجب روحاء^(٣)
 وأقصت النار عنها كل ضراء
 من أغتبر قاتم منها وغبراء
 من حر طينة أرض غير ميثاء^(٥)
 حتى من الناس في صبيح وامساء
 من بعد زمزمة منها وضوضاء
 من برج لهو إلى آفاق سراء
 نار تأجيج في آجام قصباء
 ترنو إلى شربها من بعد إغضاء
 منزوع جلدة ثعبان وأفعاء^(٧)
 على مساعدة العيدان والناء^(٨)

(١) مقلوب رأى (٢) جنى العسل (٣) واسعة (٤) جمع راقود أو راقودة،
 الدن والخابية (٥) غير سهلة مفككة (٦) من هدأت سهل وحذف (٧) ممدود أفعى
 (٨) مهموز ناي .

٤ - وقال مسلم المتوفى سنة ٣٠٨ يمدح يزيد الشيباني في قتله الوليد
ابن طريف^(١)

لولا يزيد وأيام لنا سلفت	عاش الوليد مع الغاوين أعواما
كالدهر لا ينتنى عما هم به	قد أوسع الناس إنعاما وإرغاما
نرى العفاة عكوفاً - ول حجرته	يرجون أروع رحب الباع بساما
منية في يدى هارون يبعثها	على أعاديه إن سامى وإن حامى
خير البرية آباء إذا ذكروا	وأكرم الناس أخوالا وأعماما
تظلم المال والأعداء من يده	لا زال للمال والأعداء ظلاما
لا يستطيع يزيد من طبيعته	عن المنية والمعروف إحجاما
أذكرت سيف رسول الله سنته	وبأس أول من صلى ومن صاما

إن يشكر الناس ما أوليت من حسن

فقد وسعت بنى حواء إنعاما	
إذا الخلافة عدت كنت أنت لها	عزا وكان بنو العباس حكاما
يصيد منك مع الآمال صاحبها	حاما وعلمها ومعروفا وإسلاما
كم بلدة بك حل الركب جانبيها	وما يلم بها الركبان الماما
إذا علوا مهمها كان النجاء لهم	إنشاد مدحك إفصاحا وترناما

(١) هو صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر المتصرف، البالغ المدح، الجيد القول في الشراب، كأبي نواس وهو على ما قيل أول من أكثر البديع، واخترع له هذا الاسم فاتبه في ذلك الشعراء وبخاصة أبو تمام، وقد مات وهو يلى بريد جرجان للمأمون، وجل مدائمه في البرامكة والمهالبة ويزيد ابن يزيد الشيباني.

لو كان يفقه رجع القول طائرهما غنى بمدحك فيها بومها الهاما
لو لم تكونوا ابني شيدبان من بشر كنتم رواسى أطواد وأعلاما
٥ - وقال أبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ في الحكمة^(١)

الحرص داء قد أضر م بمن ترى إلا قايلا
كم من عزيز قد رأيت الحرص صبحه ذليلا
فتجنب الشهوات واحذر أن تكون لهاقتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورت حزنا طويلا
من لم يكن لك منصفنا في الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعا واكسب لها فعلا بخيلا
ولقما تلقى اللثيم عايك إلا مستطيلا
والمرء إن عرف الجميل وجدته يبغى الجميلا
اضرب بطرفك حيث شئت فان ترى إلا بخيلا

٦ - وقال أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ يرثي محمد بن حميد الطوسي^(٢)

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض مأوها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخـر
وما كان يدري مجتدى جود كفه إذا ما استهلكت أنه خلق العسر

(١) هو أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم الفارسي أصلا، العنزي ولأه شاعر

سهل الالفاظ متكلم المعاني. أ كبر الشعراء زهدا وحكمة .

(٢) هو حبيب بن أوس الطائي واحد عصره في ديباجة اللفظ وصناعة الشعر

وكثرة الحفظ وإجادة الرثاء وقد لاقى شعره شبه مالا في شعر المتنبي من عنايه

ألا في سبيل الله من عطمت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة

دما ضحككت عنه الاحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينويه ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده اليه الحفاظ المر والخلق والوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجلاه وقال لها من تحت أخصيك الحشر^(١)
غدا غدوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
ترى ثياب الموت حمرا فما دجا لها الليل إلا وهى من سندس خضر
كأن بني نهان^(٢) يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثار تعزى به العلاء ويبكى عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى الى الموت حتى استشهد اهو والصبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا أن يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير فى الوغى بواتر فى الآن من بعده بتر
أمن بعد طى الحادثات محمدا يكون لاثواب الندى أبدانشر
إذا شجرات العرف جذت أصولها ففى أى فرع يوجد الورق النضر

(١) الأخص كاصبع مالم يصب الأرض من باطن القدم (٢) عشيرته من طيء

لئن أبغض الدهر الخئون لفقده لعهدى به ممن يحب له الدهر
لئن غدرت فى الروح أيامه به فما زالت الأيام شيبتها الغدر
لئن ألبست فيه المصيبة طيء فما عريت منها تميم ولا بكر
كذلك ما تنفك نفقد هالكا يشار كنا فى فقده البدو والحضر
سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه

وإن لم يكن فيه سحب ولا قطر وكيف احتمالى للغيوث صنيعة
بأسقامها قبرا وفى لحده البحر مضى طاهر الأثواب لم تبق روضه
غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر عليك سلام الله وقفا فانى
رأيت الكريم الحر ليس له صمر ٧ - وقال ابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ آخر شعراء العصر الاول وكتابه
يرثى أم ابنه صمر وقد تركته ابن ثمان^(١)

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنهما غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجنه بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى أن بكيت فأنما أداوى بهذا الدمع ماتريان
فهذى عزمت الصبر عنها لا ثنى جليد فمن الصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة

ولا يأتسى بالناس فى الحدثنان

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات الكاتب البليغ والشاعر

فلم أر كلاً قدار كيف نصبتني ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتى فبئس إذن ما فى غد تعدانى
٨ — وقال البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ بمدح الخليفة جعفر المتوكل
ويصف خروجه فى عيد فطر^(١)

الله مكن للخليفة جعفر ما كما يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلهما والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل تعطى الزيادة فى البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقى فيها المقل على الغنى والمكث
بالرصمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تفرط
فانعم بيوم الفطر عيننا إنه يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بحجفل لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت عددا يسير بها العديداً كثر
والخيل تصهل والفوارس تدعى والبيض تلمع والأئمة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس مائعة^(٢) توقد بالضحي طوراً ويطافئها العجاج الأكر
حتى طلعت بضوء وجهك فأنجبت
تلك الدجى وأنجباب ذاك العشير

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي شاعر مطبوع متصرف فى فنون الشعر وخاصة المدح إلا الهجاء وهو نقي الكلام ذو بدائع فى غير تكلف يعده أبو العلاء المعرى، الشاعر ويعده أبا تمام وأبا الطيب حكيمين .

(٢) يقال تمتعت الشمس إذا بلغت غاية ضوئها قبل الزوال

وافتن فيك الناظرون فاصبع
 يجدون رؤيتك التي فازوا بها
 ذكروا بطلعتك النبي فهللوا
 حتى انتهيت إلى المصلى لأبسا
 ومشيت مشية خاشع متواضع
 فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما
 أيدت من فصل الخطاب بحكمة
 ووقفت في برد النبي مذكرا
 ومواعظ شفت الصدور من الذي
 حتى لقد علم الجاهل وأخلصت
 صلوا وراءك آخذين بعصمة
 الله أعطاك المحبة في الورى
 فلائت أملا للعيون لديهم
 ٩ - وقال ابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤ أو ٢٨٣ يهجو إبراهيم بن
 المدير^(٢)

يا ابن المدير غرني الرواد
 أدعو على الشعراء أخبت دعوة
 قل لي بأية حيلة أعملتها
 هتفوا بأنك «لا حفظت» جواد
 عمرا وليس لهم سواك مراد
 إذ مجدوك وغيرك الأُمجاد

(١) المفكر (٢) هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي، شاعر
 فياض ذو نظم عجيب وتوليد غريب، يقع على المعاني النادرة فيستخرجها ثم
 يوفيهما ويحسن عرضها، أجاد في كل فنون الشعر ولا سيما الوصف والهجاء

ما أنت والمعروف أو مفتاحه
 لكن إخال معاشر خيبتهم
 أثنوا عليك ليستميدك غيرهم
 أرويت بالأصدا رعنك حوائمي^(١)
 وسلوت ذكراك التي من مثلها
 خيبتني ثقة بلؤمك إنه
 عن مثله نكص الهجاء مقمقرا
 لا أن لؤمك جنة لكنه
 فاهرب وأين بهارب من طالب
 خذها إليك من الملابس ملبسا
 ضنكا إذا زرت عليك زروره^(٢)
 ولئن شقيت بابس برد مثاها
 شنعاء تضرب فيك نار شناعة
 تحبوك بدأتها بذكر نابه
 ولقلما يجدي على متبجح
 ما ينفع الخطب المحرق في الصلي
 ١٠ - وقال ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ يصف العقار وساقياها ومجلسها
 والصيد لشوائها^(٣)

(١) جمع حائمة وهي العاطشة (٢) تحرق (٣) جمع زر أخى العروة
 (٤) أضواؤها (٥) هو الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز بن المتوكل، العالم

وحلوا الدلال مليح الغضب
سقاني وقد مل سيف الصبا
عقارا إذا ما جلتها السقا
فأصلح بيني وبين الزما
وما العيش إلا المستهتر
يهم إلى كل ما يشتهي
ويستخو بما قد حوت كفه
فكم فضة فضها في سرو
ولا صيد إلا بوثابة^(١)
وإن أطاقت من قلاداتها
فزوبعة من بنات الريا
تضم الطريد إلى محرها
لها مجلس في مكان الرديف
فظلت لحوم ظباء القلا
وظافت سقاتهم يمزجو
وختوا الندامى بمشمولة
فراحوا نشاوى بأيدي المدا
إلى مجلس أرضه نرجس
يشوب مواعيده بالكذب
ح والليل من خوفه قد هرب
ة ألبسها الماء تاج الحبيب
ن وأبدلني بالهموم الطرب
نظل عواذله في شغب
وإن رده العذل لم ينجذب
ولا يتبع المن ما قد وهب
ريوم وكم ذهب قد ذهب
تطير على أربع كالعذب
وطار الغبار وجد الطلب
ح تريك على الأرض شدا عجب
كضم الحب لمن قد أحب
فكتر كية قد سببتها العرب
ة على الحمر معجلة تنتهب
ن بماء الغدير بنات العنب
إذا شارب عب فيها قطب
م قد نشطوا من عقال التعب
وأوتار عيـدانه تصطنخب

الأديب والكاتب البليغ والشاعر المتصرف القدير ذو التشبيهات الفائقة
والنخيلات الرائعة في شتى الأوصاف بعبارات مطبوعة كأنها مصنوعة .
(١) يريد كلبة سلوقية نسبة إلى سلوق بلدة باليمن مشهورة بهذا النوع .

وحيطانه خرط كافورة وأعلاه من ذهب يلتهب

١١ — وقال المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ فأنحة شعراء العصر الثالث يمدح
سيف الدولة ويصف نصرته على الروم ويذكر مركزه من الخلافة
سائفاً المثل والحكمة في ثنايا ما يقول ^(١)

هنيئاً لأهل الثغر ^(٢) رأيك فيهم	وأنت حزب الله صرت لهم حزبا
وأنت رعت الدهر فيها وريبه	فإن شك فليحدث بساحتها خطبا
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم	ويوماً بجود يطرد الفقر والجدا
سر أياك تترى والدمستق ^(٣) هارب	وأصحابه قتلى وأمواله نهبي
أنى مرعشا ^(٤) يستقرب البعد مقبلا	وأدبر إذ أقبلت يستبعد الفربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا	ويقفل من كانت غنيمته رعبا
وهل زد عنه باللحان ^(٥) وقوفه	صدور العوالى والمطهمة القبا
مضى بعد ما التفت الرماح ساعة	كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة	إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبيا
أرى كذا ما ينبغي الحياة بسعيه	حريصا عليها مستهما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى	وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد	إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبيا

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي البغدي شاعر أشهر من أن
يعرف به ، نشأ بالكوفة ولكنه ملا بطوافه أرجاء المملكة العربية وبشعره
العالم بأثره (٢) يعني مدينة بالثغر حلب (٣) قائد الروم (٤) مدينة بالشام
قرب أنطاكية (٥) بلد بالروم

وما الفرق ما بين الاثنام وبينه^(١)

إذا حذر المحذور واستصعب الصعبا
لأمر أعدته الخلافة للعبد
وسمته دون العالم الصارم العضبا
إذا الدولة استكفت به في ملمة

كفاها فكان السيف والكف والقلبا
سهاب سيوف الهند وهي حداد
فكيف إذا كانت نزارية عربا
ويرهب ناب الليث والليث وحده
فكيف إذا كان الليوث له صحبا
ويخشى عباب البحر وهو مكانه
فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا
ومن تكن الأسد الضواري جدوده

يـمكن ليله صبحا ومطعمه غصبا
فيوركت من غيث كأنك جلودنا
به تنبت الديباج والوشى والعصبا
١٢ - وقال أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٢ يفتخر ويعتذر عن
أسر الروم له^(٢)

سيدكرني قومي إذا جد جدم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

(١) الضمير لسيف الدولة . (٢) هو الحارث بن أبي سعيد بن حمدان بن حمدون فارس مغوار وشاعر عظيم يجمع بين السهولة والجزالة والظرف والعزة، وهو ابن عم سيف الدولة وملك الشعر الثاني في قول الصباح بن عباد « بديء الشعر بملك وختم بملك » والأول امرؤ القيس ، ويغلب على شعره الحماسة والفخر وقد أسر بالروم أربع سنين قال فيها كثيرا من الشعر عرفت قصائده بالروميات .

ولو سد غيرى ماسددت اكتفوا به

وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر^(١)

وإني لجرار لسكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
فأصدي إلى أن ترتوى البيض والقنا

وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
ولا أصبح الحى الخلوف بغارة أو الجيش ما لم تأته قبلى النذر
ويارب دار لم تخفنى منيعة طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبة الأذيال نحوى لقيتها فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله

ورحت ولم يكشف لآياتها ستر
ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يثني عن الكرم الفقر
أسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى

ولا فرسى مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرى فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أصيحابى الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مر
ولكننى أمضى لما لا يعينى

وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوائه صمرو
يمنون أن خلوا ثيابى وإنما على ثياب من دماهم حمر
ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسنة لم يغلبها المهر

(١) التبر الذهب، والصفر النحاس الأصفر

١١ - وقال السرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ برثى فتى من بني شيبان كان له صديقا قتل وصلب^(١):

أبدر دجى غالته إحدى الغوائل	فأصبح مفقودا وليس بآفل
أنته المنايا وهو أعزل حاسر	خفى غرار السيف بادی المقاتل
غلام إذا طابت طاق ثوبه	رأيت عايه شاهدا للحمائل
يمسح بالمسك الذكى مرجلا	يرف على المتنين مثل السلاسل
سواء عليه فى السوابغ مرة	ثنى عطفه أم فى رقاق الغلائل
وعز على العلياء أن حيل بينه	وبين ظبا أسيافه والعوامل
وعرى من برديه كالسيف منتضى	فلم يعز من بردى عفاف ونائل
فأحبب به من راكب غير سائر	مقيم ولكن زيه زى راجل
يعنبر أنفاس الرياح بشلوه	فتعبق من أنفاس تلك الشمائل
هو القدر المحتوم، والسيف لم يكن	ليخضب إلا من دماء الأفاضل
أحلك من أعلى الهواء محلة	نأت بك عن صنك الثرى والجنادل
وليس بعار ماعراك وإنما	حماك اتساع الصدر ضيق المنازل

١٤ - وقال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ وهو فى سجن عضد الدولة يعزى نفسه عن حبسه ومصادرة ماله، بنفسه وهمته^(٢):

(١) هو أبو الحسن السرى الرفاء بن أحمد بن السرى الكندى، كان يرفو الثياب بالموصل ولكنه ولم بالشعر حتى أجاده ولم يكن يعرف سواه، ولذا كان مطبوعا عذب اللفاظ، وله افتنان فى التشبيهات والأوصاف.

(٢) هو أبو اسحاق الصابى ابرهيم بن هلال، الكاتب المترئس على ديوان الانشاء للخلفاء وملوك بويه، والشاعر المطبوع المكثاف فى جميع القنون، وصاحب المنزلة العالية على صابئته فى النفوس

يعيرني بالجدس من لو يحمله
 ورب طليق أطلق الذل رقه
 وإني لقرن الدهر يوما تنوبني
 ومن مد نحو النجم كيما يناله
 ولا بد للساعي إلى نيل غايه
 وإني وان أودت بمالي نكبة
 فما كنت كالعسطار^(١) يثرى بكيسه
 ولكن كليث الغاب إن رام ثروة
 يبيت خميصا طاويا ثم يغتدى
 كذلك مثلي نفسه رأس ماله
 وللمال آفات يهنأ ربه
 ومن يكن السلطان فيه خصيمه
 وماضرنى أن غاض ما ملكت يدي
 إذا كان مالي من طريف وتالد
 ولي بين أقالمي ولي ومنطقي
 ١٥ - وقال ابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ يتحدث عن قصة ناسبا^(٥)
 كيف العزاء وأين بابه والحي قد خفت ركابه

(١) جمع سطوة (٢) شجاع (٣) ناقد الدراهم كالعسطار . (٤) جمع مذوب وهو كل ما يذاب فيه

(٥) هو أبو نصر عبد العزيز بن صهر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدي -
 التميمي الشاعر المجيد ذو السبك الحسن والمعنى الجيد في النسيب والمدح والوصاف

بأعز منتقب يم م على محاسنه نقابه
 والبدر في قزع^(١) يشف م كما تشف به ثبابه
 متأود حلو السما ثل من أساوره حقابه^(٢)
 زعم الخبر أنه ضربت على ساع^(٣) قبابه
 فطلبته كالآيم^(٤) أو كالسيل في الليل انسيابه
 فاذا أحم المقتبين يشين أنمله خضابه
 يهتز مثل السمري م تدافعت فيه كعابه
 وقف الولائد دونه كالقلب يستره حجابيه
 أقبلت أسأله وأء_____لم أن حرمانى جوابه
 ويلي على متلون ال أخلاق يعجبه شبابه
 لارسله ترى اليـنا بالسلام ولا كتابه

١٦ - وقال الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وقد مر على قبر الصابي
 في الجنيانة ببغداد من غير القصيدة الطويلة التي رثاه بها حين موته^(٥)
 أعلم قبر بالجنيانة أننا أقننا به تنعى الندى والمعاليا
 حططنا فحيننا مساعيه إنها عظام المساعى لالعظام البواليا

(١) سحاب خفيف (٢) وشاح خصره (٣) جبل بالمدينة (٤) الثعبان.

(٥) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ويلقب بالموسوى نسبة إلى جده موسى

الكاظم الراجم بنسبه إلى الحسين بن علي. نبغ في الشعر يافعا وأكثر منه مبدحا حتى
 أجمع الأدباء على أنه أشعر قريش لأنه أكثر مجيدا ، وهم بين مجيد مقل أو
 مكثار غير مجيد . وكان ذا هيبة وجلال ، تولى نقابة الطالبين في حياة أبيه وله
 ديوان شعر كثير الأبواب حافظها ثم هو عالم ذو مؤلفات .

وما لاح ذاك التراب حتى تحلبت
نزلنا إليه عن ظهور جيادنا
أقول لركب رائحين تعرجوا
ألموا عليه طافرين فأننا
وقفنا فأرخصنا لدموع وربما
ألا أيها القبر الذي ضم لحده
هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا
وتلك البنان المورقات من الندى
هو الخاضب الأعلام نال بها علا
مفيد ضراب باللسان لو أنه
مرير القوى نال المعالي واثبا
خلا بعدك الوادى الذى كنت أنسه
ملأت بمحياك البلاد فضائلا

من الدمع أو شال ملآن المآقيا
نكف كف بالأيدي الدموع الجواريا
أريكم به فرعا من المجد زاويا
إذا لم نجد عقرا عقرنا القوافيا
تكون على سوم الغرام غواليا
حساما على هام النوائب ماضيا
هلالا على ضوء المطالع باقيا
نواصب ماء أم بواق كما هيا
تقاصر عنها الخاضبون العواليا
بيوم وغى فل الجراز اليمانيا
إذا غيره نال للمعالى حايا
وأصبح تقروه النوائب واديا
ويملا مثواك البلاد مناعيا

١٧ - وقال التهامي المتوفى سنة ٤١٦ ينسب ويذكر الطيف^(١)

قالت أنساك نجدا حب مطرف
أخذت طرفى وسمعى يوم بينكم
وقد أخذت فؤادى قبل فاطمعى
فان وجدت سوى التوحيد فيه هوى

فقلت خبرك يغنينى عن الخبر
فكيف أهوى بلا سمع ولا بصر
هل فيه غيرك من أنثى ومن ذكر
إلا هواك فلا تبقى ولا تدرى

بيضاء تسحب ليلا حسنه أبدا
فى الطول منه وحسن الليل فى القصر

(١) هو أبو الحسن على بن محمد التهامي، كاتب معروف وشاعر محسن ذرب

اللسان مشهور، له ديوان يخلب عليه الممدح والرائء والنسيب.

يحكى جنى الأقدح وان الغض مبسمها في اللون والريح والتفليج والأشعر
للم يكن أقحوانا ثغر مبسمها ما كان يزداد طيبا ساعة السحر
أهتز عند تمنى وصلها طربا ورب أمنية أحلى من الظفر
تجنى على وأجنى من مرأشها ففي الجنى والجنائيات انقضى عمرى
أهدى لنا طيفها نجدا وساكنها حتى اقتنصنا ظباء البدو في الحضر
فبات يجلو لنا من وجهها قرا من البزاقع لولا كلفة القمر
وراعها حر أنفاسى فقلت لها هوى نار وأنفاسى من الشرر
فما نكرنا من الطيف الملم بنا ممن هويناه إلا قلة الخفر
فسرت أعر في ذيل الدجى ولها والجو روض وزهر الليل كالزهر
وللمجرة فوق الأفق معترض كأنها حبيب يطفو على نهر
وللثريا ركود فوق أرحلنا كأنها قطعة من جلدة النمر
وأدم الليل نحو الغرب منهزم وأشقر الفجر يتلوه على الأثر
فروع السرب لما ابتل آكرعه في جدول من خليج الفجر منفجر
ولو قدرت وثوب الليل منخرق بالصبح رقعته منهم بالشعر
١٨ - وقال مهييار المتوفى سنة ٤٢٨ يمدح أبا القاسم الحسين بن على المغربي
عند تقليده الوزارة ويهنئه بالنيروز ، وقد جاء لذلك من بابل إلى بغداد
سنة ٤١٤^(١)

(١) هو أبو الحسن مهييار بن مرزويه الديلمي أحد من أسلم من نبغاء
المجوس ، وكان إسلامه على يد الشريف الرضى ، وعليه تخرج في الشعر فجاء على نحو
منه في جزالة القول وطول النفس ورقة الحاشية ، وقد فضل شعراء عصره ، وله ديوان
ضخم بكثير من فنون الشعر وأخصها المدح فالنسيب فالصفات

قد رفعت في بابل راية
يصيح داعي النصر من تحتها
جاء بها الله على فترة
لم تألف الأبصار من قبلها
فارتبعوا بعد مطال الحيا
وزارة قلبها شوقها
قمت بمعناها وكم جالس
وهي التي إن لم تقدر رأسها
مزلة ركب سيسانها^(٢)
راحت على عطفك أثوابها
فتحت في مهبهم تديرها
رد بنو يحيى وسهل لها
فاضرب عليها يبت ثاوبها
وامدد على الدنيا وجهها
واطلع على النيروز شمسها إذا
يوم من الفرس أتى وافدا
فاغرس ونوه منعما واصطنع
ولوفة الاعطاف لم تعسف^(٤)

للمجد من يلق بها يغلب
ياخيل محي الحسنات اركبي
بآية من يرها يعجب
أن تطلع الشمس من المغرب
وروضوا بعد الثرى المجدب
منك إلى حولها القلب
يكفيه منها سمة المنصب
بمحصدات الصبر لم تصحب^(١)
راكب ظهر الأسد الأغلب
طاهرة المرفع والمسحب
تنفس البلجة في الغيب
والطاهريون بنو مصعب
قبلك لم يعمد ولم يطنب^(٣)
ظلال حلم لك لم يعزب
ساق الغروب الشمس لم تغرب
فقات العرب له قرب
ترض مضاء الصارم المقضب
بالكلم المر ولم تعب

(١) لم تسانس وتذل (٢) ظهرها (٣) لم يقيم عمودا ولم يمد طنبا

(٤) الولوفة اللامعة يريد القصيدة وهي مفعول لا صطنع.

حاءك معناها وألفاظها

في الحسن بالأسهل والأصعب

أفصح ما قيل ولكنها فصاحة تهدي إلى يعرب

١٩ — وقال المعري المتوفى سنة ٤٤٩ خاتمة شعراء العصر الثالث
يسجل رأيه في النساء^(١)

ترنم في نهارك مستعينا	بذكر الله في المترنمات
ولا ترجع بإيماؤنا	على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم	وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي	لقينك بالأساور معالم
وسام ^(٢) ماقتنعن بحسن أصل	فجئتك بالخضاب موسمات
رأين الورد في الوجنات خيا	فغادين البنان معنات ^(٣)
وشنفن المسامع قائلات	وكنن القلوب مكلمات ^(٤)
نخور الريق لسن بكل حال	على طلابهن محرمات
والكن الاوانس باعنات	ركابك في مهالك مقمات
صحبك فاستفدت بهن ولدا	أصابك من أذاتك بالسلمات
ومن رزق البنين فغير ناء	بذلك عن نوائب مسلمات
فمن ثكل بهاب ومن عقوق	وأرزاء يجئن مصلمات

(١) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي المعري
الشاعر الحكيم الفيلسوف خاتمة شعراء العصر الثالث ، الغنى كسلفه المتنبي فأتته
العصر المذكور عن التعريف . وقد خلف لنا من شعره سقط الزند والذوميات
(٢) جمع ومسيمة وهي الحسنة (٣) مخضوبات كالعلم (٥) جرحها متحدثات

وإن تعط الأناث فأى بؤس
يردن بعولة ويردن حليا
يلدن أحاديا ويكن طارا
ولا ترمق بعينك وأنحات
فكم حلت عقود النظم وهنا
ولا تحمد حسانك إن توافت
فحمل مغازل الذسوان أولى
سهام إن عرفن كتاب لسن
ويتركن الرشيد بغير لب
وإن جئن المنجم سائلات
ليأخذن التلاوة عن مجوز
فأبعدهن من ربات فكر
ولا يتأهلن شيخ مقل
فإن الفقر عيب إن أضيفت
وواحدة كفتك فلا تجاوز
وإن أرغمت صاحبة بضر
وصن في الشرخ نفسك عن غوان
فقد يسرى الغوى إلى مخاز
وما حفظ الخريدة مثل بعل

تبيين في وجوه مقسمات
ويلقن الخطوب ملومات
إذا أمسين في المتهمات^(١)
إلى حمامت مكلمات
عقودا للرشاد منظمات
بأيد للسطور مقوسات
بهن من اليراع مقلعات
رجعن بما يسوء مسمات
أتين لهديه متعلقات
فلسن عن الضلال بمنجات^(٢)
من اللأى فغرن مهمات
سواحر يفتدين معزومات
بمعصرة من المتنعات
إليه السن جاء بمعطيات
إلى أخرى تجيء بمؤليات
فأجدر أن تروع بمعزومات^(٣)
يزدن مع الكواكب معلمات
بجنح في سحائب منجات
تكون به من المتحرمات

يحور ذمارها^(١) من كل خطب ويتمنعها مصائب مقرمات^(٢)
 إذا الغاران غرتهما^(٣) بحمل فدينك بالتورع والصمات^(٤)
 فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللمات
 ٢٠ - وقال صردر المتوفى سنة ٤٦٥ يستهدى مدادا ويصف الدواء
 والقلم والقراطيس^(٥)

اليك أشكو مشيبا لاح بارقه في فرع دهاء تجرى بالأساطير
 كانت مفارقها مسكا مضخمة فما لها بدلت منه بكافور
 ومقلة عهدت كحلاء مرها طول البكاء على بيض الطوامير
 يا حباذ هي والأقلام واردة فيها وصادرة سحج المناقير
 كأنما كرمعت في ناظري رشاً أو في سويداء قلب غير مسرور
 تحوى القراطيس منهار وضة أنفا بها مفاخرة الظلماء للنور
 فكيف لي بخضاب تسترد به من الشبيه لونا غير مهجور
 لو أن صبغته فاز الشباب بها لما رمى الدهر فوديه بتغيير
 وحاجة النفس إن قلت وإن كثرت إذا سمحت بها مثل الدنانير
 ٢١ - وقال الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ يمدح سعد الدولة بن مقلد أحد

(١) يمتزجها ويحفظه (٢) نهات (٣) الغاران القم والفرج وغرتهما سدتهما
 (٤) الصمت (٥) هو الرئيس أبو منصور علي بن الحسن من فارس كاتب شاعر،
 لشعره طلاوة وبهجة في جودة سبك وحسن معنى، وكان أبوه الحسن يلقب صربع
 لشحه فلما نبغ هو في الكتابة والشعر لقب صردر . ويغلب على ديوانه المدح
 والنصيب والرثاء .

أمراء الشام ويهينه بالبرء من مرض كان قد ناله ويعتذر من تأخره عنه فيه ^(١) : —

ذم الزمان فما وجدت صروفه	إلا ذلولا في القياد وريضا
صفحت نوائبه عن ابن مقلد	كرما فكيف ألومه فيما قضى
ولقد ألم به فأظهر فضله	والنار لا تشتب حتى تحتضى ^(٢)
راض الزمان فأصعبت أخلاقه	وأعاد صبغ شبابه لما نضا
من معشر بذلوا النفوس سماعة	وحموا بيوت المجد أن تتقوصا
عادت بهم ظلم الخطوب مضيئة	والجذب موشى البرود مروضا
لولا مخالطة الصوارم والقنا	منع السماح أكفهم أن تقبضا
قوم إذا استنجدتهم للممة	ملأت عليك جيادهم رحب الغضا
أسيافهم في راهط ^(٣) معروفة	منعت دماهم عزم أن تدحضا
يامن إذا ما زاد عن أحسابهم	يوم النضال أصاب لما أنبضا ^(٤)
خفض عليك فكم ظفرت بغاية	وكبا وراءك جاهد ما خفضا
يني وبينك ذمة مرعية	حاشا مرائر عهدا أن تنقضا
فأصخ إلى وللحديث شجونه	حتى أبثك ما أمض وأرمضا
ما أخرتني عن جنابك همة	وجدت من الأهواء عنك معوصا
لكنه قدر أناخ ركائي	فسرا وقيد همتي أن تنهضا

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي من شعراء الشام، أجاد المديح والنسيب ولكن غلب عليه الأول، وله ديوان ليس بالكبير،
 (٢) يلهب جمرها بالحصى وهو الكور أو يقلب بالحضا وهو العود (٣) مرج معروف بالشام (٤) حرك الوتر للرمى .

وعلمت أنك كالنسيم مخلد أبدا وليس يصح حتى يمرضنا
فاغفر خلل لو أبيع هواكم بحياته هجر الحياة وأعرضنا
٢٢ - وقال ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٠ يصف دار تاج الملوك
محمود بن نصر المرداسي وما فيها من تصاوير^(١)

لك في العلاء محجة^(٢) لا يهتدى فيها الملوك وججة لا تدفع
وخصصت في زمن الحياة بجنة حسن المصيف بها وطاب المربع
دار بها اكتست البسيطة زينة وزينها منك الأمام الأروع
ما زال مبصرها يعود بخمار يشكو السكال وناظر لا يشبع
وترى طيور الجو في جنباتها بعض محقة وبعض وقع
وسوابقا ليست تفارق أرضها وكأنها تحت الفوارس تمزع^(٣)
بالمصليتين صوارما لا تعمدى واللابسين يلامقا^(٤) لا تنزع
دهط نضوا يبيض السيوف وآخر قد جر قوسا ليس فيها منزع
وسهامه لا تستطيع فراقها وحباله أبدا لطير مصرع
وزرافتان أقيمتا ككثاهما ترنو إليك بمقلة لا تهجم
وظعائن تخشى العيون وتتقى نظر المريب فدهرها تتبرقع
أبدا يقاد بها ويبدى عيسها وخدا حثيثا للنواظر يخدع
هل طاقها ما طابنته فلم تسر أو راقها هذا الجنب الممرع

(١) هو الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس الملقب بصفي الدولة
أحد شعراء الشام الحسينيين وخولهم المبرزين وكان منقطعا إلى آل مرداس
السكلايين أصحاب حلب وله ديوان كبير جله مدح وما جاء من غيره جد قليل
أو تباع . « ٢ » طريقة (٣) تعد ومسرعة (٤) دروعا

وابن الملوح قائم وسقامه الـ بادی طلیعة ماتجن الأضلع
يشكو إلى ليلى الغرام إشارة شكوى لعمرك لم تعنها أدمع
ومواضع فيها كعرضك وضح ثلجية الألوان بل هي أنصع
ومن النضار بها سحائب جمة لزمت أماكنها فما تنقشع
سحب جوامد قد أظلمت طارضا تحيا بصيبه البـ لاد وتمرع
وبدت بأعلاها رياض حاكها حسن اقتراحك لا الغيوث الهمع
روض على الأفواه يعسر رعيه لكن للأبصار فيه مرتع
فابجج^(١) فانك أوحده الزمن الذي لم يفترق في أهله ماتجمع

٢٣ - وقال الطغرائي المتوفى سنة ٥١٤ يصف هاجرة وغديرا^(٢)

وهاجرة سجراء^(٣) تأكل ظلها ملوحة المعزاء^(٤) رمضى الجنادب^(٥)
ترى الشمس فيها وهي ترسل خيطها

لتمتاح^(٦) ريا من نطاف المذائب^(٧)

سفعنا^(٨) بها وجه النهار فراعنا بنقبة مسود المقاديم شاحب^(٩)

(١) افرح غير مبال (٢) هو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي

نسبة إلى الطغرى وهي الطرة التي ترمم في أعلى الكتب بنعوت الملك لأنه كان يرممها. وقد
لقب بالأستاذ وبالمنشئ لجودة إنشائه، ووزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل.
وكما كان نخر الكتاب كان نابغة في الشعر وله ديوان كبير تصرف فيه في كثير من
الفنون وخاصة المديح والسيب والحكمة والوصف، ولا ميته المعروفة بلامية العجم
ذات مقام عظيم (٣) حامية (٤) مسودة لحما (٥) محروقتها (٦) لتستقي (٧) ن
صافيات الجداول (٨) حرقنا (٩) بلون وجه ليل مسود الأوائل متغير

فلما اعتسفنا^(١) ظل أخضر فاسق على قم الآكام^(٢) جون المناكب
وردنا سحيرا بين يوم وليلة

وقد علقت بالغرب أيدي الكواكب
على حين عرت منكب الصبح جذبة

من الشرق واسترخى عنان الغياهب
غديرا كهواة الغربية تلتقى بصوحيه أنفاس الرياح الغرائب

إذا مانبال القطر تاحت له اتقى بموضونة حصداء من كل جانب
بمنعرج من ريد عيطاء^(٣) لم نزل وقائعها يرشفن ظلم السحائب

تقبل أفلاذ الحيا وتكنها بطامية الأرجاء خضر النصائب
بعيس كأطراف المدارى^(٤) نواحل فرقنا بها الظلماء وحف الذوائب^(٥)

نشحن به^(٦) عذبا نقاخا كأنما مشافرها يغمدن بيض القواضب
رأين جسام الماء زرقا ومثلها سنا الفجر فارتابت عيون الركائب

فكم قامح^(٧) عن لجة الماء طامح

إلى الفجر ظن الفجر بعض المشارب
إلى أن بدا قرن الغزالة ماتعا كوجه نظام الملك بين المواكب

٢٤ - وقال ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧ ينسب من بائيته التي سارت
بذكرها الركبان^(٨)

(١) اقتحمنا (٢) مرتفعات الهضاب (٣) من حرف هضبة (٤) الأمشاط

(٥) غزيرتها (٦) شربنا منه (٧) رافع (٨) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي

الدمشقي شاعر مجيد طاف البلاد واستقر بفارس يمدح العظماء وأغلب ديوانه
مدح ورثاء ونحيب .

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه
 وإياكما ذاك النسيم فانه إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
 خيلي لو أحبيتما لعلتما محل الهوى من مغرم القلب صبه
 تذكر فذو الذكر يشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
 غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه
 وفي الركب مطوى الضلوع على جوى متى يدعه داعي الغرام يلبه
 إذا خطر من جانب الرمل نفحة تضمن منها داء دون صحبه
 ومحتجب بين الأسنة معرض وفي القلب من إعراضه مثل حجبه
 أثار إذا آنست في الحى أنه حذارا وخوفا أن تكون لخبه
 فيا السقامى من هوى متجنب بكى عاذلاه رحمة لمحبه
 أهيم إلى ماء ببرقة عاقل^(١) ظمئت على طول الورود بشربه
 وأستاف حر الرمل شوقا إلى اللى وقد أودعتنى السقم قضبان كئبه
 ولست على وجدى بأول عاشق أصابت سهام الحب حبة قلبه
 ٢٤ - وقال الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ يمدح شرف الدين أبا الحسن على
 ابن الحسن البيهقى^(٢)

أرى الخلق متفقا فى الهوى ومختلفا فى المنى والمنى
 فراعى حقوق وراعى حقائق وبانى معال وبانى مدنى
 وإنى لا أكره مدح الورى ويشغلنى عنه هجو الزمن

(١) احدى برق نجد (٢) هو أبو إسحق إبراهيم بن يحيى الكلبي أقام
 بخراسان يقول الكثير الممتع فكان يضرب المثل بجودة شعره . وله ديوان ضخم
 غلب عليه المدح والوصف وفيه هجاء ونسيب .

ولكن دعني فليبيتها خلال أبي الحسن بن الحسن
غريب وإن كان في داره وفقد النظير كفقد الوطن
يقوم الرجاء بتعويلنا عليه وبالروح قام البدن
على العلا وظهير الندى إذا لم تمد بضبعي فمن
كلامي سلافة أهل العراق وصيتي عرافة أهل اليمن
ومن كل هزة ذى هممة تعلمت الريح هز الفن
بمسالك رميت التقاط النجوم وأملت للضرع رد اللبن
وكنيت امرأاً رخص النفس في هواها وأغلى بنات الفطن
فخرج على أملى قبل أن يزيد الملام وتقوى الأحن
فأنت المبرز في الحالتين بنظم القريض ونظم المنن
ومن جعل الشمس خريته كفته التماس وضوح السنين

٢٦ - وقال الأرجاني المتوفى سنة ٥٤٤ هـ يهجو أهل زمنه ويصف
سوءهم^(١)

ومعشر شرم دان وخيرهم مكان بدر الدجى من باع معتنق
أدى اليهم خلو الربع من أنس وطالما كرع الظمان في الرنق
قل للذى شخصه في القصر محتجب وعرضه الدهر مطروح على الطرق
يشرى الثناء ولا يعطى به ثمنًا وذاك مبلغ رأس الجاهل الحق
لحاكم الله من أغصان عارية من الندى والجنى والظل والورق

(١) هو القاضي ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني شاعر مكثار
في رقة لفظ وجودة رصف وله ديوان على ضخامته يقال إنه لم يجمع عشر شعره،
وهو متصرف في كثير من الفنون ولا سيما المدح والنسيب والوصف .

إذا مدحناهم لم يوقظوا كرما
ونستسك إذا ازوروا مسامعهم
مدائح لا تقا الشر تحسبها
أعناقكم ماؤها درى وليس لكم
وما خلقنا حمامات فنطربكم
والله لو ذ محامتي وإن لؤموا
إذا لسارت بما يخزيهم كلم
إذا شذنت على عرض أو أبدها
تهتز منهم أعطاف الورى طربا
كالسيف يحمد غير القتييل به

وإن تركناهم ناموا على حنق
بكل منظومة كاللؤلؤ النسق
رقيا العقارب تكسو أوجه الورق
وأحمد الله أدنى المن فى عنق
سجعا ونملك أطواقا من الحلق
على الكريمين من نفسى ومن خلقى
أربها من حواشى مقول نطق
أجلين عن قدم منه وعن مزق
إلا الذين أباتهم على قلق
يوم الجلال إذا ما احمر من علق

١٧ - وقال الالبورى المتوفى سنة ٥٥٧ هـ يفتخر بقومه وأوليته (١)

أنا ابن الأكرمين أبا وأما
أشدهم إذا اجتلدوا قتالا
وأرجحهم إذا قدروا حلوما
وأصلبهم لدى الغمزات عودا
وإن دعيت نزال مشوا سراعا
يكبون العشار لمعتفيهم
ويثنون المغيرة عن هواها

وهم خير الورى عما وخالا
وأوثقهم إذا عقدوا حبالا
وأصدقهم إذا افتخروا مقالا
إذا الخفرات خلين الحبالا
إلى الاقران وابتدروا النزالا
ويروون الأسنه والنصالا
إذا الوادى بظعن الحى سالا

(١) هو أبو المظفر محمد بن أحمد الالبورى نسبة إلى أبيورد بخراسان وهو
سفياني كان رواية نسابة شاعرا رقيقا قسم أشعاره أقساما منها العراقيات والنجديات
ولقى شعره خدمات من الأدباء وأغلبه مديح وفخر ونسب .

ويحتقبون أعماراً قصارى	ويعتقلون أرماحاً طوالاً
على أثباج مقربة تمطت	بهم ورحالها تنضو الرطالاً
فجروا السمر راجفة صدورا	وقادوا الجرد راعفة نعالا
بأيد يستشف الجود فيها	تفيد محامدا وتفيد مالا
وهم فتحوا البلاد بيارات	كان على أغرتها نمالا
ولولاهم ——— ادرت بىء	ولا أدعى بها العرب الفصالا
وقد علم القبائل أن قوى	أعزم وأكرمهم فعـالا
وأصرحهم اذا انتسبوا أصولا	وأعظمهم اذا وهبوا سجالا
مضوا وأزال ملكهم الليالى	وأية دولة أمنت زوالا

٢٨ - وقال عمارة اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ يصف دارا لآل رزيك^(١)

فتمل دارا شيدتها همة	يغدو العسير بأمرها متيسرا
جملتها وتجملت مصر بها	لما علت بك عزة وتكبرا
فاقت على الاطلاق كل بنية	وسمت فما استئثنت سوى أم القرى
وسقيت من ذوب النضار مقوفها	حتى لسكاد نضارها أن يقطرا
لم يسد فيها الروض الا مزهرا	والنخ ——— نل والرمان إلا مثمرا
وبها من الحيوان كل مشهر	لبس الوشيح العبقري مشهرا
وكان صولتك المخوفة أمنت	أسرابها ألا تراع وتذعرا

(١) هو الفقيه نجم الدين أبو عمارة بن علي الحكيم اليمني العالم الأديب الشاعر المجيد ، استوطن مصر ونال حظوة كبيرة لدى الخليفة العاضد الفاطمي ووزيره طلائع الدين صالح بن رزيك. ومعظم شعره مدح فيهما ولما ملك صلاح الدين صلبه فيمن صلب

أنشأت فيما للعيون بدائعا
فمن الرخام مسيرا ومسهما
والعاج بين الآبنوس كأنه
قد كان منظرها بهيا رائقا
وكذاك جيد الظبي يحسن عاطلا
ألبدستها بيض الستور وحرها
فجالس كسيت رقيا أبيض
لم يبق نوع صامت أو ناطق
فيها حدائق لم تجدها ديمة
والطير قد وقعت على أغصانها
لا تعدم الابصار بين مروجها
أنست نوافر وحشها بسباعها
وبها زرافات كأن رقابها
نوبية المنشأ^(٣) تريك من المها
جبلت على الأقماء من أعجابه
٢٩ - وقال ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ من مدحة للخليفة الناصر
يصف غلمانه الأتراك^(٤)

(١) المسير المخطط بصفرة، والمسهم المخطط بسواد، والمنمنم المخطط ببياض، والمدرم المشبه الدرهم، والمدنر المشبه الدينار (٢) مرقع خصب للوحش لأنها اربعون ميلا لا منزل فيها بين مكة والبصرة (٣) مسهل المنشأ (٤) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن محمد الله الكاتب بديوان المقاطعات ببغداد ولكنه شهر بمبسط ابن

القائد الغلب^(١) الحكمة عوابسا والبيض في أيمانهم تتبسم
سيان سلمهم وحربهم فما ينفك يقطر من أكفهم الدم
ترك اذ لبسوا الترائك^(٢) أيقنت صم العوالي أنها ستحطم
يزداد إشراقا ضياء وجوههم والجو بالهبوات أربد أقم
فهم إذا حسروا ظباء خميلة

وهم أسود شرى إذا ما استلاموا^(٣)

ركبوا الدياجي^(٤) والسروج أهلة وهم بدور والاسنة أنجم
وكان إيماض السيوف بوارق وعجاج خيلهم سحاب مظلم
من كل من بجسماله نار الهوى وبأسه نار الوغى تتضرم
في ثني برده قضيب نقى وفي الد م رع المفاضة منه طود أيهم^(٥)
بشر أرق من الزلال وتحتة كالصخر قلب لا يرق فبرحم
يصمى الخلى^(٦) بطرفه وبكفه يصمى الكى فجؤذر أم ضيغم
هو تارة للحسن في أنزابه علم وطوراني الكتيبة معلم

٣٠ - وقال ابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ يذكر جهاد شرف الدين

عيسى بن أبي بكر الايوبي ، الروم بشعر دمياط وطردهم منها^(٧)

التعاويذى نسبة إلى جده لأمه أبي محمد المبارك ابن المبارك الزاهد المعروف
بأبن التعاويذى لأنه كفله صغيرا . كان شاعر وفته وله ديوان ضخم جمعه وبوبه
بنفسه في المدح والذم والصفات والرثاء والهجاء وأكثر هذه الفنون فيه
المدح (١) الشجمان جمع أغلب وهو الأسد (٢) جمع تريكة وهي البيضة كتركه
(٣) ليسوا اللأمت وهي الدروع (٤) يعني الخيل السود كالدياجي
(٥) أصم صعب المرتقى (٦) يرميه فيقتله (٧) هو شرف الدين أبو العباس

سألو أصهوات الخويل يوم الوثى عنا . إذا جهات آياتنا والقتنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يخفى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة وديننا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الهليب فأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى ^(١) كل مفاضة
دلاص ^(٢) كقرن الشمس قد أحكمت وضنا ^(٣)
وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا إلينا سراعا بالجياذ وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينال الليل من فقد الأمانا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
رأو ^(٤) الموت من زرق الأسننة أحمرأ فألقوا بأيديهم إلينا فأحسننا
منحنا بقاءهم حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دماننا ولوفا ولكننا ملكنا فأسججنا
وقد جربونا قبلها في وقائع تعلم غمر الموت منا بها الطعنا
فكم من مليك قد شددنا إسهاره وكمن أسير من شقا الأسر أطلقنا
وكم يوم حر قد لقينا هجيريه بصبر وقر ما طلبنا له كنا

محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الانصارى الدمشقى . كان
أديبا واسع الاطلاع ذا مكانة أوصلته إلى الوزارة بدمشق وكان ريمانة شعراء
عصره ثم لم يأت بعده من هو مثله ومعظم شعره جاء مدحا وهجاء ونسيبا .

(١) الدروع البيضاء (٢) لينذةم إسياء (٣) نسجا (٤) بضم الهمزة قبل الواو

ضرورة وأصلها الفتحة

فان نعيم الملك من شظف الشقا ينال وحلو العيش من مره يجني
يسير بنا من آل أيوب ماجد أبي عزمه أن يستقل به مغني
لعمرك ما آيات عيسى خفية هي الشمس الأقصى سناء وللأدنى
سرى نحو دمياط بكل سميدع نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا^(١)
فأجلى علوج الروم عنها وأفرخت قلوب رجال حلفت بعدها الحزنا
وطهرها من رجسهم بحسامه همام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجد خافتها سيوفه لها نبأ يفني الزمان ولا يفنى
لقد عرفت أسيافا وراقبهم مواقعها فيهم فان عاودوا عدنا

٣١ - وقال البهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦ « عام زوال الخلافة العباسية
من بغداد » يصف تليفه على حبيبه وإعراض حبيبه عنه^(٢)

يعاهدني لآخائي ثم ينكث وأحلف لا كلمته ثم أحنث
وذلك دأبي لا يزال ودأبه قيام عشر الناس اسمعوا وتحدثوا
أقول له صلي يقول نعم غدا ويكسر جفنا هازئاً بي ويعبت
وماض بعض الناس لو كان زارني وكنا خلونا ساعة تتحدث
أمولاي إني في هواك معذب وحتام أبقى في العذاب وأمكت
نخذ مرة روحى ترحنى ولم أكن أموت مرارا في النهار وأبعث

(١) مهمل الأهنا (٢) هو أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبى
نشأ بالحجاز قرب مكة ثم رحل إلى مصر قبيل العشرين فعاش بها واتصل
بالملايك الصالح نجم أيوب فولاه ديوان الإنشاء وكان فوق أجادته النثر، شاعرا مكثارا
جمع شعره بين الطبيعة العربية والرقعة المصرية وديوانه مليء بمقنونات الشعر الذى
يمثل البيئة المصرية تمثيلا ليس له فيه من نظير .

وإني لهذا الضيم منك لحامل ومنظر لطفاً من الله يحدث
أعيزك من هذا الجماء الذي بدا خلائقك الحسنى أرق وأدمت
تردد ظن الناس فينا وأكثروا أقاويل منها ما يطيب ويخبث
وقد كرمت في الحب منى شمائلي ويسأل عني من أراد ويبحث

ثانياً - حياته

لم يزل الشعر وما زال في كل عصر مرآته الصافية التي تنطبع فيها صورته الحقة ، لأنه فيض الشعور ونبع الوجدان ، ولأن رجاله أدق الناس شعوراً وأرقهم وجداناً . ولذا رأيت في الحياة الجاهلية صورة ناطقة لما كان فيها من حس ومعنى ، حتى عدّه المؤرخون ديوانها وسجلها . ورأيت في صدر الاسلام قد بقي كما كان فيما بقي ، وحاد عن الخوض فيما ترك ، وتلون فيما تلون على شاكته وغراره . ثم رأيت في العصر الأموي قد جنح جنوحاً قويا إلى ما اختطه العصر حتى كاد يكون قصراً على ما كان الغرض الذائع فيه . فجاء في العصبية والسياسة تأييداً ومعارضة ، وفي رفع الأولياء ووضع الخصماء مدحاً وهجواً ، ثم بين ذوى البطالة المبعدين عن ميادين العمل ، غزل إباحة ومتعة من ذوى الجدة المترفين ، ونسيب تصوف وعفة من ذوى العدم المتقشفين . على أنه في هذين العصرين الاسلاميين لم يعتمد كثيراً عما اختطه له العصر الجاهلي لأن الدولة فيهما بقيت عربية خالصة نظارة إلى عروبته وبدאותها بقوة حادت بها عن التأثير الكبير بما سواها . أما في العصر العباسي الذي اختط عاصمته في ديار الإهجام واختلط بل امتزج بالفرس أتم امتزاج

وأنخذ منهم بدل العرب ، الوزراء وسائر الأئوان ، حتى تغير بذلك نظام الحياة إلى ما شرعنا آنفاً في الجنس والدين واللغة وشئون الاجتماع ، فلم يك مفر للشعر وهو كما ذكرنا مراعاة العصور أن ينطبع كل ذلك فيه ويظهر أثره به ظهوراً بينائياً يخالف ما كان لماضيه في الأغراض والمقاصد ، وفي المعاني والأخيلة ، ثم في الألفاظ والأساليب ، على ما ستري في هذا البيان الذي يتناول على ما يسمح المقام ، تفصيل ما يخص الشعر فيما أجملنا سابقاً من تأثير اللغة في هذه النواحي الثلاث .

١ - ناحية الأغراض والفنون

لعله من المألوم وقد عرفت الأغراض الثلاثة التي كانت أم أغراض الشعر في العصر الأموي أن نبدأ بها الآن في هذا العصر العباسي ، وبعدها نزجي القول إلى ما كان له فيه من سائر الفنون .

١ - العصبية والسياسية - أحييت الدولة الأموية العصبية وكانت أقوى ما تكون بين اليمنية والمضرية منذ تقريب معاوية اليمن وإبعاده قيساً ، فكانت الملاحاة بين العنصرين قوية شديدة ، وكانت تزداد شدة كلما تقدمت بالدولة الأيام ، حتى ورثتها الدولة العباسية بالغة منتهاها ، وقد زاد العنصر اليمني قوة على المضري أن أم السفاح كانت منه - ولذلك خلفه أبوه قبل أبي جعفر وهو أكبر منه لأنه ابن أم ولد - هذا مع من انضم إلى شعراء اليمن العرب من الموالي الذين كانوا ينتمون إلى قبائله ولواءهم كثير منهم أبو نواس الحكيم الذي يقول فيهم :

وقد نأخت عن أحساب قوم هم ورثوا مكارم ذى نواس
فإن تلك أوقدت للحرب نار فما غطيت خوف الحرب راسي

سأبلى خير ما أبلى محام إذا ما النبيل أجم بالقياس^(١)
فما بال النعاج نغت بشتى^(٢) وفي زمعاتهن دم القراس^(٣)
وما حامت عن الأحساب إلا لترفع ذكرها بأبي نواس
غير أن ظهور الشعوب الأخرى بمعادة هذين العنصرين العربيين معا
كان من شأنه أن يخضع شوكة هذا الخلاف ويضعف منه ، على أن
تبقى الصولة لمضر لبقاء الخلافة بعد النبوة فيها كما كانت ، ولذا بقي الفخر
لها وحدها دون اليمن حتى على السنة الخلفاء الذين ينبغي أن يكونوا
آخر المتعصبين كما تلمح ذلك في قول ابن المعتز مفتخرا :
إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار
وقد استغل العباسيون الشعر في تأييد ملكهم ضد الطامعين فيه من
آل على كما كان يفعل الأمويون ، فقول بل شعراؤهم الموالون أمثال مروان
ابن أبي حفصة وعلى بن الجهم وأبان بن عبد الحميد بطبقة من الشعراء
المعارضين الذين يتمصبون لآل على ، كالسيد الحميري ودعبل الخزاعي
ومسلم بن الوليد ، وطالت الملاحاة بين الطبقتين في شدة واحتدام كما
تري في هذين المثليين :

قال مروان يخاطب بني على طالبا اليهم تخلية الطريق لبني العباس :
خلوا الطريق لعشر عاداتهم حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الاله لكم به ودعوا وراثة كل أصيد حامى

(١) جمع قوس (٢) صوتت به (٣) الزمعات هنات زائدات وراء الأظلاف

أنى يكون وليس ذاك بكأن لبني البنات وراثة الأعمام^(١)
وقال الحميرى وكان يفضل عليا على الراشدين كما يفضل أبناءه على العباسيين

(١) شاع استعمال هذا المعنى الذى ألم به مروان تأييدا وتقضا

قال الطاهر بن على العباسى فى تأييده زائدا عليه

لو كان جدكم هناك وجدنا فتنازعا فيه لوقت خصام

كان التراث لجدنا من دونه فخواه بالقرى وبلاسلام

حق البنات فريضة معلومة والعم أولى من بنى الأعمام

وقال محمد بن يحيى التغلبى فى تقضيه زائدا أيضا

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبني البنات وراثة الأعمام

للبنات نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

ما للطلق وللتراث وإنما صلى الطليق مخافة المصممام

وذكر صاحب الأغانى أن بيت مروان الأخير هذا، كان السبب فى قتله، فقد روى

عن حدثوه عن عطية الأصبجى أنه قال « لزمنا مروان لما قال هذا البيت

وماهدت الله أن أغتاله فأقتله أى وقت أمكننى ذلك، ومازلت ألاحظه وأبره

وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا، وعرفت ذلك بنو حفصة

جميعا، فأنسوا بى ولم أزل أطلب له غرفة حتى مرض من حمى أصابته فلم أزل أظهر

له الجزع عليه وألأزمه وألاحظه حتى خلا لى البيت يوما فوثبت عليه فأخذت

بمقلقه فما فارقت حتى مات، فخرجت وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه

ميتا وارتفعت الصبيحة فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن

بما فعلت أحد ولا أهتمنى به »

إذا أنالتم أحفظ وصاة محمد ولا عهد يوم الغدير المؤكدا^(١)
فان كن يشرى الضلالة بالهدى تنذر من بعد التقى وتهود
ومالى وتيم أوعدى وإنما أولو نعمتى فى الله من آل أحمد
تم صلاتى بالصلاة عليهم وليست صلاتى بعد أن أتشهد
بكاملة إن لم أصل عليهم وأدع لهم ربا كريما ممجدا
بذات لهم ودى ونصحتى ونذرتى ماى لاهر ماسميت يا صاح أحمد
وإن امرأ يلجى على صدق ودم أحق وأولى فيهم أن يفند
فان شئت فاختر حاجل الغم ظلة والا فأمسك كى تصان وتحمد
وقد حرك ماجد للموالى فى العصر العباسى من تقريب ، ما كان مائه
نفوسهم من حقد على العرب طوال العهد الاموى ، فأخذوا يفاخرونهم
ويذكرون مثالبهم وأخذ العرب يردون عليهم ما يقولون ، حتى نشأت
عصبية أعم من السابقتين بين العرب والعجم ، قوى فيها سلطان العجم
لنفوذ الفرس وكثرة شعراء الموالى . فعان أمر الشعوية وصار لها
شأن خطير ، وتعصب لها عدد وافر من الشعراء كبشار وديك الجن^(٢)
والخرمى^(٣) وغيرهم ، وقام من ينافح عن العرب ويرد على هؤلاء ، أمثال

(١) يعنى غدير خم بين مكة والمدينة فعنده أخذ رسول الله بيد على بن
أبى طالب وقال لمن معه ألت أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالو بلى يا رسول الله ،
قال فمن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه ، وهذا حديث
يدفعه غير الشيعة (٢) هو عبد السلام بن رغبان ابن عبد السلام الحمصى .
(٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان مول آل خريم المريين النديانيين .

يزيد المهلبى ولكنهم قليل وهاك مثاين مما كان يقال .
دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوس فتنقص الموالى أ.
بشار فقال بشار .

خليلي لا أنام على اقتسار	ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الاعراب عنى	وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا	ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع	بنى الاحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح	شركت الكلب فى ولغ الاطار ^(١)
تريغ ^(٢) بخطبة كسر الموالى	وينسيك المكارم صيد فار
وتغـدو للقنـافذ تـدرىها	ولم تعقل بدراج الديار ^(٣)
وتتشح الشمال للابسيها	وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا	فليتك غائب فى حر نار
ونفرك بين خنزير وكلب	على مثلى من الحدث الكبار

ولما قتل الخدم الخليفة المتوكل قال يزيد المهلبى من مرثيته يعيب على
بنى العباس إبعاد العرب وتقريب الموالى

لما اعتقدتم أناسا لاحلوم لهم	ضنتم وضيعتم من كان يعتق
ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم	حملتكم السادة المذكورة الحش
قومهم الجذم والانساب تجمعهم	والنجد والدين والارحام والباس
إذا قریش أرادوا شد ملكهم	بغير قحطان لم يبرح به أو

(١) خليط من دم ورماد تلتطخ به القدور (٢) تريد (٣) الدراج كرمان طار

أضحى شهيد بنى العباس موعظة لكل ذى عزة في رأسه صيد
خليفة لم ينل ماناله أحد ولم يضع مثله روح ولا جسد
قد وتر الناس طرا ثم قد صمتوا حتى كأن الذى نيلوا به رشد
من الألى وهبوا للمجد أنفسهم فما يبالون مانالوا اذا حمدوا ؟
وقد ضعف أمر هذه العصبية جميعا بتغلب الأتراك على العرب في
العصر الثانى ثم بالتحلل الدولة إلى دويلات في الثالث إلا ما كان من الأشادة
بالعلوية في مصر أيام الفاطميين وبالعربية في الشام أيام الحمدانيين على
أن هذه الأشادة لم تلبث أن زالت في العصر الرابع الذى تملك فيه
الأتراك شرقا والأكراد غربا

٢ - المدح والهجاء : وكما فى الشعر السياسى فى المدح والهجاء
على العهد الأموى فأصبح لهما تبعا لا استقلال له ، لم يلبث أن صار
كذلك فى العهد العباسى منذ عصره الأول لميل النفوس بطبعها إلى
حب التناء وغلوها فى هذا الحب واتخاذ الشعراء هذا الميل أحبولة
لتصيد المال ثم سخاء ذوى الأمر لهم ببذله سخاء منقطع النظير . ولهذا
كثرت قائلو المديح وطالبوه وتعدى الشعراء التكسب بالشعر للعيش
والحياة ، إلى التكسب به لاقتناء الثروات الواسعة ومجارات ذوى اليسار
والبذخ فى مظاهر الرفاهة والتمتع بنعمى الحياة^(١) ومن ثم هجروا

(١) ذكر صاحب الألفانى أن سلما الخامر خلف ثروة مقدارها خمسون
ألف دينار وألف ألف وخمسمائة ألف درهم غير الضياع . وقد خلف مروان
أكثر من ذلك ومثلها فى هذا جمهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا
نفوقهم كسبا ولكنهم لا يبقون على شيء كأبى نواس

مواطنهم الأولى وأقاموا في بغداد متحضرين يتمتعون فيها بأجزل
العطايا وأسنى الصلوات حتى من الخليفة المنصور على ما كان معروفا
به من التشدد في خزن المال . روى أن أبا دلامة لما أنشده قوله

لو كان يقد فوف الشمس من كرم قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلهم إلى السماء فأنتم أطهر الناس
وقدموا القائم المنصور رأسكم فالعين والأنف والأذن في الراس
قال له بأى شيء تحب أن أعينك قال تملأ لي هذه الخريطة دراهم
فلئت فوسعت أربعة آلاف درهم

ومنذ عهد ابنه المهدي أخذت الأموال تتدفق على الشعراء .

فيل دخل عليه عمرو بن سلم الخاسر فأنشده .

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدي عدلا ونائلا كأنهما عدل النبي ونائله
فقال له أما ما ذكرت يا سلم من الجود فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي
هذا ، وأما العدل فانه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فيه ، وإنى
لا تحراه جهدي . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .
ودخل عليه بعدها فأنشده

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بني العباس
شدت مناكب ملكهم بخلافة كالدهر يخلط لينه بشماس
فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوبا . ثم دخل عليه بعدها فأنشده .
أفنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جوده ونواله نقد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا .
وقد أعطى ابنه الهادي عشرين ألف درهم لشاعر أجاد وصف الصمصامة
سيف عمرو بن معديكرب الزيندى حين حصل عاينه وكان مغرما
باقتناء السلاح وسيأتى هذا الوصف
أما الرشيد فقد غطى فى ذلك على ما كان لأبيه وأخيه .

مدحه مروان بقصيدة يقول فيها
وسات بهارون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصر لواؤه له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسرا عن يدوهو صاغر
ترى حوله الأملأ من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر
فأعطاه خمسة آلاف دينار وكساه خلعتيه وأمر له بعشرة من رقيق
الروم وحمله على بردون من خاص مراكبه . ثم كان جوده على الشعراء
يجاوز كل أمل فى محافل البيعات

وكذلك كان أبناؤه الأئمين والمأمون والمعتصم ولاسيما المأمون
على طول مدته فى الخلافة . قال لمحمد بن الجهم يوما أنشدنى ثلاثة أبيات
فى المديح والهجاء والرثاء ولك بكل بيت كورة فأنشده فى المديح
يجود بالنفس إن صن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وأنشده فى الهجاء

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح المخبر
وأنشده فى الرثاء

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وعلى مثل هذا كان للشعراء، الواثق والمتوكل ابنا المعتمد وبخاصة المتوكل، ومدائح البحتري فيه وعطاياه للبحتري مما ضربت به الأمثال. ومن بعده تغير مجرى التاريخ

وقد اقتدى بالخلفاء في ذلك، الأمراء والوزراء، وأخبار آل برمك في هذا أشهر من أن تذكر أو ينالها تعداد، وكفى أنها كانت من أهم بواعث الحقد عليهم في نفس الرشيد.

بذلك وغيره كثرت المدائح وجادت وكثرت فيها المبالغات كما قرأت بالنماذج في مدحتي مسلم وأبي تمام

هذا وإذا كان من شأن الشاعر المتكسب بشعره، أن يتخذ الهجو عصا في هذا الباب يهيب بها على الماطلين، وينال بأذاها البخلاء والمناعين، لم يك مفر من أن يكثر الهجاء مع المدح، على أن مما أكثره غير ذلك، تحاسد الشعراء وما أنتجه في نفوسهم من عداوة أعادت ذكرى ما كان بين الفرزدق وجريز وحلبتهما بصورة أوسع أفقا وأشد بشاعة ونكرا، ولا يجوز أن نغفل هنا ذكر العصبية الماضية وما خافته من ألوان الهجاء. ثم قد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين إلى درجة أنه كان

يسمع هجوه بنفسه ويصفح. روى أن دعبلا حين هجاه بقوله :

أيسومني المأمون خطية طاجز	أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفي على هام الخلائف مثل ما	توفي الجبال على رؤوس القردة
وبجل في أكناف كل ممنع	حتى يذل شاهقا لم يصعد
إن اتراث مسهد طلابها	فاكف لعابك عن لعاب الأسود
إني من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خمولة واستنقذوك من الحضيض الاوهد
لم يزد أن قال « قاتل الله دعبلا متى كنت خاملا وفي حجر الخلافة ولدت
وبدرها غذيت، وفي مهدها رييت »^(١) فتنزل الشعراء لذلك في عهده -
كما تنزلوا قبل عهده إرضاء للسياسة والعصبيات - إلى الاقذاع في
الهجو والبذاءة في الألفاظ، وقد جعلهم يغفلون في ذلك أشد غلو، ضعف
الوازع الديني وماجرته مثالب المدنية على النفوس من الانقياس في مفاسدها
والفتنة بها إلى أن عد بعضها من المحاسن وهو من المقايح في الحضيض.
هذا إلى أن التسابق في التهاجي كان رغبة بين بعض الشعراء وبعض
دون أن يرتكز في نفوسهم إلى أحقاد أو أسباب سواء

قال بشار يهجو المهدي ويحرض على وزيره يعقوب بن داود :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
صنعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وقال أبو نواس يهجو المفضل بن سيار بالبخل

أصبحت أجوع خلق الله كلهم وأفزع الناس من خبز إذا وضعا
خبز المفضل مكتوب عليه ألا لا بارك الله في ضيف إذا شبعنا
إني أحذركم من خبز صاحبهنا فقد ترون بحلقى اليوم ما صنعنا
وقال أبو العتاهية يهجو معن بن زائدة بالجهن :

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالاً

« ١ » روى أن أبا سعد الخزومي دخل على المأمون وأنشد، شعر دعبل هذا
ثم قال « أناذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيبك برأسه » فقال له « لا ، هذا رجل
نخر علينا فانخر أنت عليه فأما قتله بلا حجة فلا » .

فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
 وشاع هجوم بدمامة الخلق كما قال البحتري يذم بكبر الأنف
 رأيت الخنعمى يقل أنفا يضيق بعرضه البلد الفضاء
 سما صعدا فقصر كل سام لهيبتة وغص به الهواء
 هو الجبل الذى لولا ذراه إذن وقعت على الأرض السماء
 وقد ساد الهجاء المديح فى العصر الثانى لقلة الأجواد وعدم معرفة
 ذوى اليسار ببلاغة القول ، فظهر تبرم الشعراء من هذه الحال والاكتثار
 من هجو الناس والزمن ، ونبغ فى هذه الناحية ابن الرومى نبوغا لم يصله
 سواه كما رأيت فى ذمه ابن المدبر أنفا وكما ترى الآن حيث يذم رؤساء
 زمنه لبخلهم على مدحه لهم ، فيقول

قل للذين مدحتهم فكأنما مسخوا كلابا غير ذات خلاق
 ردوا على صحائف سودتها فيكم بلا حق ولا استحقاق
 ما كان مثلى مادحا أمثالك لولا اتهامى ضامن الأرزاق
 أسخطت خلاق البرية فيكم فباغتم منى رضا الخلاق
 أغرقت فى نزعى لكم ولربما حرم الرماة الصيد بالأغراق
 ولما أقبل العصر الثالث تفجرت ينابيع الجود من جديد على أيدي
 حكام الدويلات وعظماء رجالها ، فتسأبق الفواطم والحمدانيون وآل بويه
 فى الاغداق على الشعراء ، وبذلك بلغ المدح الذروة التى ليس فوقها ارتفاع ،
 ولكن مع بقاء الهجوم مسايرا له إذ لا غنى عنه فى تقرير اللؤماء .
 قال المتنبي يهجو كافورا وقد سمعت كيف كان مدحه لسيف الدولة بن
 حمدان بالتماذج

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خاناه فله في مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
من علم الأسود والخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه السود
أم أذنه في يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلاسين مردود
غير أن حال الشعر عادت في العصر الرابع إلى الكساد لتغلب العجمة
على الحكم فالتفت الشعراء بمدائحهم إلى القديم ومن ذلك نشأ شعر
التصوف بالغزل في ذات الله ومدح النبي والخلفاء

٣ — الغزل — لقد ابتعد الغزل أول العهد العباسي عما كان له
في عصر بني أمية ابتعادا كثيرا لم يحدث مثله للفنين السابقين معه ،
وكان المنشأ الأول لهذا الابتعاد فتن المدنية ومفاسد الحضارة التي
تعدت الطبقة العليا إلى مادونها من سائر الطبقات فبات بذلك النسب
العذري ولم يعد يظهر إلا على ألسنة القايل كالعباس بن الأحنف وقد
رأيت له قصيدة فيه . أما جمهرة المتغزلين فقد انساقوا وراء المتعة
والأباحة إلى حد أباح لهم ما كان غير موجود حتى في الغزل اللاهوي أيام
بني أمية ، من كشف في الوصف ، وتبذل في القصة ، وفحش في اللفاظ ،
كما يقول بشار في معشوقته فاطمة

عجبت فاطمة من نعتي لها هل يجيد النعت مكفوف البصر
أذرت الدمع وقالت ويلتي من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتا بدد هذا نقبي ووشاحي حله حتى انتثر
فدعيني معه يا أمتا علما في خلوة نقض الوطر
أقبلت مغضبة تضربها واعتراها كجنون مستعر

بأبي والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر
وقد حملهم الاستهتار باللذة والاستمتاع بالغم ان استمتاعهم بالنساء،
أن يتغزلوا في المذكر كما يتغزلون في الاناث ، وتلك طادة سيئة قدرة
كانت شائعة بين الفرس وانتقلت إلى العرب بفسدة الموالي ومن لف
لفهم من ذوى الاثابة والمخنتين ، كأبي نراس وحماد مجرد ومطيع بن
اياس ويحيى بن زياد وحسين بن الضحاك وأمثالهم ممن كان همهم الاجتماع
على الشراب مع القيان والغلمان ، يشربون ويمزحون ويصفون الخمر
ويهزلون لا يردعهم عن دناءات النفوس خلق ، ولا يزعمهم دين ، فكان
غزلهم دعارة وعهرا ، وقوى ذلك فيهم انحطاط المستوى العام للأخلاق.
قال أبو نواس العاهر في غلام :

يا بدعة في مثال	يجوز حد الصفات
فالوجه يدر تمام	بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام	والغنيج غنيج فتاة
مذكر تحين يبدو	مؤات الخلوات
زها على بصدغ	مزرفن الحلقات ^(١)
من فوق خد أسيل	يضيء في الظلمات

وقال ابن الضحاك الخليلع في غلام يستحم

وابأبي أبيض في صفرة	كأنه تبر على فضه
جوده الحمام عن درة	تلوح فيها عكن بذه
غصن تبدى يتثنى على	مأكمة مثقلة النهضه

«١» زرفن صدغه ، جعله مستديرا كالزرفين بالضم وهو حلقة الباب

كأنما الرمش على خده ظل على تفاحة غضه
صفاته فأنه كلها فبعضه يذ كرني بعضه
وقد أتيح الانحدار في هذه الجملة القذرة ، وصف محاسن المذكر
كالعذار^(١) وشيوع هجو الناس باللوطية والأبنة، مع الاسترسال في هذه
السبيل بصراحة في الوصف والحكاية، صارت سبة للأدب العربي وقذى
في عيون قارئيه . ثم كان أن عمدة المتغزلون إلى إظهار المتغزل فيه
بصورة المذكر، وإن كانت الصفات صفات إناث كما يقول أبو نواس
ياقرا أبصرت في مأتم يندب شجوا بين أنراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب
أبرزه المأتم لى كارها برغم دايات^(٢) وحجاب
لأنبك ميتا حل في قبره وابك قتيلا لك بالباب
وعلى ذكر الغزل وما وقع فيه من جديد نذكر الجملة التي وجهت إلى ما كان
من ابتداء القصائد في كل الأغراض ماعدا الرثاء بما كانت تبدأ به إلى هذا
العصر من تشبيب يتناول الوقوف بالديار والأطلال والتم لفارقة
أصحابها لها ومسير الأبل مفرقة أو محقة للقاء ، مع ما يأتى خلال ذلك كله
من محاسن المحبوبة وصفاتها على أسلوب الغزائين فنقول : إن أول من قادها
أبو نواس^(٣) فقد رفع عقيرته ينمى على الشعراء هذا التشبيب بالقديم

« ١ » من ذلك قول بعضهم

أيا قرا، من شمس طلعة وجهه وظل عذاريه، الدجى والأصائل

« ٢ » جمع داية وهى الظئر أى الموضع واستعمل في العاطفة على ولد غيرها

« ٣ » قيل إن أول من تلمه إلى ذلك مطيع بن إلياس وقد اجتمع بنقى من

ويطلب إليهم في سخوية لاذعة هجره إلى ما أصبح ملائما من جديد .

كأن يجبه من يقف على الطلول فيقول :

تبكى على طلال الماضين من أسد لادر درك قل لي من بنو أسد

لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

أو يشمت بتفاعيل الرياح والامطار فى الرسم فيقول :

دع الرسم الذى دثرا يعانى الريح والمطرا

ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا

ثم يطلب أن يكون البديل صفة الخمر فيقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ويفعل هذا فى قصائده مشركا معه هذا التنديد تارة كمطامحه :

لا تبك رسما بجانب السند ولا تجد بالدموع للجرد

ولا تعرج على معطلة ولا أثاف خلت ولا وتد

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد

ممد صفقت نمارقه فى ظل كرم معرش خضد

ثم اصطبغ من أسيرة حجبت عن كل عين بالصون والرصد

محجوبة فى مقيل حوبتها تسعين عاما محسوبة العدد

أو مكتفيا بالتنبيه تارة كمطامحه :

دع الربع ما للربع فيك نصيب وما إن سبتنى زينب وكعوب

أهل الكوفة ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن فقال مطيع

لأحسن من بيد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا

تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه رعى

ولكن سبتني البابلية إنها لمثل في طول الزمان سلوب
وكثيرا ما كان يقصد إلى الخمر قصدا كان يقول :

دع عنك لومي فان اللوم إغراء ودواني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء^(١)
ولما حبسه الخليفة لذلك عاد إلى الأطلال ولكن بهذا الأسلوب
أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا

فقد طالما أزدى به نعتك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أردله أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا
وقد أثرت هذه الجملة في شعراء العصر الأول أشد تأثير فاتبعه
فيها كل ذي هوى للخمر ، وابتدأ بالمقصود في القصيدة من صد عنها ، إلا
طائفة قليلة بقيت على عرف الأقدمين في الابتداء ، واستحدث الجميع
المعاني إلا طائفة أقل منها كانت تنزع أحيانا منزع البدو في المعنى المراد
كدعبل إذ يقول من قصيدة مطلعها :

بانت سايمي وأمسي حبابها انقبضا وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا
في بذل المال للثناء :

قالت سلامة ابن المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبها
هذي سبيلي وهذا فاعلمي خلقي فارضى به أو فكوني بعض من غضبها

« ١ » نرى أن ثبت هنا البيت الثالث بعد هذين البيتين ، مثلا لما طالما

نبهنا عليه من الفحش في المعنى والابتداء في اللفظ وهو

من كف ذات حر في زى ذى ذكر لها صحبات لوطي وزقاء

وقد استمرت المبادئ على هذه الأنحاء طوال العصر الثاني بعد الاول، ولما جاء الثالث بقيت عليه تقريباً في العراق وفارس وخراسان وطادت إلى القديم في الجزيرة والشام ومصر مع نزوع القول في جميعها إلى هذا المئزج الجديد. ولما حل العصر الرابع نشأ بجانب هذا الغزل المكشوف غزل عف بعث به أخوه العذري القديم لانتشار الروح الصوفية فيه كما رأيت في قصيدة ابن الخياط .

هذا - ولقد كان للشعر منذ العصر العباسي الاول جولات واسعة في فنون أخرى غير هذه الفنون الثلاثة، جاء بعضها أول ما جاء نتيجة لها، كالغزل الذي دفعته إليه العصبية، والمجون الذي أنشأه الاستمثار، والخمريات التي شغلت المطالع أولاً واستقلت بعد بسائر القصيد، وجاء بعضها مستقلاً عنها كالرثاء والزهد والصفات . فهذه ستة فنون غير الثلاثة السابقة وإليك كلمة عن كل فن منها على سبيل الإجمال

١ - الغزل - حالف الغزل العصبية منذ العهد الجاهلي إلى آخر العصر الأموي وكان يتزع فيها جميعاً عن الحسب والنسب ولكن استمرت منازعه الحسبية العظامية غالباً على النسبية العصامية حتى العصر العباسي الأول الذي قامت فيه الشعورية على قدم وساق فانعكست الآية بسنته المعفية على كل قديم . ثم توارى الأمران تقريباً في العصر الثاني وعاداً إلى الظهور كفرنسي رهان في الثالث الذي حظى الغزل فيه بعدد وافر من الشعراء نذكر منهم المتنبي وأبأفراس والشريف الرضي وأبا العلاء، فقد جمعوا في مفاخرهم بين المظهرين وإن كان المتنبي دونهم حاد بعض الحيدة عن الأحساب . ثم جاء العصر الرابع فنضبت فيه الصفات

الشخصية وأصبح الفخر إما بالعظام كما رأيت في مفخرة الايوردى
بسفيايته أو بانتحال الصفات على غير أساس كما شاهدت فيما سياتى
لابن سناء الملك . وهذا مثل لمن لم يتقدم له نخر من تلك الشخصيات

قال المتنبى من قصيدة

ما مقامى بأرض نخلة^(١) إلا ك مقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولكن م قيصى مسرودة من حديد .
أنا رب الندى ورب التوافى وسام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله م غريب كمالح فى ثمود

وقال الرضى من قصيدة

أنا من عادت قديمه وحديثه علم اليقين وإن جهلت فسائل
قوى الملوك وخيم نفسى خيمها أفلج بمثل أو أخرى وأوائلى^(٢)
نحن الولاة العادلون ولم نزل آثارنا حلى الزمان العاقل
واذا الخصوم تجادلوا فى مجدهم ظهرت دلالة مجدنا فى كامل

وقال أبو العلاء من قصيدة

وكم من طالب أمدى سيلقى دوين مكافى السبع الشدادا
يؤجج فى شعاع الشمس نارا ويقدح فى تلهبها زنادا
ويطعن فى علای وإن شسمى ليأنف أن يكون له نجادا
فلا وأبيك لا أخشى انتقاصا ولا وأبيك لا أرجو ازديادا

٢ - - المجون - - كان منشأ المجون وهو من مستحدثات العصر
باسى كما قلنا ، الاستهتار الذى استهان بالدين فكانت الزندقة والألحاد ،

(١) موضع بمجنوب الشام (٢) أسبق بهم وأظفر

واشتهر بالأخلاق فكانت الرذيلة والفساد ، ثم استهزأ بالعرف فكان
الفحش في المعاني والبذاء في الألفاظ . وشياطينه الأثائل وغارسو
بذوره هم تلك الطائفة التي ذكرنا في الخروج على القديم

وقد ساعد على انتشار هذه السموم ما غزا البيئات العربية من الآراء الفلسفية
المختلفة ، والاباحية الداعية إلى مشاركة الانسان لأخيه الانسان في كل
شيء ، ثم عبادة المادة وعدم المبالاة بزواج الأديان ، ذكروا أن مطيع
بن إياس مر ببيحي بن زياد وحماد بن إسحق وهما يتجادلان فقال لهما فيم
أنتما قالوا في قذف المحصنات فقال « أو في الأرض محصنة تقذفانها »
كما ساعد عليها أيضا ما كان يعقد بعض الأمراء والوزراء من مجالس
الشراب والمنادمة التي يحضرها أمثال هؤلاء فيعمرونها بالتهتك والخلاعة
ويحاكونها في صورة أشنع منها بمنازل بعضهم . كما كانوا يفعلون في منزل
إسماعيل القراطيسي بالكوفة . ولقد جرت صحبة هؤلاء إلى إفساد كثير
من أبناء الخلفاء ، فالأفاني يذكر أن جعفر بن المنصور أفسده مطيع بن
إياس ، ومحمدا الأمين أفسده أبو نواس وحسين بن الضحاك . ولم يلبث
اضطراب الحركة الفكرية وتزاحمها في أذهان الناس بما نقل واستنبط
من حقائق فلسفية مختلفة في الدين والرياضة والفلك والطب ومسائر
العلوم ، أن فصل ذوى المجانة في الدين عن مجان الفضيلة والعرف ، فكان
من الأولين طائفة الزنادقة الملاحدين الذين كان دأبهم التشكيك في
حقائق الدين بشكل جدي لا مجانة فيه كصالح بن عبد القدوس وأبان
ابن عبد الحميد وعمارة بن حمزة وغيرهم ، وكان من الآخرين مجان الهزل
الذين دأبهم التضحيك كمن ذكرنا مع أبي نواس . ومن أمثلة مجونهم

بسم الله الرحمن الرحيم

قول دعبل عن ديك له أخذه صالح ~~البحري~~ لضيوفه .

أمر المؤذن صالح وضيوفه أسر الكبي هذا خلال الماوط^(١)

بعثوا عايه بناتهم وبنيهم ما بين ناتفة وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أوهزموا كتائب ناعط^(٢)

نهشوه فانتزعت له أسنانهم ونهشمت أقفاؤهم بالحائط

وقد كان لهذا النوع من المجون شأن كبير في العصر العباسي الثالث

ومن مشهورى رجاله بالعراق أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن

سكرة الهاشمي وأبو عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج ، ومنهم بالشام

أبو الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي . فمن مجون ابن سكرة قوله في

جارية بخراء تدعى خمرة جعلها محطا . لكثير من مجونه

هل لك يا خمرة في تجرة مربحة ما مثل — اتجره

سيرى إلى البصرة واسترزق ربك بالنكحة في البصرة

يزكوبها النخل وتحمّر في غير أوان الحمة البصرة

ومن مجون ابن حجاج قوله لرجل دعاه إلى عرس ثم أخلف

أين نصيبي من الطعام وما طمعت في لعقة من الرقة

أشفقت منى وكان يقنعني عندك ما ليس يوجب الشفقة

قطعة لحم في وزن خردلة على رغيّف كأنه ورقه

ومن مجون أبي الرقعمق قوله عن قيادته من قصيدة .

فأطيب العيش كان عندي أيام للفسق قلدوني

«١» بالتسهيل ، مكان الصراع ومفعول أمر ~~والليست~~ «٢» خاقان لقب

ملك الترك ، وناعط هو ربيعة بن مرثد الهمداني صاحب خلاف باسمه

وكننت طبا به بصيرا وأقود الناس في سكون
فكم غزال أخذت قسرا وكم مليح حوت يميني
والناس يسعون بنحو داري من كل أرض ويقصدوني

٣ - الخمریات — قلنا إن الخمریات شغلت مطالع القصائد أولا مكان
التشبيبات القديمة، ثم استقلت بعد بسائر القصيدة، ولذلك تعد من
الفنون الجديدة في العصر العباسي. نعم إن الخمر نالها في عهد بني أمية
شيء من أيام يزيد بن معاوية، وأشياء على أيام الوليد بن يزيد، ولكن ذلك
لم يصل بها إلى أن تكون فنا من فنون الشعر مستقلا حتى جاء أبو
الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحي، وكان شاعرا مطبوعا من
مخضرمي الدولتين، فأشاد بذكرها لأدمانه العاقرة وشغفه بالشراب
مع ما كان يرمي به فن الفسق وفساد الدين حتى كاد شعره يكون كله
فيها وكان في تلك الاشادة كثير الحض عليها كقوله

قل للسرى أبا قيس أتتهجرتنا ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولانسيت حمياها ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس فلم يعدل بوصفها شيئا من الفنون، حتى بلغ ما قاله
فيها من القصائد والمقطعات والمطالع بضعة آلاف من الأبيات ولذا عد
إمام واصفها بالاجماع، واقتدى به في ذلك عدد ممن عاصروه وإن لم
يساووه. وكذلك كانت الخمریات في العصر الثاني ثم استفحل أمرها
في الثالث على عهد آل بويه الذين كان أغلب شعرهم فيها حتى لم تبق
زيادة لمزيد. وعلى هذا الطغيان كانت في العصر الأخير. وقد رأيت

من ذلك نماذج لأبي نواس ولا بن المعتز وقبلها مثلها لمعز الدولة وأبي العباس بن ركن الدولة ، فلم يبق إلا نموذج نأتى به من العصر الرابع نخذه للطغرائى يصفها فى شيبه ويجعلها بديلة الشيباب

قد كان لى فى شيببى مرح	يحدث لى بفتة بلا سبب
فند تولى الصبا تبين لى	أن الصبا كان موجب الطرب
حظ تولى فلست أدركه	إلا بعون من ابنة العنب
فهاتها من شيببى بدلا	أقضى بها بعض ذلك الأرب
صفراء مثل النضار ألبسها	مزاجها لؤلؤا من الحبيب
فأسعد الناس من حوت يده	ماشاء من لؤلؤ ومن ذهب

٤ - الرثاء - ليس الرثاء محتاجا بعصر ما فى وجوده إلى تعليل ، مادامت رضى المنايا دائرات وما دام الدهر نقادا يستتاب النفيس ويفجع بالعزير . وكل ما نريد أن ننبه عليه الآن ، أن الرثاء فى رقيه وانحطاطه كان سائرا وراء المديح ، وأنه لذلك بلغ فى العهد العباسى من جودة المعانى وحسن التعبير ، ما لم يصل إليه فى سابق أو لاحق من العصور ، وقد رأيت من مرأتى العصر الأول قصيدة أبى تمام فى ابن حميدوهى مضرب الامثال فى عظمة المعانى وقوة الأداء ، ورأيت فى الثانى مقطعة ابن الزيات فى رثاء أم ابنه عمر ، وهى فيض من العاطفة الباكية والشعور المحزون ، ثم رأيت فى الثالث - وهو أرقى العصور رثاء لأنه أرقاها مدحا - رثاء الرفاء لصديقه المصلوب ، وهو نوع من الرثاء جديد ، ورثاء الرضى للصباى ، ولعله أروع رثاء ، يتبين فيه صدق الأخاء . وإليك فى الرابع نموذج لآل بن

سنان الخفاجى فى والدته، وكان الرثاء متطامنا فيه تطامن المديح قال :

قبحا ليومك فالنوائب بعده جنل وكل رزية لا تفجع

لو كان ينفعني السـلو نبذته أسفا عليك فكيف إذ لا ينفع

هيمات يجمع شمل صبر نافر قلب بأيدي الحـادثات مروع

أحنو الضلوع على بواعث غلة ضمن اذكارك أنها لا تنقـع

عجبا لمن يبقى ذخائر ماله ويظل يحفظهن وهو مضيع

لا يغبطن على البقاء مرزأ إن المودع إلفه لمودع

هـ - الزهد - من النواميس المقررة فى حياة الجماعات، أن نزوع

طائفة ما إلى ناحية ذات غلو وإفراط، يقتضى نشوء أخرى مضادة لها

فى الاتجاه ، ولذلك لما كان الوازع الدينى على عهد الراشدين وبنى أمية

قويا يكاد يشترك فى الخضوع له الناس جميعا دون استهتار أحد بالخروج

عليه فى تبجح وتظاهر ، لم نك ترى الزهد والغلو فى الدين باديا للعيان .

أما حين غزت الأباحية الشعب العربى على عهد بني العباس للأسباب

الكثيرة التى ذكرناها فيما قدمنا ، ونشأت من غزوها طائفة المستهترين ،

فلم يك مفر أن توجد طائفة تقاوم تلك ، همها التزهيد فى هذه الحياة

بتجسيم مقابحها وتكذيب زخارفها . وعدم الاغترار بما فيها من متاع إن

هو لإحطام ، بقدر ترغيبها فى الآخرة وما فيها من لذة وخلود . نعم جدت

هذه الطائفة ، وعلى أنها كانت إزاء تلك قليلة العدد محدودة الأشخاص ،

أمكنها بقوة الدين ومدده القويم ، أن تنتج من المواعظ ونواحي الارشاد

مأثرا السبل على أيامهم ، وبقي بعدهم هدى للناس . ثم كان أشخاصها ذوى

مكانة فى نفوس الخلفاء وسائر الحكام ، إن لم يكن لدى بعضهم عن

عقيدة وإخلاص، فلا أقل أن يكون استرضاء للعامة بتقريب هؤلاء
الوعاظ، وقد كان إمامهم في العصر العباسي الأول أبو العتاهية الذي
سلف من قصصه ووعظه ما فيه الغناء ولقد تفرع عن هذا الوعظ
بالتزهيد، نوع آخر من الحكمة، هو تأديب النفس بضرب الامثال وقص
الحكايات، وأول من فعل ذلك أبان بنظمة كريمة ودمنة، وتبعه من
ذكرنا آنفا حيث الكلام على هذا الكتاب. ثم اتصل الزهاد والمؤدبون
فلم تخل الأرض من حجاج منهم لله على نوال العصور. على أن التأديب
بالتزهيد لم يعدم أن يصدر على لسان كثير من المستمترين فيكون حجة
عليهم وتقوية للزاهدين. وهذا أبو نواس يقول:

أخي ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لا تظن الموت حقا
ألا يابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبقى
ومالك فاعلمن فيها مقام اذا استكملت آجالا ورزقا
ومالك غير ما قدمت زاد اذا جعلت إلى اللهوات ترقى
وما أحد بزادك منك أحظى وما أحد بزادك منك أشقى

٦ — الصفات — وعلى قدم الوصف في الشعر العربي منذ العهد الجاهلي
لم يبلغ فيه ولا في العصرين بعده شيئا مما بلغ في عصر بني العباس. ذلك
بأن منابعه الحسية من مظاهر طبيعته وآثار حضارة، والمعنوية من
مشاعر نفوس ومدركات عقول، كانت محدودة في الأول واقفة عند
حدود قريبة في الآخرين. أما في العصر العباسي وقد تجلت فيه
مظاهر الطبيعة وآثار الحضارة، وخطت فيه الوجدانات والعقول
خطوات لم تكن في حساب، فقد أصبح الشاعر إذا غار في أحماق الفكر

لا ينتهى بقرار، وإذا طار مع الخيال لا يصل إلى سماء، ولذلك بلغوا في
الناحيةين مبلغا يدهش عقل من لا يحيط بنواحي هذا الانقلاب الشمول.
وليس يألوا ذكرنا من نماذج، وما استشهدنا به في معظم ماضى
وبخاصة في ناحية المعانى والأخيلة أن يكون دلائل ناطقة، وآيات بيّنة
على صدق ما نقول، فارجع إليه وإنه لقريب. ويكفى أن الوصف قد
خاق بعض نواح منذ العصر الأول وأنضجها فيه حتى صارت فنا
مستقلا كما تقدم في الخمریات. ولم يقف دون السير في هذا العصر نفسه
بفن آخر جديد هو وصف الرياض وما تحوى من آيات جمال كما
رأيت في بعض ما اخترنا، ثم ماكد الزمن يخطو إلى العصر الثانى حتى
استوى هذا الفن على سوقه يعجب الزداع، وصدر فيه على السنة كثير
من الشعراء ما يبهز الناظرين، وإليك بعض ما قيل

قال ابن المعتز يصف إقبال الربيع	ض وشكر الرياض للأمطار
ماترى ^(١) نعمة السماء على الار	وانفتاق الأشجار بالأنوار
وغناء الطيور كل صباح	وكأنا من قطره فى نثار
وقال على بن الجهم يصف الورد	حسنى الرياض وصوت الطائر الغرد
لم يضحك الورد إلا حين أعجبه	وراحت الراح فى أثوابها الجدد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها	إلى الترائب ^(٢) والأحشاء والكبد
وقابلته يد المشتاق تسنده	أو مانعا جفن عينيه من السهد
كأن فيه شفاء من صبايته	

(١) ما هنا مخفف أما (٢) عظام الصدر.

بين النديمين والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة بيد
 ما قابلت طلعة الريحان طلعتة إلا تبينت فيه ذلة الحسد
 قامت بحجته ربح معطرة تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
 لا عذب الله إلا من يعذبه بمسمع بارد أو صاحب نكد
 وقال ابن الرومي - وكان مولعا بالخلاف - يفضل النرجس على الورد
 خجلت حدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد
 لم يخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة^(١) طاند
 للنرجس الفضل المبين إذا بدا بين الرياض طريفه والتالد
 فصل القضية أن هذا قائد زهر الربيع وأن هذا طارد
 شتان بين اثنين هذا موعد بتصرم الدنيا وهذا واعد
 فاذا احتفظت به فأمتع صاحب بحياته لو أن حيا خالد
 ينهى النديم عن القبيح باحظه وعلى اللدامة والسماع مساعد
 اطلب بعقلك في الملاح سميده أبدا فانك لا محالة واجد
 والورد إن فتشت فرد في اسمه مافي الملاح له سمي واحد^(٢)
 هذى النجوم هي التي ربتهما بحيا السحاب كما يربي الوالد
 فانظر إلى الولدين من أدناهما شبيها بوالده فذاك الماجد
 أين الحدود من العيون نفاسة ورياسة لولا القياس الفاسد
 وحين أقبل العصر الثالث صارت الزهريات من أوسع فنون
 الشعر ، فلم تبق زهرة ولا ريحانة ولا أي شيء مما تنبت الرياض على
 اتساع الرياض إلا أشبعه شعراؤه نعتا ووصفا . استمع إلى القاضي

(١) ناسبها إليه (٢) يظهر أن التسمية كانت شائعة بينهم دون ورد

على بن محمد التنوخي يقول :

ورياض حاكّت لهنّ الثريا حللا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها فتحات بمثل در العقود
أقحوان معانق لشقيق كثر غور تعض ورد الحدود
وعيون من نرجس تترأى كعيون موصولة التسهيد
وكان الشقيق حين تبدى ظلمة الصدغ في حدود الغيد
وكان الندى عايبا دموع في عيون مفجوعة بفقيد
وعلى هذا الافتنان بقيت الزهريات في العصر الرابع، قال الأثرجاني
يصف روضة في مطلع قصيدة غزلية

ماروضة أضحكّت صبحا مباسمها دموع قطر عايبها الليل ينسفك
فالنرجس الغض عين كلها نظر والأقحوانة ثغر كله ضحك
وللشقائق زى وسطها عجب إذا تمايان والأرواح تأتفك^(١)
حمر الثياب تطير الريح شائلة أذيا لها وهي بالأزوار تمتسك
إذا الصبا نبهت أحداقها سحرا حسبت مسكا على الآفاق ينفرك
أثم طيبا وحليا من ترائبها^(٢) إذا اعتنقنا وخيل الليل تعترك

ولم يترك الوصف شيئا بعد هذين الفنين من سائر فنونه إلا
أجاد فيه كما ترشد إلى ذلك بعض النماذج والمستشهد به من الأبيات،
ومن العسير أن نتعرض للاستقصاء فإن الباب طويل .

١٠ — وأخيرا هذا فن طائر لا يصح إغفال التنبيه عليه هنا وهو
ضبط قواعد العلوم والفنون على اختلاف أنواعها بالمزدوجات وغير

(١) تتناوح في تصرفها (٢) أتم خبر ما النافية المفتوح بها الشعر

المزدوجات، نعم إن هذا الفن قد ابتذل الشعر وخط من قدره لأنه أخرج به في معناه من أودية الخيال ومشاعر الوجدان، وبعد به في لفظه عن أناقة التعبير ورشاقة الأسلوب، ولكن ذلك ليس بمخرجه عن أنه من فنون الشعر على أية حال، وإذ قد فاتنا التمثيل له فيما مضى فلنأت منه في كل من العصرين الثالث والرابع بمثال لكثرة فيهما نظراً لنقدم العلوم.

قال ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ في الحد من منظومة له في المنطق
إذا أردت أن تحد حداً فرتب الجنس القريب جداً
فانه يحصر كل ذاتي يكون للمحدود في الصفات
ثم اطلب الفصول فهي الحاد من صورة أخذتها أو ماد
وقال الحريري في أدوات الشرط من ملحمة الأعراب

هذا وإن في الشرط والجزاء تجزم فعلين بلا امتراء
وأختها أي ومن ومهما وحيثما أيضاً وما وإذما
وأين منهن وأنى ومتى فاحفظ جميع الأدوات يافتي
٢ - ناحية المعاني والأخيلة

لقد كان نضج العقول واتساع الأفكار بما حدث في العهد العباسي من تدوين العلوم وترجمتها، طاملاً مهما على تفسيح ميادين المعاني وتفجير ينابيعها، وكان وضع القصة المعتمدة على الفرض والتخيل، ومظهر الحضارة المصحوبة بحاسن الطبيعة وجمالها، منمياً للملكة التصوير ومكثراً لأنواع الأخيلة. كما كانت الملاحاة الدائبة بين الجماعات من جنسية ومذهبية، والخصومة القائمة بين الزهاد والمستمتعين من أقوى البواعث

على نشر المباحثة والمناظرة ، وخلق القدرة على الجدل والسفسطة في النفوس ، فلم يعد الناس يتقبلون القضايا مجردة من الحججة والدليل . وكل هذا عاد على المعاني والاختيلة بتقدم واضح ورقى كبير أجملنا مظاهره حيث الكلام على ما كان لحياة اللغة في ذلك من نصيب . وهانحن أولاء مفصلوه في الشعر تفصيلا يعتمد أول ما يعتمد في التمثيل له على ما أسلفنا من نماذج .

١ - استنباط الدقيق والجديد من المعاني - جال الشعراء في هذا الميدان جولات بعيدة المدى ، ظهر أثرها متشعب النواحي في كل ما طالجوا من فنون الشعر ، حتى لقد تزاخم الكثير منها في القصيدة الواحدة تراخا كان غير معروف ، كما فعل ابن الرومي في قصيدته السابقة التي تصدى فيها لهجاء إبراهيم بن المدبر ، حيث جعل ثناء رواده عليه شركا ليستميحه غيرهم فيخيب خيبتهم ، وحيث جعل نكوص هجائه عنه لنجاسة لؤمه لا لأنه جنة ، وحيث جعل هذا الهجاء لباسا يضي روحه ويشقيها انتقاما للأبراد التي طالما أشقاها جسده ، وهكذا من سائر المعاني الدقيقة التي عالجها . وكما فعل الرقاء في رثائه صديقه الفتى المصلوب من بنى شيبان ، إذ تصوره بدرا مفقودا مع أنه غير آفل ، وإذ سوى بين ثنى عطفه في غلالة الصلب وسابغة الحرب ، وإذ جعله معرى كالسيف منتضى ، وإذ اعتقد أن القدر أحله الهواء ضنا به عن ضنك الثرى ، إلى آخر ما عالج ^(١) وكما فعل الصابي في قصيدته التي يعزى بها نفسه وهو

(١) معظم ما وقع من معان في المصلوبين جاء جديدا ، لأن التمثيل بقتلاه يكن شائعا ، ومن أسير القصائد فيه قصيدة أبي الحسن الانباري في أبي

في السجن، من تفضيل من سجنه عزه على من أطلقه ذله ، ومن جعله
هذه النائية أثرا لمازلته الدهر ، وتلك اليد ضده والسعاية به أثرا لما رده يده
إلى النجم وسعيه نحو النجد ، إلى آخر ما تناول وهو كثير . ولغير هؤلاء
فيما تقدم من نماذج تناول دقيق للمعاني وإن لم يك في القصيدة بالكثير
كالذي رد به التهامي تهمة حبيبته إياه أنه نسيها بجديد ، من أنها أخذت
حواسه وعقله ، فكيف يعشق لو أراد ، وكالذي ألم به مهيأ في تهنتته
ابن علي المغربي بالنيروز وهو يهنته بالوزارة ، وكالذي طالجه الغزى في
مدحه البيهقي من خلطه مدحه ببيان أنه يكره مدح الناس ، في شبه تخويف
بما قد يحمله عليه المطل من هاء ، ثم كالذي قاله الأرجاني في هجو أهل
زمانه وسوء حالهم من عدم إعطائهم إذا مدحوا وحنقهم إذا لم يمدحوا .

طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة بين بويه ، حين قبض عليه عضد الدولة إذ
انتصر على ابن عمه المذكور وقتله وصلبه .

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاه
مددت يديك نحوهم احتفاء كمدها إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوق بك واستعاضوا عن الألفان ثوب السافيات

ومن جيده أيضا قول عمارة اليمنى في حاص قتل وصاب

ومد على صليب الصلب منه يميننا لا تطول إلى شمال
ونكس رأسه لعتاب قلب دماه إلى الخواية والضلال

وهذه طائفة ثانية من الممانى الدقيقة التى تظهر عليها الجدة مع دقتها .

قالى بشار ينسب العشق إلى الأذن كالعين

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال فى إهلاك ما به بعدوى كفه من كف ممدوحه

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأنفدت ما عندى

وقال أبو نواس يشبه نفسه وقد حرم عليه الخليفة الشراب - فكان يمدح

الخمر ولا يشربها - بقعدى الخوارج يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين التحك - بما

كل عن حملة السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقيما

وقريب من هذا قول الغزى بعد

أنا فى الحلة الغداة كأنى علوى فى قبضة الحجاج

وقال إسحق بن ابرهيم الموصلى فى فلسفة الهجر

أخاف عليها العين من طول وصلها فأهجرها الشمرين خوفا من الهجر

وما كان هجرانى لها عن ملالة ولا كنتى أملت عاقبة الصبر

أفكر فى قلبى بأى عقوبة أعاقبه فيها لترضى فما أدرى

سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر

فكنت كمن خاف الندى أن يبله فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وقال ابن المعتز جاء علا تحكم الضيف بربعه أنفذ من تحكم آباءه على الأئم

بحكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف آبائى على الأئم

فكل مافيه مبدول لطارقه ولا زمام له إلا على الحرم
وقال أبو فراس في أثر سنان أصاب خده فعز ذلك على حبيبته

لما رأت أثر السنان بخده ظلمت تقابله بوجهه عابس

خلف السنان به مواقع لثها بثس الخلافة للمحب البائس

حسن الثناء بقبح ما صنع القنا يوم الطعان بصحن خد الفارس

وقال ابن الرومي يحال لنفسه عدم تفاضيه عن خطأ صديقه

يا أبا القاسم الذي كنت أرجو له دهرى قطعت من الرجاء

أنت عيني وليس من حق عيني غص أجفانها على الأقداء

وقال في الحبيبة تقتل بنظرها وإعراضها

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم

فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعته أليم

وقال أبو تمام يجعل نعمة الطالب تعويذة لعطايا الممدوح كيلا تجن

تكد عطاياه يحن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب

وقال يذكر فضل الحاسد على المحسود

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقال يذكر فضل قبور بني مالك على الثرى

بني مالك قد نبهت خامل الثرى قبور لسمك مستشرفات المعالم

غوامض قيد الكف من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلام

وقال يجعل المجد شفيعه في عدم التقاضى

وإذا المجد كان عوني على المرء تقاضيته بترك التقاضى

وقال المتنبي يذكر أنه رأى الماضين من فلاسفة وملوك في ابن العميد
من مبلغ الأعراب أنى بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس راوى كتبه متماسكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والأعصرا
نسقوا كما نسق الحساب مقدها وأتى فذلك^(١) إذ أتى متأخرا
إلى غير ذلك مما لا يتناوله إحصاء

هذا - ولقد كانت رغبة المحدثين في تدقيق المعاني حاملة لهم على
استخراج المكنون وتجلية المستور، فجاءت لذلك لائحة ثوب الجودة
والابتكار، ولعلمهم لهذا كانوا إذا ألموا بتقديم جعلوا لأنفسهم فيه ميزة
أويدا بجديد، وهذه ناحية حافلة بالأمثال المشرفة لكثير منهم في كثير
من أبواب الأدب ولا سيما باب السرقات . وقد ذكر منها طائفة صالحة
أبو هلال العسكري في كتابه الصناعاتين، وهذا بعض ما جاء فيه وفي
غيره كالعمدة لابن رشيق

قال أبو نواس، وله في هذا الباب باع طويل

وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
فكان أوثق وأسخى وأرق من الفردق حيث يقول
متى تأتي الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى
وقال في محاسن حبيب باك

يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطمم الورد بعناب
فكان فاضلا الأسود بن يعفر بالزيادة والرقعة إذ يقول

(١) يريد أنى في النهاية جامعاً لما سبقه من فذلك حسابه إذا أنها بقوله فذلك جملة .

يسمى بها ذو توأمين كأنما قنأت أناملة من الفرصاد^(١)
كما كان معبد الطريق لأن يزيد عليه غيره كلواأواء الدمشقي في قوله .
وأمرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد
وقال في دقة أخذ

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
فكان يئته أعنم معني وأشد مبالغة من بيت جرير
إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا
ومثل هذا في دقة الأخذ قول أبي تمام
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
فانه جعل الموت في الحرب انتصارا ، كما جعل ابن الوردي اجتهاده عذرا
في قوله

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو ينال رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح
وقال في تمنى الطير غزوة ممدوحه لتأكل من لحم قتلاه
تمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره
فكان له فضل الايجاز مع الايضاح على النابغة حيث يقول .
إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله اذا ماالتقى الجيشان أول غالب
وقال في ذلك مسلم

(١) الضمير راجع إلى دور المناذرة بعد خلوها منهم وتهدمها ، وقنأت
اشتدت حمرتها ، والفرصاد التوت الأحمر أو صبغ أحمر

قد عود الطير طادات وثقن بها فمن يتبعنه في كل مرتحل
وقال فيه أبو تمام

وقد ظلت أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل
ثم جاء المتنبي ففضل الجميع بما زاد فيه اذ يقول

يفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وماضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم
وقال أبو تمام في إعراض ممدوحه عن الدنيا للسهود

يصد عن الدنيا اذا عن سؤدد ولو برزت في زى عذراء ناهد
فكان قوله بزيادته أقوى من قول المعذل بن غيلان .

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر
وقال منصور النيرى

فلو كنت كالعنقاء أو كسموها خلعتك إلا أن تصد ترانى
ففضل النابغة حيث يقول

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلعت أن المنتأى عنك واسع
وهذا معنى أكثر فيه المحدثون غير منصور فأجادوا؛ قال سلم الخاسر .
ولو ملكك عنان الريح أصرفها في كل ناحية مافاتك الطلب
وقال البحتري .

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب
وقال علي بن جبلة .

وما لأمريء حاولته منك مهرب ولو رفعتة في السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع
على أنا لا نغبط المتقدمين حقهم فى أن لهم من المعانى ما لم يزد فيه
المتأخرون قلوا أم كثروا كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحام سواء ذو العمامة والخمار
فقد أخذه المتنبي دون زيادة إذ يقول
ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب
وكقول عمر بن أبى ربيعة .

لقد دب الهوى لك فى فؤادى ديب دم الحياة إلى العروق
فقد أخذه مسلم كما هو فى قوله
تجرى محبتها فى قلب عاشقها جرى السلامة فى أعضاء منتكس
وأخذه أبو نواس كذلك ولكن نقله إلى الخمر بقوله .

فتمشيت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم
٢ - الا كثر من ضرب المثل وحسن التعليل - كن من أهم الدواعى
إلى طلب الأمثال حاجة العقلية الجديدة إلى شفع القضايا بما يوضح
معناها ويؤيد دعواها ، وقد ساعد القائلين على ضربها ما انتشر فى
البيئات الجديدة منذ الصدر الأول من ترجمة الأفاضل فى الحكيم
والامثال ، ووضع قواعد العلم فى مختلف الفنون ، ولذلك نعد منها ما سبق
آنفا فى استخدام مصطلحات العلوم . وأنت اذا رجعت إلى ما أسلفنا
من نماذج ألهمت ذلك كثير الانبثاق فى ثناياها لابن الرومى والمتنبي وأبى
فراس والصائى والخفاجى والأرجانى وابن عنين ، فارجع إلى ما اختير
لهم تجدها بارزة فيه . وهذه طائفة ثانية .

قال أبو العتاهية

يارب ذى نشب تكنفه حب الحياة وغره نشبه
قد صار مما كان يملكه صفرا وصار لغيره سلبه
يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذى لا ينقضى تعبته
إن استهانتها بمن صرعت لبقدر ما تسمو به رتبه
وإن استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

وقال أبو تمام

وطول مقام المرء فى الحى مخاق لذي باجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ ———دى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابي

وقال

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وقال

يأيتها الملك النائى برؤيته وجوده لمراعى جوده كئيب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

وقال البحتري

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأنك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وقال

دان على أيدي العفاة وشاسع عن كل ند في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب
وقال

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلأق أصفار من الحسن خيب
وحسن دراري الكواكب أن ترى طوالع في داج من الليل غيب
وقال ابن الرومي

وما الحسب الموروث لادر دره بمحتسب إلا بآخر مكتسب
إذا العود لم يشمر وإن كان شعبة من المتمرعات اعتده الناس في الخطب
وقال

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد
والأفما يبكيه منها وإنها لأحسن مما كان فيه وأرغد
وقال المتنبي

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام
وقال قابوس بن وشمكير

ياذا الذي بصروف الدهر عيرنا هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم لا عدد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر
وقال ابن المعتز

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من شدة الفتك نالها الوصب
م - ٢٥ أدب

جمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب

وقال ابن نباتة السعدي من وصف فرس أغر محجل

وأدم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا

سرى خلف الصباح يطير زهوا ويطوى خلفه الأفلاك طيا

فلما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا

وقال ابن قلاقس الاسكندري

مضى معهم قلبي قاله دره لقد سرتني إذ مر مع من يسره

وأطول من هجر الحبيب وصبوتي ويوم النوى ليلى وهمى وشعره

وليس دما مماء الجفون وإنما فؤادي بماء الدمع قد ذاب جمره

وقال ابن شبل البغدادي

يفني البخيل بجمع المال مدته وللحوادث والأيام ما يدع

كدودة القز تبنيه ويهدمها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

٣ — استخدام البراهين العقلية والآراء الفلسفية — لم تكن شاعرية

الشاعر قبل العصر العباسي تعتمد منه على ثقافة علمية، ولذلك بقي شعره

فطريا ليس فيه أثر من تثقيف وتعليم. أما في العصر العباسي فقد انحرف

الشعراء في زمرة العلماء، وأصبح منهم في كل ناحية أعلام، وتأثر شعرهم

من هذه الناحية تأثرا شديدا، فكان ميدانا لأفكارهم العلمية ومجالا

لآرائهم الفلسفية، وظهر فيه العقل المثقف بمظهر الغلبة على العقل

الفطري، وكان المجتمع الجديد بما فيه من حوار ونقاش في الدين وغير

الدين منميا لهذه الظاهرة دافعا لها إلى الامام. ولعل أول خطوة في سلوك

هذه السبيل كانت القدرة على صوغ الحكمة بعد ضرب المثل وإحسان

التعليل على السنة كثير من شعراء العصر الاول كبشار وأبي العتاهية،
وبعدها كان اقتباس بعض المعاني الفلسفية لشيوع العلوم القديمة بين
المسلمين بعد ترجمتها منذ عهد المنصور إلى عهد المأمون . وقد ظهر هذا
الاقتباس على السنة بعض شعراء العصر الثاني كابن الرومي

ولما جاء العصر الثالث وفاضت فيه العلوم الفلسفية فيضا، اغترف
الشعراء منها اغترافا ظهر غزيرا على لسان أول شعرائه المتنبى ، ثم زاد
غزارة وعمقا بعقلية فيلسوفه وآخر شعرائه المعري . ولكن بعد هذا
المعين في العصر الرابع على الشعراء فعجزوا عن الامتياح ، ومن حاول
منهم السقيا على طول الرشاء أبعد التفكير ووقع في الخفاء .

وهذى بعض أمثلة لمن ذكرنا من الشعراء

قال بشار في الحكيم القريية من وحى الفطرة

إذا كنت في كل الامور معاتبا	صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فحش واحدا أو صل أخاك فانه	مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى	ظمئت وأى الناس تصفو مشاربته
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها	كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال في فلسفة الخيرة وكان من أصحابها

طبعت على مافى غير مخير	هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد	وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر	وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

وقال أبو العتاهية وكانت فلسفته في الزهد والدين - وله في ذلك الأرجوزة

التي قلنا آ نفا إن بها أربعة آلاف مثل - يعظ ويذكر

يا عجباً للناس ، لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فانما الدنيا لهم معبر
الخير مما ليس يخفى هو المعروف والشر هو المنكر
والموعد الموت وما بعده المحشر فذاك الموعد الأكبر
لا نخز إلا نخز أهل التقى غدا إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى والبر كانا خير ما يذخر
عجبت للإنسان في نخره وهو غدا في قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

وقال ابن الرومي في الحيرة بين حب المال والخوف من طلبه

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى إلى وأغراني برفض المطالب
فأصبحت في الأثراء أزهد زاهد وان كنت في الأثر أرغب راغب
حريصاً جباناً أشتهى ثم أنتهى بل حظي جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعني رغب ورهب كلاهما قوى وأعياني اطلاع المغايب
فقدمت رجلاً رغبة في رغبة وأخرت رجلاً رهبة للمعاطب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرى غايته قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب
وصبرى على الاقتار أيسر مملاً على من التفرير بعد التجارب

وقال أيضا وكان شغوفًا بمخالفة المؤلف في فلسفته^(١) بمدح الحق ودو محسنه
 وخير مسجيات الرجال مسجية قوفيك ما تسدى من القرض بالقرض
 ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها بل العيب أن تدان ديننا ولا تقضى
 ولولا الحقوق المستكنات لم يكن لينقض وترا آخر الدهر ذو نقض
 وما الحق إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسب إلى بعض
 فحيث ترى حقدا على ذى إساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض
 وقال المتنبي بـ وقد مزج الفلسفة بحياته مزجا - يعبر عن آماله وآلامه
 أود من الأيام مالا توده وأشكو إليها بيننا وهى جنده
 أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه فما طلبي منها حبيبا ترده
 وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء فى طباعك ضده
 وأتعب خلق الله من زاد همه فقصر عما تشتهى النفس وجده
 فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
 وفى الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والنوب جلده
 ولا يكن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهى بي فى مراد أحده
 وحكمه أشهر من أن تدون وأكثر أن تحصى
 أما أبو العلاء فقد خلق فيلسوفا وفلسفة طاش، وحسبه أن خلف

(١) يدل على تأصل هذه الهوىة فى نفسه قوله

فى زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
 تقول هذا مجاج النحل تمدحه وان ذمت فقل قى الزناير
 مدحا وذما وما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

في آرائه الفلسفية ديوانه الضخم « اللزوميات » وحسبك أن تتعرف الآن غزارة آرائه الفلسفية وتزاحمها على الموضوع الواحد بالرجوع إلى تائيته التي اخترناها بالنماذج من هذا الديوان عن فلسفته في المرأة . فقد قرر فيها أن النساء ذوات خداع ، وأنهن فوارس فتنة للرجال وآيات إغراء وأنهن الظالمات وإن ادعين أنهن المظلومات ، ثم ذكر أن الرجل يصحبهن فيخرجن له الأولاد وفيهم النوائب المسقيات وأبان وجه ذلك في الذكور والإناث وطاد يحذر من تستر المرأة وخداعها بالحجاب . ثم انتقل إلى تعليم المرأة الفصاحة والبيان ، فجعله في يدها أداة شر وممول فساد ، وأبان أن خير ما تتعلمه القراءة والتلاوة على عجوز ، وأن خير ما تعمل حمل المغزل لأجل الأقدام ، ثم غادر هذا إلى تحذير الشيخ المقل أن يتزوج من العصر المرفهة ، وإلى الرجل مطلقاً أن يجاوز الواحدة إلى ضرة ، وإلى الشاب أن يسرف في شبابه للغانيات . ثم ختم آراءه في ذلك بتقريره أن حفظ الخريدة لا يكون إلا بعمل يسد غاريها فتفديه بالورع والسكوت . كل هذه النواحي قد عالجها في تلك القصيدة معالجة فليسوف خبير في تحديد معان وبسط آراء ، فجاءت عنواناً ظاهراً لمعالجته الفلسفية ودليلاً واضحاً على نضوج عقله وغور فكره ، وعليك أن ترجع إليها لترى أن ما ذكرناه عنها أقل مما تقف عليه بقراءتها .

٤ — الأبداع في التصوير والاعراب في الخيال — كانت هذه الناحية أظهر النواحي في شعر العصر العباسي منذ أن بدأ إلى أن زال . ذلك بأنه ورث إذ بدأ حضارة فارسية ضاربة في القدم إلى عهد سحيق ، وفيها من آثار الخيالات الواسعة والتصاوير البارة ، ومن صناعات الأيدي

الصناع ذات المهارة والنقش ، الشيء الكثير ، هذا إلى ما جادت به الطبيعة تلك البلاد من مناظر ذات بهجة وسحر ، فكان شعراء بغداد حيث تلفتوا وجدوا منابع الخيال على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفي من الزلال ، ولذلك جروا في ميدانه وطاروا في سماءه إلى مدى بعيداً تتج من التصاوير الهائلة والخيالات المبدعة ما جاء فننة للناظرين ، وصار لمن خلفهم من الشعراء بعد انتشار الآداب في الحواضر والأقطار ، المأخذ ومحل المحاكاة ، في مصر والشام وغيرها من سائر الأقاليم مع الاحتفاظ لكل إقليم بسعة حضارته وطبيعة أرضه إلى حد ما . واليك بعض ما كان لهؤلاء وهؤلاء من آثار نفيسة مشكورة في هذا الباب بعد أن نشير إلى ما برز منه في النماذج قبل .

رأيت فيما رأيت وصف بشار لحبيبته وكيف أبدع في تشبيهات محاسنها ، ووصف أبي نواس سلاف الشهد ونحله كيف انسجم فيه التصوير وتسلسل الخيال ، ووصف البحتري خروج المتوكل في عيد فطر للصلاة ، وكيف اشتق من شعار الدين عن طريق الخيال ما خلع على الموكب جلالاته ليس بعده جلال . ووصف ابن المعتز الخمر وساقية ومجلسها والخروج لصيد شوائها ، وتخيله في وصف الكأس والبذل والاستمتاع بالشراب ، وفي السلوقية كيف تصيد وفي طواف السقاة ونشوة الشاربين ، ثم في مجلس الشراب أرضه وسمائه وحيطانه واصطخاب العيدان فيه . ووصف السرى الرفاء لصديقه المصلوب وما تضمن من خيال جديد . ووصف التهامي للشعر والطيف ومظاهر الليل في ثباته أولاً وفي انهزام أدهمه أمام أشقر الفجر ثانياً إلى آخر ما أغرب به من خيال . ووصف صردر

لمداد دواته وقد بدأ يعلوه المشيب وما اندفع إليه من وصف القلم
والقراطيس . ووصف ابن حيوس وعمارة اليميني . الأول دار تاج الملوك
المرداسي بالشام ، والثاني دار آل رزيك بقاهرة العزيز وما جرى إليه وراء
الخيال فيما طالما من وصف النقوش والتهويل على اختلاف أنواعها
وتنوع مرآئها . ووصف ابن التعاويذي غلمان الناصر الأتراك وصفها
عقد فيه بين فتنة الجمال وجراحة الأقدام . إلى غير هذه من مظاهر
الحضارة المختلفة الألوان . على أنه لا يفوتنا التنبؤ به بتعرض الطغرائي
لمظهر بدوي دفعه إليه ذكر القديم والحنين إلى ديار الأعراب ، هو وصفه
هاجرة بدأ فيها مع صحبه رحلة جاوزتها إلى الليل فاستغرقته إلى السحر
منه حيث وردوا غديرا اشتبه مأوه على عيسهم بضوء الفجر المنبعت
عليهم من الشرق ، إلى غير ذلك مما باغ في تصويره حدا نرى من الظلم
له التعرض لوصفه دون ذكره ، فلترجع إليه هناك ولنعد نحن إلى ما وعدنا
به من خيال وتشبيه بعد الإشارة إلى هذه الأوصاف .

قال بشار يشبه فؤاد المضطرب وعين المسهد الخائف

كأن الفؤاد ككرة ترانى حذار البين لو نفع الحذار

يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار^(١)

أقول وليأتى تزداد طولا أما لليل بعدهم نهار

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

وقال في نوع شرابه ومحاسن محبوبته

أيها الساقيان صبا شرابي واسقياني من ريق ثغر برد

(١) المسارة مصدر سار به يساره سرارا ومسارة

إن دأى الصدى وإن شفأى شربة من رضاء بيضاء رود^(١)
عندها الصبر عن لقائى وعندى زفرات يأ كان قاب الجليد
ولها مبسم كغمر الأثا حى وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القـلب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليل واللىالى يبلين كل جديد
لا أبالى من صن عنى بوصل إن قضى الله منك لى يوم جود

وقال فى تشبيهه العظام بالخيزران وهو جديد
ودعجاء المحاجر^(٢) من معد كأن حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لحاجتها تشتت كأن عظامها من خيزران
وقال فى معنى بدوى زاده قوة وأسرا.

ويوم كتنور الأماء سجرته وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسى فى أجيج سموه وبالعيس حتى بض منخرها دما
وقال أبو نواس فى نواح من تشبيهات الخمر
فالخمر يافوتة والكأس لؤلؤة من كف لؤلؤة ممشوقة القد
تسقيك من طرفها خمر او من يدها خمر فما لك من مسكرين من بد
كأسا إذا انحدرت فى حلق شاربها رأيت حمزتها فى العين والحد
وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى فى غزو محاسن محبوبته إياه

غزتنى بجيش من محاسن وجهها فمبى لها طرفى ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسرا على الحرب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا جعلت فؤادى فى يديها على الغصب

(١) متممة لينة (٢) سوداء العين فى سعة

وناديت من وقع الأسنة والقنا على كبدى يا صاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر قتيـل عيون الغانيات بلا ذنب
وقال أبو تمام فى الغيث والسحاب
سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا يدا قالت الدنيا أتى قاتل الحل
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى له تبعاً أو يرتدى الروض بالقبل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت بطون الثرى منه وشينكا على حمل
وقال البحتري من وصف بركة المتوكل
تنصب فيها وفرد الماء معجلة كالخيل خارجة من جبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن^(١) مصقولا حواشيها
فحجب الشمس أحيانا يضا حكاها وريق الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها
وقال فى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث
ولما التقينا واللوى موعد لنا تعجب رائى الدر حسنا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه
وقال ابن الرومى فى خباز رفاق
ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللحم بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء^(٢) كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح^(٣) دائرة فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر
وقال فى صانع زلاية

(١) الدروع جمع جوشن (٢) مستديرة مقورة (٣) تنبسط

ومستقر على كرسية تعب
رأيت سحرا يتلى زلايية
يلقى العجين لجينا من أنامله
وقال ابن المعتز في الخمر

وأطر الكأس ماء من أبارقه
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا
وقال في أثر النشوة

وفد شربوا حتى كآف رءوسهم
من الالين لم يخلق لهن عظام

وقال في قيام الساقين على رءوس الندامى

وكأن السقاة بين الندامى
ألفات بين السطور قيام

وقال في سيفه

ولى صارم فيه المنايا كوامن
فما ينتضى إلا لسفك دماء

ترى فوق متنيه الفرند^(١) كأنه
بقية غيم رق دون سماء

وقال في فرسه

ولقد وطئت الغيث يحملنى
طرف كالون الصبح حين وقد

وكانه موج يسيل إذا
أطلقته وإذا حبست جمد

وقال السرى الرفاء في حدائق

وحداث يسبيك وشى برودها
حتى تشبهها سبائب^(٢) عبقر

يجرى الذسيم خلالها فكأنها
غمست فضول ردائه في عنبر

باتت قلوب المحل تخفق بينها
بخفوق رايات السحاب الماطر

وقال أبو الفرج البغواء في كانون

(١) ما يظهر على صفحته من موجات (٢) جمع سببية وهي الشقة الرقيقة كالخمار

وذى أربع لا يطيق النهوض ولا يالف السير فيمن سرى
تحملة سبجاً^(١) أسودا فيجعله ذهباً أحمر — را
وقال في ناره

إذا رمت بالشرار واضطربت على ذراها مطارف الذهب
رأيت ياقوتة مشبكة تطير منها قراضة الذهب
وقال في فحمه

كان كالآبنوس غير محلى فغدا وهو مذهب الآبنوس
لقي النار في ثياب حداد فكسته مصبغات عروس
وقال أبو الفضل الميكالى في شرار النار

كأن الشرار على نارنا وقد راق منظرها كل عين
قراضة تبر إذا ماء — لا فاما هوى ففتات اللجين

وقال ابن بابك في غدير تعتدل عليه الغصون وتميل

وغــدير ماء أفعمت أطرافه كالدمع لما ضاق عنه مجال
قر الرياض إذا الغصون تعدلت واذا الغصون تهدلت فهلال
وقال الصابى يصف يد كاتب

وكم من يد بيضاء حازت جمالها يد لك لا تسود إلا من النقس^(٢)
إذا رفشت بيض الصحائف خلقتها تطرز بالظلماء أردية الشمس
وقال أبو العلاء في ليلتين مختلفتين

وليلتين ، حال بالكواكب جوزه وآخر من حلى الكواكب طائل
كأن دجاء الهجر والفجر موعد بوصل وضوء الصبح حب^(٣) ممائل

(١) فخا (٢) الممداد الاسود (٣) بكسر أوله المحبوب

وقال يرد على حبيبته في حوار

هي قالت لما رأيت شيب رأسي وأرادت تنكرا وازودارا
أنا بدر وقد بدا الصبح في رأ سأك والصبح يطرد الأقمارا
أست بدرا وإنما أنت شمس لا ترى في الدجى وتبدونهارا

وقال ابن سناء الملك

يا عاقل الجيد إلا من محاسنه عطلت فيك الحشا إلا من الحزن
في سلك جسمي در الدمع منتظم فهل لجيدك في عقد بلا ثمن
لا تخش مني فأني كالنسيم ضنى وما النسيم بمخشى على الغصن
هـ - المبالغة والتهويل - لعل أول ما حبيب الى شعراء العصر
العباسي المبالغة والتهويل ، أن معظمهم كانوا من المولدين الراجعين في
نسبهم الى أصل فارسي ، وللفرس ولع بالمبالغة والاغراق شديد . وإذ
كانت هذه الفئة المولدة في العصر العباسي الأول ، ذات شأن لدى الخلفاء
ووزراء الفرس ورجالاتهم ذوى النفوذ فقد اكتسبوا رفعة جعلتهم
القدوة أمام غيرهم من سائر الشعراء ، وانساق الجميع الى هذه الظاهرة
رغبة في التعجب وأكثرها منها في مدائحهم طمعا في ابتزاز المال . على
أن هناك سببا آخر لشيوع المبالغة والغلو بين طبقات الشعراء بعيدا
عن تلك الطبيعة الفارسية ، وهذه الرغبة في جذب المال ، هو تفتح أبواب
المعاني واتساع مناحي التفكير ومسابقة الشعراء بعضهم بعضا في هذا
الميدان وطمع كل أن يكون المجلى في تلك الحلبة أمام مناظريه ، فإن هذا
الطمع لا بد يحدوه الى الاتيان بجديد كلما تسعفه الحقائق الخالصة فيه
فيتزع عنها الى ضروب المبالغات والتهويل . وإن نظرة الى ما أسلفنا من

نماذج لتريك هذه الظاهرة بادية للعيان وبخاصة كما ذكرنا في المديح .
فهذا مسلم قد رفع يزيد الشيباني في شجاعته إلى حيث مثابه رسول الله
ثم جعله عز الخلافة وعدة بنى العباس . وهذا أبو تمام في رثائه ابن حميد
الطوسي قد بالغ في كثير من صفاته حتى جعل موته بين الطعن والضرب
نصرا وحياة . وزاد عنه البحتري من شعراء العصر الثاني في مدحه المتوكل
على الله . وما كاد يحل العصر الثالث حتى صارت المبالغات أساسا
للقول وارتفع بها شعراؤه إلى ما كانت يمتت قبلا من غلو وإغراق ،
فقد فتح هذا الباب فيه على مصراعيه للشعراء أول شعرائه أبو الطيب
المتنبي فأتى بما لم يدر بخلد في المدائح وفي غير المدائح على السواء
وهاهي تلك المدحة التي اخترنا آنفا من مدائحه في سيف الدولة
ابن حمدان قد بدأها بجعله حزب الله وبأنه راع الدهر ثم تحدى الدهر
أن يحدث خطوبا إذا شك فيما ذكر وعلى هذا النسق جرى إلى آخر
ما قال ، وكذلك كانت مبالغاته وأشد ، في غير المديح كما سيأتي ، ثم كان
العصر الأخير أشد طغيانا وأكثر افتنانا في هذا الباب كما ترى ذلك في
قصيدة الأبيوردى التي اخترناها نموذجا للفخر فيما اخترناه

وإليك طائفة أخرى غير ما أشرنا إليه في النماذج من المبالغات
قال بشار في نحافته من أثر الحب

سلبت عظامي لحمها فتركته عواري في أجلادها تتكسر
وأخليت منها نخها فجعلتها أنابيب في أجوافها الريح تصفر
نخذي يدي ثم ارفعي الثوب فانظري ضني جسدي لـكنني أتستر
وليس الذي يجري من العين ماؤها ولـكنها نفس تذوب فتقطر

وقال المتنبي في ذلك

روح تردد في مثل الخلال^(١) اذا
كفى بجسمي نحولا أني رجل
وقال أبو نواس من مدح الرشيد
ملك تصور في القلوب مثاله
ما تنطوي عنه القلوب بنجوة
حتى الذي في الرحم لم يك صورة
وقات منصور النيري من مدحه أيضا

خليفة الله إن الجود أودية
إذا رفعت إمرأ فالله رافعه
من لم يكن بأمين الله معتصما
إن أخلف القطر لم تخاف مخايله
أهلك الله منها حيث تجتمع
ومن وضعت من الاقوام متضع
فليس بالصلوات الخمس ينتفع
أوصاق أمر ذكرناه فيتسع

وقال ابن الرومي من هجائه ابن يوسف

لو أن قصرك يابن يوسف كله
وأناك يوسف يستعيرك إبرة
إبر يضيق بها فناء المنزل
ليخيط قد قميصه لم تفعل

وقال ابراهيم بن سيار النظام

توجه طرفي فألم خده
وصالحه كفي فألم كفه
ومر بفكري خاطرا فجرحته
فصار مكان الوهم من نظري أثر^(٣)
فن صفح كفي في أنامله عقر
ولم أر خلقا قط يجرحه الفكر

وقال ابن دريد يخاطب الدهر ويعلو عليه

(١) في جسم كمود الخلال فخافة (٢) مصدر كاللحظ (٣) بتسكين الناء

مارست من لوهوت الافلاك من جوانب الجو عليه ماشكا
ولو حى المقدور منه مهجة لرامها أو يستبيح ماحى
تغدو المنايا طائعات أمره ترضى الذى يرضى وتأبى ماأبى

وقال المتنبي

لو كان علمك بالاله مقسما فى الناس ما بعث الاله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل التـوراة والقرآن والانجيلا
وقال أبو العلاء يمدح شريفا يسمى محمدا

لولا انقطاع الوحي بعد محمد قلنا عن أبيه بديل
هو مثله فى الفضل إلا أنه لم يأت به برسالة جبريل

وقال ابن سناء الملك من قصيدة طويلة .

سوى يهاب الموت أو يرهب الردى

وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

ولكننى لأرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا

توقد عزمى يترك الماء جمرة وحيلة حلمى تترك السيف مبردا

ويأبى إبائى أن يرانى قاعدا وأنى أرى كل البرية مقعدا

٦ - تمحيص الافكار وترتيب العناصر - أظننى فى غير حاجة أن

أعلل هذه الظاهرة الآن؛ لأن أسبابها أوضح من أن ينبه عليها . على أنى

أجل هذه الأسباب فى أن الشعراء العباسيين أصبحوا ينزعون فى

الفطرة الشعرية لاعت تلك الفطرة وحدها كما كان أملا فهم ، بل عنها

ممزوجة بثقافة تجمع الى مسائل الأدب والعلم والفلسفة وغيرها مما يوسع

العقل والفكر ، فنون حضارة وارفة الظلال تنمى الذوق وترقى الاحساس

بالجمال . ولذلك كانوا يحصون أفكارهم وينظمون عناصر أقوالهم ثم يبرزونها في ثوب ذي جمال خلاب كما سبق ذلك بناحيته ظاهرا في النماذج أتم ظهور .
فقصيدة العباس بن الأحنف قصة غزلية محكمة النسيج قوية الأداء . وقصيدة أبي نواس أجمع وصف يتناول صنع خمر الشهيد من خرج النحل يتغذى خلاياها الى أن غادرت الدنان بعد حقب الى آفاق السراء . وقصيدة ابن المعتز وصف يحكى العيان في الدعوة الى الخمر والصيد لها والجلوس عقب ذلك في مجلس شرا بها . وقصيدة ابن نباتة حكاية زورة ليلية لحبيب ذات تسلسل وانسجام . وقصيدة ابن حيوس وسمارة اليمى تناولتا في دقة وإحكام كل مايجول في الخاطر من محاسن القصور . وقصيدة الطغرائى أحسن ما يصف به واصف رحلة بدوية في هاجرة نهار وظلام ليل ، ترد بعدها الابل غديرا في منبليج الصباح . وقصيدة ابن عنين خير تعبير لما يجول في نفس هازم ومهزوم لكليهما من الشجاعة حظ ونصيب :

ولقد حملت هذه الظاهرة شعراء العباسيين أن يبرعوا البراعة كلها في ابتداء القصيدة ، وفي الانتقال خلالها من المطلع الى ما هو الغرض المقصود فيها ، ثم في إنهاؤها ، الى درجة حملت رجال البلاغة على تدوين هذه المحاسن الثلاثة في البديع باسم حسن الابتداء وحسن الانتقال وحسن الانتهاء ، ومن الاول تفرعت براعة الاستهلال .

فحسن الابتداء ويسمى براعة المطلع أن يتخير الشاعر لمطلع قصيدته المعانى الصحيحة الملائمة ، والالفاظ الرشيدة العذبة ويتحرز مما

يتطير منه من المعاني وما يستكره ويجفى من الالفاظ ، لأن المطلع أول
ما يقرع السمع فيسترعى الأذان أو تمجده الأذان . فإذا أضاف الى هذا
الحسن جعل أول بيت من القصيدة مشعرا بالغرض منها في إشارة
لطيفة فقد ضم الى براعة المطاع براعة أخرى هي براعة الاستهلال
وضمن بهذين حسن التقبل والاصغاء

فمن محاسن الابتداء قول أبي نواس

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
وقرل البحتري

بودى لو يهوى العذول ويعشق ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق
وقول صريع الغواني

أجدرت ذيل خليع في الهوى غزل وشمرت هم العذال في عذلى
وقول أبي العلاء

ياساهر البرق أيقظ راقدا السمر لعل بالجزع أعوانا على السمر
وقول التهامي

حازك البين حين أصبحت بدرا إن للبدن في التنقل عذرا
ومما ضم الى براعة المطلع براعة الاستهلال قول أبي تمام في الرثاء

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
وقول المتنبي في الشفاء من مرض

المجد عوفي إذا عوفيت والكرم وزال عنك الى أعدائك السقم
وقول أبي فراس على وشك رحيل

يا طول شوقي إن كان الرحيل غدا لا فرق الله فيما بيننا أبدا

وحسن التخلص ويسمى براءة المقطع هو الانتقال مما بني عليه مطلع
القصيد من نسيب أو غيره إلى الغرض الأصيل ، على معبر من قوة
الاتصال بين المعنيين في دقة لطف وحسن وثام كقول مسلم في يحيى
وابنه جعفر

أجلك هل تدرين كم رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يمدح جعفر
وكقول البحتري في الفتح بن خاقان

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا رواحتها مزنة بكرت لها شأبيب مجتاز عليها وقاصد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبات عليها بتلك البارقات الرواعد
وكقول المتنبي في سيف الدولة

خليلي مالي لا أرى غير شاعر فكم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وكقول البها زهير المتوفى سنة ٦٥٦ في صلاح الدين بن العزيز
أهوى التذلل في الغرام وإنما يأبى صلاح الدين أن أتذللا
مهت بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أتفلا
وحسن الانتهاء ويسمى براءة الختام أن تختم القصيدة بما يشعر بالانتهاء
فهو في النهاية نظير براءة الاستهلال في الابتداء وهو آخر ما يعنى السمع
ويرسم في النفس كقول المتنبي

فلا حطت لك الهيجاء سرجا ولا ذافت لك الدنيا فراقا

وكقول أبي العلاء

ولا تزال لك الأيام ممتعة بالآل والمال والعلياء والعمر

وكقول الأرجاني

علاك سوار والممالك معظم وجودك طوق والبرية جيد

وكقول الغزى

بقيت بقاء الدهر ماذر شارق وغار جديد المكرمات وأنجدا

وكقول ابن النبيه

دمتم بني أيوب فى نعمة تجوز فى التخليد حد الزمان

والله لازتم ملوك الورى شرقا وغربا وعلى الضمان

وقد كانت عناية الشعراء قبل العصر العباسى بهذه البراعات

قليلة وما كان عليهم فى إغفالها من عاب . أما فى العصر العباسى فقد

عنوا بها أتم عناية ولذلك كان من المآخذ عليهم إغفالها ثم كان من

المآخذ الشديدة أن يأتوا فيها بما يعاب^(١)

(١) ظهر عيب المولدين أكثر ما ظهر فى المطلع والانتقال دون الانتهاء

فمن سوء المطلع ما كان من إسحق الموصلى اذ دخل على المعتصم وقد

فرغ من بناء قصر فأنشده

يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعرى ما الذى أهلك

فتطير المعتصم وأمر بهدم القصر

ومن الانتقال المقتضب قول البحتري

وهوى تجدده الليالى كلما قدمت وترجعه السنون فيرجع

يأياها الملك الذى سقت الورى من راحتيه غمامة ما تقلع

ومن سوء المطلع وقبح الانتقال ما كان من أبي نواس إذ دخل على الفضل

البرمكى فأنشده مبتدئا

٣ — ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان نصيب الشعر في العصر العباسي من الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة المثلة للمعنى أتم تمثيل ، ومن التأنيق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهومة للغرض في إحكام وقوة أداء ، أوفر من نصيب النثر . ذلك لأن الشعر مجال الأناقة والظرف ، ولغة الحسن والجمال ومأخذ الغناء والاصوات ، وكل ذلك يستدعى عذوبة تنسجهم مع وجدان الشاعر ، ويطلب خفة تطير مع خياله ، كما يطلب نغما يتسق وموسيقية الوزن وجرس القافية إلى غير ذلك مما لا وجود له في نفس النثر ولا مطلب له في القول المنثور .

غير أن الشعراء في هذا العصر قد وقع لهم في ناحية الألفاظ

أربع الملى إن الخشوع لبادى عليك وإنى لم أخنك ودادى
ثم انتقل إلى مدح البرامكة بقوله

سلام على الدنيا إذا ما فقتم بنى برمك من رائحين وغادى
فكان ذلك منه عجباً وهو البارع فى البراعات يجمعها فى قصائده جميعاً كما فعل
فى قصيدته إذ عزم على الرحلة من بغداد إلى مصر لمدح الخليفة فقد تحدث
عن زوجته فى مبدئها يقول

تقول التى من بيتها خفى تحلى عزيز علينا أن نراك تسير
وتخلص من المدح بقوله مخاطباً لها

ذرينى أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخفيف أمير
ثم ختمها بقوله مخاطباً الممدوح

فإن تولنى منك الجميل فأهله وإلا فابى عاذر وشكور

والاساليب ما لم يكن لزملائهم السالفين ومن ثم وسميهم العلماء باسم المولدين أو المحدثين^(١) وضنوا عليهم أن يكون كلامهم موطن حجة واستشهاد .

١ — فهم قد تصرفوا في بعض الكلمات العربية تصرفاً يخرجها عن معانيها القديمة إلى معان لم تكن معروفة للعرب ثم كانوا كثيراً ما يشتقون منها بعد هذا الإخراج إلى المعنى الجديد ما هو منه كما فعلوا في كلمة « قصف » وأصل معناها كسر الغصن الصغير فأنهم أطلقوها على اللهو كما قال أبو نواس

لا يصرفنك عن قصف وإصبااء بمجموع رأى ولا تشتيت أهواء
وكما قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد أراد الخروج عن بغداد إلى اليمن لولاية

أبرحل ألف ويقيم إلف وتحيا لوعة ويموت قصف
على بغداد دار اللهو مني سلام ما سجا للعين طرف^(٢)
ثم استعملوا منها على هذا المعنى كل أنواع المشتقات

(١) المولد لغة اسم لكل من نشأ غير خالص العروبة مقرفاً كان أم هجيناً، ولكن المولدين أطلقوا في اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشئوا في العصر العباسي ولو كانوا عرباً خالصاً دون من سبقوهم ولو كانوا غير خالصي العروبة كما أطلق عليهم كذلك اسم المحدثين أي الذين حدثوا بعد الأصيلين

(٢) أشار إلى المعنيين في العصر المغولي عفيف الدين التلمساني حيث يقول

تبسم زهر البان عن طيب نشره وأقبل في حسن يجل عن الوصف
هملوا اليه بين قصف ولدة فان غصون البان تصلح للقصف

٢ — وهم قد استعملوا كثيرا من الالفاظ المعربة ولعل كثيرا منها كان من تعريبهم أنفسهم، وأمثلة هذا كثيرة جدا . منها لفظ آذريون معرب آذر كون أى لون النار لورد أحر الورق أو أصفره مع سواد الوسط فيهما ، ولذلك يشبه الأحمر منه بكأس عقيق فيه مسك كقول عبد الله بن المعتز

وطاف بها مباق أديب بمنزل كخنجر عيار صناعته الفتك
وحمل آذريونه فوق أذنه ككأس عقيق في قرارتها مسك
كما يشبه الأصفر بمدهن ذهب فيه غالية ، وهى أخلط طيب سوداء
كقوله أيضا

سقيا لروضات لنا من كل نور حاله
عيون آذريونها — والشمس فيه كاليه^(١)
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية
والالفاظ المعربة أكثر من أن تحصى — وقد ذكرنا منها طائفة
كبيرة فى التعريب قبل .

٣ — وهم قد نقلوا بعض الالفاظ الالعجمية على حالها من غير
تعريب نظرفا وتملحا، كلفظة آب سرد بمعنى الماء البارد فى قول العمانى
لما هو بين غياض الأسد وصار فى كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد
وكلفظة يرلكأس الملائى فى قول ابراهيم الموصلى
اذا ما كنت يومئى شداه^(٢) فقل للعبيد يسقى القوم يرا

(١) أى ناظرة من كلاً بنصره فى الشئ رده فيه (٢) كغراب تبلبل فكر

فان السقي مكرمة ومجد ومدفأة إذا ماخفت قرا
وقد ذاع استعمال كلتي نيروز معرب نوروز ومهرجان منقولة كما هي،
على السنة جهرة الشعراء ولا سيما في البيئات الفارسية^(١)

قال عبدالصمد بن بابك يمدح الصاحب بن عباد
لقد نشر النيروز وشيا على الربا من النور لم تظفر به كف راقم
كأن ابن عباد سقى المزن نشره فجاد برشاش من الوبل ساجم
وقال أيضا يمدح نخر الدولة بن بويه ويهنته بالمهرجان

أيا شاهنشاه صل الأمانى بتجديد البشائر والتهانى
فقد حزت السعود وجاء يحدو سبوت الدهر سبت المهرجان
٤ — ثم هم قد استخدموا كثيرا من ألفاظ العلوم والفنون والصناعات
ومصطلحاتها . قال أبو الفتح البستي

عزات ولم أذنب ولم أك جانبا وهذا لأنصاف الوزير خلاف
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه كأنى نون الجمع حين يضاف

(١) كلاهما عيد من أعياد الفرس . فالنيروز ستة الأيام الأوئل من
أول شهر سنتهم « أفرودين » وهم يزعمون أنه أول الزمان الذى ابتداء الفلك فيه
الدوران ويسمون اليوم السادس منها النيروز الكبير لأن الأكامرة كانوا ينصرفون
فيه الى مجالس أنصهم مع ظرفاء خواصهم بعد جلوسهم لرد المظالم فى أيامه
الخمس الأولى وهو يتفق واليوم المعروف الآن بشم النسيم . والمهرجان يبدأ
فى منتصف شهرهم السادس « مهرماه » ويوافق آخر الخريف وهو ستة أيام كذلك
آخرها يسمى المهرجان الكبير . فالنيروز استقبال للربيع والمهرجان استقبال
للشتاء وهما خير فصول السنة

وقال الصابى فى سابور وزير بهاء الدولة وكان قد صرف عن الوزارة
ثم أعيد إليها

وقد كنت طلقت الوزارة بعدما زلت بها قدم وساء صنيعها
فعدت بغيرك تستحل ضرورة كما يحل إلى ثراك رجوعها
فالآن قد عادت وآلت حلفة ألا يبيت سواك وهو ضجيعها

وقال عبد الوهاب بن محمد البغدادى المتوفى بمصر سنة ٤٢٢

ونائمة قبلتها فتنبهت وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إني فديتك غاصب وما حكموا فى غاصب بسوى الرد
وقال ابن الرومى :

مأذر معتزلى موسر منعت كفاه معتزليا معسرا صفدا
أزعم القدر المحتوم ثبطه إن قال ذلك فقد حل الذى عقدا
وقال أبو نصر أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٥٣

ولى غلام طال فى دقة كخط إقليدس لا عرض له
وقد تنهى عقله خفة فصار كالنقطة لاجزاء له

وقال أبو الحسن بن أبى الغنائم المتوفى سنة ٥٦٠

تعب الزمان فللغرام قضية ليست على نهج الحجا تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم عرض وتقنى دونه الأجساد

وقال كمال الدين بن النبیه المتوفى سنة ٦٠٨

وبى هندسى الشكل يسببك لحظه وخال وخمد بالعذار مطرز
ومذ خط ييكار الجمال عذاره كقوس علمنا أنما الخال مر كز

٦ — ولم يتحرز شعراء هذا العصر وقد ابتذلوا الشعر بألفاظ العلوم

ومصطلحاتها ، أن يجعلوا منه لغة تأليفية في كثير من العلوم والفنون من نحو وفقه وتاريخ وطب وغيرها مما ألفوا فيه منظومات يسهل على الناشئين حفظها وتحصيل مسائل العلوم بتعليقها وهذه ظاهرة بدت منذ نظم أبان كلية ودمنة واستمرت تزايد وتنمو حتى بلغت مبلغها في نهاية العصر ، ومن مثلها في تلك النهاية ملحة الأعراب للحريري وقد سبقت الإشارة إليها

٦ - هذا وقد انحدر الشعراء الى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلعة والمجانة كما اتضح ذلك آنفا حيث الكلام على الأغراض التي تستدعيه كالمهجاء والغزل والمجون .

٧ - على أنهم قد أحسنوا الاحسان كله في استخدام ألفاظ التشبيه والمجاز والكناية مما رأيت حيث القول على الإبداع في التصوير والأغراب في الخيال من الكلام على المعاني والأخيلة قبل .

٨ - ثم أكثروا من محسنات البديع على اختلاف أنواعها وبخاصة الجنس ، وسنكتفي بالتمثيل له لأنه أظهر المحسنات في اللفظ والأسلوب وأكثرها أنواعا .

فن الجنس المائل وهو المتفق اسمية وفعالية قول ابن الرومي وكان مولعا بالجوارى السود

للسود في السود آثار تركز بها وقعا من البيض يثني أعين البيض^(١)
ومن المستوفى وهو المختلف اسمية وفعالية قول البستي

(١) العود الأولى جمع سوداء للجارية والثانية جمع سوداء القلب ، والبيض

الأولى جمع أبيض للسيف والثانية جمع بيضاء للمرأة

فقال لي دعني ولا تؤذني إلى متى أجري بلا أجر
ومن المركب وهو المتفق لفظا وخطا قول أب الفضل الميكالي
تفرق الناس في أرزاقهم فرقا فلا بس من ثراء المال أو عار
كذا المعاش في الدنيا وما كنها مقسومة بين أدماء وأوطار
من ظن بالله جورا في قضيته افتر عن مآثم في الدين أو عار
ومن المفروق وهو المتفق لفظا لا خطا قول البستي
كم من أخ قد هدمت أخلاقه في آخر ما قد بنى في أول
يرى سهاما إن أسر المقتلى بالكيد لا يقصدن غير المقتل
ومن المطرف وهو المختلف بزيادة حرف قول البحتري .
فإن صدفت عنما فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف
ومن المذيل وهو المختلف بأكثر من حرف قول بعض العباسيين
فيالك من حزم وعزم طواهما جديد الردي تحت الصفا والصفائح
ومن المشتق وهو ما يرجع إلى أصل واحد قول أبي تمام
وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدني على ساكني نجد
ومن المطلق وهو ما لا يرجع إلى أصل واحد قول أبي نواس
فما السلاف ازدهتني بل سوالفه ولا الشمول دهتني بل شمائله
ومن المحرف باختلاف الشكل قول المعري
لغيري زكاة من جمال فإن تكن زكاة جمال فاذا كرى ابن سبيل
ومن المضارع وهو ما يختلف بحرف مقارب المخرج قول الرضي
لا يذكر الرمل إلا حن مغترب له إلى الرمل أوطار وأوطان
ومن اللاحق وهو ما لا تقارب في حرفيه قول البحتري

لست عن ثروة بلغت مداها غير أنى امرؤ كفاى كفاى
ومن اللفظى وهو ما يختلف بحرف مقارب الخط قول الأرجان
وبيض الهند من وجدى هواز باحدى البيض من عليا هوازن
ومن جناس العكس أى القلب قول ابن نباتة السعدى فى الأمير بهرام
قيل كل القلوب من رهب الحب تضطرب
قلت هذا تخرص قلب بهرام مارهب
ومن جناس التلفيق أى التركيب من كلمتين قول ابن عنين
خبروها بأنه ما تصدى لسلو عنها ولو مات صدا
والقول فى الجناس يطول .

٩ - وقد حلا لكثير من الشعراء فى هذا العصر أن يودعوا
أشعارهم تصرفات لفظية تدل على تملكهم زمام الصناعة الى حد كبير .
ومن أعلامهم فى ذلك ، الحريرى الذى تعدى بتلاعبه فى هذا ، ميدان النثر
الى الشعر فأتى بالعجب العجائب
قال من مقطعة عاطلة الأبيات
أعد لحسادك حد السلاح وأورد الأمل ورد السماح
وقال من أخرى حالتها
شغفتنى بحفن ظبي غصبيض غنج يقتضى تغيض جفى
وقال من ثالثة إحدى كلماتها مهملة والأخرى معجمة
اسمح فبث السماح زين ولا تحب آملا تضيف
وقال من رابعة خطية الجناس
زينت زينب بقدر يقد وتلاه ويلاه نهدي يهد

وقال من خامسة مطرفته

سم سممة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه
وهكذا مما جاوز فنون البديع المعروفة على كثرتها إلى ما عدا ابتكارا
واختراعا .

١٠ - ومما ظهر واضحا الاثر بالفاظ الشعر وأساليبه في العصر العباسي
ما اخترع في أوزانه وقوافيه، وهذى كلمة عما جد في كل منهما .

الأوزان - حصر الخليل بن أحمد أوزان الشعر التي نظم عليها
العرب في خمسة عشر بحرا معروفة، وأجهد تلميذه الاثخفش نفسه أن
يجد غيرها فلم يظفر إلا ببحر واحد سماه المتدارك لأنه تدارك به على الخليل .
وقد أثبت الاستقراء أن كل ما قيل من الشعر إلى آخر العهد
الأُموي لا يخرج بحال عن هذه البحور . وبالرغم من أن جمهرة الشعراء
في العصر العباسي وبعده بقوا ينظمون عايتها ، فقد نظم بعض المولدين
على أوزان غيرها جريا وراء الأنغام الموسيقية الجديدة التي نقاتها اليهم
الحضارات المختلفة ، أو رغبة في عدم التقيد بالقديم وولوا باختراع جديد
في الأوزان كما اخترعوا في كل شيء للشعر غيرها .

وقد جاء هذا الجديد نوعين

أحدهما الأوزان المأخوذة من البـور بالقلب أو التحريف

فما جاء بالقلب ، المستطيل مقلوب الطويل وأجزاؤه « مفاعيلن

فعولن » أربع مرات مثل :

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور

أدير الصدف منه على مسك وعنبر

والمتمد مقلوب المديد من غير جزء أى « فاعلن فاعلاتن » أربع مرات مثل .

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد مني نفورا
والمتمد مقلوب المجتث من غير جزء أى « فاعلاتن مستفع لن »
مرتين مثل .

كن لا تخلاق التصابي مستمريا ولا أحوال الشباب مستحليا
وقد يقع القلب في تفاعيل البحر الواحد على صورتين تأخذ كل
صورة اسما كما حدث في المضارع وأجزاؤه « مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن »
مرتين فقد أخرجت فيه فاع لاتن من غير جزء باسم المنسرد مثل .
على العقل فعول في كل شأنا ودان كل من شئت أن تدانى
وقدمت باسم المطرد كذلك مثل

ما على مستهام ريع بالصمد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد
ومما جاء بالتحريف، المنوافر الأخوذ من محرف الرمل وهو « فاعلاتن » ست
مرات فانه أبدل بنونها الساكنة كافا متحركة وحذف من تفعيياتي الضرب
والعروض السبب فصار وزنه « فاعلاتك فاعلاتك فاعلن » مرتين مثل :
ماوقوفك بالركائب في الطال ماسؤالك عن حبيبك قد رحل
ماأصباك يافؤادى بعدهم أين صبرك يافؤادى مافعل
والثاني ما جاء على أوزان غير أوزان البحور وهو فنون سبعة ،
ثلاثة لا يجوز فيها اللحن مطلقا وهى الدويبة والسلسلة والموشح ، وثلاثة
ملحونة دائما وهى الزجل والكان وكان ثم القوما ، وواحد كالبرزخ بين
هذه وتلك يكون معربا وملحونا على ألا يجتمع الأعراب واللحن في

دور واحد منه وهو المواليا

فالدوبيت أصله فارسي يأتي بيتين بيتين ومعنى دو اثنان وهو يسمى
الرابعي أيضاً لأن في البيتين أربعة أشطر. وقد اقتبس البغداديون ونظموا
منه على أوزان أشهرها « فعان متفاعان فعولن فعلمن » مرتين مثل
إن جئت رباً لحي ولاحت نجد فاذكر ولهي وماجناء البعد
قد كنت أقاسى العصد حتى رحلوا ياليتهم طادو وطاد الصدد
والسلسلة من مخترعات البغداديين ووزنه « فعلمن فعلمن متفعلمن
فعلمنان » مرتين ومنه

باعتدل القديان صبرى قد بان والدمع نلخافى الغرام أظهر اذ بان
جددت شجونى وقد كملت جفونى بالسهد فيبى وبين نوى شتان
والموشح نشأ أول مانشأ بالأندلس ومنها انتقل الى المشرق فى
عصر بني بويه وهو ذو أوزان كثيرة منها « فاعلمن فاعلمن مستفعان فاعلمن »
مرتين وعليه موشحة ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ ومطامعها
كللى ياسحب تيجان الربى يالحلى واجعلى سوارك منعطف الجدول
ومنها « مستفعلمن فاعلمن فعيل » مرتين مثل .

ياجيرة الأبرق اليماني هل الى وصلكم سبيل

والزجل نظم العوام بالعامية على منوال الموشح وليس فى هذه الفنون
أكثر أوزاناً منه على أنه لا ضابط لأوزانه ومثله

الفراق نار والوصال جنه والخلائق بعضهم يعشق

ولهيب الهجر يتوقد والوصال م الملاح يشفق

وقد تقصر أشطاره الثانية عن الأولى مثل

عن محرم شرابنا صمنا ونفطر بالثمار
حين وجدنا سفرجل البستان يذهب لـ صفرار
والسكان وكان نظم اخترعه أهل بغداد واستعملوه في النصيحة والوعظ
بحكاية ما كان وكان ، ولذلك أخذ هذه التسمية ووزنه واحد مستفعلن
فاعلاتن مستفعلن فاعلن وشطره الأول دائماً أطول من الثاني ومنه
قول بعضهم .

يا قاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر
ومن حرارة وعظي قد لانت الأحجار
أفريت مالك وحالك في كل مالا ينفعك
ليتك على ذى الحال تقلع عن الأصرار
والقوما نظم اخترعه البغداديون أيضا ليغنوا به الناس في رمضان كي
يقوموا للسحور ومنه قول بعضهم

يا من جنابه شديد ولطف رأيه شديد
ما زال برك يزيد على أقل العبيد
ولا عدنا نوالك في صوم فطر وعيد

٧ - أما المواليا فقد نشأ كما يقولون على لسان جارية للبرامكة كانت
ترثيهم به وتقول يا مواليا وهو كما قلنا دون سائر الفنون المذكورة يأتي
عاميا ويأتي صحيحا . فمن عاميه قول بعضهم

حلف على كجاره أن يقاطعي وصد عني وأقسم ما يطاوعني
كم ذا يصد وكم يرجع يصد عني إن كنت أنا المطلق لا يراجعني
ومن صحيحه قول آخر :

يأطعن الخيل والأبطال قد غارت
والمخصب الربع والأمواء قد غارت
هو اطل السحب من كفيك قد غارت
والشهب - إذ شاهدت أضواءك قد غارت
القوافي - التزمت العرب القافية في القصيدة الواحدة كما التزمت فيها
الوزن فلم يغيروا حرف القافية في قصيدة مهما طالت بل لم يحيدوا
عن نظم راعوها في مجموع الحروف التي تشملها القافية بنهاية البيت -
وهي من آخر حرف ساكن فيه إلى أول حرف متحرك قبل ساكن
بينهما مع دخول هذا المتحرك فيها - وقد استمر ذلك مراعى إلى نهاية
العصر الأموي كما كانت الحال في الأوزان ثم أفات الشعراء بعده من
القافية كما أفلتوا من الوزن لأسباب قد تتحد مع بعض السابقة كالرغبة
في الخروج عن القديم إلى جديد ، وقد تختلف كالفرار من تضيق
الحرف الواحد في القافية لكل قصيدة إذ صار هذا من نصيب القافية
وحدها ، كما كان تنويع الوزن للغناء من نصيب الأوزان . على أنهم في هذا
الخروج عن القافية الواحدة لم يوسعوا المجال كما وسعوه في الأوزان
فأنحصر فيما يأتي : -

١ - المزدوج وهو ما اقتصرت فيه التقفية في كل بيت على عروضه
وضربه دون ماحولهما في الأبيات ، وأهم ما حمل القوم عليه إطالتهم
الباسقة في نظم قواعد العلوم والكتب وطوال المواعظ وغيرها وقد
عرفت ما كان من نظم أبان بن عبد الحميد لكليلة ودمنة ، ووضع الحريري

ملحته في قواعد الاعراب وكلاهما من المزدوج . ولأبي العتاهية مزدوجة
فماها ذات الحكيم والامثال اشتملت على أربعة آلاف مثل منها قوله :
لكل مايؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم يزم
ولبشر بن المعتز مزدوجة في فضل على كرم الله وجهه على الخوارج
يقول فيها عنهم .

ما كان من أسلافهم أبو الحسن ولا ابن عباس ولا أهل السنن
غر مصابيح الدجى مناجب أولئك الأعلام لا الأعارب
وللبصافي مزدوجة كتب بها إلى أبي الفرج البغواء في وصف البغواء
أولها .

ألفتها فصيحة مليحة ناطقة باللغة الفصيحة

وللبغواء رد عاينه بمزدوجة أخرى يقول فيها .

تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان
ولا بن المعتز مزدوجة في الشراب يقول فيها .

لي صاحب قد لا مني وزادا في تركي الصبوح ثم عادا
ولأبي فراس الحمداني مزدوجة في اللهو بالصيد يقول فيها

ما العمر ما طال به الدهور العمر ماتم به السرور

وللحسن بن وكيع مزدوجة في فصول العام أولها .

ياسائلي عن أطيب الدهور وقعت في ذاك على الخبير

٢ - المشطر وهو أن تتحد القافية في أشطار القصيدة أربعة أربعة
أو أكثر فيسمى مربعا أو خمسا وهكذا ، كقول الحسن بن وكيع
المذكور من مشطر مربع له

رسالة من كلف عبيد حياته في قبضة الصدود
 بلغه الشوق مدى الجهود مافوق مايلقاه من مزيد
 جار عليه حاكم الغرام فدق أن يدرك بالأوهام
 فلو أتاه طارق الحمام لم يره من شدة السقام

٣- المسمط وهو أن يؤتى بأقسمة من قافية واحدة بعدها قسم
 من قافية أخرى ثم يؤتى بمثل تلك الأقسمة عددا ووزنا من قافية
 أخرى وبعدها قسم من قافية القسم المذكور ووزنه وهكذا من المخالفة
 في الأقسمة المتعددة والاتحاد في القسم المفرد، ثلاثة كانت الأقسمة كما
 تقدم التمثيل لذلك صفحة ٤٦ أم أكثر كقول الأثير تميم بن المعز الفاطمي

دم العشاق مطلول ودين الحب ممطول
 وسيف اللحظ مسلول ومبدي الحب معذول

وإن لم يصنع للآثم
 وأحور ساحر الطرف يفوق جوامع الوصف
 مليح الدل والظرف جنت ألاحظه حتفى

فمن يعدى على الظالم
 وقد يبتدأ ببیت مصرع غير الاقسمة يأتي عليه القسم الملتزم مثل
 توهمت من هند معالم أطلال

عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
 مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعوازف
 وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف
 بأسحهم من نوء السما كين هطال

ومستلثم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى سفاسق^(١) ميله
فجعت به فى ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على سرباله نضح جريال^(٢)

كما قد يبتدأ بيت غير مصرع يلتزم مثله قافية وضربا بعد كل قسم
كقول ابن المعتز

أيها الساقى اليك المشتكى . قد دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت فى غرته وبشرب الراح من راحته كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق إليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع
مالعنى غشيت بالنظر أنكرت بعدك ضوء القمر وإذا ما شئت فاسمع خبري
غشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى^(٣)

(١) طرائق جمع منسقة بفتحيتين أو كسرتين مع سكون الثانى وفتح الثالث
(٢) الجريال صبيغ أحمر قيل هو العصفور، وتعزى هذه الأبيات فى بعض الكتب
إلى امرئ القيس وهى نسبة غير مسلم بها وغير متفقة مع طبيعة الأشياء
(٣) بهذا الذى ذكرناه من تغير فى لفظ الشعر وأسلوبه نكون قد تناولنا
كل ما عددناه من تغير حياة اللغة جملة فى ألفاظها وأساليبها بصفحتى ٤٤ ، ٤٥
ماعدا الشغف باستعمال أنماط القرآن ، والتوسع فى ألقاب التعظيم ، والتغالى
فى الاطناب والايجاز . لأن هذه الثلاثة كانت أظهر فى النثر منها فى الشعر
وإن لم يخل بعض الشعر منها . فقد طالت القصيدة جدا فى العصر العباسى
الثالث كما انتشرت الأبيات المفردة ، وأكثر فى الألقاب على ما رأيت فى
بعض مامضى ، ثم وجد من الشعراء منذ العصر الأول من اقتبس ألفاظ القرآن
كأبى العتاهية إذ يقول

المرء آفته هوى الدنيا . والمرء يطغى كلما استغنى

هذا

ومما تقدم عن الشعر نماذج وقولا في تلك النواحي الثلاث ، يتبين القارئ فضل المولدين عليه وكثرة حسناتهم فيه ، كما لا يعدم أن يجد لهم في كل ناحية بعض السيئات ، كنقل الأعمى على حاله ، واستعمال ألفاظ السخف والبذاء ، وتعمل الصناعة اللفظية ، وغيرها في الألفاظ والأصاليب . وكتعمد الفلسفة إلى درجة الخفاء ، والتصوير إلى حد الإغراب ، والغلو في المبالغات إلى قمة الإغراق ، وغيرها في المعاني والأخيلة ، وكعدم التعفف عن الغزل في المذكر ، والانحدار في الخريات ، والاسفاف في المجون ، وغيرها في المقاصد والأغراض . على أن ذلك لا يبرر لنا التعصب عليهم تعصبا يعمينا عما لشعرهم من حسن وجمال أو يجعلنا ننكره مع معرفتنا بجودته كما كان يفعل في الحالتين كثير من القدماء^(١) فان العقل يقضى بالعدل في الحكم لهم وعليهم كالأقدمين سواء وقد أنصفهم ابن قتيبة وابن رشيق في ذلك بعض الانصاف^(٢)

(١) من رجال الحالة الاولى أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ فقد كان يأنف أن يروى للشعراء الاسلاميين فضلا عن المحدثين وهو الذي جالسه الأصمعي حياة طويلة فما سمعه يحتج ببديع إسلامي وكذلك كان الأصمعي ، ولكنه كان يستحسن بعض الشعر الحديث . ومن رجال الحالة الثانية ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ فقد روى عنه أنه عرضت عليه أرجوزة لأبي تمام على أنها لأحد شعراء العرب فنالت منه نهاية الاستحسان حتى قال « هذا هو الديباج الخسرواني » واستكتبها فلما أنهاها قيل له إنها لأبي تمام فلم ينجبل أن قال « من أجل هذا أرى عليها أثر الكلفة » وألقى الورقة من يده وقال « خرق خرق يا غلام »

(٢) كان ابن قتيبة يقدم القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة ولأنه

وبعد

فانا واجدون من الحتم ألا ننهي الكلام على الشعر بعد الذي
أسلفنا عن نهضته من حيث المظاهر والأسباب في تلك النواحي الثلاث
دون أن نتعرض إجمالاً لثلاث نواح أخرى تتصل بتلك النهضة .
هي مواطن الشعر وطبقات رجاله ، والعوامل المساعدة لأسباب نهوضه ،
ثم الغناء ومجالسه ، لاتصاله الوثيق بالشعر والشعراء

١ - مواطن الشعر وطبقات رجاله

عرفت مما ذكرنا عن طابع كل عصر من العصور العباسية الأربعة
في حياة اللغة أن بغداد في العصر الأول كانت محط الرجال وكعبة
الآمال ومظهر العظمة والجلال . لقوة الخلفاء فيه قوة تجمعهم مناط تحقيق
الآمال ومفزع تفريج الكرب والآلام ، ولذلك تركز فيها كل شيء وقصدها
ذوو الغايات من كل فن وفي مقدمتهم جمهرة الشعراء قصد توطن
 وإقامة لازيارة وإياب . ومن هنا كانت كل طبقاتهم من أهلها وإن كانوا
 في النشأة والنسب متعددي الأوطان . كما عرفت أنها بالرغم مما أصابها
 في العصر الثاني بقيت مركز الأدب وعش الشعر ولكن في تظامن
 وخضوع . وقد ظهر من الشعراء في العصرين ست طبقات ، أولها

مرجع النحوى في الشواهد واللغوى في معانى المفردات والتراكيب ، ويقدم
 الحديث لعذوبة ألفاظه وحلاوة معانيه وشدة ارتباطه . وكان ابن رشيق على
 النحو من ذلك فقد جعل مثل القديم والحديث مثل رجلين ابتداءً هذا بناءً
 فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنهشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن
 والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن

طبقة بشار من مخضرمى الدولتين وأشهر رجالها بشار وحماد مجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وصالح بن عبد القدوس وأبو دلامة والسيد الحميرى ومروان بن أبى حفصة ، ومن رجالها رؤبة بن العجاج . وثانيتهما طبقة أبى نواس التى نشأت فى صدر الدولة العباسية وأشهر رجالها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع بن عمرو والسامى ومسلم بن عمرو الخاسر والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف وأبان بن عبد الحميد وكثوم بن عمرو العتبانى وأبو الشيبى محمد بن رزين ومن رجالها عمار بن عقيل ، والثالث طبقة أبى تمام التى نشأت فى آخر العصر الأول ومعظم رجالها أدراك العصر الثانى وأشهرهم أبو تمام ودعبل الخزاعى وديك الجن عبد السلام بن رغبان وعلى بن الجهم . والرابعة طبقة البحتري التى ظهرت شاعريتها فى أول العصر الثانى وأشهر شعرائها البحتري وابن الرومى وابن الزيات . والخامسة طبقة ابن المعتز فى وسط هذا العصر ومن شعرائها عبد الله بن المعتز وأبو الحسن على بن محمد البسامى البغدادى . أما السادسة فهى الناشئة فى آخره ومن شعرائها أبو القاسم نصر بن أحمد المعروف بالخبز أرزى وأبو بكر الحسن بن على المعروف بابن العلاف . ومن الشواعر فى الأول عليه بنت المهدي . ومنهن فى الثانى فضل جارية المتوكل على الله العباسى وكان منزلها مجتمع الأدباء .

وقد عرفت أيضاً أنها بدأت منذ العصر الثالث تفقد نفوذها وسطوتها لتفكك أوصال الدولة بإنشاء الدويلات المزاحمة لها بحواضرها فيما كانت به ذات استئثار فأخذ كل شىء يرحل عنها إلى تلك الحواضر حتى لم

يبقى لها إلا نصيب يسير، وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعلماء فصار لشعراء كل إقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لغيرهم من سائر الشعراء .

وإنك بالرجوع إلى ما ذكرنا في التصوير السياسي لهذا العصر تجدهم كانوا منضوين في الممالك الشرقية لأمارات غير عربية كآل بويه بالعراق وفارس ، والسامانيين فيما وراء النهر ، والغزنويين بخراسان ، في حين كانت الممالك الغربية عربية كالحمديين بالجزيرة والشام ، والفاطميين بمصر ، أما الأخشيديون الأتراك بها فلم تكن مدتهم وهي ثلث قرن ذات تأثير . ومن ثم تحكم بأن الشعر في الممالك الغربية كان خيرا منه في الشرقية ، كما تحكم بأنه كان في العراق وفارس خيرا منه فيما وراء النهر وخراسان كما كان في الشام والجزيرة خيرا منه في مصر ، وأنه كان في الوسطين خيرا منه في الطرفين . وعلى هذا يكون الشعراء بالنسبة إلى الأقاليم أربع طبقات وإليك أسماء أشهرهم على هذا التقسيم

فمن شعراء الجزيرة والشام أبو الطيب المتنبي فاتحة شعراء هذا العصر وأبو فراس الحمداني وكثير غيره من آل حمدان وأبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيباني وأبو الفتح كشاجم محمود بن الحسين الرملي والسري الرفاء وأبو الفرج الوأواء وأبو الفرج البغاء وأبو العباس النامي وأبو طالب الرقي وعبد المحسن الصوري وأبو الرقعمق وأبو القاسم الواساني وأبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ثم خاتمة صاحب المعرة وأبو العلاء

ومن شعراء مصر أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي وأبو

القاسم أحمد بن محمد اسماعيل بن طباطبا الحسني وأبو القاسم بن أبي
العفير الأنصاري ومحمد بن عاصم الموقفي وأبو علي الأمير تميم بن
المعز الفاطمي والتهامي وكان في الشام قبل .

ومن شعراء العراق وفارس الصابي وتاج الدولة بن عضد الدولة
البويهسي وكثير غيره من آل بويه والوزير المهلب أبو محمد الحسن بن
محمد وابن دريد والقاضي التنوخي أبو القاسم علي بن محمد وابن لنكك
أبو الحسن محمد بن محمد وأبو عبد الله الحسين بن علي النخعي وأبو الحسن
محمد بن عبد الله السلامي وابن نباتة السعدي والشريف الرضي ومهيار
وأبو الحسن علي بن زريق وابن مسكرة وابن حجاج

ومن شعراء ماوراء النهر وخراسان أبو الطيب طاهر بن محمد
الطاهري وأبو الحسن علي بن الحسن اللحام وأبو محمد الحسن بن علي
المطرائي وأبو طالب عبد السلام بن الحسن المأموني وأبو محمد عبد الله
ابن عثمان الواثق وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم الرقاشي والخوارزمي
والهمداني وأبو الفتح البستي وأبو الفضل الميكالي وأبو النصر محمد بن
عبد الجبار العتيبي وأبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل التتالي،
وقد كان للتتالي هذا على شعراء هذا العصر الثالث فضل ليس
لغيره مثله بتدوين أخبارهم في كتابه الخالد « يتيمة الدهر » ذي الأقسام
الأربعة، فقد جعل القسم الأول وهو أصنخها لشعراء الشام وماحولها
من الجزيرة شرقا ومصر غربا وفيه عنى بآل حمدان، وجعل الثاني لشعراء
أهل العراق وفيه عنى بآل بويه ، وجعل الثالث لشعراء فارس وما إليها
من جرجان وطبرستان منشأ البويهيين ، وجعل الرابع لشعراء ماوراء

النهر وخراسان موطن السامانيين والغزنين . وعقد في أول القسم
أول بابا في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان كان مما
قال فيه

« لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب
العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام . والسبب في تبرز القوم
قديما وحديثا على من سواهم في الشعر ، قربهم من خطط العربية ولا
سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد
العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم .
ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة
الحضارة ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب
المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف
والقلم وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد
منه فيجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم في الاجادة فقادوا محاسن الكلام
بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا » .

ولما حل العصر الرابع وطوحت أحداثه بآل بويه في العراق
وفارس ، ومن قبلهم بالسامانيين فيما وراء النهر والحمدانيين في الجزيرة
والشام ، اضمحل الأدب والشعر في خراسان إذ لم يبق فيها إلا الغزنيون
وليسوا للعربية بنصراء ، وبقي ضعيفا في فارس والعراق ، ثم تنزل عن
الهامة التي كانت له في الجزيرة والشام ولكنه ارتفع اليها في مصر لبقاء
الفاطميين . حتى إذا ما زال الغزنيون من الشرق والفاطميون من الغرب
في نصفه الثاني تقلص نهائيا من القاصية واشتد ضعفه في فارس وصار

وسطا في العراق والجزيرة ثم نزل عن الهامة في مصر حتى كاد يصل
مستوى الشام ، ولكن ساعد على بقاءه ناميا فيهما إذ ذاك الحروب
الصليبية أيام بني أيوب . وهذه أسماء أشهر الشعراء فيه بكل إقليم
مرتبة على حسب التنازل في القوة من الغرب الى الشرق

في مصر - ابن زقاق البلقيني وظافر بن القاسم الاسكندر
وأبو الفتوح نصر الله بن عبد الله المعروف بابن قلاقس الأزهرى
وعمارة اليمنى وهبة الله بن جعفر المعروف بابن سناء الملك المصرى وكمال
الدين بن النبيه المصرى وابن عتير وأبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة
وأبو حفص عمر بن الفارض وأبو الحسن جمال الدين بن مطروح
والامير سيف الدين الياروقى ثم أبو الفضل بهاء الدين زهير المتوفى
سنة ٦٥٦ .

في الشام - ابن سنان الخفاجى وابن حيوس الغنوى ومهذب
الدين أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسى وبهاء الدين أبو الحسن بن
على الساطقى والملك الأشمجد أبو المظفر بهرام شاه الأيوبي وشهاب
الدين أبو المحاسن يوسف بن اسماعيل المعروف بالشواء الحلبي وأمين
الدين عبد المحسن بن حمود التنوخى الحلبي وصدر الدين محمد بن عمر بن
على بن حمويه الدمشقي ونور الدين محمد بن محمد الاسعردى ثم صدر الدين
على بن أبي فرج بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٦٥٩

في الجزيرة والعراق - الطغرائى ودلال الكتب أبو المعالى سعد
ابن على الخزرجى وابن التعاويذى ونجم الدين أبو الغنائم محمد بن على
المعروف بابن المعلم الواسطى وحسام الدين أبو يحيى عيسى بن سنجر

الحاجري وأبو الطيب أحمد بن محمد المعروف بابن الحلاوي والصرصرى
أبو زكريا يحيى بن يوسف البغدادي والأثير علم الدين أيدير المحيوى
التركى ثم محيى الدين الوترى البغدادي المتوفى سنة ٦٦٢

فى فارس - صردر وأبو الحسن على بن الحسن الباخري ومعين
الدين أحمد بن عبد الرازق الطنطرانى وابن الهبارية السابق فى القصص
ثم ابن الخياط والغزى والارجانى والبيوردى السابقون فى النماذج^(١)

ب - العوامل المساعدة لأسباب نهوضه

نعنى بهذه العوامل المساعدة ، ماجاء مقويا لعوامل النهضة الاولى
التي شرحناها فى كل من الألفاظ والمعانى والأغراض وهى كثيرة
فلنكتف هنا بذكر أهمها :-

١ - تذوق الخلفاء ورجالات الدولة للأدب - فقد كانوا منذ
أوليتهم ذوى أذواق أدبية سليمة يعرفون بها الغث والسمين ويميزون
الحسن والأحسن ، قال الربيع بن زياد - قامت للمنصور يوم ما إن الشعراء
ببائك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم فقال اخرج اليهم
فاقرأ عليهم السلام وقل لهم عني ، من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد
فإنما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ولا
بالجبل فإنما هو حجر أصم ولا بالبحر فإنما هو جلب غطامط فمن ليس
فى شعره هذا فليدخل ومن كان فى شعره فلينصرف ، قال الربيع فانصرفوا
كلهم إلا ابراهيم بن هرمة فإنه قال أنا له ياربيع فأدخلني فادخلته قال فلما
مثل بين يديه قال لى المنصور ياربيع قد علمت أنه لا يجيبك أحد غيره

(١) قد اكتفينا فيمن تقدم نحبهم بالاسم المشهور وأكملنا الاسم فى غيرهم .

هات يا بن هرمة فانشده قصيدته اللى يقول فيها
 له لحظات عن حفافى سريره إذا كرها فيها عذاب ونائل
 له طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل
 إذا ما أتى شيئا مضى كلذى أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل
 فقال حسبك هاهنا بلغت هذا عين الشعر قد أمرت لك بخمسة
 آلاف درهم. وقد تبعه فى ذلك ابنه المهدي وحفيده الهادي والرشيدي
 وتناهى ذلك فى الرشيد فكان أعلم بالشعر من الشعراء . قال سعيد بن
 مسلم قدم على الرشيد أعرابي فثقل بين يديه فقلت يا أعرابي خذ فى
 شرف أمير المؤمنين فاندفع فى شعره فقال الرشيد يا أعرابي أسمعك
 مستحسننا وأنكرك متهما فقل لنا بيتين فى هذين - وأشار إلى
 الأمين والمأمون وكان حفافيه - فقال يا أمير المؤمنين حملتنى على الوعر
 القرد وأرجعتنى عن السهل الحرد ، روعة الخلافة وبهر الدرجة ونفور
 القوافى على البديهة فأرودنى تتألف لى نوافرها ويسكن روعى قال
 قد فعلت وجعلت اعتذارك بدلا من امتحانك فقال يا أمير المؤمنين
 نفست الخناق وسهلت ميدان السباق وأنشأ يقول
 بنيت لعبد الله ثم محمد ذرا قبة الاسلام فاخضر عودها
 لها طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها
 فقال الرشيد وأنت يا أعرابي بارك الله فيك فسل ولا تكن
 مسألتك دون إحسانك ، قال الهنيدة يا أمير المؤمنين - والهنيدة مائة
 من الابل - فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع . ودخل عليه سهل بن هارون .
 فوجده يضاحك المأمون فقال اللهم زده من الخيرات وأبسط له فى

البركات حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه مقصرا عن غده
فقال الرشيد يسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ومن الحديث
أصحّه وأبلغه ومن البيان أفصحّه وأوضحّه إذا رام أن يقول لم يعجزه
قال سهل يا أمير المؤمنين ما ظننت أحدا تقدمني الى هذا المعنى فقال
الرشيد بل أعشى همدان حيث يقول .

وجدتك أمس خير بنى لؤي وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا كذاك تزيد سادة عبده شمس
وقد كان المأمون كأبيه الرشيد ، أنشده مرة مروان بن أبي حفصة
قوله :-

أضحى إمام الهدى المأمون مشغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغلا
فلم يطرب له فساءه ذلك وذهب الى صمارة بن عقال يقول له أعلمت
أن المأمون لا يبصر الشعر فقال له صمارة ومن ذا يكون أعلم به منه
فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره قال مروان فانه
لم يتحرك لقولى وأنشده البيت السابق فقال صمارة إنك والله ما صنعت
شيئا وهل زدت أن جعلته عجوزا في محرابها وفي يدها مسابحها فمن
القائم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال
عمك جرير في عبدالعزيز بن مروان .

ولا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
فقال مروان الآن علمت أنى أخطأت .

لذلك كان الشعر شفيعا اليهم في عظامم الذنوب ، خرج محمد بن البعيث
على المتوكل فأرسل اليه من أتى به أسيرا فأمر بضرب عنقه فأنشد .

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جيلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا ولا شك أن خير الفعالين تفعل
فقال المتوكل لجلسائه إن فيه لأدبا وأمر باطلاقة والعفو عنه .

وقد شايح خلفاء العصر الأول في ذلك رجالا لدولة وأعيانها وقصص
البرامكة في هذا أمر يطول ، كان أبان على أيامهم يرتب لهم الشعراء
في التقدّم بهم إليهم وإلى الخلفاء ثم بقي خلفاء العصر الثاني من ذلك شبه
ما كان لأسلافهم في الأول ولكن غرض منه وخفض من همّتهم جهل
الخدم الأتراك المستبدين عابهم ، بمعاني الشعر وأقدار الشعراء فلم
يظهر بمظهر أسلافه منهم إلا القليل كعبد الله بن المعتز صاحب
اليد الطولى على الأدب والشعر والفتوح الواسعة في نواحي البديع والمعاني
وميادين الخيال ولكن لما جاء العصر الثالث وتعددت الحواضر نافس
ملوك الدويلات وأمرأؤها وأعيانها بعضهم بعضا في النهوض بالأدب
كما عرفت ذلك حيث الكلام على ميزات العصر الثالث في صدر الكتاب
عن آل حمدان وآل بويه والفاطميين . فرق الشعر بهذا النهوض .
أما العصر الرابع فقد أخذ حكمه يسرون نحو الجهل بالأدب إلى الوراء
فقلت رغبة الشعراء فيه وإن بقي للشعر على أيامه وجود في مصر
والشام والجزيرة والعراق وبعض فارس دون خراسان ، على النحو الذي
ذكرناه في مواطنه وطبقات رجاله منذ الآن .

٢ - عقدم لمجالس الشعر - لعل أول خليفة إسلامي عقد مجالس

للأدب عامة وللشعر خاصة بالمعنى الذي نريده الآن ، عبد الملك بن مروان

الخليفة الأموي العظيم وقد دونا عن مجالسه الأدبية في كتابنا الثاني
الشيء الكثير ، وقد جراه في شبه ذلك أبنائه من بعده وخاصة هشام .
ثم جاء العصر العباسي وخلفائه ميل شديد الى هذه المجالس ولكنه لم يظهر
واضحا أيام أولهم أبي العباس لقصر مدته مع اشتغاله فيها بالسياسة
ليل نهار ، ثم ظهر في عهد أخيه المنصور صاحب الرسالة السابقة الى
الشعراء على لسان حاجبه الربيع بطلب النزوع عن القديم الى الجديد .
وقد سنا الوقت بهذه المجالس لابنه المهدي فعقد منها الكثير ،
عقد يوما مجلسا مروان بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بني العباس فلما
تتام الناس دعاه فأنشده .

كان أمير المؤمنين محمدا لرأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهم

. سقته به الموت الختوف الرواصد

فأشار اليه فأمسك ؛ فقال يا بني العباس هذا شاعركم المنقطع
اليكم المعادي فيكم فأتوه مايسره فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم
وأعطاه هرون مثلها وأعطاه سائر البيت كل على قدر حاله فبلغ ما أعطوه
أربعين ألف درهم وأعطاه هو ثلاثين ألفا ثم قال له وسيايتك مني ما يؤدبك
الى الغنى فقال له مروان قد رأيت من قبولاك وبشرتك وسرورك بما
سمعت مني ما سآزدا به شعرا وستسمع ويبغك ، فلا يبلغ ما أعطيتني
لشاعر بعدى ؛ قال أجل قال فأذني في زيارتك قال آذنتك فقال لي فيك وفي
أهل بيتك عدو فان رأيت ألا تجعل لأحد على سلطانا دونك قال
لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين . وعقد ابنه موسى الهادي حين

وقع اليه سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان معنيا بجمع السلاح
مجلسا للشعراء اقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز مصامة الزبيدي من بين جميع الأثام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خيرا ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين حديه برد من ذفاف يمس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذفاف القيون
فاذا ما سللته بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالي من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأَبصار كالقُبس المشعل ما تستر فيه العيون
وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحته ماء معين
فمنحه عشرين ألف درهم . ولما عقد الرشيد البيعة لابنه الأمين
أخذ يستمع للشعراء فأنشده سلم

قد وفق الله الخلافة إذ بنى بيت الخلافة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر
فأنهالت عليه العطايا من الرشيد والسيدة زبيدة حتى ناء ، وكذلك
فعل حين عقد البيعة من بعده للمأمون . وحتى المعتصم على أميته كان
يطرب للأدب ويعقد مجالس للشعر ، اجتمع الشعراء ببابه مرة فبعث
اليهم من يقول لهم ، من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور
النمري في الرشيد - وأنشد الأبيات التي تقدمت في المبالغات -

فليدخل فقال محمد بن وهيب الحميري، فينا من يقول خيرا منه ودخل
فأنشده قصيدته التي منها

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه في الاشراف طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه في الظلماء منبلجا إذا استنارت لياليه به الغرر
فهش له وبالع في جائزته . وكانت مجالس ابنه المتوكل للشعراء ومكانة
البحري فيها مضرب الأمثال ، ولكن بعده كسدت مجالس الأدب
وقمع الشعراء حتى أحياءها ملولا الدويلات في الشام ومصر والعراق
كما علمت آنفا . ثم عاودها الكساد في النصف الأول من العصر الرابع
حتى زالت في نصفه الأخير .

٣ - إثابة المحسنين من الشعراء وقد تقدم الكلام على ذلك مع المدح بما
فيه الكفاية .

٤ - رقي الغناء ومجالسه ، لما لذلك من صلة وثيقة برقي الشعر وإشهار
الشعراء كما ستري في الكلام عليه الآن

ج - الغناء ومجالسه

قد عرفت مما ذكرنا في العصر الأموي أن الغناء نهض فيه
وأنهض معه الشعر ، لحاجة الحياة المترفة إليه في مدن الحجاز . وإذا كان
الترف منذ العصر العباسي الأول قد بلغ أقصى الغايات فلا بد أن يكون
الغناء قد بلغ فيه مثل ذلك وأثر في النهوض بالشعر أوضح تأثير
واليك البيان

اتخذ المغنون أصواتهم من الشعر فدفعوا بالشعراء إلى توخي

السهولة والرشاقة في الأساليب، وتطلب الجمال والرقّة في المعاني، وابتكار الجديد اللائق في الأغراض . وقد كان الغناء بشعر شاعر في حضرة خليفة ووزير أو ملك وأمير يثير في نفسه من المشاعر الكامنة والوجدانات الخافية ما يقوى فيه ملكه الشعر حتى يظفر كل يوم بمزيد . كما كان التسابق في هذا المجال يولد لدى كل منهم الطمع في أن يكون المجلي في هذا السباق وفي ذلك للغناء على الشعر فضل كبير . على أن له عليه فضلا آخر هو إشاعته في الناس لما هو طبيعي في الإنسان من حب الغناء والميل إلى استماعه سميان في ذلك الفرح والمحزون لحسن موقعه في القلب ووصوله دون أن تفاهم آخر إلى أعماق النفس ، نعم كان ذلك سببا في أن ياهج الناس بالشعر الذي يغنى فيه ويكثروا إنشاده في المجتمعات وفيما بينهم وبين أنفسهم بتريد أبياته استمتعا بمعانيها أو التزم بها استعادة لأنغامها . ولهذا عقد بين المغنين والشعراء إخاء وثيق ، بل لهذا وجد من المغنين من أجاد الشعر ومن الشعراء من أتقن الغناء وإن كانت مجالس المغنين أحفل جمعا وأكثر عددا من مجالس الشعراء وإليك مجلسا منها للرشيدي

جمع الرشيدي وما بين المغنين المتعصبين للقديم منهم كإبراهيم الموصلی وابنه إسحق، ونصره الجديد كإسماعيل بن جامع^(١) ثم أمر إبراهيم أن

(١) كان الغناء كله أول العصر العباسي على القديم فلما جاء إبراهيم ابن المهدي لم يتقيد به وقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ، وانضم إليه جماعة ، منهم إسماعيل المذكور وفليح بن أبي العوراء ويحيى المكي وعمرو بن نابه وحسين بن محرز وغيرهم ، وبقي إبراهيم الموصل على القديم وانضم إليه

يغنى فغنى الصوت

وقفت على ربع لية ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد ممّا أبشه تكلمنى أحجاره وملاعبه
فكان كل من من فى المجلس يجيبه بترديد صوته وطرب الرشيد حتى كان
يقوم ويقعد ، فأشار مسرور الخادم الى ابن جامع فغنى
كأن أحور من غزلان ذى بقر أعارها شبه العينين والجيدا
أجرى على موعد منها فتخلفنى فأأمل ولا توفى المواعيدا
كأنى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا
فاستخف الطرب الرشيداً بما استخفاف ثم غنى إسحق

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بينا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويأسلوة الأيام موعداك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك همزة كما انتفض العصفور بالله القطر
هجرتك حتى قليل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر
فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طرباً وقال « والله ما الغناء الذى يلين
العريكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طرباً إلا غناء
إسحق » ثم أوماً إلى المغنين أن يحلوا صفوفهم وفرق فيهم الجواز بقدر
أهليتهم من ألف دينار إلى خمسمائة إلى مادون ذلك

هذا وقد اعتنى الخلفاء بالغناء أكثر من عنايتهم بالشعر ، وأكرموا المغنين

جماعة ، منهم إسحق ابنه وسليم بن سلام وزير بن دحمان ومحمد بن الرف و أحمد
بن يحيى ومحمد بن حمزة وغيرهم . ولم يلبث المجددون أن أتقنوا ما خرجوا فيه
فكان فى خروجهم فتح مبين للغناء

أكثر مما أكرموا الشعراء واتخذوا منهم الندمان والسمار وأسقطوا
الكلفة عنهم وكانوا يزورونهم في منازلهم ويهبونهم أياما ينقطعون
فيها إلى لذتهم فلا يطلبونهم مع شغفهم بمجاورتهم ، ثم كان أن أقبل
بعضهم على الغناء يتعاهه ، كما أقبل كثير من أقربائهم حتى أجاده عدد
منهم كإبراهيم بن المهدي وأبي عيسى بن الرشيد وعبد الله بن المهدي
وعبد الله بن الأمين وأبي عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز .
بل من الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتأحين كالواثق والمنتصر والمعتز
والمعتمد والمعتضد ، وكل ذلك ذكره صاحب الاغانى وساق على بعضه
الشواهد . ولعل أشد هؤلاء جميعا ولعا بالغناء أبو عيسى بن المتوكل
الذي كانت مجالسه فيه تجاوز حدود الوصف وإليك واحدا منها .

جمع مرة بين المشدود وزنين وديس فغنى المشدود

لما استقل بأرداف تجاذبه	واخضر فوق حجاب الدرشاربه
وأشرق الورد في نسرين وجنته	واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة	فكان من رده ما قال حاجبه

ثم سكت وغنى زنين

الحب حلو أمرته عواقبه	ومصاحب الحب صب القاب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودعى	يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرفت وداعى الشوق يهتف بي	ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكت وغنى ديس

بدر من الأنس حفته كواكبه	قد لاح طارضه واخضر شاربه
إن يمنح الوعد يوما فهو مخلفه	أو ينطق القول يوما فهو كاذبه

عاطيته كدم الأوداج صافية فقام يشد وقد مالت جوانبه
ثم طادوا فغنوا بلحن واحد وقافية واحدة ، في كل ثلاثة أصوات
كما رأيت في هذه ، حتى تم لكل أحد عشر صوتا ، فطلب أبو عيسى من
المشدد وحده أن يغنى صوتا يكون ختام المجلس فغنائه إياه فأنابهم
جميعا ولولا أنه قطعهم ما انقطعوا ، وهذا هو الصوت :-

يا لجة الدمع هل للدمع مرجوع أم الكرى من جفون العين ممنوع
ما حيلتى وفؤادى هائم أبدا بعقرب الصدى من مولاي ملسوع
لا والذي تلفت نفسى بفرقة فلقاب من حرق الهجران مصدوع
ما أرق العين إلا حب مبتدع ثوب الجمال على خديه مخلوع
هذا وقد مال القوم استكمالاً للمتعمة منذ الصدر الأول أن يؤدبوا
الجواري ويعلموهن الغناء ، فكان من ذلك قينات يجعن إلى جمال الأنوثة
أدب الشعراء وصنعه المغنين ، واتخذ ذلك أرباب هذا الفن تجارة رابحة
إذ كانوا يستحضرون الجارية غفلا بنحو مائة دينار فإذا ما ثقفوها
باعوها بعشرات الآلاف ^(١) وغالى الناس في اقتنائهم حتى كان عند
الرشيد ثلثمائة من المغنيات ، واليك حكاية عنان جارية الناطقى فى أدبها
رواية بكر بن حماد وفى وصولها إلى الرشيد رواية إبراهيم بن عمر .
قال بكر - وقد انتهت إليه أدبها - خرجت معترضا لها فإراغنى إلا الناطقى
مولاها قد ضرب على عضدى فقال هل لك فيما سنع من طعام وشراب
ومجالسة عنان قلت ما بعد عنان مطلب فمضينا حتى أتينا منزله فدخل

(١) روى أن الرشيد اشترى إحدى الجواري بمائة ألف دينار بل روى
أن الأمين ثمن أخرى بألف ألف دينار وليس ذلك على تبذيره فى لهُوه ببعيد.

فقال لها هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم فقالت لا والله إني
كسلانة فحمل عليها بالسوط ثم قال لي ادخل فدخلت ودمعها يتحدر
كالجمان في خدها فطمعت بها فقلت

هذي عنان أسبلت دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه
ثم قلت أجيزي فقالت

فليت من يضربها ظلما تجف كفاه على سوطه
فقلت إن لي حاجة فقالت هاتها فمن سببك أوذينا، قلت لها بيت وجدته
على ظهر كتابي لم أقرضه ولم أقدر على إجازته قالت قل فأنشدتها
فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفس في أحشائه فتكلم
قال فأطرقت ثم أنشدت

ويبكي فأبكي رحمة له - كائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
فقلت لها فما عندك في إجازة هذا البيت

بديع حسن بديع صد جعلت خدي له ملاذا
فأطرقت ثم قالت

فما تبوه فعنفوه فأوعدوه فكان ماذا

وقال إبراهيم - جلس الرشيد ليلة ومعه سماره فغناه بعض من
حضر من المغنين بأبيات جرير التي يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
فطرب طربا شديدا وأعجب بالأبيات وقال لجلسائه هل منكم أحد
يجيز هذه الأبيات بمثلهم وله هذه البدرة - وكانت بين يديه بدرة من
دنانير - قال فقالوا فلم يصنعوا شيئا فقال خادم علي رأسه أنا بهذا ذلك

يا أمير المؤمنين قال شأتك فاحتمل البدره ثم أسرع الى الناطق فقال له
استأذن لي على عنان ، فأذنت له فدخل وأخبرها الخبر فقالت ويحك
وبما الأبيات فأنشدها إياها فقالت اكتب

هيجت بالقول الذي قد قلته داء بقلبي ما يزال كينسا
قد أينعت ثمراته في طينها وسقين من ماء الهوى فروينا
كذب الذين تقولوا يسيدى إن القلوب إذا هوين هويننا
فدفع اليها البدره ورجع بالأبيات إلى هرون فقال له ويحك من قالها
قال عنان فقال خلعت الخلافة من عنقي إن باتت إلا عندي، وبعث إلى
مولاها فاشتراها منه بثلاثين ألف دينار وباتت بقية الليلة عنده .

بهذا التشجيع وغيره رقيت صناعة الغناء حتى صارت فنا ذا
مؤلفات^(١) وزادها رقىا اختصاص كل مغن باحن أو أكثر يضع فيه
الكثير من الأصوات^(٢) كما رقيت بجوار الغناء مع الشعر الذي هو ممدد

(١) ذكر ابن النديم من مؤلفات الغناء كتبها جلها ضائع الآن منها كتاب
النغم للخليل ، وأخبار المغنين لإسحق وكتاب آخر له جمع فيه أغانيه ، والآداب
الرفيعة في الغناء والمناديات لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما ذكر أن لحظته
البرمكي وحسن بن موسى النصيبي تأليف فيه أيضا . والباقي الآن هو الأغاني
ولكن أبا الفرج أخلاه من قواعد الغناء إلا ما كان إشارة ورمزا وعلب عليه
الصبغة الأدبية في أخبار المغنين والشعراء

(٢) كاثراد فليح بن أبي العوراء بالنواقيسى وإبراهيم الموصلى
بالمخوري وإسحق ابنه بلحن التخنيث . على أن إسحق افتن جدا فصنع ألحانا
لا يقدر عليها شعبان ، وأخرى لا يقدر عليها متكى حتى يقعد وثلاثة لا يجيدها

الاصوات ، صناعات استخدام آلات الطرب من عود وناي وطبل
وغيرها ، وانبرى الشعراء يصفون هذه الآلات كما يصفون القيان فيأتون
بأبداع الأوصاف . قال ابن الرومي يصف القيان وفي أيديهم الآلات

وقيان كأنها أمهات طافات على بنيتها حوانى

مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان

ملقات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان

كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران^(١)

أمه دهرها تترجم عنه وهو بادی الغنى عن الترجمان

وكان القيان أردن أن يقابلن ذلك الجميل من الشعراء بجميل مثله فكن
ينقشن بعض أبيات الشعر في أكفهن بالحناء ، أو يكتبنها على ما يرتدين
من ملابس ويمسكن من أدوات . نقشت إحداهن بالحناء في كفها

ليس حسن الخطاب زين كفى حسن كفى زين لكل خضاب
وكتبت أخرى على عصابةها

ألا بالله قولوا يارجال أشمس في العصابة أم هلال

وحملت وصيفة للأمين مروحة عليها

بي طاب العيش في الصيف وبى طاب السرور

ممسكى ينفى أذى الحر م إذا اشتد الحر — رور

الندى والجود فى وجده أمين الله نور

ملك أسامه الشبيه وأخلاه النظير

قاعد حتى يقوم . وزاد عنه الفارابى بعد ، فقد روى أنه دخل مجلس سيف الدولة
فضرب لنا أضحكهم وآخر أبكاهم وثالثا أنامهم ثم قام (١) الكران الصنيج

هذا وقد دام الرقى للغناء بالغا الأوج العصرين الأول والثانى .
وناله فى الثالث ما نال الأديب عامة والشعر خاصة فكان فى إقليم خيرا
منه فى إقليم كما ذكرنا عن الشعر آ نفا . ثم انحط فى الرابع فكانت حاله
أسوأ من حال الشعر لأنه يحتاج فى رقيه إلى مالا يحتاج اليه الشعر
من أسباب كانت فى هذا العصر والعدم سواء

البياعى يوصى



فهرس

تاريخ اللغة العربية في العصر العباسي

« بغير الدراسة والمقرب »

مقدمات

- ٣ — ٦٠
٣ — ٨ تصوير عام للحال السياسية في هذا العصر الطويل وتقسيمه
أربعة عصور
٩ — ٢٣ طابع كل عصر وأثره العام في حياة اللغة من حيث الآداب
والعلوم
٢٤ — ٣٤ مائراً على العرب ولغتها من جراء امتزاج الأعجام بها
٣٥ — ٤٦ غلبة الفرس في هذا التأثير وإلى أي درجة كان في اللغة مداه
« من ناحية الأغراض والمقاصد ، وناحية المعاني والأخيلة ،
وناحية الألفاظ والأساليب »
٤٧ — ٦٠ انتشار العامية واختلافها باختلاف الأقاليم

الخطابه	١٠٨-٦١
نماذجها « ٢٢ نموذجاً »	٨٤-٦١
حياتها « دواعيها وأغراضها ومميزاتها »	١٠٨-٨٤
الكتابه	٣١٠-١٠٩
أنواعها « رسائل ، توقيعات ، قصص ، مقامات ، كتابة علمية »	١١٠-١٠٩
نماذج الرسائل « في العصور الأربعة ٤٧ نموذجاً »	١٤٩-١١١
نماذج القصص والمقامات « ٤ نماذج »	١٦٤-١٤٩
أساليب الرسائل ومميزاتها وطبقات رجالها في العصور الأربعة مع التعريف الوافي بإمام كل عصر	١٩٧-١٦٥
دواعيها وأغراضها ومكانة رجالها	٢٣٠-١٩٧
التوقيعات « نماذجها وحياتها منذ نشأتها إلى انقراضها »	٢٤٣-٢٣٠
القصص وحياتها منقولة وموضوعة مع الموازنة بينها وبين القصة الآن	٢٦٣-٢٤٤
المقامات وحياتها منذ نشأتها إلى نهاية العصر	٢٧٦-٢٦٤

٢٧٧ - ٣١٠	تدوين العلوم والكتابة العلمية
٢٧٧ - ٢٧٩	تمهيد عام وبيان لأنواع العلوم وأقسامها
٢٧٩ - ٢٨٥	العلوم الشرعية . « التفسير والقراءات . الحديث . الفقه وأصوله . الكلام والمنطق »
٢٨٥ - ٢٩٨	العلوم اللسانية « النحو والصرف . متن اللغة . البلاغة . الادب والتاريخ »
٢٩٨ - ٣٠٣	العلوم الكونية « من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية »
٣٠٣ - ٣٠٥	الكتابة العلمية أو لغة التأليف في كل من العلوم الإسلامية
	« شرعية ولسانية » والعلوم الكونية
٣٠٦ - ٣١٠	مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

الشعر	٣١١—٤٤٢
نماذج « في العصور الأربعة ٣١ نموذجاً »	٣١١—٣٤٧
تمهيد لحياته من النواحي الثلاث الآتية	٣٤٧—٣٤٨
ناحية الأغراض والفنون « من مناح عشرة »	٣٤٨—٣٧٥
« المعاني والأخيلة » من مناح ستة	٣٧٥—٤٠٤
« الالفاظ والأساليب » من مناح عشرة	٤٠٥—٤٢٠
توجيه النظر إلى ما للمولدين في تلك النواحي من حسنات وسيئات	٤٢١—٤٢٢
مواطن الشعر وطبقات رجاله	٤٢٢—٤٢٨
الموامل المساعدة لأسباب نهوضه	٤٢٨—٤٣٤
الغناء ومجالسه وعلاقة ذلك بنهضة الشعر	٤٣٤—٤٤٢
الفهرس	١ — ٥

دار العلوم

من

محاضرات الادب العربي

لطلبة السنة النهائية

للدكتور

احمد صيف

حقوق الطبع للمؤلف

١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م

مطبعة العلوم شارع الخليل بجدة



أدب العرب في الاندلس

وصف بلاد البرانس

تقع شبه جزيرة إيبيريا بالجنوب الغربي من قارة أوربا ، وتحيط بها مياه بحر الروم وبحر الزقاق والمحيط الاطلانطي من جميع جهاتها ما عدا جزءا صغيرا من الشمال الشرقى الذى تمر به جبال الألب (جبال البرانس) حيث يتصل بالقارة الأوربية . وقد سمي العرب شبه الجزيرة هذا بجزيرة الأندلس . واعلمهم سموها جزيرة لظنهم أن الماء يحيط بها من كل جهاتها، لأنهم عندما عبروا إليها من بلاد المغرب رأوها محاطة بالماء ، أو سموها جزيرة كما سموا بلادهم بجزيرة العرب من باب التغليب (كما قال بذلك ياقوت الحموى) وقد سرت هذه التسمية في جميع المؤلفات التاريخية والجغرافية ، وأطلق عليها جميع المؤلفين جزيرة الاندلس والحقيقة أن بلاد الاندلس ليست إلا جزءا من شبه جزيرة « إيبيريا » وهذا الجزء هو القسم الجنوبي الذى يمر به نهر الوادى الكبير وغيره من الأنهر ، فهو إقليم من أقاليم شبه الجزيرة يحده شمالا بنهر الوادى الكبير . ومن الجنوب ببحر الزقاق ، ويتصل من الغرب ببلاد البرتغال ، ومن الشرق بأقليم بلنسية . ولكن العرب عند ما فتحوا هذه البلاد ملكوا شبه جزيرة إيبيريا كله ما عدا الجزء الشمالى المتصل بجبال البرانس وجزءا من القسم الشمالى الغربى أيضا ، وأطلقوا على كل البلاد التى ملكوها اسم الاندلس

وقد اشتملت بلاد الأندلس الإسلامية على جزء كبير من الهضبة العظيمة التي تشغل الجزء الأكبر من شبه جزيرة ايبيريا ، وتمتد من الشمال إلى سلسلة جبال تسمى « كنتبريان » ومن الجنوب إلى جبال « سريامورينا » وتخترق شبه جزيرة ايبيريا وديان كثيرة يفصل بعضها عن بعض سلاسل جبلية تجعل كل واد مستقلا عن الآخر وتجري في هذه الوديان أنهار كثيرة يصب بعضها في المحيط الاطلنطي كنهر الوادي الكبير ، وواديه من أخصب الوديان هناك ، به كثير من الحدائق الغناء والرياض النضرة « مطر زبالا » زهار تسدح في جنباته الاطيار فتعبر النواوير ويبدسم النوار « وبهذا الوادي مدينة « قرطبة » أشهر مدن الأندلس وقاعدة الدولة الاموية زهاء قرنين ونصف قرن ازدهرت فيها علوم العرب وفنونهم وآدابهم ، واشتهرت بآثارها الفنية ومبانيها العظيمة ، ومدارسها الكثيرة ، ومساجدها الفخمة التي من أشهرها جامع قرطبة العظيم الذي كان من أكبر المدارس الإسلامية ، وجامعات العلوم الدينية والكونية ، ومنه خرج كثير من العلماء والفلاسفة المسلمين وغيرهم . وعلى نهر الوادي الكبير تقع أيضا مدينة « أشبيلية » التي كانت قاعدة بني عباد من ملوك الطوائف ، ومن المدن العظيمة الجميلة ؛ قالوا من محاسنها : اعتدال الهواء وحسن المباني وانها أحسن مدن الدنيا وقال أحد الشعراء في وصف نهرها :

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزءا فضم من الحياء أزاره
وكانت هذه المدينة محط الشعراء والأدباء زمن المعتمد بن عباد

أشهر ملوك الطوائف . وعلى فرع من نهر الوادى الكبير هذا تقع مدينة « غرناطة » التى كانت قاعدة بنى الأحمر ، التى لا يزال ماثلا بها قصر الحمراء معجزة الفن العربى .

ويقسم شبه الجزيرة نهر تاجه العظيم الذى يصب فى المحيط الاطلنطى أيضا ، وتقع عليه مدينة طليطلة . وواديه من أخصب الوديان وكانت طليطلة قاعدة ملوك القوط قبل دخول العرب هناك ثم صارت قاعدة لبعض ملوك الطوائف . قال المقرئ « وبطليطلة بساتين محدة وأنهار مخترقة ورياض وجنان ، وفواكه حسان مختلفة الطعوم والألوان ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وضياع بديةة وقلاع منيعة . وهى مطلة على نهر تاجه ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها . وكانت على قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب » .

ومن الأنهر التى تصب شرقا فى بحر الروم نهر إبرة وعليه تقع مدينة « سرقسطه » و « طرطوشة » وهو أيضا نهر عظيم ذو واد خصيب وأشجار بأسقة . وقد كانت « سرقسطه » من بلاد العرب الصناعية ومدن العلم الشهيرة نبغ فيها جملة من العلماء المعروفين .

السكان

لقد سكن بلاد الأندلس أمم كثيرة من قبائل مختلفة وأجناس متعددة ، فى أول الأمر كان يسكن الجهة الشمالية الشرقية بجبال الألب « جبال البرنس » وامتدادها جماعة لا يعرف التاريخ مبدأ ظهورهم فى هذه البلاد ، وهم قبائل الأيبير . ثم نزل بها من شمال هذه الجبال ومن بلاد الغال . « بلاد فرنسا » قبائل السلت والبسلت والجلالقة

وتفرقوا في شبه الجزيرة بالشمال والشمال الغربي ، واستقر بعضهم في الشواطئ وبعضهم في داخل البلاد ، ثم اختلط بعضهم ببعض وامتزجوا امتزاجا حتى صاروا كأنهم أمة واحدة من جنس واحد . ونزح إلى هذه البلاد من شواطئ افريقية الشمالية الغربية كثير من البربر واستقروا هناك كما نزل بها الفينيقيون من أهل قرطاجنة قبل الميلاد بقرون واستولوا عليها .

ولما امتد ملك الرومان وتوسعوا في الفتح وحاربوا القرطاجنيين وهزموهم استولوا على هذه البلاد (١٣٤ ق . م) وسموها هسبانيا . ونشر هناك الرومان حضارتهم وعلومهم كما نشر قبلهم بها صناعاتهم وفنونهم أهل قرطاجنة . وبقي ساطان الرومان ممتدا على هذه البلاد إلى أن ضعف أمرهم وأغار عليهم قبائل الفندال من الشمال ، وهم من أصل جرمانى ونزلوا على ضفاف نهر الوادى الكبير وأسسوا دولتهم هناك وسموا الملك الذى نزلوا به « فاندالوس » وعربها العرب بعد ذلك « أندلس » . ثم سطا على هؤلاء القوط ، وهم قبائل من الجرمان أيضا كانوا استوطنوا جنوب بلاد الغال وقد أزالوا ملك الفندال من الأندلس وبقوا أمراء البلاد إلى أن دخلها العرب .

وعند ما دخل العرب بلاد الأندلس كان سكانها خليطا من كل هذه الأثم فكانوا مزيجا من الأثم اللاتينية - بقايا الرومانيين - ومن الجرمانيين النازلين من الشمال ، والبربر النازحين إليها من أفريقية فامتزج العرب بهم وامتزجوا بالعرب ، وكان لذلك أثر عظيم في الحياة العقلية كما سنبين بعد .

بعضه اقوال الادباء في وصف بلاد الاندلس وسكانها

وصف لسان الدين بن الخطيب بلاد الاندلس بقوله :
« خص الله بلاد الأندلس من الريع ، وغدق السقيا ، ولذاذة
الاقوات وفراهة الحيوان ، ودرر الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران
وجودة اللباس وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الأبدان ، وابيضاض
الوان الانسان ، ونبل الازدهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطبائع ونفوذ
الادراك وإحكام التمدن والاعتماد بما حرمه الكثير من الاقطار »
وذكرها أحمد بن محمد بن موسى الرازي بقوله :

« بلد الأندلس هو آخر الاقليم الرابع إلى المغرب . وهو عند
الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجناب ، منبجس
الأنهار الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معتدل
الهواء والجو والنسيم ربيعته وخريفه ، ومشتاه ومصيفه على قدر من
الاعتدال ، وسطة من الحال لا يتولد في أحدها فصل يتولد منه فيما
يتلوه انتقاص ، تتصل فواكه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقه غير
مفقوده ، وفواكه على الجملة غير معدومة في كل أوان ، وله خواص في كرم
النبات وللأندلس المدن الحصينة والمعقل المنيع والقلاع الحريزة
والمصانع الجليلة ولها البر والبحر والسهل والوعر »

ومما ذكره في وصف سكانها قول صاحب فرجة الأنفس .
« وأهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمة
وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الأذى

والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية. هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم. بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائنهم وإطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم . يونانيون في استنباطهم للحياة ، ومعاناتهم لضروب الفرامسات واختيارهم لاجناس القواكه وتدييرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر . فهم أحكم الناس بأسباب الفلاحة . وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجديد الاعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع ، أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضروب .
ومن كلام الحجارى فى المسهب يصف الأندلس وأهله من العرب بقوله :

« الاندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة أداب واشتغالا بفنون العلوم وافتنانا فى المنظوم والمنثور . لم تضق لهم فى ذلك ساحة ولا قصرت عنه راحة . وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى فى بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والانهار والطيور والسكرؤوس ، لا ينازعهم أحد فى هذا الشأن . وأما إذا هب نسيم ودار كأس فى كف ظبي رخيم ورجع بم وزير وصفق للماء خرير ، أوقفت العشيّه وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية أو تبسم عن شعاع نحر نهر ، أو ترقرق بطل جفن زهر ، أو خفق بارق ، أو وصل طيف طارق أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح ، وبات مع من يهواه كالماء والراح ، إلى أن ودع حين أقبل زائر الصباح ، أو أزهرت دوحه السماء

بزُهر كواكبها ، أو قوضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها ،
فأولئك هم الأولون ، الذين لا يجارون ولا يلحقون ، وليسوا بالمتصرين في
الوصف إذا تقعقت السلاح وسالت خلجان الصورام بين قضبان
الرماح ، وبنت الحرب من العجاج سماء ، وأطلعت شبه النجوم أسنة
وأجرت شبه الشفق دماء . وقد أعانهم على الشعر أنسابهم العربية
وبقاعهم النضرة وهمهم الأبية .

العرب في الأندلس

ظهر الاسلام في العرب فانتشروا في الارض وأوغلوا في الفتح
واخترق الآفاق ، وانسابوا في البلاد وأنساب عليهم الظفر والغنائم .
فوجدوا في ذلك مطمعا لهم ، وسعة لدولتهم ، وعونا لدينهم ، وعزاً
لمجدهم . ففتحوا في نحو ثلاثة قرون ما لم تصل اليه أكبر دولة
في العالم .

وقد خرج العرب من بلادهم إلى مصر فالتقروا في بلاد البربر
فالأندلس . فأسسوا هناك دولة واسعة الأرجاء ، كانت من أعظم دول
أقامها العرب ، وأزخر مدنية جاء بها الاسلام . توغل المسلمون في أفريقية
سنة ٥٠ من الهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، بقيادة عقبة بن
نافع الذي أسس مدينة القيروان وانتشروا في بلاد البربر (شمال
افريقية) فأسلم سكانها . وفي سنة ٨٩ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة
الاموي الى موسى بن نصير بولاية افريقية . فنزل القيروان وأخضع
قبائل البربر . ثم سار الى طنجة وفتحها . فدانت لسلطانه جميع هذه
البلاد وأسلم أهلها . وترك موسى بن نصير جنده بقيادة مولا

طارق بن زياد . ثم تطلع إلى فتح اسبانيا ، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها . فاستأذن الخليفة في ذلك ، ونزل الشواطئ في سنة ٩١ هـ ، وفي سنة ٩٢ عبر طارق بن زياد البحر مع جنوده ، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسمه . وانتشروا في بلاد الاندلس انتشارا عظيما

ولما استقرت قدمهم هناك نزع اليها العرب من كل بطن وقبيلة ، من عدنانيين وقحطانيين وغيرهم . فن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بني حمود . ومنهم المخزوميون الذين منهم أبو بكر المخزومي الشاعر الأعمى المشهور ، والوزير بن زيدون . ومن بينهم الفهريون ، ومنهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي غلبه على أمره ، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بني أمية بالاندلس . أما القحطانيون أو اليمينيون فكانوا أكثر انتشارا . ومن قبائلهم كهلان ومنها محمد بن هانيء الشاعر المشهور ، ومنهم الازد ومنهم الجهم الغفير بالاندلس^(١) ورحل إلى الاندلس أيضا كثير من أهل مصر والشام والعراق . كما عبر إليها من مراکش وشمال افريقية جماعة من البربر واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين ، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة ، وجمعهم الاسلام فكانوا أمة واحدة

ولكن هذه الأمم لم يكدهم مجتمع أمرها حتى دب فيها ديب التنازع وكانت العصبية العربية في أشد ما تكون . فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتن القديمة النائمة . ودارت رحى الحرب بين اليمانيين والمصريين ، وتنافسوا في الملك ، حتى أدى ذلك إلى انقسام الامارة فيهم

(١) راجع الباب الثاني من تفح الطيب

وإداتها بين الجندين سنة لكل دولة^(١). وكان خلفاء بني أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييدا لمكهم ، ويميلون إلى اليمنيين الذين نصروهم في واقعة مرج راهط . فكان انقسام العرب منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد : وقد دامت هذه الفتن مدة وجوب الدول الإسلامية في بلاد الاندلس ، حتى قيل : ليست هناك بقعة من أرض الاندلس إلا رويت بدماء المسلمين : ولم يكد يخلو يوم من الايام التي خفقت فيها راية الاسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، أو بين المسلمين انفسهم .

مع هذا فقد كان لدول المسلمين عصور ذهبية ، وأيام زاهرة ، أثمرت فيها قراينهم وجهودهم . وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطري إلى الرقي ، حتى أصبحوا قواد العالم وأساتذة المعمورة . وربما كان ذلك التنافس في الملك من أسباب رقي تلك البلاد . لان كل أمير أو خليفة كان يريد أن يوداد ملكه بنشر العلوم والمعارف . ولا سيما ان العباسيين كانت مدنياتهم ازهرت في بغداد ، فأرادوا أن يجاروهم في قرطبة ، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من حضارة هنالك . هذا إلى ما كان عليه العربي من ميله إلى العلم ونشره ، لانه كان يرى في ذلك نشر المدنية على يديه ، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والاعجاب اللذين هما من أكبر مظاهر الاخلاق العربية . ولقد كان مَثَلُ الأمة العربية مَثَلُ النائم المستغرق في نومه ، فاذا استيقظ كانت يقظته يقظة النشيط المجد .

ولما دخل العرب الاندلس أدخلوا معهم بلاغتهم ولغتهم التي كانت

(١) راجع تاريخ ابن خلدون جزء ٤ صحيفة ١٢٠

من أكبر مظاهر الغنن لديهم ، فتبعت أول خطوة خطاها أكبر قوادهم فاتح هذه البلاد طارق بن زياد . وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشهيرة لهذا الفتح العظيم ، التي تدل على رسوخ ملكة البيان في القواد . وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند ؛ وكيفية امتلاكها بالرهبة أحيانا والرغبة تارة ، وبث الأمل في نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الأجر من الله ، وأن القائد بلسانه كالقائد بسيفه ولسانه قلها طارق بن زياد وهو قادم على عدو أكثر منهم عددا وعدة ، لأنه دخل الأندلس ومعه اثنا عشر ألف رجل أُرهب بهم سبعين ألفا من الأعداء

وهذه الخطبة هي أول ربح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب . وأول كلام بليغ عبر عبيره هناك . بل أول تاريخ البلاغة العربية . ولم تكن بلاغتها في الأسلوب وحده ، بل في الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طبع العربي ، وهي من نوع الكلام الذي يوحى به حب الجهاد ، والرغبة في نيل الأجر الدنيوي والأخروي معا ، ويذكر الجيوش بمفخرة النصر على العدو ، أو الموت في سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين . وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب في القتال مالا يكون إلا من قاب حديد وقائد عظيم مجرب

وهذه هي خطبة طارق بن زياد :

أيها الناس . أين المنقر البحر ورائكم . والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصديق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الإيتام في مادبة اللثام وقد استقبلتم عدوكم بجيشه وأسلحته ؛ وأقواته موفورة . وأنتم لا وزر

لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تمتخلصونه من أيد عدوكم . وإن امتدت
بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ربحكم وتعوضت القلوب
من رعبتها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة
من امركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد انقت به اليكم مدينته الحصينة . وإن
انتهاز الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمرا
أنا عنه بنجوة . ولا حمايتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ابرأ منها بنفسى
واعلموا أنكم إن صبرتم على الاشق قليلا اسمتعتم بالارفة الالذ طويلا . فلا
ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه باوفر من حظى . وقد بلغكم
ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى
الدر والمرجان . والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك
ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال
عربانا . ورضيكم ملوك هذه الجزيرة إصهارا واختنا . ثقة منه بارتياحكم
للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله
على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من
دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم
ذكرا فى الدارين . وأعلموا أنى أول محبب الى مادعوتكم اليه . وإنى عند
ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى .
فاحملو معى فان هلك بعد فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل ما قل تسندون
أموركم اليه . وإن هلك قبل وصولى اليه فاخلقونى فى عزيقتى هذه واحملوا
بأنفسكم عليه واكتفوا اليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون

وقد كنت للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية .
أما العصور التاريخية فقد بدأت بعصر الأمراء منذ الفتح الى سنة
(١٣٨) . تولى الأمر فيها عشرون أميراً كانت مدتهم ستة وأربعين
عاماً (٩٢ - ١٣٨) . وكانت هذه الامارات تابعة للخلفاء في المشرق
زمن الأمويين والعباسيين . ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب
وشجار لا ينقطعان . ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد
الملك الأموي بما هناك من المنافسة بين اليمانيين والمضريين ، وكان قد
فر من ظلم أبي جعفر المنصور الذي نكل ببني مروان ، التجأ إلى بلاد
البربر وذهب إلى الأندلس مع جماعة من أتباعه ، وأسس هناك دولة
بني أمية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ هـ واستولى على قرطبة
بمساعدة اليمانيين ، فتأسست دولة بني أمية التي كان عصرها من أزهى
عصور العلم والأدب والحضارة بجميع أنواعها . وبقيت هذه الدولة
٢٨١ سنة (الى سنة ٤٢٢ هـ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة . وقد بلغت
الدولة ذروة مجدها في زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ -
٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالشرق . فكان نور المدينة الاسلامية
يسطع من المشرق والمغرب معا . فان عبد الرحمن الداخل طاش من عصر
أبي جعفر المنصور إلى زمن هرون الرشيد (١٣٨ - ٢٧٢) وكان الحكم
ابن هشام معاصراً للمأمون (١٨٠ - ٢٧٦) فكانت الدولتان تتسابقان
في ميدان العلوم والحضارة . وكانت قرطبة وبغداد كعنتي العلماء ومنبعي
العلوم والفنون .

وبعد زوال بني أمية انقسم الناس أحزاباً وشيعاً . فكانت

هناك ممالك كثيرة مستقلة سمي ملوكها بملوك الطوائف فقام ابن عباد في أشبيلية . وابن الافطس في بطليوس . وذو النون بطليطلة . وابن هود بسرقسطة الخ . وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها أكثر ما تكون اضطراباً^(١)

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم . فكان ابن الافطس الملقب بالمظفر أحرص الناس على جمع علوم الادب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الاخبار وعيون التاريخ . انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفرى) كان يقع في نحو ٥٠ مجلدا . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر قالوا : وكانت أيام بني المظفر أعيادا ومواسم ، وكانوا ملجأ لاهل الادب وفيهم قال الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة وكان بنو هود ملوك سرقسطة ومايلها ، من أهل العلم وأنصاره فقد كان المؤمن بن المقتدر بالله قائما على العلوم الرياضية وله فيها تواليف منها كتاب « الاستكمال والمناظر » ومن أشهر ملوك الطوائف أبو القاسم المعتمد على الله بن عباد كان شاعرا أدبيا وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون

(١) قال صاحب المعجب ، وأما حال أهل الاندلس بعد انحلال دعوة بني أمية فقد تفرقوا فرقا وتغاب في كل جهة منها متغاب ، وضبط كل متغاب ماتغلب عليه وتقسما القاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمعتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد وغير ذلك من القاب الخلافة . وفي ذلك يقول أبو علي حسن بن رشيق .

مما يزهدنى في أرض اندلس أسماء مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها كالمهر يحف انتفاخا صولة الاسد

أديباً وشاعراً ، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون . ومنهم الكاتب ابن عمار . وكان المعتمد هذا من أعظم ملوك الطوائف . ولم تذهب دولته إلا بعد أن استعان يوسف بن تاشفين الذي تغلب عليه وأسرّه في إفريقية بعد أن أبلى بلاء حسناً في محاربته (سنة ٤٨٤ هـ) ومنذ ذلك الزمن ملك البربر إسبانيا وسموا بالمرابطين ، وأصبحت الأندلس ولاية تابعة لإفريقية . وملك يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس وأصبح هو وأبنه من أكابر الملوك ^(١)

ولم يكد يستتب للوكها الأمر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب لمسائل الدين وابتدأت الحالة العقلية تنحط ، وحركة اللغة والعلوم تقف . وفي زمن علي بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب الإمام مالك ، حتى قالوا إنه نسي النظر في كتاب الله . وصودرت كتب الكلام ، ومنع الكلام في العقائد ، وأمر بإحراق كتب الغزالي . ثم عمت الفوضى جميع البلاد واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة ، ووكالت لأُمُور للنساء وعلى أثر ذلك قامت دولة الموحدين التي نشأت بمراكش في أوائل القرن السادس وأراد الموحدون أن يردوا عظمة عصر بني أمية من علوم وفنون وصناعات . واشتهر في زمنهم طائفة من العلماء والشعراء والفلاسفة . فقد كان لأُمُرها ميل عظيم للعلم كأبي عقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠) الذي اشتهر بحبه

(١) قالوا وانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولته إلى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه ن أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ، لم يسبق اجتماعه في عصر من العصور

للعلم والاشتغال به وبجمع الكتب . وكان يتناقش مع ابن رشد الفيلسوف الشهير . حتى قال ابن رشد أنه هو الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكماء أرسطو وأفلوطين .

ثم ظهر بنو هود في أوائل القرن السابع الهجري وغلبهم بنو الأحرار ملوك غرناطة . واضطربت الحال في هذه المدة بين بني الأحرار وبني هود ، كما كانت عند الفتح بين الأمراء . وانتهت الدولة في أواخر القرن التاسع الهجري حيث خفت صوت المسلمين هناك . وقد ظهر في هذه المدة الأخيرة كثير من الأدباء والشعراء ، كسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

أما عصور الأدب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الأموية ولم يأفل نجم هذه الدولة إلا بعد أن أضعفت البلاد بالعلماء والفلاسفة والأدباء ومعاهد العلم ودور الكتب . وكانت الصبغة العربية ظاهرة في الشعر والنثر لأنها كانت أشبه بما في بلاد المشرق . فلما كثرت الفتن وذاع اللهو والمجون في أواخر الدولة وفي دولة بني حاكم وفي عصر ملوك الطوائف ظهرت الإباحة في كل شيء وظهر كل هذا في أنواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق ، ومن كلام في وصف مجالس اللهو والطرب وأغرب الشعراء والكتاب في هذه الأنواع . وأكثر مشهورهم ظهورا في زمن ملوك الطوائف وبعده كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة ، الأدباء .

وما زالت النهضة الأدبية سائرة سيرا حثيثا ، لأن العقول كانت قد نضجت وأخذت في البحث والاستنباط . وقد زالت الدولة على

السياسية ، والحياة العقلية في عز مجدها . وعلماءها وأدباؤها لا يزالون في إبان نشاطهم ، ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا في البلاد ، وأفاضوا عاينها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الأمم التي نزلوا فيها .

وقد كانت آداب العرب تسرى في هذه العصور سريان الحياة في الأجسام منذ وضع العرب أقدامهم في تلك البلاد فالعصر الأول وهو عصر الولاة كان يسوده الروح العربي في العادات والأخلاق من حماسة وشهامة وحب للفتح والجهاد وتمسك بالعصبية العربية . وكانت هذه الأخلاق تتمثل في الخطب والرسائل بين الولاة . ولكن هذا العصر كان عصر فتح واضطراب بين العرب والقوط وغيرهم من سكان البلاد كما قلنا وبين القبائل العربية لما أثارتها في نفوسهم الأطماع والأحقاد القديمة التي كانت بينهم . فلم يكن للغة والأدب شيء يذكر في تلك الأيام وأما عصر بني أمية وعصر ملوك الطوائف وهو زهاء أربعة قرون فكان أزهى عصور اللغة العربية في الاندلس .

ففي هذا العصر ارتقت العلوم والفنون والآداب وكثر الشعراء والكتاب كما كثروا فدون من أهل العلم والأدب من المشرقين ، فوجدوا هناك صدراً رحباً ، وأخصيت بهم موارد العلم والأدب فعالجوا الكتابة والشعر في كل ما كان هناك من مظاهر الحضارة في المجالس والمحافل وضروب الاجتماع من جد وهزل ؛ وحاجات الدولة ومرافقها السياسية والإدارية ؛ فكانت الصبغة العامة للحياة العقلية

والأدبية صبغة عربية دينية . كذلك كانت أساليبهم وصيغتهم عربية
بحته أشبه بأساليب الأمويين ومن عاصروهم في بلاد المشرق لأنهم لم
يشتغلوا هناك بالعلوم الكونية والفلسفية إلا في آخر عصر ملوك
الطوائف وعصر البرابرة .

على أن كل ما حصل هناك من جديد في الكتابة كان في انتشار
السجع وتعبد الصنعة مجازاة لأهل المشرق وقد انسع الخيال في الشعر
من جراء الحالة الاجتماعية ومظاهر الحضارة كما سنبين ذلك .

وأما عصر المرابطين والبربر فكان عصر ركود في اللغة والأدب
وعصر تعصب أعشى لبعض مسائل الدين ، وعصر وقوف لفنون اللغة
وآدابها . وقد دام هذا العصر زهاء قرن ونصف قرن . وكان نذيرا
بسوء حالة اللغة .

وجاء بعد هذا العصر عصر بني هود وبني الأحمر (٦٣٠-٨٩٧م)
ولم يبق في اللغة إلا بقية رمق لم تقو على ما أدركها من الفناء ولم تحتفظ
بما كان لها من ذمء ،

الحياة العقلية في الأندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الأندلس بسكان البلاد وتصاهروا
وتحابوا ، ثم دخل كثير من غير العرب في الإسلام ، فظهرت صلة
أخرى غير صلة الاجتماع في بقعة واحدة ، وهي صلة الدين ، وامتزجت
كل هذه الأجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب في عقولهم كما تسرب
في دماهم فكانت لهم نزع عقلية جديدة ونمت مواهبهم الفطرية ،

وساعدهم على ذلك انتجاعهم بلادا واسعة غنية جميلة ، مختلفة المناظر متعددة المناحي ، فكان أثر ذلك كله ان أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لغيرهم من العرب الخالص . فاشتغلوا بأنفسهم في نقل العلوم ونشرها ، ورحلوا إلى البلاد في طلبها ، ورجل إليهم كثير من العلماء ، فأخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس . ولم يكن للعرب إذ ذاك من يزاحمهم ، لأن معالم الحضارة كانت خفيت والعالم يتطلع إلى من ينقذه من مخالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان وكان العرب أبطال تلك الأيام ، فأصبحوا زعماء المدنية . وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزعامة ويملكوا زمام العالم . وقد عرفوا أن ذلك لا يكون إلا إذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم ، وان دولة لا تؤسس إلا على العلم ، وان أمة تريد أن تعيش لاثميا إلا بالعلم فأراد عبد الرحمن الداخل أن تكون دولة بني أمية في المغرب أثبت دطامة من دولة بني العباس بالشرق ، وأبقى وأنخم من ملك آبائه في ربوع الشام^(١) فتمهدت في زمنه وسائل السعادة والمدنية ، وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات . كذلك كان عبد الرحمن الثاني المعاصر للمأمون (من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨) شديد الرغبة في الفنون والأدب والموسيقى ، فعمل على ترقية أذواق أهل الأندلس بنشر الفنون الجميلة . فكان خلفاء بني أمية يجارون دولة بني العباس

(١) فقد رووا عنه

أبني أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب وغما والسعود قبائل
ما دام من نسلي امام قائم فالحكم فيكم ثابت متواصل

في حضارتهم وفي كل شيء لديهم . وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد فأدخل عبد الرحمن الثالث في أسبانيا أكثر ما كان عند العباسيين من علوم وفنون . وأنشأ في قرطبة كثيرا من المباني الفخمة . وبلغت أبهة الملك منتهاها في أيامه . وفي عصره كانت المدينة الإسلامية زاهية . فكان العلماء والادباء يفدون من المغرب الى المشرق ، ومن المشرق الى المغرب والطريق من بغداد الى قرطبة لا يغيب عنه ضوء العلم ، ولا تنقطع عنه قدم العلماء ، والعالم يستضيء في ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية ، ويهتدى بآثار العرب وجهودهم في نقل الحضارة من اليونان وغيرهم مما كشفوا مخبأته وفتحوا معيياته . وقد نمت مواهب العرب في اسبانيا كما ينمي النبات الصالح للحياة في الارض الخصبة الطيبة . وظهر أثر ذلك كله في العلوم والفنون ، كما ظهر في أنواع البلاغة من شعر ونثر ، مما لم يكن عند سواهم ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب ، والعمل على فهم مآثر كه الناس قبلهم من علوم عقاية أو نقلية ، ومن صناعات وفنون . فكان لهم أثر في كل شيء اطلعوا عليه ، فألفوا ودونوا واخترعوا ، مما لا يكاد يحصى ، حتى أن الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل في زمنهم . لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرايح عند العرب جميعا .

وقد عنوا عناية عظيمة بجمع الكتب في كل علم وفن . فقد كان في اسبانيا ستون مكتبة عامة ، أنشأها الخلفاء الامويون وغيرهم ، أشهرها مكتبة قرطبة ، وكانت تحتوي على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة . وفي الطب والكيمياء والموسيقى

وفي أصول الدين ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير . وفي فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة . كان ذلك كله مجموعا مجمعا منظما في مكتبة الحكيم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) كل غرفة تحتوى على علم أو فن من الفنون ^(١) . واشتهرت رغبة الحكم في اقتناء الكتب فكانت فهارس المكتبة أربعة وأربعين ، وبلغت الكتب فيها مائتي ألف مجلد . جمعها من إفريقية وفارس وجميع البلدان . وانتقلت رغبة جمع الكتب إلى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفوس ما يقتنى . وحرص الناس عليها وعلى نقلها . وكان الحكم نفسه طالما بالأخبار والأنساب ، محبا للقراءة ، حتى قالوا إنه قلما يوجد كتاب في مكتبته إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه ، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأثني بغرائب لا توجد إلا عنده . وكان يجمع في داره الحذاق في صناعة النسخ والضبط والاجادة في التجليد ، ويجود عليهم بالمال . فكانت داره أشبه بمجمع علمي . وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ، يعطيهم الأموال لشراؤها ، حتى جلب منها إلى

(١) كان الحكم من أشد أنصار العلم ؛ لأن أباه عبد الرحمن الثالث رباه بأمره الأساتذة ووكّل أمر تعليمه إلى أبي علي القالي . وقد نشر الحكم على نفقته الخاصة مؤلفات أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . وجعل في قرطبة أكبر دار لمطالعة الكتب العربية وجعل أخاه عبد العزيز مديرا لها ومحافظا عليها ؛ على حين أن أخاه المنذر كان له الرئاسة على أندية العلوم المختلفة التي تأسست في قرطبة

الاندلس مالم يكن لهم به عهد ، مما كان يضاهى ما جمعته ملوك بني العباس في الازمان الطويلة . واستخدم العلماء في كل ما يساعد على العلم ونشره ، فكان منهم الوراقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط . وبعث في كتاب الاغانى الى مؤلفه أبي الفرج بألف دينار من الذهب العين ، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرجها الى العراق . كذلك كان للخلفاء ميل عظيم الى أكرام العلماء والاخذ بناصرتهم^(١) فكان المنصور بن أبي عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها في أنحاء الدولة لدى الرعاية على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم ، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم وكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ، ويمدح المدرسين ويكافئ التلاميذ على جدهم ويجلس في مجالس العلماء للمناقشة والبحث ، ويختار من نابغهم القضاء والقراء والخطباء

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية . فكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدءون بإنشاء مسجد ومدرسة وكأنتهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لتهديب الامم ، وأن تربية النفوس بالدين كتربية العقول بالعلوم والمعارف . وعنهم أخذ أهل أوروبا المدارس الجامعة ونظام « الكليات » التي يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة . وكان في كل مدينة من مدن اسبانيا مدرسة كبيرة . بل كانت القرى تحتوى على مدارس لتعليم

(١) راجع خبر دخول أبي علي القالى في الأندلس والاحتفاء به واشتغال

القرآن والقراءة والكتابة . وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفاً بالقراءة والكتابة ، على حين أن أهل أوربا كانوا من العامة الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، لان التعليم كان منحصراً لديهم في طائفة القسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم ، وان تعدادهم فالى بعض الامراء والاغنياء . وكانت معاهد التدريس خاصة بالعلماء والفضلاء ، ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين .

وكان للطب أربع مدارس أهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الممال والاجناس فى قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية

هذا شئ يسير عن الحركة العلمية والادبية فى الاندلس . منها يمكن الوقوف على مقدار ما كان هناك من الميل الى العلوم والمعارف ، وما وصلوا اليه فى الحضارة والاطلاع وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الأدباء والفقهاء . وقد كانت لهم عناية خاصة بعلوم اللغة والدين ، لان تربيتهم العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين . لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين فى العلوم الرياضية والطبيعية شهرة عظيمة فى علوم اللغة والدين . فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن السمين من أهل قرطبة بصيراً بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعانى الشعر والفقه والحديث والاخبار والجدل . وكان الحافظ أبو الوليد هشام من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعانى الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والفرائض . فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساساً لتربيتهم العقلية ، حتى لا تكاد نجد عالماً أو فيلسوفاً أو منجماً إلا وله علم بالشعر

والعروض واللغة . لهذا ظهر شيء كثير من آثار تلك التربية العلمية والفلسفية في بلاغتهم من نظم ونثر
أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت في كل أنحاء البلاد وعند الخاصة والعامة وماكنت منهم ما-كة البيان : قال بعض المؤرخين
« هجر أهل اسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها ، وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكوا من ذلك ، وقال : اننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية ، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الاسلامية باللغة العربية لتعلم لغة رشيقة وعبارة بايغة ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية . وكل شبابنا الاذكاء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها ، لأنهم يقرءون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة ، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب الى الاعجاب بأدب العرب . فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية مسخروا منها ، وقالوا أنها لا تستحق عناية قارىء أو مستفيد من أجل ذلك نسي المسيحيون لغتهم ، فلا تكاد تجد في الالف منا واحدا يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية . أما اذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فان كثيرا منهم يكتب بعبارات بايغة ، وأسلوب منمق ، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك ، حتى في الشعر وكتابه القوافي . »

كذلك دخلت الالفاظ العربية في اللغة الاسبانية وغيرت شكل لغة البلاد وأكسبتها لهجة جديدة في زمن شارل الاصلع
« وفي أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق

الرسمية . وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة الى اللغة العربية لتلاميذه فوجدَ أحد العلماء هناك على أهل دينه، وأتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل على ترك اللاتينية . وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا فى قرطبة وطليطلة ، حتى أن القسس لجأهم باللاتينية اضطروا الى ترجمة كتب الكنيسة الى اللغة العربية . وبقى ذلك الى أواخر القرن الحادى عشر ، أى بعد أن استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م

وليس لاحد أن يناقش كلام « كوند » القائل بأن من أدب أهل أسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . ولا شك فى أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفاسفية الخ . وأما اهتمامهم بالفنون كالادب والغناء والموسيقى فقد كان أكثر انتشارا ، لانهم كانوا أحوج اليها فى مساحات الاله والطرب ، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والامراء . وهى عليهم أسهل ؛ ولدى ذوقهم أعذب ؛ ولنفوسهم أقرب .

الفنون والترف وأبهة الملك فى الاندلس

كانت همّة العرب فى إبان نهضتهم متجهة الى العلوم ، منصرفة الى الدرس والتأليف والنقل . فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والاطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا الى ذلك . وكان اهتمامهم بالفنون كالموسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيما أيضا ، حتى فاقوا غيرهم فى بعضها وأخذوا بعضها عن

الامم الاخرى . ولهم فى ذلك آثار جميلة بديعة ، وميولهم الى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الامل على تقدمهم فى ذلك لو أن دولتهم امتد زمنها . فقد كان لدولة بنى الاحمر بغرناطة آثار بديعة فى فن العمارة ، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الامويين لفنى النحت والتصوير . فبنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستنزها ومسكنا لها ولحاشيته وأرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب . وكانوا يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الاخرى كالقسطنطينية وغيرها . وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها ، وقلدوا بعض النقوش التى كانت فى كنائس أسبانيا وصقايه . وروى بعض المؤرخين أن ثلاثة أعمدة فى مسجد قرطبه كانت عليها نقوش وصور فكان على أحدها صورة عصا موسى ، وعلى الثانى صورة أهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح . أما تصوير الآنيه والاثاث والاشكال الهندسيه فقد برعوا فيها براعة عظيمه ، وصوروا الطيور وأشكال الرجال ، كما فى الحوض الذى أتى به الناصر الى مدينه الزهراء فقد كانت به نقوش وتماثيل على صورة الانسان نصب عليه اثنا عشر تمثالا ومن آثارهم فى فن العمارة هناك مالا يزال ناطقا بما كان لهم من البراعه فى بناء المدن والقصور والمساجد . ولهم من الاتقان فى ذلك ما لم يكن لغيرهم فى زمنهم . ومن أشهر آثارهم الفنيه مسجد قرطبه الشهير الذى - فضلا عما يدل عليه من البراعة فى فن العمارة - يدل على ذوقهم الفنى ، وعلى بلوغهم درجه عظيمه فى الترف ومجاراتهم غيرهم

فيما عرفوه من آثار الرومان في المدن العظيمة والقصور الشاغرة
والكنائس المنمقة

أما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل وأمه ابنة
هشام . فكان إنشاؤه في أول أيام الدولة الاموية ؛ مما يدل على تيقظ العرب
ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد . وقد كان في هذا المسجد الف
ومائتا عمود كلها من الرخام ، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب
وما يابيه قد أجرى فيه الذهب المطعم . وكان باب المقصورة من
الفضة . وكان بالمقصورة تفاحات من الفضة والذهب ، يحيط كل تفاحة
ثلاثة أشبار ونصف ، واثنان من هذه التفاحات من الذهب الابريز ،
وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبداع صنعة ورمانة
ذهب . قال المرى أنها إحدى غرائب الارض : وكان بالجامع المذكور
في بيت منبره مصحف عثمان الذي خطه بيده (هكذا يقولون) وعليه
حلية ذهب مكالة بالدر والياقوت ؛ وعليه أغشية من الديباج وهو
على كرسي من العود الطيب بمسامير الذهب وارتفاع المنارة الى مكان
الآذان ٤٥ ذراعا ؛ ودور الثريا الكبرى تحتوى على الف كأس وأربعة
وثمانين ؛ كلها موشاة بالذهب . وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة ؛
اثنان أخضران واثنان لازورديان وبه منبر خشبه العاج والابنوس
والعود . وصرف عليه عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا ويقولون
إنه كان بالجامع حاصل كبير ملآن من آنيه الذهب والفضة لاجل وقوده

راجع الكلام على مسجد قرطبة في نفح الطيب جزء ١ صفحته

وقد أخذ أهل أوربا عن عرب الاندلس كثيرا من الفنون وغيرها . فقد كانوا لا يعرفون شيئا عن علوم اليونان ومدنيتهم . ولا عن اللغة الاغريقية وما ألف فيها . فلما ترجم العرب كتبهم وشرحوها وأضافوا اليها ما أضافوه ، فتحوا على أهل أوربا باب المدينة الخاضرة وأطلعوهم على تلك الآثار التي بنوا على أنقاضها حضارتهم . فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية . ومنذ ذلك عنوا بدراستها وبمعرفة اللغة اليونانية . بل ترجم أهل أوربا الكتب العلمية اليونانية من العربية الى اللاتينية . ومن أول الكتب التي ترجمت في ذلك كتاب اقليدس في الهندسة سنة ١١٣٦ م

ولم يأخذ أهل أوربا عن عرب الاندلس العلوم وحدها ، بل أخذوا عنهم أيضا بعض الفنون التي اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر^(١) . أما فن الموسيقى فقد توسع فيه أهل أوربا بما تركه العرب لهم . قال بعض المؤرخين « إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوربا على الوصول الى الدرجة التي عليها الآن هذا الفن الجميل . فان مكتبة طليطلة بها آثار عظيمة تدل

(١) أخذ العرب كثيرا من فنون العمارة عن دولة الروم الشرقية . كما نقلها الجرمانيون الى بلادهم . فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ما عند عرب اسبانيا . حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسة الجرمانية الكبرى لأن أصلها مأخوذان عن الشكل البوزانتي . وكانت آثار البناء في أوربا الجنوبية مأخوذة من نماذج عربية حتى قالوا إنه يوجد شيء من ذلك في كنيسة باريس الكبرى :

على ما كان للعرب من التقدم في ذلك . وأن هناك جزءاً من المخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر ، التي كانت كل معلوماته وتربيته العقائية ، مكتسبة من قراءة الكتب العربية . وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت مقصورة على الكنائس . فسأعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنسيين أنفسهم ، الذين كانوا يقيمون في اسبانيا مع العرب ، أو يتعلمون في مدارسهم . وكان الشعر الفرنسي العامي من نوح الشعر العامي الإسباني المأخوذ عن الشعر العربي ، لأن الشعر اليوناني أو الروماني . لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان ، حتى ينسجوا على منوالهم إذ لم يطلعوا على شيء من ذلك قبل القرن الرابع عشر . لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربي من حيث أنه قطع صغيرة ، وأبيات قليلة في المدح أو الذم أو الوصف . وذلك أظهر ما يكون في فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر ، وبعض القرن الخامس عشر . حتى أن أسماء هذه المخطوطات أو الأصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربي . قال « ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب ، فان الأسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربي ثم وصلت هذه الصناعة إلى مرسلينا وطولون بواسطة التجار الذين كانوا يجيئون من اسبانيا » .

واقتبس الأوروبيون كثيراً من أعمال العرب في الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه . وانما أردنا أن نثبت ذلك القدر القليل تذويها بفضل العرب وأثرهم في المدنية الحاضرة .

وقد بلغ عرب اسبانيا درجة عظيمة من الترف وأبهة الملك .

ولعل ذلك مايسمونه الآن « رد فعل » . فقد كانوا فى خشونة من العيش ، بعيدين عن كل رفاهية ، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه ، ورأوا مدينة الأمم الأخرى وملكوا العالم ، أرادوا أن يتناسوا تلك الخشونة البدوية ، فتشبهوا بالدول العظمى . وكان العربى بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة لأنها هى التى كونت فكره وادراكه وتصوره ، وأوحى إليه هذه المعانى الشعرية . وقد رأى ذلك كله فى البلاد التى فتحها . فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والآبهة والترف . فاهتم ببناء القصور الضخمة ، والابنية المشمخرة ، وحياسة الاشياء النفسية ، ولبس الحلل الفخمة المزركشة ، وامتلاك الاوانى الذهبية والاثاث المرصع بالاحجار الكريمة ، وغلبت عليه طبيعة السخاء ، فكان يجود بالهدايا الثمينة ، ويستعين بالأموال .

فقد روى عن عبد الرحمن الثانى أنه كان له جارية اسمها طروب أغضبها مرة فهجرتة ونزلت مقصورتها . فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها . وأراد أن يسترضيها فأعياه ذلك فأرسل مع خاصة خصيانه من يكرها على الوصول اليه . فأغلقت بابها فى وجوههم وآلت أن لا تخرج اليهم إلا طائعة ولو انتهى الامر إلى القتل . فانصرفوا وأعلموا الامير بذلك واستأذنه فى كسر الباب عليها . فنهاهم وأمرهم بسد الباب من خارج بيدراهم . ففعلوا وبنوه عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلها على أن لها جميع ماسد به الباب . فأجابت وفتحت الباب فانهاالت البدر فى بيتها فأكبت على رجليه تقبلها وحازت المال .

وقد اتخذ عبد الرحمن الثماني القصور والمنتزهات ، وجلب اليها
الماء من الجبال وأقام الجسور ، وبُنيت في أيامه المساجد الكثيرة
 والمدارس . على ما كان عاينه من الكلف باللهو والميل إلى الجوارى .
أعطى جاريته حلياً قيمته مائة ألف دينار فقبل له إن مثل هذا
لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك فقال إن لا بسه أنفس منه
وكان ملك عبد الرحمن الناصر بالأندلس في غاية الفخامة والضيافة
كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له ، فقد أمر أن يتلقوا أعظم تاق وأنخمه
ورتب الناصر لحجابه رجالاً من الموالى ووجوه الحشم وصاروا
إلى قصر منية الحكم ولى العهد ، وكانوا ستة عشر رجلاً لربيع دول
لكل دولة أربعة رجال ، ورحل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر
قرطبة لوفود الروم عليه فقعده في بهو المجلس الزاهر ، وحضر الوزراء
على اختلاف مراتبهم ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء
الوزراء والموالى والأمرء . وقد بسط صحن الدار بعثاق البسط
وظللت أبواب الدار وحناياها بظلال الديباج ، ورفيع الستور ، حتى أن
رسل ملك الروم عند ما وصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك
ونخامة السلطان وقدموا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية وفيه
وصف هدية عظيمة أرسلت إلى الناصر

وامتدت الثروة والابهة إلى الحجاب والوزراء . فقد أهدى أحمد بن
عبد الملك بن شهيد الذي استوزره الناصر هدية لسيده ، وقال فيها ابن
خلدون : إنها تدل على ضخامة الدولة الاموية واتساع أحوالها . وقالوا
إنها عبارة عن خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل

من التبر ، وخمس وأربعين ألف دينار من سبائك الفضة ، واثنى عشر رطلا من العود الهندى ، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ، وثلاثين مثقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات وعشرة أفرجه ، من غالى جلود الحيوان الخرسانية ، وغير ذلك وكثرت القصور والمساجد وغيرها من الابنية العامة إلى درجة عظيمة فقد كان عدد الدور فى قصر قرطبة أربعمئة دار ونيفا وثلاثين وكان عدد دور الرطبة مائه ألف وثلثه آلاف دار ، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف ، وبلغ عدد المساجد سبعة وثلاثين وثمانمئة وثلاثة آلاف ، وعدد الحمامات سبعمئة

الغناء ومجالس الادب

أما مجالس الغناء واللهو فقد غصت بها المحافل ، وشغلت أكثر أوقات الشعراء وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل ، وفتحت عليهم أبوابا من الخيال ، وزاد فى الاقبال عليها ميل الخلفاء والأمراء وأهل الظرف والادب والنساء الشواعر ، فقد كان عبد الرحمن الثانى مولعا بالسماع مؤثرا له على جميع لذاقه

جاءت صناعة الغناء الى الاندلس من المشرق ، لأنها كانت وهى فى أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناصجة ، ومن أكبر وسائل السرور والتسلى . واستأذ المغنيين فى الاندلس زرياب (أبو الحسن على بن نافع مولى المهدي العباسى) ، قدم الى الاندلس بأمر الحكيم ابن هشام المتوفى سنة ٢٠٦ هـ . ولما أخبر بوفاة الحكيم قبل وصوله إلى الاندلس هم بالرجوع ، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم

يذكر تطلعه اليه وسروره بقدمه عليه . وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويرافقوه الى قرطبة . وأمر خصيا من أكابر الخصيان أن يتلقاه ، فدخل هو وأهله البلد ليلا ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وكتب له في كل شهر بمائة دينار راتباً ، وأن يجري على بنيه الذين حضروا معه عشرون ديناراً كل شهر لكل واحد منهم ، وأن يجري على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مد . وأقطعته من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار . ولما استدعاه الى مجالسه وسماع غنائه ترك كل غناء سواه ، وأحبه حباً جماً : وقدمه على جميع المغنين وشرفه بالاكل معه ، لما علمه من فضله وأدبه . وكان زرياب مغرماً بفنه ، حتى انه كان يدعى أن الجن كانت تعلمه ، فكان يهب من نومه فيدعو بجاريته ، غزالات وهنيدة فيأخذان عودهما ، يأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ويكتب الشعر ؛ ثم يعود عاجلاً الى مضجعه . وزاد زرياب في أوتار العود وترا خامساً اختراعاً منه ، وزيادة على الصناعة القديمة . وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الاغاني بألحانها . قالوا وهذا العدد من الألحان هو غاية ما ذكره بطليموس واضع هذا الفن . واختص بنوع من الصناعة في تعليم الغناء وضرب العود ؛ صارت منهجاً لمن جاء بعده ؛ وكان عالماً بكثير من العلوم والفنون ، ادباً ظريفاً ؛ حسن الحديث والمسامرة ؛ وكانت له جارية اسمها متعة أدبها وعلمها أحسن أغانيه . وعرفت حمدونة ابنته باتقانها هذه الصناعة .

وأخذ عن زرياب الغناء كثير من الرجال والنساء
وكانت محالس اللهو والطرب غاصة بغناء الأشعار والرقص
والراقصات ، وفي جميع البلدان أصناف من الملاحى والرواقص المشهورات
بحسن الانطباع واللعب بالسيوف وغيرها ، كما كان من بين المغنين
كثير من كبار القوم ، مثل عبد الوهاب بن حسين الحماجب ، « الذى
كان وحيد دهره فى الغناء الرائق ، والادب الرائع ، والشعر الرقيق ،
واللفظ الانيق . ورقة الطبع ، واصابة النادرة والنشبية المصائب . ،
وكان قد قطع عمره وأفنى دهره فى اللهو والطرب ، وهو أعلم الناس
بضرب العود »

كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال :

« انتظم من اخوانك أترك الله عقد شرب يتسابقون فى ودك ،
ويعاطون ريحانة شكرك وحمدك ، وما منهم إلا شره المسامع الى رنة
حمامة ناد ، لاحمامة بطن واد . والطول لك فى صلتنا بحماد ناطق ،
قد استعار من بنان لسانا ، وصار لضمير صاحبه ترجمانا . وهو على
الاساءة والاحسان لا ينفك من ايقاع به ، فى غير ايجاع به ، فان هذا
عركت اذنه وأدب . وأن تأنى واستوى بعيج بطنه وضرب . لازلت
منتظم الجذل ملتئم الامل »

هذا كله يدل على حسن الذوق ، ورقة الطبع ، اذ كلما أمعن
الانسان فى فنون الجمال دل على رقة ذوقه . ولو أن العرب عرفوا شيئا
من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم فى فنون التمثيل واختراع القصص
ولكنهم قنعوا من ذلك بما كان لهم فى مجالس الأدب والغناء واللهو

والشرب التي تفنن الكتاب والشعراء في وصفها ،
واشتتات أغاني الأندلسيين على كثير من أغراض الشعراء ؛
فكانت تشمل مدح الأمراء ، ووصف القصور والحدائق ، والخيول
والفرسان ، ومجالس الشرب في الولائم . وغير ذلك من الموضوعات
الكثيرة المختلفة ، التي نشأت من أحوال الاجتماع هناك ، وأوحى بها
إلى نفوس الشعراء تلك الحياة الاجتماعية ، وطبيعة البلاد وما بها من
رغد في العيش ، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربي .
وقد كانت أغاني العشاق تدل على أثر المرأة في النفوس والاجتماع .
لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعة وأثر ظاهر في الحركة العقلية ،
بل كانت تسابق الرجال فتسبقهم أحياناً ، واشتهر عدد عظيم من النساء
في الشعر والأدب كما هو معروف . ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة
قلبية أو نفسية لا غير ، بل كانت صلة احترام وإجلال ، لظهورها في
ميدان الجد والعمل ، واشتراكها مع الرجل في أحوال الاجتماع ؛ ولا أثرها
في مجالس الأدب وفنونه . وكان ذلك في أكثر طبقات النساء . فقد
كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة
للأخبار ، طالمة بضروب الأدب . وكانت العبّادية جارية المعتمد أديبة
ظريفة ، كاتبة شاعرة ، ذاكرة لكثير من اللغة . معدودة من علماء
اشبيلية . فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها في أوربا ، وحبها ممزوجاً
بشيء من الوجد والإجلال معاً . وازدانت مجالس الغناء بالغانيات المطربات
من الجوارى وغيرهن ، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال في هذه
الصناعة ، وأكثرهن وافد من المشرق . كالغنية فضل التي اشترت

من المدينة للأمير عبد الرحمن الأول . فقد نشأت في بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه ، واشتهرت في هذا الفن شهرة عظيمة . وكان يؤثرها عبد الرحمن على غيرها لجودة غنائها وكانت قمر جارية إبراهيم بن حجاج الاعمى صاحب اشبيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالخان ، قالوا وجلبت اليه من بغداد وجمعت أدباً وظهر فأورواية وحفظاً ، مع فهم بارع وجمال رائع . كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والاقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب .

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الافكار ، وأنخم مظاهر الجمال ، وأجمع أنواع الأدب واللاه والجد والهزل ، ومظهر الحياة العقلية والاجتماعية . والشعراء فرسان هذا الميدان . والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليبه المختلفة البايغة . وكان الشعر نشوة الشارب وغناء الراقص ، ومؤدب النفوس وزاجرها ، وسلوة الفقير والغنى ، ومعزة الشريف والسوقي ، وكانوا جميعاً على فهمه أقدر ، وعلى الاقبال عليه أسبق ، وكل اذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته ، لانه كل مظاهر الحسن والجمال في مجالس الخلفاء والامراء . كذلك كانت روعة تلك المجالس في الشعر وبلاغة الكلام . وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتاب ، والعمال وجباة الاموال والمستعملون في أمور الدولة ، والخلفاء أنفسهم ، وكثير من أولادهم ونسائهم ومن يحضر مجالسهم . فبرع أهل الأندلس في فنون الادب والشعر براءة شهد لهم بها جلة الناس وكانت مجالسهم لذيذة ومحاضرهم فكهة . والشعراء كثير ما تحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار .

« حضر أبو عامر بن شهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبي عامر
بقرطبة فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر
على خدمتهم الى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ في تقويض خيام
الظلام . وكانت تسمى أسياء ، فعجب الحاضرون من مكابذها السهر
طول ليلتها على صغر سنها . فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالا .

أفدى أسياء من نديم ملازم للـكؤوس راتب
قد عجبوا في السهاد منها وهي لعمري من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب
ومن البداة في المجالس أيضاً ورسوخ ملسكة الأبداع في النفوس ،
ما قيل عن ابن شهيد هذا ، وذكره ابن بسام . « از جماعة من أصحاب
ابن شهيد قالوا له يا أبا عامر ، انك لآت بالعجائب وجالب بذوائب
الغرائب ، ولكنك شديد الاعجاب بما يأتي منك ، هاز لعطفك عند
النادرة ، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا ، وكان الذي
طلبوه منه زبدة التعنيت ، لان المعنى اذا كان صلفاً ثقيلاً على
النفس ، قبيح الصورة عند الحس ، كات الفكرة عنه وان كانت
ماضية ، وأساءت القرينة في وصفه وان كانت محسنة . وكان ما في المجلس
باب مخلوع معترض على الارض ، ولابد أحمر ميسوط قد رصت خفافهم
عند حاشيته . فقال مسرعا

وفتية كالنجوم حسناً	كلهم شاعرٌ نبيلٌ
منفذ الجانبيين ماضٍ	كأنه الصارمُ الصقيـلُ
راموا النصراني عن المعالي	والغرب من دونها كليلٌ

فاشتد في أثرها فسيح
في مجلس زانه التصابي
كأنما بابهُ أسير
يراد منه المقال قسراً
تنظر من لبدة لدينا
كأن أخفافنا عابيه
ضللت فلم تدر أين تجري
فعبج القوم من أمره .

كل كثير له قليل
وطاردت وصفه العقول
قد عرضت دونه نذول
وهو على ذاك لا يقول
بحر دم تحتنا يسيل
مراكب ما لها دليل
فهى على شطه ثقيل

« ودخل الوزير أبو العلاء زهر بن الوزير بن مروان على الأمير
عبد الملك بن زرير في مجلس انس ، وبين يديه ساق يسقى خمرين من
كأسه ومن لحظه ويدي دُرّين من حبّابه ولفظه ، وقد بدأ خط عذاره
في صفحة خده ، وكل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده ، فسكّانه
بسحر لحظه أبدى ليلا في شمس ، وجعل يومه في الحسن أحسن
من أمس ، فسأله ابن رزين أن يصنع فيه فقال بديها

انضاعف وجدى اذا تبدى عذاره
وقد كان ظنى أن ميمحق ليله
فأظهر ضد ضده إذ وشت له
واستزاده فقال بديها .

وتم نخبان القاب منى اصطباره
بدائع حسن بهام فيها نهاره
بعنبره في ضحفة الخلد ناره

محيت آية النهار فأضحى
كان يعشى العيون نورا إلى أن
وكانت مجالس الأدب من بواعث قول الشعر ومجارات بعض

الأدباء بعضاً في ذلك . قالوا : « إن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بن أبي طامر وعنده صاعد اللغوى البغدادى ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية :

فالعامة تزهى على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فقام صاعد وكان مناقضاً له . فقال أسعد الله الحاجب الأجل ،
ومكن سلطانه ، هذا الشعر الذى قاله فد أعدده ، وأنا أقول أحسن منه
ارتجالاً . فقال له المنصور ، قل ليظهر صدق دعواك ، فجعل يقول من
غير فكرة طويلة :

يأيها الحاجب المعلى على كيوان
ومن به قد تنهى نحر كل يمانى
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

إلى أن قال :—

أنظر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكراً على ذرى الأغصان
والقضب تلتف سكرًا بميس القضبان
والروض يفت زهواً عن مباسم الأفحوان
والرجس الغض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا ر نفحة الريحان
قدم مدي الدهر فيها في غبطة وأمان

هذا أدل في جملة على مكنة الشعر في النفوس ، وأنه شيء من روائع القول وجمال الكون . وهذا من مميزات الشعر العربي ، وهي جمال الشعر الوجداني . لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة إلى عالم الأحلام والخيال ، حيث يذوق الإنسان السعادة ، وينسى آلام الحياة وكوارثها وذلك هو الغرض من فنون الجمال لا أننا إذا كنا في حاجة دائمة إلى الاتصال بالحقائق وإدراكها لفهم الأشياء فأننا كثيرا ما نكون أحوج إلى الابتعاد من ذلك .

« حضر أبو الطريف بن عبد العزيز مع ابن عمار الوزير عند المؤمنين في يوم جادت فيه السماء بطلها ، وأتبعته وبها بطامها ، وأعقب رعدا برقها ، وأنسكب دراكا ودقها ، والازهار قد تجلت من كمامها وتجلت بدر غمامها ، والأشجار قد جلى دماها ، وتوشحت بنداها ، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد ، نديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد ، إذا بفتى من فتيان المؤمنين أخرج لافصح ، مستعجم لا يبين ولا يوضح ، متمر تنمر الليث ، مشمر كالبطل الباسل عند الغيث ، وقد أفاض على نفسه درعا ، تضيق بها الأسنة ذرعا ، وهو يريد استشارة المؤمنين في الخروج الى موضع بعثه ووجهه اليه ، فسكل من صده عنه نهره ، حتى وقف إلى مكان انفراده ، ووقف بأزاء وساده فلما وقعت عين ابن عمار عاينه ، أشار بيده اليه وقربه واستدناه ، وضمه اليه كأنه تبناه ، وجد أن يخلع عنه ذلك العذير ، وأن يكون هو الساقى والمدير ، فأمره المؤمنين بخلعه وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه وقام يسقى على حكمه ورسمه ، فلما دببت فيه الحميا وسببت

غرامه بهجة ذلك المحيا ، واستنزلته سورة العقار ؛ من مرقب الوقار
قال :-

وهويته يسقى المدام كأنه	قر يدور بكوكب في مجلس
متأرجح الحركات تندى ريحه	كالغدن هزته الصبي بتنفس
يسقى بكأس في أنامل سوسن	وبدير أخرى في محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده	ومصرف القوس القصير المحبس
إياك بادرة الوغى من فارس	خشن القناع على عذار أملس
جهم وإن حسر القناع فأتما	كشف الظلام على النهار المشمس
يطغى وياعب في دلال عذاره	كلهر بدرج في الاجام المجرس
عنا بكأسك قد كفتنا مقله	حوراء قائمة بسكر المجلس

قلوا اجتمع المعتصم بن صمادح مع ندمائه يوما فبرز لهم وصيفة
متصرفة في أنواع اللعب والطرب . وكان هناك لاعبا مصرعيا فارتجل
أبو عبد الله بن الحداد :-

كذا فلتلح قمر زاهرا	وتجنى الهوى ناظرا ناظرا
وسيبك سيب ندى مغدق	اقام لنا هاليا هامرا
وأن ليومك ذا رونقا	منير الكنور الضحى باهرا
صباح اصطباح بامفاره	لحظنا محيا على سافرا
واللمعت فيه نجوم الكؤوس	فما زال كوكبها زاهرا
واسمعتنا لاعبا فاتنا	وأحضرتنا لاعبا ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيان	فتنظر ما يذهل الناظرا
ويحفظها ذيل سرباله	فتنظر طالعا فائرا

فظاهرها ينتنى باطنا وباطنها ينتنى ظاهرا
وثناه ثان لالعا به دقائق تثنى الحجبى حاراً
وفي سورة الراح من سحره خواطر دلت الخاطرا
إذا ورد الالحظ أثناءها فما الوهم عن وردها صادرا
ومن حسن دهرك ابداعه فما أنفك عارضها ماطرا
وسعدك يحتمل المغريات فيجعل غائبها حاضرا
يمثل ذلك كانت تنطق السنة الشعراء في تلك المجالس فيأتون
بالعجيب الرائع . وإذا وازنا بين مجالس الادب هذه ومجالس الغناء
هناك من حيث أثرهما في الشعر ، إذا لوجدنا ان هذه المجتمعات اكثر
أثرا وأكثر توليدا للمعاني في نفوس الشعراء وادعى الى قول الشعر
وابتكار الاخيلة لأن منظرا من المناظر أو رأيا من الآراء أو فتاة بجملها
أو كاسا بخمرها تحرك النفس وتدعوا الشاعر الى تصوير ما يرى أو
يشعر ، فيقول ما ولدته في نفسه تلك المؤثرات ، ولا شك أن هذا من
دواعي الاكثار في قول الشعر ، بل من دواعي إبداع أنواع جديدة
تغنى بها البلاغة ، لان كل ما يقال جديد مبتكر في نظر قائله ، وقد يكون
كذلك في نفس الحقيقة . لذلك كان أثر مجالس الأدب في الشعر
عظيما . وأكثر هذه الاشعار كانت في الاوصاف وهو مما يدخل في
باب التصوير للمحسوسات إذا لو كان المصور يصور بريشته وألوانه
فإن الشاعر يصور بريشته وبلاغته . ثم أوصافا للأشخاص والنفوس
وهو ما يدخل في العشق والاجتماع . ولقد غصت المجالس بهذين النوعين
وجرهم وصف الأشخاص الى الدخول في المجون من التمدح بذكر الخمر

والتغنى بها . وقد وصفوا الغلمان وجمال المرأة ورشاقتها وكل الاوصاف
التي تحرك الميول وتملأ العيون والقلوب كما قال بعضهم : —

ومهفف طاوى الحشا خنت المعاطف والنظر
ملا العيون بصورة تليت محاسنها صور
فاذا رنا واذا مشى اذا شدا واذا سفر
فضح الغزالة والغما مة والحمامة والقمر
وقد قال آخر : —

وشاديين ألما بي على مقة تنازعا الحسن في غابات مستبق
كأن لمة ذا من نرجس خلقت على بهار وذا مسك على ورق
وحكما الصب في التفضيل بينهما ولم يخافا عليه رشوة الخدق
فقام يدلى عليه الرثم حجته مبينا بلسان منه مطلق
هذا شيء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع في الاندلس

الثقافة في الاندلس وفي بلاد المشرق

اتصل العباسيون بالفرس ومن جاورهم ، وامتد سلطانهم في بلاد المشرق من أقاصي الصين والهند وتر كستان وخراسان إلى سواحل البحر المتوسط وجزره . ودخل أهل هذه البلاد في الاسلام واستعان خلفاء بني العباس بالفرس في إزالة دولة بني أمية فأصبح الأمر والنهي لأبناء الأكاسرة الذين قبضوا على ناصية الاجتماع وصاروا قادة الفكر ، وآل الأمر والنهي . وكان منهم العلماء والأدباء والوزراء والشعراء والكتاب وجاءوا بتراث آبائهم العقلي والاجتماعي فبذروه في الممارسة الاسلامية وفي عقول العرب ومن انتمى إليهم . وساعدوا الخلفاء في نشر ثقافة اليونان بالعمل على نقل كتبهم العلمية والفلسفية . كما عملوا على نقل علوم بعض الأمم الأخرى إلى لغة العرب واجتمع في بغداد العلماء والأدباء من كل أمة وصنف وكل مذهب ونحلة كما هو معروف حتى كانت قاعدة بني العباس مدينة كأنها دولية أو جامعة لجميع الأمم . فانتشرت الثقافة الفارسية واليونانية وصبغت العقول بهذه الصبغة الأجنبية ، وكان بجانب هذه الثقافة العلمية ثقافة عربية اسلامية .

قام بنشرها علماء اللغة والدين من العرب والعجم ، وامتزجت هذه بتلك ، فكانت هناك حياة علمية هي مزيج من أدب العرب وعلومهم ودينهم وأحكام شريعتهم ، وأدب الفرس وعلوم اليونان . وتولد من هذه الثقافة مذاهب أدبية واجتماعية وسياسية وفلسفية . حتى سرى ذلك إلى الدين وأصوله فأحدث هذا كله في الحياة العقلية الاسلامية

نوعاً من التخيُّط والاضطراب ، وكانت الصبغة الأجنبيَّة أظهر من
الصبغة العربيَّة في ذلك كله

أما في الأندلس فكانت الحال على غير ذلك ؛ فقد فتح العرب بلاد
الأندلس وكانوا هم قواد الجيوش وأمراء البلاد وأصحاب الأمر والنهي .
وقد أرادوا أن يؤسسوا لهم دولة عربيَّة خالصة من كل شائبة أجنبيَّة
لينافسوا دولة العرب الفارسيَّة في بغداد ، وملك بنى العباس الذين دمروا
ملك بنى أمية في ربوع الشام ونكّلوا بخلفائهم وأبنائهم أشد تنكيل .
وكان في نفوس العرب الأندلسيين حفيظة من الأُجانب الذين
أحلّوا الروح الفارسي محل الروح العربي في كل مظهر من مظاهر
الحياة العقليَّة والاجتماعيَّة

لهذا ؛ أراد حكام الأندلس من العرب وبخاصة بنى أمية أن يكون
ملكهم هناك عربياً خالصاً وأن تكون ثقافتهم عربيَّة اسلاميَّة
فعملوا على تحقيق ذلك ولم يحفلوا بآدىء الأمر بما كان بالبلاد
التي فتحوها وملكوها ، من ثقافة لاتينيَّة أو غيرها ، ولا بنقل شيء من
علوم اليونان وفلسفتهم ، وكان الذين يرحلون منهم إلى بلاد المشرق في
طلب العلم يأخذون عن علماء الدين واللغة لا غير كما كانوا يستقدمون
من بغداد وغيرها جماعة من أئمة الفقهاء وأهل الأدب « كأبي علي
القالي » الذي استقدمه عبد الرحمن الناصر لثريَّة ابنه الحاكم وتعاليمه
ولقد ألف القالي لعبد الرحمن كتابه « الأثمالى » « وكأبي الفرج الأصبهاني »
الذى طلب إليه عبد الرحمن نشر كتابه « الأثفانى » بالأندلس قبل نشره
في بغداد ، ووهبه على ذلك مالا عظيماً قيل انه مقدار ألف دينار .

« وكيعي بن يحيى الليثي » الذي رحل إلى مكة وأخذ الفقه عن الامام مالك وروى عنه الموطأ

وإذا كان أهل الأندلس يجارون المشاركة في العلوم والمعارف ويأخذون عنهم ذلك فقد كانت تلك المجارة مقصورة على علوم اللغة العربية ، والشريعة الإسلامية بادية الأمر لهذا بقيت ثقافة أهل الأندلس عربية إسلامية إلى أواخر القرن الخامس الهجري فكانت علوم اللغة والشريعة أساساً لثقافتهم كما كانت أساس الثقافة العالم الإسلامي في كل بلد كان للمسلمين فيه أثر علمي أو عقلي . وكان ذلك أشبه بالثقافة اللاتينية المنتشرة الآن في بلاد فرنسا وإيطاليا وإسبانيا التي سكانها من أصل لاتيني ، بل وفي بلاد روسيا وعند أمم الصقالية لاحتكاكهم بالفرنسيين وأخذهم عنهم الآداب والفنون كذلك كان العالم الإسلامي متأثراً بعلوم اللغة العربية وعلوم الدين فظهر ذلك في الحياة العقلية القومية للأمم التي دخلت في الإسلام كالفرس والترك وأمم البربر ، وأصبحت عقولهم وأخيلتهم عربية وأساليب التفكير لديهم عربية إسلامية وهذه أمة الفرس لم تظهر سطوتها الأدبية إلا بعد أن أساموا وتأدبوا بلغة العرب وعطروا عقولهم الآرية بعبير التفكير السامي وبالثقافة العربية . فان الشهامة التي هي أعظم أثر أدبي في لغة الفرس على ما نعلم نظمت في القرن الرابع الهجري : فقد نظمها أبو منصور محمد بن أحمد الدقيق المتوفى سنة ٣٦٥ من الهجرة وأتمها أبو القاسم المنصور الفردوسي المتوفى سنة ٤١١ هـ

فالثقافة العربية الدينية أساس كل التفكير الإسلامي . ولكن عرب

الأندلس على رغم ذلك كانوا أجمعين الأمم الناهضة تتطلع الى معرفة الحياة العقابية والعامية للأمم الأخرى حتى تجاريهم في ذلك أو تفوقهم إذا كان لابد من هذا ، فرغم تشبعهم بالثقافة العربية الإسلامية الخالصة وتعصبهم لهذه الثقافة ، كان من بينهم جماعة من علماء الطب النابغين وعلماء الرياضة والفلك الذين ذاع أمرهم في جميع الاصقاع وانتشرت مؤلفاتهم في كل بلد ، وكانوا مع ذلك شعراءً وكتاباً وعلماء في اللغة والأدب والشريعة . نذكر منهم الحفيد أبا بكر محمد بن أبي مروان بن زهر الطيب « كان حافظاً للقرآن ، سمع الحديث ، وأشتغل بعلم الأدب والعربية ولم يكن في زمانه أعلم منه بمعرفة اللغة ويوصف بأنه أكمل صناعة الطب والأدب ، وعانى عمل الشعر وأجاد فيه . وله موشحات مشهورة يغنى بها وهي من أجود ما قيل في ذلك ، وكان ملازماً للأمور الشرعية ولم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب » (طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٦٨) وكان أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجه أستاذاً ابن رشد « في العلوم الحكيمة علامه وقته وواحد زمانه ... وكان متميزاً في العربية والأدب حافظاً للقرآن ، وكان مع ذلك بارحاً في علوم الموسيقى وله كتاب في هذا الفن ، قالوا عنه « إنه في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي في المشرق وإليه تنسب الألحان المطربة في الأندلس التي عليها الأعماد) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ ، طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٨)

اشتغال أهل الأندلس بالفلسفة:

أما الفلسفة فقد كانوا أقل عناية بها من أهل المشرق كما قلنا لأنهم كما روى المؤرخون لم يكونوا من أهل الجدل الديني . إذ كان جمهورهم من أهل السنة كما ذكر ابن حزم فقال « أما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ولا اختلفت فيها النحل فقل لذلك معرفتهم في هذا الباب فهي على كل حال غير غريبة عنه » ومع هذا فلم تخلو مكاتبهم من كتب الفلسفة ولا جهل علماءهم دراستها ولا سيما بعد القرن الرابع ، فقد عرفها أهل الأندلس منذ غنى الحكم بن الناصر بجمع الكتب واقتناء النفيس منها . قال ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء : « فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من زمان الحكم مستجلبها ومستجلب غرائب ما صنف بالشرق ، ونقل من كتب الأوائل وغيرها فنضر الله وجهه ، (ح ٢ ص ٦٢)

وقال في ترجمة أبي بكر محمد بن الصائغ (توفي سنة ٥٣٣ هـ) وإنما انتهى النظر في هذه العلوم بهذا الخبر وبمالك بن وهب الأشبيلي فانهما كانا متعاصرين غير أن مالك لم يقيد عنه إلا القليل انذر : واضرب الرجل النظر ظاهراً في هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه لسببها (ح ٢ ص ٦٣) . وكان أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني المهندس الرياضي أول من جلب معه من المشرق رسائل أخوان الصفا « توفي الكرماني بسرقة سنة ٤٥٨ هـ وأكثر الأطباء المنجمين في الأندلس كانوا فلاسفة ، ولكن تعصب بعض الأمراء

وعامة العلماء على الفلسفة والفلاسفة ، جعل المشتغلين بهذا العلم يخفون اشتغالهم تجنباً لما عسى أن يالحق بهم من الأذى . حتى لقد كان كبار الفلاسفة ينكرون مؤلفاتهم ، كما قالوا « وأما كتب الفلسفة فامامها في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي وله فيها تصانيف جدها لما رأى انحراف منصور بن عبد المؤمن من هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن المنصور على هذا العلم بأشبيلية . وهو عام ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه اظهاره فلذلك تخفى تصانيفه » . (نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨)

وبلغ من كراهة المنصور هذا لعلوم الفلسفة أنه أمر أن تجمع كتب الفلاسفة من المكاتب وأن تحرق « وأنه قصد ألا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقياً في بلاده وأباد كثيراً منها باحراقها بالنار وشدد في ألا يبقى أحد يشتغل بشيء منها وأنه إذا وجد أحد ينظر بهذا العلم ، أو وجد عنده شيء من الكتب المصنفة فيه فإنه يالحقه ضرر عظيم » (طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٩)

من هذا يمكن معرفة الفرق بين ميول المسلمين العلمية والعقلية في الأندلس وفي بلاد المشرق وبين نوع التفكير هنا وهناك ، ويمكن التمييز بين الثقافتين وأيهما أقرب إلى حرية الفكر ونضجه . ولا سيما إذا وازنا بين خلفاء بني العباس في بغداد وملوك الأندلس من المسلمين . إذن لعلمنا بأن الاشتغال بالعلوم العربية والدينية في بلاد الأندلس كان وجهة جمهرة العلماء والمثقفين هناك . وأن الاشتغال

بالفلسفة كان من صفات خواص العلماء المفكرين . فلسنا نقول مع القائلين إن دراسة الفلسفة لم تقيم لها قائمة في بلاد الأندلس ولم يكن لها رجال قائمون بها ولا مؤلفات تضارع مؤلفات أهل المشرق في ذلك بل كان من فلاسفة المسلمين هناك من يحسب في مقدمة الفلاسفة كأبن الصائغ المعروف بابن باجه الذي كثر مؤلفاته في هذا العلم وشرح كتباً لأرسططاليس ككتاب الكون والفساد وكتاب الحيوان والنبات وكتاب السماعي الطبيعي وغيرها من الكتب التي ألفها في ذلك وكأبي الوليد محمد بن رشد فيلسوف الأندلس الذي شرح جوامع كتب أرسططاليس في الطبيعيات واللاهيات والمنطق وخلص له كتاب ما بعد الطبيعة وكتاب الأخلاق وكتاب البرهان وشرح كتاب السماء والعالم والنفس وغير ذلك من كتب أرسططاليس . وجالينوس . ومنهم ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ صاحب « الفصل في المال والنحل وابن طفيل وقد قالوا عنه أنه أعلم زمانه في الفلاسفة وهو من أساتذة ابن رشد وصاحب القصة المعروفة حتى بن يقظان » توفي سنة ٥٨١ هـ

التأليف والتدوين

لقد تبين مما سبقناه في الكلام عن الحياة العقلية والثقافة في بلاد الأندلس مقدار عناية العرب هناك بنشر العلوم والمعارف والاشتغال بها بما جمعه الحاكم المستنصر في مكتبة قرطبة وما بذل من المال في مساعدة العلماء والأدباء واشتغال الخلفاء والأمراء أنفسهم بالعلم

والأدب . ومن أجل ذلك أيضا كانت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس العظيمة مقصد العلماء والأدباء والوافدين إليها من بلاد المشرق وقد حلت خلفاء بني أمية في الأندلس خلفاء بني العباس في بغداد في العناية بالعلوم والآداب واتبع سبيلهم بعدهم ملوك الطوائف . فكثرت الوفود على بلاد الأندلس من العلماء كما كثرت رحلة أهل الأندلس إلى بلاد المشرق في طلب العلم فكان لهذا الاتصال أثر عظيم في ترقية الحياة العقلية ببلاد الأندلس . وقد عمل على ذلك العلماء الذين رحلوا من هنا وهناك . فمن رحل من الأندلس إلى المشرق عبد الملك بن حبيب السلمى القرطبي صاحب الكتب الشهيرة وشارح تفسير موطأ مالك (ولد سنة ١٧٤ هـ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ) . ومنهم الفقيه المحدث يحيى ابن يحيى الليثي الذي قرأ الموطأ على الإمام مالك ولازمه هناك (توفي يحيى بن يحيى سنة ٢٢٤ هـ)

ومنهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة ومنهم تقي بن مخلد صاحب التصانيف العظيمة في الفقه والحديث الذي روى عن مائتي رجل واتصل بالإمام أحمد بن حنبل . ومنهم الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي الذي رحل إلى بلاد المشرق فدخل مصر وأقام بالحجاز ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ . ومنهم الطبيب الشهير ضياء الدين أحمد بن البيطار المالقي الذي رحل إلى القاهرة وألف هناك كتابا جمع فيه تصانيف الأدوية وغيرها وسافر إلى بلاد الأغرقة وأقصى بلاد الروم والمغرب وعين منابت الغابات وألف كتابه بناء على تجاربه وقالوا عنه انه انتهت إليه

معرفة تحقيق النبات وصفاته

وممن وفد الى الاندلس أبو علي القالي صاحب النوادر على الاندلس في أيام عبد الرحمن الناصر مريبيا لابنه الحكيم وألف كتابه هناك ومنهم صاعد البغدادي اللغوي وفد الى قرطبة أيام المنصور بن أبي طامر . وألف كتابه النصوص فأثابه المنصور عاياه بخمسة آلاف دينار . ومنهم رزياب المغربي رئيس المغنين مولى المهدي العباسي تلميذ اسحق الموصلي الذي زاد في العود وترا ونشر الغناء المشرق ببلاد الاندلس .

الأدب واللغة : أما كتب الادب واللغة فن أشهرها كتب أبي علي القالي المتوفى (٣٥٦) وهي كتاب الامالي وكتاب النوادر . ومن الكتب النادرة كتاب العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨) وهو من أجمع كتب الادب المعروفة . وكتاب الذخيرة لابن بسام ، وهو كتاب جامع لذكر أدباء الاندلس وشعائهم ، يقع في أربعة أقسام . القسم الاول في أدباء قرطبة وماجاورها ، والثاني في أدباء الجانب الغربي من الاندلس ، والثالث في أدباء الجانب الشرقي والرابع في من طرأ على هذه الجزيرة من الادباء . وهذا الكتاب من أجمع كتب الأدب وأوفاهها لذكر أهل الاندلس وأخبارهم وشعرهم ونثرهم . ومن كتب الادب المعروفة كتاب قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان الاشبيلي المتوفى سنة (٣٣٥) وهذا الكتاب من أشهر وأجمع ما كتب عن أدباء الاندلس ولولا أنها مسجعة العبارة لسكانت من أجل الكتب في موضوعها ، ومن كتب الأدب المسهب في فضائل المغرب تأليف عبد الله بن

ابراهيم الحجارى . ومنها سراج الادب لابي عبد الله بن ابي الخصال
رئيس كتاب الأندلس . صنّفه على منزع كتاب النوادر لأبي على القالى
وكتب الأُدب التى فيها علماء الأندلس كثيرة لا تكاد تحصى .
اللغة والنحو : اشتغل أهل الأندلس بعلوم اللغة فزارع كثير
منهم أهل المشرق فى ذلك ، وبعضهم فافهم فى تأليف المعجمات العظيمة
كالأمام على بن اسماعيل المعروف بابن سيده صاحب كتابي المحكم
والمختص . وقد كان حافظا واعيا لكثير من قضايا اللغة ومفرداتها
ومسائلها ، وكان ضريرا كأبيه . «توفى سنة ٤٥٨» ومن علماء اللغة أبو
بكر الزبيدى الذى اختصر كتاب العين ، وأبو على القالى صاحب
الامالى وذيله .

وأخذ أهل الأندلس عن المشاركة النحو والرواية ، وكان فيهم
أئمة انفردوا بالتأليف فى بعض مسائله . فمن العلماء المشهورين فى ذلك
عمر بن محمد الشلوّين وكان من أئمة اللغة وحفاظها ، ولد بأشبيلية سنة
٥٦٢ وتوفى بها سنة ٦٤٥ ، ومنهم ابن مالك صاحب الألفية ، وابن
خروف وابن عصفور وغيرهم .

أما علوم البلاغة فلم يجاروا فيها علماء أهل المشرق ، ولم ينظروا
لهم تأليف خاص فى ذلك لأنهم اشتغلوا بالصناعة اللفظية وبخاصة
علم البديع وأنواعه .

العلوم الشرعية : كان أهل الأندلس يرحلون إلى المشرق ويأخذون
عن أئمتهم ، وكانت عنايتهم بالعلوم الشرعية لا تفوقها عناية . ولذلك
ظهرت لهم مؤلفات كثيرة فى الحديث والفقه والتفسير وكانوا على

مذهب مالك والاوزاعي ، وفي مدة الحكم بن هشام كانت الأحكام
سائرة على مذهب مالك ولم يعمل بغيره .

فن علماء التفسير أبو عبد الرحمن بن بقل بن مخلد القرطبي ، وكان
من الحفاظ والمحدثين (٢٢١ - ٢٧٦) وكان من أشهر أئمة الحديث في
الأندلس روى عن ألف وثلاثمائة راو ، ومنهم القاضي أبو محمد عبد الحق
بن عطية الغرناطي (٤٨١ - ٥٤٢) ومن أشهر كتبه . الوجيز في تفسير
الكتاب العزيز وهو من أجل كتب التفسير ومنهم القاضي عياض
إمام الأئمة في الحديث ولد بمدينة سبتة سنة ٤٧٦ وولى القضاء بها
وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤ . ومن أشهر كتبه كتاب الشفا لتعريف
حقوق المصطفى ، وطبقات الحاكمين ، ومشاهد الأنوار في غريب
الحديث . ومن الفقهاء عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي (١٧٤ - ٢٣٨)
كان فقيه عصره سكن قرطبة وزار مصر ثم عاد إلى الأندلس
وتوفي بها . وكان من كبار فقهاء مذهب مالك طالما بالتاريخ والأدب
ألف كتباً كثيرة منها طبقات الفقهاء وطبقات المحدثين وفتح سيرة موطأ
مالك . ومن أشهر الفقهاء هناك يحيى بن يحيى الليثي الذي ذهب إلى
المشرق والتقى بالامام مالك ورجع فنشر مذهبه كما سبق . ومنهم أبو
الوليد الباجي . وكان الفيلسوف ابن رشد فقيهاً أيضاً ألف في الفقه
كتاباً أسماه النهاية . وغير هؤلاء كثيرون .

أما علم الأصول ، وعلم الكلام فكانت أشغال أهل الأندلس بهما
قايلاً ، لتفرغهم إلى العلوم الشرعية الأخرى ، كالفقه ، والحديث ،
والتفسير وإلى علوم اللغة العربية ، وفنون الأدب ، فانهم لم يعنوا

عناية عظيمة بالجدل وعلوم الفلسفة ، والمذاهب الدينية التي شاعت في بلاد المشرق بسبب اختلاط المشاركة بالفريس ، وإطلاعهم على علوم اليونان وبعد أهل المغرب عن ذلك

وأما التاريخ : فمن المؤرخين أبو مروان حيان بن خلف (ولد سنة ٣٧٧ وتوفي سنة ٤٦٩) وكتابه المسمى بالمتين أو المبين في تاريخ الأندلس في عشر مجلدات

ومما ألف في الجغرافيا كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري ومعجم مما استعجم من البقاع والأماكن أيضا .
وللقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي كتاب التعريف بأخبار علماء الأئمة من العرب والعجم .

العلوم الرياضية والطب : وكان اشتغال أهل الأندلس بالرياضيات والطب والفلسفة أقل عناية من غيرها - كما قلنا - ، وظلوا على هذه الحال إلى أواخر القرن الرابع قال المقرئ في نفح الطيب « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ؛ فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يُتظاهر بهما خوف العامة ، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطاقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فان نزل في شبهة رجفوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة وكثير ما يأمر بأحراق كتبه إذا وجدت . وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن »

وهذا موجز لبعض المشتغين بهذه العلوم .

فمن أشهر المنجمين ابراهيم بن اذراحيل الاسرائيلي من رجال القرن الخامس الهجرى . ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصدًا لتحقيق نقطتى الرأس والذنب من الارض . ومنهم جابر بن أفلح الاشبيلي الذى اختصر كتاب المجسطى لبطليموس
ومن أئمة الفلاسفة أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد . تعلم فى قرطبة ودرس بها العلوم الشرعية والطب والفلسفة والرياضة والفلك حتى قالوا عنه أنه أول من تنبه للسفع على وجه الشمس وكتب وألف فيها .

وبعد أن درس فى قرطبة ذهب إلى مرا كش واتصل بأبى يعقوب يوسف أحد ملوك الموحدين وصار من اتباعه كما اتصل بالفيلسوف الشهير ابن طفيل ثم رجع إلى الاندلس تولى القضاء بقرطبة واشبيلة وتوفى سنة ٥٩٥ . وعن ابن رشد أخذ أهل أوروبا كتب الفلسفة اليونانية ودرسوها وقد كانوا يجهاونها قبله .

وكثير من هؤلاء كانت لهم قدم راسخة فى الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية .

ومن فلاسفة الاندلس ابو محمد بن احمد بن سعيد بن حزم ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ وتعلم علوم اللغة والدين حتى أصبح من كبار العلماء . وألف فى الحديث والأصول والفقه وعنى عناية خاصة بدراسة المذاهب الدينية وعقائد الامم ونحلهم فألف فى ذلك ومن أشهر كتبه كتاب «الفصل فى الملل والنحل» ذكر فيه مذاهب الفلاسفة وعقائدهم وسرد

مذاهب الطوائف الاسلامية وكان مع ذلك عالما وأديبا وشاعرا وكاتبا
توفي سنة ٤٤٦

وألف في الفقه والحديث ومراتب العلوم فكان اجمع اهل الاندلس
قاطبة للعلوم الشرعية

ومن كتبه كتاب اخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم

ومن الفلاسفة ابن باجه السرقسطي المعروف بابن الصائغ توفي
بمدينة فاس سنة ٥٥٣ وكان طبيبا شهيرا مولعا بالموسيقى ووضع الألحان
وهو من أكابر العلماء في الفلسفة والرياضة والطب والموسيقى. ومنهم
ابن طفيل الذي كان معاصرا لابن الصائغ. ويقولون إنه أول من قال
بتدرج الحيوان إلى إنسان، وهو صاحب الرسالة الشهيرة التي سماها
« حى بن يقظان » ومن تلاميذه أبو الوليد محمد بن رشد المذكور آنفا
وقد ألف ابن طفيل في الطب وخص بعض مؤلفات جالينوس في
الأمزجة والعلل والحميات.

ومن أطباء الأندلس بنو زهر وهم : أبو العلاء بن زهر وابنه
أبو مروان عبد الملك، وأبنته أبو بكر. وعبد الملك هذا هو صاحب
كتاب التيسير، وكتاب الأغذية اللذين كانا لهما شهرة عظيمة في
المشرق والمغرب

ومن المشتهين بالعلوم النباتية ابن البيطار واحد أهل عصره في
معرفة النبات، سافر إلى بلاد الأغر يق وأقصى بلاد الروم والمغرب،
 واجتمع بكثير ممن يعاونون هذا الفن، وكان منابته وتبحره. ومنهم أبو
القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى سنة ٥٠٠ من الهجرة، كان

أشهر أطباء زمانه ؛ صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف .
وهو أول من ألف في فن الولادة ، ورسم في كتابه آلات الجراحة .

النثر في الأندلس

كان الشعر في أكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر . ولذلك
كان الشعراء أشهر من الكتاب . لأن البلاغة في الشعر أظهر ، والأخيلة
فيه أبين ؛ وقراء العربية كانوا إلى التأثير بهذه الأساليب والصناعة
أقرب . وكانوا يفهمون من الأساليب ما لا يفهمون من الموضوعات
ومعانيها وأغراضها .

ومع أن النثر كان أقل من الشعر انتشاراً من حيث الاعتماد عليه في
الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم ؛ فقد تنوعت مناحيه ؛
وظهرت له مذاهب وطرق ، كذهب ابن المقفع وطريقته ، ومذهب
الجاحظ وأسلوبه ؛ وطريقة ابن العميد والحريري ؛ وغيرهم كما هو معروف
أما في الأندلس فقد دخل العرب هناك بعصبية هم العربية ؛ ونفوسهم
تغلي كالمرجل من جراء الفتن والاحقاد التي انتشرت ببلاد المشرق ،
فاشتغلوا بالفتح ومد ساططهم ونشر الدعاية لحكمهم ودينهم ، وقع الفتن
والتغلب على أعدائهم ، وبث الحماسة في نفوس الجنود والقواد . بل كانت
هناك فتن ثار عجاجها بين الأمراء ، وبالفاتحين ؛ ايقظتها الاطماع والضغائن
بين القبائل اليمنية والمضرية مدة حكم الأمراء في الأندلس . فكان كل
هذا مدعاة لاستفزاز النفوس ؛ لالقاء الخطب الحماسية وكتابة الرسائل
على نحو ما كانوا يكتبون ويخطبون في بلاد المشرق . فلم يكن للكتابة

الفنية مجال طيال عصر الامراء وشطر عظيم من عصر الدولة الاموية فكانت الكتابة مقصورة على الرسائل والخطب السياسية ، وكانت هذه هي أنواع النثر ، لان القوم لم يكونوا قد اشتغلوا بعد بالعلوم ولا بأنواع الآداب الاخرى التى تفسح المجال للكتابة الادبية كالقصص والرسائل المنمقة ، كما كانت الحال منذ أواخر القرن الثانى .

وكان لكل وال أو أمير كاتب يتولى الكتابة ويكتب بأرشاد سيده ، وكانت أساليبهم جزلة رقيقة كما كانت الحال فى بلاد المشرق . قال المقرئ : « وأما الكتابة فهى على ضربين : أعلاها كتب الرسائل ، وله حظ فى القلوب والعيون عند أهل الاندلس ، وأشرف أسمائه : الكاتب ؛ وبهذه التسمية يخصه من يعظمه فى رسالة ... والكاتب الآخر كاتب الزمام ... الخ » ومن كتاب هذا العصر أمية بن يزيد كاتب الأمير يوسف الفهرى الذى كان واليا قبل عبد الرحمن الداخل . وقد كتب أمية لعبد الرحمن أيضا ، ومنهم أبو عثمان عبد الله كتب لعبد الرحمن الداخل أيضا ؛ وكان عبد الرحمن نفسه كاتبا ،

وكان أسلوب الكتابة فى العصر الاول عربيا خالصا من كل شائبة اعجمية ، لآن الكتاب من أمراء ووزراء كانوا عربا خلصا لم تتطرق العجمة إليهم لعدم اختلاطهم بالأعاجم : وعدم تأثيرهم بغير علوم العرب وآدابهم ، فكانت كتاباتهم جزلة سهلة غير متكلفة خالية من الفاظ التعظيم والتبجيل والملق ، قايمة السجع إلا ما كان عفوا أشبه بما كانت تكتب فى عصر بنى أمية ببلاد المشرق .

ومن نماذج الكتابة فى هذا العصر « كتاب يوسف بن عبد الرحمن

الفهرى إلى عبد الرحمن الداخل وهو :

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأشب من تأشب
إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الايمان
المؤكدة ، الى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعينه عليهم ،
ولقد كانوا معنا في ذرا كنف ، ورفاهية عيش . حتى غمطوا ذلك واستبدلوا
بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض والله من ورائهم محيط ، فأنا كنت
تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك
وأصل رحمتك ، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله
وذمته على ألا أغدرك ، ولا أتمكن منك ابن عمى صاحب أفريقية
ولا غيره ، »

وكتب بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده ، وقد هجره .
« أما كان جزائى فى قطع البحر وجوب القفر ، والافدام على
تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر الذى أهاننى فى عيون
أكفائى ، وأشمت بى أعدائى ، وأضعف أمرى ونهى عندهم يلوذبى ،
وبتر مطامع من كنت يكرمنى ويخذمنى على الطمع والرجاء ، وأظن
أعداءنا بنى العباس لو حصصت بأيديهم ما بلغو بى أكثر من هذا . فأنا لله
وإننا إليه راجعون »

فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غضبه ووقع عليها :

« وقفت على رقعتك المنبثة عن جهلك وسوء خطابك ، ودناءة
أدبك ، ولئيم معتقدك . والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك
عندنا متاناً ، أثبت بما يهدم كل متات مشيد . بما تمن به ، مما قد أضجر

الاسماع تكرراره ، وقد حمت في النفوس إعادته ، مما استخرننا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك . وزدنا في هجرتك وإبعادك ، وهضمنا جناح إدلالك . فلعل ذلك يجمع منك ، ويردعك حتى نباغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى فنحن أولى بتأديبك عن كل أحد ، إذ شرك مكتوب في مثالينا ، وخيرك معدود في مناقبنا .

وكتب المنذر بن الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى أبيه يستعطفه وكان قد نفاه إلى مكان موحش لسوء خلقه وكثرة إصغائه للوشاة :-

« إني قد توحشت في هذا الموضع توحشاً ما عليه من مزيد . وعلمت فيه من آنس إليه ، وأصبحت مسلوب العز ، فقير الأمر والنهي . فان كان ذلك لذنوب كبير ارتكبتها . وعامه مولاي ولم أعلمه ، فاني صابر على تأديبه ، ضارع إليه في عفوه وصفحه :

وإن أمير المؤمنين وفعله لكدهر لا طار بما فعل الدهر

ومنذ أوائل القرن الثالث أخذ خافاء بني أمية يفسحون صدورهم للعلماء والأدباء والشعراء مجازاة لخلفاء العباسيين في بغداد ، فكثر الوافدون من بلاد المشرق إلى الأندلس من أهل العلم والأدب ، ووفد كثير من أهل الأندلس إلى المشرق لورود مناهل العلم هناك ، وأيسعت معالم الحضارة في الأندلس وكثرت المدارس والمسكاتب كما رأينا . وديت الترف في كل مرافق الحياة . وكثرت مجالس العلم والأدب ومظاهر اللهو والطرب والمجون ، فضيغت العقول بصبغة فنية أدبية بما نقل هناك من علوم وفنون ، وما كان لديهم من جمال

الطبيعه ومظاهر الحضارة . فأحدث هذا كله نوعاً جديداً في التفكير والادراك، وتهذيب الشـ ر وسعة الا^لخيـلة. وتمثل ذلك كله في الكتابة فسالت أقلام الكتاب بمظاهر هذه الحياة، ودخل النثر في طور جديد لأن كل هذا كان عاملاً من عوامل التجديد في شـجـد ملكة الكتابة الفنية التي لم تعرف قبل ذلك هناك، إذ بعد أن كان النثر مقصوراً على المراسلات والخطب السياسية لا غير انتقل الى طور جديد

فلم تقتصر الكتابة المثرية على الدواوين والرسائل ، قصيرة كانت أو طويلة . مـسـبـجة أو مرسلة . في العشق والغرام . أو في الذم واللوم ، أو في المدح والاستعطاف وغير ذلك مما ظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات الممتعة ، والمعاني العامة الاجتماعية ، بل شـمـلـتـ كل شـئ في الاجتماع هناك، وكان^{المنـ}مـظـاهـر لتلك المدنية والحياة^{المنـ}التـغـلـية والسياسية والعامة. وكان أثره في الأدب والبلاغة كأثر الشعر، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب . كوصف المباني الفخمة من مساجد وكنائس ، وقصور وآثار ، وما فيها من صور وتماثيل . وكوصف الأشياء الجميلة التي غنموها أو عملوها بأيديهم. ووصف محافل الأُمراء والخلفاء وأبهة الملك. والمجادات والخصامات، ومجالس العلم والأدب وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية، بشكل قصصى ، كما في رسالة « حى بن يقطان » لابن طفيل^ع وكتابة الحقائق في أسلوب قصصى خيالى ؛ كما في رسالة الوزير أبى عامر أحمد بن مروان بن شهيد، التي هي من نوع رسالة الغفران، وكالمسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية ، كرسالة أبى محمد بن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من

علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين ، وسرد فيها آثارهم ومؤلفاتهم . ثم تلك الرسائل الفريدة في بابها التي هي من نوع رسائل ابن زيدون . ثم كتابة الفتح بن خاقان . ولسان الدين بن الخطيب وما يشابهها مما لم يكن مثله كثيراً في بلاد المشرق ، بل بعض هذه الأنواع لم تكن معروفة

وكانوا يصفون في كتاباتهم نفوس الكبراء والأمرء والتواد ، كما كتبوا في المناظرات الخيالية ، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الاصغر . وكالمناظرة بين بلدان الاندلس لابي بحر صفوان بن ادريس التي كتبها للأمير عبدالرحمن بن السلطان يوسف بن عبدالمؤمن . وكما كتبوا في الدعوات والارشاد والتوسل إلى الرسول : وفي شعائر الحج . وكانت لهم أساليب في الزهد والأسرار الربانية . عرف الكتاب كيف يتعبدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف ، « من فلك المعرفة في الملكوت ، ونجوم الحكمة في الجبروت ، وحياة القدس . ولباس التقوى والصراط المستقيم » وغير ذلك من ألفاظ الغيبيات وأساليب ما وراء المادة . وفي جوار ذلك تجدهم برعوا في أساليب اللهو والمجون ، كما بعث بعض الكتاب بآثرجة وكتب معها كتابا يقول فيه :

« قد بعثت إليك من بنات الثمار أجملها ، ومن نتائج البستان أفضلهما ، فشربت على وردها رطلين ، وتناولتها بالراحتين ، فبحرمة الكأس التي رضعناها ، إلامارفعت قدرها ، وجعالت القبول مهرها ، وجعلتها على مجلس المدام ، وحجبتها عن عيون اللثام ، فخصالها عجيبة . وصفاتها غريبة ، إن خزنتم عطرت أثوابك ، وإن أمسكتها أذهبت أوصابك ، إن أعملت فيها غرب السكين ، قرنت لك بين النرجس والياسمين وأرتك الكشب عن

وجه الحبيب . يالها من أترجة غضة ، قد صورت من ذهب وفضة .
رقت من العاشق سباه ، ومن المعشوق طعم ثناياه »

ولهم عبارات تحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكلف السائغ
للنفس تذوقه ، مثل قولهم « خرج الوزير أبو بكر بن عمار مع الوزير
أبي الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من أشبيلية إلى منظر
لبنى عباد بموضع يقال له الفت . تحف به مروج مشرقة الأنوار ، متبسمة
الأنجاد والأغوار ، متبسمة من ثغور النوار ، في زمان ربيع سقت
الأرض السحب فيه بوسيمها ووبلهما ، وحلتها من زاهر ملبسها وباهر
حليها ، وأرداف الربى قد نازرت بالازار الخضر من نباتها . وأجباد
الجدول قد نظم النوار قلائده حول لباتها . ومجر الزهر تعطر أردية
النسائم عند هباتها . وهناك من البهار ما يزهى على مداهن النضار
ومن النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الاجفان . وقد نوا الانفراد لاهو
والطرب ، والتزه في روضي النبات والأدب . وبعثوا صاحباهم يسمى
خليفة هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم ... الخ »

وبرعوا كذلك في فن المقامات . ولأبي حفص عمر بن الشهيد :
فصول جيدة في ذلك ، تشبه ما عند الفرنجة الآن ، أو يشبهها ما هو عندهم .
وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة في انتقاء الألفاظ المعاني ، وأمعان
في الصنعة وضروب الخيال ، كقول أبي حفص بن الشهيد :

« وقد صحبتكم مدة . وسبحت الله على رؤوسكم مرارا عدة ، أوقفكم
بالاسحار وأوذن بالليل والنهار ، وقد أحسنت لدجاجكم سفادا : وربيت لكم
من الفراريج أعدادا ، فالآن حين بلى في خدمتكم تاجي . أنعى إلى دجاجي .

وتنحى الشفرة على أوداجي. وحين أدركني المشيخ، يمزق لحمي ويطيخ.
يا للكرام من ذل هذا المقام، وجعلت دموعه تسفح من دمه. والحزن
يطبق على فمه. ثم غشى عليه. فاجتمعت الناس إليه، يضربون وجهه
بالماء. ويخلصون له في الدعاء، ثم أفاق من غشيته. وأنشد:

علام يقتل شيخ من كل ذنب برى
محقق متحد موحد منى
هل نص هذا كتاب أو قال هـ ذا نبى
لا ذنب لى غير أنى مؤذن بدوى

فرقت له نفس القوم. وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم. فقال
ويحكم، إن هذا الديك ذو نخذ وصدره قد أصابتنى عليه ضجرة
ولى فى ذبحه سر، ولا بد أن تزين به قدر، وتضرم تحته النيران، ويشبع
من لحمه الضيفان. أما ترونه قررة العين والقلوب، سبيكة لجين. وتمثل
ومن شيتى مهما تزين منزلى ^{لهذين} ^{معد} ^{لضيق} أن أقرئه أحسن ما عندى
لو أن دى خمرأ لأرويته به ولو صلحت كبدى شويت له كبدى
بذلك أوصانى أبى مذ عقلته وقد كان أوصاء بذا قبله جدى
فقال الديك: لا أكذب. الحق طريق مستبين، واتباعه مروءة
ودين. أما أنه على خاق عظيم، كريم ابن كريم. غير أنه لو لم فى أمرى
وأفرط وغلط ما شاء أن يغلط. أما علم أن هرما الديوك، ليست من
مطاعم الملوك، وأنها بالادوية أشبه منها بالاغذية وأقسم لو اتخذ
برمة من فؤاد مهجور، ووضعنى من مثله على تنور، لأقضى به حاجة

ولا عدم منى فقرا ومجاجة . فزكى قوله من حوله ، ولم يألوه تعظيما ،
واتخذوه من ذلك لليوم حكيمًا ، وأصرف البدوى من الطافه ، ما أحسن
منه قرى أضيافه ، وختم توبة بره ، بالرغبة فى بسط عذره وسمعنا منه
ورحلنا سحرا عنه . . . إلى أن قال

فأصغيت فاذا انا بصوت ناقوس فى دير قسيس ، وقرية كلها حانة
دار البطاريق : وماعب الكأس والاباريق . ساءمتها خنازير وحياضنها
المعاصير : ومياها الأنبذة والخور . وشكلها مثلث مسطوح هندستها
حوارى نباتها غصون من قدود تهتز فى أوراق من برود . وتثمر رمانا
من نهود وتفاحا من خدود ، وعقارب من أصداغ . وأفاعى من أسورة
وعقود ، وفيها مدام من رضاب . وشفاه من كواعب أتراب ، وغيد
تهوى بقرط ، وارتجاج لكثيب فى مرط ، وجولان النطاق ، وعض
الخخال فى ساق ، وخنث فى ألفاظ ، ومواعيد بالحاظ ، وقلوب تكلف
وتشغف ، ونفوس ، تنشأ . وأخرى تتلف . فلما كثر تحدثنا بحضرة
الفقيه من هذا التشبيه ، قطبنا له وجوه الاستكراه ، وعضضنا له الشفاه
فبينما نحن كذلك نكثر لغطا ، ونرى الحلول بالمستحسن غلطا ، إذ
نظرنا إلى أطراد صفوف من أعطاف حسنة ، وخصور هيفه ، وشموس
وأقمار ، على أفلاك جيوب وأزهار : لاسيوف إلا من مقل ولا درق إلا
من عجل . ولا عارض إلا من خلوق ، وأقسم بنعة قدود من الأجز متم
النية ، وثنيتم الاعنة ، تمرىجا علينا إلبنا ، وتحكما فى المال والولد لدينا .
فكرمت الشفاعة ، وقانا السمع والطاعة . »

وتجد لهم كلاما مسجعا هو من السهل الممتنع مع رقة فى اللفظ

وجزالة في المعنى ، وطولا لا يمل ، وصراحة في القول ، وحرية في الفكر
كما في رسالة لابن الحداد :

« لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقضاء ، وصقال لاصماء وعقال
الأدواء ، وسميتني منه بوسام ، ولفحتني منه بسوم وأمررت حسوا
في ارتغاء ، وأدعجت ذما في ثناء ، والحر يأنف من الضيم . ويشمئز من
الذم . ولا يقتصر على الاجتزاء ، بغير الجزاء ، ولو ترك القط ليلا لنام
وفي العتاب حياة بين أقوام . فاصطبر لشرب صبره . وانتدب لتسوغ
مره . فن الحكم العدل والقضاء الفصل . أن الذعك بما لذعتني
وأجرعك ما جرعتني . غير آفك في حال . ولا مباغت بمحال . والتمويه
ليس خلق الكاذب النبیه . والحر على ما أساء يصبر . وكل مجر في الخلاء
يسر . والفضل ان حواه . لا ان زخرف دعواه . وتحقيق البرهان ،
غير تنميق البيان . والسؤدد في محاسن الخلال والفعال . لافي امكان
الزمان ، وإقبال السلطان . وقيمة كل امرئ ما يحسن . أمثال أضربها
عليك واضحة المناهج . ومقدمات أنشأتها معك ، صادقة النتائج وجمل
تشتمل على تفصيل حالينا ، ونبد تشير إلى ما فيه جرينا . وقد قابلني
عتابك . واجلابك . بريح تعصف ورعد يقصف ، واستقبلني خطابك
وأطنابك بوبل يخسف . وسيل ينسف . بلغ الزبي وزاد . وغمر الزبي
والوهاد ... الخ »

وأحيانا تجدهم وصلوا إلى درجة في النثر لا تفرق بينها وبين الشعر
إلا في الوزن وقواعد العروض ، كما في رقعة شفاعة كتبها أبو المغيرة
عبد الوهاب بن حزمي : « إذا شرب روض الشكر من حوض البر ، وأطلع

من الزهر ما ينجبل مسك الغرر . وتذسم عن نسيم، يشفى حرارة القلوب
الهميم، ولم يزل يجرى خلف الطلب ، بيد الادب ، ويسرى في ظلام
الأمور بسراج المنظوم والمنثور .. الخ » الذخيرة جزء « ا »

ومن السجع الجميل والأساليب المزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب
ابن بسام في الذخيرة وترجمته الأدباء والشعراء . كقوله في ترجمة ابن
شهيد : « كان أبو طاهر شيخ قرطبة وفتاها . ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاتها
ينبوع آياتها ، ومادة حياتها وأسانها ومعنى أسمائها ومسمياتها . نادرة
الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار . ان هزل فسجع الحمام ، وإن جد
فزئير الاسد الضرغام . نظم كما انشق الدر على النحور ، ونثر كما خلط
المسك والكافور .. الخ . »

ونجد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبي الفني ، أنوعا من
الرسائل الطويلة المسجوعة سجعاً متكلفاً مملاً ، مملوءة بالعمل ، كثيرة
الصناعة ، قابلة المعاني . وإمام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب .
والفتح بن خاقان طريقته معروفة في كتبه حتى أصبح السجع طابعا
من طوابع الأدب العربي في الأندلس وتسلل الفقهاء مناهب الخطابة
والكتابة . فنفعوا الأدب بنفحة جافة جف من أجلها عوده ، حتى
كسر أو كاد يكسر . وبلغ هذا منتهاه في أيام ابن تاشفين :

~~وعلى الرغم من شرف الأندلس فإنه لم يخرج عن صبغته~~
~~العلمية وهي الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية . فإن الكتاب~~
حاولوا كما قلنا طرق الموضوعات العامة كالقصص والحكايات الخيالية
كما في رسالة لابن شهيد على لسان الأوزة، والمناظرات وغيرها، وابتكروا

هذه الأساليب في النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات في الشعر .
أما طول الكلام والاطناب فيه ، فيتأد يكون عاما في جميع
كتاباتهم . وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البحتة ، والافتنان
في التصور والخيال ، وبعضه ممل سقيم ، يدل على تمكن الصناعة لا غير
في نفوس الكتّاب والعناية بالألفاظ والسجع ، بل يدل على انحطاط
ملكة البلاغة ، كما في كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح
ابن خاقان وغيرهم من الكتّاب .

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالأندلس ، ودخوله
البلاد بخطبة طارق بن زياد ، التي قلنا أنها أول صوت سمع هناك من
بلاغة العرب وأول غرس من غرسها . فهذا كان نموذج النثر والخطابة
في تلك الأيام إلى أواسط دولة بني أمية . لأن الوافدين جاءوا من المشرق
إلى المغرب ، والدولة عربية في بيت بني أمية ، وروح البلاغة العربية
البدوية كانت تجول في نفس كل خطيب وكاتب وشاعر فالذين هاجروا
إلى بلاد الأندلس في الأزمنة الأولى كانوا لا يزالون أعزّاباً في أفكارهم
وأخيلتهم وأساليبهم . ولذلك نجد النثر في تلك المدة يشبه كثيراً نثر
الأمويين في المشرق ، وخطبائهم في الأندلس أشبه بخطبائهم في الشام .
وببلاد العرب . ولما كثروا وافدون على الأندلس من المشرق نقلوا إليها
طريقة النثر المسجوع ، والصناعة اللفظية ، والتنميق في الكتابة .
وسرى هذا في كل أغراض الكتابة ، حتى في الكتب الفنية والعلمية ،
من تاريخية وغيرها . ومن تراجم للعلماء والأدباء ، ومن كتب جديدة
وهزلية ونعود فنقول كان النثر في الأندلس يشتمل على أكثر ما كان

معروفا في بلاد المشرق من الموضوعات أو الأغراض بل قد يمتاز ببعض هذه الأغراض الخيالية كالمحاورات بين الأزهار بعضها بعضها وبين البلدان في تفضيل بعضها على بعض وقد يكون هذا النوع من خواص الأندلسيين أو من مبتكراتهم ، كما جاء ذلك في رسائل أبي حفص بن برد الأصغر . فنجد في نثر الأندلسيين الرسائل السياسية والاجتماعية والقصص الخيالية . التي تحاكي المقامات والمحاورات وغيرها مما جاء في رسائل ابن شهيد .

ومن أشهر كتاب الأندلس أمية بن يزيد كاتب يوسف الفهري . آخر أمراء الأندلس قبل الدولة الأموية وعبد الله بن عثمان كاتب عبد الرحمن الداخل والوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز كاتب المنصور بن أبي عامر . والوزير أبو حفص أحمد بن برد كاتب المنصور .

ومن أشهر الكتاب زمن ملوك الطوائف الوزير أبو عمر الباجي وأبو محمد بن عبد البر . وأبو الوليد بن زيدون وممن كتب للملك البربر ، الوزير أبو المطرف بن الدباغ والوزير أبو عبد الله بن أبي الخصال أشهر كتاب الأندلس في وقته وأبو المطرف بن عميره والفتح ابن خاقان ومن أشهر الكتاب لآخر دولة المسلمين هناك لسان الدين ابن الخطيب . وزير وكاتب السلطان أبي الحجاج يوسف أحمد ملوك بني الأحمر وابن زمرك تلميذه .

الخطابـة

تـحسب الخطابة في الادب العربي من أنواع النثر المعروفة . بل قد تكون في بعض العصور النوع الوحيد الذي عرف من الكلام العربي المنشور الموثوق بصحة روايته ، كما في العصر الجاهلي . وقد يكون أكثرها وأعمها وأعظمها تمثيلا للغة العرب ونوع التفكير لديهم كما في العصر الاسلامي الأول وعصر بني أمية وزهاء مائة عام من أيام بني العباس . وكل زمن من الأزمنة التي ساد فيها نفوذ العرب والروح العربي والنصرة العربية انتشرت فيها الخطابة ولا سيما أيام الفتح واستثمار روح العصبية في ذلك . لأن العرب أهل فصاحة وبيان . فكانوا يتخذون الستهم عدة وعونا . فكانت الخطابة في مقدمة أنواع الكلام تزامم الشعر ويزاحمها في الوصول الى قرارة النفس والاستيلاء على العقل . حتى أن الادباء عندما أرادوا أن يقسموا كلام العرب الى منظوم ومنثور جعلوا من أنواع المنشور الخطابة وقدموها على القصص ، بل لم يذكروا القصص في هذا التقسيم . للملازمة الخطابة لهم في فتوحاتهم ومجاسمهم ومحافلهم .

*
* *

فلما دخلوا الاندلس كانوا أحوج ما يكونون الى الخطابة لبث روح الشجاعة والحماسة في روح الجند ، وايقاظ العصبية العربية والتفاني في سبيل نشر الدين وسعة الملك . كما رأينا ذلك في الخطبة المنسوبة الى طارق بن زياد .

وقد أنتشر هذا الروح الخطابي زمن الفتح مدة الولاية وفي عصر الدولة الاموية لاحتياجهم الى الخطابة في هذه العصور في ميادين الحماسة والمحافل وأستقبال الوفود . وكان من بين الخطباء من الولاية يوسف بن عبدالرحمن الفهرى ، ومن ملوك بني أمية عبدالرحمن الداخل وعبد الرحمن الثانى . وكان محمد المنصور بن ابى عامر المعافرى (توفى سنة ٣٩٤) من مشهورى الخطباء . ومن أشهر الخطباء قاضى قرطبة منذر بن سعيد البلوطى . (توفى سنة ٣٣٥) كان خطيب عبد الرحمن الناصر ، ومنهم ابو عبد الله بن الفخار قاضى مالقه زمن يوسف بن تاشفين وغير هؤلاء كثير ممن كان بعضهم من الولاية أو القضاة أو الفقهاء أو الادباء .

ولم ينحط أمر الخطابة في بلاد المغرب إلا قبل زمن البرابرة ، حين أخذت العصبية العربية . وانتشرت العجبة على الألسنة . وساءت الصناعة في الكلام ، ولم يعد هناك حاجة لها ، واقتصر منها على الخطب في المساجد .

وجملة القول أن الخطابة مرت بأدوار ؛ فكانت أول الأمر ترمى إلى تأييد العصبية وبث الشجاعة في نفوس الجند ، ولما اتسع ملك بنى أمية هناك ، وذاعت العلوم وانتشرت المناظرات في المجالس والمحافل أمام الخلفاء من بنى أمية ، والأمراء من ملوك الطوائف نشأت أغراض أخرى في الخطابة . ولما ملك البربر الأندلس انحط شأنها لجهل هؤلاء باللغة وانطفأ شعلة الحماسة العربية في النفوس ؛ ولم يكن هناك غير خطباء المساجد .

وبعد أن كان أساليبها جزلة سلسلة أصبحت متكافة مسجعة العبارة على أثر انتشار السجع في أساليب الكتابة النثرية الأخرى . وأكثر الخطب المعروفة لا تحسب في شيء من التفكير الصحيح ، ولا من الكلام الجيد ، ولا من الأدب الناضج ، ولا من أساليب الكتابة الفنية .

وليس لدينا ما يدل على عظم أمرها ، ولا على حلولها المحل الذي كانت لها في بلاد المشرق في أي عصر من عصورها هناك : إذ ليس لدينا شيء من كلام الخطباء يدلنا على ما كان لها من منزلة أو شأن رفيع في الأدب العربي ؛ ولم يعرف أحد هناك بأن مكانته في ذلك كانت أشبه بما كان لأبي بكر أو عمر أو علي ، أو معاوية أو الحجاج أو زياد أو أبي العباس السفاح أو المأمون ؛ أو غيرهم من مشهورى المشرقيين ، في أي دولة من دول الإسلام وأكثر من اشتهر من خطباء الأندلس كانوا من الفقهاء لا من الأدباء والفصحاء ؛ وربما كان أشهرهم جميعا منذر بن سعيد البلوطي ، وكلامه يدل على بعده عن تذوق البلاغة ، وأنه ليس من رجال الأدب أو الفصحاء .

وهذا شيء من خطبته في حضرة عبد الرحمن الناصر غند وفود ملك الروم إليه ، وقد ارتج على غيره من الخطباء لهيبة الموقف ؛ فقام سعيد بن منذر وقال هذه الخطبة وهي من الخطب الطويلة التي تدل على روح ذلك العصر في الخطابة وأسلوبها المتكاف الذي هو أول ما يدل على روح الفقهاء وآرائهم قال .

« أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلئه والشكر لنعمائه

والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادثة مقاما ولكل مقام مقال وليس بعد الحق إلا الضلال ، وأنى قرقت فى مقام كريم ، بين يدي ملك عظيم ، فاصغوا إلى معشر الأئمة بأسماعكم ، وافقهوا عنى بأفتدكم ، ان من الحق أن يقال للمحق صدقت والمبطل كذبت وان الجليل تعالى فى سمائه وتقدس بصفاته واسمائه ، أمر كليمه موسى صلى الله على نبيينا وعاليه وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم ، وتلافيه لكم بخلافه أمير المؤمنين التى لم تشعركم ، وآمنت سربكم ، ورفعت قوتكم بعد أن كنتم قليلا فكثرتم ، ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم . ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتقليد ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمين سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم بالله معاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ، وثغور المسلمين مهتزمة فخماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدا على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم . فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقتها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يكل ذلك إلى القواد والاجناد حتى بأشبه بالقوة والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان وهى الأوطان ورفض الدعة وهى

محبوبه وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبه وريح هابة غالبة ونصرة من الله واقعة واجبة وسلطان قاهر وجد ظاهر وسيف منصور تحت عدل مشهور متحملا للنصب مستقلا لما ناله .

ومن خطبة لأبي عبد الله بن الفخار يشكو بعض الخارجين أمام يوسف بن تاشفين .

« إنه ل مقام كريم نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه ، ونصلي على خيرة أنبيائه محمد الهادي إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحبه نجوم الليل البهيم :

أما بعد فأنا نحمد الله الذي اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الخفيف نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك ممادهمنا في حماك ، ونبت إليك مالقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك . ويأبى الله أن يدهم من احتسى بأمر المسلمين . ويصاب بضيم من أدرع بحصنه الحصين بشكوى قت بها بين يديك في حق أميرك الذي عضده مؤيدة لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده . وأن قاضيك ابن الوحيد الذي قدمته في مالقة للأحكام ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام . لم يزل يدل على حسن اختيار بحسن سيرته . ويرضى الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريته ما علمنا عليه من سوء ، ولادرينا له موقف خزي ، ولم يزل جارياً على ما يرضى الله ويرضيك ويرضينا ، إلى أن تعرض بنو حسون إلى الطعن في أحكامه ، والهدم من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدم راجع إلى المقدم بل جمحوا في لجأهم فعموا وصموا وفعلوا وأمضوا ما به هموا . وإلى

السحاب يرفع الكف من جف عنه مسيل عين ونهر ، فكف يد بني
حسون عنه » .

الشعر في الاندلس

العرب يميلون إلى جمال القول ويقصدون إلى حسن العبارة والاستيلاء
على النفوس بسحر الكلام . وكان العربي شاعراً بطبيعته . وكانت الفصاحة
والبلاغة مظهر الحياة النفسية العربية ودليلاً على جهود العقول وآثارها
وكما نزل العربي بمكان بذر بذرة الشعر فيه وتعمدها بالنمو ، فلما نزل أرض
الأندلس غرسها هناك ، فنمت في تلك الأرض الخصبة ، فكانت
كالزهرة الطيبة العرف لقحت بأصل آخر نضير الطلعة ؛ فظهر فيها أريج
الطيب ونضارة اللون . ذلك مثل الشعر العربي في بلاد الاندلس .
جاء الشعر بلاد الاندلس بصيغته الأولى البدوية ، وما لبث أن
أخذ صبغة جديدة باتساع التصور ، واختلاف المناظر ، والاطلاع على
كثير من العلوم والآراء ، فشم كل مظاهر الأفكار ومرافق الحياة .
ولكن كثيراً ما كان الشعراء يرجعون في أساليبهم وأفكارهم إلى
الأساليب والأفكار البدوية ، لأن العرب من أشد الأمم عصبية
وحينئذ إلى وطنهم وعيشتهم الأولى . إذ رغم ما كان في نفوسهم من الاثر
الذي اكتسبوه من تلك البلاد ، وما حصل لهم من الحياة التي لم يكن
لهم بها عهد في بلادهم ؛ كانوا لا يزالون إلى أخيلتهم الأولى ، ولم
يكن لهم أن يهجروا عاداتهم ، لأن العجب والخيلاء ، اللذين كانا لهما
السلطان على عقولهم ، جعلاهم — حتى في تلك البلاد البعيدة ، وحتى

الصفات العامة
للشعر

بعد عدة قرون من انتجاعهم اياها — يتغنون بذكر بلادهم ، ويتخذون الشعر القديم نموذجا لهم في الصناعة والخيال .
والذى يقرأ الشعر الأندلسى يجده أخال الشعر فى بغداد ، بل وفى بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة ، والموضوعات التى كانت عند القدماء

على أن شعر الأندلس يمتاز فى جهاته عن الشعر العربى بما فيه من المعانى المبتكرة الجميلة ، التى كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع ، والكلام الرشيق ، والذوق النقى ، والافتنان فى أساليب الخيال ولأنه يدل على حياتين ويرسم صورتين من أحوال العربى: فبينما ترى الشاعر يصبو الى ذكر بلاده الاولى من حياته البدوية ، تجده يذكر الرياض ، والبساتين والازهار ، والانهار ، والمياه الجارية ، وظلال الاشجار والنسيم العليل ، والآراء العامة والخاصة ، وأحوال الاجتماع والعادات هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة ، هذا كله فى الشعر . لان الشعر كان مسرح العقول من جد وهزل وصور الحياة النفسية والاجتماعية . ولبت منتشرا زهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الاصليين كالقوط وغيرهم . وقال الشعر كثير من الأمراء . وسابق النساء الرجال فى ذلك فكان أحيانا يسبقنهم ، وعنى الناس هناك بالشعر عناية عظيمة فكانوا ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة واتصل بالحوادث العامة الاجتماعية . وكان من وسائل الرقى ، ومن دواعى السلم والحرب ، وفك اسر المسجونين ، والعفو عن المجرمين .

ولم تكذ تخلو رسالة نثرية من الشعر ، حتى سرت عدوى الوزن والقافية الى النثر . وانتشرت طريقة السجع في جميع المكاتبات ، وهي محلاة بأبيات من الشعر ، حتى في الكتب العلمية ، ومكاتبات الحكومة واجازات السفر . وكانت صناعة الشعر لازمة ، وروايته واجبة لمن يريد أن يندمج في حواشي الملوك . فقد كان الادباء يجتمعون في حضرتهم للانشاد والمسابقة في ذلك ، كما كانت الحال في حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته ممن جاء بعده من الملوك والامراء الذين كانوا يجرون المراتبات والجوائز على الشعراء .

وقد قال « فرنسيسكو فيلامباسا » شاعر الأسبان لهذا العهد :
« لم يصب شعب من موهبة الشعر الالهية بقدر ما أصاب الشعب العربي منها . فكان من ولوعه بالشعر ومن ثقافته التواقفة إلى الحرية والبطولة ماوسم شعره بطابع خاص كان شعاره منذ ظهوره . وما انتصار الاسلام الباهر إلا انتصار للشعر العربي أيضا . وسيطر إبان انتصاراتهم على أرقى شعوب الارض وامتزجوا بهم ، فأخذ عنهم المصريون والبيزنطيون والرومانيون مناحى جديدة بدأت منذ ذلك الحين تسود خشونة شعرهم القديم ، ولم يتعد هذا التأثير الخلابة في التركيب والتلاعب بالالفاظ . وظلت القصائد العربية القديمة سليمة لم يطرأ عليها فساد القلوب ، ولا تصرفت بها الألسن على هوى الرواة . فكانت كالارث الثمين يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وظل بدو الصحراء رعاة النجوم أو في الشعوب خبرة في تخير الأخيصة ، وأوفرها غنى بالمادة الشعرية ، ولم تهيأ للشعر العربي في عامة الاقطار التي اكتسحتها

العرب قربة أصلح من تربة الأندلس ، ولا زها في بلد من البلدان
زهوته في هذا البلد .

قال « وكان قواد العرب أولا ومن بعدهم الخلفاء والامراء مثالا
للشعب في بث الفكرة الأدبية في الأندلس العربية ، تكاد لا تستثنى
منهم واحدا لم يخلد اسمه بقصيدة . غرام أو حماسة منذ أنشأ عبد الرحمن
الأول تحية الوطنية الممتعة التي خاطب بها النخلة الأولى التي غرسها
بيده على ضفة النهر الكبير ، إلى أن أنشد أبو عبد الله على ضريح مريم
موشحته المشجية راصفا قوافيها بلفظات قلبه المنفطر الدامى . وإن أنس
لأنس المعتمد آخر ملوك أشبيلية ، وفي رأى أن شعره أجلى منال
لشعر العربي ، إن لم يكن بجماله ، فبالتشاؤم الذى فيه ، وبالشؤم الذى
رافق حياة صاحبه ، وكان حلقة من سلسلة الأبطال الذين تأواهم
القدر في مختلف أدوار التاريخ .

ونسج الاشراف على منوال سلاطينهم ، فنمت رياض الأدب
الغنائى ، وأزهرت في ظلال السيوف فتفتشت عدوى الاشتغال بالأدب
العربى بين أساقفة النصارى ممن استعربوا فى ذلك العهد ، فراحوا
يقرضون الشعر باغة عربية عالية ، وهو لعمري حدث وحيد من نوعه
فى التاريخ . وفاضت أرض الأندلس الممرعة بلوم الاسلام وآدابه التي
عممت العالم ، وقامت النفوس التواقفة إلى العرفان فى أقاصى البلدان ،
تبرد شفاهها الظمأى وترشف ينايع الحب والسلام المتفجرة من الشعر
العربى فى قرطبة وطليطلة أولا ، وأشبيلية وغرناطة آخرا ونظام سلفه
الثانى بآبارومية قصائد عربية لها أوزانها وقوافيها .

وظلت اللغة العربية لغة التقاليد في الحب والعلم والشعر في كل من صقلية وبروفنس وإيطاليا وبيزنطية بل في قلب بلاد ألمانيا . ورافق الشعر جيوش العرب الفاتحين وسفنهم الظافرة ، وواكبت قوافيه قوادم ، فكانوا يولجونها في الصدور على سنان الحراب ، ناشطين لاذاعتها نشاطهم لاذاعة سور القرآن الكريم . ولم يكن جل أناشيد طبقاته القديمة وكثير من أغاني شعراء الولايات الجوالين غير قصائد عربية لشعراء الأندلس ، أدخل عليها بعض التطور ، وبقيت محتفظة بأثر الروح الشرقى . وبالعربية نظم الإمبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية مقاطيع ممتعة ، وجمع في بلاطه رهطا من علماء الإسلام وشعرائه ليستخدم ذريعة يبعث بها في ملكه ما كان للأدب العربي من بهاء في دمشق وبغداد وقرطبة وإشبيلية . وهي المدائن الأربع التي كانت في ذلك العهد قبلة أنظار النهضة الأدبية في العالم أجمع ، وقد اتضح للباحثين من المعاصرين أن في شعر دانتى الذى هو نخر أمته بأسرها ، مأخذ صريحة مردودة الى الأدب العربي .

وقد كان لنشاط العرب العقلى وصفاء قرائحهم في قول الشعر ما كان لهم من العلوم والفنون ، بل زاد ذلك في الشعر لما لهم من ميلهم الفطرى اليه والافتنان فيه . فقد وسع كل شيء من أحوالهم الاجتماعية والنفسية . فكانوا يصفون الكبراء والعلماء ، ويدحونهم بعبارات جميلة رقيقة ، أكثرها خال من المبالغات . ويثبثونه شكواهم وآلامهم ، ولهم قصائد في التقرب الى الله ومدح الرسول عليه السلام ، والزهد والتصوف والرثاء ، ولهم أشعار رقيقة في المزمح والتهكم والمجون :

أغراض الشعر

كما في قصيدة قاضي الجماعة بغرناطة أبي عبد الله بن علي بن الأزرق
نذكر منها شيئاً على سبيل الفكاهة قال :

عم باتصال الزمن	ولاتبالي
وهو يواسي بالرضا	من سميج أو حسن
أو من عجوز تحتطى	والظهر منها منحني
أو من مليح مسعد	موافق في الزمن
مهما تبدى تحده	يبدولك الورد الجنى

* *

أفدى صديقا كان لي	بنفسه	يسعدني
فتارة أنصحته	ونارة	ينصحني
وتارة ألغنته	وتارة	يلعنني
وربما أصفعه	وربما	يصفعني
أستغفر الله فـ	ذا القول	لا يعجبني
يأليت هذا كله	فيما مضى	لم يكن
أضحكت والله بذا	حديث من	يسمعني
دهر تولى وانقضى	عني كطيف	الوسن
يأليتني لم أره	وليته	لم يرني
دنست فيه جانبي	وملبسى	بالدرن
وبعت فيه عيشتي	لكن	بيغت الثمن
كأنتي ولست أد	رى الآن	ماكأنتي

والله ما التشبيه عند الشاعر بهين

*
*

ومنها

هل أمتطى يوما الى الـ شرق بطون السفن
وأجتلى ماشئته في المنزل المؤمن
حينئذ أخلع في هذى القوافي رسي

*
*

ومنها

هل لا تريد عودة الى قد شوقي
تغوص فيه أنملى غوص الاكول المحسن
ولى الى الاسفنج شو ق دأىم يطربنى
وللارز الفضل إذ تطبخه باللبن
وللشواء والرقا ق من هيام أنثنى

*
*

ومنها

إيه خليلي هذه مطاعم لكننى
أعجب من ريقك إذ يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شعبا فذكرها أشبعنى
وإن تكن جوما يا صاح فكل بالأذن
فليس عند شاعر سوى كلام الألسن
يصور الاشياء وهى أبدا لم تكن

فقله يريك ما ليس يرى في الممكن
فاصميح وسامح واقتمنع واطوحشاك وأسكن
* *

وقد نظموا التاريخ وحوادثه . وبرعوا في وصف الابنية الفخمة
ومافيه من الصور والاشكال والزينة ، ووصف القصور والحدائق
ومجالس الشرب واللهو والغناء والرقص . كقول الشاعر :

يأرب ليل قد هتكت حجابها بزُجاجة وقادة كالكوكب
يسعى بها ساق أغن كأنها من خده ورضاب فيه الاثنب
بدران ، بدر قد أمنت غروبه يسعى بيدر جانح للمغرب
فاذا نعمت برشف بدر طالع فأنعم بيدر آخر لم يغرب
حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرّة ررب في مشرب
والليل منحصر يطير غرايه والصبح يطرده بياز أشهب
* *

ووصفوا التنزه بالليل في ضوء القمر ، والأشجار وغصونها ، والرياح
وهي تعبت بها وظلمها الظليل ، وأشعة القمر على الجداول ، وصفاء الجو ،
والفاكهة والأثاث والمساكن ، والقصور والصور . كقول الشاعر :

قصر بمدرجة النسيم تحدث فيه الرياض بسرهما المستور
خفض الخورنق والسدير سموه وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية وأقام في روض من الكفور

غنى الربيع به محاسن وصفه فافتقر عن نور يروق ونور
فالدوح يسحب حلة من سندس تزهى بأؤلؤ طامسا المنثور
والنخل كالغيد الحسان تقرطت بسبائك المنظوم والمنثور
والرمل في حبيبك النسيم كأنما أبدى غصون سواف المذخور
والبحر يرعد متنه فكأنه درع نشن بمعطى مقرر
وكأننا والقصر يجمع شملنا فى الأفق بين كواكب وبدور

*
*

ومما قاله شعراء الاندلس فى هرم مصر « قيل إن جماعة من
الشعراء خرجوا متنزهين إلى الاهرام ليروا عجائب مبانيها . ويتأملوا
ماسطره الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها
فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسى .

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا على ما رأيت عيناك من هرمى مصر
أنافا بأعناق السماء فأشرفا على الجواشرف السماك أو الدسر
وقد وافيا نشزا من الارض عاليا كأنهما نهدان قاما على صدر
وصنع أبو منصور صافى الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وأنظر وبينهما أبو الهول العجيب
وقيض البحر عندهما دموع وصوت الريح بينهما نجيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب تخلف فهو محزون أشيب
(نفع ج ٢ ص ٢١٠)

*
*

ومن مراسلاتهم الظريفة ماروو ان الوزير أبا طامر أصطحب
يوما والجوسماكي العوارف ، لازوردي المطارف . والروض أنيقة
لباته رقيقة هبانه ، والنور مبتل ، والنسيم معتل ومعه قومه ، وقد
رقمهم يومه والراح تشعشع ، وماء الاماني ينشع ، فكتب إلى ابن عمار
وهو ضيفه .

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت في ودي مسراً ومعلنا
فاو تسأل الأيام من هو مفرد بواد ابن عمار لقات لها أنا
فان حالت الأيام بيني وبينه فكيف يطيب العيش أو يحصل المنى

*
* *

فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول واعتذر بعذر مختل
المعاني والفصول فقال أحد الحاضرين إنني لأعجب من فعود ابن عمار
عن هذا المضمار ، مع ميله الى السماع وكلفه بمثل هذا الاجتماع ، فقال
ذو الرياستين : أن الجواب تعذر فلذا اعتذر لأنه يعانى قوله . ويعلمه
ويرويه ولا يرتجل ، ويقول في المدة الممتدة فرأى أن الوصول بلا جواب
أخلال لأدبه وأخلال في الشعر ورتبه . فلما كان من الغد ورد ابن عمار
وخصه الجواب وهو .

حصرت لى الآمال طيبة الجنى	وسوغتنى الأحوال مقبلة الدنى
والبستني النعمى أغض من الندى	وأجمل من وثى الربيع وأحسننا
وكم ليلة أحظيتنى بمحورها	فبت سمير للسناء وللسنى
أعلل نفسى بالملكارم والعسلا	وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل ذكرك كلما	تعاورت الاسماء غيرك والكنى

لاُوسعتنى قولا وطولا كلاهما يطوق اعناقا ويخرس إلسنا
وشرفتى من قطعة الروض بالتي تنائر فيها الطبع ورداً وسوسنا
تروق بجيد الملك عقداً مرصعا وتزهوا على عطفه رداً مزينا
قدم هكذا يافارس الدست والوغى لتطعن طوراً بالكلام وبالقنا
(نفتح ج ١ ص ٣١٣)

*
*

ومما جاء فى الوصف الجميل قول ابن شهيد يصف روضاً .
وروض كساه الطال وشيا مجدداً فأضحى مقيماً للنفوس ومقعداً
إذا صاحفته الريح خات غصونه رواقص فى خضر من القطب ميدياً
إذا ما انسكب الماء طابت خلته وقد كسرتة راحة الريح بدداً
وإن كنت عنه حسبت صفاءه حساماً صقيلاً خافى المتن جوداً
وغنت به ورق الحمام بيننا غناء ينسيك الغريض ومعبداً
فلا تجفون الدهر مادام مسعداً ومد إلى ما قد حباك به يداً
ونخذها مداماً من غزال كأنه إذا ماسقى بدر تحمل فرقداً
(ج ١ ص ٣١٣)

*
*

ومن أخيلتهم الجميلة أنه كان فى دار محمد بن اليسع شاعر الدولة
العامرية وردة وكان يهدى وردها كل عام إلى طارض الجيش احمد بن
سعيد فغاب العارض منه فقال :

قال لى الورد وقد لا حظته فى روضتيه
وهو قد أينع طيباً جمع الحسن لديه

ابن مولاى الذى قد كنت تهدينى اليه
 قامت غاب العام فأثس أن ترى بين يديه
 فبدا يذبل حتى ظهر الحزن عليه
 ومن أوصافهم الجميلة قول ابن الزقاق يصف روضا .

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح
 زرتها والغمام تجلب منها زهرات تريك لون الراح
 قلت ما ذنبها فقال مجيبا سرقت حمرة الحدود الملاح

* *

ووصفوا التماثيل وبرك المياه وأوانى الأزهار . كما قال بعضهم فى
 دائرتين من ورد وياسمين :

يا حسنَهَا دائرة من ياسمين كالخلى
 فالورد قد قابلها فى حلة من خجل
 كعاشق وحبّه تغامزا بالمقل
 فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجل

* *

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه
 وتكلموا عن الغلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة
 ومجالس اللهو والشرب والرقص . كما قال ابن شهيد :

هاك شيخا قاده السكر لسكا قام فى رقصته مُستهاكاً
 لم يطق يرقصها مستتبها فأنثنى يرقصها مستمسكا

حاقه عن هزها منفرداً نقرس أخنى عليه فأتكا
 من وزير فيهم رقاصة قام للسكر يناعى ملكاً
 أنا لو كنت كما تعرفنى قت أجلاً على رأسى لكاً
 قهقهه الأبريق منى ضاحكا ورأى رعدة رجلى فبكى

*
 * *

وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح ،
 ووصفوا ميادين الحروب وأهوال القتال والنضال ؛ والشجاعة والجهن
 والاقدام ، والنصر والخذلان . ووصفوا النفوس وما يجول بها من
 الميول والاهواء وما يحدث فيها من لذة وألم ؛ والعشق وأثره فى النفس
 كما قال الشاعر :

قبلة كانت على دهش أذهبت ما بى من العطش
 ولها فى القلب منزلة لو عدتها النفس لم تطش
 طرقتني والدجى لبست خلعا من جلدة الحبش
 وكان النجوم حين بدت درهم فى كف مرتعش

وكقول بعضهم :

بتنا كأن حداد الليل شملتنا حتى بدا الليل فى ثوب سحولى
 كأن ليلتنا والصبح يتبعها زنجية هربت أمام روى

وكقول الشاعر :

ولما تجلى الليل والبرق لامع كما مل زنجى حساما من التبر
 وكقوله : ، فى وصف زنجى يسقيهم ،

وزنجى أتى بقضيب نور وقد زفت لنا بنت الكروم

فقال فتى من الفتيان صفه فقلت ، الليل أقبل بالنجوم
وكقولهم : ، في ملاقة الأُحبة وأوقات الوصل .

وواعدتها والشمس تجنح للندى بزورها شمساً وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشى سنى الصبح في الدجا وطورا كما مر النسيم على النهر
فعطرت الافاق حولي فأشعرت بمقدمها والعرف يُشعر بالزهر
فتباعت بالتقبيل آثار سعيها كما يتقصى قارىء أحرف السطر

* *

وبرعوا في هذا النوع براعة لا تجارى حتى أتوا بالغرائب من المعانى
الجزلة التى تنير النفوس ، وتحملها على التعشق ؛ كما قال الشاعر :

غصبوا الصباح فقسموه خدوداً واستنهبوا قضب الاراك قدوداً
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم فاستبدلوا منه النجوم عقوداً
واستودعوا حديق الهى أجفانهم فسبوا بهن ضراغما وأسوداً
لم يكفهم حل الأسنة والأظبا حتى استعاروا أعينا ونهوداً
وتضافروا بصفائهم أيدياً لنا ضوء النهار بليلاً معقوداً
صاغوا الثغور من الاقاحى بينها ماء الحياة لو اغتدى موروداً

* *

ولهم خيالات مبتكرة وعبارات طلية خصوصاً فى الوصف ،
كقول ابن شهيد :

فكان النجوم بالليل جيش دخلت للكون فى جوف غاب

وكان الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب
ومن أبدع كلامهم في الوصف الجميل والشعر الذي لا يجارى في
طريق الخيال والابتكار ، ورقة العبارة وحسن الأسلوب ، وجزالة
المعنى ، قول أبي الفضل بن شرف القيرواني .

مَطْلَ اللَّيْلِ بوعَد الفلَقِ	وتشكى النجم طول الارقِ
ضربت ريح الصبامسك الدجى	فاستفاض الروض طيب العبقِ
والاح الفجر خدًا خَجِلًا	جال من رشح الندى فى عرقِ
جاوز الليل الى أنجمه	فتساقطن مسقوط الورقِ
واستفاض الصبح فيها فيضة	أيقن النجم لها بالفرقِ
فانجلي ذاك السننا عن حلك	وانمحي ذاك الدجى عن شفقِ

*
* *

بأبى بعد الكرى طيف سرى	طارقا عن سكن لم يُطرقِ
زارنى والليل ناع سدّقه	وهو مطاوب بياق الرmq
ودموع الطل تمرّ بها الصبّا	وجفون الروض غرقى الحدقِ
فتأتى فى أزار ثابت	وتثنى فى وشاح قلقِ
وتجلى وجهه عن شعره	فتجلى فلق عن غسقِ
نهب الصبح دجى ليلته	فخبا الخد ببعض الشفقِ
سلبت عيناه حدّى سيفه	وتحلى خده بالرونقِ

ووصفوا الكنائس والأديرة والقسس . كما قالوا عن ابن شهيد
« أنه بات ليلة بأحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأصغاث آس ،
وعرشت بسرور واستيناس وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا

يسرج لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح ، متوشحاً بالزنانير أبدع
توشيح ، قد هجروا الأفراس وطرحوا النعم كل أطراح
لا يعمدون الى ماء بآنية الا اغترافاً من الغدران بالراح
وأقام منهم يعملها حمياً ، كأنما يرشف من كلسها شفه لياً ، وهى
تنفخ له بأطيب عرف ، كلما رشفها أعذب رشف ، ثم ارتجل بعدما ارتحل :

ولرب حان قد شمتت بديره	نخر الصبام مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم	متصاغرين تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا	يدعو بعود حولنا بزوره
يهدى لنا بالراح كل مخفر	كالخشف خفّره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم	لسلافه والأكل من خنزيره

*
* *

ومن خواص شعر الأندلسيين ذلك الروح الخيالى المجونى ، مع
حسن الدعاية وخفة الروح وجمال التشبيه مما لا يكاد يوجد له مثيل فى
شعر غيرهم كقولهم : —

وصهر يج تخال به لجيناً	يذاب وقد يذّهبه الأصيل
كان الروض يمشقه فنه	على أرجائه ظل ظليل
وتمنحه أكف الشمس عشقا	دنانيرا فنه لها قبول
إذا رفع النسيم القضب عنها	فحينئذ يكون لها سبيل .
وللنار نبع تحت الماء لها	تبدى عكسها جمر بليل
وليمون فيه دون سبك	بجلاجل زخرفت نصبا تجول

فيا روضا به: صقلت جفوني وأرهف متنه الزهر الكليل
 تنأثر فيك أسلاك الغواذى وقبّل صفح جدواك القبول
 ولا برحت تجمع فيك شملا من الأكياس والكأس الشمول
 بدور تستنير بها نجوم مع الأصباح ليس لها أقول
 يهيم بهم نسيم الروض الفأ فمن وَجد له جسم عليل
 وقد تفننوا في المراسلات وأبدعوا فيها أيما ابداع فقد دعا أبو
 عبد الله بن رشيق القلعي ثم الغرناطي بعض أصحابه إلى أنس فقال: —

سيدي عندي اترج ونارنج وراح
 وَجَنَى آس وزهر وحمانا لا يباح
 ليس إلا مطرب يسلى الندامى والملاح
 ومكان لا تهالك قد نأى عنه الفلاح
 لا يرى يطلع فيه دون اكواس صباح
 فيه فتيان لهم في لذة العيش جماح
 طرحوا الدنيا يسارا فاستراحت واستراحوا
 لا كقوم أوجعتهم لهم فيها نباح

وكان من بين الشعراء الفقهاء والحكماء والمتصوفون والمؤرخون.
 فنظموا حوادث التاريخ والحكم والمواعظ ومسائل الدين والفقه وقواعد
 اللغة ، ومسائل النحو والصرف ، ولكنهم في كل ذلك لم يخرجوا
 كما قلت عن المذاهب التي كانت معروفة في أصول الشعر وأنواعه ، لأنهم
 كانوا يجارون أهل المشرق في كل شيء ، ولم يريدوا أن يتخطوا دائرة
 الفكر العربي ولا (تقاليد اللغة العربية) ولا أن يخرجوا على أئمة الشعر

العربي ، ولا أن يبتكروا أو يزيدوا عنهم شيئاً ، سوى ما حصل في الأوزان من الموشحات ؛ لأنهم تعففوا عن الاطلاع على آداب الأمم الأخرى مما كان يكون له أثر في ابتكار أنواع جديدة ، بل انصرفوا عن ذلك إلى التوغل في الصناعة اللفظية والمبالغة في الافتنان ، والعناية بالخيال اللفظي ومظاهر البلاغة . لأن الشعر كان في جملته هناك من دواعي النسلي والمجون . وكانت حياة الشعراء حياة أقرب إلى اللهو منها إلى الجد . فكان من يريد منهم أن يكون حكيماً في شعره يحاول محاكاة المتنبي وأمثاله من أهل المشرق ، كما كان يفعل ابن درّاج القسطلي ، وابن هانيء . فكأنوا يقولون عن كل منهما أنه متنبى الأندلس .

وقد بلغوا الذروة في أنواع الوصف وذكر جمال الطبيعة حتى جعلوا الشعر العربي شعراً فنياً جميلاً يرقق الشعور ويهذب النفوس لأدراك الجمال ، وجاءوا بالعجب العجيب في ذلك

ولذلك كانت أساليبه رقيقة ، وعباراته متعملة كثير منها من

السهل المتنوع ، ومن السلاسة بمكان عظيم

هذه أمثلة من الشعر الأندلسي تدل على رقة ذوقهم ودقة بيانهم وحسن اختيارهم وسعة خيالهم في كل معنى من المعاني النفسية أو الوجدانية وفي كل شيء منظور أو محسوس ، وفي كل فكر ظاهر أو مأموس وفي كل معنى من المعاني التفهيمية ، أو الاجتماعية المعروفة لديهم وفي جمال الطبيعة وما توحى به إلى النفس وغير ذلك مما هو مجموع ومعروف من أشعارهم مما لا ينكره أديب أو عالم :

ولكن الذي يخامر الإنسان وهو يقرأ هذا الشعر الجميل ويملا

نفسه بالأعجاب هذه المسألة .

ترى هل أتى الأندلسيون بشيء في الشعر العربي لم يكن معروفا
ببلاد المشرق في أدب العرب من نوع جديد طرأ عليه هناك ، أو
ولدته في نفوسهم مناظر بلادهم وانتقالهم من بلد إلى بلد واختلاطهم
بشعب جديد وتفكير لم يكن لهم عهد بمعرفته ؟

وهل هناك فرق واضح بين الشعر الأندلسي والشعر في بلاد
المشرق ؟ .

والجواب أنه إذا تأمل الإنسان شعر الأندلسيين وجدده كغيره
من الشعر العربي في كل مكان وفي كل بقعة من بقاع الأرض حل به
العرب ونظموا فيها الشعر وحده منبعثا من فطرة سليمة وخيال واسع
وصور لما وقع عاينه نظروهم وأوحته إليه أفكارهم وآرائهم الشخصية
معتمدين في ذلك على وجدانهم وما يجول بنفوسهم سالكين مسلك آباءهم
واجدادهم فاتباع الأنواع التي سبقهم بها الشعراء الأقدمون من الوصف
والمدح والذم والحماسة ، وغير ذلك من الأنواع التي لا تخلو منها نفس
الشاعر ولا عواطفه والتي لا تمت إلا قليلا إلى الحياة الاجتماعية العامة
ووصف النفوس البشرية الدائمة والاجتماع الدائم ، فشعرهم هو نفس
الشعر القديم في موضوعاته أو أغراضه وأخيلته مصبوغة بصبغة
خاصة بهم أو كما يقال الآن بصبغة محلية .

فلم يحدث في شعر الأندلسيين نوع جديد لم يكن في الشعر العربي
مثل الشعر القصصي أو التمثيلي أو الاجتماعي الذي يصور النفوس العامة

من غير نظر إلى حالة خاصة بالشاعر .

ولكن تلك الصبغة الفنية التي انغمس فيها شعراء الاندلس من وصف بديع وبلاغة نادرة هي التي ميزت الشعر الاندلسي من سواه ، وقد كان أعمادهم على الصناعة اللفظية وجمال القول وتعمقهم في الوصف للطبيعة والمجالس والمحافل أظهر ما يكون حتى أبعدهم ذلك قليلا أو كثيرا عن التعمق في التفكير فلا تكاد تجد بينهم شاعرا مفكرا أو فيلسوفا من أمثال المتنبي وغيره . وان جاء شيء من التفكير في أصل كلامهم فهو عارض إليهم لا مطبوع فيهم

أما الأزجال والموشحات وغيرها من الأوزان التي ابتكروها في الشعر العربي ، والمقطوعات الشعرية جديده أو هزلية أو اجتماعية ، فقد أظهروا منها من البراعة مالا يقدر عليه إلا نفوس خلقت شعرية بطبيعتها وشاعرة بفطرتها . وقد سرت هذه الانواع إلى المشرق فأحدثت حركة جديدة في أوزان الشعر العربي .

الموشحات

بقى الشعر تابعا لطريقة العرب في أغراضه وأوزانه ، إلى أن حدث مادعا إلى الابتكار في العلوم والفنون . وكان الشعر من أقرب الاشياء إلى اللسنة ، وأكثرها انتشارا في المجالس ، وأدعى إلى الانتقال من غيره . لكثرة قائله وسامعيه والتأثرين به ، فتطلعت نفوس الفنيين من شعراء وأدباء إلى الانتقال به من صبغته البدوية إلى شكل حضري وان يزجوا به في مجتمعاتهم حتى يجاروا به القدماء في إلهاماتهم الجميلة ،

وفطرم النقية ، وسداجتهم الفنية . فلم يفلحوا كثيرا في الخروج به عن أغراضه التي تكلم فيها القدماء ، مما هو ألصق بالصبغة الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية . ولكنهم زادوا في وجدانياته مما استدعته الحضارة من التوسع في الخريات والعواطف من عشق وغيره ، ووصف المناظر الجميلة والحدائق النضرة ، وكل ما استلزمته حالتهم من آثار المدنية والعمران . ذلك من جهة أغراضه . أما من جهة أوزانه وصناعاته ، فقد كانت الحال فيه أسهل . فابتكروا من الاوزان في الشعر والصناعة ما لم يبتكروه في المعاني والأغراض . وتوسعوا في ذلك حتى لقد يخيّل إلى المطلع على الشعر العربي القديم والحديث أن هذا انقلاب عظيم وطورا من الأطوار الحديثة التي تخطاها الشعر وكان ذلك أظهر ما يكون في الاوزان والقوافي ، والقوانين التي وضعوها في رقة الأسلوب وبعض الخيالات التي لم تكن معروفة . حتى أخذ الشعر العربي صبغة حديثة بما أدخل فيه من هذه الأنواع المختلفة في الأوزان، الجارية على غير ما كان معروفا فيه، وخرجوا عن التقيد بنظام القوافي المعروف . قال ابن خلدون في « فصل أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد » : « ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم ، يجيئون به معصبا على أربعة أجزاء ، يخالف آخرها الثلاثة في رويه ، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة ، تشبيها بالمربع والخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين ... الخ . »

وقسم بعض المتأخرين الأنواع التي حدثت في الشعر ، إلى الشعر القريض والموشح والديبّ والزجل والمواليات والسكان كان والقوما وغيرها .

واشتهر^(١) من هذه الأنواع في الأندلس ما هو معروف
« بالموشحات »^(٢) وأصل الكامة من الوشاح ، وهو عقد من لؤلؤ
وجوهر منظومين يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر ، تتوشح

-
- (١) راجع خلاصة الأثر ، في أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ١٠٨
- (٢) قالوا في مخترع هذه الموشحات انه مقدم بن معصافى القريرى ؟ من
شعراء الأمير عبد الله ابن محمد المروانى ، وأخذ عنه عبد الله احمد ابن عبد ربه
صاحب العقد الفريد . هكذا في مقدمة ابن خلدون . وجاء في الذخيرة في
الكلام على الأديب أبى بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ... سلك
الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرابته مرحبا وأهلا ، وكانت صنعة التوشيح
التي نهج أهل الأندلس طرقتها ، ووضعوا حقيقتها . غير مرقومة البرود ، ولا
منظومة العقود ، فقام عبادة هذا منادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكانها لم
تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، وأول من صنع أوزان هذه الموشحات
بافقنا فيما بلغنى محمد بن حمود العمرى الضيرى وكان يضعها على أشطار الأشعار .
غير أن أكثرها على الأعارىض المهمة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى
فيسميه المركز ويضع عليها الموشحة دون تغيير فيها ولا أغصان ، وقيل ان ابن
عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات
ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادى ، فكان أول من أكثر فيها من التضمين
في المراكز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة . فاستمر على ذلك
شعراء عصره ككرم بن سعيد وابن أبى الحسن . ثم نشأ عبادة فحدث
الصغير ، وذلك انه اعتمد على مواضع الوقف في الأغصان فيضعها ، كما اعتمد
الرمادى مواضع الوقف في المركز

للمرأة به ، والشبه بين الموشحات والوشاح ظاهر في اختلاف الوزن والقافية في الأبيات ، وجمعها في كلام واحد كما سنرى .

وقد دعاهم إلى ذلك حب الابتكار والميل إلى الجمال والتغنى بأقوال الشعراء . فزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة في قصيدة واحدة . وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة . فيلحنون كلامهم هذا ويغننون به ، لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ . وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته فقال ^(١) :

”وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه . وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة . وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغراض والمذاهب . وينسبون فيها ويماحون كما يفعل في القصائد . ويتجاوزون في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناس وجلة الخاصة والكافة لسهولة تمارله ، وقرب طريقته . وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر القريري القهري ^(٢) من شعراء

(١) اخترنا نقل عبارة ابن خلدون في الموشحات لأنها من أجمع ما قيل

فيها وقد أخذنا هذا عن نفح الطيب عند كلامه على الموشحات

(٢) قد اختلفوا في هذا الاسم ففي مقدمة ابن خلدون القريري ، وفي الذخيرة

الأُمير عبد الله بن محمد المرواني ؛ وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب
العقد . ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان
أول من برع في هذا الشأن بعدها عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح
صاحب المرية .

العود قد ترنم بأبداع تلحين وشقبت المذائب رياض البساتين
وفي انتهائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتائب يحيى بن ذى النون
ثم جاءت الحلبة التي كانت في مدة الملتزمين فظهرت لهم البدائع ،
وفرسان حلبتهم الأعمى التطيلي ثم يحيى بن بَقِيٍّ ، وللتطيلي من الموشحات
المذهبة قوله :

كيف السبيل الى صبرى وفي المعالم أشجان
والركب وسط الفلا بالخرّد النواعم قد بانوا

وسبب اختراع الموشحات في الأندلس ما تولد في النفوس من
رقة وميل إلى الخلاعة والدعابة في الكلام ، وفي نوع التعابير وشعور الناس
من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الأوزان القديمة المعروفة ،

محمد بن محمود أو حمود العمري وفي فوات الوفيات في ترجمه عبادة ابن ماء السماء
(ج ١ ص ٢٥٤) محمد بن محمود أو بن حمود المقبري الضرير وهو ناقل عن
الذخيرة ، وفي نفح الطيب في الكلام على الموشحات نقلا عن ابن خلدون مقدم
ابن معافى القبري . وفي مقدمة ابن خلدون طبع باريس صفحة ٣٩٠ جزء ثالث
مقدم بن معافى أو معارف والقبري بدل الفرير أو التبريزي وهو خلط يدل
على تحريف هذا الاسم

لضيق تلك الأوزان عن احتمال عيب الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم والعقول اذا مالت الى التغيير مالت الى الابتكار وحب الجديد . لذلك سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شيء جديد ، فاخترعوا تلك الاوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى محبوبه اللهو والطرب والرقص ، وانشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس . فوجدوا ذلك ادعى الى تحريك النفوس فابتدؤا أولا بالاوزان العربية الخفيفة المعروفة ، كالرمل والهزج والمقطوعات وغير ذلك ، وغيروا فيها القافية . وولدوا من ذلك الموشحات وأباحوا لانفسهم التغيير فى الوزن والقافية . فاخترعوا من الاوزان ما لا قاعدة له . ثم توسعوا فى هذه الاوزان وتفننوا فيها ، وأودعوا هذا النوع الجديد من الشعر ميولهم وأهوائهم . واشتغل بذلك الظرفاء والأدباء فشمل هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى . ثم تمشى فى نفوس جميع الناس حتى أصبح نوطا من أنواع الشعر العام . فنظم على أساوبه الحكماء والفقهاء عبارات الوعظ والحكم ، ومنهم التقى المشهور والصوفى المعروف محيى الدين بن العربى

ثم تخطى هذا النوع من بلاد الأندلس الى بلاد البربر وغيرها من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية ، فنبت شعراء كثيرون فى هذا النوع . وانبعث هذا الكلام من نفوس العامة أو من الآراء والأفكار التى كانت تدور فى رؤوس كثير من الناس ، فنظمها كبار الشعراء . وما زالت العامة تجذب الخاصة اليها ، وتدفعها الى التعبير عن أفكارها المنتشرة الدائرة فى نفوسها وعلى ألسنتها ، سواء أكانت من

طريق الكلام أم من طريق الأغاني ، حتى قربت الموشحات من لغة العامة وصارت من كلامهم وأناشيدهم . وكما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى وعن الشعر العربي . لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية في الموشحات أكثر وضوحاً منه في الشعر العربي الفصيح

فلا غرو أن نجد في الموشحات خلطاً بين الشعر العربي الصحيح والكلام العامي المأخوذ ، لأن أصلها مأخوذ من الشعر العربي ، لذلك لا تخلو من أثره في الصناعة والأخيلة والأسلوب وقواعد العروض كما تتخلل ذلك عبارات عامية ، وأحياناً يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة . فنجد أبياتاً غير عربية وعبارات غير معربة فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحتة ، بل يمكن أن يقال أنها شعر عربي ، ولكن في غير الأسلوب الشعري العربي الصميم وصناعته المعروفة . وقد كان الموشحات أن تحدث في الشعر نوعاً جديداً لو لم يقصر الشعراء ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية . ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعاني المعروفة قبلهم عند شعراء العرب . فلم يتكلموا في الموضوعات العامة الاجتماعية ، ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام وما يشبهها كما قلنا ؛ لأنهم أرادوا أن يتغنوا بذلك . ثم أوغلوا في التعبيرات الشخصية ، وبعض هذه التعبيرات لا يمكن أن تؤدي المعنى المقصود إلا بلهجة خاصة ، فاضطروا إلى استعمال بعض العبارات العامية . ثم توسعوا في ذلك حتى تعددت هذه اللهجات ، وكثير منها لهجات عامية لا يتذوقها كل من يعرف

العربية الفصحى . ومن هذا تطرقوا إلى الزجل ذلك الشعر العامي المعروف .

فالموشحات علامة من علامات الانتقال في الشعر العربي ، لأنها حدث جديد في الأدب ، ولكنها علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياعها أيضا ، إذ لو كان لها أن تنتشر انتشارا عاما في جميع البلدان لأدت إلى انتشار اللغة العامية في كل قطر ، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة ، يصعب فهمها على غيرها من الأمم الأخرى . على أن لذلك ميزة وهي أن العامة تفهم من لغتها الخاصة أكثر مما تفهم من اللغة الفصحى . ولكن هذا يدعو كما قلنا إلى انحلال الوحدة اللغوية



الوزير ابن زيدون^(١)

اقرنت الوزارة في الأندلس بالأدب فكان الوزير كاتباً وشاعراً
وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء . وكانت الشهرة بالكتابة والشعر
وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول الى امتلاك الوزارة
فكان للوزراء أثر عظيم في سير البلاغة والأدب وأصبحت منزلة الادب
كمنزلة الوزراء أنفسهم في الدولة . وظهر في الأندلس طائفة من الرجال
الذين تربعوا في مناصب الملك ، وتقلبوا في مراكز الدولة وتغلبوا على
شئونها . وهم جميعاً من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل
الشورى وأعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء والأدباء والشعراء المجيدين ، أبو الوليد
أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي
أشهر من عرف في حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة في فنون الكلام
وأساليب الشعر والبيان ، لأنه صورة من صور الأدب في الأندلس

(١) ليس لدينا عن ابن زيدون ما يدلنا على شيء من حياته المنزلية أو
تربيته الأولى . أو اما يتيح لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية أو حياته
الفكرية ، ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر نقلها عن كتاب الزخيرة لابن
بسام . حتى أنهم لم يذكروا عن أبيه أبي بكر بن زيدون شيئاً سوى أنه كان
من وجوه الفقهاء بقرطبة . وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال في كتابه (الصلة)
أنه أثنى عليه ، وكان يكنى أبا بكر وتوفي سنة ٤٠٥ هـ ودفن في قرطبة . وكل
ما ذكر من صفاته أنه كان يخطب بالسواد وفي بعض كلام الشعراء الذين
رثوه ما يدل على أنه كان من أهل الفضل .

وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة في سنة ٣٩٤ هـ وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله ابن أحمد بن غالب والده والثاني أبو بكر ابنه ، وكان وزيراً للمعتد بن عباد ومات مقتولاً في آخر أيامه : وهم من أصل عربي كما أشرنا الى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الاندلس من العرب

كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالماً وأديباً . مات سنة ٤٠٥ هـ فكان عمر ابنه اذ ذاك احدى عشرة سنة . وكان أبوه الوليد منذ حداثته ميالاً الى العلم والتعليم ، فاندفع يطالب لنفسه الكمال العقلي وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين . وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة ، فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعى كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء وامثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة ، حتى أصبح في مقدمة الشعراء والأدباء . واندمج في مجالس الأدب ، فصار عالماً من أعلامها ودطامة من دعائمها . وكانت قرطبة لا تزال في أوج عزها على الرغم من أفول شمس بني أمية بها ، وأهلها في رخاء من العيش ، أكثرهم يميل الى العلم والأدب ومجالسة الأدباء . فامتلائت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودطابة وميل الى المجون ، فساعده ذلك على ان يسبق غيره وان ينال شهرة واسعة بين أتباعه .

وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس . فاتجه الناس الى الاندماج فيها واستعذبوا هذا المورد ، وانصرفت همهم الأدباء الى التفوق في هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم وثر : وكأنما صناعت كل صبغة جديدة في الجامع الأدبية ، تجرؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون . وكان ابن زيدن أحد أبطال هؤلاء ف جذب إليه الأنظار .

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها . فوقع ابن زيدون في شركها و وقعت في شركه واشتعل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد عليها وحسدها الناس عليه . وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها إليه ، واغتمصها من صديقها ، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون وأهمته بعدد عدم الاخلاص لها ، كما انهمما بذلك أيضاً ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما ، وحالت بين قلوبهما . لذلك غاب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره واستولى على قاب ولادة . ثم حدث ان رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية . ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقابية والسياسية ؛ وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأدباء وأصحاب الاقلام والمفكرين . وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون .

عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودسائس ، وتربى ودرج

في ذلك وتقلد الوزارة فيها ، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية ، فكان من أشياع ابن جهور وأحد ملوك الطوائف ، الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ ، وعلت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذ ابن جهور وزيراً له فلك أزيمة الامور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوغرت عليه صدور كثير من منافسيه وحاسديه على فضله ومنزلته ، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً . فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد ، فلم يفلح في ارضاء الأمير ، فعزم على اعمال الحيلة والهرب من السجن .

واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبي الوليد بن جهور عند أبيه أبي الحزم حتى شفع له . وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته . ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقائه في قرطبة فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد ، وبقي هناك إلى آخر عمره .

هذه حياته وأخلاقه وقد ذكرها في شعره ونثره ، ومنها يرى إن حركات عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوة . فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة . لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عشقه لولادة وأثر ذلك في نفسه وما كتبته في هذا . ثم مدحه لابن جهور وابن عباد . ثم أثر السجن في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لاخلق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها ، وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم في شعره . فقد كان للمجون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون في الغزل وكثير من شعره في ذلك كان منبعثاً عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله وأهوائه ، أذكر ذلك كله حبه لولادة . فإن عشقه هذا فتح له باباً واسعاً من الخيال قال فيه ماشاء وشاءت عواطفه أن توحى إليه . كذلك كانت آلامه ومآلقاته في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه . وإلهاماً من إلهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جمهور ، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلتهم بحمل ابن جمهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأيه السديد وبراعته في إدارة الأمور وسامه زمام الدولة . ولم يكن لابن جمهور أن يخطيء في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته . فاذا نال ابن زيدون مكانة في نفس ابن جمهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جمهور فغضب عليه وأمر بسجنه فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعري ، أثارتها آلامه فأخذ يئن أنينا جميلاً ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنها مرة شعراً ومرة نثراً . . . والفني يمزج فيه دائماً بكل

ما يرى ويسمع ويشعر . ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة
الادراك ، التي اذا أنت تئن أنين الموسيقى ، واذا شكت تشكو مشكاة
القلوب المملوءة شعوراً ، الواسعة التمسور والادراك الدقيق الجميل ، الذي
يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلاً .

كتب ابن زيدون من السجن الى صديقه أبي حفص بن برد
يشكو ويئن من بلواه ، وهو ينهض الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى
ولا يترك شاردة تمر بخاطرده إلا أهدأ بها نفسه وتسلى بها عن آلامه ،
يستسلم أحياناً إلى القضاء فيشعر في نفسه براحة واطمئنان ، ويقلب
أمامه صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التي ألمت به . ويرجع الى
صديقه فيسليه هو بنفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ،
لأن السعادة خلسة . ثم يعود فيذكر أعداءه ونيابهم منه ويبين أن ذلك
ليس بالعجب لأنه

ان قسا الاهر فللماء من الصخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكانته ، ويمزج ذلك بالعبير والحكم والسخرية
والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أنينه وألمه وحقده
على الناس ولا سيما حاسديه ، ويضرب المثل كي يسكن من نفسه وهو
في ذلك كعادته في الشكوى : يهبط مرة إلى الدرك الأسفل من اليأس ،
ويرتفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه في شجار مستمر بينه وبين
نفسه وشعوره كل هذه المعاني في أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ،
يكاد يلوح الإنسان فيها خاطره المضطرب المتماوج : حيث يقول :

مألى ظني باس ^١	يجرح الدهر ويأسو ^(١)
ربما أشرف بالمر	على الآمال ياس ^٢
ولقد ينجيك إغفا	ل ويرديك احتراس ^٣
والمحاذير سهام ^٤	والمقادير قياس ^(٢)
ولكم أجدي قعود ^٥	ولكم أكدي النماس ^(٣)
وكذا الحكم ؛ إذا ما	عز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أخيسا	فأسراة وخساس ^٦
نلبس الدنيا وليكن	متعة ذاك اللباس ^٧
يا أبا حفص وماسا	واك في فهم إياس ^٨
من سنا رأيك لي في	غسق الخطب اقتباس ^٩
وودادى لك نص	لم يخالفه القياس ^{١٠}
أنا حيران وللأمر	ر وضوح والتباس ^{١١}
لا يكن عهدك ورداً	ان عهدى لك آس ^{١٢}
وأدر ذكرى كإسا	ما امتطت كفك كاس ^{١٣}
فعسى أن يسمح الدهر	ر؛ وقد طال الشماس ^(٧)
واغتم صفو الليالى	انما العيش اختلاس ^{١٤}
ماترى في معشر حا	لواعن العهد وخاسوا ^(٨)
أذوب هامت بلحى	فانتهاش وانتهاش ^(٩)

(١) يداوى ن آسى الجرح داواه (٢) قياس هنا جمع قوس (٣) اكدي
 بخل أو قل خيره (٤) مختلفون (٥) أشرف (٦) أدنياء (٧) العصيان
 (٨) غدروا (٩) مثل الانتهاش وهو الأكل بمقدم الأسنان

كلهم يسأل عن حا لي والذئب اعتسأس^(۱)
 ان قسا الدهر فللما من الصخر انبجاس^۲
 ولئن أمسيت محبوسا فلما غيث احتباس^۳
 ويفت المسك في التراب فيوطى ويداس^۴

هذه هي نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذي يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول . ليس ذلك لانه مطرب مرقص بوزنه وقافيته . بل لانه ساحر بمعانيه وجماله . كل معنى فيه تحتاج اليه النفس في مثل هذه المواقف . ولقد كانت هذه المعاني سائغة للنفس لان الشاعر صادق في قوله ، معبر عن شعوره يرسم صورة من نفسه الحزينة المتأللة . لهذا كان الشعر جميلا

وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن في ذلك ، وكأنما كان يبكي حظه ويندبه بهذا الاسلوب الفخرى أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت تهدأ خاطره وتريح نفسه . فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والشعب الجدى . وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف اشم حتى انه مدح نفسه اكثر من ابن جهور ، فكان طابعا اشد منه مادحا ، لانه كثيرا ما كان في مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد ان يعلل عليها ولو همسا انه في موقف مذلة ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لانه يرى ان اعداءه لم ينالوا منه إلا لانه فاقهم بعلمه وفضله . حتى إنه قال متهكما

ولو اننى أسطيع كى ارضى العدا شربت ببيع العلم حظا من الجهل

فقال :

ألم يأن أن ببك الغمام على مثلى
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما
فلو أنصفتني وهي أشكال همتي
كعمر الليالي إن يكن طال عمرها
تحملت بأداني وإن مآري
أخص لهمي بالقلبي وكأتما
وأجفني على نظمي لكل قلادة
ولو أني أسطيع كي أرضي العدا
وإن رجائي في الامام ابن جهور
كريم عريق في الكرام وقلم
يرف على التأميل لألاء بشره
ويغني عن المدحها كتفاء بسرّوه^(٤)
أبا الحزم إني في عتابك مائل
حمام شكوى صبحتك هوادلا

ويطلب تأري البرق منصات النصل
لتندب في الآفاق ماضاع من نبلي
لألت بأيدي الذل لما رأت ذلي
لقد قرطست بالنبل في مقتل النبل^(١)
لسارحة في عرض أمنية عطل^(٢)
يبيت لدى الفهم الزمان على ذحل^(٣)
مفصلة السمطين بالمنطق الفصل
شريت ببعض العلم حذاً من الجهل
لستحكم الأسباب مستحصد القتل
يُرى الفرع إلا مستمداً من الأصل
كحارف لآلاء الحسام على الصقل
غنى المقلة الكحل عن زينة الكحل
إلى جانب تأوى إليه العلاس هل
تناديك من أفنان آدابی الهدل

* *

وكل قصائده التي أرسلها يستعطف بها ابن جهور هي أثر ذلك
الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور البؤس الذي حرك
شعوره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة

(١) الببل بفتح النون السهم وبضمها اشرف (٢) لا فائدة فيها، من عطلت
المرأة إذا خلا جيدها من القلائد (٣) الذحل الحقد (٤) رفعته وعلو شأنه .

المملوءة هما وغما .

ولكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره
وما أشبه قصائده فى ذلك وما فيها من المعانى برسائله الجدية . وكأنما
كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه فى السجن . فانه لم يخرج عن
عاداته فى ضرب الامثال والفخر بنفسه ، وإنه افضل إنسان واكرم
من دب على وجه الارض .

غير ان كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب
خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير ، فانه ليس من
الخيالات الشعرية المرفه بل به كثير من الحقائق التى كان يراها عليه
شعوره كما قال :

ما جال بعدك لحظى فى سنا القمر الا ذكرتك ذكر العين للأثر
ولا استظلت ذمء^(١) الليل من اسف إلا على ليلة سمرت مع القصر
إلى أن قال :

فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لى از الحوار لفهوم من الحور
لم يسأل الناس عن حال يشاهدها محض العيان الذى يغنى عن الخبر
لم تطو برد شبابى كبرة وأرى برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر
قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كشب^٢ وللشبيبة غصن غير مهتصر
يا للرزايا؟ لقد شافيت منهلها غمراً^٣ فما اشرب المكروه بالغمر^(٤)
لا يهنى الشامت المرتاح خاطره أنى معنى الامانى ضائع الخطر

(١) الذمء بقية الروح يريد ما بقى من الليل (٢) قريب (٣) الغمر الكثير

(٤) الغمر قدح صغير يريد أنه كثير البلوى

هل الرياح بنجم الارض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر
ان طال في السجن إيداعى فلا عجب قد يودع الجفن حد الصار الذكر^(١)
وان يثبط أبا الحزم الرضى قد ر عن كشف ضرى فلا عتب على القدر
من لم أزل من تأنيه على ثقة ولم أبت من تجنبه على حذر

*
* *

وكتب الى أحد أصدقائه وهو مختلف بقرطبة بعد فراره من
السجن فقال

« ... ويلغنى أنك أحد اللأئمين لى ، ومن أمثالهم : ويل للشجى
من الخلى^(٢) ، وهان على الاماس مالاقي الدبر^(٣) . وعامت أن العاجز من لا
يستبد ، فالمرء يعجز لالمحالة . ولم أستعجز أن أكون ثالث الاذلين ،
العير والوتد ، وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق ، من
سنن المرسايين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : ففرت منكم لما خفتكم
فنظرت في مفارقة الوطن ، فقديمًا ضاع الفاضل في وطنه ، وكسد
العلق^(٤) في معدنه كما قال :

أضيع في معشرى وكم بلد يكون عود الكباء من خطبه
فاستخرت الله في انفاذ العزم . وأنا الآن حيث أمنت بعض
الأمن ، إلا أن الغنى لم يرتفع ، ومادة البغى لم تنقطع :

شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا
أحبابنا ألوت بحادث عـدنا حوادث لاعهد عليها ولا شرط

(١) سيف ذكر حاذ (٢) الشجى المشغول (٣) مثل يضرب في سوء اهتمام

الرجل بشأن أخيه ، والدبر الذى في ظهره قرحة ، والأملس صحيح الظهر

(٤) العلق النفيس (٥) الكباء العود المتبخر بل

لعمركم ان الزمان الذي قضى بَشَّتْ جميع الشمل منا ، لَمْ شَتَّ
وأما الكرى مذلم أزر كم فهاجر زيارته غب والماء فرط
الى أن قال :

هرمت ، ومال الشيب وخط بمفرق ولكن لشيب الهم في كبدى وخط
وطاول سوء الحال نفسي فأذكرت من الروضة الغناء طاولها القحط
وانى لراج أن تعود كبدئها الى الشيمة الزهراء والخلق السبط^(١)
وحلم امرىء تعفى الذنوب لعفوه وتمحى الخطايا مثل ما محى الخط
فمالك لا تختصني بشفاعه يلوح على دهرى ليس بها علط^(٢)

*
*

الى آخر مقال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى
وأجمعها لذكر الماضى والحاضر ، والاستغفار والاستعطاف ، وهى أيضاً
أظهر فى لهجتها الجدية من كثير من شعره . ولذلك كانت أجف فى
أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه . كل ذلك هاجه
السجن وما تذوقه من الآلام فرسمه فى شعره . لأنه رجل فني عرف
كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما يجول بخاطره .

ولقد يلاحظ الانسان أن آراء بن زيدون آراء طامة ليست ناشئة
عن تفكير طويل أو علم واسع . وإنما هو خياليا أكثر منه مفكرا ،
وشاعرا أكثر منه طالما : وهذه كل حال شعره ونثره

أما مدحه ورثاؤه فهما فى الدرجة الأخيرة من شعره ، لانه على

(١) يريد الخلق الكريم ، يقا' رجل سبط اليدين كريمها ، وسبط الجسم
حسن القد فهى من صفات المدح (٢) الميسم أثر الحسن ، والعلط سواد يزين
به الوجه .

جمال أسلوبه في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني ، لا يكاد يعثر الانسان فيه على معنى جديد ، ولا يقف على رأى خاص ، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعاني من قبيل معارضة غيره من الشعراء والاخذ بمعانيهم ؛ ممزوجا ذلك بماله من البراعة والصناعة والافتنان
ومن أجمل قصائده في ذلك كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتمد^(١) ومن أرق كلامه في الشكرى ، وأقرب عباراته وصولا إلى القلوب ، بكأؤه على الماضي ، والتلذذ بذكره ، وما كان فيه من النعيم كقوله :

الهوى في طلوع تلك النجوم	والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشى	لو يدوم السرور للمستديم
وطراً ما انقضى إلى أن تقضى	زمن ما زمامه بالذميم
أيها المؤذى بظلم الليالى	ليس يومى بواحد من ظلوم

ولقد كان ينظر الى أيامه الماضية فيحن اليها حنيناً مؤلماً، فاذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية فبكى وبكىت معه . كما قال :

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح	تقصت مبانيسها مدامعه نوحا
مقاصير ملك أشرقت جنباتها	نخلنا العشاء الجون ^(٢) أثناءها صبحا
يمتل قرطيسها لى الوهم جهرة	فقتبتها فالكوكب الرحب فالسطحا

(١) راجع قصيدته التى يرثى بها المعتضد ، ويمدح المعتمد ابنه فى نفح الطيب طبع أوربا ج ٢ صفحة ٤١٦ (٢) الجون يطلق على الأبيض والأسود ، والغرض منه الأسود

محل ارتياح يُذكر الخلد طيبه إذا عزَّ أن يمسي الفتى فيه أو يضحا
هناك الحمام الورق^(١) تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان^(٢) خلاها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا
ومن حملى الكأس المفدى مديرها تقحم أهوال حملت لها الرما

الغزل في شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع في الاندلس ، وميول النفوس واختلاط
النساء بالرجال ، واندماج كثير من الادبيات في مجالس اللهو والطرب ،
ان المرأة شغلت جزءا عظيما من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت
رؤوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم .
فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والحجر تدير العقول وتملى
عابها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال . والعقول ثمة بنشوة
الغرام ، والرؤوس منقلة بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا
يريدون أن يتأواوا عنه لعاقته بنفوسهم ، حتى في أشد المحن .
فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو في سجنه لصديقه أبي حفص
ابن برد يقول :

وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفك كأس
واغتتم صفو الليالى انما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون في شرك ولادة بنت المستكفي بالله وكانت خليعة
ماجنة بارعة في الجمال ، أديبة شاعرة ، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء

(١) القى في لونها بياض ممزوج بسواد (٢) الجوارى

« تناضل الشعراء وتساجل الأدباء وتفوق البرعاء ... خرجت على نهاية في الأدب والظرف حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب الى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة منتابها ، تخط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالانها ومجاهرتها بلذاتها ... » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كعالية بالمشرق ، الا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادوة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها . وكان لها صنعة في الغناء . وكان لها مجلس يغشاها أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمر فيه من البادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها وكانت من الأدب والظرف وتمتيع السمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب » فقال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هي من نفسه ، حتى كتبت اليه تضرب له موعداً ففالت :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر
وبى منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر
قال أبو الوليد . « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل نيره
أقبلت بقدر كالعصيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل
على ورد الخجل . فلما الى روض مديح ، وظل سجسج ، وقد قامت

رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منشور ، وروحيق
الراح مزروع فلما شربنا نارها ، وأدركت منا ثأرها ، صرح كل منا
بحبه وشكا ما بقلبه . وأنشدتها .

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أطلعك
أن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك
وكتبت اليه بعد ذلك تقول :—

الاهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي
الى إن قالت .

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رِق التشوق معتقى
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا بكل سكبها طل الوبل مغدق

*
* *

لا نريد الآن أن نتكلم في العشق وأثره في النفس وما يوحيه من
روائع القول وجمال الفكر حتى عند طامة الناس ، فإن تاريخ الانسانية حافل
بحوادثه . ولكننا نقول إن العشق في كلام العرب أو شعر الغزل كما
يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية لأن الشعر الذى هو وحي
النفوس وجمال الادراك الانسانى ، أكثر ما يكون ظهورا في التعبير
عن الحب ووصف هذا الضعف الانسانى الذى نسميه عشقا ، فإن
العشق أدراك أكبر مظاهر الجمال في الحياة ، ومن لم يفتح قلبه يوما
ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم ير غير ظواهرها ، ولم يتسرب الى نفسه

بصيص ضوء من جمال الكون . ان جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس
في التألف ، وكثير من آمال الناس في تلك الصلة النفسية . والعشق
وما فيه من سعادة وجمال سرٌّ كامن في الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالي
الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ،
ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الانسان وأخلاقه وآلامه وآماله .
أن النساء منبع من منابع الشعر . والشعراء مديتون لهن بأفضل
الصفات لديهم ، وهي : وصف شعور الناس . والشاعر الذي يشعر بالحب
لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن
معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا
الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ، ورنات ما يجول
بها من المعاني ، ويدفعها إلى النفوس فتصير إليها ، ويذيعها بين العشاق
فيرى كل قلبه وكأنه ينظر في مرآة يرى فيها صورته . وذلك لا يكون
إلا في الشعر

فاذا أخطأ العرب في إمعانهم في هذا النوع والاكثر منه ، فقد
أخطأوا في جهة واحدة : وهي تكرار المعاني وتقليد بعضهم بعضاً
في ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وإن صلة الحب
بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعاني محصورة في ذلك .

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا
يجولون جولات واسعة في الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . رأيت شعراء
العرب كيف يطنبون في وصف الأمكنة التي اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ؟
وهم يتخذون ذلك وسيلة لا مرين .

الأول : احياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأماكن جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التي كانت نستطع عليهم ، والأشجار التي كانت تظللهم ، والكواكب التي كانت تتجسس أخبارهم ، جدرة بأن لا تنسى ، لأنها أتر من آثار العشق .

الثاني : أن الشاعر الفنى يفر من التكرار ، ويعرف أن معانى العشق والحب سرعان ما تنفذ ، فهو يتحایل على بث شيء من المعانى الأخرى التى لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يحول فى ميدان أوسع . ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لظهور الصورة التى يريد أن يبرزها كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنانين أو قريبا منهم . فقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة فى أيام الربيع ، يريد أن يسلى نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر فى شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك ، وأبدع أيما ابداع ، وأفتن افتنانا عظيما فى ذلك . فقال :

والأفتن طلق ووجه الأرض قد راقا	إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
كأنما رَقَّ لي فاعتل إشفاقا	والنسيم اعتلال فى أصائله
كما حللت عن اللبات أطواقا	والروض عن مائه الفضى مبتسم
بننا لها حين نام الدهر سراقا	يوم كأيام لذات لنا انصرفت
جال الندى فيه حتى مال أعناقا	نلهو بما يستميل العين من زهر
بكيت لما بى جبال الدمع رَقراقا	كأن أعينه إذ طابت أرقى
فازداد منه الضحى فى العين اشراقا	ورد تألق فى ضاحى منابته

سرى ينافحه نيلوفر عبق
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا
لو كان وفي النى فى جمعنا بكم
لا أسكن الله قلبا عن ذكركم
لو شاء حمل نسيم الريح حين هفا
كان التجازى بحض الود من زمن
فلا آن أحمد ما كنا لعهدكم
وسنان نبه منه الصبح أحداقا
إليك لم يعد عنها الصدر إن ضاقا
لكان من أكرم الأيام أخلاقا
فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
وفاكم بفتى أضناه ما لاقا
ميدان أنس جربنا فيه اطلاقا
سلوتمو وبقينا نحن عشاقا

وإذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فايس ذلك فى ابتكار
المعانى التى لم يسبق اليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك
النفوس وتستولى على القلوب ، وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع
بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والاسلوب كما فى قوله :-

إليك من الانام غدا ارتياحى
وما اعترضت هموم النفس إلا
فديتك ، ان صبرى عنك صبرى
ولى أمل ، لو الراشون كفوا
وأعجب ! كيف يغلبنى عدو؟
ولما أن جلتك لى احتلاسا
رأيت الشمس تطلع فى نقاب
فلو أسطيع طرت اليك شوقا
وحسبى أن تطلعنى الأمانى
فؤادى من أسى بك غير خال
وأنت من الزمان مدى اقتراحى
ومن ذكراك ريمحانى وراحى
لدى عطش عن الماء القراح
لاطلع غرسه ثمر النجاح
رضاك عليه من أمضى سلاح
أكف الدهر للحين المتاح
وغصن البان يرقل فى وشاح
وكيف يطير مقصوص الجناح؟
بأفقك فى مساء أو صباح
وقاي من هوى لك غير صاح

وان تهدي السلام الى شوقا ولو في بعض أنفاس الرياح
ولقد يسمع الانسان أنينه في شعره ، ويرى نفسه الحزينة من
خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن
نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه ياتئذ لذكر
محبوبته وتذوق الآلام في سبيلها فيقول :

متى أنبيك مابى	ياراحتى وعذابى
متى ينوب لسانى	فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى	أصبحت فيك لما بى
فلا يلد منامى	ولا يسوغ شرابى
يا فتنة المتعزى	وحجة المتصابى
الشمس أنت توارت	عن ناظرى بالحجاب
ما البدر شف سناه	على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما	أضاء تحت النقاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارىء على الاعتقاد بأنه
مخلص كل الاخلاص فى حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته . وأنه
يرى فى سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شىء فى سبيل
ارضاء حبيبته حتى حياته . وهو يخور بهذا كما قال :

أنى تضيع عهدك	أم كيف تخلف وعدك
وقد رأيتك الامانى	رضى فلم تتعدك
يالىت شعرى وعندى	ماليس فى الحب عندك
هل طال ليلاك بعدى	كطول ليلى بعدك

سَلْنِي حَيَاتِي أَهْبِهَا فَلَسْتُ أُمْلِكُ رَدَّكَ
الدَّهْرَ عَبْدِي لَمَّا أَصْبَحْتُ فِي الْحُبِّ عَبْدُكَ

على أننا لا نبريء ابن زيدون من التصنع أحيانا فيما يقول ، لأنه
كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فان تمكنه من الصناعة
كان يفتق لسانه بقول الشعر . كما قالوا : إن السلطان أمره أن يعارض
قطعا كان يغنى بها ، واستحسن ألقائها ، فانشأ أبياتا كأنها صادرة من
عاشق مقيم ، وضمنها مدح السلطان . فقال :

يَقْصُرُ قَرْبُكَ لَيْلِي الطَّوِيلَا وَيَشْفِي وَصَالَكَ قَلْبِي الْعَلِيلَا
وَأَنْ عَصَفْتَ مِنْكَ رِيحَ الصَّدُودِ فَقَدْتُ نَسِيمَ الْحَيَاةِ الْبَلِيلَا
كَمَا أَنَّنِي أَطَلْتُ الْعَثَارَ وَلَمْ يَبْدِ عَذْرَى وَجْهًا جَمِيلَا
وَجَدْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الظَّافِرَ الْـ مُؤَيَّدَ بِاللَّهِ مَوْلَى مُقِيلَا
لَا قَلَامَهُ فَعَلَ أَسِيَّافُهُ يَظُلُّ الصَّرِيرَ يَبَارِي الصَّلِيلَا

وفي بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعاني
التي قيات في العشق ، فينظمها ويلبسها ثوبا جديدا وكأشباله ، وقد برع
براعة عظيمة في ذلك كما قال :

يَا غَزَالَا أَصَارَنِي مَوْثِقًا فِي يَدِ الْمِخْنِ
إِنِّي مِمَّنْ هَجَرْتَنِي لَمْ أَذُقْ لَذَّةَ الْوَسْنِ
لَيْتَ حَظِّي إِشَارَةً مِنْكَ أَوْ لَحْظَةً تَعْنِ
مُشَافِعِي يَا مَعْدِنِي فِي الْهَوَى وَجْهَكَ الْحَسَنِ
كَنتَ خَلَوَا مِنْ الْهَوَى وَأَنَا الْيَوْمَ مَرْتَهَنُ
كَانَ سَرَى مَكْنَا وَهُوَ الْآنَ قَدْ عَلَنُ

ليس لي منك مذهب فكما شئت لي فكن
وهو في كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره : خفيف الروح
عذب الألفاظ سهل الأسلوب

أما نونيته التي أرسل بها إلى ولادة وبشها كثيرا من شعوره
وآرائه المختلفة . فهي على شهرتها وجمالها ككل شعره ولذلك لم نذكرها

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برسائتيه الجدية والهزلية . أما الأولى فهي التي
كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور ، وأما الرسالة الهزلية فكتبها
على لسان ولادة يتهم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركتة في غرامه
اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لحوكمة أسلوبيهما النادر المثال ،
ولاحتوائهما على كثير من الاسماء التاريخية والأمثال العربية ، واقتباس
أبيات من الشعر معروفة وقعت في صوغ الكلام وكأنها عملت من
أجله ، أو قيست على سمته . وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته
ولا من الهين أن يخوض الانسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه
الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ، ويميز بين الجيد
وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ثم
يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ويخضه
كما يخض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر

إن الكلام على هذا النحو لأصعب من الابداع في التأليف
المبتدأ وكما قرب إلى القارئ الأسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر
بسعة اضلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت في نفسه منزلته . وكما

اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى^ه كان بعيداً عن ذهنه ، أو إلى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل اتعظ به ، أو ذكر رجل بمجده ، أو نكتة تسربها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بها ، زاد أعجابه بالكاتب وما يكتب ، ورأى أن كل إنسان در على ذلك ، وإن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل نثر ابن زيدون ، وهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله رف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ . بل أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع وكيف يتصيد كلام برصفه رصفاً جميلاً ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه لوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين والحجر والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون

لقد حاول ابن زيدون في رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع ما يجسم بها المعنى في نفس القارئ لتنهال عليه المعاني ويكون أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فعلها . فكل ما ذكره من الأمثلة والمعاني المختارة قصد به توضيح ما يريد :

في رسالته الجدية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه به وينكل بأعدائه . فبدأ رسالته بالاستعطف وهو يستدل ارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر إخلاصه له (ويتملق إليه) أخرى عنه فيما وقع منه في حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شمانية أعدائه فقال :

« يا ولى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتمادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حلالهزم ، وارى زناد الأمل ثابت عهد النعمة . إن سلبتني - أعزك الله - لباس نعمائك ، وعطلتني من حلى إيناسك ، وأظمأني إلى برود اسعافك ، ونقضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأعم ثنائى عليك ، وأحس الجواد باستحماذى إليك ، فلا غرو . قد ينص الماء شارب به ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتعمي فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الأعداء
وأنى لا تجلد ، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع .
فأقول : هل أنا إلا يد أدمها - وارها ، وجبين عض به اكيله ، ومشرفى الصقة بالارض صاقلة ، وسمهرى عرضة على النار مثقفة ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم
ثم أخذ يتعمل بالآمال ، ويغرب فى ذلك الأثمال ، ليسلى نفسه ويهدىء منها عبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ، ويحمده على كل شىء ، كما يحمد الله على السراء والضراء . فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يربنى من سيدى إن أبطأ

سنيبة ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فابطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل
السحائب مشياً أحفائها ، وأنفع الحيا ماصادف جدبها ، وألذ الشراب
ما أصاب غليلاً ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . له الحمد على
اهتباله ، ولا عتب عليه في اغتفاله .

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللأئي سررن ألف «
ثم وقف مرقف المذلة . وكأنما يسمع الإنسان بكاءه في كلامه ،
واستصغر ذنبه في ساحة عفو سيده ، وفي جوار ما ارتكبه غيره من
الذنوب الكبيرة ، فقال :

« وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ؟ والجهل
الذي لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذي لم يستغفره تطولك ؟
والتحامل الذي لم يف به احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريثاً فأين
العدل ؟ أو مسيئاً فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
فهبني مسيئاً كالذي قلت طالباً قصاصاً فأين الأخذ ياعز بالفضل
حنانيك . قد بلغ السيل الزبى ، ونالني ما حسبي به وكفى ، وما أراني
إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح اركب
معنا ، فقلت سآوى إلى جبل يعصمني من الماء ، وأمرت ببناء صرح
لعلني أطلع إلى إله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ،
وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت .. »

والعجب في ذلك من حضور ذهنه وحدثه مما يدل على تيقظه

الشديد . ثم أخذ بعد ذلك يبرىء نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصغى إلى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن جمهور لوماً لا يظهر إلا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف؟ ولا ذنب إلا نسيمة أهداها كاشحاً ، ونبأ جاء به فاسق وهم الهنازون المشاءون بنعيم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً ...

والله ما غششتك بعد النديحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية اليك ، ولا ناصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت يأساً منك ، مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك . فقيم عبث الجماء بأذمتى ، وطاث العقوق فى مَوَاتى ، وتمكن الضياع من وسائلى ؟ ولم ضاقت مذاهبي وأكدت مطالبي ؟ وعلام رضيت من المركب بالتعايق بل من الغنيمة بالاياب ؟ وأتني غلبنى المغلب ، وفجر على العاجز الضعيف . ولطمتنى غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع منى قبل أن أفترس وتدركني ولما أمزق ، أم كيف لا تتضررم جوائح الا كفاء حسداً الى على الخصوص بك ، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة فى الكرامة عليك »

ثم ذكره باخلاصه له ، ومدحه إياه وأخذ يرجع الى استعطافه ويملقه فقال :

« وقد زانى رسم خدمتك ، وزهاني اسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل فى سمائك ، وقتت المقام الحمود فى بساطك .

ألمست الموالى فيك غر قصائد هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
 ثناء يظن الروض منه منورا ضحى ويخال الوشى فيه منمنما
 وهن لبس الصباح الا برداً طرزته بفضائك . وتقلبت الجوزاء
 إلا عقدا فصلته بما ترك ؟ واستملى الربيع الاثناء ملائته فى محاسنك ؟
 وبث المسك إلا حديثاً أذعته فى محامدك ؟ ما يوم حليلة بسر . وان
 كنت لم أكسك سليبا ، ولا حليلتك عطلا ، ولا وسمتك غفلا . بلي
 وجدت أجراً وجصاً فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت . حاشا لك
 أن أعد من العاملة الناصبة ، وأكون كالذبالة المنصوبة تضىء للناس وهى
 تحترق ، فلك المثل الاعلى وهو بى وبك أولى . »

ثم جاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، فبين له أن مثله لا يصبر
 على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر ، ويخاطر فى
 هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام ، مستأنسا بأدبه وفضله فقال
 « ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أتحول اذا بلغتني الشمس
 ونباني المنزل ، وأصفح عن المطامع التى تقطع أعناق الرجال ، فلا استوطىء
 العجز ، ولا أطمئن إلى الغرور . ومن الامثال المضروبة « غامرى أم
 طامر » . وانى مع المعرفة بأن الجلايسبا ، والنقلة مثله

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى مصارع مظلوم حجرا ومسحبا
 وتدفن منه الصالحات وان يسيء يكن ما أساء النار من رأس كبكبا

عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زياله

والنسيب لا يُخْفَى ، والجمال لا يُجْنَى . ثم ما قران السعد لاكواكب أبي
أثرا ، ولا أسنى خطرا من افتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقا معه
فان الحائز لهما ، الضارب بسهم فيهما - وقيل ما هم - أينما توجه ورد
منهل بر : وحط في جانب قبول ، وضوحك قبل انزال رحله ، وأعطى
حكم الصبي على أهله

وقيل له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا مبيت صالح ومقيم «
وكانه شعر بأن هذا يدعوا ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما يذان
في هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه . فأخذ ياطف من حديثه
واسكن من هياجه : ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه
في الحياة فقال :

« غير أن الودان محبوب . والمنشأ مألوف ، واللييب يحن إلى وطنه
حنين النجيب إلى عطائه . والكريم لا يجفو أرضا فيها فوابله ، ولا ينسى
بلدة فيها مراضعه ، قال الاول

أحب بلاد الله ما بين منعج إلى وسامى أن يصوب سحابها
بلادها حل الشباب تمانى وأول أرض مس جلدى ترابها

هذا إلى مغالاتي بعقد جوارك ، ومنافستي بلحظة من قربك ،
واعتمادى أن الطمع في غيرك طبع ، والغنى من سواك عنا ، والبذل
منك أعور ، والعوض لفاء ، وكل الصيد في جوف الفرا
وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى ضنا به نظرى إلى الأُمراء »

ثم أخذ يقوى أمله في اجابة طابعه ، ويضرب الامثال في ذلك ،
ويمدح في جوار سيده بقوله :

أعيدك ونفسي من ان اشيم خلبيًا ، واستعطر جهاهما ، وأكرم
غير مكرم ، واشكو وشكوى الجريح إلى العقبان والرخم ، فما أبست
لك إلا لتدر ، وحركت لك الحوار إلا لتحن ، ونهتلك إلا لثامنا ،
وسريت لك إلا لأحمد السرى لديك ، وإنك أن سنيت عقد أمرى
تيسر ، ومتى أعذرت في فك أسرى لم يتعذر ، وعامك محيط بأن المعروف
ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المرءة ، وفضل الجاه يعود صدقه .

وإذا امرؤ أهدي إليك صنيعه من جاهه فكأنها من ماله »

هذا أكثر ما في هذه الرسالة الجدية . وأعظم ما فيها تأليفها الذي
يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة ، التي تهيج مرة وتسكن
أخرى ، وتجمد أحياناً ثم ترجع وتلين ، وكأنها الكاتب في نزاع مستمر
بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يضعف كل منهما عند
ما يخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون ، يراها القارىء إذا وقف عن كذب
ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو يفكر في هذه الرسالة . يرى
نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه
المتهمكة ، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التي تستحق مثل عقوبته ،
لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وخرق في

الرأى . ويرى نفسه الكثيفة التي أخذتها الاكدار فذلت وأخذت
لستعطف وتستشفع وتعلق . يرى الانسان كل ذلك فى هذه الرسالة .
ومن هنا جمالها وابداعها . لاما بها من الاسلوب البليغ أو العبارات
المختارة لاغير .

أما رسالته الثانية التى كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة .
فقد دأب فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع فى
الهجاء . لأنه أقذع فى ذم ابن عبدوس اقذاطا ، وتهكم به تهكما لامثيل
له ، حتى انه ليخيل الى الانسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال فى الذم
والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوبا جميلا خلايا يدل على
تمكنه من التصرف فى الكلام ، ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لأن
هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها ، الذى يستغرق أربعة
أخماسها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والايات المشهورة ،
والاطناب فى ذكر الاسماء التى يكفى منها القليل ، ليس فيها ما يدعو
إلى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على ان بها شيئا كثيرا
من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهورى الرجال ،
سردها سردا ، وكان يكفى عشرها ، وأكثر أيضا من صفات الذم ممسا
كاد يكون ثرثرة ولغوا . ولكنه ستر كل ذلك ببراعته فى الصناعة .
وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة فقد ابتدأها بسفاهة
نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

« اما بعد ايها المصاب بعقله . المورط بجهله . البين سقطه : الفاحش
غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ؛ الأعمى عن شمس نهاره . الساقط سقوط

الذباب على الشراب . المتهافت تهافت الفراش على الشهاب . فأت
العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب . وإنك راسلتني
مستهديا من صلتى ما صفررت منه أيدي أمثالك ، متصديا
من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك . مرسلا خيليتك مرتادة ،
مستعملا عشيتك قوادة . كاذبا نفسك انك ستنزل عنها الى . وتحاف
بعدها على

ولست بأول ذي همة دعت له ليس بالنائل
ولا شك أنها قَلَّتْكَ إذا لم تضن بك . وملتك إذا لم تعز عليك .
فإنها أعذرت في السفارة لك ، وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة أن
المروءة لفظ أنت معنا ، والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، حتى
خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة
العزیز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ،
وكسرى حمل فاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ... »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أقذع
في الذم وأفحش في صفاته فقال :

« وهبها ، لم تلاحظك بعين كيلة عن عيوبك ، ملؤها حبيبها ، حسن
أيها من تود ، وكانت انما حلتك بحلاك ، ووسمتك بسماك ، ولم تعرك
شهادة ... ولم تكن كاذبة فيما اثنت به عليك ، فالعیدی تسمع به خير
من أن تراه . هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ،
مفرط اللحم والغباوة ، جافى الطبع ، سىء الجابة والسمع ، بغيض الهيئة ،

سخيّف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كثير المعاييب
مشهور المثالب ، كلامك نمّمة ، وحديثك غمغمغة ، وبيانك فهمة ،
وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ،
وعلمك مخرقة

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق «
واستمر على هذا النحو إلى آخر الرسالة يضرب الامثال للاستهزاء
واتهم

ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة
الانتقام وأنه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبيعته وخشونة في
أخلاقه . مع ذلك . فهي رسالة تمتاز بأسلوبها ، وتناسق عباراتها ، ولعل
ابن زيدون أخذ هذا الأسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في
رسالة الترييع والتدوير

ابن هانيء

(١) حياته ومنشؤه : هو أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي
الاندلسي ، من أكبر شعراء الاندلس وأشهرهم . ذاع ذكره في المشرق
والمغرب وتقدم على غيره من الشعراء ، وعاش في أرغنة أيام دولة بني
أمية في الاندلس ، فقامت في سنة ٣٦٢ بعد أن عاش ستا وثلاثين
سنة ، فيكون مولده على هذا القول في نحو ١٢٢٦ وهذه الايام هي أزهى
أيام دولة الامويين ، وأبهى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم
(مات الناصر سنة ٣٥٠ ومات الحكم سنة ٣٦٦) في هذا العصر عاش
ابن هانيء وظهر على الشعراء ، ولكنه لم يكن من بين شعراء الناصر
ولا من حاشية ابنه ،

وأصل أبيه هانيء من أفريقية ، وكان هو أيضا شاعرا مشهورا
وأديبا معروفا ، فانتقل الى الأندلس ، فولد له محمد هذا بمدينة أشبيلية
وإذا كان أبوه أديبا وشاعرا ، أي صنعتة الأدب يميل منه ويرحل
في طلب السؤال به ، كان ابنه أيضا من عشاق الشعر ، وكانت أشبيلية
إذ ذاك أخصب بلاد الاندلس علما وأدبا ، فنشأ بها وبرع في الادب
واندمج في صف الشعراء لما كان له من الميل إلى ذلك ، وقد ورث
الذوق الأدبي عن أبيه وتربى على حب الشعر ، وعرف منزلة الشعراء
وأدرك ما كان لهم من رفعة الشأن ، والافاضة عليهم بالمال والثراء ،
وكان ذكيا نبيا ميالا للخفة والدعارة ، وكانت بذرة الترف واللهو نبتت
في تلك البلاد فاندفع في هذه البيئة اندفاعا ، وانصل بصاحب أشبيلية

ونال حظوته وانهماك في الملاحى والملاذ، ولم يكن له رادع نفسى ولا دينى، ثم جاهر بشيء من الآراء الممقوته هناك فغضب عليه أهل أشبيلية وساءت المقالة في حق الملك، بسببه واتهم بمذهبه، فأشار عليه الملك بالغيبة مدة لينسى فيها خبره فخرج من أشبيلية وعمره ستة وعشرون عاما ورحل إلى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذى فتح مصر للمعز) أحد ملوك أفريقية ثم اتصل بيهجي بن على بن بحر أحد ملوك طنجة وأخيه جعفر فبالغا في أكرامه. ثم علم به المعز العبيدى أحد ملوك أفريقية فأجرى عليه كثيرا من العطايا وأكرمه اكراما عظيما وكان محبا للعلم والادب، وسافر المعز هذا إلى مصر فشيعة ابن هانىء ورجع إلى المغرب لاأخذ عياله ولما وصل إلى برقة اضافه شخص هناك وبقي عنده أياما في هناء وسرور ومجون باغ أشده وقالوا أنه خرج من تلك الديار وهو سكران فنام في الطريق فأصبح ميتا ولم يعرف سبب موته وقيل عربدو عليه وقتلوه. ولما باغ المعز خبر موته أسف أسفا شديدا وقال كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك.

(٢) أدبه وشعره : كان محمد بن هانىء من أصحاب الظرف

والخلاعة، ذا أدب جهم، لا يبالي بما يفعل ولا بما يقول، حتى قالوا عنه إنه كان في كلامه كثير من الافراط والغلو في المدح المفضى إلى الكفر، وكان ينتجع أما كن الرزق لدى الخلفاء والامراء كغيره من الشعراء ويميش على متون القوافي، وكانت حياته ككل حياة الادباء التنقل والرحلة وانشاد الشعر وحفظه، والاطلاع على الأدب واللغة وشيء من تاريخ الادباء وحياتهم، ومعرفة أقوال الشعراء، ووعى أشهر

كلامه وأساليبهم وطرق التصور لديهم ، وموازنة الكلام بعضه ببعض ، والامعان في معرفة الجيد والردىء منه . لان ذلك كان له ولامثاله المرجع الوحيد الذى يستمد منه افكاره ومعلوماته وتصوراتيه ، التى هى كل شئ لديه

هذه كانت حياته العقلية وحياة امثاله من الادباء الخالص الذين لم يشتغلوا بالعلوم ، ولم يتجهوا الى الاستفادة منها . ولم تكن لابن هانى نزعة ادبية في غير الشعر . فقد اتجه اليه بكل قواه العقلية وحصر جميع ادراكاته فيه . لذلك ظهرت مواهبه في الشعر ، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء

شعره : أما شعره فهو في جماته من الكلام الجيد . ونريد بالجودة هنا اختيار المعانى الداعية الى التفكير وحمل الذهن على البحث فيها ، ليدركها القارئ إدراكا صحيحا يتعظ به . أو يستفيد منه شيئا جديداً في حياته العقلية ، أو يذكره برأى نافع ، أو مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع ، كما هى الحال عند كبار الشعراء المفاكرين . فشعر ابن هانى به كثير من ذلك تطمئن إليه النفس وتميل الى آرائه وتصديقها وبه افكار عامة في الحياة . واكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة . ولقد يجد الانسان روح المتنبي تدب ديبا في كلامه احيانا ، وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاؤا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ، ولم ياجوا باب الحقائق الانسانية فى شئ ، ولا طرّفوا ابواب الحكمة ، بل اقتصروا على الاوصاف والتشبيهات . على ان ابن هانى رغم طريقته المعروفة التى نسبت إليه ، كان يظهر عليه

أنه ناقل ومقلد في تلك المعاني التي حدثت في زمن المتنبي ، وفي الاساليب العربية التي كانت قبل ذلك ، فان منهجه في كلامه وأسلوبه لا يدل على غير ذلك . غير أنه بارع في جمع المعاني الغريبة ونظمها . واقف على كثير منها ، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ يذكرها لمناسبة ولغير مناسبة وله في كلامه آراء تشبه آراء الناقد البصير في الاجتماع والناس ، ولعل هذا هو الذي حمل على القول بأنه كانت له آراء ممقوته وسموها آراء فلسفية .

وأول شيء يشعر به الانسان عند قراءة شعر ابن هاني أنه شاعر . لا كغيره من الشعراء ، شاعر ممتاز عن سواه ، وكفى بذلك دليلا على ملكة الشعر لديه . إن الصبغة الخاصة التي تدل على أثر الشاعر والكاتب أو على شيء من شخصيته في كلامه هي علامة من علامات الافتنان التي من أجلها يحسب من بين الفنانين . وليس الافتنان غير إبراز الجمال وكشف دقائق ما فيه .

وما هو جمال الشعر ؟ أليس هو ذلك الديب الذي يدب في النفوس فيملأها بهجة وارتياحا ويحملها على الإعجاب بالكلام وما فيه ؟ أليس جمال الشعر في تلك الرنات التي تطرب النفس وتحركها كما تحركها رنات المزاهر والأفاني ؟ أليس جمال الشعر في الألفاظ والمعاني وتنسيقها وتناسبها وتقابلها وترتيبها ، ونظمها وجمعها بأسلوب يتحامل به الشاعر على أن ينال من نفس غيره وشعوره ، وأن يتقرب إلى فؤاده وامتلاك عقله ، وأن يحرك لقلوب والعواطف ، ويحكم على العقول ، بالأصغاء إليه والتصديق لما يقول ؟ . هذا هو جمال الشعر ، كما ان ذلك هو سر كل فنون الجمال . واكثر جمال

الفنون هو في معرفة تصوير الاشياء والمعاني مع دقة الفنى في ذلك .
ولقد يكون الافتنان تقاييداً متقناً لشيء معروف . هذا التقاييد المتقن
هو ما يراه الانسان جميلاً . فليس من لوازم الافتنان في الشعر ابتكار
المعاني ، بل الاحاطة بها مع دقة ابرازها :

وهذا ما يشعر به القارىء في أكثر شعر ابن هانيء ، يشعر بسعة
خياله ، ودقة ادراكه ، وحسن اختياره ، وتنسيق صناعته ، وافتنانه
الخاص ، الذى يدل على أن الكلام كلامه ، والاسلوب أسلوبه . يتغزل
ابن هانيء كما يتغزل غيره . ولكنه غزل غير غزل غيره ، تشعر عند
قراءتك له أنه شاعر ممتاز ، له صفة خاصة وذوق خاص . يغرب في
غزله ويتعجب من جمال محبوبته . ويخاطبها ويصفها بما يدعو إلى الإعجاب
بها ، ويحرك العواطف اليها . وكأنما ذلك كله أثر غرامه الصحيح ،
وحبه الصادق ، وربما لم يكن شيء من ذلك ، أرايت كيف يتغزل
في قصيدة مدح :

فتكات طرفك أم سيوف أبيك	وكؤوس خمر أم مراشف فيك
أجلاد مرهفة وفتك محاجر	ما أنت راحة ولا أهلوك
يابنت ذى البرد الطويل نجاد	أكذا يجوز الحكم في ناديك
قد كان يدعوني خيالك طارقاً	حتى دطاني بالقنا داعيك
عيناك أم مغناك موعدا وفي	وادی الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنية الكرى وسروا	فلو عثر وابطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ماسقوك مدامة	لما تمايل عطفك اتهموك
حسبوا التكمحل في جفونك حلية	تالله ما بأكفهم كحلوك

ولوى مقبلك اللثام ومادروا ان قد لثمت به وقبل فوك
قد يكون تشبيهه العيون بالسيوف معروفا ، وقد يكون تشبيهه
الريق بالخر ، والاشارة الى أن التكحل غير الكحل معروفا أيضاً ،
ولكن ما ليس معروفا هو ذلك الأسلوب ، وهى روح الشاعر التى
لست هذه المعانى ، وكأنما قيسست عليها أو كانت من مبتكراتها ولقد
يأتى فى أثناء كلامه بمعان وتشبيهات بديعة مع أساوبه المعروف فى
البدء بالغزل .

كان ابن هانئ يعيش من شعره ولذلك كان أكثر شعره وابلغه
فى المدح ، فقد مدح المعز لدين الله الفاطمى وغيره من الأمراء بشعر
يسيل رقة وجمالا . ولما كان غرضه التملق فى مدحه وطلب الرزق بذلك
كان يكيل المدح كيلا ويميل إلى المبالغة حتى يصل بمدحه أوج الكمال
ولم تكن قصائده فى المدح مقصوده على تمجيد من يمدحهم وتعظيمهم
لاغير ، بل كان يدخل فى مدحه كثيرا من الأغراض اثناء كلامه ولذلك
يشتمل شعره على جميع أغراض الشعر وفنون الكلام حتى لقد يرى
أنه أجاد ضمنا فى كل هذه الموضوعات فيحسب وصافا وغزالا ومادحا
وواعظا وحكيما وجادا وهازلا .

وقد يبالغ فى كل معنى من المعانى مبالغة من يريد تمجيم المعنى
بالاستعانة بالخيال أو المبالغة ولايبالى بما عسى أن يكون فى شعره من
كذب أو هوار لأنه لم يكن يتوخى الحقائق فى كلامه فكان إذا مدح
رفع شأن ممدوحه وجعله يختص بصفات الكمال وحده وكأنه كل شيء
فى الوجود كما قال يمدح المعز : -

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعله ما كانت الأشياء
ليست سماء الله ماترونها لكن أرضا تحتويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره وأطعه الاصباح والامساء
وان أدى ذلك إلى كفر أو إلحاد . ولعله لم يكن يعنى بغير الافتنان
فى اختيار المعانى واظهار البراعة فى ذلك وكأنه رجل شاعر لا غير . أو
فى ينمق العبارة ولا يبالى بما يؤدى اليه المعنى . ومثله فى ذلك مثل
المثاليين أو المصورين الذين يقصدون من أعمالهم اظهار حقيقة فنية أو
معنوية فيصورون السماء والرجال عرايا ولا ينظرون إلى ما عسى أن
تؤدى اليه آثارهم الفنية من فساد فى الاخلاق ، أو انعواج فى النفس
فقد مدح ابن هانئ المعز لدين الله بما لم يمدح به انسان ووضع فى
مقام الألوهية فقال : —

ماشئت لاماشرات الأقدار	فأحكم فأنت الواحد القهار
وكانما أنت النبي محمد	وكانما أنصارك الأنصار
أنت الذى كانت تبشرنا به	فى كتبها الأحبار والأخبار
هذا امام المتقين ومن به	قد دوح الدويان والكفار
هذا الذى ترجى النجاة بحبه	وبه يحط الاصر والأقدار
هذا الذى تجدى شفاعته غدا	حقا وتحمد إن تراه النار

وأكثر عيوبه فى شعره ترجع إلى اختيار مثل هذه المعانى وإلى
عدم مبالاته بما يقول . ولقد يمدح فيتصيد المعنى القليل واللفظ الشريف
ويرسله فى عبارة يبتث فى النفس الاعجاب كقوله فى مدح المعتز : —
فاذا بعثت الجيش فهو منية وإذا رأيت رأى فهو قضاء

ويعمدح ويقول في موضع آخر

قد طيّب الافواه أطيب ثنائه من أجل ذا تجدد الثغور عذابا
لبس به الصباح صباحا مـفرا وسقت شمائله السحاب مسحبا
قد بات صواب المزن يشرق الندى من كنهه فرأيت منه عجابا
أو يعمدح فيقول على طريقته في المبالغة الجميلة :-

وما الجود قبلك سابقا بل جود شيء في زمانك حادث

وفي هذه القصيدة يقول :-

عبثت زمانا بالليالي وصرفها فهاهي بي لو تعلمون عواث
لئن كان عمق النفس للنفس قائلا فاني على حثفي بكفى باحث
وان كان عمر المرء مثل سماحه فان أمير التراب للأرض وارث
وإذا نحن جئناه اقتسمنا نواله كما اقتسمت في الاقربين الموارث
وان حراما أن نؤمل غـيره كما حرمت في العالمين الخباث
تبسمت الايام عنك ضواحا كما ابتسمت حول الرياض الدماث
وسد ثغور الملك بعد استلامها

وقد أظلمت تلك الخطوب الكوارث

فما أراد في محبوبه الملك رائد ولا عاث في عرشه الليث عاث
ولقد يبدأ المدح بالغزل كغيره من شعراء العرب ، ولكنه يمتاز
برقة المعنى والاسلوب وكأنما ينقض على المعنى انقضا ويختطفه
اختطافا ويلبسه ثوبا من أسلوبه الجميل كما يتصيد المعاني الشاردة البعيدة
فلا تدرى أيهما تفضل أمعانيه الغزلية الرقيقة التي يخيل اليك أنها مبتكرة ،
أم مدائح البديعة التي تخيل اليك أنه مخلص وصادق فيها وفي كلتا

الحالتين تدفعك إلى الاعجاب والطرب .

أمسحوا عن ناظري كل السهاد وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا مني ما ابقيتموا لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محباً من هوى أو تفكون اسيراً من صفاد ؟
أسلوا عنكم من هجرم قلما يسلو عن الماء الصواد
إنما كانت خطوب قيضت فعدتنا عنكم إحدى العواد
فعلى الايام من بعدكم ما على الظماء من لبس الحداد
لامزار منكم يدنو سوى أن أرى أعلام هضب أو نجاد
قد عقلنا العيش في أوطانها وهي ابناء زميل ووخاد
وحديث عنكم كثرة عن نسيم الريح أو برق الغواد
لم يزدنا القرب الا هجره فرضينا بالتناهي والبعاد
وإذا شاء زمان رأينا بريقب أو حسود أو معاد
ثم تطرق من ذلك الى المدح مع اختياره جميل الصفات وتعدادها :
حتى أنه ليخيل إلى القاريء أو السامع أن هذا الكلام أفضل ما يمدح
به انسان أو أنه ليس من وراء ذلك الا طراء فقال :

من امام قائم بالقسط أو منذر منتخب للوحى هاد
أهل حوض الله تجرى سلسلا بالطهور العذب والصفو البراد
اسوامم ابتغى يوم الندى أم سوامم ارتجى يوم المعاد
هم أباحوا كل ممنوع الحمى واذلوا كل جبار العناد
وإذا ما أبتدأ الناس العلى فاهم عاديها من قبل عاد
ولهم كل نجاد مرتدى ولهم كل سليل مستجاد

ولقد يرق في كلامه فيأتى بالمرقص والمطرب ، حتى لا تعرف أهو
شاعر أم مادح أم عاشق أم مبتكر للمعاني أم موحى اليه بها ، كقوله :

قد مررنا على مغانيك تلك	فرأينا فيها مشابه منك
طارضتنا المها الخرائد أسرا	بأجرائها فلم تسلم عنك
لا يروع للمها بذلك سرب	فلقد أشبهتكم إن لم تكنكم
فخـنـين مرجع كخنيـني	وتشك مررد كتشكـي
فأنشدت سكب الدموع نسكـي	ثم لا تسفك الدماء كسـفـكـي
لا أرى كابن جعفر بن علي	ماـكا لا بسا جلالة ملك
تتفادى القلوب منه وجيباً	في مقام على المتوج صنك
وطويل النجاد فرج منه	جانب السجف عن حياة وهلك

ولقد يصف فيبدع في الوصف ، وتظهر ميوله المجونية في شعره ،
فيكون أصدق ما يكون ، وأرق انسان ، عذب الالفاظ رشيقا ،
خفيف الروح مبدا جذابا :

قن في مأتم على العشاق	ولبسن الحداد في الأحـدق
وبكين الدماء بالغم الرط	بالمقنا وبالخلود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا	هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دم	مع طليق ومهجة في وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى	آذنو بالفراق قبل التلاق
ودنو للوداع حتى ترى الاجـيـ	اد فرق الاجياد كالأطواق
يوم راهنت في البكاء عيونا	فتقدمت في عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن يـ	نع جمر الغضى عن الاحراق

رب يوم لنا رقيق حواشي الله — هو حسنا جوال عقد النطاق
 قد لبسناه وهو من نفحات الله — سك درع الجيوب درع التراق
 والأباريق كالظباء العواطي —
 مصغيات إلى الغناء مطلا — ت عليه كثيرة الاطراق
 وهي شم الانوف يشمخن كبراً — ثم يرعفن بالدم المهرراق
 قدمتها السقاة كي يوقروها — صمماً عن سماع شاد وساق
 فهي أما يشكون ثقلاً من الوق — رواها يبكين بالاماق
 ويمزج أسلوبه بشيء من أساليب غيره، كتقليده المتنبي، حيث
 يبت الحكم، أو شيئاً من التهكم، بينما هو يتكلم في المدح أو في الغزل.
 ولقد يسبق إلى فكره شيء من المبالغة فيجرب به لسانه فكأنه يقول
 ذلك عن غير قصد. كما في قصيدته السابقة وما الجود.. الخ
 وكثير من قصائده هي من نوع مزج الغزل بالحماسة والمدح. كما سبق
 ثم ينتقل من معني إلى آخر. ويميل دائماً إلى الوصف الغزلي. كقوله :
 قر لهم قد قلدوه صارما — لو أنصفوه قلدوه كوكبا
 صبغوه يوماً بالشقيق وبالرحي — ق وبالبنفسج والاقاحي مشربا
 وكأنما طبعوا له من لحظه — سيفاً رقيق الشفرتين مشطبا
 قدماج حتى كاد يسقط نصفه — وأذيل حتى كاد أن يتسربا
 خالسته نظرا وكان موردا — فاحمر حتى كاد أن يتاهبا
 فاذا مدح وصف وذكر صوراً كثيرة من الحوادث التي مرت في

حياة المدوح فبنت مجده ورفعت قدره . وفصائده في ذلك كثيرة :
وهو في رثائه جيداً أيضاً . يأتي بالعظة والعبر . وذلك هو الأسلوب
الفلسفي المعروف في المشرق . ومن كلامه في ذلك قصيدته التي يقول فيها

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد بخيل ففسد
كلما أعطى فوفى حاجة بيد شيئاً تلقاه بيد
كاذب جاء جهاما زبرجا بعد ما أومض برق ورعد
انهاش نشنة من أنخزم قلما ذم بخيل فحمد
خاب من يرجو زمانا دائما تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نمي واذا ما طيب الزاد نقد
فلقد أذكر من كان مسها ولقد نبه من كان رقد
أبدا يعجم مني نبعه وقناة ليس فيها من أود

أسلوبه ويحسب أسلوبه في جملة من الأساليب الجيدة السهلة ، لتمكنه
من التفنن في صناعة الكلام ولـكنه كثيرا ما يتكاف العسنة ويميل
إلى ترصيع شعره بأنواع البديع فيأتي من طباق أو جناس أو مقابلة
كما يأتي بالاستعارة الغريبة والكناية البعيدة وغرضه من ذلك أن
يستعين بصناعته على إبراز معانيه جميلة حلوة واضحة لأنه قد يأتي
على المعنى المعروف فيكسبه بأسلوبه الجميل صبغة جديدة ولقد يدفعه
ذلك إلى الميل إلى الغرابة والتكليف والعناية بالصنعة والأسلوب أكثر
من العناية بالمعاني واختيارها ولـكنه في جملة جميل الصنعة كثير
البحث عن المعاني الدقيقة وعن اختيار الالفاظ الرشيقة

ولقد جرى في أسلوبه على الأسلوب القديم في البدء بالغزل
والاسترسال فيه وذكر المعاني القديمة المعروفة عند الشعراء ولعل ذلك
جاء من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثيرا منه ولكنه في جملة
جميل الصنعة كثير البحث عن المعاني الدقيقة واختيار الألفاظ الرشيدة
حتى قال عنه أبو العلاء المعري ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا لأجل
القعقة التي في ألفاظه وقال الضبي صاحب بغية الملمس « وهو كثير
الشعر محسن مجيد إلا أن قعقة الألفاظ أغلب على شعره » وربما
كان أسلوبه دليلا على قول من يدعى أن شعراء الأندلس رغم ما كان
لهم من الامتياز في الفكر والأساليب كانوا يقفون أثر البدو القدماء



ابن خفاجة الأندلسي

نشأته وميوله الفنية :

هو أبو اسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الأندلسي الشاعر الأديب المشهور ، ولد ببلدة شقر ، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر . وكانت ولادته سنة ٤٥٠ هـ وتوفي بها سنة ٥٣٣ هـ : عاش في عصر المرابطين بعد زوال دولة بني أمية والدولة العمارية ، وبعد انتهاء دولة بني عباد ، أي في عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أو كاد يبلغ منتهاه ، وكان الأدباء في لهو ومجون ، وكانت الملاحى والاشتغال بالملذات صرفت إليها العقول ، وجذبت إليها الأفكار ، فهدبت منها قليلا أو كثيرا . وإذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال ، ومتى عشقت الجمال مالت إلى فهمه ، وما فيه من روعة وإبداع . فاذا كانت النفوس قد تهذبت بالعلوم والفنون المختلفة . أدركت جمال الكون إدراكا عميقا ، وبخنت عن خفاياه بحث الفيلسوف عن الحقائق ، وكان الشاعر فيلسوفا فنيا وشاعرا فيلسوفا ، يظهر الفلسفة في ثوب شعري ، ويظهر الشعر في ثوب فلسفي . أما إذا كان فنيا بطبعه ، ولم يكن له نصيب من العلوم ، فانه يكتفى بالنظر إلى الأشياء وفهم جمالها ، على حسب ما بها من التماسق الظاهر ، والمناظر الباهرة ، وجمال الألوان ، وكل ما توحى الطبيعة إلى النفس من الإعجاب . ولقد يؤثر هذا الشاعر في النفس بجمال قوله كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق إدراكه .

وقد وقف ابن خفاجة كل مواهبه لأدراك الجمال ، وفهم ظواهره الرائعة

المبتوثة في أنحاء الكون . فهو من الشعراء الذين ربتهم الطبيعة، وهذب إدراكه جمال الوجود فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية إلى معالجة التعبير عن هذا الجمال، وانغمس انغماساً في ذلك ، حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع ، ولا يبحث إلا عن المعاني الجميلة . فقد كان يخرج إلى البراري ليسمع خرير المياه، ويتمتع بهذه الأصوات والمشاهدات . وكان له ولع بهذا . وبكل ما يقال فيه فكان يجارى الشعراء ويعارضهم في مثل هذه المعاني التي شغلت عقول كثير من الأدباء والشعراء ، وكان الكلام في مناظر الطبيعة إذ ذاك من بدع البلاغة والأدب . فقد قالوا « ركب بعض الأدباء مع أصحاب له في نهر أشبيلية في عشية سال أصيافاً على لجين الماء عقيانا، وطارت زواريقها في سماء النهر عقبانا ، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سروراً وأعطانا . في زورق يجول جولان الطرف ، ويسود اسوداء الطرف فقال بديها : -

تأمل حالنا ، والجو طلق	محياء ، وقد طفل المساء
وقد جالت بنا عذراء حبلى	تجاذب مرطها ريح رخاء
بنهر كالسجنجل كثرى	تعبس ووجها فيه السماء

واتفق أن وقف أبو اسحاق بن خفاجة على القطعة فاستظرفها واستطابها فقال يعارضها : -

ألا يا حبيدا ضحك المحيا	بحانتها وقد عبس المساء
وأدم من جياذ الماء نهر	ينازع جله ريح رخاء
إذا بدت الكواكب فيه غرق	رأيت الماء تحسده السماء »

فكان شغف ابن خفاجة بمثل هذا الكلام عظيماً ، وكانت له ميول

إلى المجون ، فاجتمعت هذه الميول النفسية ، إلى حبه لجمال الطبيعة
وكونت ملكته الشعرية وخیالاته وتصوراتہ ، حتى لقد كان يملأ
نفسه المجون فيمتلئ عليه من المعاني ما يرسم شيئاً من أخلاقه وميوله في
الحياة . كما قال .

وما الأتس إلا في مجاج زجاجة ولا العيش إلا في صرير سرير
وإني وإن جئت المشيب لمولع بطرة ذل فوق وجه غدير
فكانت ميوله وأخلاقه كأخلاق كل الفنين وميولهم ، خفة وطيشا .
ولكنها خفة روح تدعو إلى حبه وحب كلامه . وهذا كله في شعره ونثره ،
وكأنه لم يكن يرى من الحياة إلا ما يتفق مع أهوائه من بهجة وجمال ،
حتى إنه وصف الأندلس وقال :

يا أهل أندلس لله دركمو ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا في دياركمو ولوتخيرت هذا كنت اختار
هذا السرور النفسى كان يغمره ولا يفارقه ، فانه كان يحب بلاده
لأنها وطنه ، بل لأنها جميلة تشبه ما يحب في حياته من الجمال ،
إذ يقول .

إن للجنة في الأندلس مجتلى حسن ورياً نفس
فَسَنا صبحتها من شذب ودجا ظلمتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا هجت واشوق إلى الأندلس
هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية في جماتها ، وأثرها ظاهر
في حياته العقلية ، وفي رسائله النثرية وقصائده الشعرية .

شعر ابن خفاجة

رأينا أن ابن خفاجة كان مدفوعاً بطبعه إلى التأمل في المشاهدات ،
والإمعان في النظر إليهما ، وتذوق أسرار جمال الطبيعة . والجري وراء
ذلك ، وكان هذا كل ما يرمى إليه من إدراك الحياة ومعاني الوجود لأن
مشاهداته وأثرها في نفسه كانت تجذب قوى التفكير لديه ، وترسم
له طرق الإدراك . وكان من أشد الأشياء أثراً في نفسه واستيلاء على
عقله جمال الأشياء ومظاهر الطبيعة وتناسق الألوان فلم يمل إلى معرفة
غير هذه الأشياء الجميلة ، ولم يجذبه من الحياة وضروب ما فيها إلا
الجمال ، فكان دائماً فرحاً مسروراً مبهج النفس لا تتعدى معارفه بسائط
الأشياء الظاهرة ، فلم تجل نفسه جولات المفكرين في معاني الحياة
الخفية ، ولا تكاد تجده مضطرب الفكر ولا مترقباً أو ناظر الهول من
أحوال الحياة وحوادثها المؤلمة ، بل كان هادئاً مطمئناً ، يحمل بين جنبيه
روح الأطفال ونشوة الشبان ، ميالاً إلى اللهو والمجون .

فكان شعره صورة لنفسه الهادئة وفكره مطمئن ومجائته
الخلقية ليس فيه ما يدل على تفكير جدى أو حيرة أو شك في شيء
يدعو إلى النظر أو يشغل الفكر مما يغري بعض المفكرين ويدفع
بالفنيين إلى الخروج من عالم الخيال إلى عالم التفكير في الناس وأخلاقهم
وأحوالهم ، والوجود وما فيه من خير وشر ليصل من ذلك في شعره إلى
ذكر حكمة أو عبرة أو مثل سائر ، أو يدل على كد الفهم أو على صورة
من صور الانسانية المفكرة .

ولا تكاد تجد له صورة صحيحة في شعره تدل على نفسه وشعوره الخفى سوى ميله للجمال وحب الطبيعة الجميلة ، فهو كالمصور الذى يستمد كل شيء مما هو أمامه . ولم تكن تلك حاله لأنه لم يكن يشعر أو يفهم غير هذا ، أو أن نفسه خالية مما يعاق بالنفوس عادة ، كالحب والبغض والهم والحزن ، وأهوال الحياة وغيرها ، بل لأنه لم يكن يميل إلى ذلك ، لأن هذا يدعو إلى البؤس وتحمل المموم وكان هو يريد أن يعيش بعيدا عن ذلك ، سابحا في نوع من الاحلام اللذيذة :

كذلك كانت ميوله وكان ذوقه . ولذلك كان شعره مرآة لآخلاقه من وصف جميل ، ومجون لذينة ولدت في نفسه كثيرا من المعانى الشعرية الجميلة ، واندفع إلى تصويرها والتعبير عنها بما فطر عاينه من دقة فى الإدراك شأن جميع المتفنيين من الشعراء الذين نسربت نفوسهم فى خفايا الجمال وأسراره فكان الجمال مثار شعره ومبعث خياله وافتنانه بتتبع روائعه ، فاذا امتلأت به نفسه أخذ فى وضعه ورسمه فى كلامه البليغ . فكان شعره رشيقا أنيقا لذينا جميل الصورة ، ولكنه كما قلنا بعيد عن صور التفكير الانسانى الصحيح ، وعن التأمل العميق فى الحياة وفهم أسرارها النفسية والاجتماعية . لذلك كان جمال شعره فى أسلوبه ، وحسن صناعته ، وبلاغة عبارته .

أنواع شعره والوصف فيه

أما الموضوعات التي عالجها في شعره فهي : الوصف، والمدح، والعتاب، والثناء والشكوى، والدعابات، وأجمل شعره ما كان في الوصف لأنه كما قلنا وصادف مبدع، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده في أى غرض من الأغراض من وصف جميل يبتثه في كل معنى وفي كل غرض، وقد يتخذ الوصف بما فيه من مجاز أو تشبيه جميل، أو استعارة مسنماحة أو كناية بعيدة أو قريبة وسيلته للوصول إلى كشف المعاني .

وقد يصف فيخيل إليك أنك تنظر في لوحة مصور، أو كأن كل معنى في كلامه « كائن حي » « يتحرك أمماك، كما قال يصف طيفاً لم به في الليل الطويل، وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون في هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبه، والتمتع به في حضرة . والليل يحيط بهما وهو على وشك الانصراف، وأخذ يشبه محبوبه بأنواع الرياحين وهو تشبيه سهل الإدراك صعب التركيب : وليس هذا لا كلام في طاقة كل شاعر، ولا امتلاك البيان بمثل هذا في طوع كل فني ؛ تسكلم في الليل ثم في الطيف ووصفه بأرق ما يصف به حبيب حبيبه ؛ وأحسن ما ينال عاشق من عشيقه، وقد دام ذلك إلى طلوع الفجر، وعيون الليل تتجسس أخبارهم، وضوء الصبح يرقبهم . فقال :

ورداء ليل بات فيه معانق	طيف ألم لظبية الوعاء
جمعت بين رضا به وشرابه	وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظمأ ليلة وفرة	شفقا هناك لوجنة حمراء

والليل مُشْمَطُ الذوائبِ كِبَرَةً خَرَفٌ يَدبُ عَلَى عَصَا الْجُوزَاءِ
 ثُمَّ انْثَى وَالسَّكْرُ بِسَحْبِ فِرْعَه وَيَجْرُ مِنْ طَرْبِ فَضُولِ رِداءِ
 تَنَدَّى فِيهِ أَقْحَوَانَةُ أَجْرِجِ قَدْ غَاظَتْهَا الشَّمْسُ غَبِ سَماِ
 وَتَمِيسُ فِي أَثْوَابِهِ رِبْحَانَةٌ كَرِعتُ عَلَى ظَمَأٍ بِجَدُولِ ماءِ
 زَفَّاحَةٌ إِلَّا نَاسٌ إِلَّا أَنَهَا حَذَرَ النُّوَى خَفَاقَةُ الْأَفْيَاءِ
 فَلَوِيتُ مَعْطَفَهَا اعْتَنَاقًا حَسِبَهَا فِيهِ بِقَطَرِ الدَّمْعِ مِنْ أَنْوَاءِ
 وَالْفَجْرُ يَنْظُرُ مِنْ وَراءِ غَمَامَةٍ عَنْ مَقْلَةٍ كَحَلَّتْ بِهَا زُرْقَاءِ
 فَرَغَبْتُ عَنْ نُورِ الصَّبَاحِ لِنُورَةٍ أَغْرَى لَهَا بِبِنْفَسِجِ الظَّامَاءِ

ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الحالكة المنبعثة من كل
 ركن من أركان الفضاء . وما قد توحيه إلى النفس من الخوف
 والرهبة . وما يلاقيه السارى من حيوان كاسر . وكأنما يظن القارىء
 نفسه فى جوف الفلاة ومخاطر الليل . كل ذلك بتشبيهات جميلة مختارة .
 كما قال :

ومفازة لانبجس فى ظلماتها يسرى ، ولا فلك بها دوار
 تتلهب الشعري بها وكأنها فى كف زنجى الدجى دينار
 ترمى به الغيطان فيها والربى دولا كما يتموج التيار
 قد لفنى فيها الظلام وطاف بى ذئب يلم مع الدجى زوار
 طراق سادات الديار مساور ختال أبناء السرى غدار
 يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا فى فروة قد مسها اقشعرار
 فعشوت فى ظاماء لم تقدح بها إلا لمقلته وبأسى نار
 ورفلت فى خاتم على من الدجى عقدت لها من أنجم أزار

والليل يقصر خطوه ، ولربما
قد شاب من طرف المجرة مفرق
وكما قل :

وليل كما مد الغراب جناحه
به من وميض البرق والليل فحمة -
سریت به أحییه ، لاحیه السرى
يقلمب منى العزم إنسان مقلة
بخرق لقلب البرق خفقة روعة
سحيق ولاغير الرياح ركائب
كأنى وأحشاء البلاد تجنني
أجوب جيوب البید والصبح صارم
وفى مصطلى الآفاق جهر كواكب

ووصف ناراً هبت عليها الريح فأضرمتها وكأما يتغازلان ، أو
كأن النار والريح فى موقف طرب يتمايلان من نشوته . أو كأن الريح
عاشق متم يلم خد اللهب الخجل . أو كأن فى موقد النار ماء عاينه من
نجوم حبيب . فقال :

ذلك

لاعب تلك الريح ذاك اللهب
وبات فى مسرى الصبا يتبعه
ساهرته أحسبه منتشيا
لو أجاءه منتقد لما درى
تلم منه الريح خدا خجلا
فعاد عين الجد ذات اللعب
فهولها مضطرم مضطرب
يهز عطفه هناك الطرب
ألهب متقد أم ذهب
حيث الشرار أعين ترتقب

في موقد قد رقرق العبيح به ماء عايله من نجوم حبيب
 منقسم بين رماد أزرق وبين جمر خلقه يلتهب
 كأنما خرت سماء فوقه وانكدرت ليلا عليه شهب
 ووصف ساقيا جميلا ، فوصف الخمر أيضا ومجاسه ، وكأنما السرور
 يسيل بين ألفاظه ، والنعيم والسعادة يتمثلان في كلامه . فقال :
 وأنغيد في صدر الكلام لحسنه حلّي ، وفي صدر القصيد نسيب
 من الهيف أما ردفه فمنعم خصيب وأما خصره فجديب
 يرف بروض الحسن من نور وجهه وقامت له نواره وقضيب
 جلاها ، وقد غنى الحمام عشية عجوزا عليها لأحباب مشيب
 وجاء بها حمراء ، أما زجاجها فناء وأما ملؤه فلم ييب
 على لجة ترتج . أما حبابها فنور ، وأما موجهها فكثيب
 تجافت بها عنا الحوادث برهة وقد ساعدتنا قهوة وحبيب
 وغازلنا جفن هناك كنرجس ومبسم للاقحوان شنيب
 فله ذيل للتصاني سحبه وعيش بأطراف الشباب رطيب

وكل شيء يراه كان يوقظ خياله ، وينبه من إدراكه ، ويدفعه إلى
 ابتكار المعاني الجميلة : فقد رأى رجلا أسود أحذب يتي خمرأ فقال
 في ذلك :-

رب ابن ليل سقانا والشمس تطاع غره
 فظل يسود لونا والكأس تسطع حمره
 كأنه كيس فحم قد أوقدت فيه حمره
 والمدمام مدير يشب حمرة خمره

تضاحكت عن حباب يقبل الماء ثغره
 فظلمت آخذ يا قو تة وأصرف دره
 حتى تثبت غصنا وأصفرت الشمس نقره
 وارتد للشمس دارف به من السقم فتره
 يجول للغم كحل فيه وللقطر عـ به
 ولقد يفكر في شعره فيأتى بأفكار جميلة ، وملاحظات جميلة ،
 ويخرج من معنى إلى آخر . وقد تكون المعانى معروفة وجديدة معا
 لأنه يبدع ويبتكر في التعبير كقوله :

وليل إذا ما قامت قد باد فأنقضى
 سحبت الدياجى فيه سود ذوائب
 فزقت جيب الليل عن شخص أطاس
 رأيت به قطعاً من الفجر أغبشا
 وأرعن طماح الذؤابة باذخ
 يسد مهب الريح من كل وجهة
 وقور على ظهر الفلاة كأنه
 يلوث عليه الغيم سود عمام
 أصبحت إليه وهو آخر صامت
 وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل
 وكم مر بي من مدج ومأوب
 ولاطم من نكب الرياح معاطف
 فما كان ألا إن طوتهم يد الردى
 تكشف عن وعد من الظن كاذب
 لأعتنق الآمال بيض ترائب
 تطلع وضاح المضاحك قاطب
 تأمل عن نجم توقد ثاقب
 يطاول أعنان السماء بغارب
 ويزحم ليلاً شبهه بالمناكب
 طوال الليالى مفكر فى العواقب
 لها من وميض البرق حمى ذوائب
 فحدثنى ليل السرى بالعجائب
 وموطن أواه تبطل تائب
 وقال بطلى من مطى وراكب
 وزاحم من خضر البحار غوارب
 وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وكما في قوله في المشيب
أرقت على الصبا لطلوع نجم
أسميه مسامحة مشيبا
كفاني رزء نفس أن يدي
وأعظم منه رزء أن يغيبا
ولولا أن يشق على الغواني
للافيت المتاة به خضيبا
فلم أعدم هناك به شفيعا
إلى أمل ولم أبرح حبيبا
غريبة شيب فود إن تراخت
حياتي آل أسوده غريبا
شدت بمجتلاها النور حتى
شدت بمجتلي النور القضيبي
وعفت كراهة لشيء شيئا
يكون له شبيها أو نسيبا
وأية شيبـة إلا نذير
وهل طرب وقد مثلت خطيبا

ويذكر المعاني الغريبة المستماحة ، فيشبه أوراق الشجر بالندارى ،
والنضارة بالضحك ، واهتزاز الغدوون في مهب الريح بمغازلة النسيم لها ،
وأن الريح ياثم خدها الخجل ، وأقسم بالتفات الروض عن زرقة النهر
واشراق جيد الغصن في حلية الزعر فيقول :
أما والتفات الروض عن أزرق الهر

وإشراق جيد الغصن في حلية الزهر
وقد نسمت ريح النعamy فنبهت
عيون الندامى تحت ريحانة الفجر
وخدر فتاة قد طرقت ، وإنما
أبحت به وكر الحمامة للصقر
وقد خلعت البرد عنه وإنما
نشرت به طي الصحيفة عن سطر
لقد جبت دون الحى كل تنوفة
يحوم بها نسر السماء على وكر
ويقول وهو سائر في جوف الليل : -

ونخضت ظلام الليل يسود فحمة
ودست عرين الليث ينظر عن جمر

وجئت ديار الحى والليل مطرف
أشيم بها برق الحديد ، وربما
فلم ألق إلا صعدة فوق لامة
ولا شمت إلا غرة فوق أشقر

وهو القائل فى وصف النهر وهبوب النسيم تلك الابيات المشهورة :-

لله نهر سال فى بطحاء
متعطف مثل السوار كأنه
قد رق حتى ظن قرصا مفرا
وغدت تحف به الغصون كأنها
ولطالما عاطيت فيه مدامة
والريح تعب بالغصون رقد جرى
ولقد بجمع كثيرا من الصور والأكوان فى أبيات قليلة وهو

يبدع فى التصوير أيما أبدع كقوله :-

وصقيل إفرند الشباب بطرفه
يمشى الهوينى نخوة ، ولربما
شتى المحاسن للوضاء ربطة
وبمعطفيه للشبيبة منهل
عبر أخليج سباحة فكأنما
تطفو لغرته هناك حبابه
وموج من ردف ألف عباب

ويمدح فلا تدرى أهو مادح أم واصف أم يريد تصوير المعانى

فى عبارة جميلة لا غير لأنه يميل حتى فى المدح الى تشبيه كمال المدوح

بالاشياء الجميلة وبمشاهداته التي تراها كما قال وهو يمدح : —

لقد ضحكك الصبح بمجتلا، وراء الليل عن ثغر شبيب
وظاهرني بمختربي حسام أذنت به، ونعم أخو الغريب
أشيم به سنا برق يمان يخفرني إلى المرعى الخصب
إلى جذلان وضاح الحيا سليم القلب والصدر الرحيب
إلى يقظان وقاد المعالي مريش السعى بالرأى المصيب
يساور منه طورا ليث غاب ويمسح تارة عطفي أديب
إذا استمطرت منه غمام رحى أو استنصرت في يوم عصيد
ملأت يدك، يسراها يدير ويمناها بمخترط خشيب
ويصف الثناء بأنه رطب، وأن الصبح كشف عن ثناياه البيض،
وأن ممدوحه وضاح الحيا : — الخ

تشيم بصفته بروق بشر تعيد بشاشة الروض الجديد
وكان إذا هنا إنسانا اقتبس المعاني واستعارها واختلسها اختلاصا من
مظاهر الطبيعة وجمالها كما قال يهنى قاضيا : —

بشرى كما أسفر وجه الصبح وأستشرف الرائد برقا ألاح
وارتجز الرعد بمج الندى ريا ويحدو بمطايا الرياح
فدنو الزهر متون الربى ودرهم القطر بطون البطاح
هبت رواحا، وهي نفاحة فطاب ريحا نشر ذاك الرواح
أفصح غريد بها مطرب نفش من طرس قدامى جناح
فهل ترى أسمع غصن النقا فمز من عطفيه هز ارتياح
أم هل سرى ينعمش ميت الربى فمج ريق الطل ثغر الاقاح

غزتهادى بالقنا هـزة واختال بالجرد المذاكى مراح
وكان إذا تحدث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ
يستعمل منها ذكرياته ، ويتغنى بها ، وبأوصافها وبما رآه هناك من جمال
ونعيم ، كما قال ، فى قصيدة مدح .

وحن هـدىل على بانه تصدى خطيبا بها أخطبا
فاذكرنا ليلة بالأسوى وعهدا بعصر الصبا أطرابا
وماء بوادى الغضا سلسلا ومرتبعا بالحمى معشبا
ليالى عهى بها فتيمة وعهى باحبابنا ربوبا
وما كان أعطر تلك الصبا وأندى معاطف تلك الربا
وأطيب ذاك الجنى روضة ورشفة ذاك اللى مشربا
فحرك من ساكن كامن تعاطى حديث يحل الحبا
ويتغزل فيساعده جمال القول على أن يأتى بالمعاني الرقيقة فى
أسلوب رقيق ، ويمزج مجونه بغرامه فيمتلك بكلامه ويجعلك كأنك
فى حضرته تتعاطى المدام معه . وتجنى ثمرة غرامه فتقول :

وليل تعطينا المدام وبيننا حديث كما هب النسيم على الورد
نعاوده ، والكأس يعبق نفحة وأطيب منه مانعيد وما نبدى
ونقلى أقاح الثغر أوسوسن الطلى ونرجسة الأجنان أووردة الخد
إلى أن سرت فى جسمه الكأس والكرى

وما لا يعطفيه ، فال على عضدى
فأقبلت أستهدى لما بين أضلعى من الحر ما بين الضلوع من البرد
وعاينته قدسل من وشى برده فعاينت منه السيفسل من الغمد

ليان ' مجس . واستقامته قامه ؛ وهزة أعطاف ، ورونق إفرند
أغازل منه الغصن في مغرس النقا ، وألهم وجه الشمس في مطلع السعد

أسلوبه

قد خالف ابن خفاجة جمهرة شعراء العرب في بدء قصائده بالغزل
والنسيب ، وبدأ أكثرها بالوصف ، واندفع في ذلك اندفاعاً . وكان
أسلوبه في جملة ما ساسه سهلاً به كثير من الألفاظ الجزلة أو الغريبة
والعبارات الخفية ، ولتتبعه الصناعة اللفظية وأنواع المجاز والكناية
ظهر في كلامه أكثر من التكلف حتى لقد يتغلب عليه ذلك فتمتلىء
عباراته بالصناعة الظاهرة كقوله : والصبح يمسح عن جبين نهار .

في قصيدة مدح أولها : —

سمح الخيال على النوى بمزار والصبح يمسح عن جبين نهار
فرفعت من نارى لضيئ طارق يعيش إليها من خيال طارى
ركب الدجى ، أحسن بها من مركب

وطوى السرى أحجب به من سارى

وأناخ حيث دموع عيني منهل	يروى ، وحيث حشاى موقد نار
وسقى فأروى غلة من ناهل	أورى بمجانحتيه زند أوار
خلع الهوى ثوبا عليه من الضنى	قد شف عنه فهو كأس عارى
يلوى الضلوع من الولوع لخطرة	من شيم برق أو شميم عرار
والليل قد نضح الندى سر باله	فانهل دمع الطل فوق صدار
لبس الحجر على السواد فخلته	متزها قد شد من زنار
ووراء أستار الدجى متملبل	يلقى بينى قارة ويسار

ما طالعتنه برقة نَجْدِيَّة إلا اجتناتها نظرة استعبار
 مترقب رسل الرياح عَشِيَّة بمساقط الانواء والانوار
 ومجر ذيل غمامة لبست به وشي الحباب معاطف الانهار
 خفقت ظلال الأيَّك فيه ذوائبا وارتحج ردفا مأجج التيار
 ولوى القضيب هناك جيذاً أنلما قد قبلته مباسم النوار
 باكرته والغيم قطعة عنبر مشبوبة ، والبرق لفحة نار
 والريح تناظم فيه أرداف الربا لعبا ، وتلثم أوجه الازهار
 ومنابر الاشجار قد قامت بها خطباء مفصحة من الاطيَّار
 وهذا من بدع التشبيه والاستعارة ، ولا تكاد تجد شاعرا
 يياً آخر أدرك ابن خفاجة في مثل هذه الصناعة المتعملة الجميلة .

وأكثر وصفه الليل وسواده ، والصباح وبياضه ، والرياح واليبساتين
 لاشجار وغصونها ، والمياه وجريانها ولونها الفضى . وأشعة الشمس
 هبية عليها ، والنسيم وسريانه كما قال :-

ثامة حدر الصباح قناعها عن صفحة ندى من الازهار
 أبطح وضعت ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
 تبحجر الارض فيه يدالصبا درر الندى درام النوار
 دأرتدى غصن النقا وتقلدت حلى الحباب سواف الانهار
 لت حيث الماء صفحة ضاحك جذل ، وحيث الشط بدء عذار
 ريح تنفض بكرة لم الربا والطل ينضح أوجه الاشجار
 نسيم الالحاظ بين محاسن من ردف رابية وخصر قرار
 راكة سجع الهديل بفرعها والصباح يسفر عن جبين نهار

هزت له أعطافها ولربما خاضت عليه ملاءة الأنوار
فكان هذا من دواعي إمداده في تنبوع أنواع البديع والبيان ، حتى
صار كما قلنا **كثير التكلف** في معانيه وألفاظه ، ولا تكاد تجد عبارة
من عباراته إلا استعارة أو مجازاً أو تشبيهاً ، وقد يدعو ذلك أحياناً
إلى استغلاق المعنى على القارئ ، ولكن شعره في جملة يعتبر معجماً
لألفاظ مختارة ، وعبارات جميلة ، وتشبهات بدیعة ، ومعرضاً يجد
فيه الماریء أرق أنواع المجاز وكل ما يمكن من ضروب الصنائه
اللفظية ، ومن انغمسه في الصنعة والتكلف الجميل قوله :-

وأراكه ضربت سماء فوقنا	تندى ، وأفلاك الكؤوس تدار
حنفت بدوحتها مجرة جدول	نثرت عليه نجومها الأزهار
فكأنها ، وكأن جدول مأها	حسناء شد بخصرها زنار
زف الزجاج بها عروس مدامة	تجلى ، ونوار الغصون شار
في روضة جنح الدجى ظل بها	وتجسمت نورا بها الأنوار
غناء ينشر وشيه البرازلى	فيها ، ويفتق مسكه العطار
قام الغناء بها ، وقد نضح الندى	وجه الثرى ، واستيقظ النوار
والماء من حلى الحياء مقلد	زرت عليه جيوبها الأشجار

نثره

لابن خفاجة قطع نثره سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف
والخيال ، وسار في أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد والهمداني من
حيث اتباع السجع المتكلف ، والقصد إلى ذكر أنواع البيان والبديع

حتى كان نثره أشبه بشعر منثور ، وإن رسائله القائمة التي عثرنا عليها
هي من قبيل النثر المتكاف

كتب رسالة يصف فيها منظرها وكأنما قلّمه ريشة مصور ماهر
تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول في أنحائه ، فترى كل ركن من
أركانها ، وكل ناحية من نواحيه ، وكل زهرة ووردة ، وكل شجرة
وغصن وكأنما يلمسك نسيم العليل ، وتجري أمامك الجداول والأنهار .
ذلك إلى أسلوبه الخاص المسجوع ، وكأنما هو مرسل . وتجد الجملة الطويلة
المسجوعة ، على حين أنك تجد كل واحدة شطر سبعة أو سبعة كاملة
قال « ... ذهب في لمة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضا . ونطوى
التفرج أرضا ، فلا ندفع إلا إلى غدير نير قد استدارت منه في كل قرارة
سما . سحائبها غماء ، وأنساب في كل تلة حباب ، جلد ، حباب ، فترددنا
بتلك الأباطح تتهادى تهادى أغصانها ، وتتضاحك تضاحك أقحوانها ،
وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم ترسل مشى ، على بساط وشى ، فإذا
مر بغدير نسجه درعا ، واحكمه صنعا ، وإن عثر بجدول شطب منه
نصلا ، وأخلصه صقلا ، فلا ترى إلا بطاحا ، مملوءة سلاحا ، كأنما
انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف
مسلول ، . فاحتلنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان ، سندسية
رواق الأوراق ، ومازلنا نلتحف منها يرد ظل ظليل ، ونشتعل عليه
برداء نسيم عليل ، ونجمل النظر في نهر صقيل ، صاى لجبن الماء ،
كأنه مجرة سما ، مؤتلق جوهر الحباب ، كأنه من ثغور الأحباب ،
وقد حضرنا مسمع بجري مع النفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهواها

ويغنى لها مقترحها ومنها ، فصيح لسان النقر ، يشفى من الوقر ،
كأنه كاتب حاسب تمشق يمناه ، وتعقد يسراه ، يحرك حين يشدو
ساكنات وتنبعث الطبائع للسكون . »

أما إذا خرج عن هذا النوع الوصفى الخيالى الفنى ، فقد يضيق
الطريق فى وجهه ، وقد ينقل كلامه ويتكاف فى عباراته . كما فى رسالة
يعاتب فيها

قالوا ، كانت بين أبى اسحاق وبعض اخوانه مقاطعة فاتفق أن
ولى ذلك الصديق حصنا فخاطبه أبو اسحاق برقة منها . « أطال الله
بقاء سيدى النبيلة أوصافه ، النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة أمارته
الكريمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يرمى للجزم ، واعتلت واو يغزو
لوضع الضم ، كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد
كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال
الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة . وأنا أستنهض
طولك إلى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل ، وتعدية فعل الفصل .
والى عدوك عن باب ألف القطع إلى باب الوصل والجمع ، حتى تسقط
لدرج الكلام بيننا هاء السكت ، ويدخل الانتقال حال الصمت فلا
تتخيل - أعزك الله - أن رسم أخائك عندي . . . قد درس عفاء ،
ولا أن صدرى دارمية أمسى من ودك خلاء . وإنما أنا فعل إذا ثنى ،
ظهر من ضمير وده ما بطن . وبدا منه ما كمن . وهنيئاً أعزك الله - إن
فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعة تغيير ، وإن فعل سيفك ماض مابه
للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف ، تأخذ نفسك العلمية

بمطالعة باب الظرف، ودرس حروف العطف ، وتدخل لام التبرئة
على ما حدث من عتبك ، وتوجب بعد النفي ما سلف من عتبك . وتدع
ألف الألفة أن تكون بعد من حروف اللين . وترفع بالاضافة بيننا
وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرك . ومعتل الاخاء أن
يصبح ، وكتابي هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة ،
وتصير هذه النكرة معرفة . فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور
والنبيل ، ومنك اشتقاق اسم السؤدد والفضل ، وإنك وإن تأخر العصر
بك كالفاعل وقع مؤخرا ، وعدوك وإن تكبر كالكميت لم يقع إلا
مصغرا ، وللأيام علل تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتخفض ، فلا
دخل عروضك قبض ، ولا طافب رفعك خفض ، ولا زلت مرتبطا
بالفضل شرطك وجزاؤك . جاريا على الرفع سرورك الكريم
ومناؤك ، حتى تخفض الفعل ، وتبني على الكسر قبل ، إن شاء الله »
راجع نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٢



لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب في آخر عصور العرب في الأندلس ، بل هو من أشهر من عرف هناك وهو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب الغرناطي الأندلسي . تنقلت أسرته في كثير من بلاد الأندلس واستقر أبوه في غرناطة . وهناك ولد لسان الدين وعرف واشتهر في بلاد المغرب بابن الخطيب السلماني : نشأ من بيت علم وفضل ، وتربى على حب العلم ، وورث عن أبيه كثيرا من ذلك . وكان معجبا به وبعلمه وأدبه وأخلاقه^(١)

ولد لسان الدين بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ واتصل أبوه بملوك بني الأحمر وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء ، وانقطع إلى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب ، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والأدباء والأطباء تعلم الطب على أشهر علماء الأندلس وفلاسفتها في هذا العصر ، وبرع فيه وألف فيه كتابا سماه « الأصول لحفظ الصحة في

(١) فقد قال عنه كان رحمه الله تعالى رمز عزم ، ورجل أخاء وأزم ، تروق أنوار خلاله الباهرة . وتضيء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة . ذكاء يتوقد ، وطلاقة يحسد نورها النمرقد ، وكانت له في الأدب فريضة ، وفي النادرة العذبة منادم عريضة ، تكلمت يوما بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتا من شعري ، فتهلل وابتهج ، وما برح أن ارتجل .

الطب والشعر والكتابة سماتنا في بني النعجاية

هن ثلاث مبلغات مراتبا بعضها الحجابة

الفصول « عده هو نفسه من أحدث طراز في ذلك الفن فقال « العجب حتى مع تأليني لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب وعمل ذلك لأقدر على مداواة داء الارق الذي بي » ومهما يكن من المبالغة في كلامه فانه يؤخذ منه أنه كان من علماء هذا الفن . وقد ألف كتباً أخرى في ذلك فكانت معلوماته متوافرة في الفلسفة والطب ، وامتزج بالادباء والفقهاء وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه ، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالماً وأديباً

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بني الأحمر السلطان أبي الحجاج يوسف فأخذه في حاشيته ، وفي مقدمة كتابه . ثم جعله كاتبه الخاص وسلم اليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيراً بينه وبين الملوك الآخرين . فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التي فتحت عليه باب الكتابة في كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، على حسب ما كان يعلمه وما كان معروفاً في ذلك الوقت . ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبي الحجاج ، فأقره على مكانه وأرسله إلى ملوك افريقية ليستنجد بهم على أعدائه . وكانت الدولة في ذلك الوقت في اضطراب والناس بين مظلوم وظالم ، وخارج على السلطان ومتملق له ؛ وكل ذي نعمة محسود . فحسد لسان الدين كثير من معاصريه وسعوا في الإيقاع به وكان قد خرج على محمد بن أبي الحجاج أخوه وتغلب عليه ؛ فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوصر ، وقبض على لسان الدين ، واستباح السلطان كل أموالهما . ثم شفع لهما سلطان المغرب وأتى بهما إلى فاس وأكرمهما فجاء لسان الدين في تلك البلاد ، وانتقل

إلى أماكن كثيرة واستقل هناك . ولما رجع الملك الى محمد بن أبي الحجاج عاد الى الاندلس وكان استكتب أبو محمد هــذا في غيبة لسان الدين ابن زمرك ، أحد مشهورى الكتاب والعلماء ، ومن أكبر وأشهر تلاميذ لسان الدين ، فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدوا على لسان الدين ، لانه ظهر عليهم ومملك الدولة منهم ، فأرادوا أن يتخلصوا منه ويأخذوا الامر بيدهم . فأخذوا فى بث الدسائس وإيغار السلطان عليه ، ولكن عند ما رجع لسان الدين الى الاندلس ارتفع شأنه ، وعرفه الناس فى غيبته أكثر من معرفتهم له فى حضرته . فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية وأخذ عليه الفقهاء أشياء ينكرونها وكانت العقول فى ذلك الوقت ميالة إلى الانحطاط ، لان البرابرة بثوا أفكارهم السخيفة التى كانوا ينشرونها بجهلهم ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية . فاشاع ابن زمرك عن لسان الدين إنه كافر مارق : وأنه جاء فى كتبه بكثير من المسائل التى لا يبيحها الدين فراجت هــذه الوشائات عند السلطان وأثارت غضبه ، ولما علم لسان الدين بذلك ، وعرف أنه لا بد أن ينال منه ، عزم على الحرب إلى افريقية بدعوى أنه ذاهب فى أمور تتعلق بالملكة ولكن عندما ذهب إلى افريقية اتفق ملك المغرب على تسليمه لابن الأحمر ، فسجن فى فاس وأفتى الفقهاء بقتله ، ودمسوا عليه أحد القواد فخنقه فى سجنه ودفن فى فاس ثم أخرجت جثته وأحرقت بالنار سنة ٧٧٦ هـ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن ملأ الجو علماً وفضلاً وذاعت شهرته فى المشرق والمغرب حتى كان أشبهه بالجاحظ فى تأليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجهم .

شعر ابن الخطيب

وصف بعض أدباء الاندلس لسان الدين ابن الخطيب فقال : —

« كان يحسب لسان الدين بن الخطيب من كبار شعراء الاندلس ، بل من اعظمهم جميعا لكثرة شعره واختلاف أغراضه وبراعته في الصناعة التي كانت مقياسا لمقدرة الشعراء ودليلا على تفوقهم في ميدان الشعر والادب ، كما كانت له نفس هذه الميزة في كل نواحى الكتابة وفنون الادب كما سبق .

والتأمل في شعر ابن الخطيب يرى أنه قد جارى جميع الشعراء في كل ما عرف من الموضوعات والاغراض ، وكان في كل شعره كما كان في كل اثره يميل إلى الطول والاطناب . لا شك في أن هذا دليل على سعة الخيال وتوارد المعاني على ذهنه وعلى أثر اطلاعه الواسع وقوة ذاكرته وتعمقه في أدراك تلك المعاني وتمكنه من التصرف في ذلك ، فقد كان رأسه خزانة الفاظ وجل ، وجعبة صور وعبارات لما قرأه في الكتب وشاهده في الحياة وكان يصوغ كل ذلك في شعره ونثره .

ولقد يتساءل القارىء الاديب هل لابن الخطيب صبغة خاصة في شعره ؟ وهل إذا قرأت له كلاما شعرت بروح يدل على الشاعر ويميزه من سواه ؟ كما تشعر بذلك عند ما تقرأ شعر البحتري فتتمتلى نفسك بتلك الصبغة الخفية الفنية وجمال القول في حسن العبارة وصوغها ؟ أو كما ترى في شعر المتنبي تلك الحكم الممزوجة بالكبر والغرور وصور العالم وخبائث الانسان ؟ أو كما ترى تلك الصبغة الفنية المستمدة من

جمال الطبيعة وجلالها في شعر ابن خفاجة ؟ أو كما تشاهد أو تلمح في خاطرك تلك النفس المضطربة المتألمة كثيرا المبتهجة أحيانا ، الحساسة التواقفة إلى التمتع بالحياة وإلى أن تكون في مقدمة الأدباء والعظماء وغير ذلك مما يمليه عليك شعر ابن زيدون ونثره

لا يفتأ القارئ أن يجيب على هذا السؤال بعد أن يقرأ شعر ابن الخطيب ونثره بأنه مثل كثير من كتاب الاندلس وشعرائها - حاشى ! نتاجه الكثير في كل من فنون الكتابة والشعر - وأن الصبغة التي في شعره ونثره أظهر ما تكون في الصناعة ، وإنك إذا أردت أن تضعه في طبقة من طبقات الأدباء وضعته بين الوزراء والقضاة الفقهاء الذين تغلب عليهم الصبغة الدينية أو مسائل الفقه وروح التصوف ، وأنه لا يحسب من كبار الشعراء والكتاب الفنيين الذين خلقوا شعراء بطبيعتهم والذين توحى إليهم الطبيعة بجمالها وتلهمهم المعاني الخفية لهذا الوجود فيدركون أسرار النفوس ويرسمونها في كلامهم ويزينون هذا الكلام بما فطروا عليه من جمال أدراك الأشياء

مع هذا فقد تجد في شعره كل صفات الشعراء التي اقتبسها منهم اقتباسا وحاكاهم فيها محاكاة من جمال القول وحسن الأسلوب وسعة الخيال . ولكن نفسه كما قلنا ليست نفس شاعر منطبعة على قول الشعر ، وليس روحه روح رجل في يستوحى القول من الهاماته الفنية أو يسبح في عالم الخيال فيرى أسرار النفوس ويكشف خبايا الإنسان فينظمها في شعره لأن ملكة الشعر ليست هي الغلبة على عقله وأدراكه كما هي الحال لدى كبار الشعراء الذين يقصدون الوصول إلى كشف

أسرار الحياة بجمال القول وبلاغته وفنون التعبير ، ويمتازون عن العلماء
والفلاسفة الذين يعمدون إلى التجارب والبراهين العقلية في إبراز الحقائق
العلمية والآراء الفلسفية . بل رغم أن ابن الخطيب ميال إلى الصناعة
والمحسنات اللفظية فإنه مالمفكرا أعظم منه شاعرا متفننا، على أنه لا تخلو
ألبته من تذوق الجمال أو من الاتصاف بصفات الشعراء

صناعته وأسلوبه

يمتاز ابن الخطيب كما قلنا في الشعر بصناعته وميله إلى التألق
في كلامه وطول بابه في معرفة ضروب الكلام وأنواع التعابير وضروب
الاطناب وتزاحم المعاني ومحاكاة المشاركة في ذلك وميله إلى المحسنات
البديعية وتسكفه قليلا أو كثيرا في ذكر هذه الأنواع والعبث بها، كما قال
في الجناس :

مالي أهدب نفسي في مطامعها والنفس تألف تهذي وتهذي بي
إذا استعنت على أمر بتجربة تأبى المقادير تجريبى وتجربى بي
ومن ولوعه بالصنعة قوله :-

ومولع بالكتب يبتاعها بأرخص السوم وأغلاها
في نصف الاستذكار أعطيته مختصر العين فارضاها
ومن مبالغاته وكلامه في حسن التعليل قوله :-

ووالله ما اعتل الاصيل وانما تعلم من شجوى فبان اعتلاله
ومن قوله في الجناس أيضا :-

دعوتك لاود الذى جنباته تداعت مبانها وهمت بأن تهى
وقلت لعمد الوصل والقرب بعدما تنأى، وهل أسلوب حيانى وأنت هى

ومن شام من جو الشيبية بارقا ولم تنه عنه النهى كيف ينتهى
وكثيرا ما يأتى بعبارات فكاكية وأخرى يعتمد فيها على الصناعة ،
على أن أسلوبه يختلف باختلاف المعانى والموضوعات فاحيانا تجده فكها
ماجنا. وأحيانا تجده ورعا تقيا أو حكيما واعظا أو فقيها متكلم أو شاعرا
جاف العبارة كما قال مخاطب السلطان أبا الحجاج :

أمولاي، إن الشعر ديوان حكمة يفيد الغنى والعز والجاه من كانا
وقد وجد المختار فى الحفل منصتا له ، وحبا كعبا عليه وحسانا
وفىما رواه الناقلون وأثبتوا بذلك ديوانا صحيحا فديوانا
بأن أبا بكر خليفة الرضا وفاروقه الأذننى اليه وعمانا
وأن علينا قدس الله جمعهم وكرمنا بالقرب منهم وحيانا
لهم فى ضروب القول إذ هم فحوله خطاب وشعر يستقران تبياننا
وفاض على أهل القريض نوالهم فروض روض القول سجا وتهتنا
وأنت أحق الناس أن تفعل الذى به فعل المختار دينا وإيماننا
فما زلت تهدى فى البرية هديه وتقضى بما يرضيه سرا واعلانا
وإن قيل قدر المرء ما هو محسن فصنعة نظم القول أرفعه شانا
ومما يدل على سهولة استرساله فى القول الذى يبعد كثيرا عن أن
يكون شعرا فنيا جميلا قوله .

برئت لله من حولى ومن حيلى إن نام عنى ولى فهو خير ولى
أصبحت مالى من عطف أو ماله من غيره فى مهمات ولا بدل
ما كنت أحسب أن أرمى بقاصية للهجر أقطع فيها جانب الأمل

من بعد ما خلصت نحوى الشفاعة ما بين العلا والدجا والبيض والاسمل
إن كنت لست باهل لاذى طمعت

اليه نفسى وأهوى نحوه أملى
فكيف ياغى ولا ترعى وسيلته
من بعد ما اشترت حالى به وسرت
والرسل تترى ولا تخفى نتائجها
ولا ليلي من صبح أطالعه
لو أنى بابن مرزوق عقدت يدي
لكان كربي قد افضى إلى فرج
ألحت بالعتب لم أحذر مواقعه
ولست أجد ما خولت من نعم
ولست أياس من وعد وعدت به
ومن شعره الجميل الذى جارى فيه الشعراء فى بدء كلامه بالغزل

والمبالغة فى المدح مما لا يحسب من جمال القول فى شيء يسير قوله :—
وقف الغرام على ثناك لسانى
فكانما شكرى لما أوليته
أنا شيعه لك حيث كنت، قضية
ولقد تشاجرت الرماح فكنت فى
ورويت عز مآثر أسديتها
ولأنت أولى بالتشيع شيعه
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى
رعيا لما أوليت من احسان
شكر الرياض لعارض النيسان
لم يختلف فى حكمها نفسان
ميدان نهر ك فارس الفرسان
لعلاك بين صحائف وحسان
لم تتفق لسواك من انسان
بين الورى فى مطلع شمسان

جبرت بحبرك كل نفس حرة وشدا بشكر الله كل لسان
وبدت سعادتك مسقية بأسيرها وعلمت فمر أمامها النحسان
فاستقبل السعد المعاود سافرا عن أي وجه لارضنا حسان
وابغ المزيدي بشكر ربك ولتثق بمضائف الانعام والاحسان
فالشكر يقتاد المزيدي ركائبها تنساب بابلك منه في ارسان
ثم السلام عليك يزوي عرفه طيبا بعرف العود والبلسان
ومن مدحه الجميل أيضا قوله دق بآياه من رحلة في مراکش
بخطاب السلطان صاحب تلمسان :-

افادت وجهتي بذاك مالا قضى ديني وأصلح بعض حالي
ومتعت الخواطر بالذراح وأترفت النواظر باكتحال
وأبت خفيف ظهر والمطايا بجاهك تشتكي ثقل الرحال
وشأنى للمعالم غير شان وحالي بالمكارم جسد حال
فبذل لك إني وعقدي وشكر نداك ديني وانتحالي
كما قد صح لله انقطاعي بتأميلي جنابك وارتمالي
وما يبقى سوى فعل جميعي وحال الدهر لا تبقى بحال
وكل بداية فالي انتهاء وكل اقامة فالي ارتحال
ومن سام الزمان دوام أمر فقد وقف الرجاء على الحال

نثره

كان ابن الخطيب يحسب من أكبر الكتاب والمؤلفين كما كان يعد بين معاصريه من أكبر الشعراء. وقال المقرئ في نفع الطيب: (أما نثره فهو البحر الزخار، بل الدر الذي به الافتخار. وناهيك أن كتبه الآن في المغرب

قبلة ارباب الانشاء التى إليها يصلون ، وسوق دررهم النفيسة التى يزينون بها صدور طروسهم ويحملون ، ذلك لان تربيته العلمية الادبية وهبته نشاطا عقليا فكان من المؤلفين المشهورين ، وكان كثير الدرس والقراءة ورسائله الادبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جدا حتى قالوا أنه كان يؤلف ويكتب كل هذه الكتب لانه كان يقرأ كثيرا وقد اغترف من كل بحر قطرة وكتب فى كثير من الفنون المختلفة ورسائله الادبية كثيرة منها جملة فى الجزء الثالث والرابع من نفح الطيب . وكانت الصبغة الادبية أظهر ماتكون فى رسائله واغلب عليه من غيرها فانه يمتاز بموضوعاته الادبية أكثر مما يمتاز بغيرها من الموضوعات العلمية الأخرى .

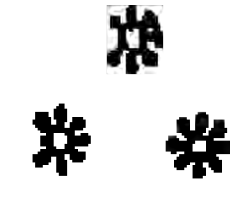
حتى لقد تجده فى كتاباته العلمية أو التاريخية أدبيا أكثر منه مؤرخا أو عالما . كما يظهر ذلك فى كتابه الاحاطة ، وفيما كتبه فى الموضوعات العلمية الأخرى . فان أظهر تلك المميزات فى أسلوبه لافى طريقة البحث أو التحقيق ، فاذا رجعت إلى تراجمه للعلماء أو الأدباء رأيت أدبيا أكثر منه محققا . فهو فى هذا أشبه بالفتح بن خاقان ، ولكنه فى كل ذلك واسع الخيال سديد الرأى حاد اللسان . قادر على الاسترسال والاحاطة بالمفردات والجمال . لذلك كان من اكبر مميزاته فى الكتابة الاطناب فقد كان مطبوعا على ذلك بطبعه ، يجرى وراء ذلك جريانا وهو مثلوج الصدر يعرض عاينه فكره وخياله المعانى والالفاظ فلا يكاد يقف قامه إلا بعد ان يملأ من الفكر الصغير صفحات كثيرة وكأن قدر الكتابة عنده ووزن المعانى

لديه في الاكثار لافى الاجادة . أو أن الاجادة لا تفارق الاطناب لديه
وربما كان عذره في ذلك أن الكتابة في تلك الايام كانت سائرة على هذا
الطراز . وكان بجواب الاطالة يحب السجع فكانت كتابته لا تخلو من
خلتين عند بعض الأدباء أو من ملايين عند آخرين : السجع والاطناب
وربما كانت الاطالة والسجع من أظهر عيوب أسلوب ابن الخطيب
ولا يكاد المعجب به يفضل أحدهما على الآخر أو الناقد له يدرك أيتهما
أدعى إلى المبالغة وكذا الذهن .

وقد تطنى الاطالة على تكلف السجع فيرى القارىء في السجع من
مظاهر البلاغة ما لا يجده في الاطناب ، لأن الاطناب أدعى إلى ظهور
خلو ذهن الكاتب من المعنى أو الى تكرار المعنى الواحد في عبارات
مختلفة . لذلك كثيرا ما يخفى عيب السجع وراء هذا الستار وقد تكون
هذه الطريقة دليلا على انحطاط أسلوب الكتابة النثرية . ويكفى هذا
الأسلوب مقبلا أنه لا يقدر على الاسترسال في قراءته كل انسان وأنه
لا يعيش إلا في بطون الكتب ولا يصاح أن يكون نموذجا من نماذج
الكتابة البليغة التي يقتدى بها الكتاب .

ولكن ذلك لا يدفعنا الى جحود ما في هذه الرسائل من المعاني
والافكار الصحيحة أو الى الشعور بأن الكاتب كان يميل إلى طرق
بعض الموضوعات الاجتماعية التي لم يطرقها كثير من الكتاب ، وإلى
الأسلوب القصصى الذى يسمونه بالمقامات ورسائله حافلة بالآراء التاريخية
والاجتماعية والنكات الادبية وبعض الامثال المعروفة . وكثيرا ما كان
يبدوها بأبيات مط الشعر وقد جرى المشاركة في كل ما كان معروفا

في كتاباتهم من عبارات مسجوعة والفاظ مختارة ، ومن القاب التعظيم والتبجيل للأمرء والسلاطين . ولكنه لم يصل إلى ما وصلوا إليه من الصنعة المتكافئة قصدا في ذكر أنواع البديع والبيان ، بل كان اظهر ما يكون تكافه في السجع والاطناب كما قلنا . وقد يكون اسلوب ابن الخطيب ادعى إلى توجيه ذهن القارئ إليه من الموضوعات التي عالج الكتابه فيها ، ومن المعاني التي اختارها ومن الاخيلة التي اعتمد عليها في بث آرائه ، لأن كل ما كتب فيه معروف وكل معنى ذكره مألوف وإنما ميزته السكبرى بعد اسلوبه كثرة انتاجه العقلي والأدبي الذي جاءه من نشاطه وسعة اطلاعه وكثرة قراءته :



فما كتبه معزيا بعض الرؤساء، عن أخيه وقد ابتدأ كتابه بأبيات من الشعر وملاه بالمدح والفاظ التعظيم والافتنان وبأنواع الاخيلة والتعمق في الصنعة .

أيا ثابت كن في الشدائد ثابتا	اعينك ان يلقي حسودك شامتا
عزائك عن عبد العزيز هو الذي	يليق بعز منك اعجز ناعتا
فدوحتك الغناء طالت ذوائبا	وسرحتك الشماء طابت منابتا
لقد هد أركان الوجود مصابه	وانطق منه الشجوة من كان صامتا
فمن نفس حر اوثق الحزن كظمها	ومن نفس بالوجد اصبح خافتا
هو الموت للانسان فصل لحده	وكيف ترجى ان تصاحب مائتا
وللصبر اولى ان يكون رجوعنا	إذا لم نكن بالحزن نرجع فائتا
واتصل بي ايها الهمام ، وبدر المجد الذي لا يفارقه التمام ماجنته على	

عليائك الأيام ، وافتضته محن الردى بعد أن طال الخيام ، وما استأثرت به
الحمام ، فلم يغن الدفاع ولا نفع الذمام من وفاة صنوك الكريم الصفات وهلاك
وسطى الاسلاك وبدر الاحلاك ومجير الاملاك ، وذهاب السمع الوهاب
وأنالديغ صل الفراق الذى لا يفيق بألف راق وجريح سهم البين ، ومجارى
العيون الجارية بدمع العين لفقد أنيس سهل على مضض النكبة ونحى
ليث الخطب عن فريسي بعد صدق الوثبة ، وآسنى فى الاغتراب وصحبى
إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغرى خير الكفالة وعامانى من حسن
العشرة بما سجل عقد الوكالة ، انتزعه الدهر من يدى حيث لأهل ولا
وطن والاغتراب قد ألقى بعطن ، وذات اليد يعلم حالها من يعلم ما ظهر
وما بطن ، ورأيت من تطارح الاصاغر على علو الغريب النازح عن
النسيب والقريب ، ما حمانى على أن جعلت البيت له ضريحا ومدفنا
صريحا ، لا خدع من يرى أنه لم يزل مقيما لديه وأن ظل شفقتة منسحب
عليه فاعيا مصابى عند ذلك الفرح وأعظم الظأ البرح . ونكا القرح
القرح إذ كان ركننا قد بانته لى يد معرفتك ومتصفا فى البر بنى والرعى
لصاغيتى بكريم صفتك فوالهفا عليه من حسام وعز سام وإياد جسام
وشهرة بين بنى حام وسام أى جمال خالق ووجه للقاصد طاق وشيم
تطمح للمعالى بحق وأى عضد لك ياسيدى لايهين إذا سطا ولا يقهر
إذا خطا يوجب لك على تحليه بالشيبة ما توجه به البنوة من الهيبة
ويرد ضيفك آمنا من الخيبة ويسد ثغرك عند الغيبة ذهبت إلى الجزع
فرأيت مصابه أ كبر ودعوت بالصبر فولى وأدبر واستنجدت الدمع
فغضب ، واستصرخت الرجاء فأنكر ماروى واقتضب وبأى حزن يلنى

عبد العزيز وقد جل فقده أو يطفى لآعجه وقد عظم وقده اللهم لوبكى
بندى أياديه أو بغنائم غواديه أو بعباب واديه

وهي الايام أي شامخ لم تهده أو جديد لم تبله وإن طالت المدة
فرقت بين التيجان والمفارق والحدور والتمارق والطلل والعقود والكأس
وابنة العنقود فما التعلل بالفان وإنما هي إغفاء إجفان والتشبت بالحبال
وإنما هي ظل زائل والصبر على المصائب ووقوع سهمها الصائب أولى
ما اعتمد طلابا ورجع اليه طوطا أو غلابا فانا يا سيدي اقيم رسم التعزية
وإن بوئت بمضاعف المرزية ولا عتب على القدر في الورد من الأمر
والصدر ولولا إن هذا الواقع مما لا يجدى فيه الخلفان ولا يغنى فيه
اليراع ولا الخرصان لا بلى جده من اقترضتموه معروفًا وكان بالتشيع
إلى تلك الهضبة معروفًا لكنها سوق لا ينفق فيها إلا سلعة التسليم
للحكيم العايم وطى الجوانح على المضض الأليم ولعمري لقد خلدت
لهذا الفقيد وإن طمس الحمام محاسنه الوضاحة لما كبس منه الساحة صحفا
منشره وثغورا بالحمد موشرة يفخر بها نبوه ويستكثر بها مكتسبوا
الحمد ومقتنوه وانتم عماد البازة وعلم المفازة وقطب المدار وعامر الدار
واسد الاجمة وبطل الكتيبة الملجمة وكافل البيت والستر على الحى والميت
ومثلك لا يهدى إلى نهج لاحب ولا ترشده نار الحباحب ولا ينبه على
سنن بنى كريم أو ضاحب قدرك اعلى وفضلك اجلى وانت مصدر
الزمان بلا مدافع وخير معلى لاعلام الفضل ورافع وانا وإن اخرت
فرض بيعتك لما خصني من المصائب ونالني من الاوصاب ونزل بي من
جور الرمان الغصاب ممن يقبل عذره الكرم ويسعه الحرم المحترم والله

سبحانه الكفيل لسيد و عمادى ببقاء يكفل به الابناء وابناء الابناء
ويعلى لقومه رتب العز سامية البناء حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده
ولا يحس بعض زمان مع جوده ويقر عينه فى ولده وولد ولده ويجعل
أيدى مناوئيه تحت يده والسلام :

ومن كلامه القايل المعنى الكثير اللفظ المملوء بأنواع عبارات
التبجيل مما قد يعد من الملق قوله وقد بدأه أيضا بأبيات من الشعر
لأعدم الله دار الملك منك سنى يجلى به الحال كان الظلم والظلم
وأنشدتك الليالى وهى صادقة المجد عوفى إذ عوفيت والكرم
من علم أعلى الله تعالى قدرك ان المجد جواد حلاك شياته ، لا بل
الملك بدر أنت آياته ، لا بل الاسلام جسم أنت حياته ، دعامتك بالبقاء
لمجد يروق بك جبينه وملك تنيره وتزينه ، ولدين تعامل الله تعالى باعزازه
وتدينه فقد أملت نفوس المؤمنين لآلامك ووجع الاسلام لتوقع
إسلامك وتأخرت الاعلام لتأخر أطرافك بمصالح الملك وأعلامك ،
فانما أنامل الدين والدنيا متشبهة بأذيال أيامك ، ورحال الامم مخيمة
بين حلالك وخيامك فاذا قابلت الاشراف نعم الله تعالى بشكروهم
الغفلة عن ذلك بنكر فاشكره جل وعلا بملء لسانك وحنانك واجر
فى ميدان حمده مطلقا من عنانك على ماطوقك من استرقاق حر ،
وإفاضة أياد غر واقتناء عسجد من الحمد ودر ، وأتاحة نفع ودفع ضرر ،
وإدالة حلو من مر ، وكن على ثقة من مدافعة الله تعالى عن حماك
وعز تبلى ذوائبه السماك ، ورزق يحجره قال منماك ، ودونك مجاس
الامامة فقد تديره بزمامك ، وحظوة الخلافة فاستحقها بوسائلك القديمة

وذمامك ، ومحاسن الدولة فاجلها على منصة أمامك ، ورسوم مبرفاغريها
عبن اهتمامك ، وذروة المنبر فامض بها ظبة محسامك ، واجز الآماين
زهر الأيادي البيض من كأم أكمامك ، فيا عز دولة بك يا جملة الكمال
قد استظهرت وأذلت المعاند وقهرت ، وبأعمال آرائك اشتهرت فراقت
فضائلها وبهرت جزالة كما شق الجو جارح ، ولطافة كما طارح بفن
التأليف مطارح ، وفكر في الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم
والعدل سارح ، ومكارم تمت آثار الكرماء ونسخت ، وحملت عقود
أخبار الأجواد في الأعصار وفسخت ، فلم تدع لفضل الفضل ذكرا ،
وتركت معروف يحيى بن خالد نكرا . لا بل لم يبق لكعب من علوكعب
وأنست دعوة حاتم بأى مانح وحاتم ، فصارت سبي جوار ومنع جوار
وعقر ناب عند اقشعرار جناب ، وأين يقع من كبر قدر ترفع عن الكبر
وجود خصب الأيدي ببناء التبر ، وعز استخدام الأسل الطوال يراع
أقل من الشبر ، وحقن الدماء المراقبة باراقة نجيع الحبر وفك العقال ورفع
النوب الثقال ، وراعى الذرة والمثقال ، وعثر الزمان فأقال ، ووجد لسان
الصدق فقال . أقسم بيارى النسم وهو أبر القسم . مافازت بمثلك الدول
ولا ظفرت بمثلك الملوك الا و آخر والا أول ، ولو تقدمت لم يضرب
إلا بك المثل ، ولم يقع إلا على سنتك وكتابك ، والاجماع المنعقد على
ادابك العمل والمملوك لما شام مالكة برق العافية وتدرع بالالطاف
الخافية ، كتب مبشرا بالهناء ومذيعا ما يجب من الحمد والثناء وشاركرا
ماله بوجوده من الاعتناء ، فقد بادر ركن الدين بالبناء ، وأبقى الستر
والمنة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك

ووسطى السلوك ، وسلالة أرباب المقامات والسلوك . ويبقيك وحصنة
الصحة وافرة وغرة العزة القعدة مسافرة ، وغادة عادة السعادة غير نافرة
وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غائمة ظافرة ، مازحفت للصباح شهب
المواكب ، وتفتحت بشط نهر ажرة أزهار الكواكب والسلام
ومن هذا الطراز في الكتابة أيضاً ما كتبته جواباً عن كتاب
خطيب السلطان الذي استقر بتونس

ولما أن نأت منكم ديار وحال البعد بينكم وبينى
بعثت لكم سواداً في بياض لا أنظر كم بشئ مثل عيني
بم أفاتحك ياسيدى وأجل عددى ، كيف أهدى سلاماً فلا أخطر
ملا ما أأنتخب لك سلاماً فلا أجد لتبعة التقصير في حقك الكبير
إيلاماً ، إن قلت تحية كسرى في الشناء وتبع فسامة في مربع العجمة ربع
ولها المصيف فيه والمربع ، والجهم والمنبع ، فتروى متى شئت وتشبع ،
وإن قلت إذا العارض خطر ، ومهما هي أو قطر ، سلام الله يامطر ،
فهو في الشريعة بطر ، وركبه خطر ، ولا يرعى به وطن ولا
يقضى به وطر ، وإنما العرق الاوشج ، ولا يستوى البان والبنفسج
والعوسج والعرفح

سلام وتسليم وروح ورحمة عليك وممدود من الظل مسجسج
وما كان فضلك ليمعني الكفر أن أشكره ولا لينسيني الشيطان
أن أذكره فاتخذ في البحر سبباً ، أو أسلك غير الوفاء مذهباً تأبى ذلك
والمنة لله تعالى ، طباع لها في مجال الرعى باع وتحقيق وأشباع وسواثم
من الانصاف ترعى في رياض الاعتراف فلا يطرقها ارتياح ، ولا تخفيها

سباع ، وكيف نجحد تلك الحقوق وهي شمس ظهيرة وأذان عقيرة
جهيرة فوق مثذنة شهيرة آدت الأكتاد لها ديون تستغرق الذم
وتسترق حتى الرمم فان قضيت في الحياة فهي الخطة التي نرتضيها ولا
تقنع من حامل الدهر المساعد إلا أن ينفذ مراسمها ويمضيها وإن قطع
الأجل فالغنى الحميد من خزائنه التي لا تبديد. يقضيها. ويرضى من يقتضيها
وحيا الله تعالى ، أيها العلم السامى الجلال زمننا معرفتك المبرة على الآمال بر،
وأتحف وان أساء بفراقك وأحجف وأعري بعدما ألحف وأظفر باليتيمة
المدخورة للشدائد والمزائن ثم أوحش منها أصوثة هذه الخزائن فأب
حنين الأمل بخفيه ، وأصبح المغرب غربا يقاب كفيه ، ونستغفر الله
تعالى من هذه الغفلات ونستهديه دليلا في مثل هذه الفلوات. وأي ذنب
في الفراق للزمن ، أو لغراب الدمن ، أو للرواحل المدجلة ما بين الشام إلى
البن وما منها إلا عديم مقهور وفي ذمة القدر مبهور ، عقد والحمد لله مشهور
وحجه لها على النفس الواهمة ظهور . جعلنا الله تعالى ممن ذكر المسبب في
الاسباب وتذكر ، وما يدكر إلا أولوا لباب قبل غلق الرهن وسد الباب
وكل كتابة لسان الدين أو جلها من هذا الطراز ، فيرجع إليها من
يشاء في كتبه وفي الجزئين (الثالث والرابع) من نفح الطيب

الادب في بلاد المغرب

سكان بلاد المغرب :

كان العرب يطلقون بلاد المغرب على ثلاثة أقاليم :

١- (إقليم أفريقية ، وهو المغرب الأدنى . وقاعدته مدينة القيروان وكان يشمل بلاد طرابلس وتونس) .

٢- (إقليم المغرب الأوسط وقاعدته تلمسان) :

٣- (إقليم المغرب الأقصى وهو القسم الممتد من حدود المغرب الأوسط إلى المحيط الأطلنطي . وكان يطلق على هذين القسمين أيضا بر العدو لأنه يعدى منهما إلى الأندلس) .

وسكان هذه البلاد قبائل كثيرة من أخلاط أمم مختلفة . يقول الباحثون عنها أن أقدمها انحدروا إليها من الصحراء وجاءوها من الجنوب وإن سكان بلاد أفريقية الشمالية هذه كانت متصلة في الأزمان الأولى بسكان شبه جزيرة إيبيريا وسكان شبه جزيرة إيطاليا . وهؤلاء السكان كانوا من أصل واحد . وقال بعض المؤرخين إن سكان شمال أفريقية نزحوا إليها من جهتين : من الجنوب جهة الصحراء ومن قارة أوروبا الجنوبية وهؤلاء هم أصل البرابرة وهم من الجنس الأثيمر الأوروبي والجنس الأثيمر الصحراوي الذين يمتازون عن الجنس الأسود . وبعد هؤلاء نزل هذه البلاد جماعة من سكان أوروبا ومن شبه جزيرة إيبيريا وهؤلاء من جنس أشقر . ولا يزال أبنائهم يعرفون ويمتازون عن سواهم في بلاد تونس والجزائر ومراكش ، وربما كان أكثر سكان البلاد الآن

من نسلهم ؛ ومن هؤلاء القبائل التي تسكن جبال الأطلس . ومن بين السكان القدماء الذين نزلوا هذه البلاد المغاربة ومن هؤلاء جميعا تولدت أمم البرابرة .

وعندما انتشر المسلمون في شمال أفريقية بقيت هناك بعض القبائل العربية وتولدت وبقي بعضها حافظا لعاداته وأخلاقه وبعضها اختلط بأمم البربر كما حصلت مثل هذه الحال في بلاد اسبانية وقد اتصل بهم البربر وأسلموا على يدهم بعد حروب طويلة فنعوا في نهايتها بدين العرب وأسلموا : وبعض المؤرخين يقول إن سكان هذه البلاد من أمم حامية من أهل أفريقية وآسيا .

وقد أطلق عليهم العرب جميعا كلمة بربر ، وكان هذا اللفظ يطلق على كل القبائل غير العربية . وقيل أصله من كلمة فار فاروس اليونانية وهو صوت الأتغ أطلقه اليونان على كل من لم يتكلم لغتهم ؛ ثم أطلقه الرومان على كل من ليس يونانيا أو رومانيا : كما أطلق العرب على كل من ليس عربيا كلمة أعجمي لعجزه عن التعبير بلغتهم :

والبرابرة الأولون كانوا جفاة غلاظا يميلون إلى السلب والنهب شديدي المراس شجعانا ككل سكان البوادي غير ثابتين على مذهب أو عقيدة ميالين إلى الفتن واتباع الضلالة حتى ظهرت فيهم كل البدع فلما ظهر الاسلام هناك آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا .

وقد دخل المسلمون بلاد البربر في خلافة عثمان بن عفان حينما أرسل إليها عبد الله بن أبي السرح وإلى مصر (سنة ٥٢٦ هـ) . وصحبه عقبة بن نافع فدخلوا هناك وحاربوا الروم ورجعوا بعد أن صالحوهم

على مال كثير قليل إنه ثلاثمائة قنطار من الذهب ومازال العرب يجيئون ويروحون إلى أن بعث معاوية عقبة بن نافع في عشرة آلاف فارس فدخل عقبة أفريقية وأسلم معه من البربر جماعة ووضع السيف في رقاب أهلها (لأنهم كانوا إذا جاء عسكر المسلمين أسلموا فإذا خرجوا ارتدوا.) وبني عقبة مدينة القيروان بالجنوب من قرطاجنة القديمة (سنة ٤٥ - ٥٠) ثم أمتد سلطان العرب بعد ذلك إلى بلاد المغرب الأقصى، وحكم هذه البلاد ولاية من بني أمية ومن بني العباس. ثم نشأت هناك دول مستقلة كدولة الأغالبة الذين كانوا أول أمرهم ولاية لبني العباس (سنة ١٨٤-٢٩٦ هـ) وكدولة العبيدين أو العلويين « ٢٩٦ - ٣٦١ هـ » وكدولة الصنهاجين بتونس « سنة ٣١٦ - ٣٤٢ هـ » وكدولة الادارسة « ١٦٠ - ٣١٣ هـ » وكدولة الموحدين « ٤١٤ - ٦٦١ هـ » وغيرهم من الدول التي قامت بالمغرب الأوسط والأقصى.

وقد تداولها جماعة من ولاية الأندلس والمرابطين والموحدين وغيرهم

من أمتد سلطانهم في تلك البلاد.

أثر العرب في الحياة العربية.

وكان لولاية العرب هناك أثر عظيم في نمو الحياة العقلية ونشر

الثقافة العربية من علوم وآداب ولاسيما العلوم الدينية واللغوية.

ولكن أعظم أيام العرب هناك كانت مدة حكم بني غالب. حيث ظهر

فيهم جماعة من كبار الأدباء والعلماء، وقد امتد أثر العرب على جزر

البحر الأبيض المتوسط وكانت جزيرة صقلية من أعظم مراكز

الحضارة الإسلامية لأن موقعها وسط بر الروم أكسبها أهمية عظيمة حتى جعل العرب يتطلعون إليها منذ شفت سفنهم عباب هذا البحر فقد توجهت إليها تلك السفن منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان ورجعت إلى دمشق بالغنائم الكثيرة من مال وعروض وأسرى ، ومازال العرب يغيرون على هذه الجزيرة إلى أن أرسل إليها زيادة الله بن الأغلب وإلى أفريقية من قبل المأمون العباسي . (٢٠١ - ٢٢٣) اسطولا قويا (سنة ٢٢٢) بقيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان ، فانتصر هذا الاسطول على أسطول الروم هناك . ومازال العرب منذ ذاك يغيرون على هذه الجزيرة ويدكون حصونها إلى أن كان عهد إبراهيم ابن أحمد الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩) الذي نال نحر اتمام فتح صقلية وأدخلها في حوزة العرب .

وقد نشر العرب هناك أيضا علومهم ومعارفهم بين سكان هذه الجزيرة الذين كانت تغذت عقولهم قبل ذلك بالثقافة اليونانية واللاتينية فحدث اتصال بين الثقافة الشرقية والغربية وكان ذلك أشبه بما حدث من بعض الوجوه بين الثقافة الفارسية والعربية في بلاد المشرق ، وامتد أثر الثقافة العربية إلى زمن روجر الثاني ملك صقلية الذي كانت ثقافته عربية إسلامية ، فكان يعين المؤلفين العرب على نشر مؤلفاتهم . ويساعد على بث الثقافة العربية في أنحاء الجزيرة وبين سكانها ، حتى أنهم من أجل ذلك بأنه خارج على المسيحية داخل في الاسلام ، وله ألف الشريف الإدريسي الصقلي كتابه الشهير في الجغرافيا المسمى (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وعمل له كرة أرضية صور عليها شكل الأرض .

وأنشأ روجر إداره ملكه على نظام الادارة العربية في الاندلس

فصارت اللغة العربية في زمنه هي اللغة الرسمية لسكان هذه البلاد حتى في مكاتباتهم الخاصة .

كان علماء العرب وأدباؤهم وشعراؤهم يرحلون من الأندلس الى بلاد البربر والى جزر البحر و يقيمون هنا وهناك ، كما رحل الشاعر الصقلي ابن حمديس الى الأندلس وبقي في حاشية المعتمد بن عباد . وكما رحل غيره من الشعراء والعلماء والادباء على ما هو معروف

وقد كانت مدينة القيروان من أعظم المدن العلمية ومحط رجال العلماء والادباء ، ومنها امتد سلطان العرب وفتوحاتهم على جزر البحر المتوسط كما رأينا في صقلية ، وكانت أيضا بلاد المغرب الأقصى متصلة ببلاد الاندلس والعلماء يفتدون إلى هناك ، وقد رحل جماعة من علماء الاندلس بعد خروج العرب منها الى بلاد البربر ونشروا علومهم ومعارفهم ، فكانت بلاد البربر من القرن الثاني الى القرن التاسع الهجري مسرحا للعلوم والثقافة الاسلامية ، كما كانت ميدان حروب وشجاريين القبائل العربية والبربرية . وكانت الحياة العلمية في بلاد المغرب تشبه ما كان منها ببلاد

الاندلس لقرب البلدين وشدة الصلة بينهما لأن الرحلة من بلاد الاندلس إلى شواطئ أفريقية كانت سهلة فاختلط هؤلاء بهؤلاء وأخذ المغريون عن الاندلسيين العلوم والمعارف كما أخذ الاندلسيون عن المشاركة . فكان أهل المغرب عيالا على أهل الاندلس في ثقافتهم وتربيتهم العلمية . لهذا لم تعد ثقافة المغاربة بعض ما كان معروفا في الاندلس من علوم الادب والشريعة وكانت فنون الادب سهلة التداول

لأنها تؤخذ بالرواية والحفظ ولا تحتاج لعناء كبير في الفكر ولا في كد الأذهان هذا إلى استعداد العربي الفطري وميلهم إلى حفظ الأشعار والفكاهات والنوادر في التاريخ والأدب ، ورغبتهم في نشر آثار آبائهم . فكانت الصفة العامة في بلاد المغرب صفة أدبية . وكان بجوار هذه الثقافة الأدبية ثقافة دينية أساسها علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث مما كانت تهذب أفكارهم وتصل بهم إلى مراتب العلماء والوزراء والقضاة ، حتى ظهر من بينهم جماعة من كبار رجال الدولة ؛ ضربوا بسهم وافر في هذه العلوم .

فكان منهم أسد بن الفرات قاضي القيروان وفاتح جزيرة صقلية وصاحب أبا يوسف

وكان منهم أبو سعيد عبد السلام الملقب بسحنون كان من كبار علماء المالكية رحل إلى مصر ونقل مبدونه مالك عن أبي القاسم المصري : ونشر هذا المذهب ببلاد المغرب وتولى قضاء القيروان (توفي سنة ٢٤٠ هـ)

ولم تكن لهم عناية عظيمة بالعلوم الكونية ولا بالمذاهب الفلسفية لا انتشار مذهب أهل السنة بينهم . ومحاكاتهم سلاطين المرابطين في التعصب لذلك

أما عنايتهم باللغة فكانت أشبه بعنايتهم بالعلوم الشرعية فظهر منهم جماعة من أئمة اللغة من أشهرهم :

الامام اللغوي محمد بن جعفر القزاز القيرواني الذي كان في خدم العزيز ابن المعز العبیدی صاحب مصر . وقد تقدم إليه أن يؤلف كتابا .

يذكر فيه سائر الحروف فألف كتابا في نحو الف ورقة وأسماء الجامع في اللغة وهو من أكبر الكتب التي ألهمت في ذلك وله كتاب آخر اسمه التعريض قال ابن رشيق : أن القزاز فصح المتقدمين وقطع السنة المتأخرين (توفي القزاز بالقيروان سنة ٤١٢ هـ) .

وقد كان القزاز أستاذا لابن رشيق وابن شرف القيرواني

اللغة

وبدرة القبائل هناك كثرت اللهجات البربرية وسطت على اللهجة العربية كما سطت العجمة على لغة العرب حتى تعدى ذلك إلى الكتابة والشعر ، ولكن أمم المشرق والاندلس كانوا حماة للغة العرب وآدابهم وكان كثير منهم كتابا للأمراء والماوك ولاسيما زمن الدولة العبدية ودولة الأغالبة ، وقد درس كل أثر من آثار العقول هناك حتى آثار الرومان أمام قوة عقول العرب وعلومهم العربية والدينية . وحاول الأديباء والعلماء هناك مجازاة أهل المشرق في الأدب والكتابة وفنون الشعر ومحكاة أهل الأندلس في ذلك . ولكنهم عجزوا بعض العجز عن مجازاة أمم لم يدركوا مشاؤونهم ، وإن جاروهم في بعض ضروب الشعر كالوشحات والمواليه وزادوا عليهم في الشعر العامي الذي طغى أو كاد يطغى على العربية الفصحى لامتلائه باللهجات العامية .

وجملة القول أن اللغة في عصر بني الأغلب والفاطميين كانت في أوج عزها هناك ، وقد ارتقت العلوم والآداب أيضا بما كان لمدينة القيروان من مكانة في ذلك لأنها كانت مقراً للحركة الأدبية والعلمية فظهر فيها طائفة

من العلماء والأدباء ذاع أمرهم في العالم العربي كأبي اسحاق الحصرى
القيروانى صاحب كتاب زهر الآداب (توفى سنة ٤١٣) ، وابن شرف
القيروانى الشاعر الكاتب (توفى سنة ٤٦٠) ، والأديب الناقد ابن رشيق
القيروانى صاحب كتاب العمدة وقراضة الذهب (توفى سنة ٤٦٣)
وابن أبي زيد القيروانى إمام الشريعة فى زمانه (توفى سنة ٣٨٦) .

وكان كثير من علماء هذه البلاد اشتهر فى بلاد المشرق بمؤلفاته وآرائه
وليس كتاب العمدة وقراضة الذهب لابن رشيق أقل شهرة فى تاريخ
النقد الأدبى من كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري ، ولا من
كتاب الوساطة للقاضى عبد العزيز الجرجانى . ولا من كتاب الموازنة
للأمدى . ولا من كتاب المثل المائر لضياء الدين بن الأثير

الكتابة والخطابة

مهما قيل عن رقى اللغة العربية وأحوالها فى بلاد المغرب فانه
لا يمكن القول بأنها وصلت إلى ما كانت عليه فى بلاد المشرق أوفى بلاد
الأندلس لتأصل العجمة فى اللسان وتداول الدول على تلك البلاد
وعدم استقرار الأمن هناك واشتغال الحكام بالفتح ، وقمع الثورات
أكثر من اشتغالهم بنشر الثقافة والعلوم ولولا كثرة الوافدين على تلك البلاد
من علماء المشرق والأندلس لما وجد العلم والأدب هناك مجالا فسيحا .
لهذا لم تصل الكتابة والشعر هنا الى ما وصلت اليه هناك فى
بلاد المشرق والأندلس . بل كان أهل المشرق والأندلس هم حماة اللغة
والأدب وكثير من كتاب الامراء والملوك كانوا منهم

أما الكتابة فكانت صناعة من الصناعات التي يشتغل بها العلماء والأمرء ، وكانت جارية في أساليبها على طريقة الأندلسيين من حيث السجع والتعمل في ذلك وتصيد العبارات المملوءة بالاستعارة والمجاز وبعض أنواع البديع

وأما من حيث الموضوعات فكانت مقصورة على الرسائل السياسية والدينية ، ولم نصل رغم ذلك إلى الدرجة التي كانت لها في بلاد المشرق أو الأندلس لا من حيث الأغراض ، ولا من حيث الصناعة ولا من جهة الدروب في الكتابة ، بل كان كثير منها أشبه بكتابة الفقهاء منها بالأدباء ، وكثيرا ما كان الملوك والأمراء يستكتبون رجال الأدب من الأندلس . كأبي محمد بن عبد المجيد بن عبدون زمن المرابطين وهو الذي نشر أسلوب الأندلسيين هناك ، وكأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وغيرهم

(من الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، أتباع المهدي بن تومرت المستمرة بقيام الآن بتونس وسائر بلاد أفريقية ، وهي على أسلوبين) كما كتب عن عبد المؤمن : خليفة المهدي إمامهم إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد

« من أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأمده بمعونته ، إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله ، ويسرهما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار ، ومنه العون لاوليائه والاقدار ، وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار ، والصلاة على محمد نبيه الذي ابتعثت ببعثته الاضواء

والأنوار ، وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار ، وخصم بحججه الكفر والكفار ، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار ، والمهاجرون والأنصار والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله حين غيرته الأغيار ، وتقدم الامتعاظ له والانتصار . وهذا كتابنا كتب الله لكم نظراً بربكم المنهج ويتقوكم الأبرج فالأبرج ، وأتاكم الله من نعمه الإيمان وعصمه الانقياد له والأذعان ، ما تجدون به اليقين والشايع من حضرة سلطان مراکش حرسها الله تعالى ولا استظهار الأبقوت وحوله ، ولا استكثار إلا من احسانه وطوله

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمة خلقه ومطية لرقبه وقرارة لأقامة حقه وحمل حملته الدعاء اليه والدلالة به عليه والترغيب في عظيم ما عنده ونعيم ما لديه وجعل الإنذار والاعذار من فصوله المستوعبة وأحكامه المرتبة ، ومنحاته المخلصه من الخطوب المهلكة ، والاهوال المعطية ، رأينا أن نخطبكم بكتابنا هذا أخذاً بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء الى سبيله ، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله وإقامة الحجج في تبليغ القول وتوصيله ، فأجيبوا - رفعكم الله - داعي الله تسعدوا وتمسكوا بأمر المهدي - رضي الله عنه - في اتباع سبيله تهتدوا ، واصرفوا عنه العناية إلى النظر في المآل ، والتفكير في نواشئ التغير والزوال ، وتدبروا جرى هذه الأمور وتصرف هذه الأحوال ، واعلموا أنه لا عزة إلا بأعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، فالدنيا دار الغرور وسوق المحال ، وليس لكم في قبول النصيحة وابتداء التوبة الصحيحة ، والعمل بثبوت الإيمان في هذه العاجلة الفسيحة

إلا ما يحبونه في ذات الله تعالى من الامنه والدعه والكرامه المتسعة
والمكانة المرتفعة والتنعيم بنعيم الراحة المتصلة والنفس . . . ؛ فنحن
لا نريد لكم ولسائر من نرجو إنايته ، ونستدعى قبوله وإجابته ، إلا
الصالح الاعم والنجاح الاتم وتأملوا - سددكم الله - من كان بتلك
الجزيرة - حرسها الله - من أعيانها وزعماء شأنها . هل تخلص منهم إلى
ما يوده ، وفاز بما يدخره ويعزه الا من تمسك بهذه العروة الوثقى
واستبقى لنفسه من هذا الخير الادوم الا بقى وتنعم بما لقي من هذا
النعيم المقيم ويلقى

أما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ورغب بنفسه عن هذا
الامر العزيز إلى ما سواه ، فقد علم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة
سوءه وحق عليكم وفقكم الله ويسركم لما يرضاه - أن تحسنوا الاختيار
وتصلوا الاذكار والاعتبار ويتقنوا الابتدار وما حق من انقطع إلى
هذا الامر الموصول الواصل وازمع ما يناله من خيره المحوز الحاصل
أن يناله منكم في أمر أهل بلنسية حين إعلانكم بكلمه التوحيد وتعلقهم
بهذا الامر السعيد ما كان ثم كان منكم في عقب ذلك ما اعتمدتموه في
أمر أهل لورقه - وفقهم الله - حين ظهر اختصاصهم وبأن أخلصهم ،
وليس لذلك وأمثاله عاقبه تحمد فان خير ما يقصده والنجاة فيما ينزح
عن الشر ويبعد ، وإنا نرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه - إن شاء الله
تعالى - نظر موفق ومتاع محقق ويجذبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة
جاذب يسعد ، وسائق يرشد ، والله يمن عليكم بما ينجيكم ويمكن لكم في
طاعته أسباب تأمياكم وترجيكم بمنه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وكتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسة مائة»

الخطابة

أما الخطابة فقد ظهرت في بلاد البربر بظهور العرب هناك ورغبتهم في نشر سلطانهم ودينهم ، وكان أكثرها موجهًا إلى نشر الدين . ولما تتابعت الدول الإسلامية على تلك البلاد كان لكل دولة زعماء وأنصار كما هو معروف في تاريخ العرب . ولما بذرت بذور الشيعة هناك كان لهم خطباء يدعون لمذهبهم ويؤيدون الفاطميين ، وكان من أشهرهم أيو عبد الله نصير المهدي الفاطمي ، وكان محمد بن تومرت المهدي من أخطب الخطباء وأكثر ما كانت الخطابة شيوعًا في المسائل السياسية والدينية ، ولكن على كل حال لم تصل إلى ما كانت عليه في بلاد المشرق ولا تعتبر من الأنواع الأدبية الفنية في شيء .

وهذا جزء من خطبة المهدي محمد بن تومرت وهو يجود بنفسه .
« واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء . وكونوا
يذا واحدة على عدوكم . فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى
طاعتكم وأكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم . والافتعلوا شملكم
الذل وعصمكم الصغار ، واحتقركم العامة فتخطفتكم الخاصة : وعاليكم في
جميع أموركم مزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف واعلموا مع هذا انه
لا يصلح أمر هذه الأمة الا على الذي صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا
عليكم رجلا منكم ، وجعلنا أميرا عليكم . هذا ، بعد أن بلوناه في جميع
أحواله من ليله ونهاره ، واختبرنا سريره وعلايته ، فرأيناه في ذلك
كله ثابتا في دينه ، متبصرا في أمره واني لأرجوا أن لا يخالف الظن فيه

وهذا المشار إليه عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعا مطيعاً
لربه ، فان بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين
أعزهم الله بركة وخير كثير . والأمر أمر الله يقلده من يشاء من عباده .

الشعر

كان الشعر في بلاد المغرب أقل منزلة منه في أى بلد آخر من
البلدان التى فتحها العرب لسيادة البربر هناك وانتشار لغتهم ، ولأن
العرب لم يكونوا بالكثرة ولا بالسلطان اللذين كان لهما في بلاد الاندلس
رغم ما كان لهم من دول رسخت أقدامها في تلك البلاد ، وربما كان عدم
اخلاص البربر للعرب ولغتهم من الاسباب التى لم تجعل للشعر في بلادهم
ما كان له في بلاد الاندلس ، لان جمهور الشعراء والأدباء في زمن الامويين
ومدة ملوك الطوائف كانوا من العرب الذى سكنوا هناك . أو من
الوافدين من المشرق ، فكانت العصبية البربرية تسيطر على الحالة
العقلية هناك . لهذا لانكاد نجد للشعر العالى مجالا أوسع من بلاد البربر
وربما يحسب هذا النوع من الشعر الخليط من العربية الفصحى والاعجمية
البربرية من مبتكرات أهل المغرب ، على أنه كان هناك من شعراء العرب
وكناهم الذين جئوا الى تلك البلاد من بلاد الاندلس وغيرها كثير
ممن حاكى شعراء أهل المشرق وأكثرهم كان من أصل عربى .

وقد أخذ الشعر في هذه البلاد كثيرا من الاوزان المختلفة التى
تشبه أوزان الموشحات ، وكثيرا ما كان الشعراء من المغاربة لا يلتزمون
الاعراب ويسمون قصائدهم بالاصمعيات ، كما ذكر ابن خلدون ذلك قال :
« نم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أطاريض

مزدوجة كالوشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه غروض
البلد ... ، كان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الاندلس نزل
بفاس ، يعرف بابن عمير ، فنظم قطعه على طريقة الموشح ولم يخرج
فيها عن مذاهب الاعراب مطلعها :

أبكاني بشاطى النهر نوح الحمام على العصن في البستان القريب الصباح
وكف السحر يحوم مداد الظلام وماء الندى يجري بتغر الأقاح
فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب
الذى ليس من شأنهم ، وكثر شيوعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه
أصنافا ... فن المزدوج ما قاله ابن شجاع من فحولهم وهو من أهل ثازا .
المال زينة الدنيا وعزة النفوس يبهى وجوها ليس هى باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكلام ورتبه العاليا
ومن أدباء الاندلس المعروفين ابن رشيق القيروانى ، وأبو اسحاق
الحصرى القيروانى ، وأبو الحسن الحصرى ، وابن شرف وغيرهم ، وأنا
ذا كرون هنا كلمة عن كل واحد منهم .

ابن رشيق القيروانى

وهو أبو على الحسن بن رشيق القيروانى . ولد بقرية المهديّة
سنة ٣٩٠ هـ من أب روى كان من موالى الازد ، توفى ببلدة مازر من مدن
صقلية سنة ٤٦٣ هـ ، وكانت صنعة أبيه فى بلدته المهديّة الصباغة فعلمه
أبوه صنعته . ثم قرأ الادب ونظم الشعر وأراد التزود من ملاقات
الادباء والعلماء ، فرحل الى مدينة القيروان وعرف هنا بالادب والشعر
حتى ذاع أمره واتصل بحاكمها ومدحه ودخل فى خدمته ثم انتقل الى

جزيرة صقلية على أثر الاضطراب والحروب التي ثارت في مدينة القيروان وبقي هناك الى أن توفي ببلدة مازر .

عاش ابن رشيق في عصر العلوم والآداب ببلاد البربر وجزائر البحر الأبيض المتوسط ، وانصل بالعلماء والادباء حين كان لبني الاغلب حكام أفريقية أثر عظيم في العناية بالعلوم .

وكان معاصراً لكثير من مشهورى علماء المغرب كالأبى سعيد عبد الله ابن شرف القيروانى حتى كان بينهما مهاجاة ومناقضات ومناقشات علمية كتب فيها ابن رشيق عدة رسائل منها رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة أخرى نجح الطلب وأخرى تسمى قطع الأنفاس وغيرها . ومن معاصريه أبو اسحاق ابراهيم الحصرى القيروانى مؤلف كتاب زهر الآداب المتوفى سنة ٤١٣ هـ بمدينة القيروان .

وهو من أشهر علماء زمانه في فنون الادب وعلوم اللغة ، وأقبل بمخاصمة على ما ذكره المتقدمون من نقد الشعراء وحل كلامهم وتفصيل مذاهبهم وكان يميل بطبعه الى ذلك فكان من النقاد العارفين بضروب البيان وصناعة الشعر ، بل عد من أئمتهم وكتب في ذلك كتباً أشهرها (العمدة في صناعة الشعر ونقده) وكتاب آخر لطيف سماه (قراضه الذهب) أما كتاب العمدة فهو كتاب جامع لفنون الشعر وعلوم البلاغة وكل ما يتعلق بصناعة أو نظم الكلام ، جمع فيه كثيراً من أخبار الشعراء وأقوالهم وقد ملأ المؤلف كتابه باستشهاد من كلام الشعراء والكتاب فهو كتاب مجموع من كتب الادب وكلام الادباء والشعراء يدل على اطلاع واسع للمؤلف بإحاطة بكثير من المؤلفات لعلماء الادب

أما قراضة الذهب فليس على هذا النمط إنما هو كتاب نقد ذكر فيه شيئاً مما يختار نقده من شعر الشعراء ، ثم يذكر نوعاً من التحليل بما للكلام من معنى جيد أو ردىء أو لفظ مستقيم أو ساقط ويبين ما هو مبتكر أو منقول .

شعره

أما شعره فكان من نوع الشعر المعروف في زمانه ببعضه في المدح وبعضه في الحكيم ونقد أخلاق الإنسان وبعضه في الفكاهة وهو في جماته سهل الأسلوب به شيء من الصناعات اللفظية التي ذاعت هناك ؛ فقد حاكى غيره في نظم الكلام وفي اقتباس الأساليب والمعاني والعبارات . فمن قوله في النصيحة :

من يصحب الناس مطوياً على دخل لا يصحبوه ، نخلوا كل تدخيل
لا تستطياوا على ضعفى بقوتكم إن البعوضة قد تعدو على الفيل
وجانبوا المزح إن الجسد يتبعه ورب موجعة في أثر تقبيل
ومن قوله في المداعبة والغزل .

ولما بدا لى أنها لا تحبنى وان هواها ليس عني بمنجلى
تمنيت أن تهوى سوى لعلها تذوق صبايات الهوى فترق لى
فما كان إلا عن قليل وأشفقت بحب غزال أدعج الطرف أكل
وعذبها حتى أذاب فؤادها وذوقها طعم الهوى والتذلل
فقلت لها : هذا بهذا . فأطرقت حياء وقالت : كل عائب ابتلى
وقال :

أحب أخى وان أعرضت عنه ولعل على مسامحه كلامى

ولى فى وجهه تقطيب راض كما قطبت فى وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض وبغض كامن تحت ابتسام
ومن قوله فى العتاب .

وقد كنت لا آتى إليك مخاتلا ولكن رأيت المدح فيك فريضة
فقلت بما لم يخف عنك مكانه ولو غيرك الموسوم عندي بريبة
فلا تتخالك الظنون فأنها فو الله ما طولت باللوم فيكم
ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوت بلى ! ربما أكرمت نفسي فلم تهن
ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن فبايئت لا ان العداوة بايئت
ألوذ بأكناف الرجاء واتقى شمت العدا إن لم أجد فيك مطمعا

لديك ولا أثنى عليك تصنعا على إذا كان المديح تطوعا
من القول حتى ضاق مما توسعا لا عطيت منها مدعى القول ما أددى
مآثم وانرك فى الصنع موضعا لسانا ولا عرضت للذم مسمعا
حبلى ولا ولى ثنائى مودعا وأحللها عن ان تذل وتخضعا
ثيلا على الاخوان كلا مدفعا وقاطعت لا لأن الوفاء تقطعا
شمت العدا إن لم أجد فيك مطمعا

ابن شرف القيروانى

هو من مشهورى أدباء المغرب وهو ابو عبد الله محمد بن شرف
ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وهو من أصل عربى نزل أجداده
بلاد المغرب مع الفاتحين العرب ، وتربى فى مدينة القيروان ، وكان له ميل
شديد للعلوم والمعارف والأدب فبرع فى الكتابة ونظم الشعر حتى ذاع
أمره ودخل فى حاشية المعز بن باديس وصار من كتاب ديوانه واشتهر
أمره بين الأدباء هناك فكثرت منافسوه وكان من بين هؤلاء ابن رشيق

القيروانى كما سبق . ولما ذهب أمر المحرز بن بادليس من يده انتقل ابن شرف إلى جزيرة صقاية ثم إلى الأندلس ، وعرف ملوك الطوائف هناك ، فكانت له منزلة رفيعة بينهم وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٠ فعاش ابن شرف في عصر زها فيه العلم والأدب في بلاد المغرب والأندلس ، وله شعر رقيق أشبه بشعر بن رشيق وكتابته حسنة منمقة وكان يحسب من النقاد البارعين في الأدب فمن شعره قوله في الشكوى

إني وإن عزني نيل المنى لأرى حرص الفتى خلة زيدت على العدم
تقلدتنى الليالى وهى مدبرة كأننى صارم فى كهف منهزم
ومن شعره قوله .

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكو كأننى سبابه المتقدم

أبو الحسن الحصرى

ومن الأديباء المشهورين أبو الحسن الحصرى وهو الأديب الشاعر وهو ابن خالة أبي إسحاق الحصرى وقد اشتهر أبو الحسن هذا بأدبه الجهم وكان عالما بعلوم الشريعة والآداب وعلوم القراءات هاجر إلى بلاد الأندلس ، واتصل بالمعتمد بن عباد من ملوك الطوائف ، وتوفي بمدينة طنجة سنة ٤٨٨ هـ : وهو صاحب القصيدة الشيرة التى عارضها جماعة من الشعراء فلم يبالغوا شعره فيها وهذه القصيدة هى :

باليل . الصب متى غده	أقيام الساعة موعده
رقد السمار وأرقه	أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له	مما يرحاه ويرصده
كاف بغزال ذى هيف	خوف الواشين يشرده

نصبت عيناي له شركا في النوم فعز تصيده
 وكفى عجباً انى قنص لاسرب سباني أغيده
 صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبده
 صاح والخمر جنى فيه سكران لاحظ معربده
 ينضو في مقلته سيفاً وكأن نعاساً يغمدده
 فيريق دم العشاق به والويل لمن يتقملده
 كلا ، لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده
 يامن جحدت عيناه دمي وعلى خديهِ تورده
 خذاك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تجرده
 انى لا عيذك من قتلى وأظنك لا تتعمده
 بالله هب المشتاق كرى فلعن خيالك يسعده
 ماضرك لو داويت ضني صب يدنيك وتبعده
 لم يبق هواك له رمقا فليبك عايه عوده
 وغداً يقضى أو بعد غد هل من نظر يتزوده
 يا أهل الشوق لنا شرق بالدمع يفيض مورده

ابراهيم بن القاسم

ومن الشعراء المجيدين هناك ابراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق
 القيرواني الذي قال فيه ابن رشيق ونقله ياقوت الحموي في معجم الأدباء
 هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه تلوح الكتابة على
 ألفاظه ، قليل صنعة الشعر ... ومن شعره جواباً على أبيات كتبها اليه
 عمار بن جميل وقد انقطع عن مجلس الشراب

قريض كابتسام الروض جشمه نسيم صبا
 كعقد من جمان الطل منظوم وما ثقبها
 ومنثور كنثر الدر من أسلاكه انسر بها
 فأهدى نشر زهرته فتيت المسك منتهبها
 إذا أتماره جنيت جنيت العلم والأدبا
 بهزل حين ينشده كأنك منتش طربا
 فحسبك من أخ يرعى لك العهد الذي وجبا
 صديق مثل صفو الما بالصهباء قد قطبا
 كنزت مودة منه كأنى أكنز الذهبيا
 إذا عد امرؤ حسبا فحسبى ذكره نسبيا
 ألد من الحياة لى لكن قلبه قلبا
 فهأن عليه ما ألقى وظن تجلدى لعبا
 جفوت الراح عن سبب وكان لجفوتى سببا
 فصرت لوحدتى كلاً على الإخوان مجتنبيا
 وذاك لتوبة إمامت إن أقضى به أربا
 فيها أنا تائب منها فزرنى تبصر العجبا

وقد قدم مصر سنة ٣٨٨ هـ . بهدية إلى الحاكم بأمر الله . ومما قاله

من قصيدة يشوق فيها إخوانه بمصر

وما أنس من شىء خلا العهد دونه فليس بخال من ضميرى ولا فكرى
 ليال أنسناها على غرة الصبا فطابت لنا إذ وافقت غرة الدهر
 لعمري لأن كانت قصارا أعداها فليست بمعتمد سواها من العمر

أخادع دهرى أن يعود بفرصة فينقذ روح الوصل من راحة الهجر
وترجع أيام خات بماهد من اللهو لاتنفك مني على ذكر
فكم لى بالاهرام أو دير نهية مصايد غزلان المسكيد والقفور
إلى الجيزة الدنيا وما قد تضمنت جزيرتها ذات المواخير والجسر
وبالمنس فالبيستان للعين منظر أنيق إلى شاطئ الخليج إلى القصر

أبو اسحاق الحصرى القيروانى

هو أبو اسحاق ابراهيم بن على بن تميم المعروف بالحصرى القيروانى
ولا تعرف بالضبط سنة ميلاده ولا السنة التى توفى فيها ، ورجح ابن
خلكان أنه توفى بمدينة القيروان سنة ٤١٣ هـ وبعضهم يقول انه توفى
سنة ٤٥٣ هـ . وقد كان من أكبر أدباء بلاد المغرب وشعراهم المعروفين
ومن أشهر كتبه المعروفة كتابه « زهر الآداب » الذى جمع فيه دروب
الآدب المعروفة من شعر بليغ مختار ، ونثر بديع وحكم عالية ؛ وكثير مما
جرى فى المجالس والمحافل الادبية وقد اشتهر بهذا الكتاب لجمعه لضروب
الآداب كما قلنا . وهو مؤلف أعظم منه شاعرا أو كاتباً

ابن حمديس الصقلى

مولده ونشأته

ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الأزدى
الصقلى سنة ٤٤٧ هـ فى جزيرة صقلية ، وفى سنة ٤٧١ هـ هاجر الى
أسبانيا وعاش فى أشبيلية وتوفى سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة . ولم يكد
يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده فى يد النرماندين ، الذين لم تكد

تطأ أقدامهم تلك الجزيرة حتى نكلوا بأهالها كل تنكيل ، وأذاقوهم
المذاب الآليم ، وحملوهم على ترك دينهم ، وفتكوا بأعراضهم ، وأذلّوهم
وأهانوهم في شرفهم . فشهد ابن حمديس ذلك ورأى بعينه كيف تسلب
الاطوان من أهلها ، وكيف يجرؤ القوي على سلب حقوق الضعيف ،
وينقض عليه كما ينقض اللص ذو القوة والطول ، على الضعيف السليب
من كل قوة وحول

لذلك أثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده . وكان لهذا
أثر عظيم في نفسه وخياله الشعري وأخلاقه ، حتى أصبحت نفسه من
النفوس المظلمة ، وصدره من الصدور المنقبضة ، واستولى عليه البؤس
بسبب هذه الحوادث :

فهاجر إلى أسبانيا ونزل بأشبيلية ، وعاش في حاشية المعتمد بن
عباد وصار في جملة شعرائه ، وتبعه في منفاه . ولم يكن ابن حمديس
معروفا عند قدومه إلى أشبيلية . فقد قال :

« أقمت بأشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلى ،
ولا يعبا بي ، حتى قنطت خيمتي مع فرط تعب ، وهمت بالنكوص على
عقبى . فاني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ بغلام معه شمعة ومركوب ،
فقال لي أجب السلطان . فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني
على مرتبة فنك^(١) ، وقال لي افتح الطاق التي تليك ، ففتحتها ، وإذا
بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابه ، وواقدة تفتحها تارة وتسدها
أخرى ، فحين تأملتها . قال لي أجز .

انظرها في الظلام قد نجا . فقلت : كما رنا في الدُّجَّة الاسد

فقال : يفتح عينيه ثم يطبقها . فقالت : فعل امرىء فى جفونه رمد
فقال : فابتزه الدهر نور واحدة . فقلت : وهل نجا من صروفه أحد
فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنوية وألزمى خدمته^(١) .

أما نفسه فنفس رجل ربه الحوادث ونالت منه الايام . وأذاقته
مرها قبل حلوها . فتلقت عليه الحياة ولوت من ظهره بعد أن أخرجته
من وطنه ، وليس له إلا لسانه وخياله . وقد كان لبلاده أثر طيب فى نفسه
ومنزلة رفيعة وسبب جم . فلما اضطر إلى الهجرة والنزول فى غير أهله
تعتت نفسه وأظلمت فى وجه الدنيا وكثر حنينه إلى بلده ، وصار
ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه إلى وصف الملذات
أو التظاهر بالمسرات . ولقد يلمح الانسان هذا فى كل شعره حتى فى
الغزل والخمرات والمدح والوصف .

شعره وكان ابن حمديس ميالا الى ادراك الاشياء والمعاني إدراك من
يحاول فهم ما يرى ويفكر فقد كان يرغب دائماً فى تشبيه المحسوسات
بالمعقولات ، والمعقولات بالمحسوسات . وهذه طريقه من طرق المحاولة
فى الادراك . وأكثر اهتمامه فى تشبيهاته موجه إلى وصف المراتيات
وإدراكها . ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من
معنى إلى آخر ، ومحاولة الخروج من طريق واحد إلى طرق متشعبة .
أما قوته الشعرية التى كون بها هذه الاشياء ووضعها فى أسلوب
خيالى جميل فتابعه لنفسه وعقله ، وأكثر اعتماده فى ذلك على ما يكتسبه
من التأثير بطواهر الاشياء وما فيها من التشابه بالجمال

وعلى الرغم من صبغته الجدية في شعره ، فإن كثرة كلامه في الخمر ومجالسه والعشق وآثاره ، تدل على أنه كان يميل إلى شيء من المجون ، ولكنه كان أقل من غيره في ذلك ، فإن الانسان لا يكاد يرى لالتفاتك أثراً في كلامه . ولولا أنه عاش في هذا العصر وفي حاشية المعتمد بن عباد ، لقلنا إنه كان بعيداً عن اللهو والمجون . ولحملنا شعره الذي جاء في هذا على نوع من الصناعة والخيال ، إذ أننا نجد في كثير من شعره يميل إلى الكلام في المواقظ والعبر ، أو إلى بعض الآراء التي تدل على أنه كثيراً ما كان يدفعه الفكر إلى خوض المعاني النفسية أو الخواطر الفلسفية ، ويمزج هذه الأفكار ويصوغها في أنواع شعره . ويظهر من شعره أنه أكثر تأثراً بالمعاني الاجتماعية . ولهذا أيضاً نراه شاعراً مفكراً من أصحاب الملاحظات والنظر في الحياة والاجتماع أكثر منه شاعراً وصافاً كما هو معروف عنه . ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية وحالته الفكرية .

وقد أبدع في هذا الشعر الجدي المملوء بالعبر والحكم كما دل على أنه مفكراً أكثر منه خيالياً لاشتغال شعرة على جولات فكرية مملوءة بأحواله النفسية ، والآلام التي يشعر بها ، وكثيراً ما تظهر هذه الآلام آلاماً لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة . كما تظهر آلام العاشق الشاعر آلاماً لكل العاشقين . لذلك كان ابن حمديس شاعراً نفسياً ناقماً على الحياة وما فيها متشائماً :

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب ؟

أو قال حسبي من إخمال ذى حسب ؟

لا يلاحظ الحر إلا مثلما وقعت
وكيف يصفولنا دهر مشاربه
إن الزمان بما قاميت شيبني
ولو خلا الدهر ذوالانباء، من عجب
قرأت وحدي على دهرى غرائبه
أحلت عزمي على همي فقطعه
ما قربني السير في سهل ولا جبل
ولم أضق في السرى ذرعا بمعضلة
وترتقى حر أنفاسي فابعثه
وأحر بالحر أن تلقاه ذا جلد
ولقد تنقبض نفسه ، فتحرك خياله حركة البائس الذي ينظر إلى
الأيام نظر الحاقد ، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب ، وكأنه
واقف على أبواب الموت يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله ، ذلك
وهو في حالة كآبة ، نفسه متأثرة بهذه الخواطر : كما قال :

وعظت بلمتك الشائبة	وفقد شبيبتهك الزاهية
وسبعين طاماً ترى شمسها	بعينك طالعة غاربة
فويحك أهل عبرت ساعة	ونفسك عن زلة راغبة
فرغت لصنعك ما لا يقيقك	كأنك عاملة ناصية
وغرتك دنياك إذ فوضت	إليك أمانيتها الكاذبة

أصاحبة نخلتها ؟ انها باحدائها، بثست الصاحبة
 أما سلبت منك برد الشباب فهل يسترد من السالبة ؟
 وإن دقائق ساعاتها لعمر كآكلة شاربة
 وإن المنية من نحوها عليك باظفارها واثبة
 ألم ترها بحصاة الردى لكل حميم لها حاصبة ؟
 كان لنفسك مغنيطسا غدت الذنوب به جاذبة
 فيا حاضرأ أبدا ذنبه ونوبته أبدا غائبة
 أذب منك قلبا تجارى به سواك عبرتك الساكبة
 على كل ذنب مضى فى الصبا وأتعب إثباته كاتبة
 عسى الله بدرا أعنك العقاب وإلا فقد ذمت العاقبة

ولابن حمدىس صبغة خاصة فى شعره ليست مغروفة كثيرا فى
 الشعر العربى : وهى محاولة الخروج من الواجدانيات التى هى أكبر مظاهر
 الشعر العربى ، إلى الكلام عما يجول بالنفوس ، لا من جهة الخيال وما
 به من الجمال لا غير ، بل من جهة التفكير أيضا ، وما يمر بنفس الانسان
 وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها ، وما يعتريه من أحيرة
 وشك ويقين ، وكراهة للوجود أحيانا ، وميل إلى البقاء تارة . ذلك
 بعرض صور الحوادث المؤلمة التى تزهد فى الدنيا وتنفر الانسان من
 رؤيتها ، وتلك بوصف أوقات الانس ولحظات السرور من حسن
 الذكر كوصف مجالس اللهو والطرب والخمر ولذتها ، والجمال وأثره فى
 النفس ، وغير ذلك من أصنى وجوه الحياة وأجل صورها .
 فهو فى كل أنواع شعره جاد لا مازح . ولذلك تجدد أثر فكره

وحركة عقله في كل كلامه ، وتشعر بنفسه المفكرة إذا قرأت شعره ، كما تشعر بتلك الحيرة التي هي أصل كل تفكير ، وكما تشعر بسعة خياله الشعري . وإذا اجتمعت قوة الفكر وسعة الخيال لانسان كان من أكبر الشعراء ، فإذا كانت حاسته النفسية التي هي رقة شعوره قوية أيضاً كان في مقدمة الشعراء . كل ذلك في شعر ابن حمديس . فهو شاعر نفسي في مقدمة شعراء العرب المفكرين وقد بين في شعره ما تنطوي عليه نفسه : ولكن لا بصفته الشخصية الفردية ، بل بصفته انساناً أمثاله كثيرون . وإذا كان كثير التفكير في ظلمات الحياة ووجوهها العابسة ، وميالا الى التأمل في ذلك : أكثر من التفكير والنظر في وجوهها النضرة الباسمة ولكن غلبت على شعره صبغة التشاؤم . أكان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة ؟ قد يكون هذا . وربما كانت رقة شعوره نقود عقله وتملك منه إدراكه ، ولقد كان أغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء إليه ووقوعه في غير قبضة أهله من الاسباب التي أثرت في نفسه واستولت على عواطفه : فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينحى باللوم على نفسه وينهرها . ولكنه لم يكن في ذلك فيلسوفاً ، بل كان يميل الى أمثال أفكار المتوصفة في لوم النفس والنيل منها . ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحياناً عاطفة الندم أو توبيخ النفس فيرى نفسه ذليلاً حقيراً ، وكأنه يبكي على ذنوبه وهو حزين كئيب . ولكن ما أجمل حزنه الشعري وأرقه في هذا الانين . حيث يقول :

ياذنوبى ثقلت والله ظهري بان عذرى فكيف يقبل عذرى
كلما تبنت ساعة عدت أخرى لضروب من سوء فعلي وهجرى

ثقلت خطوتي وفودي تفرى غيب الليل فيه من نور فجرى
رب موت السكون في حركاتي وخبا في رماده حر جبرى
وأنا حيث سرت آكل رزقي غير أن الزمان يأكل عمرى
كلما مر منه وقت بربح من حياتي وجدت في الربح خسرى
يارفيقا بعبده ومحيطا عامه باختلاف سرى وجهرى
هل بقلبي الى صلاح فسبى منه ، واجبر برأفة منك كسرى
وأجرني بما جناه لساني وتناجت به وساوس فكرى
أو كقوله وهو يفكر في نفسه وحياته وكأنه متصوف، ولكنه
مع ذلك شاعر جميل القول :

كملت لى الخمسون والخمس ووقعت في مرض له نكس
ووجدت بالاضاد من جسدى غصنا يلين وقامة تقسو
وتنافرت عني الحسان ، كما لحظ المصور جآذر جنس
وأبيض من فودي من شعري وحف كأن سواده النقس
والعمر يذبل في منابته غرس ويلبس نضرة غرس
إلى إن قال :

وأقل ما يبقى الجدار اذا مأند تحت بنائه الأس
يارب ان النار طابة ولكل سامعة لها حس
لا تجعل جسدى لها حصبا فيه تحرق منى النفس
وارفق بعبد لحظه جزع يوم الحساب ونطقه همس
وكقوله في الشكوى :
أسامنى الدهر للرزايا وغير الحادثات قفشى

وكننت أمشي ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشي
كأنني إذ كبرت أنسر بطعمة فرخه بعش
ومن دعا بانه في ذللا :

نومي على ظمير الفراش منغص والليل فيه زيادة لاتنقص
من عادات كالدثاب تذاءبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمي خمرًا تداوم شربها مسترخصات منه مالا يرخص
فتري البعوض مغنيا برابة والبق تشرب والبراغث ترقص
وكانت تنور نفسه ثورانا وتغلي غليان المرحل فتنتطق بالشعر
وكانه زاهد في صومعة أو ناسك في دير أو تقي من كبار التقاة فيقول :

بيتك فيه مصرعك وفي الضريح مضجعك
غرتك دنياك التي لها سراب يخدعك
همت بحب فارك وقلمًا تمتعك
يضررك الحرص بها والزهد فيها ينفعك
لا تأمن منية إن عصاها تقرعك
مغربك القبر الذي يكون منه مطلعك
إن فرقتك تربة فالله سوف يجمعك
وللسحاب موقف أهواله تروعك
كم جرما أشفقت من لمسك منه أصبعك
فكيف بالنار التي من كل وجه تلذعك
يراك ذو العرش إذا ناديت به ويسمعك
فتشق به ولا يكن لغيره تضمرعك

وقد تجول نفسه جولات في ذكر أيامه الماضية ، فيذكر كل ما يخطر بباله ، ويسطر الماضي كما يسطر الكاتب مذكراته في كتاب ، أو كما يرسم المصور صورة من ماضيه على اختلاف أحواله . وهو يخرج من معنى ليدخل في معنى آخر بين جد وهزل ، ولكن كل ذلك بصيغة الرجل الجاد المفكر ، وكأنما تمر أمام القارئ سلسلة حوادث ، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها . قال في إحدى هذه القصائد :

قضت في الصبا النفس أوطارها	وأبلغها الشيب إندارها
نعم وأجملت أقداح الهوى	عليها فقسمت أعشارها
وما غرس الدهر في تربة	غراساً ولم يحن أثمارها
فأفريت في الحرب آلاتها	وأعدد للسلم أوزارها
كيتا لها مرح بالفتى	إذا حث باللهو أدوارها
تناولها الكوب من دنها	فتحسبه كأس مضمارها
وساقية زورت كفها	على عنق الظبي أزارها
تدير بياقونة درة	فتغمس في مأها نارها
وفتيان صدق كزهر النجوم	كرام النجار أحرارها
يديرون راحات فيض الكؤوس	على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ في وصف دير وصاحبه وما عندها من خمر ، وأبدع في وصف الخمر بابتكارات عجيبة ، وخيالات غريبة . ووصف ما فيه من ملاح وقيان ترقص وتغني ، وهو يقص ذلك ويحكى حكاية ، وكأنك جالس في ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء ، ولقد تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة

أسلوبه . قال .

وراهبة أغلقت دبرها .	فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة	تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمي	فاجرت من الدن دينارها
تفرس في شمشا طيبها	معيد الفراسة فاختارها
فتي دارس الخمر حتى درى	عصير الخمر وأعصارها
يعد لما شئت من قهوة	سنيها ويعرف خمارها
وعدنا إلى هالة أطلعت	على قضب البان أقرارها
يرى ملك اللهو فيها الهوم	تنور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الأسي	قيان تحرك أوتارها
فهذي تعانق لي عودها	وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها	حساب يد نقرت طارها
وقضب من الشمع مصفرة	تريك من النار نارها
كان لها عمداً صفت	وقد وزن العدل أقطارها

ثم غلبه الوجد فذكر وطنه في حزن وألم فقال

ذكرت صقلية والأسي	بهيج للنفس تذكاريها
ومنزلة للتصابي حلت	وكان بنو الظرف عمارها
فان كنت أخرجت من جنة	فأني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء	حسبت دموعي أنهارها

وشكى في قصيدة طويلة آلامه فذكر صبره على ذلك ، وذكر غربته ، وهجر وطنه ، وأن ذلك كان من أكبر محنه . ثم ذكر شكاته

من الناس وهو يضرب الأمثال في أثناء ذلك ، وفيما لاقى من الأهوال
بانفراده في عزلته حتى عن خيال كان يزوره . ثم أخذ يتسلى بمدح
نفسه ويتغنى بفضائها الجلم وذكر ليااليه الماضية ، وعرج على ذكر وطنه
ونكبة بلاده باستيلاء الأعداء عليها وأخذ يصف أهل بلده ، وماكن
لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب بأفضل وأجمل ما يصف
شاعر قومًا يعتز بهم ، ويشرف بالانتماء اليهم . وختم كلامه بالحنين إلى
وطنه ، والبكاء على أهله . فقال :

تدرعت صبرى جنة للنوائب	فان لم تسالم يازمان فحارب
عجبت حصاة لاتلين لعاجم	ورضت شمساً لا يذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة	إذا لم أنقب في بلاد الأغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة	وأنفقت كنز العمر في غير واجب
يبيت ريش العصب في ثني ساعدي	معاوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندي إلا مثماً	مضاربه يوم الوغى في الضرائب
فكنت وفدى في الصبا مثل قدره	عهدت إليه أن منه مكاسبي
فان تك لي في المشرفي مآرب	فكم في عصي موسى له مآرب

ثم أخذ يتكلم عما في نفسه من ذكرى الحوادث الماضية ، وخيانة
الناس والأيام ، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس
جميعاً لينتبت بها معانيه ويجسمها للقراء . ولم يخرج في مجموع أسلوبه عن
الأسلوب العربي المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض في بعض
العبارات ، وذكر الراكب والرجل والنوى وركوبه القلاص وهزالها . كقوله :
أتحسبني أنسى ومازلت ذاكرًا خيانة دهرى أو خيانة صاحبي

تغذى بأخلاق صغيراً ولم تكن
ويارب نبت تعترية مرارة
عامت بتجريبي أموراً جهلتها
ومن ظن أمواه الخضاريم عذبة
ركبت النوى في رحل كل نجيبة
ولما رأيت الناس يرهب شرم
وعجيب تلك العادة التي أبتلى بها الشعراء في مدح أنفسهم مدحا
يخجل منه القارىء فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شيء؟
هل هذا من الأساليب الشعرية؟ لعله من وسائل التسليمة، على ما فيه
من المبالغة والتغنى بمدح النفس. ولكن مهما يكن من شيء في هذا
فإنها بدعة عجيبية في الشعر العربي وأسلوب غريب.

و بينما الشاعر يكيل لنفسه المدح كيلا، ولا يقنع بشيء منه تراه
فجأك بذكر الخمر ووصفها ومدحها. وأنت لتكاد تشمل من ذلك،
وإذا هو ينتقل إلى الكلام في وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله. فيقول
ولى في سماء الشرق مطلع كوكب
متى تسمع الجوزاء في الجو منطلق
وكم لى به من صنو ود محافظ
أخى ثقة لادسه الراح والصبا
ممتقة دع ذكر أحقاب عم رها
إذا خاض منها الماء في مضمحل الحشا
ولو أن أرضى حرة لايتها
جلا من طلوعى بين زهر الكواكب
تصيح في مقالى لا رتجال الغرائب
لذى العيب من أعدائه غير طائب
له من يد الأيام غير سوالب
فقد ملئت منها أنامل حاسب
بدا الدر منها بين طاب وراسب
بعزم يعد السير ضربة لازب

ولكن أرضي كيف لي بفكاكها من الأسر في أيدي العلوج الغواصب
إلا في ضمان الله دار ينطوى ودارت عليهم معصرات الهواطب
أمنها في خاطري كل مساء وأمر لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للموطن الذي مغاني غوانية اليه جواذب
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل تمنى له بالجسم أواية أثب
هذا خلط في تركيب القصيدة ، ولكنه خلط معهود عند شعراء
العرب ، فالقصيدة من هذه الوجهة من الشعر العربي الجميل . على أن
هذا شاعر عرف كيف يتكلم عن شعور ، وكيف يطبع نفسه حين
تدفعه إلى الكلام ليصور خفاياها ويبين مكنوناتها .

وله في الوصف براعة معروف ، واستحضار عجيب لصور
الأشياء والتشبيهات ، ودقة في جمع الأشياء وتنسيقها ، كأنما تراه
يجمعها وينسقها بيده ، أو كأنه يغوص على المعنى الخفي فيأتي به ويضعه
في موضعه . ولقد يتكلف أحيانا جمع هذه المعاني ، حتى كأن كل كلمة
اختطفت من مكانها لتوضع في مكان آخر : ولكنك تراها كالعقد
يؤخذ من عنق الحسناء إلى عنق الغانية ، فلا يفقد قيمته ولا نضارته
أو كأنك وأنت تقرأ كلامه ترى بعينك ما يصف وتحس ما يقول :
كما في قوله يصف شجرة :

قناة من الشمع مركوزة	لها حربة طبعت من لهب
تحرق بالنار أحشاها	فتدمع مقلتها بالذهب
تمشي لنا نورها في الدجى	كما يتمشى الرضى في الغضب
عجبت لآكلة جسمها	بروح نشاركها في العطب

وكما قال يصف ساقية:

وساقية تسقى الندامى بماءها كؤوسا من الصهباء طاغية السكر
يعود فيها كل جام كأنما تضمن روح الشمس في جسد البدر
إذا قصدت منا ندما زجاجة تناولها رفقا بانمله العشر
ويرسلها في مائها فيعيدنها إلى راحتي ساق على حكمه تجرى
ولأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب، لا يكاد يشعر بشيء إلا ذكره
في شعره، ولأنه كان متمليا عينه بمنظر إلا وصفه كأنه كان مملوءا بذلك،
أو كأن هذه كانت كل حياته، لذلك كان يقول في المعنى الطريف،
كما يقول في المعنى المبتذل. ولكن الابتذال يضيع أمل شعوره بالجمال
وحسن صناعته.

ولأنه كان تقف له على غور في الوصف، ولا على أسلوب واحد
لأنه يميل إلى الاختراع: ويصف الصيد والليل، ويذكر رفاقه، ثم
يعرج على السرور والكلام في الخمر، ثم يرجع إلى الطبيعة، فيحن إليها
ويصف طلوع الصبح ثم يصف الخيل وكلاب الصيد وحركاتها ووثباتها
وكثيرا ما يكون وصفه حقيقيا، أكثر منه خياليا كأنما يرسم ما يرى.
كما قال:

وليلة حالكه الأزار	مدت جناحا كسواد القار
تجيب عنا غرة النهار	عقرت فيها الهمم بالعقار
بجسم ماء فيه روح نار	في مجلس ضم بني الفخار
كهالة تضحك عن أقمار	تراجعت بأنجم درارى
من كل نمر في حى الدمار	مهن مال ومعر جار

يُسْقَوْنَ مِنْ سَاطِعَةِ الْأَنْوَارِ كَثِيرَةُ الْأَسْمَاءِ وَالْأَعْمَارِ
إلى أن قال :

قَنَا لَنَنْفَى عَرْضَ الْحَمَارِ عَنْ جَوْهَرِ الْأَنْفَسِ فِي الصَّحَارِ
بِكُلِّ طَرَفٍ سَهَابٌ مَطَّارٌ^(١) مَوْجُهُ الْأَقْبَالِ وَالْأَدْبَارِ
إلى أن قال :

فَمَرَّ بِي غَيْمٌ مِنَ الْغُبَارِ يَشْكُلُ فِيهِ أَحْرَفُ الْأَثَارِ
كَأَنَّمَا يَطْلُبُهُ بَثَارُ مَاذَا يَرِيدُ الظُّبَى بِالْفَرَارِ
يَحْذِفُهُ يِرْمَعُ صَغَارُ حَذَفَ الْمَوْلَى بِالْيَدِ الْيَسَارِ
مَنْ ابْنُ رِيحٍ فِي قَيْصِ نَارِ وَهُوَ مَعَ الْأَجْهَادِ وَالْأَضْرَارِ
فَلَوْ تَرَانَا فِي انْتِزَاحِ الدَّارِ فِي رَوْضَةٍ كَالْغَادَةِ الْمَعْطَارِ
فَأَكُلُ مِنْ صَيْدِ أَبِي الْعَقَارِ وَتَشْرَبُ لِلصَّهْبَاءِ بِالْكَبَارِ

ما كنت إلا خالغ العذار

ويصف مجلس أفس وما يدور فيه ، فتجده ينسى أحيانا نفسه المظلمة ، ويكذب على اللهو والمجون وكأنه من أكبر رجاله ، ويذكر العبارات التي تدعو إلى الخوض في غماره ، وإلى انتهاز هذه الأوقات حتى بعد فوات الشباب الذي يبكي عليه ، بما لا يكون أرق منه ولا أدعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء ، ويسلى نفسه بهذا الكلام ، ووصف هذه المجالس ، ثم يرجع على نفسه بالعبرة والعظة أو تعود إليه نفسه المتشائمة أثناء هذا الهرج والمرج ، فيفريق من ثورته سروره ومجونه ويذكر أنه وصاف وصانع من صناع الكلام ، وأنه ليس من أهل هذه

(١) سحاب طويل عظيم ومطار عداء مريع السير

المجالس ، ولا من شراب الخمر ، ويرجع إلى التقوى والندم على الذنوب
فيقول

حبذا فتیان صدق عرسوا	بعذارى من سلافاة الخمر
عَرَبَدَ الصَّحْوُ عَلَيْهِم بِالْأَسَى	فاتقاه السكرُ عنهم بالسُرور
عَمَّرُوا رِبْعَ الصَّبَا مِنْ قَبْلِ أَنْ	يَتَمَشَّى فِيهِ بِالشَّيْبِ دَثُور
إِنْ لِلْأَعْمَارِ أُعْجِبْ إِذَا إِذْ	بَاغَتْ لَمْ تَنْ مِنْهُمْ صَدُور
كُلْ نَافِيٌ ^(١) الْعَمْرِ فِي شِرَّتِهِ	لِلصَّبَا نَارٌ وَفِي الْوَجْنَةِ نُور
يَقْتَنُونَ الْعَيْشَ مِنْ قَانِيَةٍ	ذَاتِ عَمَرٍ كَثُرَتْ فِيهَا الدَّهُور
أَطْلَعَ السَّاقِ عِشَاءَ مِنْهُمْ	أَنْجَمَ الْكَاسَاتِ فِي أَيْدِي الْبَدُور
عَدَّ بِالْأَكْوَابِ عَنَى إِنْ لِي	فِي يَدِ الْآنَسِ عَنْهُمْ نَفُور
عَمَّرَ الشَّيْبُ الدَّجَى مِنْ لَمَّتِي	بَنَجُومٍ طُلَعَتْ لَيْسَتْ تُغُور
لَا نَشُورَ لَشِبَابِي بَعْدَ مَا	مَاتَ مِنْ عَمْرِي إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ
وَحُضَابِ الشَّيْبِ لَا أَقْبِلُهُ	إِنَّهُ فِي شَعْرِي شَاهِدُ زُور
أَنَا مِنْ وَجْدِي بِأَيَّامِ الصَّبَا	أُذْرِفُ الدَّمْعَ رَوَاحًا وَبُكُور
فَكَأَنِّي ذُو غَلِيلٍ تَلْتَضِي	لُوعَةً مِنْهُ إِلَى مَاءِ التَّغُور
أَصْفَ الرِّاحِ وَلَا أَشْرِبُهَا	وَهِيَ بِالشَّدْوِ عَلَى الشَّرْبِ تَدُور
كَأَنِّي بِأَمْرِ الْبُكَرِ وَلَا	يَصْطَلِي نَارَ الْوَغَى حَيْثُ تَقُور
فَسَوَاءٌ بَيْنَ إِخْوَانِ الصَّفَا	وَذَوِي اللَّهِوِّ مَغْيَبِي وَالْحُضُور
أَنَا مِنْ كَسْبِ ذُنُوبِي وَجَلْ	وَإِنْ اسْتَغْفَرْتُ فَاللَّهُ غَفُور

وقد اشتهر بوصف القصور كما قال :

كم شاخص فيه يطيل تعجبا
عجبا لها، تسقى الرياض ينابعا
خصت بطائرة على فنن لها
قُبس الطيور الخاشعات بلاغة
فاذا أُتيح لها الكلام تكلمت
وكان صانعها استبد بصنعة
أدفت على حوض لها فكانها
فكانها ظنت حلاوة مأها
إلى أن قال :

كم مجلس مجرى السرور مسابقا
يجلود ما على الحدود ملاحه
فسماؤه في سمكها علوية
وكقوله :

وإذا نظرت إلى غرائب سقفه
وعجبت من خطاف عسجده التي
وضعت به صناعة أقلامها
وكانما للشمس فيه ليقة
وكانما للأزورد مخـرم
وكانما وشوا عليه ملاه
يامالك الأرض الذي أضحي له
أبصرت روضاً في السماء نصيرا
حامت لتبني في ذراه وكورا
فأرتك كل طريدة تصورا
مشقوا بها الزويق والتشجيرا
بالخط في ورق السماء سطورا
تركوا مكان وشاحها مقصورا
ملك السماء على العداة نصيرا

كم من قصور الملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعميتها وملكت كل رئاسة منها، ودمرت العدا تدميرا^(١)
وقد يتغزل فيخاطب حبيبته بما في نفسه من ألم، وما يلاقيه في
سبيلها من شمانة الأعداء، وما يتمناه من الصبر في سبيل ذلك. ثم
يستحافها بما لها من الدلال أن تكف عن أسر قلبه. وهو يستعطفها
ويدل في آن واحد. فيقول:

عذبت رقة قلبي	ظلما بقسوة قلبك
وسمت جسمي سقما	وما شفيت بطبك
أسخط كل عدو	رضيته لمحبيك
من لي بصبر جميل	على رياضة صعبك
فياتشوق بعبدي	إلى تنسم قربك
ووجنة غمستها	في الورد صنعة ربك
لقد جنحت لسامى	كما جنحت لحربك
فبالدلال الذي زاد	في ملاحه عجبك
فكى من الأسر قلبا	عليه طابع حبك
ونعميني بعتي	فقد شقيت بعثك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد
يطيل في ذلك، وربما لم يكن له ميزة في غير الأسلوب، وربما كان
مدحه كغزله، ولكنه مدح جميل على الرغم مما يشعر به القارئ من
الثرة. غير أن المعاني تنهال عليه انهيارا فيعذب الكلام. كما قال:

(١) راجع القصيدة في الديوان المطبوع في رومه ص ٤٨٢

غَيْرُهُ غير الدهر فشاب ورمته كل خود باجتنباب
فغدا عند الغواني ساقطا كسقوط الصفر من عد الحساب
وتولى عنه شيطان الصبا إذ رماه الشيب رجما بشهاب
وكانت الشعر منه معف يلتظي فيه شواظ ذواتهاب
أيها المغرى بتأنيب شج سلط الوجد عليه هل أناب
هام لاهمت من الغيد بمن حبها عذب ، وإن كان عذاب
لمت لا لمت عميدا قلبه عن سماع اللوم فيها ذواتقلاب
والهوى باق مع المرء إذا كان من عصر الصبا عنه ذهاب
بأبي من أقبلت في صورة ليس للتائب عنها من متاب
كل حسن كامل في خلقها ليثها تنجو من العين بعاب
فالقوام الغصن . والردف النقا والاقاح الشجر ، والطل الرضاب
ظبية في العقد إما التفتت ومهاة حين ترنو في النقاب
ويذكر الخمر وكأن الناس جميعا سكارى ، وفي كل رأس نشوة
وحيرة . وكأن الخمر حلال لا حرام ، أو كأنها أكل شيء في الوجود ،
لأنه يصفها بأكل الصفات وأجمع سمات السكال واللذات : ويخيل إلى
لأنسان أنه لم يبق كلمة تمت إلى الخمر بقراءة الا ذكرها ، أو معني يدب
في النفس بديبها لإقاله ، والقاريء يشمل بذكر الخمر كما يشمل بأسلوب
الشاعر وعذوبته ، وكأن أحدا لم يقل مثله في ذلك كما قال .
يجسم له من غيره روح لذة

سليل ضروع أرضعت حلب السحب

م - ١٥ أدب

إذا قبض الأبريق منه سلاقة تقسمها الشراب حولية بالقعب
 شربنا وللأصباح في الليل غرة تريد اندماجا بين شرق الى غرب
 على روضة تحيا بحية جدول يفيء عليه ظل أجنحة القضب
 بازهر يجلو اللهو فيه عرائسا كراسيها أيدي الكرام من الشرب
 كأن لها في الخمر خمرة غلائل مزودة الأطواق بالؤلؤ الرطب
 وكم من كميت اللون تحسب كأسها لها شفة لعساء ذات لمى عذب
 اذا مزجت لانت لنا وتحولت

باخلاقها عن قسوة الجامع الصعب
 جرى في عروق النار ماء كأنما رضى السلم عنها يتقى غضب الحرب
 وإن نال منها ذو الكتابة شربة تسربت الأرواح منه إلى القلب

أسلوب ابن حمديس

إذا تأمل القارئ ما ذكرناه وما سقناه من شعر ابن حمديس عرف
 أسلوبه الفكري وأسلوبه البياني . أما أسلوبه في التفكير فيظهر من
 هذا الاضطراب الفكري والقلق النفسى ، الذى يدفعه إلى محاولة
 التعبير عما يحول بنفسه من جسد وهزل وجمال الحياة وخيرها
 وشرها .

تنساب عليه المعانى أنسيابا وتزاحم عاياه فيرصفها رصفا وكأنه
 كان يخشى عليها ، من أن تفر من ذاكرته فيقيدها قبل شرودها . ومن
 هنا كانت كثرة المعانى المختلفة فى القصيدة الواحدة أو طرقه موضوعات
 متضادة كالزهد والتقوى وكوصف الخمر والمجون .

وإنما كلف غرضه الاستعانة بالبلاغة على إبراز مافى نفسه أو مشاهداته فى الحياة .

أما أسلوبه البيانى فيكاد يكون من السهل الممتنع ليس فيه غموض ولا تكلف ، ولا فقععه فى الألفاظ ولا محاكاة لغيره . وتكاد تجده فى كل كلامه أن المعنى لا يزيد على اللفظ وأن اللفظ لا يزيد على المعنى وإذا جاء فيه شئ من استعاره أو كناية أو تشبيه ، فقد يجيئ عنوا أو قصدا ولكن بدون تكلف .

الأدب العربية بمصر

من سنة ١٢٢٠

حالة اللغة قبل ذلك العصر

أتى على اللغة العربية وآدابها عصور مختلفة اختلفت فيها منزلتها قوة وضعفاً ، ورفعة وانحطاطاً ، على حسب الحوادث السياسية والاجتماعية : فان التاريخ الاسلامي من أكثر تواريخ العالم اضطراباً ونقلاباً ، والامم الاسلامية أكثر الامم اختلافاً في الاحوال الاجتماعية . فقد دخل في الدين الاسلامي أمم مختلفة في عاداتها وأخلاقها . وكثير منها استولت عليها الاطماع وتطلعت نفوسها الى الملك ، فكان من جراء ذلك حروب متوالية ودول متداولة بعضها يعمل على رقي اللغة وبعضها كان يجهلها فلا يساعد على انهاضها . ثم كان لاختلاف هذه الامم أثر في اختلاف اللهجات ، وتسرب الدخيل في العبارات والاساليب : اذ أصبحت اللغة العربية لغة لكل هذه الامم فلم تثبت على حال واحدة ولم تسكن في قطر واحد أو اقليم واحد : ولو أنها كانت ولا تزال لغة الدين ، والمسلمون في جملتهم أشد الناس تمسكاً بدينهم لتعددت لهجاتها بتعدد الامم التي أصبحت تتكلم بها

وقد كانت الحالة العقلية في العصر الاسلامي الأول مصيبة رغبة بصيغة عربية اسلامية . يتنازع كل منهما الآخر في السلطان والجاه . فبينما كان الروح العربي يسود العالم الاسلامي زمن بني أمية والعصبية العربية

تسود كل شيء وتمثل الروح البدوية القديمة في ثوب اسلامي جديد والنصرة العربية تظهر في كل أثر من آثار الحياة الاجتماعية والسياسية لدى الخلفاء والأمراء في مجتمعاتهم ومراسلاتهم وأحاديثهم وخطبهم وآدابهم شعرا ونثرا كان الروح الدني يستولي على عقول المسلمين ويقود منهم مائة الفكير وتملك كل المظاهر العقلية في العلوم والفنون والعقائد فكانت الحياة الاجتماعية والعقائدية حياة عربية اسلامية إلى نحو آخر دولة بني أمية .

فما احتك المسلمون بالفرس ودخل هؤلاء الاسلام وتسلموا إلى مراكز الأمراء والقواد والزعماء وقادوا العالم الاسلامي . أخذ العرب عنهم حضارتهم كما أخذوا عن غيرهم بمساعدة الفرس فترجموا ونقلوا العلوم العقلية والكونية واطلعوا على آثار اليونان من فلسفة وغيرها أخذت عقولهم تنصبغ بصبغة أخرى غير تلك الصبغة العربية الاسلامية ، وكانت هذه العلوم الحديثة تستولي على روح التفكير لديهم وتنزع منهم بعض جذور ملكاتهم القديمة ، ذلك إلى ما لحقهم من الدخيل في دمايهم وأنسابهم وعقائدهم فظهرت منهم المذاهب الكثيرة في السياسة والاجتماع والعقائد وظهرت فيهم ثقافة جديدة مصبوغة بصبغة علمية أو سياسية بما قرأوه وعرفوه من علوم الطب والرياضة والفلسفة . وكانت هذه الحياة العقلية تخالف كل المخالفة تلك الحياة الأولى التي كان عمادها الدين الاسلامي وعلوم الشريعة والعلوم العربية

وكان أثر هذه الحياة الجديدة في عقول المسلمين (لافي عقول العرب وحدهم) ان تغيرت قوة التفكير لديهم وطرقه ونوع الادراك

في كل شيء وبخاصة الحياة الادبية فذهب من الشعر ذلك الروح البدوي
العربي الصميم وحل محله صبغة أخرى أنبتتها الحضارة الجديدة في نفوس
المسامين فكان الشعر العربي شعرا صناعيا منمقا يدل على تذوق الشعراء
فنون الجمال وضروب البلاغة في القول أكثر من أن يكون شعرهم
صورة صحيحة للنفوس والحياة الاجتماعية ، كما كانت الحال زمن
بني مروان

وقد دام هذا العصر زهاء قرنين وكان مركز الثقافة الاسلامية
مدينة بغداد وما يتبعها من العواصم التي تشعبت من هناك كقرطبة
والقيروان والقاهرة زمن الفاطميين

فلما انقسمت الدولة الاسلامية الى دويلات وتغلغل فيها هذا
الانقسام بسبب أطماع الامراء من الفرس والترك والديلم وغيرهم تشعبت
الحياة العقلية الى شعب في العراق وفارس وتركستان والشام ومصر
وبلاد المغرب وكان أكبر مظاهر هذه الحياة العقلية في بلاد المشرق أو
لدى الدول التي قامت هناك حيث تعددت أوطان اللغة العربية كما يقولون
ولكن هذا الانقسام كان داعيا إلى نسابق هذه الممالك في أحياء العلوم
والآداب ولا سيما لدى الدولة السامانية والبويهية . وانتشر في هذا العصر
نوع من الثقافة الفارسية لها الممزوجة بالروح العربي وكان عصر تقوم في
اللغة والأدب على ما هو معروف .

وقد دامت هذه الحال الى أن أستولى التتار على الممالك الاسلامية
وأزالوا الخلافة من بغداد وخرّبوا البلاد وأبادوا مؤلفات العلماء فانتقل
مركز الثقافة العربية الاسلامية الى مصر وبعض البلدان الأخرى

كلشام واليمن والحجاز وأفريقية الشمالية ولو أنهم ساروا على هذا النحو من التخريب لمحيته العربية وأنطمت معالم الإسلام ولكنهم اعتنفوا الدين الإسلامي ليسيطروا على العالم العربي وليلسكوا نفوس المسلمين فأنشئوا المساجد والمدارس وأنعموا إذ ذاك على العلماء والمشتغلين بالعلوم ، وساعدوا على نشر العلم فبقيت اللغة العربية حافظة كيائها إلى أن جاء زمن المماليك بمصر فعملوا على تخليد ذكراهم وأنشأوا المدارس والمساجد ورصدوا عليها الأموال كما فعلوا بذلك في ربوع الشام وشجعوا العلماء على التأليف فكان لهم فضل لا يذكر وقد كان ذلك من الأسباب التي ساعدت اللغة العربية على الرقي كما ساعدت العلماء والمؤلفين على نشر العلم والعناية بالتأليف في الفنون المختلفة .

وانت كانت لهجات الكلام في ذلك الوقت بمصر والشام مزيجاً من العربية الفصحى والعامة ولكن الكتابة كانت باللغة الفصحى ، مع بعض الأساليب التركبية وقد ظهر في هذا العصر جماعة من كبار الكتاب كالقاضي الفاضل وغيره .

وكانت الحركة العلمية على أحسن ما تكون في ذلك العصر حيث ظهر كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النووي المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وكتاب صبح الأعشى لشهاب الدين القلقشندي وغيرها من المؤلفات الشهيرة .

وأخذ الشعر يتقدم خطوات باهنة للمصري والشاب الظريف وصفي الدين الحلي وغيرهم واستمرت الحال على ذلك إلى أن جاء العصر العثماني فلم يعن الأتراك باللغة أية عناية .

حتى كاد يقف التيار تقدمها وطغى على العربية كثير من الأسماء
والألفاظ التركية واللهجات العامة وانحطت منزلة الكتابة ووقفت
حركة التأليف وانطمست معالم الشعر وجمدت قرائح الشعراء إلى أن
قيد الله لمصر أن يعمل على رقيها ذلك الرجل العظيم محمد علي الكبير .

« مصر والحملة الفرنسية »

لم يكد القرن التاسع عشر يتنسم نسيم الحياة حتى ظهر فيه رجلان
عظيمان : فقد أنجبت الثورة الفرنسية نابليون بونابارت في أوروبا
كما جذبت مصر الغنية اليها من سواحل مقدونيا الجنوبية ذلك الجندي
العظيم (محمد علي) الذي مال بث قلايا في وادي النيل حتى ظهرت
مواهبه وميوله للعمل على ترقية مصر فأشرأبت إليه أعناق المصريين
لينقذهم من ظلم المماليك واستبدادهم ، فصار بنظره الثاقب وفطرته النقية
منقذ البلاد ومجدد مجدها .

وكانت الحملة الفرنسية التي قادها (بونابرت) إلى مصر كشفت
كثيرا عن مخبئات البلاد العلمية والتاريخية ووعنت حجرا لاساس
بناء العلم العصري في بلاد الفراعنة : فقد عمل علماء الفرنسيين الذين
صحبوا بونابرت في ثلاث سنين مالم يعمله غيرهم في قرون ، وغرسوا
بيدهم في مصر أول بذرة من بذور الحضارة الحديثة من علوم أوروبا
وفنونها . فمسحوا البلاد طولا وعرضا ووضعوا الخرائط الجغرافية
والجيولوجية ، وأنشأوا معامل الكيمياء وكشفوا عن تاريخ البلاد
القديم الذي كان مجهولا إلى زمنهم ، وكتبوا عن التاريخ الحديث وألفوا

كثماهم الشهير (وصف مصر) الذي جموا فيه خلاصة جهودهم والذي لا يزال على الرغم من مرور زهاء قرن ونصف قرن مرجع الباحثين والمؤلفين. وأنشأوا أول مطبعة عربية تولى إدارتها أحمد علمائهم المستشرقين (مارسل) وقاموا بغير ذلك من الأعمال العظيمة التي كان لها أثر كبير في نهضةنا العلمية الحديثة فوجدوا في البلاد حركة علمية وأيقظوا العقول من سباتها. وقد شهد الناس حتى العامة منهم بعض ما كان يجري في معامل الكيمياء فتعجبوا غاية العجب، حتى لقد كان العامة يظنون ذلك ضرباً من السحر كما ذكر ذلك الجبرتي في تاريخه «بدأ النهضة في زمن محمد علي»

ومنذ ذلك الحين سطع ضوء العلوم وانبعثت أشعة الحضارة على ربوع مصر. وبعد أن خرج الفرنسيون واستولى محمد علي المصلح الكبير على مصر - وكان رحمه الله مخلصاً في عمله محباً للبلاد - تفتت نفسه لأن يصل بها إلى أرقى منزلة بين الأمم المتحضرة، فأخذ يستعين بالاوربيين من فرنسيين وانجليز وغيرهم، ولم يكتف بذلك بل أراد أن تكون اليد العاملة في ترقية البلاد هي اليد المصرية فوفد بعثات علمية من الشبان النجباء إلى فرنسا وغيرها ليدرسوا مختلف العلوم، والفنون، ويخصص كلا منهم لفن أو علم يتعلمه، كالإدارة العسكرية وفنون السياسة وعلوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان وصناعة الأسلحة والطب والجراحة والزراعة والمعادن والطبع والحفر واللغات والأدب. وجعل لهم من يعلمهم العربية ويمرنهم على أساليبها وأدابها حتى إذا رجعوا تمكنوا من نشر معلوماتهم بلغة البلاد. لذلك كان

لهؤلاء الطلبة بعد رجوعهم الى مصر اليد الطولى فى ترجمة الكتب من الفنون والعلوم المختلفة إلى اللغة العربية، فالتسعت المدارك وانتشرت الحضارة الحديثة بانتشار المدارس والتعليم . وأخذت تنقص الصبغة القديمة التى كان أكثرها مصبوغا بصبغة دينية علمية . لأن العلم كان محصورا فى الازهر ولم يكن عالم غير أزهرى ولا أديب أو لغوى غير دارس فى ذلك المعهد الدينى ، حتى لقد كاد يكون العلم وقفا على علماء الازهر . فتغاب تيار المدنية الحديثة على ذلك . على أن أول أساطين هذه النهضة كان من علماء الازهر وطلابه ، ويكفى أن يكون فى مقدمتهم العالم العصرى الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى سافر إلى فرنسا ورجع علما من أعلام نهضتنا فى ذلك العصر ؛ بل كان من أشهر الكتاب والمؤلفين والمترجمين ، والشيخ أحمد العطار الذى أرسل ليتعلم علم الهندسة العسكرية .

ظهور المطابع العربية

وأنشئت المطابع ، وهى من أعظم وسائل النهضة الادبية والعلمية فى مصر وكانت أول مطبعة أنشأها الفرنسيون فى مصر كما تقدم ، وأول ما طبع فيها كتاب التهجى فى اللغة العربية والفارسية سنة ١٧٨٩ ثم كتاب القراءة العربية ثم معجم فرناوى وعربى واجرومية فى اللغة المصرية العامية ولما رجع مدير هذه المطبعة الى باريس سنة ١٨٠٠ أخذ مطبعته معه ووقفت حركة الطبع حتى أنشأ المغفور له محمد على باشا المطبعة الاهلية سنة ١٨٢٢ وقد قام بالعمل فى هذه المطبعة جماعة من خريجي الجامع الازهر كانوا يطبعون فيها الاعمال الخاصة بمصالح

الحكومة . ثم طبعوا كتابا باللغة العربية لأحد علماء القاهرة ورسالة في الفنون الحربية وكتابا في الصباغة ترجم من ايطاليا ومعجما ايطاليا عربيا . ويقولون أول ما طبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ وقد قامت هذه المطبعة بنشر الكتب وطبعها فطبعتم فيها مئات من أهم الكتب العربية في الطب والرياضة والطبيعة والأدب والشعر وعلوم الدين وغيرها ، مما يضيق المقام عن ذكره ، ومئات من الكتب المترجمة في العلوم الحديثة ، ثم انتشرت على أثر ذلك المطابع في سوريا والقسطنطينية ومصر . فكانت من وسائل نشر العلوم والمعارف .

وكثرت المطابع الأخرى غير الاميرية وأقدمها مطبعة وادي النيل أنشئت سنة ١٢٨٣ هجرية كانت تطبع فيها صحيفة وادي النيل لصاحبها أبي السعود افندي وطبعتم فيها أيضا روضة المدارس وهي من أقدم المجلات المصرية . ولما انتشرت المطابع انتشرت الصحافة معها كما سيأتي . ثم أنشئت مطابع في جميع البلدان التي يقرأ أهلها اللغة العربية وخصوصا في بلاد الهند ، وكان لاهتمام الاوربيين بإنشاء المطابع عندهم شأن عظيم في رقي اللغة ونشر الكتب العربية . على أنهم سبقوا الشرق في ذلك ، ويرجع مبدأ الطباعة هناك الى أوائل القرن السادس عشر حيث فتحت الرهبانية اليسوعية مدرسة للغة العربية والعبرانية في روما وأنشئت مطبعة طبعت فيها بعض الكتب الدينية . ثم اتسعت تلك النهضة في أنحاء أوروبا وكثر المشتغلون باللغات الشرقية حتى امتلأت المكاتب بالكتب العربية وغيرها ولا سيما مكنب باريس ولندن ومجريط واكسفورد وليدن

الصحف العربية

ومن وسائل نشر اللغة العربية ظهور الصحف اليومية أو الجرائد في بلاد المشرق ، وأول صحيفه عربيه ظهرت في مصر هي الوقائع المصرية سنه ١٨٢٨ ميلادية على عهد محمد علي . كانت في أول أمرها تظهر ثلاث مرات في الاسبوع بالعرييه والتركيه . ثم ظهرت جرائد أخرى في الاستانة وغيرها باللغات التركيه والعبرانيه والعرييه . وأول جريدة عربيه ظهرت في الاستانة كانت تسمى (مرآة الاحوال) سنه ١٨٥٤ وأول جريدة ظهرت في سوريا اسمها (حديقته الاخبار) أنشأها خليل الخوري ، وصدر أول عدد منها سنه ١٨٥٨ وفي سنه ١٨٦٠ أصدر احمد فارس الشدياق في الاستانة جريدة (الجوائب) فبقيت فيها إلى سنه ١٨٨٤ وفي هذا الحين ظهرت في باريس جريدة عربيه تسمى (البرجيس) لأحد التونسيين ، ثم ظهر في مصر جريدة (وادي النيل) سنه ١٨٦٧ وقد كثرت بعد ذلك الصحف اليوميه في مصر وأقدم صحيفه ظهرت بعد الوقائع المصريه مجلة شهرية اسمها (المعسوب) صدرت سنه ١٨٦٥ أنشأها محمد علي باشا الحكيم و ابراهيم الدسوقي وهي أول مجلة طبيه ظهرت في اللغة العربيه . وفي سنه ١٨٦٩ ظهرت جريدة (نزهة الافكار) وكانت أسبوعيه أصدرها ابراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال ، ولم يصدر منها غير عددين ثم ألغيت ، وأعظم هذه الجرائد فائدة : مجلة روضه المدارس السالفه إذ كان يحررها جماعه من كبار الادباء كعبد الله باشا فكري واسماعيل باشا الفلسكي وعلي باشا مبارك ورفاعه بك وغيرهم

ولا شك أن في انتشار الصحافة العربية من أكثر الأشياء
مساعدة على رقي اللغة العربية وتحرير أساليبها وهناك طائفة من
الصحف التي أصدرها السوريون الوافدون على مصر (كالكوكب
الشرقي) لسليم حموي التي صدرت في الاسكندرية سنة ١٨٧٣ وجريدة
(الاهرام) الشهيرة لسليم وبشارة تكللا صدرت سنة ١٨٧٦ وجريدة
(المقطم) التي لها فضل عظيم في نشر الاساليب العربية الصحيحة
ثم جريدة (المؤيد) المعروفة التي كان يحررها المرحوم الشيخ علي
يوسف بأسلوب عربي متين وغير ذلك من المجلات والصحف الكثيرة
المنتشرة الآن

اشتغال علماء أوروبا بالعلوم الشرقيه

كان لاشتغال الاوربيين المستشرقين بالعلوم العربية شأن عظيم
أيضا في نشر المباحث والكتب التي رقت من شأن اللغة ودعت الى
العناية بها ، واشتهر منهم جماعة بتأليفهم العربية أشهرهم البارون دي
ساسى أحد العامان على طلب اللغات الشرقيه ومن استخرجوا نخباً منها
وهو مستشرق فرنسي شهير مات سنة ١٨٣٨ بعد أن درس جميع
اللغات الشرقية وتعلم العبرانية والسورانية والكدانية والسامرية
والعربية والفارسية والتركية ، وكان مجيد أكثر هذه اللغات فساعد
على نشر كثير من المقالات والمجلات التي تكامت عن هذه اللغات
ويقولون إنه نشر أكثر من مئتي مؤلف في علوم الشرق ولغاته . وله
منتخبات عربية في ثلاث مجلدات ، وتاريخ العرب في الجاهلية وطبع كريمة
ودمنة ومقامات الحريري مع شروح وافية كما طبع رحلة عبد الطيف

البغدادى إلى مصر

ومن أشهر هؤلاء المستشرقين «جان جاك عمانويل سيدليو» درس اللغات الشرقية وانقطع إلى درس النجوم فنقل إلى اللغة الفرنسية كتاب الآلات الفلكية المسمى جامع المبادئ والغايات لأبى الحسن على المراكبى وكتب عدة مقالات في تاريخ الشرق وعلوم الرياضة وله كتاب شهير في تاريخ المدنية العربية ترجم زمن المغفور له على باشا مبارك وتوفي سنة ١٨٣٣

ومنهم كوسان دى بر سيفال المتوفى سنة ١٨٣٥ اشتهر في اللغة العربية وألف فيها كتباً كثيرة وطبع مقامات الحريري وأمثال لقمان وتاريخ صقلية للنويرى ، وتاريخاً كبيراً يقع في ثلاثة مجلدات للعرب وهؤلاء بعض المستشرقين الفرنسيين ، أما الألمان فقد برزوا على غيرهم في هذا الميدان فمنهم أرنست فردريك روزنمور المتوفى سنة ١٨٣٥ نقل إلى اللغة اللاتينية معلقة زهير وبعض مقامات الحريري وشيئاً من أمثال الميدانى ، ومنهم الأستاذ هاجنخت المتوفى سنة ١٧٧٥ درس في باريس على دى ساسى وطبع نخبة من أمثال الميدانى وهو أول من سعى في طبع كتاب (الف ليلة وليلة) سنة ١٨٢٥ طبع منه ثمانية أجزاء قبل وفاته وترجم مع بعض العلماء إلى اللغة الألمانية ، وغير هؤلاء كثير من الإنجليز والهولنديين والبلجيكيين الذين نكتفي بالإشارة إليهم

وأسس الأوربيون معاهد لتدريس العلوم الشرقية في بلادهم ومن أشهر تلك المعاهد مدرسة اللغات الشرقية في باريس التي أنشئت سنة ١٧٩٥ وأنشئت الجمعيات الآسيوية والنوادية العلمية في إيطاليا

واسبانيا وانجلترا وغيرها

وأنشأ الفرنسيون الجمعية الاسيوية الباريسية وكان سلفستر دى ساسى وتلاميذه قاموا بهذا العمل الجليل سنة ١٨٢١ ونشروا فى المجلة الاسيوية كل ما كانوا يكتبونه أو يعثرون عليه من علوم الشرق وآدابه ولغاته وقد عنوا عناية خاصة باللغات السامية

وجارى الفرنسيين الانكاز فى ذلك فأنشأوا جمعية سموها جمعية بريطانيا العظمى وأرلندا الاسيوية الملكية . وكان ذلك سنة ١٨٢٣ قام بهذه الجمعية العلماء الأثريون ونشروا صحيفة علمية سنة ١٨٢٤ وفى سنة ١٨٣٦ سموها مجلة لندن الاسيوية الملكية

وكذلك نشر الالمانيون والنمساويون صحفا شرقية اشتهر ذكرها بما نشرت من المباحث الهامة فى المسائل الشرقية مثل (معادن الشرق) واشتهر من الألمانين الاستاذ فلمت الذى نشر معجما عربيا لاتينيا ونقل معاقته لبيد فى سنة ١٨١٤ وعنتره فى سنة ١٨١٦ وعاق عليها تعليقات مفيدة ونقل قسما كبيرا من مقامات الحريرى الى اللاتينية وغير ذلك

وقد عمت دراسه اللغات الشرقيه كل بلاد أوروبا تقريبا حتى وصلت بلاد روسيا واشتغل بها علماء هناك فى أواخر القرن التاسع عشر واشتهر أخيرا من المستشرقين الانجليز ادوارد لين المتوفى سنة ١٨٧٦ وقد ألف فى اللغة العربيه مؤلفات كثيرة وكتب فى وصف مصر ، ونشر قاموسه العربى الانكليزى وترجم ألف ليلة وليلة وكتب عن الآداب الاسلاميه . ومن المستشرقين المعروفين الاستاذ مرجليوث

وهو واسع الاطلاع على اللغة العربية وآدابها وقد قام بنشر بعض الكتب العربية التي منها كتاب معجم الادباء لياقوت الحموى ونشر رسائل أبي العلاء المعرى وهو لا يزال حيا ومنهم الاستاذ براون من أساتذة جامعه كبرى دج الآن ويعرف اللغات العربية والفارسية والتركية واشد اهتمامه باللغة الفارسية

النهضة العلمية في مصر

وكان من أسباب نهضة اللغة العربية في مصر أيضا أن كثرت المدارس فيها على اختلاف درجاتها وأصبح التعاليم باللغة العربية وشاع تعلم اللغات الاجنبية ولا سيما منذ حكم الخديوى اسماعيل ، وكان للجامع الازهر أثر عظيم في حفظ هذه اللغة لأنه كان منبعاً من منابعها تتدفق منه علوم اللغة وآدابها فقد كان معاموا المدارس في أول الأمر من علماء الازهر ، إذ كانت تدرس فيه اللغة العربية وجميع علومها على طريقته البحت والتحقيق ، ولولا أن أساليب هذه الدراسة بقيت على ما كانت عليه ولم تتأثر بالأساليب الحديثة لخرج من الازهر أئمة اللغة وعلمائها . ولكن على الرغم من ذلك فانه كان دليلاً على حياة الحركة العلمية . فقد ظهر فيه جماعة من كبار المؤلفين كالشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، والشيخ حسن المطار والشيخ العروسى والشيخ الباجورى والشيخ عبد الحمادى اليبارى والشيخ حسين المرسى والشيخ محمد عبده وغيرهم . وكان منهم الكتاب والخطباء والقضاة والمحامون ومن أعظم وسائل رقى اللغة العربية في البلاد أساتذة اللغة الذين

تخرجوا في مدرسة دار العلوم التي أسسها المرحوم علي باشا مبارك وكان لها شأن عظيم في ذلك ، فقد ساعدت على نشر اللغة وآدابها بوساطة هؤلاء المدرسين

وكثر الوافدون على مصر من الكتاب والأدباء ومنهم السوريون ذووا الذشاط العقلي والميل إلى اللغة العربية ، فأحدثوا بامتزاجهم مع المصريين حركة كتابية عظيمة في المجالات والجرائد والكتب التي ترجموها من قصص وفنون مختلفة ، وكان ذلك من أسباب تدرج الأسلوب العربي إلى طريقة جديدة لبعض الأساليب الأجنبية أترفها

كانت النهضة العلمية عندما بدأ المغفور له محمد علي في العمل على اصلاح البلاد مقصورة على ما كان في بلاد المشرق ولا سيما في مصر من الاشتغال بعلوم اللغة العربية وفتونها وعلوم الدين وأصوله وقد كان ذلك محصورا في الجامع الأزهر والمتخرجين فيه ، حتى ان أشهر المؤرخين والمشتغلين ببعض الفنون الرياضية كانوا من هؤلاء العلماء ، كالشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المشهور ، والشيخ حسن العطار (توفي سنة ١٢٥٠) الذي كانت له تأليف كثيرة في علوم اللغة والفنون والطب والانشاء والمراسلات ، وكان عارفا بعلم الفلك ويجيد عمل المزاويل الليلية والنهارية . وقد كان الشعراء والكتاب والمؤلفون كلهم من هذه الطائفة . فلما رجع طلبة البعثة العلمية التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا وأخذوا في الترجمة والتأليف أخذت

تنتشر العلوم الحديثة كما قلنا ، ولا سيما أنه قد اشتغل مع هؤلاء جملة من العلماء الفرنسيين وغيرهم من الفرنجة ، مثل كاوت بك مؤسس مدرسة الطب ، وبروان بك أحد أساتذتها الذين ظهرت لهم مؤلفات ترجمت الى اللغة العربية ، وكان أكثر المتخرجين من المصريين كابراهيم النبراوى (المتوفى سنة ١٨٦٢) الذى ترجم كتاب الاربطة الجراحية ونبذة فى الفلسفة الطبيعية تأليف كلوت بك ، ونبذة فى أصول الطبيعة والتشريح لكلوت بك أيضا . وكأحمد حسن الرشيدى (توفى سنة ١٨٦٥) الذى ترك عدة مؤلفات فى الطب . وهو من كبار نوابغ هذا الفن ، منها رسالة فى تطعيم الجدرى ترجمها من مؤلفات كلوت بك ، وضياء النيرين فى مداواة العينين ، وطالع السعادة والاقبال فى علم الولادة والنساء وأمراض الاطفال . ونزهة الامائل فى علاج تشوهات المفاصل . وترك محمد على باشا القبلى (توفى سنة ١٨٧٦) من المؤلفات روضة النجاح الكبرى فى العمليات الصغرى ، وغاية الفلاح فى فن الجراح . وغرر النجاح فى أعمال الجراح . كما ترك محمد الشافعى ، ومحمد عبد الفتاح ، وحسن بك عبد الله وأحمد ندا كثيرا من المؤلفات فى الطب وعلم الصيدلة . وهذا الأخير كتب فى علم النبات والحيوان ، الآيات البيئات فى علم النبات . وحسن البراعة فى فن الزراعة ، ترجمة عن الفرنسية ، وحسن الصناعة فى فن الصباغة ، والحجيج البيئات فى علم الحيوانات ، ترجمة عن الفرنسية ، ونخبة الاذكياء فى علم الكيمياء ، والاقوال المرضية فى علم الطبقات الارضية والازهار البديعة فى علم الطبيعة . وقد ترك محمد باشا الدرى ومحمد بك بدر وحسن باشا محمود وهم من أهل أواخر القرن التاسع عشر مؤلفات

كثيرة ، وكان هناك كثير من العلماء الذين اشتغلوا بالرياضة ونقل كتبها مثل محمد بيومى (توفى سنة ١٨٥١) وابراهيم رمضان الذى كان مدرسا بالمهندسخانة ، ومحمود باشا الفلكى المتوفى سنة ١٨٨٥ وهو أشهر هؤلاء العلماء فى علم الفلك . وقد عمل خريطة للقطر المصرى . وهو أول مصرى فعل ذلك . وألف رسالة فى التقاويم الاسرائيلية الاسلامية ، ورسالة فى التقاويم العربية قبل الاسلام (طبعت سنة ١٢٥٨) ورسائل مختلفة فى الكسوف الكلى ، وفى وصف الاسكندرية القديمة والايضاح عن أعمال الاهرام والتنبؤ عن ارتفاع النيل وضرورة مرصد لمصر ، وعمل مقاييس ومكاييل للبلاد ، ومقابلة ذلك بالاقيسة الفرنسية . وغير هؤلاء كثيرون مما يضيق المقام عن ذكره

هذا بمجمل الاسباب التى رقت اللغة العربية فى هذه الايام الاخيرة ولا يزال النشء الجديد من الكتاب والمؤلفين يعمل على نشر أساليب جديدة وموضوعات طريفة فى اللغة ، بما اكتسبه من الاطلاع على اللغات الحديثة . ولا بد أن يكون مستقبل اللغة العربية عظيما خصوصا فى مصر التى أصبحت نبراسا للعالم العربى ومنبعا للعلوم الشرقية .

حالة التعليم في مصر

بقلم علي باشا مبارك

ومما يستدل به على حالة التعليم في مصر ، وما كان بها من العلوم والفنون قول المرحوم علي باشا مبارك في الخطط التوفيقية من الجزء التاسع صفحة ٤١ في ترجمة حياته قال :

« وفي أواخر سنة ٥٢ نقلونا إلى مدرسة أبي زعبل وجعلوا قصر العيني لمدرسة الطب خاصة كما هو الآن ، فكانت إدارة المدارس في أبي زعبل كما كانت في قصر العيني ، إلا أنه أعطني بالتعليم شيئاً بسبب جعل نظرها للمرحوم ابراهيم بك رأفت وكان أثقل الفنون على وأصعبها في الهندسة والحساب والنحو ، فكانت أراها كالطلاسم وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة . وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم ابراهيم بك رأفت متأخري التلامذة في آخر السنة الثالثة من انتقالنا إلى مدرسة أبي زعبل وجعلهم فرقة مستقلة ، فكانت أنا منهم بل أخرجهم وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة ، ففي أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة ، وبين أهمية الحدود والتعريفات الموضوعة في أوائل الفنون ، وأن هذه الحروف التي اصطلاحوا عليها إنما تستعمل في أسماء الاشكال وأجزائها ، كاستعمال الاسماء للحروف . فكما أن للانسان أن يختار لابنه ماشاء من الاسماء ، كذلك المعبر عن الاشكال له أن يختار لها ماشاء من الحروف . فانفتح من حسن بيانه قفل قلبي ووعيت مايقول وكانت طريقته هي باب

الفتوح على . ولم أقم من أول درس الاعلى فائدة ، وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين ، فلم تكن لهم هذه الطريقة ، وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع لى من الفهم ، نختتمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتى . وبقيت فى النحو على الحالة الأولى لعدم تغير المعلم ولا طريقة التعليم السيئة . وكانت رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجاحى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخير التلامذة .

وفى تلك السنة — وهى سنة خمس وخمسين — فرزوا من التلامذة لمدسة الهندسة ببولاق ، فاختارونى فيمن اختاروه . فاقمت بها خمس سنين وأخذت جميع دروسها ، وكنت فيها دائماً أول فرقتى وقلفتها ، فتلقيت بها الجزء الأول من الجبر على المرحوم طائل أفندى ، وكذا تلقيت عنه علم الميكانيكا والديناميكا وتركيب الآلات ، وتلقيت الجبر العالى عليه وعلى المرحوم محمد بك أبى سن ، وحساب التفاضل وعلم الفلك على المرحوم محمود باشا الفلكى ، وعلم الادروليك على المرحوم دقلا أفندى وعلم الطبوغرافيا على المرحوم ابراهيم أفندى رمضان ، وعلم الكيمياء والطبيعة والمعادن والجيولوجية وحساب الآلات على ابراهيم أفندى رمضان وبعضه على المرحوم سلامة باشا وتلقيت عليه أيضاً خاصة القوسموغرافية .

ولعدم وجود كتب مطبوعة فى هذه الفنون وغيرها إذ ذاك كان التلامذة يكتبون الدروس عن المعلمين فى كراريس كل على قدر اجتهاده فى استيفاء ما يلقى به المعلمون ، وكان المعلمون يومئذ يبدلون

غاية مجهودهم في التعليم ، فكان يندر أن يستوفى تلميذ في كراسة جميع مايلقى اليه خصوصا الاشكال والرسوم . ولذلك كان الأمر إذا تقادم أو خرجت التلامذة من المدارس يعسر عليهم استحضار ما تعلموه ، فكان يضيع منهم كثير مما تعلموه .

وفي آخر مدة المهندسخانة كانوا يطبعون بمطبعة الحجر بعض كتب ، فاستعانت بها التلامذة وحصل فيها النفع . ثم تكاثرت طبع الكتب شيئا فشيئا إلى الآن فصارت تطبع الفنون باشكالها ورسومها ، فسهل بذلك تناولها واستحضار ما فيها .

ويعلم من هذا سير التعليم في المدارس العالية وأنه كان باللغة العربية ، وإن جميع المدرسين كانوا من المصريين ، وهذا دليل على مقدار حركة التعليم في ذلك الوقت والعناية بالعلوم والفنون التي كانت يدرس إذ ذاك

الكتابة والشعر

الكتابة : —

بدأ القرن التاسع عشر وسوق الادب كسدة ، ولم يكن للادب معاهد يدرس فيها ؛ ولكن مصر كانت محط الأديباء الذين التجأوا إليها ، وموطن الأزهر الذي كانت تنبعث منه أشعة العلوم العربية إلى أنحاء العالم الاسلامي ، وكان الناس يرون في اللغة العربية وفتونها مفتاحا لكل العلوم . وأساسا لتربية العقول . وزاد الناس حبا بطلب العلم في هذا المعهد ما حبسه أهل الخير على طلابه فلم ينقطع عنه الوافدون ، ولا سيما أن كثيرا من علمائه وتلاميذه كانوا موضع الاجلال والاكرام من الحكام والأمراء ، وكان منهم القضاة وأهل الشورى للسلاطين والأمراء ، كما كان منهم الكتاب والمؤلفون في مختلف العلوم والفنون فكان الافبال على الأزهر من أكبر الوسائل لاهياء اللغة العربية وآدابها . فظهر منه الكتاب والشعراء وأرباب الاقلام الذين تولوا وظائف الكتابة في الدواوين وغيرها

أما كتابة الدواوين زمن المماليك فكانت مزيجا من العربية والتركية وخليطا من الألفاظ العامية والعبارات الفصحى ، واستمر ذلك إلى أيام محمد علي حيث فشلت العامية في المؤلفات والمراسلات ، وانحطت درجة الكتابة بطبيعة حال الدولة التي لم يعن أهلها بذلك ، وتاريخ ابن أياس والجبرتي من أساليب الكتابة التي كانت فاشية في تلك الايام ، فكانت الكتابة في حالة انحطاط كما كانت الحال في جميع

الاقطار العربية :

وكان أكثر أساليب الكتابة البليغة الادبية كالرسائل والمقامات مسجعة جارية على أسلوب الهمداني والحريري؛ وانتشر السجع حتى لم يكدهم يخلو منه كتاب أو تأليف. وحتى تمشي هذا الأسلوب في الكتابة العامة. ولا شك في أن هذا أثر عناية العصر العباسي الأخير بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية، وشاع هذا الأسلوب في الكتابة الادبية حتى تخطى القرن التاسع عشر. فأدرك رفاة بك الطهطاوى (توفى ١٨٧٣ م) وعبدالله باشا فكرى (توفى ١٨٨٩) وعبدالله نديم (توفى ١٨٩٦) وابراهيم بك المويلحى (توفى ١٩٠٦) والشيخ محمد عبده (توفى ١٩٠٧) والسيد توفيق البكرى وغيرهم من الكتاب الحديثين كحفى بك ناصف وأمثاله، على أن ظلال هذا السجع الممل ابتدأت تتقلص منذ أن رجع طلاب الارسالية التي أرسلها محمد على إلى أوروبا في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد تأثروا بأساليب اللغات الأجنبية فأخذوا يترجمون ويؤلفون كما فعل رفاة بك الطهطاوى والعالم أحمد ندا (توفى ١٨٧٧) وابراهيم النبراوى الذى كان رئيس المدرسة الطب (توفى ١٨٦٢) وأحمد حسن الرشيدى الطبيب (توفى ١٨٦٥) وغيرهم من العلماء والادباء

وكان من أشهر هؤلاء الكتاب والمؤلفين رفاة بك الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) الذى كانت له آثار عظيمة في الكتابة والأدب والشعر، فترجم في مختلف العلوم والفنون كتباً ورسائل، ويحسب

أسلوبه من نماذج أساليب الكتابة المختفة في القرن التاسع عشر بمصر
فان فيها السجع المتكلف المزوج بحسن اختيار الالفاظ وبلاغة العبارة
(راجع « مقدمة وطنية » لحضرة رفاة بك طبع بولاق ١٢٨٣ هـ)
و « الكواكب النيرة في ليالى أفراح العزيز المقمرة » طبع بولاق ١٨٢٩)
وتجد في مؤلفاته السهل الممتنع الذى يشبه أجود أساليب الصحف
اليومية عندنا الآن (راجع كتاب « مناهج الالباب المصرية في
مباهج الأدب المصرية » طبع بولاق ١٢٨٦ هـ ومن الاساليب التى
تحتسب أحيانا مسجعة وأحيانا مرسله أسلوب الوقائع المصرية منذ
ظهورها (١٨٢٨) إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وبقى الادباء
يحاكون الاساليب القديمة والموضوعات المعروفة كرسائل التعازى
والتعارف قبل اللقاء والعتاب والشوق إلى زمن قريب

ولكن محاكاة الاساليب الافرنجية وانتشار التعريب جعل
أسلوب الكتابة العربية ينتقل من طور السجع ومحاكاة القدماء إلى
سهولة التعبير والأيجاز فى العبارة . ومن أشهر الصحف التى أذاعت
هذا الأسلوب الجديد فى الترجمة والتأليف مجلة روضة المدارس التى
انشئت سنة ١٨٧٠ وكان يخرجها نخبة من العلماء كإسماعيل باشا الفلكى ،
وبدر بك الحكيم ، وعلى باشا مبارك ، ورفاعة بك وغيرهم . فقد نشر
فى هذه المجلة كثير من آثار أقلام الكتاب فى موضوعات مختلفة من
علوم وآداب . والمتأمل فى هذه الاساليب يرى أنه قد حدث فى النثر
أطوار كان الكتاب يجارون فيها روح العصر العلمية والأدبية فرقت

أساليب النثر وتعددت مناحيه حتى أصبحت تحتوى على كثير من الأساليب التى عرفت فى اللغات الأجنبية . وزاد هذه الأساليب رقة وسهولة انتشار الصحف اليومية والمجلات العلمية ، وأخذت الرسائل شكلا آخر غير ذلك الشكل المسجوع المعروف ، ونزع الكتاب إلى أسلوب آخر غير متكلف . وهجر كتاب الجرائد المقدمات التى كانوا يفتتحون بها موضوعاتهم ، واقتربوا من نفوس الخواص ، ولقد نراهم أحيانا ينزلون بأساليبهم إلى عقول العامة مع صحة العبارة وسلاستها . كذلك تجدد أثر الأساليب الفرنجية وتراكيب اللغات الأعجمية فى الكتب المترجمة أو المكتوبة حديثا بأقلام من تعلموا اللغات الأجنبية أو مالوا إلى محاكتها . وربما توسعوا فى ذلك حتى لقد يخرجون أحيانا عن الأسلوب العربى المألوف ، ولا يزال هذا الأسلوب الحديث يغمرنا بسيل جارف من الألفاظ الأعجمية والتعابير الأفرنجية بما ينشره العربون والمؤلفون وكتاب الصحف على أنه فى جملة سهل قريب من أذهان الطبقة الوسطى من المتعلمين . ولا شك أن هذا كله دليل على أن الكتابة العربية فى مصر سائرة فى طريق أخرى غير الطريقة العربية الصميمة .

وقد حدث فى مصر نوع آخر من النثر ، وهو النوع القصصى المصبوغ بصبغة مصرية كما فى كتاب حديث عيسى بن هشام للمرحوم إبراهيم بك المويلحى . وهذا نوع جديد فى الأدب المصرى أكثر أثرا وأدعى إلى الحياة فى آدابنا الحديثة من أى نوع آخر من أنواع النثر ،

وقد انتشرت أخيراً هذه الروح القصصية بين كتابنا المعاصرين لذا يجارون بذلك آداب الأمم الأخرى ، لأن أكثرهم قرأ تلك الآداب وخبرها وتأثر بها ، وما ينشر الآن بيننا منها كثير يبشر بنهضة أدبية عظيمة ، على أن أكثرهم لا يزال في بادئ النهضة يحتاج إلى كد طويل وتفكير عميق وتجربة وتقنن في هذا الأسلوب الجديد حتى يقرب من الاتقان والكمال .

هذا ما حدث في النثر الفصيح ، أما ما كان في النثر العامي أو القريب من اللهجة العامية ، فقد انتشر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وكان من مبتكريه المرحوم عبدالله نديم برواياته (الوطن) و (العرب) اللتين انتقد فيهما كثيراً من المسائل السياسية والاجتماعية والخلقية ، كما كتب مقالات متعددة من هذا النوع جمعت في كتاب سمي (سلافة النديم) كمقالة (سهرة الانطاع أو عرى تفرنج) ومقالة (مجاس وطني) و (الفخ المنسوب للحكيم المغصوب) وهذا يدل على أن هذا النوع من الكتابة العامية ابتداءً ينتشر منذ ذلك ، وهو على الرغم من بعده عن العربية الفصحى قليلاً أو كثيراً يحسب نوعاً من أنواع الأدب المصري الذي انتشر بيننا الآن بما نراه من القصص التمثيلية الهزلية المعروفة عندنا ، فإنها تحتوى على كثير من نقد أحوالنا الاجتماعية ، ولا يزال الأدب المصري في أول مرحلة من مراحلها .

الشعر

كان الشعر في مصر أوائل القرن التاسع عشر وقبله كما كان في جميع الاقطار العربية : محاكاة للقديم وجرياً على أساليب شعراء العصور المتقدمة في الموضوعات التي عرفت إذ ذاك ، من مدح وذم ونسيب ووصف وغير ذلك ، حتى لم نعد نجد من بين شعراء هذا العصر الأخير إلا من يعتمد إلى رصانة الشعر القديم فيقلده ، وإلى أسلوبه المتين فيحاكيه وإلى الأخيلة المعروفة فيقتبس منها . وكادت تكون هذه الأساليب كل أغراض الشعراء من قول الشعر . فلم يخرج الشعر عن كونه صناعة من الصناعات لاشعورا ولا أثرا من آثار الهامات النفوس ، ولا سمة من سمات العصر الذي كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء ، وحتى لم يكن هناك وسيلة للتفرقة والتمييز بين شعر مصر وغيرهم من الأقطار العربية الأخرى سوى ما أتصف به المصري في كل زمان من خفة الروح وعذب الفكاهة فكان الشعر في حالة تقهقر فلم يكن للشعراء أساليب خاصة بل كان الشاعر يكفى بالوزن والقافية وأخيلة غيره يضعها في كلام آخر ويلبسها ألفاظاً أخرى لذلك كان أشعر شعراء القرن التاسع عشر وقبله من كان حسن الديباجة ، طلي العبارة ، رقيق الإشارة .

وسار الشعراء عندنا على هذا المنوال بدون أن يكون لهم أي أثر جديد في الشعر المصري . ولا أي صبغة مصرية اجتماعية ، إلى نحو الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي ، أو إلى ما بعد منتصف

القرن الثالث عشر الهجرى

والكن رجلا من رجال النهضة الادبية بمصر فى القرن التاسع عشر
كان أول من أدخل فى الشعر المصرى نوعا جديدا نقله من الشعر
الفرانسى ، ذلك هو الشيخ رفاعه الطمطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) الذى
أوفده محمد على باشا الى باريس مع طلبة الأرسالية. على أن الشيخ رفاعه
لم يكن شاعرا ممتازا بين شعراء عصره من شيوخ الأزهر ، ولكنه
كان شغوفا بالأدب فتعلم الفرنسية وكان أول ما نقله منها الى العربية
قصيدة نظمها فى مدح الامير محمد على ، أحد أساتذة اللغة الذين أرسلوا
مع البعثة الى فرنسا .

وقال رفاعه بك فى مقدمة وضعها لهذه القصيدة : (وقد سرحت
ناظرى ونزهت خاطرى فى منظومة فرنساوية منسوبة لرئيس من
يعلمنا من هذه اللغة القواعد ، ويفيدنا من فصاحتها بفرائد الفوائد ،
العارف بأسلوب العرب والفرنساوى والبارع فى فهم المعنيين فهو
لفخرها حادى ، الخواجة يوسف أكوب المصرى منشأ تتضمن غزلا
وحنيننا وتفائرا مقدما لمصر ووزيرها حضرة افندينا الخ (طبعت هذه
القصيدة فى مدينة باريس سنة ١٢٤٢ هجرية) .

وكان الشيخ رفاعه أول من أدخل النشيد الوطنى الى مصر على
ما نعلم ، فقد نقل قصيدة المارسييز الفرنسية الى العربية فى شعر تصرف
فيه بعض التصرف ^(١) حيث قال .

(١) اخترنا هنا مقطوعات من هذا النشيد الوطنى على غير ترتيبه المعروف

فهبيا يا بني الاوطان هيا فوقت نخاركم لكم تهيناً
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا سويا

عليكم بالسلام أيا أهالي ونظم صفوفكم مثل الآلى
وخصوا فى دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم فى كل حال
وجودهم غدا فيكم جلباً

فماذا تتبغى منا الجنود وهم جمع وأخلاق عبيد
كذا أهل الخيانة والوفود كذاك ملوك بغى لم يسودوا
تعصّبهم لنا لم يجد شيئاً

إلى آخر مقاله فى هذا النشيد الطويل . ونسج على هذا المنوال قصائد
أخرى كثيرة مزج ببعضها مدح الامراء وولاية مصر لتكون أناشيد
وطنية ، ومنها منظومة طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٢ هجرية

*
*
*

بشرى لمصر سعدتها بالعز لاحت وسعيدها بالفوز ساعده الفلاح
أبناء مصر نحن موطننا أصيل
حسب عريق زانه مجسد أثيل
ونخارنا فى الكون جل عن المثيل
لرحابنا تطوى المهامه بالطلاح
بشرى

نحن السراة وشأنا حب الوطن

ولشأننا السامى تراحم من قطن
شأنى حمانا ليس من أهل القطن
فهو الدعى وعرضه شرطا مباح

بشرى

وطن عزيز لا يهان ولا يضام
وحى تعزز من على علياه حام
مجد له لا زال يحترق الغمام
عين السها لفخساره ذات التمساح

بشرى

يا أهل مصر بر مصر فرض عين
فى البر نبذل عن رضى نفسا وعين
وإذا الرقيب رنا لها بلحاظ عين
ماعدنا فى ففها إلا الرماح

بشرى

ملك قديم ساسه أحفاد نوح
(مصر ايم) فيه بطيخته تلوح
هى بركة القيرون مصرفها ييوح
بسرائر التدبير إذ يروى البطاح

فكان الشيخ رفاعه من المجددين فى الشعر على هذا النمط . وكان
يكون لهذا الغرض الجديد فى الشعر أثر لو أن الشعراء نسجوا على
منواله وساروا فى هذا الطريق الجدى القومى وتركوا المدهح وما يتبعه

من ماق أوردناه . ولكن الحركة الادبية لذلك العصر كانت حركة فردية أو مذهبا يعتنقه بعض الأدباء وحده ، بل كان الشاعر أو الكاتب يتأثر وحده بأثر خاص ، فينهج منهجا خاصا لا يتبعه فيه أحد وكان الشعراء يجلون القديم إجلالا ولا يخرجون عنه ولا عليه لركود افكارهم وجهلهم بوجوب التجديد في الأدب . لهذا بقي الشعر على طريقته الأولى

على أن الشيخ رفاة نفسه تعذر عليه هجر القديم فكان يمدح الأمراء بفصائده من صميم الشعر القديم وأساليبه المعروفة .

وكان شعر هذا العصر صناعة لا غير جله سهل في لفظ تغمره المحسنات البديعية والعناية بفصاحة اللفظ والاستعارة والمجاز حتى لقد أصبح القارئ الأديب لا يجد فيه روعة الشعر الجيد الذي يؤثر في النفس ويوقظ فيها الشعور بمجمال القول . بل كان الشاعر ينزل أحيانا إلى طبقة العامة في عباراته .

ومن شعراء هذا العصر السيد اسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ كان من أدباء عصره المعروفين تعلم في الأزهر وقرأ كتب الأدب وله ديوان مطبوع بالاستانة .

والشيخ حسن العطار المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ وكان كاتبا أدبيا وطالما أزهريا تولى مشيخه الأزهر ومن شعره في وصف متزهات الشام
بوادي دمشق الشام جزبي أبا البسط

وعرج على باب السلام ولا تخط
ولا تبكي ما يبكي امرؤ القيس حوملا

ولا منزلا أودى بمنعرج السقط

فان على باب السلام من البها ملابس حسن قد حفظن من العط
هنالك تلقى ما يروقك منظر

وتسلى عن الاخذان والصحب والرهط
عرائس أشجار إذا الريح هزها تميل سكارى وهى تخطر فى مرط
كساها الحيا أثواب خفر فدثرت بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط
ومنهم السيد على الدرويش المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ وكان من الشعراء
المعروفين والكتاب المشهورين نظم كثيرا من المقطوعات الغنائية
ومدح عباس الأول حاكم مصر ، وله ديوان مطبوع ومن شعره فى المدح
سررت بنيل القصد من غير موعد ولاشئ أشهى من سرور مجدد
سررت بنعماء ، ولكن حزنت من

قصورى بحق الشكر فى فضل سيدي

له الحمد والشكر الذى هو أهله
فلو كل عضو فيه عدة ألسن
وهل أنا إلا عبد إحسان عفوكم
تعودت - لولا لطفكم - غير طادى
وزدتم نعيمى نعمة أبدية
وكدرتم ظن الحسود بنعمتى
وحملتني مالا أطيق وجوبه
فيا أسعد السعيد لملكه
قد أشغل الدرويش شكر امثورا

وقل له حمدى وشكرى ومنشدى
لأعجزنى شكر الندى المتعدد
فاضحى لديه مدحك كالتعبد
وصعب على الانسان مالم يعود
وزدتم مقامى رفعة فوق مقصدى
وأشهى من الانعام تكدير حسدى
فينطق حالى عن لسان المعقد
ودولته والموكب المتجند
ملكك سعيد النجم خير محمد

ومنهم محمود صفوت الساعاتى وله مدائح فى شريف مكة الذى
اتصل به أثناء أدائه فريضة الحج ثم رجع إلى مصر وتوفى سنة ١٢٩٨ هـ
بعد أن التحق بأكثر من وظيفة فى الحكومة ، وكان شعره أقرب إلى
الدرجة الدنيا أكثر منه إلى الدرجة الوسطى .

ومنهم السيد على أبو النصر المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ وقد اتصل بالخدوى
توفيق باشا ومدحه . ومن قصائده فى ذلك يصف سفره إلى الصعيد
سنة ١٢٨٧ هـ .

زار فى مركب كعقد الآلى فازدهى بالقدوم صفو الليالى
إلى أن قال :-

فازدهى رونق الصعيد جمالا	وتحلت أرجاؤه بالجلال
وروى النيل عن رواه حديثا	يشرح الصدر شرحه فى المقال
حيث دقت بالشاطئين طبول	والأهالى تفوق عد الرمال
وتلاقوا بضمير سابقات	فترى الليث فوق ظهر الغزال
وتوالوا فى سيرهم فأضاءت	حلبة البيض بين سمر العوالى
وجميع البلاد أبدت سرورا	ناشرات أعلامها بابتهاال
حل فى منية الخصب فسرت	وتقوى سلطانها بالكمال
زار فى منفلوط بيت أمير	زاده رفعة بحسن احتفال
وبأسبوط لآل حين وافى	عن بلوغ المنى وفيض النوال
وبدب الصعيد مازال يرقى	بدر تشريفه بلطف انتقال
نسأل الله عذمة ونجاحا	وبقاء له وحسن مآل
وثنائى عاينه أول فرض	والوفا بالثناء فرض محال

ومنهم أبو السعود أفندي المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ . وعبد الله باشا
فكرى المشهور الذى أرتقى الى وزارة المعارف زمن الخديوى توفيق
وكان قبل ذلك كاتباً للخديوى اسماعيل . وله قصائد كثيرة ورسائل
نثرية مسجعة فى السياسة عن لسان اسماعيل باشا . سجنه توفيق باشا
أثناء الثورة فاستعطفه بقصائد منها قوله وهو فى السجن .

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كانت أقوام على تقونوا بأمر ، فقد جاءوا بما زوروا نكرا
فما كان لى فى الشر باع ولا يد

ولا كنت من يبنى مدى عمره الشر
فعفوا أبا العباس ، لازلت قادرا

على الأمر ، إن العفو من قادر أخرى
وحسبى ما قدم من ضنك أشهر تجرعت فيها الصبر أطعمه مرأ
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة ويعدل فيها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة أنى أكايد فى أيامك البؤس والعسرا
وكان عبد الله باشا فكرى من علماء زمانه وأدبائهم ، ألف فى المطالعة
وفى قواعد اللغة عدة كتب تدرس فى المدارس .

ومنهم الشيخ على الليثى المتوفى سنة ١٣١٣ وكان من أشهر أدباء
زمانه وأعلمهم بالأدب والشعر ، اتصل بالخديوى توفيق ومدحه
ومن كلامه فى مدح السلطان عبدالعزيز بمناسبة عيد جلوسه سنة ١٢٩٠
دع ذكر كسرى ، وقصر إن أردت ثنا

عن قيصر الروم حيث النفع معقود

واشرح مآثر من سارت بسيرته
مولى الملوك الذى من يمن دولته
عبد العزيز الذى آثاره حمدت
أجاد نظم أمور الملك فى نسق
وشاد فوق العلا أركانه فغدا
فلا تقسه بأسلاف له كرمتم
ففخرهم عقد در ، وهو واسطة

ومنهم عبد الله نديم الخطيب الثورى الاسكندى والكاتب القصصى
وإمام الزجالين فى هذا العصر توفى سنة ١٢١٤ ومن شعره فى الفخر

إذا ما المجد نادانا أجبننا
فانا فى عداد الناس قوم
إذا طاش الزمان بنا حملنا
وإن شئنا نثرنا القول درا
وإن شئنا سلبنا كل لب
وقال يصف قطارا بخاريا

نظر الحكيم صفاته فتجيرا
دوما يحن إلى ديار أصوله
ويظل يبكى ، والدموع تزيد
ملقا، حال السير افعى تلتوى
أو سبغ غاب قد أحس بصائد
أو أنها شهب هوت من أفقها
شكلا كطود بالبخار مسيرا
بحد يد قلب بالهيب تسعرا
وجعا ، فيجرى فى الفضاء تسترا
أو فارس الهيجا آثار العثيرا
فى غابة فعدا عليه وزجرا
أو قبة المنطاد تنبذ بالعرا

وله في نظم قصة رائعة

رب عبد رمته أيام سوء
أنهكت كثرة الصيام قواه
جس منه الطبيب نبضا ضعيفا
قال : ماذا تشكو ؟ فقال مجيبا
ثم اداه الاجتهاد بأن قا
هات قرصا منضجا ثم ضعه
فأتاه المولى البخيل بقرص
أسرع العبد أكله بانتهم
ثم قال الطبيب هذا غريب
وغدا يسمع البخيل سببا
قال ليت المنية أنشبت رو
أو دهاك الدهر الخئون بما
هباك تخشى يوما من الدهر فقرا
إنما الفقر والغنى بقضاء
منشأ البخل واليأس ، وهو ضلال
فتوكل على المهيمن تغنم
وكل هؤلاء الشعراء أو جلهم كانوا في الطبقة الوسطى إن لم
يكونوا في الطبقة الدنيا من بين فطاحل شعراء اللغة العربية في
أزمانها المختلفة

وبقي الشعر على هذا المنوال إلى أن ظهر في حلبة الشعراء الأدب رب

السيف والقلم محمود سامى باشا البارودى فنهض بالشعر نهضة ردت اليه مجده وأعادت له دولته وأحيا تراث فحول شعراء العصر العباسى، وحمل لواء الشعر الرصين البليغ ديباجة ومعنى، وأيقظ فى عالم الادب ملكات الشعر الخامده وصرف الادباء عن تلك الركافة الشعرية والصناعة الممقوتة التقليدية إلى الديباجة الحسنة والمعانى الجزلة ومحاكاة فحول الشعراء، وكان شعره المثل الاعلى فى ذلك. فتبعه الشعراء بعده وساروا على نهجه، فكان من إمام الداعين الى اعتناق مذهب الفحول من الشعراء السابقين. فخاراه فى طريقته حفى بك ناصف (توفى سنة ١٩١٩) الكاتب الشاعر البليغ واسماعيل باشا صبرى الشاعر المطبوع صاحب الأغاني والانشيد البليغة والقصائد البديعة الذى (مصر) الشعر ونظم قصائده فى آثار مصر منها قصيدته التى عنوها بقوله « فرعون وقومه » وقال فى مطلعها

لا القوم قومى ولا الاعوان أعوانى	إذا دنى يوم تحصيل العلا وانى
ولست ان لم تؤيدنى فراغنة	منكم بفرعون على العرش والشان
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا	فأؤه العذب لم يخلق للكسلان
ردوا الحجر كذا دون مورده	أو فاطلبوا غيره ريا لظمان
وابنوكا بنت الأجيال قبلكمو	لا تتركوا بعدكم فخرا لانسان
أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم	لا يثن مستمعا عن طاعة ثانى
فالملك أمر وطاعات تسابقه	جنبنا لجنب إلى غايات إحسان
لا تتركوا مستحيلا فى استحياله	حتى يميظ لكم عن وجه امكان

ومنها

أهرامهم تلك هي الفن متخذة
قد مردهر عليها وهي ساخرة
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى
كانها - والعوادي في جوانبها
جاءت اليها وفود الأرض قاطبة
فصعرت كل موجود صناعاتها
وعاد منكر فضل القوم معترفا
تلك الهياكل في الامصار شاهدة
وإن فرعون في حول ومقدرة
إذا أقام عليها شاهدا حجير
كانما هي والاقوام خاشعة
تستقبل العين في إثنائها صور
لو أنها أعطيت صوتا لكان له

من الصخور بروجاً فوق كبروان
بما يضعضع من صرح وإيوان
ما يأخذ النمل من أركان شهلاز
صرعى - بناء شياطين لشيطان
تسعى اشتياقا إلى ماخلد الفاني
وغض بنيانها من كل بنيان
يثنى على القوم في سر وإعلان
بأنهم أهل سبق أهل إمعان
وقوم فرعون في الاقدام كفآن
في هيكل قامت الأخرى ببرهان
أمامها صحف من عالم ثاني
فصيحة الرمز دارت حول جدران
صدى يروع صم الانس والجنان

وقال في الحياة وأخلاق الناس :-

فاض ماء الحياء من كل وجه
وتغشى العقوق في الناس حتى
أوجه مثلما نثرت على الاجدا
وشفاه يعكن أهلا ولو أدي
عمر الله هل إسلام . وداد
عميت عن طريقها أم تعامت
غرها سعادها ومن عادة السعد

فغدا كالح الجوانب قفرا
كان رد السلام بحسب برا
ث وردا إن هن أبدين بشرا
ن مافي الحشا لما قلن خيرا
ذاك أم حاول المسلم أمرا
أهم في مفاوز الجهل حيرى
د يوانى يوما ويخذل دهر - را

فتجنب على الشعوب وشنت
نسيت في الصعود يوم التدي
تعب الفليسوف في الناس عصرا
والورى طارد إزاء طريد
وجيوش يفل من بعضها البعض
حاذرى يا ذئب صولة أسد
لاتنامى يا أسد إن ذئبا
عبر كلها الليالى ولكن
أنت نعم النذير يا نجم (هالى)
ظن قوم فبك الظنون وقالوا
إن يكن فى يمينك الموت فاقذ
هل تلقيت من لدن نازل الباء
أحيط بكل شىء ومرد
أغداتستوى الانوف فلا ينظر
أغدا كلنا تراب ولا ما
أغدا يصبح الصراع عناقا
إن يكن كل ما يقولون فاصدع

غارة فى البلاد من بعد أخرى
والتدى بصاعد الجد مغرى
وتوالى السرائر الدين عصرا
وعقاب يمسى يطارد صفرا
وهضب كبرى تناطح صفرى
منك أقوى نابا وأنفد ظفرا
لم تم من روابض الفيل أضرى
أين من يفتح الكتاب ويقرا
زلزل السهل والرواسى ذعرا
آية أرسلت الى الأرض كبرى
ه شواظا على الخلائق طرا
غى وحامى الضعيف بانجم سرا
كل حى وتارك السهل وعرا
قوم قوما على الأرض شزرا
ك خلاف التراب برا وبحرا
فى الهىولى ويصبح العبد حرا
بالذى قد أمرت حييت عشرا

ثم ظهر معجزة الزمان وحيد نسجه أحمد شوقى بك نخر الشعر
والشعراء وأمام الأئدب والادباء بما ابتكر فى الشعر ، رسم مصر
والاجتماع المصرى وأشاد بتاريخ مصر والشرق والاسلام . وخلف
البارودى وبزه ، وأراد أن يجاريه فى عظامته حافظ ابراهيم فى موضوعاته

فجرى شوطا بعيدا فى هذا الميدان ولكن لم يلحق بألفه .
ثم تطور الشعر تطورا وكثرا فى مصر هواته من الشبان الذين
درسوا آداب الأمم الأخرى فأدخلت فيه أساليب جديدة فى أنواع
التفكير وتصوير المعانى ورصف العبارات والخروج على الأساليب القديمة
ولانزال صناعة الشعر تتقاذفها الأهواء وحب الخروج من القديم الى
خير أو الى شر الى أن يستقر الأمر على مذهب جديد أو قديم .

الصبغة المصرية

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن الصبغة المصرية قد ظهرت فى الشعر
منذ أن ظهر شعر البارودى فى عالم الأدب لأنه رسم فى شعره صورا
من الحياة النفسية المصرية وتأثر بحوادث مصر السياسية والاجتماعية ،
فأثارت فى نفسه التعبير عما يجول بها ، فرسم من تلك الحياة صورا فى
شعر عربى فصيح ، جارى فيه أيضا بعض القدماء فى أساليبهم من حيث
اختبار الألفاظ والعبارات والتشبيهات . وجاراه فى أسلوبه ونوعه
بعد ذلك اسماعيل باشا صبرى ، وحدث فى الأيام الأخيرة - أى أوائل
القرن العشرين - أن تأثر الشعر بالحوادث السياسية والاجتماعية فتسابق
شعراؤنا فى هذا الميدان ، وأعظمهم قدرا . وأجلهم ذكرا فى ذلك من
شعراء هذا العصر ، المرحوم أحمد شوقى بك ، والشاعر المظبوط المرحوم
حافظ إبراهيم بك ، فان هؤلاء كثيرا من القصائد والمقطوعات التى
تجسب من الشعر المصرى الصميم حيث يرى القارى فيه صورة للحياة
المصرية ونفوس أهل مصر ، وكل هذا من الشعر العربى الفصيح

وقد تأثر الشعر الفصيح والنثر البليغ أيضا بالاجتماع المصرى والحياة المصرية فكان من أصدق صور الاجتماع وأحوال الناس فى بلدنا كما فى مقطوعات للبارودى ، ولإسماعيل باشا صبرى فى أغانيه التى وضعها شىء من ذلك ، وكان للحوادث الأخرى التى حدثت فى مصر منذ أوائل القرن القرن الرابع عشر الهجرى أى سنة ١٨٩٠ ميلادية أثر عظيم فى نفوس شعرائنا المعاصرين لنا ، حتى ظهر كثير من هذه الحوادث أو التلميح إليها فى شعرهم . وأظهرهم فى هذا الشاعر ان الشهير ان أحمد بك شوقى ومحمد حافظ إبراهيم بك صاحب القصائد المعروفة فى أحوال مصر الأخرى وسياسة البلاد والحوادث الوطنية ، على أنه قد سبقهما بشىء من هذا النوع المرحوم رفاعة بك الطهطاوى فى أناشيده كما أشرنا إلى ذلك . فشعر هؤلاء حادث من الحوادث ذات الأثر الشهير فى الأدب العربى ولا سيما فى الشعر العربى ، لأن هذا ما يسمى حقا (تطورا) وانتقالا من نظام القصائد المعروف الذى كان متبعها فى الشعر العربى ، وفى جميع البلاد التى تتكلم بلغة العرب ، ولا شك فى أن منشأ هذا الانتقال انتشار ما يسمونه بالروح الوطنية ومحاكاة الأثر الأوربية فى ذلك ، بالاطلاع على ما كتبوا ونشروا من شعرهم وآدابهم . ولا يسهلنا المقام الآن لتفصيل هذا الكلام ولكننا نقول مجملين القول إجمالا : أن هذه الروح التى انتشرت فى مصر أخيرا عند شعرائنا روح جديدة فى الشعر العربى لا بد أن تسير بالأدب إلى نوع مصرى يمثل الروح المصرية والحياة المصرية

وقد حدث فى مصر مثل ما حدث فى غيرها من البلدان التى يتكلم

أهالها العربية ؛ فكان فيها أدبان . أدب عربي صحيح وأدب مصري أكثره ملحون . ولقد قيض الله لهذا البلد بعض الأذباء الذين ساعدوا على نشر هذا الأدب المصري بالتعبير عن آراء العامة وتصوير الاجتماع المصري في أزجال شعرية أو أحاديث نثرية . فنقلوا لما تلك النفوس وما كانت عليه في هذا الكلام الذي صنعوه ووضعوه في قالب في لا يقل بهجة ولا جمالا عن ذلك الشعر العربي البليغ . هذه الأزجال العامية وهذه الأحاديث التي تمثل لهجة السواد الأعظم من المصريين ونوع آخر من الشعر الفصيح لكبار الشعراء المصريين وهو مانسميه « بالأدب المصري » وهو الذي سنتكلم عليه الآن وننشر نماذج منه ولكن قبل أن نصف ذلك الأدب المصري يلزمنا أن نقول كلمة عن العصر الذي نشأ فيه ، وعن أخلاق المصريين في جملتها لانه مرآة لهذين العاملين ، ونقتصر في هذا على القرن التاسع عشر .

أما الحالة الاجتماعية منذ استولى المغفور له (محمد علي) على مصر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي فكانت متأثرة بأحوال سياسية بعضها كان طاقا بالنفوس من عصر المماليك ، ذلك العصر الاستبدادي الذي ولد في الشعب المصري الخضوع للحاكم خوفا من بطشه . والتهكم عليه وعلى أعوانه في السر لا في العلانية ، والاستسلام إلى القضاء ، والاستهانة بأحوال الحياة ، وتحمل الظلم على أنه قضاء من الله ، والتسلي عن الآلام بالتهكم والسخرية من الحياة والناس وأحوالهم ، والرضا بما ينال الإنسان في عيشه ، حتى أصبحت هذه الصفات كأنها طامة في المصريين ، وكانت أكثر ظهورا في سكان القاهرة الذين كانوا متصلين

بالحكام أو على كتب من أعمالهم . وبعض أحوال المصريين الاجتماعية نشأت من تبسط الحكام في الحياة والمساعدة على إباحة السرور للناس بالتمتع ونشر أعلام السرور ، والافاضة على العامة بالأموال من جراء ذلك ، باقامة الاحتفالات والأفراح كما كانت الحال في عصر (الخدوي اسماعيل) فقد اختص بعض الأدباء والشعراء والمغنين كالشيخ علي الليثي وعبد الحمولى وغيرهما ، حتى سرى في البلد روح فنى أدبى ، وعلى أثر ذلك السرور انتشر في النفوس الميل إلى التهمك (والتنكيت) والنقد الحلو والفكاهة العذبة . فوافق ذلك أخلاق المصرى في جهاتها وهى — كما قلنا — الاستسلام إلى القضاء وتحمل أعباء الحياة بكل خضوع وارتياح ، والنظر الى الدنيا نظر الفيلسوف أو المتوكل على الله . ومقابلة المصائب مقابلة الصبور المستهزئ بها . والمصرى بطبعه صبور يكميه فى يوم مايسد رمقه ويشغل أشق الأعمال غير متألم ولا جزع فاذا ناء بالاثقال قال (الحمد لله على الصحة والعافية) ومع ذلك فهو ممتلىء نشوة وسرورا ، خفيف الروح يميل إلى (التنكيت والتبكيك) فكه المجلس يمزج الهزل بالجد فى حديثه . حلو المعاشرة كثير الضحك بعيد أحيانا عن النظر فى المسائل الجدية كثير التسامح لين الجانب . حتى لقد يقابل كلمة السوء تصديه من عدو يريد أن ينكل به ، أو صديق خبيث يريد أن يهزأ به بقمقه (وبنكتة بلدية) أو بفكاهة ظريفة . ولقد يكتفى بالتهكم والسخرية لإظهار ألمه ، ويبتلع الكلمة المرة التى يغص بها غيره وتحدث فى نفسه غثيانا . وربما حمله الحياء أحيانا على أن يبقى على غبره — وإن أساء — لأنه صفوح عن الاساءات .

ليس من أصحاب الأثرة . به كثير من السذاجة الفطرية التي قد تنغلب على قوة عقله وحضور ذهنه ولباقة لسانه ، طيب القلب ، كريم النفس ، ضعيف الإرادة ، ومن هنا تجده كثير التسامح .

وجملة القول ، أن أعظم ما يوصف به عقل المصري هي ملكة النقد والتهكم وخفة الروح ، وحسن الفكاكة ، وحمدة الذكاء وحضور الذهن كل هذا ، وغيره كثير ، ظهر في الأدب المصري الحديث . فان الحوادث السياسية والاجتماعية في تلك الأيام حركت نفوس الادباء من كتاب وشعراء إلى نقد الاجتماع والنظر في الحياة المصرية ووضعها فنشأ عن ذلك الأدب المصري الحديث الذي ظهرت فيه هذه الأخلاق التي رسمناها أمام القاريء . وكانت هذه الآداب بلهجة قريبة من لهجة العامة لتمثيل عقولهم وأفكارهم وما كان يجري بينهم من الأحداث والآراء . وأكثر ذلك نسيج في نوع من الشعر المعروف بالزجل وانتشر هذا منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى آخره على لسان الشيخ حسن الآلاتي ، وعبدالله نديم والشيخ محمد النجار وغيرهم .

بل ظهر نوع من الأدب الحديث الذي لم يكن معروفا في الآداب العربية قبل هذا العصر ، على أنه أقرب شيء إلى تصوير الحياة الاجتماعية تصويراً صحيحاً ، وهو تلك القصص التمثيلية المصرية بلهجة قريبة جداً من لهجة العامة ، وأول من ابتكر هذا النوع عبدالله نديم بروايته (الوطن والعرب) وغيره ممن سنتكلم عنهم ، وظهرت أناشيد مصرية وطنية كما في قصائد المرحوم الشيخ رفاعه الطهطاوي وقصص أخرى منظومة أو منثورة للمرحوم محمد عثمان جلال وغيرهم .

وعلى الجملة فأن لأدباء القرن التاسع عشر في مصر الفخر في أن
يرسموا الأخلاق المصرية في آدابهم ، وأن يزيدوا في الاداب العربية آدابا
مصرية حديثة

وليس الأدب المصرى كله من الشعر أو النثر العامى ، بل تأثر الشعر
الفصيح والنثر البليغ أيضا بالاجتماع المصرى والحياة المصرية . فكان
من أصدق صور الاجتماع وأحوال الناس في بلدنا كما في مقطوعات
للبارودى ، ولإسماعيل باشا صبرى في أغانيه التى وضعها شىء من ذلك .
وكان للحوادث الأخيرة التى حدثت في مصر منذ أوائل القرن الرابع
عشر الهجرى أى سنة ١٨٩٠ ميلادية أثر عظيم في نفوس شعرائنا
المعاصرين لنا ، حتى ظهر كثير من هذه الحوادث أو التلميح إليها
في شعرهم . وأظهرهم في هذا الشاعران الشهيران أحمد بك شوقى حامل
لواء شعرائنا الآن ، ومحمد حافظ إبراهيم بك صاحب القصائد المعروفة
في أحوال مصر الأخيرة وسياسة البلاد والحوادث الوطنية ، على أنه
قد سبقهما بشىء من هذا النوع المرحوم رفاعة بك الطهطاوى في
أناشيده كما أشرنا إلى ذلك . فشعر هؤلاء حادث من الحوادث ذات
الأثر الشهير في الأدب العربى ولا سيما في الشعر العربى ، لأن هذا
ما يسمى حقا (تطورا) وانتقالا من نظام القصائد المعروف الذى كان
متبعها في الشعر العربى ، وفي جميع البلاد التى يتكلم أهلها بلغة العرب . ولا
شك في أن منشأ هذا الانتقال انتشار ما يسمونه بالروح الوطنية ومحاكاة
الأمم الأوربية في ذلك ، بالاطلاع على ما كتبوا ونشروا من شعرهم
وآدابهم ولا يسعنا المقام الآن لتفصيل هذا الكلام ، ولكننا نقول

مجملين القول إجمالاً : أن هذه الروح التي انتشرت في مصر أخيراً عند شعرائنا روح جديدة في الشعر العربي لابد أن تسير بالأدب إلى نوع مصرى يمثل الروح المصرية ، والحياة المصرية .

وحدث في النثر مثل ذلك أو أكثر بما ينشر من الروايات والقصص الاجتماعية والتمثيلية ، ولكن من أسف لم يعن بجمعها وتدوينها والاطلاع عليها مثل ما عنينا بالشعر ، وذلك لعدم شهرة كتابها ، ولأن كثيراً منها مكتوب بصيغة لا يعتمد عليها قراء العربية الصحيحة . غير أن شيئاً من ذلك لا يدعونا الآن إلى الخط من قدرها وعدم العناية بها وعلى أنها في رأينا من أصدق صور حياتنا المصرية .

لأن هذا الشعر العامي ، أو الزجل المصرى الذى نشأ أيضاً على أثر الحوادث السياسية والاجتماعية فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أظهر فى تمثيل الحياة الاجتماعية لقربه من اللغة العامية التى يتكلم بها جمهور الشعب المصرى . ولقد كان عبد الله نديم (١٨٤٤ - ١٨٩٦) حامل لوائه ، وأعجوبة زمانه فى ذلك ، وكان بطبعه ميالاً لنقد الأحوال الاجتماعية والسياسية ، قادراً على الاسترسال فى الكلام حلواً الفكاهة يميل إلى التنكيت والتبكيك فبرع فى هذا النوع من الشعر العامي وملاه بنقد الاجتماع ووصف الرذائل الفاضية ، وكان ينشر ذلك فى جريدتى (التنكيت والتبكيك ، والاستاذ) وسرت هذه الروح الأدبية العامية فى مصر ، وجرى عليها أكثر الأدباء حتى كانوا يتراسلون بالزجل ، ولم يكديخلو مجلس من مجالسهم بدون أن يتراسلوا بأبيات منه ، أو يتنابدوا ببعض عباراته أو يتناشدوا مرتجلين الكلام

ارتجالا ، وكل هذا ممزوج بفكاهة أو شكوى يبعثها شعور وطني ،
 وكان هذا أيضا على أسلوب الأغاني العامية ، وقد انتشر هذا النوع
 إلى ما بعد أوائل القرن العشرين ، وكان لمحمد عثمان بك جلال (توفي
 ١٨٩٨) شيء من هذا ، وكثير من طلبة العلم والشعراء طرّفوا هذا
 الباب ، ومنهم من أصبح معروفًا بين الزجالين كالشيخ محمد النجار ، وإمام
 العبد الشاعر المعروف ، وغيرهما ممن اشتهر ذكره :

فمن نوع هذه الازجال قول الشيخ محمد النجار (توفي في أوائل
 القرن العشرين) وهذا زجل وضعه لينقد فيه شبان العصر وسماء
 « زجل في الموضه » وهو من نماذج هذه الازجال التي كانت منتشرة
 في نقد الأحوال الاجتماعية والذائل التي انتشرت بين ظهرانينا .

المطلع

ياموضه يا جيل الوز يا حنية من غير بز

دور

ياموضه جيلك معروض فات السنة والمفروض

يبقى صغار لسه ومقروض ويروح آل يسكر ويمز

دور

الجامع يوم الجمعة فاضى والخمار جامعة

والغيبه في شهره وسمعه تدبح في الرقة وتحز

دور

والموضه راكبه فيتون والعاشق فيها مفتون

والعازب عقله مجنون من كدته يفتن ويوز

دور

الموضنه بطربوش وزكته والهـلاح بالتوب البفتة
قولوا له الستة بستة دى اللبده من عرقه تنز

دور

ماعليهش فلاح مش موده على قده ساكن فى أوده
وأنت ياموضنه فى روضه والاجرة بتحاق وتحز

دور

تقليدك للغير ياخيه جابرجلك بعدن فى الخيه
وغرقت فى شبرين من ميه ووقعت فى دين بيعز

*
* *

وفى هذا الزمن الذى اتجه فيه الشعراء إلى نقد الاجتماع بهذه اللهجة العامية كانت اللغة العربية الفصحى ظاهرة بجلالها وجمالها ناشرة ألوية فصاحتها وبلاغتها مالمكة أعنة هؤلاء الشعراء أنفسهم ، فلم يكن منهم إلا من كان شاعرا فصيحاً يحسب من أبلغ شعراء العصر . وهكذا سار الشعر الفصيح إلى جانب الشعر العامى حتى تغلب عليه وسبقه وأطفأ جذوته وثار من جديد فى نفوس شعرائنا الحديثين ، وأخذ الشعر المصرى الأسلوب العربى الفصيح مع دلالاته على حياتنا المصرية . وسنرى قريباً إمعان شعرائنا فى ذلك حتى يصبح الشعر المصرى نوعاً من الشعر العربى ، يضم إلى تقسيم الشعراء المعروف ، ويزيد فى بلاغة العرب نوعاً جديداً .

محمود سامى البارودى

نسبه وانشأته

هو محمود سامى البارودى بن حسن حسنى البارودى (أمير الموفعية ومدير (برر) و (دققله) زمن محمد على باشا) بن عبدالله بك الجركسى وينتهى نسبه إلى نوروز الاتابكى المالكى الاشرفى أخى برسباى قرا المحدى والبارودى كما جاء فى شرح ديوانه نسبة إلى اتياى البارود المعروفة كان بها جده الأمير مراد البارودى .

وكانت ولادة محمود سامى بالقاهرة بقصر باب الخلق فى شهر رجب سنة ١٢٥٥ هـ من الهجرة وقد توفى والده سنة ١٢٦٢ هـ وعمره سبع سنين تربي وتعلم محمود سامى تربية أبناء الاشراف والسراة فى ذلك الزمن وتلقى العلم على أساتذة بمنزله وتعلم اللغة العربية على شيوخ الازهر وكان فى نفسه منذ صغر ميل إلى علوم البلاغة وقراءة الشعر ومعالجة الكتابة وحفظ أشعار العرب والعناية بأسرار اللغة حتى وقف على دقائقها ونمت فى نفسه ملكة الشعر وحب الاطلاع على كلام فحول الشعراء فأخذ فى نظم الشعر ومجادة هؤلاء الشعراء فى قصائدهم الشهيرة ووقف جهوده العقلية على التأدب بكلام العرب . ويظهر أن ذلك كان كل مالىه من ثقافة لانه لم يكن ممن يقرؤن كثيرا كما ذكر ذلك الشيخ حسين المرصنى فى الوسيلة الأدبية . قال هذا الأمير الجليل ذو الشرف الاصيل والطبع البالغ نقاؤه والذهن المتناهى ذكاؤه محمود سامى باشا البارودى ؛ لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله . فكان يستمع بعض

من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرته حتى تصور في
برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات
والمحفوضات حسب ما تقتضيه المعاني والتعليقات المختلفة . فصار
يقرأ ولا يكاد ياجن . وسمعتة مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها
المنصوبين . فقلت له في ذلك . فقال هو كذا في قول فلان وأنشد شعرا
لبعض العرب . فقلت تلك ضرورة . وقال علماء العربية أنها غير شاذة
تم استعمل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ
الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفا وخسيسها
واقفا على صوابها وخطئها مدركا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما
لا ينبغي ، ثم جاء من صنعه الشعر اللائق بشعر الأُمراء كأبي فراس
والشريف الرضي والطغرائي الخ ..

هذا كل ماتعاه البارودي وقد روى ذلك شارح ديوانه أحد
شيوخ الأزهر الذي لازمه في آخر حياته وكان كاتب سره . والشيخ
حسين المرصفي وكان معاصرا له وأحد أصدقائه المعجبين به . ومن هذا
نرى أن ثقافة البارودي كانت ثقافة شعرية لا غير وكل معلوماته كانت
لا تتعدى حفظ أشعار العرب ومعرفة أسرار بلاغتها : مع ذلك فقد
بلغ شأوا المتقدمين وبذكثيرا منهم
البيئة وأثرها :

ولكن البارودي تعلم كثيرا من البيئة التي عاش فيها وقرأ في
صحف الحياة مالميس في الكتب وأملت عليه الحوادث مالا تمليه عقول
الرجال ، وكان ذكي الفؤاد بطبعه فتعلم كثيرا مما شاهدته وسمعه ورآه

مع هذا فكان البارودي ميالا إلى معرفة اللغات وإلى آداب الأمم الأخرى كما أشار إلى ذلك الشيخ حسين الرصافي فيما سبق إذ قال : « ثم استقل بقراءة دوواين مشاهير العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منهم بدون كلفة » وكان أقرب اللغات إليه وأحبها بعد العربية اللغة التركية لغة آبائه وأجداده فسافر إلى القسطنطينية وانتظم في سلك الموظفين هناك وتعلم اللغة التركية وأتقنها حتى صار كاتبا وشاعرا فيها . ويقولون أن له في ذلك شعرا ونثرا يعد من الكلام البليغ . وتعلم مع ذلك اللغة الفارسية وحذقها أيضا ونظم فيها قصائد بليغة .

وقد بقي البارودي في الاستانة إلى سنة ١٢٧٩ من الهجرة ثم رجع إلى مصر مع الخديوي اسماعيل وبعد ذلك انتظم في خدمة الجيش فأُسندت إليه رتبة بكباشي وقيادة فرقتي الفرسان (السوارى) ثم سافر إلى فرنسا مع بعض زملائه الضباط لمشاهدة عرض التدريب العسكري الذي كان يقام هناك كل سنة وسافر من باريس إلى لندن للاطلاع على نظام الجيش الإنجليزي وعدد القتال هناك وأسأحته ثم رجع إلى مصر وقد عرف نظم الجيش في فرنسا وإنجلترا .

ارتقاؤه المناصب :

وما زال يرتقى إلى المناصب العسكرية حتى نال رتبة « أميرالاي » وقيادة الحرس الخاص وعندما خرجت جزيرة أقریطش (كريت) على الدولة العثمانية أرسل على رأس جيش لمحاربة هؤلاء الخارجين ، ويقولون انه أظهر هناك من ضروب الحيل والمقاتلة ما بهر الأعداء ، وأنال جيشه النصر والظفر . وفي هذه المواقع قال قصيدته الشهيرة :

أخذ الكري بمعاقد الأجنافان وهما السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربا بجران
لا تستبين العين في ظلمائه إلا اشتعال أسنة المران
إلى أن قال :

والخيل واقفة على أرسائها لطراد يوم كريمة ورهان
وضعو السلاح إلى الصباح وأقبلوا يتكلمون بالسب النيران
حتى إذا ما أصبح أسفر وارتمت عيناي بين ربا وبين مجاني
فاذا الجبال أسنة وإذا الوها دأعنة والماء أحمر قان
وبعد أن رجع من هذه الحرب دخل في حاشية الخديوى اسماعيل
حارسا (ياورا) ولما صار توفيق باشا وارثا للحكم في مصر عين البارودى
رئيس الحرس (الياوران) ثم كاتب السر الخاص للخديوى اسماعيل .
وقد أرسل بعد ذلك مرات لمساعدة الدولة العثمانية في حروبها مع
لهرسك والبلقان والجبل الأسود . كما أرسل سنة ١٢٩٤ من الهجرة
مساعدة جيش السلطان في حربه مع الروس . وكان في كل هذه الحروب
مثال الشجاعة وشدة البأس وسداد الرأى وحسن التدبير والقائد البطل الجعد
قد حاز أرقى القاب الشرف العسكرية . ثم عين بعد ذلك مديرا للشرقية
م حاكما لمدينة القاهرة (رئيس ضبطينية القاهرة) فأقام في أثناء ذلك العدل
ضبط الأمور وأصلح مفاصل الأخلاق من ظلم ورشوة ، وكانت في ذلك
وقت مراجل الحق تغل في طبقات الناس ونيران الشرور تندلع اندلاعا
ولما خرج الخديوى اسماعيل من مصر سنة ١٢٩٦ هجرية . وأصبح
رفيق باشا حاكم وادى النيل قلد البارودى وزارة الأوقاف . فأقام أودها

ونظم أعمالها وفي سنة ١٢٩٧ من الهجرة . عين وزير الالجهادية (الحربية) على أثر الاضطراب الذى حدث فى الجيش ثم أعتزل مركزه هذا ثم رجع يتقلب فى مناصب الوزارة حتى عين رئيسا للنظار (الوزارة) سنة ١٢٩٩ وبقى بها إلى أن كثرت الدسائس فهجر تلك المناصب ولزم بيته إلى أن قامت الثورة العراقية فالتجأوا اليه للاستعانة به وقد نصح بغير ما رأى عراقى وأشياءه فى محاربة الانجليز ولكنه رأى من الواجب عليه مساعدة أمته ووطنه فاشترك مع القائمين بالثورة . ثم كانت الكارثة الكبرى فى هزيمة المصريين فقال فى ذلك .

نصحت قومي وقلت الحرب مفاجئة	وربما تاح أمر غير مطنون
نخالفوني وشبوها مكابرة	وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأني الأمور على ما ليس فى خلد	ونخطيء الظن فى بعض الاحايين
حتى إذا لم يعد فى الامر منزعة	وأصبح الشر أمرا غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمي ومن شيعي	صدق الولاء وتحقيق الاظانين

نفيه :

ثم أسر بعد ذلك وأرسل الى ميلان بالهند وبقى هناك سبعة عشر عاما فقد فى آخرها بصره وزوجه وأولاده وكثيرا من أصدقائه وقد كان لهذا للنفي أثر عظيم فى حياته ألهمه آيات بينات فى شعره وعبراً وحكما فى كلامه . وفى آخر الأمر عفى عنه الخديوى عباس الثانى فرجع الى مصر من منفاه سنة ١٣١٨ هجرية . ومازال كعبة الادباء إلى أن توفى سنة ١٣٢٨ .

شعر البارودي

لا نكاد نجد عصرًا من عصور الأدب انحطت فيه مدح الشعراء
مثل العصر الذي أدركه البارودي في صباه . فقد كان الشعر صناعة
ومحاكاة للقدماء . بل كان صناعة ضعيفة ومحاكاة ناقصة وصورة مشوهة
لن تقدم من الشعراء . وكانت هذه حال الشعر منذ العصر التركي وقبله
أى منذ القرن الثامن الهجرى حيث سادت الصناعة اللفظية المتكلفة
وصار الشعر تقليدا واختلاقا وكذبا فى ضروب الغزل وتملقا فى المدح
وسرقة واغتصابا فى جميع الأغراض والمعانى . وصار الشعراء يعبثون
بالألفاظ ولا يبالون بما يقولون وأنحط الشعر عند كثير منهم إلى أن
أصبح ضربا من الوزن لا غير ليس فيه روح الشعر الصحيح ولا جمال
الافتنان اللذان هما عماد بلاغة القول لدى الشعراء . وقد كان أقطاب
شعراء العصر الذى عاش فيه البارودي أمثال السيد اسماعيل الخشاب
(توفى سنة ١٣٢٠) والشيخ حسن العطار (توفى سنة ١٢٥٠) والسيد
الدرويش (توفى سنة ١٢٧٠) ومحمد صفوت الساعاتى (توفى ١٢٩٩)
وغيرهم ممن لا يحسب شعرهم من الشعر الجيد فى شئ كما جاء فى قصيدة
للسيد صالح مجدى بك (توفى سنة ١٢٨٩) يمدح بها حسين باشا نحرى
ناظر الاشغال والمعارف والاقواف حيث قال

لجنابك العالى ثلاث مصالح	نظمت بسمطى عسجد ولجين
وأضياء منك جبينها برياسه	أعمالها منشورة العامين
ونمت بها بركات أوقاف روت	مصر او قد فاضت على الحرمين
وبحزمك الاشغال زاد نجاحها	ونجازها فى السهل والجبلين

وبديع نظم كامل في كامل من مخلص بالقلب والشفقتين
من مخلص لك في الثناء بدولة أصبحت فيها حائز الشرفين
وقد يكون من جيد الشعر إذ ذاك قول عبدالله باشا فكري
يشكر الخديوي، توفيق على العفو عنه أثر الحوادث العرايية
حيث قال

مليكي ومولاى العزيز وسيدى ومن ارتجى آلاء معروفه العمرا
فقد جاءوا بنا زوروا ثوبوا زوروا زوروا
فما كان لي في الشر باع ولا يد ولا كنت من يبغي مدى عمره الشرا
فعفوا أبا العباس لازلت قادرا على الأمر أن العفو من قادر أخرى
هكذا كانت جمهرة الشعراء في هذا العصر وهكذا كان جل
الشعر على هذا النحو من الضعف

فلما ظهر البارودي في حلبة الشعراء بعث روح الشعر العباسي
من مرقده وأحيا لنا روعة شعر أبي نواس، والبحتري، ومسلم بن الوليد
والشريف الرضي، والمتنبي، وأبي العلاء المعري وأمثال هؤلاء الفحول
بحاكتهم والسير على سنتهم وجاء بالجزالة والرصانة في المعنى والاسلوب
وأسكت شعراء عصره وكانت روحه روح شاعر مفطور على فهم
الشعر الفنى البليغ وأدراك فنونه فاقتبس من فحول الشعراء خير معانيهم
وأجملها وأعاد لنا العصر العباسي بصناعاته الجميلة وبلاغته الرائعة إذ كان
يفهم الشعر لا كما يفهم غيره من شعراء عصره بانه نظم وصناعة بل
قال في مقدمة ديوانه :

« وبعد فان الشعر لعبة خيالية يتألق وميضها في سماء الفكر

فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلاءؤها نورا يتصل خيطه
بأسلة اللسان فينفث بالوان من الحكمة ينباج بها الحالك ويهتدى بدليلها
السالك وخير الكلام ما اتلفت ألفاظه وأتلفت معانيه وكان قريب
المأخذ بعيد المرئى ، سليما من وصمة التكلف بريئا من عشوة التعسف
غنيا عن مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد »

هكذا كان البارودى يفهم الشعر . فلم يقل الشعر محاكاة لا غير
أو من باب التسلية أو اظهار للبراعة أو رغبة فى الحصول على عطاء أو
شهرة وإنما كانت تمتلىء نفسه بالمعاني والأغراض وتملى عليه الحوادث
فينظمها كما قال هو عن نفسه :

« لقد كنت فى ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج
به لهج الحمام بهديله وآنس به أنس العديل بعديله . لا تذرعاً إلى وجه
أنتويه ولا تطلعا إلى غم أحتويه . وإنما هى أغراض حركتنى وإباء
جميع بى وغرام سال على قلبى فلم أتمالك أن أهبت فحركت به جرسى
أو هتفت فسريت به عن نفس

تكست كالماضين قبلى بما جرت به عادة الانسان أن يتكلم
فلا يعتمدنى بالأساءة غافل فلا بد لابن الأيكة أن يترنما »
فكان شعره صادقا منبعثا من قرارة نفسه ومن عواطفه وإحساسه
وصورة لما يجول برأسه من أثر مارآه وشاهده ووقع له فى شئون حياته
المختلفة . فليس هو شاعرا خياليا ولا هو ممن يصورون مظاهر الطبيعة
وجمالها إظهارا لبراعته وافتنانه ولا من الشعراء الذين يستمدون الشعر
وأخيلته من أحلامهم اللذيذة وأهوائهم النفسية وميولهم الفنية لا غير

أما البواعث التي بعثته على قول الشعر والصفات العامة لشعره ونواحيه فهي كثيرة منها تربيته تربية أبناء الأشراف (أو البيضة الارستقراطية) التي طاش فيها فقد أثرت هذه التربية في نفسه حتى جعلته يشعر بالعزة والكرامة أكثر من كل شيء . فكان نبيلاً في كلامه كما كان نبيلاً في أصله وخلقه وصار يتغنى بهذه النبالة في شعره في غير ماموضع ويذكر أنفته من الناس واستغناءه عنهم في شيء من الكبر والعظمة وكرامة النفس مما لا يعرف عند كثير من الشعراء فيقول

خلقت عيوا لا أرى لابن حرة على يدا أغضى لها حين يغضب
او يقول :

وإني امرؤ لولا العوائق أذعنت	لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم	لها في حواشي كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه	تفرعت الأفلاك والتفت الدهر
لهم عمود مرفوعة ومعاقل	وألوية حمر وأفنية خضر
ونار لها في كل شرق ومغرب	لمدرع الظلماء السنة حمر
تمد يدا نحو السماء خضيبه	تصاخها الشعري ويلثمها الغفر
وخيل يعم الخافقين صهيلها	نزائع معقود بأعرافها النصر
معودة قطع الفيافي كأنها	خدافية فتحاء ليس لها وكر
أقاموا زماناً ثم بدد شملهم	ملول من الأيام شيمته الغدر
فلم يبق منهم غير آثار نعمة	تضوع بريها الأحاديث والذكر
وقد تنطق الآثار وهي صوامت	ويثني برياه على الواابل الزهر
لعمرك ما حي وإن طال سيرة	يعد طليقا والمنون له أسر

ولقد تحمله كرامته على أن يثب وثبة الأسد في وجه من يغضب منه ولا يبالي بماذا عسى أن يكون من قطيعة ولا غضب . وتعالو نفسه إلى السماك فيهبج ويثور ويجاهر بالعداء ولا يقبل ودا بعد غدرو ويتهدد ويتوعد ويستتهين بنده وكأنما ترى الحماة تقذف بالموت في كلامه وكأنك تسمع في شعره زئير الأسد أو تراه أمامك سالا سيفه متحفزا للوثوب ، أو كأنك تسمع صوته ، وترى حركاته ، ولـكن كل ذلك في عفة لسان ، ونبالة نفس ، وفي أدب العظماء إذ يقول : —

أتخفر ذمتي وتروم عطفي	لقد منتك نفسك بالكذاب
فما بعد القطيعة من تلاق	ولا بعد الخديعة من عتاب
وكيف يصح بعد الغدر ود	وتسلم نية بعد ارتياب
رويدك إنني صعب أبي	على الأقران مرهوب الجناح
أجاهر بالعداء ولا أبالي	وأنطق بالصواب ولا أحابي
فما زندي لدى العوصاء كاب	ولا سيفي غداة الحرب ناب
يهاب القرن بادرني فيمضي	وما جردت سيفي من قراب
فان رمت السلامة فاجتنبني	عدوا فالسلامة في اجتنابي
فقد عادت أعظم منك قدرا	وما ضاقت على بدني ثيابي
فان تنزع فأنت طابق عفوى	وان تطمع فسوف ترى عقابي

ويظهر أن هذه النبالة النفسية وكرم المحتد كثيرا ما كانا يستوليان على عقله وشعوره فيتغنى بهما . ولعله كان يريد بذلك أن يدفع عن نفسه ما علق بها من شرور الأيام أو ما أصابه من جراء حياته السياسية ومن مميزات نخره أنك إذا قرأته أعجبتك منه روح الشاعر ورأيت أن

شعره ليس من باب العظمة والكبرياء ولا العجب بالنفس وإنما هو تنفس
وأنين ونقمة على الحوادث والأيام وتبرأ من الدنيا وإشعار بالهمة
والكرامة أو هو صورة من نفس الشاعر الكبيرة المتألمة الفخورة
بالفضائل لهذا تحب أن تقرأ شعره وتشعر بميل إلى الشاعر نفسه
لأنك ترى فيه مع ذلك نفساً طروبة عظيمة طيبة كريمة نبيلة
استمع إليه يقول :

فأيس من أغوى كمن أرشدا	فأقبل وصاتى واستمع حكى
ومسمع يطربنى منشدا	إنى وإن كنت أخا صبيوة
وأهبط الأرض عليها الندى	فقد أزور الليث فى غابه
أصدع إلا البطل الأثميذا	وأصدع الخضم وما خلتنى
لكنه يعضى إذا سدا	« بلهزم » ليست له صعدة
ولم يزل فى جفنه مغمدا	أو « صارم » يقرى نياط الكلى
لا يعرف الصيقل والمبردا	ماضى العزارين ولا كنه
إلى امرئ غير يد أقصدا	أو « مشقص » أن فوق نصله
يشوق إن هينم أو غردا	أو « طائر » فى وكره جاثم
فيه وبابا دونه مؤصدا	لم بعد كنا لم يزل ساكنا
يوم نضال صمدع الجامدا	قد لان إلا أنه ان قسا
يجول فى مسكنه سرمدا	معتقل لكن مطلق
ويعرف الأصلح والأفسدا	يحكم بالذوق على ما يرى
تنقل عنه نبرات الصدى	له صحاب قد أحاطت به

فهو بها مجتمع شمله ان أصدر القول بها أوردنا
مشتبهات الرصف في جودة تبارك الله الذي جودنا
يبيت منها وهو ذو مرة في رصف من أولو نضدا
ذاك « لسانى وهو حسبي إذا ما أبوق الحاسد أو أرعدا
أثر النفي في شعره :

وقد كان للحوادث التي حدثت بمصر ونفى من أجلها البارودي
أثر عظيم في نفسه كما كان لتربيته تربية النبلاء ذلك الأثر الذي رأيناه
ودفعه الى الفخر باخلاقه النفسية وآدابه العالية فان خروجه من بلاده
فتح أمامه باباً للشكوى مما أصابه من عنت وظلم دفعه إلى الحنين إلى
وطنه وألمه كثيراً من المعاني والاختلة الشعرية فكانت قصائده في
هذا الباب من أجزل المعاني وأبلغ ما تكون بلاغة وأبرع ما يكون افتتان
فقد تجده يذكر أيامه الماضية ويصور حاله وما كان فيه من عزة
وكرامة ورفعة شأن وجاه عظيم ، ويبسط أمامك تلك المجالس والمحافل
التي كان فيها العلم للفرد ، وتجد مع هذه الصور التاريخية الاجتماعية
صوراً متعددة لنفسه الكبيرة العزيزة بماضيها الذليلة في حاضرها .
وبينما تجده يحمق في قمة مجده وعلاه ، يزهو بما رآه ويفخر بماضيه يجده
متأثراً بما نزل به من الحوادث ، ولكنك لا تجده أبداً يصور نفسه في
ذلة أو حقارة بل يتحدث فقط عما نزل به ظمًا وعموانًا وهو يستسلم
للآلام ويعجب من الاقدار فيكشف عن نفس بائسة يائسة حتى يظن
لأول وهلة أنها فقدت عزتها أو تناست كرامتها فقضت لما وقع بها
ولكن قوة نخره بنفسه وشيئه تذهب بهذا الظن وتضمحل

أمامها الحوادث التي نزلت به حتى كأنها لم تكن وكأنه فارس واقع في ميدان القتال يحارب الاقدار ويريد أن يتغلب عليها . وهذه أنة من حنينه وشكواه في ذلك

ياحبذا جرعة من ماء محنية وضجعة فوق برد الرمل بالقاع
ونسمة كشميم الخلد قد حملت ريا الأزهير من ميث واضراع
ياهل أراني بذاك الحى مجتمعا بأهل ودى من قومي وأشياعى
وهل أسوق جوادى للطراد إلى صيد الجأذرى خضراء ممراع
منازل كنت منها فى بلهينة ممتعا بين غلمانى وأنباعى
إذا أشرت لهم فى حاجة بدعوا قضاءها قبل أن يرتد الماعى
يخشى البليغ لسانى قبل بادرى ويرعد الحيش باسمى قبل ايقاعى
ولقد تجده يصور لك هذه الذكريات وماكان بها من لهو ومجون
وسرور مما يدل على امتلاء نفسه وبذكرياته من صور الماضى من بؤس
ونعيم وكأنه كان يتسلى بذلك عما هو فيه من أهوال وابتئاس وحنين
على أيامه الماضية .

فتجده يسعد أحيانا بتلك الذكريات التي مرت به ومربها وتلك
الأيام التي عاش في محبوبتها وتمتع بلذاتها وذاق حلوها وثمل بنشوتها
وأوقاتها وكأنها نعيم مقيم أو سعادة أبدية .

فيعرض عليك مجالس الشرب وصور الشاربين وهم كالكوكب
مناء وسنا يتسابقون إلى المدام .

فى أباريق كالطيورا شرأبت حذر الفتك من صياح البزاة
ويينهم المفتى المطرب الساحر بصوته ونغماته التي تنسى الانسان

آلام الحياة وتملؤه فرحاً وسروراً . وهو يرى أن هذه الأوقات هي
لذة العيش وملاك السعادة .

وأحيانا تسمح خلال تغنيه لسعادته الماضية نبرات آلامه ورنات
بؤسه وندمه على مضى هذه الأيام وقنائها وانغماسه الآن في البؤس وهو
تتناوبه ذكريات الماضي وشقاؤه الحاضر وتلاعب به الأيام لعب النكباء
بالعود فيقول :

أدر الكأس يانديم وهات	وأسقنيها على جبين الغداة
شاق سمعى الغنا فى رونق الفج	ر وسجغ الطيور فى العذبات
أى شىء أشهى إلى النفس من كا	س مدار على بساط نبات
هو يوم تعطرت طرفاه	بشمال مسكية النفحات
باسم الزهر عاطر النشر هام الـ	قطر وإنى الصبا عليل المهابة
مسرح للعيون يمتد فيه	نفس الريح بين ماض وآت

ويذمما هو يمرح فى تلك الذكريات الماضية ينبعث فى نفسه حنين
إلى مصر والنيل صادرا من قلب مكوم ونفس ملأته الحسرة ولكنه
حنين يدل على حبه الصادق لبلاده مما فى نفسه من تلك الصور الجميلة
تى تمر بذاكراته فىرسلها صورة صورة ويزيدها جمالا بخياله الجميل ويتغنى
بها أغاني جميلة مشجية ويذكر أن الرجوع إلى وطنه أعظم أمنية له
فيقول :

وتدرج معى إلى روضة المنى	ل ذات النخيل والثمرات
هى مرعى الهوى ومغنى التصايبى	ومراح المنى ومسرى الحياة
لقتها النفوس فهى إليها	من أليم الاثواق بالحسرات

تبعث اللهو والسرور وتمحو بين زيمان كالسكر كبح حسنا يتساقون بالسكر ووس مداما في أباريق كالطيورا شرأبت حانيات على السكر ووس من الرأ لا ترى العين بينهم غير صب ومغن إذا شدا خلت أن الأ ملك السمع والفؤاد بلحن يبعث الصوت مرسلا فاذا ما غرد يبطل الحديث وينسى تلك والله لذة العيش لا سو وقد يبكي في شعره على أيامه الماضية وهو في منفاه فيقول :

أبيت حزينا في سر نديب ساهرا أحاول مالا أستطيع طلابه إذا خطرت من نحو حلوان نسمة وهيئات ما بعد الشيبية موسم شباب واخوان رزئت ودادم وما كنت أخشى أن أعيش بغربة وشعره في منفاه كثير يدل على ثوران نفسه وفورتها التي بعثت فيه قول الشعر وكانت من أسباب افتنانه وسعة خياله والكلام على شعره بقية

